

منصف المرزوقي

الرّحلة

مذكرات أدمي

دار منوال للنشر
PARADIGME EDITIONS



منصف المرزوقي

الرحلة

مذكرات آدمي

صدر للمؤلف

الكتابات الطبية

- المدخل إلى الطب المندمج: الدار التونسية للنشر ومؤسسة البحث العلمي -1995-
- دليل المرَبّي في التنقيف الصحّي: الدار الجزائرية للنشر 1986
- سلسلة كتب التنقيف الصحي-الدار العربية- تونس 1984
- تاريخ الطب للأطفال-دار أليف للنشر-تونس 1982

الكتابات السياسية

- لماذا ستطأ الأقدام العربية أرض المرَبّيخ: دار الرأي -تونس 1982
- دع وطني يستيقظ: دار المغرب العربي -تونس سنة 1986
- الاستقلال الثاني-دار الكنوز الأدبية. بيروت 1996
- هل نحن أهل للديمقراطية؟ - دار الأهالي -دمشق 2001
- من الخراب إلى التأسيس -المركز المغاربي -لندن 2003
- عن أية ديمقراطية نتحدثون؟ - دار الأهالي -دمشق 2004
- حتى يكون للأمة مكان في هذا الزمان - دار الأهالي دمشق -2006
- إنها الثورة يا مولاي - الدار المتوسطية - تونس 2011
- اختراع الديمقراطية - التجربة التونسية-شركة المطبوعات للنشر-بيروت 2014
- ننتصر أو ننتصر -من أجل الربيع العربي-الدار المتوسطية - تونس 2014
- المراجعات والبدائل: المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسية -الدوحة 2022
- أي مستقبل للديمقراطية ؟ : دار منوال للنشر -2024

الكتابات الفكرية والأدبية

- في سجن العقل -أقواس - تونس 1990-
- حقوق الإنسان، الرؤية الجديدة -مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان - القاهرة 1996
- الإنسان الحرام - قراءة في الإعلان العالمي لتحقيق الإنسان-دمشق 2003
- الطبيب والموت-الدار التونسية للنشر. تونس 1983
- الرحلة-طبعة دار الأهالي -دمشق 2002-، 2010، طبعة الدار المتوسطية تونس سنة 2015
- شعراء بلا حدود: دار منوال، تونس 2018

- **L'arrache corps** : Essai sur l'expérimentation humaine en médecine - Ed Alternatives. Paris 1979, Traduction espagnole : El experimentacion en el ombre. Ed jugar Madrid 1982
- **Arabes, si vous parliez** - Ed, lieu commun. Paris 1987
- **La mort apprivoisée** - Ed du méridien. Montréal 1990
- **Le mal arabe** : Ed le Harmattan - Paris 2004
- **Dictateurs en Sursis** : Ed L'atelier - Paris 2009
- **L'invention d'une démocratie** - Ed media plus - Paris 2013
- **Qu'est-ce que le pouvoir ?** Ed paradigmes - Tunis 2019

إلى حرّة، هناء، هالة، أمانة
وكل الأطفال المشاغبين

شكر وامتنان

جزيل الشكر للمريض العجوز الذي أوحى لي بفكرة هذا العمل وعنوانه.
جزيل الشكر أيضاً لكل الذين أعانوني على الإصلاحات التي لم تتوقف لحظة على امتداد
قرابة عقدين وأخص بالذكر، إسلامو ولد دلاهي ولد المعلوم.
أخيراً وليس آخراً جزيل الشكر لكل قارئ يشرفني بقراءة هذا العمل و أمني أن يكون قد
وجد فيه بعضاً مما نفتح كأننا من أجله الكتب.

الفهرس

تقديم كتاب الرحلة

الكتاب الأول: الإحرام

الكتاب الثاني: العالم

الكتاب الثالث: الطريق

الكتاب الرابع: بنو سفر

الكتاب الخامس: المهمة

الكتاب السادس: الغريب

الكتاب السابع: الرؤيا

تقديم

في شهر يوليو 1994 خرجت من السجن لأجد نفسي محاصرا في بيتي، محروما من السفر قرابة خمس سنوات، شبه ممنوع من العمل في كلية طبّ سوسة التي كنت أدرّس فيها من بداية الثمانينيات والتي سيتمّ عزلي منها نهائيا سنة 2000.

قلت في نفسي ربّ ضارة نافعة. أخيرا كل الوقت للتفكير والكتابة. الكتابة نعم، لكن في أي موضوع؟ الديمقراطية، حقوق الإنسان؟ الثورة؟ مواضيع أرهقتني كثيرا وكنت أريد وضعها جانبا ولو لبعض الوقت.

المواضيع الطبية؟ بأية معطيات وقد تمّ -في إطار التنكيل الممنهج من طرف النظام الاستبدادي- حلّ قسم الطب الاجتماعي الذي كنت أراسه وأشرف فيه على أبحاث مساعدي ورسائل الدكتوراه للطلبة؟

لم يبق أمامي إلا كتابة ليست بحاجة لمعطيات وتُسبني لحظة هموم السياسة وتروّح عن النفس كربها: الرواية.

قلت لنفسي لم لا أجرّب تحديدا رواية من الخيال العلمي والسبب نهم قديم لهذا النوع من الأدب أدمنته منذ المراهقة.

أول وأصعب إشكالية: أية عقدة لروايتي هذه؟

ماذا عن نزول بعثة كائنات جدّ متطورة جاءت من مجرّة العقرب واكتشفت الأرض بعد أن دمرها البشر وانقرضوا؟

فكرة مبتدئين استنفدت من قبل ما لا يحصى ولا يعدّ من صغار وكبار كتّاب الميدان. إذن لأجعل المستكشفين يسقطون على النصّ الذي سأترك ليعطيهم فكرة عن الكائنات التي سكنت هذا الكوكب وعن ظروف وأسباب انقراضها. تطوّر إيجابي لكنه غير كافٍ لرواية تمشي بذكرها الركبان.

ماذا لو جعلت من المستكشفين القادمين من وراء أبعد مجرات الفضاء تجار آثار مهنتهم اكتشاف العوالم المندثرة لإحيائها وبيعها لأثرياء مجرّاتهم كما يفعل بعض أغنياء البشر عندما يشترون الآثار المهربة لترتيب حدائقهم الفاخرة؟

لأجعلهم يجدون في نصّي كل المطلوب لإعادة إحياء العالم الذي عبّرت، ولم لا لبعثي معه حيا أرزق من جديد.

هل يمكن لأحد المزايدة عليّ وقد تجاوزت بهذه الفكرة كل الخطوط الحمر للعلم والدين؟ المشكلة أن هؤلاء التجار-العلماء بأمسّ الحاجة إلى أقصى قدر من المعلومات وأدقّها حتى لا أكون سببا في خلق عالم ممسوخ يشقى فيه البشر أكثر مما تعدّبوا في النموذج الأصلي.

ثم كيف جمع المعطيات الضرورية وأغلبها مبعثرة في فوضى رهيبة داخل ذاكرة مثل مكتبة تكدّست فيها على مرّ السنين والعقود آلاف الكتب والمجلات والأوراق والصور والأقراص المعدنية ولا وقت أبدا لتنظيمها؟

أضف لهذا أنه لكي تكون لمعطياتي قيمة تسمح بنجاح المشروع، يجب أن أكون أنا نفسي فاهما طبيعة وقوانين العالم المراد بعثه والحال أنني كلما زدت بها علما إلا وداهمني الدوار وأنا أدرك كم أنا بها جاهل.

شيئا فشيئا تراجع فكرة كتابة رواية من الخيال العلمي ليتمّ التخلي عنها نهائيا في هذه الطبعة والطموح ينحصر في تفحص ما تراكم داخل ذاكرتي من أحداث شكّلت قصة حياتي لعل شيئا من المعنى ينبثق منها ليفسّر-قل ليبرّ-سبب وجودي.

النص إذن سيرة ذاتية؟

من أين لي إنكار أن أغلب معطياته مستمدة من تجربتي الشخصية وأن مشاعر الراوي وأفكاره هي أغلب الوقت مشاعري وأفكاري؟

لكن السير الذاتية تدّعي دوما أنها تروي الأحداث كما حصلت فعلا وهو ما لا ادّعي البتّة. أذكر حقّا أنني كنت عاكفا على لوح في الكتاب وأنا لم أتجاوز الخامسة، أعبت برسم أشكال جديدة للحروف التي بدأت أتعلّمها فصرخ في وجهي المؤدّب بشدة لألتزم بكتابة حروفه هو لا حروفي أنا. لكن، هل كنتُ فعلا أبحث عن تجديد أبجدية لغة الضاد أم أنني كنت ألهو ككل طفل في ذلك العمر؟

أذكر كذلك أنني كنت ألعّب لعبة المعلم مع والدتي القنّها الحروف التي اتعلّمها في الكتاب. لكن، هل كان الأمر للهو أم بطلب منها لتتعلّم قراءة المصحف لأنها لم تدخل يوما مدرسة؟ أذكر جيّدا أنها قالت لي يوما ضاحكة إنني كدت أصنّف متخلفا ذهنيا عند دخولي المدرسة الابتدائية، قبل اكتشاف ضنّع بصري وأن والدي غضب غضبا شديدا لما علم بالقصة. لكن هل صحيح أن المعلم نصح والدتي بأخذي لتعلّم رعي الخرفان عند أخوالي أورعي البعير عند أعمامي أم أن خيالي أعاد صياغة القصة برمتها؟

لم لا، فالذاكرة ليست خزّانة تتراكم فيها ملفّات يجمّدها الزمان ويمحوها النسيان. هي تنظيم مستمر، يعالج به الفكر والخيال ملفّات الماضي معيدا قراءتها مضميا عليها معانٍ جديدة عليها.

أليس هذه حال كل السير الذاتية التي يكتبها أصحابها والتي يكتبها المؤرخون لعلياء القوم، والكل يتبارى في إنكار ما لا ضرورة لإنكاره، أي أن حياتنا، كما نعيشها وكما نرويها، مصنوعة بنفس القدر من الواقع ومن الخيال؟

من تقاليد كتابات السيرة الذاتية أيضا تحديد أماكن الأحداث التي يرويها الكاتب، خاصة احترام تسلسلها الزمني.

كل هذا غائب في نص هدفه التمعّن في مراحل مفصلية من حياة الراوي لا رواية سلسلة أحداث تنطلق من الطفولة إلى الشيخوخة.

النص إذن ليس سيرة ذاتية بالمعنى المتعارف عليه، لكن هل فيه ما يجعل منه رواية أدبية؟ حقا توجد فيه جَلّ العناصر المطلوبة في كل رواية أكانت اسطورة مقدسة أو قصة بوليسية. هناك بطل وهو مزيج من الأنا ومن شخص خيالي.

هناك عقدة هي في قضية الحال بحث الراوي عن هدف رحلته في هذا العالم وهناك بعد الوصف المطول لكل ما عانى البطل من آلام وعرف من مصاعب خاتمة بل وسعيدة أيضا. لرسم صور أبطال الرواية عرفت كما يفعل كل الكتاب من بعض من عرفث وعاشرت من البشر، لكنني عرفت أيضا من خيالي ومن شخصيات أبطال كبرى الروايات العربية والعالمية التي طبعتني بطابع لا يمحي.

يبقى أنه من الصعب رغم كل هذا تصنيف ما ستقرأ رواية. القاسم المشترك بين هذه الأخيرة والسيرة الذاتية أنه من النادر أن يكون هاجس الكاتب المسائل الفلسفية الكبرى التي سماها دستوفسكي الأسئلة اللعينة.

إنها إشكاليات إما غائبة تماما أو يقع التعرض إليها عرضا وتلميحا. كيف لا وهي في التقسيم المصطنع الذي اختلقناه للتفريق بين ميادين الفكر من مشمولات كتب الفلسفة (الموقوفة كتابة وقراءة على النخب) أو من مشمولات الدين (الشكل الأدبي والشعبي لهذه الفلسفة). لذلك لا مجال في السيرة الذاتية والرواية للتظير الفلسفي إلا بصفة عرضية وبتقدير شديد.

حتى دستوفسكي المعروف بكثرة استطراداته الفلسفية في كبرى أعماله الأدبية كان يحترم هذه القاعدة العكس تماما هو ما يفعله أو -بالنسبة إلى البعض- ما يرتكبه النص.

هو من البداية إلى النهاية تفكير في هذه الأسئلة التي أخرجها إيليا أبو ماضي في طلامه الشهيرة. بل ويمكن لناقد أن يذهب إلى أبعد من هذا وأن يقرر -غير بعيد عن الحقيقة- أن النص بمجمله تأمل في هذه الطلام وكل الأحداث التي يرويها الراوي لا هدف لها إلا إثبات آرائه بخصوصها.

"الرحلة" إذن أطروحة فلسفية؟ طبعاً لا .

شكلاً حافظَ النص في جزء منه على روح السيرة الذاتية وفي جزء آخر على بعض مكونات الرواية وكل هذا غير وارد في النصوص الفلسفية "الجديّة".

مضمونا هو ليس ردّاً على آراء فلسفية لهذا الفيلسوف أو ذاك وليس محاولة للتسويق لنظرية جديدة استناداً لكمّ هائل من الاستشهادات والمراجع لإبهار القارئ بسعة الاطلاع. هو فقط جملة من التصورات لفيلسوف عصامي أو هاوي .

إذن ما هذا النصّ الذي تتواجد داخله بنسب متفاوتة مواد السيرة الذاتية والرواية والتصورات الفلسفية؟ ما هذا النص الذي يرفض وضع الحواجز بين الواقع والخيال، بين الذاتي والموضوعي، بين الجدّ والهزل، بين سفاسف المشاغل الفردية والتفكير في القوانين العامة التي تسيّر الكون؟

صراحة لا أعرف كيف سيصنّفه النقاد والقراء.

خاصية أخيرة لهذا النص. هو متواصل الكتابة منذ أكثر من ربع قرن. كنتُ أعتَم كل الفرص بين اجتماعين، بين سفرتين، بين أزمتين سياسيتين-للاختلاء به حذفًا وإضافة وإعادة تبويب الفصول ولا مُعين إلا القهوة وموسيقى باخ. نتيجة الانقلاب الذي حصل في تونس صيف 2021 والحكم عليّ غيابًا مرتين بسنوات سجن عديدة ، ها انا من جديد في المنفى ولي كل الوقت لمراجعة الطبقات السابقة التي صدرت ورقيا في دمشق سنة 2002 و2010 ثم في تونس سنة 2014 والتي تغيّرت لا يحصى من المرات في الصيغ الالكترونية.

أسباب هذه الكتابة التي لا تتوقف؟

هناك طبع صاحبيكم من عدم الرضا عن كل ما يكتب، يلاحق ناشرا متزايد نفاذ الصير حتى والكتاب في المطبعة. لا شك ان سهولة الإضافة والحذف والتصنيف التي تسمح بها التكنولوجيا الحديثة عنصر مسهّل ومغري لم يكن في متناول طه حسين وهو يملي كتاب "الأيام" ، وليس لمستكتبه إلا الورق والقلم والمحيرة.

وأیضا لأن الحياة بتجاربيها المتلاحقة لا زالت متواصلة ومن ثم ضرورة مواكبة النص لموضوعه إلى نهاية العمر .

كل ما أتمناه أن يجد القارئ في قراءة هذا النص بعض المتعة التي وجدتها في كتابته وخاصة أن يجد نفسه في كتاب طموحه أن يروي في المتغيّرات رحلة ذات وفي الثوابت رحلة كل ذات.

**

الكتاب الأول

الاحرام

جِئْتُ لَا أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ وَلكِنِّي أَنبِئْتُ
وَلَقَدْ أَبْصَرْتُ قُدَّامِي طَرِيقاً فَمَشَيْتُ
وَسَأَبَقِي مَا شَبَّهَ إِنِّي شِئْتُ هَذَا أُمُّ أَنبِئْتُ
كَيْفَ جِئْتُ كَيْفَ أَبْصَرْتُ طَرِيقِي
لَسْتُ أَدْرِي

إيليا أبو ماضي

مقدّمة الكتاب الأول

اللّهم أتمم هذه الرّحلة على خير.

همس العجوز الفقير بالجملة ساهماً كأنه يحاith نفسه، ثمّ تنهّد مواصلاً ارتداء أسماله على مهل وقد انتهى الفحص. كان عجوزاً قاب قوسين أو أدنى من الموت، ولم يكن لي أو له أدنى أمل في شفاء. أذكر أنّني توقّفت عن كتابة الوصفة، أنّني نظرت إليه بانتباه، أن كلمات تدافعت من أعماق الذاكرة لشاعر قرأت له أكثر من بيت في نفس المعنى، منها قوله:

وهوّن ما تلقى من البؤس أننا بنو سفر أو عابرون على جسر "المعري"
وقوله

غدوت مع الأحياء مذحان مولدي إلى اليوم ما نفكّ في دأب سفرا
وقوله:

أنا بالليالي والحوادث أخبر سفر يجدّ بنا وجسر يعبر
لم يكن المريض من النوع الذي يقرأ فما بالك لرهين المحبسين وإنما كانت صلته صدى
لصورة بالغة القدم، كثيرة التكرار تشارك فيها الأميون وكبار المفكرين والشعراء.
ألم يقلّ عمر الخيام؟

”هيا لندع غمّ غدا يا صاح
ولنغتتم العمر ببشر وهناء

إن نمض غدا فنحن في رحلتنا
والعائش بالألوف في الدرب سواء”

ألم يقلّ ابن عربي هو أيضا في نفس المعنى “الواجب على كل عاقل أن يعلم أن السفر في
الحياة الدنيا مبنيّ على المشقة والمحن والبلايا وركوب الأخطار والأهوال العظام”
الحياة رحلة وهذا العالم بكل اتساعه مجالها! لم لا؟

ألا ننزل من بين فخذي امرأة كمن ينزل من أغرب السفن التي تحفل بها قصص الخيال
العلمي؟ ألا نخرق العالم زحفا ومشيا وركضا وركوبا على ظهور دواب من لحم أو من
حديد لنغادره يوما محمولين على مركبة اسمها النعش؟ أليس أوفرنا حظا من ينهي حياته
مالنا جرابه بأكبر قدر ممكن من المشاعر والأحاسيس، عاندا إلى صمت العدم بمعنويات
السائح الذي اغتتم كل الفرص ولم تغشّه وكالة الأسفار؟
ومع هذا...

ثمة في الصورة الشائعة المغربية شيء لا يستسيغه فكري فرحلة الحياة تجارب حسية
شعورية فكرية قوامها الفعل في العالم والتفاعل معه لا مشيا على طريق يربط بين نقطة
وصول اسمها المهدي ونقطة نهاية اسمها اللحد.

حقا هذا عالم فيه ما يُستكشف تنقلا بالأقدام، لكن جلّ استكشافي له كان لقمم الفن والفكر والموسيقى والأداة الذهن لا غير.

ما المتبقي إذن من شرعية استعمال الصورة؟

لنقل إنها على نواقصها أفضل من منافساتها. أليس من الأحسن لتوازننا النفسي أن نتصوّر العالم ساحة استكشاف والحياة رحلة فيه ولو في أصعب الظروف وأخطرها بدلا من تصوّره منفى ووجودنا فيه محنة وامتحان وحتى عقوبة على جرم لم نقترفه إلا في خيال أساطير سيئة الصنع؟

وفي كل الحالات من أين لي مقاومة إغراء الصورة وقد شاءت الأقدار أن أدخل هذا العالم والادميون يتدافعون فوق الأرض وفوق السحب، على سطح البحار وفي أعماقها، يذرعونه في كل اتجاه بكيفية لم تُعرف في أيّ من العصور السابقة.

هم ليسوا وحدهم في هذه الحالة. كل الكائنات الحية في حلّ وترحال أكان رحيل قطعان الحيوانات البرية على سطح الأرض أو قطعان الحوت في أعماق المحيطات أو أسراب الفراش وقوافل الطيور في السماء.

وراء الوضع ظروف وأسباب قاهرة تفرض ارادتها على كل الكائنات.

فيخصوص البشر هم تدافعوا في الأرض ذات الطول والعرض منذ انطلاق ملحمتهم جريا وراء طريدة أو هربا من صياد.

لللرحيل وازع هامّ آخر هو التبادل: تبادل الجينات والبضائع والأفكار والعادات والتقاليد وكل ما ينتشرك فيه ويجعل منا بشرا بالخصال وبالعيوب التي نعرف.

ثمّة أيضا واعز الحجّ لأماكن اصطفاها الأدميون لموعد مع المقدّس ناهيك عن كونها الأماكن الوحيدة المنزوعة السلاح على الأقلّ طيلة أداء الطقوس.

قد يكون أهم سبب الفضول وهو أفضل خاصية عند الأدميين: الفضول

تنتشر الإشاعة كالنار في الهشيم في مخيمات الرّواد المبعثرة على سطح الأرض: يقال إن هناك وراء هذا المكان الذي ولدنا فيه جبال تلامس قممها السحاب! يقال إن هناك وراء

هذه الجبال بحر لا تعرف له ضفاف! يقال إن هناك في قارة أخرى غابات لا تدخلها أشعة الشمس! يقال إن هناك داخل هذه الغابات خانقة كائنات أغرب من كل ما ينسج الخيال!

يقال إن هناك على ضفاف نهر أبلى الزمان جبال من حجر صنعها بشر لا أحد يعرف آية آلهة علّمهم صنع الجبال! يقال إن هناك على حدود العالم المعروف جدار يمتدّ آلاف

الكيلومترات بناه قوم لا يضاھيهم بشر في التوحّش والتحصّر! يقال إن هناك وراء هذه الصحاري أو تلك بشر يشبهوننا ولا يشبهوننا وهم أغرب ما في هذا العالم الغريب!

لا غرابة أن اقضّي العمر في الحلّ والترحال ولنفس الأسباب القاهرة.

هكذا تدافعت مع المتدافعين، مغامرا، طالب علم، سائحا، حاجّا، لاجئا، أشدّ الرحال إلى كلّ فيح عميق اسمع عنه أو تدفّني إليه الظروف القاهرة... ونصيحة الشاعر دوما في الوجدان:

سافر تجد عوضا عن تفارقه واتعب فإن لذيت العيش في التعب "الشافعي"

إني رأيت وقوف الماء يفسده
والشمس لو وقفت في الجو دائمة
والأسد لولا فراق الغاب ما افترست
والتبر كالترب ملقى في معادنه
إن ساح طاب وإن لم يجز لم يطب
لملأها الناس من عرب ومن عجم
والسهم لولا فراق القوس لم يصب
والعود في أرضه نوع من الحطب

كم شاهدت من صحارٍ وجبالٍ وغاباتٍ وسهولٍ يكحل جمالها عيون المسافرين المنبهرين!
كم لاقيت على الطريق من كانناتٍ تتبارى غرابيةً واعجازاً ... التي تزحف على البطن،
التي تطير في السماء، التي تغوص في أعماق الماء، التي تمشي على أربعة أو على
طرفين، وأغربها على الإطلاق الكائنات التي تسمى البشر.

كم توقفت عند آثار رائعة كدسها هؤلاء البشر على طول هذا الطريق!
كل يوم جديد والذهن منبهر أمام طفرة اللامتناهي صغراً واللامتناهي كبراً واللامتناهي
تعقيداً، أمام عالم يفيض بما لا يحصى من أسرارٍ تفتح على ما لا يعدّ من الألغاز وكانّ
صاحبها يلاعينا ولسان الحال منه يقول: معي لا خوف عليك من الملل.
المشكلة كم من عجائبٍ وغرائبٍ لم يقبض لي تأملها فما بالك بالتمنّع بها!
كم من روائع مرّت أمامي تهبني عطاءها ولم أنتبه لها، كم من رسائلٍ رماني بها العالم لم
أفهم لها معنى!

هنا تتقدّم القراءة كحلّ لشعور الغبن وكبديل لعجزنا أمام اتساع المكان وضيق الزمان
المخصص لاستكشافه.

أليست بديلاً عن السفرات التي لم يمكّن حسن الطالع التمتع بها؟
ألا توقّر علينا جهد الهرولة لكل مكان قصي والراوي هو الذي تكفل بكل المخاطر
والمناعب؟

ألا تفتح لنا نواتٍ من لا نعرف من الأدبيين فنستكشفهم دون أن نُنهم باستراق النظر من
ثقب المفاتيح والتجسس على أسرار الناس؟

ألا نتأكد إبان هذا التجوال في الذوات الأخرى أننا نختلف عنها ولا نخالف كثيراً، فنطمئن
لكوننا لسنا وحدنا العالقين في عالم يبدو بلا منفذ لأحد، وأننا لسنا أحسن، أو أسوأ، أو أكثر
ضياعا من بقية البشر؟

داخل الملفات التي راكمتها في الذاكرة هاته القراءة كم من رحلة عشتها وأنا أكبر مغامر
امتطى مطهّم النصوص استكشف المستكشفين بقدر ما استكشف ما يستكشفون!

هكذا ارتحلت مع بحارةٍ حتشيسوت نتوغل في بلاد كوش وبونت... مع حنون نتبع الشواطئ
الغربية لإفريقيا... مع ابن بطوطة لما خرج من طنجة ميمّما وجهه نحو الشرق... مع ابن
جببر إلى ذلك المرفأ النتن على ساحل البحر الأحمر أنتظر مركبا قاصدا البيت الحرام
ارتحلت مع الشيخ الأكبر والشريف الإدريسي والكناني البلنسي وابن سعيد الأندلسي وابن
جزري وابن الخطيب وهم يتلمسون عبر أهوال البحر والصحراء طريقهم نحو الديار

المقدسة، ومعهم اكتشفت معالم الطريق العظيم الذي حمل على مرّ القرون أفواج الحجّاج والتجار والطلبة من المغرب إلى المشرق، وجحافل الغزاة والرعاة والدعاة من المشرق إلى المغرب.

ارتحلت مع ابن فضلان أتأمل معه مشدوها أراضٍ يردها لا يحتمل شتاء ولا تعرف ما الليل عند مجيء الصيف... مع ابن سليم الأسواني وهو يستكشف بلاد النوبة... مع ابن البيطار منقبا في أسرار النبات... مع البيروني ابحث معه عبر ربوع الهند في معتقدات آدميها المقبولة منها والمرذولة... مع المجريطي أنقّب في بغداد والبصرة عن رسائل اخوان الصفا.

ارتحلت مع ماركو بولو نضرب في عرض وطول إمبراطورية كوبيلاي خان... مع الاميرال الصيني المسلم تشنغ خه بحثا عن طريق يوصل الاسطول الضخم إلى مرافئ شبه الجزيرة العربية والبحر الأحمر وشرق إفريقيا... مع منسا موسى من صحاري مالي إلى بيت الله الحرام أوزع الذهب وأبحث عن العلماء... مع كولومب شعاره شعاري: أروع السفرات تلك لا نعرف إلى أين ستقودنا... مع فزبوشي وماجلان وإلكانو وبارتوليميو دياز والقرصان فرانسيس درأك وجون سميث وكوك وبانكس وبوقنفيل ولابروس وكل من حركهم الجشع للذهب والتوابل أو لدرّة صفراء اسمها العنبر سماها الأوائل دمعة الآلهة. ارتحلت على متن "البيجل" اراقب ما يخطه بعصية رجل اسمه "داروين" ومع بيرري وامندوسن وشاكلتون أستكشف معهم القطبين.

ارتحلت مع مارجريت ميد وجامس فرازر وكلود ليفي شتراوس، هدف الرحلة استكشاف أنماط غريبة من البشر نحاول الردّ على سؤال وهاجس: هل عادات "البدائيين" والمتوحشين" ومعتقداتهم هي طبيعة الأوائل، النواة الصلبة للطبيعة البشرية التي لم تفسد بما نسميه التحضّر.

آخر رحلة لي بالوكالة كانت مع أغرب قافلة اخترقت الصحراء في قافلة محرّمة على الرجال ليس فيها إلا نساء قبائل التبوّء يتاجرن في الماعز والتمر والرسالة التي لا يغفل عنها لبيب أن حبّ السفر والخطر غريزة عميقة عند البشر ذكورا وإناثا وإنما هي التقاليد البالية والعادات البغيضة التي منعت نساننا من تجهيز القوافل.

يا للخسارة، كم ضيعنا من رحلات مثيرة والعالم لا يتجلّى إلا عبر عيون الذكور!

تسلّم يوما مهما سافرت بالجسد أو بالقراءة أنك لم ترتحل إلا على الزيد والمحيط الذي طفوت فوقه إلى الأبد مجهول.

ومع هذا... يا للحصاد! يا ما تراكم في الذاكرة من أحداث! يا ما تلاطم داخل الذهن من أفكار! يا ما جربت من أحاسيس ومشاعر على امتداد طيف يسمح كل الممكن من تفاعل الذات مع ذاتها مع الذوات الأخرى ومع العالم.

نعم، إنه حصاد تعجز عن وصفه أكمل لغة يطوّعها أفصح لسان لأتبع مفكّر أو شاعر.
تأتيني يوما فكرة التدوين لهذا الحصاد، للرحلة بمفهوم المعرّي لا بمفهوم ابن بطوطة.
أهزّ الكتفين استهزئ من نفسي وأشفق عليها وقد أصيب الفكر بالإحباط لمجرد تخيل ما
يتطلبه مشروع كهذا.
من أين للسرد أن يجدّد في رواية رحلة الانسان في هذا العالم وقد رُويت قبلي بكم من لغة
وأسلوب؟

من أين للوصف أن يصف عالما لا يستنفده وصف؟
من أين للتعليق على وجودنا فيه أن يقول كلاما ذا قيمة في عالم سقّه كل ما قيل فيه من
أقوال؟

أسارع الى رمي الفكرة في سلّة مهملات ذاكرة فاضت بالملفات المتروكة، منها مشاريع
الطفل بالمشي فوق سطح الشمس، ومشاريع المراهق بتخليص الإنسانية من كل النواقص
والآثام، ومشاريع الكهل بالوصول إلى الحكمة المطلقة وكم من مشروع آخر تكفّلت ظروف
الحياة بوأده باكرا بعد اتضاح استعصاء تحقيقه للمعروف وغير المعروف من الأسباب.
تفتعل الفكرة الامثال لأمر التلاشي. تلتجئ إلى أعماق اللاوعي سنينا ثم تعود إلى السطح
مدجّجة بحجج تفتعل مطلق الثقة في مقولاتها، تبحث عن حجج ترسي عليها حججها، وعن
حجج ترسي الحجج التي أرسيت عليها الحجج.
أليس أول هدف لكل رحلة أن تعاش والهدف الثاني أن تمشي بذكرها الركبان وتتناقلها
الأجيال؟

أليست أفضل رحلة هي رحلة البحار الذي غرق لا فقط لأنه فشل في الحفاظ على وجوده
وإنما لأنه لم يعد ليروي كيف هو البحر؟
ألم أجد فيما خطّه لي كبار رحّالة الماضي ما أبعد عني أخطارا كثيرة ووفّر عليّ كم من
مشقات؟

لماذا لا تساهم خلاصة تجربتي، على تواضعها، في تحسين "خرائط" العالم علّ الأمر يفيد
ولو قليلا رحالة الأجيال القادمة؟
وأیضا لماذا أخفي طموح المساهمة في كشف الأسرار التي تؤرّق المفكرين منذ القدم حتى
ولو أدّى الأمر لمزيد من خلط الأوراق؟
ألم أجعل شعاري في الحياة قول الشاعر: "على قدر أهل العزم تأتي العزائم"؟
يتواصل الشدّ والجدب بين الرغبة والرغبة.

يصمت النقاش سنوات، ويوم لا أتوقع يعود السجل بذرائع أخرى.
لماذا لا تكون الكتابة فرصة للخروج، ولو مؤقتا، من صراع استنزاف طاقاتي طوال كل
هذه السنين، للقطع مع خصومات تافهة لا تنتهي، للخروج من حلبة لا منتصر فيها، للتمعّن

فيما أبصرته دوما ولم أنظر إليه إلا نادرا، لتصالح ذاتي مع ذاتها قبل آخر منعرجات الطريق؟

هل هذه الحجج هي التي رجّحت الكفة والفكرة ترفض يوما العودة للأعماق، فانقلب ميزان القوى لصالحها؟

ربما حصل الأمر للذة رفع تحدّ أخرج ألقينه على نفسي، ربما لتزايد حدة الشّعور باقتراب الأجال المحتومة وضرورة استجماع شئنا ذات مهدّدة بالتفكّك، أو لسبب تحرّكه قوة مجهولة تحقيقا لهدف لا تعرفه إلا هي.

وفي كل الحالات متى كنا بحاجة لأسباب والفعل هو الذي يوجد لنفسه ألف تبرير! يؤخذ القرار يوما وينطلق التدوين يستعرض ويتفحص ملفات تراكمت في الذاكرة علّ صورة متماسكة عن رحلة الحياة تنبثق من الفوضى التي بداخلي والتي تحفّ بي من كل حذب وصوب... وكل محاولة تنظيم لا تنجح إلا في إعطاء هذه الفوضى شكلا جديدا.

اليوم 14 600 من الرحلة

**

عالم... عالمان... عوالم؟

التدوين نعم، لكن لأية رحلة؟ التي نعيشها ابان اليقظة... أو التي نعيشها ونحن نغط في النوم؟

كم غريب أن من سبقوني في أدب الرحلات لم يدونوا للرحلة العجيبة التي نسافرها كل ليلة! ربما أحبطوا وسقط في أيديهم وهم مطالبون بالتدوين لسفر بلا حراك، بلا طريق، بلا دليل، بلا تكريات ملموسة نعود بها نثبت أننا لا نكذب ونحن نروي ما شاهدناها فيه من غرائب وعجائب!؟

وفي أقدم ملفات الذاكرة عن رحلة الليل، يتابع الطفل بصمت قلق التنفس البيئي لشقيق راقد جنبه يرفض الردّ على كل استفزاز معرضا عن مواصلة اللعب. كم مرّة وضع يده على الجسد المسترخي جانبه والسؤال بل قل الهاجس حتى في ذلك العمر، إلى أين يذهب هو وشقيقه عندما يغلبهما النوم؟

تتملّص حتى "ما" من الردّ عليه. لما تفضّل يوما "با" بالردّ، تفاقمت حيرة الطفل بل اندلعت فيه أولى المخاوف وأعمقها.

ماذا لو تاهت هذا النفس التي يتحدّث عنها والده في الأماكن المجهولة؟

ماذا لو ضلّت الطريق وهي تتحسس في الظلام طريقها للرجوع إلى الجسد الساكن؟ ألا يمكن أن يستيقظ في فراش غير فراشه، في بيت غير بيته، بين ذراعي أمّ غير التي رضي بها ورضيت به؟

يداوي الطفل قلقه من الاحتمال الرهيب بتصوّر حبل شغاف متين تربط "ما" طرفه كل ليلة في وتد من العالم المألوف وطرفه الآخر حول رسغه. لكن ماذا لو تقطّع الحبل وبقيت النفس سجينّة العالم العجيب؟

لا غرابة أن ترعبه هذه الإمكانية وأن يتشبّث أطول وقت ممكن بالعالم الذي ألفه رغم ما ينضح به حتى هو من غرابة ومن مبهم الأخطار.

في بعض أقدم الملفات يندرنى شيء في داخلي بضرورة إغلاق العينين حالا، دون مزيد من التسوييف والمماطلة. أفتعل تجاهل نفاذ صبر الأمر المجهول فتحافظ اليدان على الكتاب المفتوح تتصفحانه بتوّدة مقصودة. يتصاعد منه الإلحاح ومّتي المشاكسة. أشعر به قد غيرّ اللهجة والأسلوب ليمرّ إلى منطلق الإلزام.

يسقط الرأس-المرّة تلو الأخرى-على الصدر فأعيد رفعه إلى الأعلى كلّ مرّة كأنني أرفع صخرة إلى عنان السماء.

إنها بداية نزعة التمرد على كل سلطة تأمر وتنتهى لا تكلف نفسها شرح الأسباب. يتواصل الصراع غير المتكافئ بين طفل عنيد نشأ على كبرياء غريزي، وعالم له القدرة على كسر شوكة كل متكبر عنيد. تأتي لحظة الهزيمة والرأس أخيرا على الصدر لا يجد

رافعا إلى الأعلى إلا يدا عطوفا تضعه على الوسادة، تزيح الكتاب، تطفئ النور وتغلق الباب بكثير من الحذر وعلى محيا الأيم ابتساما مشفقة أمام طفل مغلق راحته على حجرة هيهات أن تتفع في صد الكوايبس.

نعم أين نرحل كل ليلة؟ من أين نرجع؟! لماذا نبقي إلى النهاية في ذهاب وإياب بين... بين ماذا وماذا؟!!

توقّف عند بعض الخصائص المميزة لرحلة الليل هذه. أنت لا تمتثل لأمر الرحيل في أي مكان. عليه أن يكون مخبأ آمنا تستودعه بكل ثقة جسدا فقد تأهبه للكرّ والفرّ دفاعا عن وجود على الدوام مهتد.

من هذه الطقوس أيضا التخفّف من جلّ لباس رحلة النهار إذ لم يعرف عن "الفضاء" الغريب الذي سترحل -قل الذي سترحل- إليه أنه يتطلب شمسية أو معطف فرو ثقيل أو ملابس سهرة أو حتى درعا وسيفا.

حقا، هناك من يرقدون وسلاحهم تحت الوسادة، لكن من فرط الخوف أن يفاجئهم الصيادون في عالم اليقظة لا تحسبا لما سيلقونه من أعداء في عالم المنام. ثمة بالأساس ضرورة التخفّف من صدّي هموم هذا "الواقع" والأمر ليس دوما بالسهولة التي نودّ.

وفي ملف عن زمن قريب، يتصاعد من الشارع المظلم عويل امرأة تخرج منذ شهر في آخر هزيع من الليل، تدرع الشارع، تصرخ بأعلى صوت، تشتم نائمين ومستيقظين تحصنوا داخل عمارات منغلقة على خوف صامت. أضع المخدّة فوق أذني مبتهلا لكل آلهة الأدمييين وشياطينهم أن تكفّ المرأة عن تعذيب نفسها وتعذيبي.

تعطّل المصعد الذي يرفعه ويرفعني عادة دون جهد إلى الأعالي المجهولة. مصعد؟ تغزو الخيال صورة أكثر حداثة.

تنشطر الذات إلى مراقب بصدد تنظيم عملية الرحيل نحو المجهول رغم رداء الأحوال النفسية وراكب نافذ الصبر يريد الإفلات بأي ثمن من صراخ لم يتطوع أحد من سكان العمارة لإسكاته بطلقة رصاص رحمة بالمرأة، بالجيران وبني. يتوجّه المراقب المشرف على عملية إطلاق "الصاروخ":

- هنا برج القيادة. الوضع داخل هذا البليد؟

- كلّ المؤشرات في الأحمر.

- استحضار الصور البلمسية.

ذراعان رقيقان يلتفان حولي... شعر كالحريير يداعب خدي... تتنفس بطيء يبعث في هدوءه... كلمات خافتة لا أدرك ولا أبحث لها عن معنى.

- تقرير فرق الإطفاء؟

- بؤرة أخيرة من التوتّر صعبة الإخماد.

- استحضروا صور الطفلة.

تتسلل فتاحة أو فتيحة من فراشها نصف نائمة، إصبعها في فمها ودميتها مضمومة إلى الصدر. تتسلق الفراش، تحشر جسمها الصغير بين الجسمين المتعاقين. تبدأ توسيع مجالها الحيوي بدفع رقيق. ترتسم ابتسامة على وجه الرجل المتشجج. تتحرك شفتاه بحثاً عن الراحة المفتوحة لقلبة أخيرة. تتساقط قطرات المطر رقيقة على النافذة فتطفئ باقي الجمر الملتهب داخل الروح. تأتي الرجل المترابذ الارتخاء قشعريرة برد لذينة فيحكم حوله الغطاء.

- التقرير.

- انطفاء أغلب المؤشرات الحمراء... لكن ما زالت هناك بعض بوثر تؤثر.

- استحضار آخر وسائلنا.

يرفع الأب يده، يبحث في الظلام عن شعر ابنته، فيلمس شعر دمية دائمة الصمت. تستسلم الذوات الأربع أخيراً للطمأنينة، والرجل بين ذراعي المرأة، والمرأة بين ذراعي الرجل، والطفلة محشورة بينهما، والدمية "إيتي" تتوسط الأجساد الحية، تبعث فيها وتمنصُ منها ببالغ الحذر شيئاً ليس للغة مصطلح عنه ولا للصفة حالياً فكرة عن طبيعته.

يدير الرجل أخيراً ظهره لعالم لم يعد يعنيه من أموره شيء.

يتواصل همس غير معروف المصدر والهوية:

- الآن كل شيء على ما يرام.

- إقلاع.

نعم لكن أين نصل بعد نجاح عملية الإفلات من قبضة "الواقع"؟

كأنّ هذا الذي ترخّل إليه ليلاً مصنوع من ضباب الفجر، من سحب خفيف، من دخان السجائر. داخله لا مكان للألوان الفاقعة، للخطوط المستقيمة، للأضلع الحادة. كل شكل فيه يبدو من رسم بيكاسو وشالجال وماجريت.

هل الفنّ صدى لما تكتشفه الذات وهي في رحلتها هذه، في تجربتها العجيبة هذه؟ لم لا؟ ألم نهزّب من فضاء الحلم أيضاً فكرة الآخرة والأشباح وكم من أفكار أخرى تتحكم في حياتنا "العادية" ونحن لا نعي.

ها قد أصبحت الذات، "الآن" و "هنا" شكلاً لا شكلاً له، شكلاً تخفّف من خصائص الشكل، فكرة مبهمّة لا تتذكّر أنّها عرفت شكلاً غير الذي هي عليه الآن، شكلاً ضاعت ملامحه الأصلية.

قال واحد من أنبه الرحالة: "حلمت ذات مرة أنني فراشة. فمن أنا؟ لا وتسو يحلم أنه فراشة أم فراشة تحلم أنها لا وتسو؟"

الذات الآن وسط حشود من الدمى في بعض المتاجر الضخمة. تحدق في دمية تلبس حلة العرس ثم تغمزني وهي تبتسم. تصرخ في دمية أخرى مخضبة الشفتين بالأحمر القاني أن أغتتم موسم التخفيضات. أية تخفيضات؟ هل أنا أيضاً دمية كهذه الدمى؟

تتدافع من كل الاتجاهات بالونات صغيرة شبيهة بقطرات الضباب أو بفقاع الصابون. داخل كل فقاعة آدمي بحجم ذبابة متسلقا جدارها اللزج يضرب بقبضتيه كأنه يبحث عن منفذ وصراخه الصامت يدوي في أرجاء العدم.

الديكور هذه المرة نزل نتن في قرية نائية. أصرخ في صاحب الفندق فيعتر عن فيضان المرحاض وأنه سيصلحه حالا. ما يهمني-أيها الغبي-ليس هذا وإنما أن أعرف أين أنا. لا تقلق-يا سيدي-ستأتي سيارة لتأخذك. إلى أين؟ لا تقلق، السائق يعرف، وفي كل الأحوال يكفي أن تضغط على زر مكتب المحامي في الطابق الثالث؟ المحامي؟ نعم إنه الذي تعرف وتثق به.

جريدة اليوم جريدة البارحة وقيل البارحة ومتصفحها راكب قطار يتوقف دوما عند نفس المحطة ليحييه نفس المجهول على نفس الرصيف بنفس التحية تحت صورة ضخمة لنفس الإشهار في شكل وجه معوج لأدمي مسك بصدغيه يصدر صرخة محملة بكل ما في العالم من رعب ثم يغرق في بحر من الدم. دمي...النرويج! أين يوجد هذا البلد؟

تتعالى من اللامحدّد همهمة أصوات. يرتفع من فوق سطح الماء رأس آدمي. تنطفئ النجوم لأنّ يدا ضغطت على زرّ كهرباء تثبت في أشداق الحوت. يصرخ فيّ البحر أن أهرب غضبا غير محدّد السبب. ترعيني قهقهة تتصاعد من حجرة كلب أعرج. أنحني لألتقط شمسا وقعت على سطح الأرض كما لو كانت عصفورا جريحا سقط لتوّه من العش. أنفخ عليها لتلتهب من جديد، ثمّ أرميها في الفضاء فتنفجر بالضحك.

تحضر الذات مجددا أنّها أخفقت وأنّ عليها إعادة الفرض. تتمرّد على عبث ممتحن لا يرحم وامتحان لا نجاح فيه أبدا. تصرخ في وجه مجهول أرفض، أرفض، أرفض. كم مرّة يجب أن أعيد هذا الفرض للعين؟ يأتي الردّ صمنا ساخرا ومهدّدا من مصدر قريب بعيد، ما تتطلبه المهمة من مرّات. المهمة! أية مهمّة؟ لتذهب المهمة إلى ألف جحيم.

يحركّ الرجل الماشي رجلين من حجر تثبتا بالإسمنت على الطريق. يبرز من الضباب وجه أب يجالّ وجهه الجميل شعر بلون الكفن. يرتسم على وجه امرأة مجهولة ربع ابتسامة شاحبة. يبقى الوجهان مُعلّقين في الفراغ. يتصاعد من المسجى على الفراش أنين من يرفع أثقالا لا قبل لإنسان بحملها. تتسع ابتسامة الشبح. يهمس في الأذن: كم أنت موجوع يا طفلي الصغير. يقطب الشبح الأشيب جبينه مستنكرا ضعفا مشينا، ينزاح الثقل من الرجلين، يشعر الطفل أن القيد انكسر، أنه يمشی طليقا، أنه يركض خبيا، أنه يقفز قفزات جبارة في الهواء، كم يبدو الطريق سهلا والهدف قريبا.

يتّجه الطريق نحو فم ثعبان مرعب. أوصل الطواف حول البركة. يعوي كلب مشرف على حافة البئر ويشعر الطفل ألا مهرب له من برائته. يركض هربا والكلب وراءه وكذلك البئر. تنتصب العمارة البيضاء التي تناطح النجوم، أمشي على سقفها متّجها الى الهاوية. فجأة تبرز شجرة سنط شاهرة شوكةا في وجه غزال بحجم حصان، فيركض فزعا طالبا النجدة. تصرخ جحافل النمل وهي على ظهر الخناجر البيض بأن يبقى الحالم خارج اللعبة وإلا

فإنه هو القَتيل. أنحني لالتقاط نظارات سقطت من يد عجوز مرتبك هو أبي عاد من منفاه وتلاقينا على باب البيت عائد أنا الآخر من منفاي. أمام البيت آلاف الناس يحدقون فينا بصمت، أدعوهم للدخول فيندافعون حولنا، تحتج ربة البيت بأن ليس لها ما يكفي من فنانجين القهوة لكل هؤلاء الضيوف. تتعطل محركات الطائرة ويبدأ السقوط نحو البحر. أي ملاذ وقد حضرت الساعة؟

كم من آدمي دخل فراشه هربا من "الواقع" ونهض منه هربا من الكوابيس وهو كل مرة كالمستجير من الرمضاء بالنار!

كل ما نؤوب به من رحلة الليل أشلاء مناظر، أشلاء مشاعر، أشلاء قصص مختلفة من زيارة إلى أخرى، من زائر لزائر؛ والعهدة على ما يرويه كل من ناموا وحلموا واستيقظوا. أغرب ما في هذا الذي "نحط" عليه ونعيش فيه جزءا هاما من رحلتنا أنه ليس له علامات قارة والديكور يتغير من سفرة لأخرى.

تصوّر أنك تفيق كل صباح لتجد الفضاء الحسي مرة بلا شمس ومرة ثانية بأربعة شمس وأحيانا بنصف بشمس خضراء تسبح في سماء بلون الورد.

نفهم عزوف كتاب الرحلات عن وصف عالم خاص بكل مسافر يتلاشى كل ليلة بالسرعة التي ظهر بها.

يبقى أنه للفضاء الغريب رغم كل هذا الابهام بعض الثوابت، منها أنك أنت لا تستضيف أحدا فيه ولا تدخل حلم حالم.

اللهم إلا!

ربما دخلت "ح" حلمي تلك الليلة صدفة، أو أنني الذي فتحت خطأ الباب الحرام لأدخل حلمها. هل توعدنا على اللقاء في عالم أوضح معالم؟ كيف أفسر خروجها من بين جحافل الأعراب لحظة الموعد وفي المكان الذي لم يكن يوما من الأماكن التي أرتاد؟ هل من باب الصدفة أنني عرقتها من أول وهلة والحال أنني لم أقابلها من قبل؟! لماذا نظرت إلي باستغراب وأنا أتوجه إليها ممدود اليدين لأتابع طريقي مكسوبا وهي لا ترتمي بين ذراعي؟ لماذا استدارت لما تجاوزتها ترمقتي بحيرة كأنها تعتصر من ذاكرتها السبب القاهر الذي دفعها للمجيء إلى مكان لم يكن يوما من الأماكن التي تترتاد؟

ما نحن متأكدون منه أنه محكوم علينا أن نغادر كل ليلة ديارا معروفة ولو نسبيا إلى ديار أخرى مجهولة تماما، أنه محكوم علينا أن نعود منها لنعود إليها مجددا والمرء كمن يتقاذفه الموج من عمق المحيط إلى الشاطئ، من الشاطئ إلى عمق المحيط، ثم من عمق المحيط إلى الشاطئ... وذلك إلى آخر منعطفات الطريق.

وأيضا أنه لا شيء قادر على منع الذات من العودة الدورية إلى "الفضاء" الغريب، وإن منعها أصابها من الأمر عطب خطير قد يؤدي أحيانا-إن طال المنع-إلى نهاية الحياة نفسها.

ويبقى أهم سؤال: ما هذه التجربة التي نكررها كل ليلة التي نسئها الأحلام؟

ثمة الأفاويل القديمة عن رسائل مشفرة تبعث بها الآلهة وأخرى عن مخاوف وشهوات مكبوتة تفوح الأحلام بنتتها.

لا شيء مقنع فيما تدعي وخاصة لا شيء عن طبيعة هذا الذي نشد إليه الرحال كل ليلة. ماذا لو جعلنا منه "مكان" صيانة ذات ينهكها صراع الوجود ولا بد من العودة إليه دوريا للراحة ولأشغال الصيانة الضرورية.

تصوّر أياد خفية تستلم الذات حال دخولنا الإغفاء لتفرك هنا أو ساخ الذهن وتنظف هناك أوجاع الروح. بعد نهاية الحمام يأتي أمر الخروج إلى الواقع والعودة للصراع. فكرة أكثر راديكالية. لماذا لا نجعل من هذا "الفضاء" ورشة إصلاح العالم نفسه ينمّ فيها- كل ليلة-صقل الشمس والقمر وتلميع النجوم ونفض الغبار عن الجبال لنجد كل صباح عالما معافى جاهزا لأحسن استعمال؟

ثمة فكرة أغرب تقلب الأمور رأسا على عقب هي التي تجعل من اليقظة قاعة الانتظار والمنام هو العالم الذي نعيش فيه الرحلة الحقيقية. من أين لي اثبات رأي كهذا؟

إغلاقا لملف شائك سأعتبر -دون أدنى حجة أو برهان متين- أن ما نسميه العالم هو عالم اليقظة لا غير، تحديدا الجزء الذي تيسر لي إدراكه خلال ما عشت من الزمن. هكذا يمكنني أن أتخلص من عبء ثقيل حيث تتوقف مسؤوليتي عند رواية رحلتي فيه هو لا غير. أما رحلة المنام كما تعيشها دوريا ذاتي الأخرى أو ذاتي في حالة أخرى، سواء كان في عالم آخر أو على الضفة الأخرى من هذا العالم، فهي مسؤولية ظلّ لي أتصوره -بشيء من الشماتة-مُنهمكا في كتابة أشلاء جمل عن أشلاء أحداث لا يربط بينها رابط يتوجه بها إلى قراء من الأشباح وشاكيا من صعوبة مهمة عبثية لم يكلفه بها أحد.

تقاطعات الطريق التي تردت أمامها المسارات

أين نضع نقطة انطلاق رحلتنا في هذا العالم؟ الولادة! كيف نقرر أنها بداية الطريق وكل بداية لا بد لها من ظروف ممهدة ولا بد للظروف التي مهّدت لها من ظروف تمهّد للظروف التي مهّدت لها وهكذا إلى... إلى أين، إلى ماذا؟ ربما إلى ضرورة خلق مفاهيم أخرى غير البداية والنهاية، إلى ضرورة بلورة تصورات أخرى تقطع مع مفاهيم ربما هما-مع كم من مفاهيم أخرى-سرّاب من صنع الخيال والفكر؟ إنها إشكالية ضخمة لكن مهلا، ما زلنا في بداية تشكل تصور البداية "ال حقيقية" في ذهن الطفل.

أولى المعطيات حسب ما بقي مترسّخا في الذاكرة هذا الحوار بينه وبين دليله الأول وهو في الرابعة أو الخامسة من العمر.

- "ما"، أين كنت قبل ولادتي؟

- في بطني يا حبيبي. انتظرتك بفارغ الصبر تسعة أشهر مرّت كلمح البرق.

- "ما"، لماذا تسعة أشهر وليس تسعة أيام؟

سؤال ليس بغريب من طفل تميّز دوما بالسرعة في كل ما يقول ويفعل، وستقول عنه "ح" يوما: لو طلب منك أن تفعل لا شيء لفعلته بأقصى ما تقدر عليه من سرعة.

- "ما"، ماذا فعلت داخل بطنك طول هذا الوقت وكيف دخلته؟

من أين لفاقد ذاكرته أن يسعف ذاكرة الآخر، ثم هناك أشياء لا تقولها أم لابنها.

- "ما"، هل ندمت على ولادتي بعد أن اكتشفت كم أنا طفل مزعج؟

تهمس الأم في أذن طفل تحضنه بقوة الغريق المنثبث بما يطفو من القش:

- لا أحبّ شيئا فيك قدر أنك مزعج كما تقول.

- "ما"، "حدثيني عن "با"، متى عرفته، كيف أصبحت له ابنا؟

تمرّر الأم يدها ببالغ البطء على الشعر المنفوش:

- ذهب شيخنا إلى الجامع الأعظم مفتشا عن مؤدّب لأطفال قريتنا ثم... لكنني حكيت لك القصة أكثر من مرّة.

يصرخ الطفل محتجا: أعيدي. وبعد أن خرج عمي إبراهيم بحثا عن "با"...؟

العهد على الرواية ثم على خيال الطفل والكهل لتجميع أهم المعطيات عن بداية رحلته.

إن تنحرك العم إبراهيم ذلك الصباح بحثا عن مؤدّب لأطفال قرية لم يسمع بها أحد غير سكانها. وصل إلى الجامع الأعظم يسأل الكثيرين فلا يعجبه هذا أو ذاك لعلمه بمواصفات حاجته.

العجب العجاب أن تكون كلها موجودة في "با".

الأعجب من ذلك أنه هو نفسه كان موجودا ذلك اليوم، بل في تلك الساعة وفي ذلك المكان. هو لم يكن بالصدفة في مظاهرة أو قابعا في زنزانة رطبة ولا حتى مصابا بزكام خفيف ألزمه الفراش ذلك اليوم تحديدا. لم يكن يتمرن على السلاح أو بصدد نقله من مغارة إلى أخرى، ولم يكن على الطريق هاربا من الجيش والشرطة. نعم، كان الرجل الذي أرادته لي القصة دليلي الثاني موجودا ذلك اليوم بكامل أعضائه وكامل ذاته وكامل صفاته كأن الأقدار ضربت له موعدا لم يكن له الحق في نسيانه على شدة استخفافه بالمواعيد.

ترى هل تردّد العم إبراهيم في اختياره للمهمة التي كلفه بها شيوخ القرية؟ ربما انتبه للواقحة التي تتضح بها كل سمات الشاب الغريب. هل أريته جراءة كانت تطيع حركات الطالب الطموح وسكناته؟ هل شدّه ذلك الذكاء الوقّاد الذي كان يستهوي حتى ألد أعدائه؟ أم هل اختاره -رغم حدّة طبع واضحة- لأنه كان وسيما؟ يأخذ الشيخ قراره باختياره هو لا غير وحسنا فعل. مهلا. ما زال هناك أكثر من تقاطع طريق قبل أن تأخذ القصة طريقها الموعود.

كانّ الأدمي الذي سأسميه "با" يتردّد. أول مشادة بيننا ولو أنها لن تقع إلا بعد عقود وفي مستوى من العالم غير الذي نسميه الواقع.

- سنذهب مع الشيخ، وإلا كيف سأوجد؟
- أنا أذهب إلى قرية غارقة في الوحل شتاء وفي الغبار صيفا؟ أنا أعيش مع الفلاحين! أنا الذي أشرف الاسم الذي أحمله، أنا الذي...
- قلنا كفى من أنا، أنا، ألا تعرف كم يكره البشر هذه الكلمة في فم غيرهم.
- يا ولد، لا تطلب مني شيئا كهذا. أنتصوري مؤدّب أطفال في تجمع أكواخ طين وقش!
- حتى الآن لم يقرأ لك أعمى أدبا، ولم تسهر حول قوافيك القبائل وتختصم.
- ماذا تقول يا قليل الحياء؟ ألا تعرف من هذا الذي ستنتشر بانئسابك إليه؟ الكرامة قبل الخبز، يا فتى.

اللعة، هل يمكن أن يركب الرجل رأسه؟ من يعرف أكثر مني عناده وعقليته البدوية باحتقارها التاريخي للماشين وراء أذنان البقر.

- يا رجل، خذ بيد الشيخ واتبعه لتأكل واترك الشعارات الجميلة لخطبك الجوفاء.
من حسن حظي أن الجوع حافز أقوى من الكبرياء حتى بالنسبة لأدمي مثل "با".
ثمّة أيضا سبب أقوى من الجوع اسمه الخوف.

كان "با" تلك الفترة الغامضة من تاريخه منخرطا في قصص معقدة عن وقوف مع غزاة جدد يأمل منهم خلاص البلاد من غزاة قدامي، عن تخزين وسرقة تهريب سلاح جنود أجانب تقاتلوا بكل ضراوة وقتلوا بكل وحشية، عن انتصار الغزاة القدامى على الغزاة الجدد

ويحثهم عن مساعدوا أعدائهم ، عن هرب واضطرار للاختفاء فترة من الزمان في أي مكان.

هكذا وجد الشاب المتهور نفسه رغم أنه مؤدباً لأطفال الفقراء، يقرئهم بعض ما تعلم في الجامع الأعظم وهو ساخط على الأقدار الظالمة التي ما انفكت تضحك منه، جاهلاً أنه لم يخصّ وحده بالاستخفاف من قبل عالم يسخر باستمرار منّا جميعاً.

هو الآن وجهها لوجه مع امرأة قررت القرية تزويجها لرجل لا يجوز أن يعيش بينهم أعزب. لا ترقص طرباً أيها الشبح فما زال الممكن غير ممكن وما زال اللأممكن ممكناً.

أيرضى الشاب المتعجرف بفلاحة أمية لا تقول الشعر ولا تحفظه، هو الذي عاب على زنوبيا أنّها أنت الوجود قبله، هو الذي رثى لشجرة الدرّ لأنّها لم تعرفه بعلا، هو الذي سخط على الخنساء لأنّها لو عرفته لقاتل فيه وحده الشعر ولو كان شعر العزاء.

المهم في هذه المواجهة المصيرية موقف الطرف الآخر الذي بدونه هو أيضاً لن أكون. هل تردّت المرأة وهم يواجهونها بضرورة التحوّل لكوخ الغريب برخصة من سلطات السماء والأرض خادمة بلا أجره توفّر لبعليها أيضاً متعة عابرة؟

يعاودني قلق فيه هزل وجدّ لما أعرّفه فيها من حس فطري بالكرامة. لكن من أين لها مثل هذا الترف أمام شاب كهذا رمته الأقدار تحت قدميها؟

هل أذاب أخيراً ربيع ابتسامتها، بما تعكس من رقة وحياء، غلظة البدو فيه؟ أم هل اكتشف وراء عيني المها نكاء حاداً بهره ولو أنّه كان من قوم لا يبحثون عن النكاء عند النساء؟

ماذا لو لعب الشيطان ورقته الأخيرة وهو يسرّ في أذنها بما يخبئها لها من عظيم المصائب هذا الرجل الجميل الأنيق المتعلم؟ ربما فعلت فرفضت تصديقه. الأرجح أنّها صدقت، ومع ذلك قرّرت أن على القصة أن تأخذ مجراها لأنه لا مجال لغير ما قرّرت مشيئة سلطة عليا لا يعصى لها أمر.

كانت "ما" تتحرك داخل رؤيا لا يحصل فيها إلا ما أرادته كائن لا مردّ لإرادته. كيف لا تؤمن بأمر كهذا وكل ما نشأت عليه بل وكل ما ستعرف من أحداث يؤكد صحة قراءتها الأحداث.

أتصوّر ما منكبة على الطفل الملتهب بالحمى تناجي نفسها للتغلب على قلق مبهم: كان بوسع طفلي هذا ألا يصل بتاتا، لكن ذلك لم يحصل، كان بوسع أن يولد مشوهاً، لكن ذلك لم يحصل، كان بوسع الموت أن يختطفه بتلك الحصباء اللعينة ذلك الصيف المشنوم، لكن ذلك لم يحصل، كان بوسع الموج الهائج أن يبتلعه في ذلك الصيف الآخر المشنوم، لكن ذلك لم يحصل، إذن لم يحمه الله من كل هذا إلا لأنه يريد له البقاء لذلك سيسقى وسيثب على رجليه مجدداً كالعفريت الذي أحبّ.

يقدر ما كانت "ما" تؤمن بأن كل شيء في هذه الدنيا "مكتوب" أو مسطر منذ الأزل في دفتر الأقدار يقدر ما أمنت دوماً أن العكس هو الأقرب الى الحقيقة.

في رؤياها هناك قوّة قاهرة فرضت على قطرة الماء النّازلة من أعلى شلال الزّمان اتجاها
أوصلها إلى شفتيها بالرّغم من تقاطع ألف طريق، والأمر سيتواصل على نفس المنوال إلى
النهاية.

لكنني أنظر إلى نفس القطرة، أتابع تدحرجها المضطرب من أعلى شلال الزمان، راسخ
الاعتقاد أن بوسعها التوجه أية لحظة يمينا بدل الشمال، أن تتطاير بخارا، أن تدخل أعماق
الشلال لتختفي فيه، أن تدفعها الريح خارج السيل.

نعم، لم يكن هناك أي حتمية لتكون قصتي كما أعرفها أو حتى أن أكون وأن أوجد يوما.
ألم يكن بوسع الحدث الجلل الذي وأد الفتح أن يتخذ له مسارا آخر؟ أليس المصطفى هو
سبب نهوض أمة ووراء تحركها ملايين القصص اتخذت الاتجاه الذي حدّده بوعي وبدون
ووعي؟

ماذا لو وجدوه في الغار وقتلوه؟

سل عصبة الشرك حول الغار سائمة لولا مطاردة المختار لم تسم (أحمد شوقي)

هل أبصروا الأثر الوضاء أم سمعوا همس التساييح والقرآن من أمم

وهل تمثل نسج العنكبوت لهم كالغاب والحائمات الزغب كالرخم

ثمة إذن، تقاطع طريق أساسي لسيل القصص التي كانت قصتي واحدة منها هو ذلك الغار،
تلك اللحظة الفاصلة في سيل الزمان.

لكن كم من تقاطع آخر كان بوسعه أن يوجه الأحداث في اتجاه آخر يمنع وجودك ووجودي!
كان بوسع الخليفة الفاطمي أن يُطمع أجدادي بذهب الجنوب لا بمراعي المغرب.

كان بوسع فرسان سليم التوجه للحرب والدعوة نحو فارس لا نحو إفريقيا.

كان بوسع تلك الجدة، أو ذلك الجدّ، الذي اخترق به، أو بها، النخاسون الصحراء في قوافل
الشقاء والشرّ، أن تموت أو أن يموت في الطريق إرهابا وكربا.

ماذا لو رحلت المجاعة ذلك العام الذي سمّي "عام القنطرة" بذلك الجدّ أو تلك الجدة؟

أغمض العينين، أتابع ببصيرة الخيال أي مسار كانت تتخذه قصتي وقد انتصر آدمي اسمه
هتلر في الحرب التي أجبرت "با" على الاختفاء في قرية القش والطين التي ولدت فيها.

ربما كانت قصتي مع "ح" تتخذ اغرب المسارات.

تختار الساحة الجميلة مكانها حيث نور الشمس ودفئها. تضع حقيبة اليد على الطاولة،

تسحب منها علبة دخانها الزرقاء التي لا تفارقها، ثم تستدير باحثة عن النادل لطلب
"الجيلاتي" وعلى ملامحها ابتسامة واسعة ستقلب ضحكة مرحة لبداية دردشة تستهلها مع

كل غريب ببساطة وتلقائية من لا يعرفون الخبث والعدوانية.

تفتح عينيها على الأقصى، تحدّق باندهاش في النادل الأسمر المقترّب منها بكل حذر. يلحظ
الرجل نظرتها المسلّطة عليه فيزداد تشنّجا. ألم يسرع لها بكل المسكنة المطلوبة من الخدم

الموردين من أقاليم العبيد؟ هل ستطلق عقيرتها بالصراخ والسبّ فينال مجدّدا نصيبا وافرا
من السوط وهو-لسبب وجهه-متهمّ دوما، دون بقية العبيد الآخرين، باضمام التمرّد وحتى

بالإعداد له. يعود لها بما طلبت، والمرأة لا تكفّ عن التمعن فيه بدهشة لا تخفيها. الغريب أنه ليس في نظرتها ما تعود عليه من الأزدراء، وإنما بريق لا يفهمه. تتحرّك أنامله تلقائياً نحو شعرها كأنّ فيها حنيناً غريزياً لجذائلها الشقر. يتوقف في نصف الطريق وقد داهمه الهلع من نتائج ما كان على وشك ارتكابه. ينتبه صاحب المقهى لارتباك عبده واضطراب الزبونة. يتوجّه إليها بأدب المهنيين:

- عفو يا دكتورة، هل ضابقت هذا العبد السامي في شيء؟

- لا أبداً، أبداً.

- أحببت "الجيلاتي"؟ مرطباتنا أحسن ما في فينيسيا... لكنك لم تأكلي منها شيئاً!

تقطّب المرأة جبينها وقد ماتت الضحكة على شفيتها. تجمع حوائجها لائحة بالفرار وفي عينها غلالة الدمع، والنص وحده العليم بأنها نسيت ولم تنس أنها كانت في قصة موازية تبحث مع حبيبها هذا في أزقة المدينة وفي كل كنائسها عن صدى أنغام رجل اسمه "فيفالدي".

يتابعها العبد السامي المتزايد حيرة وحرّجا وهي تخترق ساحة سان ماركو راكضة نحو القنال الكبير إلى أن يحجبها عن الأنظار تمثال هتلر الأكبر بانّي إمبراطورية أورو-أفريقياسيا العظمى عليه صلوات الربّ ووطن وبركات الربّة فريكا.

يفيق على صراخ سيده وهو يركله: "أطعمك لتتفرّج على السياح يطوفون بتمثال سيدنا. هل تريد إجازة في محتشد خمسة أسلاك؟ حرّك طيزك يا untermensch، يا ما تحت الإنسان".

كم من تقاطعات طريق كان بوسع القصة ان تترد أمامها ثم أن تأخذ طريقاً غير الذي أخذت. يتوجّه العجوز الأصلع البدين بأدب المهنيين للشباب الأسمر المتعجرف:

- أرجو يا دكتور أن "الجيلاتي" أعجبك، لكنك لم تأكل منها شيئاً! إنها أشهى المرطبات المتلجة في كل فينيسيا.

- أشهى ما في فينيسيا هذه الشقراء الجالسة هناك. مشغول بها لا أدري لماذا... كأنني أعرفها.

يضحك صاحب المقهى:

- لا يفوقنا عشقا للنساء إلا أنتم أسيادنا القرطاجيين. آسف، هذه المرة ستعود خالي الوفاض. إنها حريفة تأتي دوماً مع زوجها وطفلتها. حذار.

طفلتان! تفاعهة ونقيحة؟ هل يمكن للقصص أن تكون صدى لبعضها البعض؟ ينهض الشاب من مقعده، وبالقلب ثقل لا يعرف له سبباً، مخترقاً ساحة القديس حانون في اتجاه معبد بعل إله أكبر آلهة إمبراطورية قرطاج التي لا تغرب عليها الشمس منذ آلاف السنين. ثم يدير الوجه لإلقاء آخر نظرة على امرأة مجهولة. يفاجأ ولا يفاجأ أن يراها تحدّق فيه فاغرة فمها. بداهة اتخذت الأحداث المتلاطمة التي تشكل قصصنا جميعاً نتيجة ألف صدفة وصدفة مسارا آخر.

مثلا هذا التقاطع الهام لألف طريق وطريق.
يتعالى الصراخ من ممرضات عنبر الرضّع:

- النجدة، النجدة!

تندافع زميلاتهن من سائر اقسام المستشفى ليتسمرن مدهولات أمام المشهد البشع ثم ينطلق صراخهن.

- يا إلهي! حتّى الرضّع لم يعودوا في مأمن! كل هذا الدم!

- أي وحش ذبح مثل هذا الملاك!

- انظروا، إنه المجرم، إنه يتسوّر الحائط لانذا بالفرار!

فجأة يدوّي عويل يصمّ الأذان من ممرضة ترتمي فوق الجسد الدامي لرضيع لم يتجاوز شهره الأول. إنها الممرضة المكلفة بالسهر عليه ولم تتغيب عنه إلا دقائق معدودات لقضاء حاجة طبيعية.

يصرخ فيها المفتش حضر لتوه لمعاينة الجريمة:

- كفى هستيريا، أيتها المرأة الغبية. ما اسم الرضيع؟

- سميناه للمداعبة هتلر على اسم قط القسم واسمه الصغير أدولف، أه يا أدلفة، أه يا صغيري!

تتقيّ الممرضة راشيل كوهين كل ما في أحشائها، قبل أن يغمى عليها. كان الرضيع المفضل لديها في كلّ المحضنة، بل وكانت تنوي تنبّي اللقيط.

بالمناسبة، كم رضيعا لم يموت من الأحسن له وللجميع أن تجهض به أمه، وكل محاولات ذبحه فشلت في كل القصص! في المقابل، كم مات لنا من مهدي ومن مسيح ونحن نجهل أننا مررنا قريبا جدًا من ضفّة النجاة!

ثمة مشكلة في هذه القصة نَبّه لها كل هواة الارتحال في الزمان.

من البديهي أنني لو تسببت في موت الرضيع الذي سيصبح الطاغية الدموي الذي عرفه التاريخ، لما حدثت الحرب التي جعلت "با" يلتجئ إلى القرية التي تزوج فيها "ما"، ومن ثم لما وجدت أصلا. ما أغرب أن أدين بوجودي -مثل الكثيرين في ظروف أخرى- لأكبر سفاح في تاريخ هذا العالم؟

لو تفحصت سلسلة الأحداث التي انتهت بوجودي لما وجدت إلا سلسلة طويلة من الأحداث التي كان بوسعها ألا تقع أو بصفة مختلفة منها -حتى لا نذهب بعيدا- ارتطام جرم سماوي تائه بالأرض قبل خمسة وستين مليون سنة وفجوة زمنية بين عصر جليدي وكراتة مناخية أخرى وتردّد حنبعل في غزو روما، وإفراز الصحراء لنبي نجا من محاولة اغتيال في غار جبجل أسود، وحبّ البدو للغزو وقرار البعض منهم بالتوجه غربا بدل التوجه شرقا، ونجاح الاستعمار في فرض سلطانه على شواطئ شمال شرق قارة اسمها "أفريقيا"، وجنون عظمة رجل ارتكب خطأ فتح جبهتين في وقت واحد، وجملة من أحداث أخرى لا تخطر لي على بال.

كلنا ننبثق من تسلسل أحداث لم تكن يوماً لا مبرمجة ولا حتمية أو قابلة للتوقع. كل القصص، حتى قصة العالم، ارتطام الصدف بالضروريات والصدف بالصدف والضروريات بالضروريات والنتيجة أنه لا شيء مقدر إلا اللامقدر ولا شيء مكتوب إلا اللمكتوب. كم مثير أن تسير الأمور من الأزل وإلى الأزل على هذا الشكل، أية قيمة للعيش في عالم ليست المفاجأة أروع هداياه؟!

**

انطلاق الطريق

استحضرنا لتاريخنا الشخصي عملية تشبه تلك التي يقوم بها عالم آثار لا يتوقّر إلا على القليل من المعطيات ومع ذلك يدّعي اكتشاف تصميم البناية المجهولة. هذا ما يضطره لتصور قطع ربما لم توجد يوماً لكن وظيفتها أن تملأ الثغرات المزعجة. أكبر ثغرة في ذاكرتنا كيفية وصولنا هذا العالم.

لا خيار لك إن ألحّ عليك السؤال غير تفحص وصول أقرب الأدميين إليك والفرضية اننا نصل كلنا بنفس الكيفية وإن تباينت التفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل. تستعيد الذاكرة كيف كانت بداية البداية لرحلة هذا المجهول الذي سأكون له الدليل الذكر والذي سيناديني بأجمل ما أسند إلى من ألقاب: "با".

انتبه ذات يوم أن داخل فكري شبح كالفأر في مكتبة يحدث ما يكفي من الضجيج تاركا وراءه ما يستطيع من الآثار، لكن لا مجال لوضع اليد عليه أو إجباره على الرحيل. أقرّر اعتماد سياسة التجاهل علها تؤدي إلى اختفائه أو حتّى على البحث عن قنطرة أخرى يعبرها.

هل أقول للشبح ألا يجرب معي حيله، وأنني غير مهتمّ بما يعرضه من صور رضيع جميل مضحك تقدّمه للعالم أم جميلة فخورة.

هل تدخل لديها لتقنعني؟ هل تدخل لديّ لأقنعها؟ أم هل قلبنا الحقائق وكذبنا عليه وعلى أنفسنا لأنّ الطفل كان شغلنا الشاغل منذ البداية، نترجّاه نحن القدوم، وليس هو الذي يترجّانا استقباله؟

تنهار يوماً كل مقاومة وقد كانت من البداية تكلفاً ومحض عناد. وفي أوج شهوة الكائن لنصفه الآخر، وبعد خضمّ نشوة امتزاج الذات بالذات، تسترخي الذاتان، يلفهما هدوء ما قبل وما بعد العاصفة.

تتسارع دقات قلبي النائمين. تبحث اليد عن يد الآخر، ترسم على الوجهين ابتسامة عابرة. تأتي هذا الذي لم يعد مجرد فكرة في ذهنين من المبهم الغامض إشارات رقيقة وأوامر مهموسة ليلبس الشكل لأنه الشرط حتى تصبح هذه الفكرة فعلاً... الضرورة التي لا مناص منها للتسلل من راحة العدم إلى مغامرة الوجود.

أمّاه أنت التي تحمليني في أحضانك (مانويل دونوفاس)

امنحيني حقّ أن أولد

وأنت يا أبتاه، يوم أولد

امنحني حقّ أن أحيأ

أعيناني على أن أعيش أحلامي

وأهواني لأكون لكما

زهرة الشوق، ثمرة الفرح

تبتسم الممرضة وهي تمدني بنتيجة الفحص.

تبتسم المرأة التي ستصبح من الآن "ما" وهي تقرأ الورقة.

ترتسم الابتسامة على محبًا المازة وعيونهم على بطن امرأة تمشي متناقلة الخطى ترصد نظرات الإعجاب وأحيانا نظرات الغيرة.

إنه عالم متجدد على الدوام، تنتفخ بطون الإناث فيه ثم تعود إلى تسطحها لتنتفخ من جديد في نسق منتظم كلهات الراكض، عالم لا همّ له إلا الحمل والولادة، ولا شيء في التكرار مكرّر.

ها أنا منذ تلك اللحظة التي وضعت فيها نتيجة الفحص في جيبي والحوار معك لا يتوقف أنت الذي لم يكتسب بعد أي شكل.

أصحيح أنك يقظ تتابع كل ما يجري؟ أن أول إشارة تتعرف عليها هي الصوت، صوت من تحملك في أحشائها، أن انتباهك له يتزايد يوما بعد يوم، أنه هو الذي يقودك من تواصل الحلم إلى انتباه بداية اليقظة، أنك لا تخطيء فهم ما يأمر به وما ينهى عنه، أنك تمسك بلجام من تركب بفقار من حرير، توجهها إلى حيث يجب أن تذهب وهي متبرّمة سعيدة؟ مثلي لا يكتفي بالقليل والقال. تقسم "ما" أنها لا تعلم أكثر مني.

من حوار منقطع أنا فيها السائل والمجيب.

ربما تستفرد بك وتفتح لك ذاكرتها. يا للمرأة المتهورة! سأوصيها بشديد الحذر. في كل الحالات لن أتركك تبني علاقة أعمق معها. لي أنا أيضا عليك حقوق ولك تجاهي أكثر من واجب. تعال، كن مولودا طيبا. لا تتركني بهذه الحيرة. كلي آذان صاغية. تكلم لأسجل لقرائي كيف انطلق الطريق.

قربت لحظة الوصول ومعها تتعاضم مخاوف مبهمة. لم القلق فالصانع مجرّب أخذ كل الزمان لتعلم مهنته. أتخيله طوال هذه الشهور التسعة يعطي ما يلزم من أوامر لمأمورين لا يقلون عنه مهنية عالية: اصنعوا، قيسوا، شذّبوا، لا تغفلوا، قفوا، وصلوا، هنا جدّوا، آخر اللمسات هناك. كأنك أمام مهندس عبقرى صامت ومخفي ألقى على نفسه كل الأسئلة واكتشف كل الأجوبة. الحمد والشكر لكل هذا الاتقان، لكل هذه العبقرية.

داخل الكهف السحري، تواصل تجميع شتاتك وقواك قبل الوثوب على عالم ينتظرك بفارغ الصبر ليثب عليك هو الآخر، ولا أحد يدري من الفريسة من الصياد.

في محطة الوصول وهي غرفة توليد في مستشفى عريق، يطلب مني بأدب أن أنزاح إلى الخلف حتى انتهاء مراسيم استقبال الوافد الجديد.

تأخذ الأيادي البارزة على عاتقها مواصلة مهمة الأيادي الخفية. تسترق آلة وضعت على البطن المكور دقات قلبك. أراها تتابع على ورق التسجيل تخبط خبط عشواء. تتعثر ضربات قلبي هي الأخرى. يتصبّب العرق من جبهة المرأة الراقدة على فراش الألام ومن جبّتي ومن كل الجباه. تعضّ الوالدة الأزلية بنواجذها على الخرق البيضاء وأعضّ على

نواجذي لأمنع الصّراخ الذي في داخلي، فتهتّر لصداه الصامت كل أصقاع الروح. كأنك غير واع بما في هذا الانتظار من لعب غير مسؤول بأعصاب من حولك من مساكين. تبقى مصراً على أخذ كل وقتك. هل لتكون جاهزاً أم لأنّ فيك خشية مبهمة تتعاضم كلما اقتربت ساعة الحسم؟

يتصاعد صراخ الوالدة الأزلية. تزداد حركات المشرفين على المراسم ارتباكاً. ترتفع حدة الحوار بيني وبين شبح قد يكون أنت وأغلب الظنّ أنه أنا. هل تتلّكأ في الخروج لعدم رضاك عن زمان الوصول ومكانه؟ أم هل هالك ما شاهدت وأنت تتجول داخل ذاكرة "ما"؟ ربما أنت محق في تردّدك، أليس من واجبي أنا الدليل أن أقول لك عد من حيث أتيت لا شيء هنا يستأهل الضريبة التي سنُدفعك إياها تجربة الحياة؟ تتعالى من حولي أصوات نافذة الصبر.

- ادفعي... ادفعي!

تتصيّب الوالدة الأزلية عرقاً. تصرخ والألم يعتصر أحشاءها إنني لميتة. تصل خشيتي أن تنكص على الأعقاب ذروتها وكنت لا أرهب لحدّ الآن سوى أن تكون الأيادي الخفية قد أساءت الطرز فتأتي مسخاً مشوّهاً. آه، صدقتني وقرّرت أن تعود من حيث أتيت! ألا تعلم أن هدية ميلادك عالم بأسره. هل بمثل هذه الحجج أقنعتك بالمواصلة؟ أهكذا زال آخر تردّدك؟ يبدو كذلك ودقات القلوب تنتظم والأيادي المحمومة تتباطأ والابتسامة تعود لشفتي القابلة. كآتي بك تتحرّك أخيراً نحو باب الكهف السحري مدفوعاً بقوة لا تقاوم ومجدوباً بأخرى لا يرفض لها أمر.

يبدأ خروجك الصعب من النفق الرابط بين هذا العالم والعمّة التي تتبلور داخلها في صمت كل العوالم. أستحكك مبتهلاً مشجعاً ناسياً قراري بأن أنشمت فيك في أوّل مناسبة. تطلق الوالدة الأزلية آخر صرخة المخاض ويفتح أمامك في نفس اللحظة باب الزمان على مصراعيه. تنفصل كالثمرة الطازجة، كتفاحة لذيذة، قطفت من غصن أقدس شجرة. في نفس اللحظة، في العراء، بين الأعشاب، على أغصان الشجر، في أعماق المحيط، داخل ألف مغارة، على الأرض تحت ألف خيمة، على ألف فراش، داخل أفخم القصور وبينما مشبّعوا الجنازات في ذهاب وإياب، تزغرد القابلة الأزلية احتفاءً بمجيئك أنت وكل أفواج الوافدين الجدد. صرختك الأولى.

هل هي حقاً مسألة ميكانيكية تتعلق بصعوبة فتح القصبات الهوائية كما يقولون؟ ليَدعوا ما يشاءون، ما يهمني رأيك أنت صاحب الصرخة... ألم القطف من فرط حسرتك على قرار طائش لم يعد ينفع فيه ندم؟ أم لفهمك أن باب الكهف الدافئ أوصد وراء ظهرك إلى الأبد؟ ... هل أُرعيك أنّك ملقي بلا سلاح وسط ساحة معركة تعي كم ستكون رهيبية؟ ... أدامك الوعي أنّك لن تكون نذيراً وإنما أغلب الظنّ قريانا؟ ... ربّما رفعت عقيرتك

لتنذر وترهب... كم مضحك أن تتوجّه بالتهديد لعالم مدجج بالسلح، وأنت الأعزل من كلّ سلاح! ربما هي صرخة الذهول وأنت تبصر الوليمة التي تنتظرك؟ أو أن الأمر مجرد لفت انتباه تقول للعالم بكلّ بساطة وإيجاز: ها أنا.

أيا كان معنى لصرختك الأولى هذه، المؤكّد أنها ضاعت في زخم ضوضاء جهنمية لعالم ثرثار نزق عصبي المزاج، يتمازج فيها صراخ كائنات لا تحصى بدويّ الرعد، بانفجار البراكين، بزئير البحر، بضجيج الشلالات، بصفير الريح. لم يبق لي سوى أن أصرخ أنا أيضا علّك تسمعي وسط كل هذا الصخب المقدّس: مرحبا بك في عالم الانبهار والرعب.

أه، يا تفاحة، كان وجهك وجه عجوز دار بها البساط السيّار دورة كاملة في حياة ماضية ولم يسعفها الوقت لإحكام قناع الطفولة على الوجه القديم. كان جلدك متجعّدا وكأنه ورق قديم فركته يد عصبية قبل أن ترمي به في سلّة المهملات. ولم تكن هناك أيّة هالة من نور حول رأسك الأصلع.

تطلب القابلة مني-وهي تصرخ ضاحكة-أن أفيق من ذهولي وأن أعطي القادم الجديد إلى من تنظر إليّ باسمه نافذة الصبر لاحتضانه. أمذك لأملك ولسان الحال يقول بعد أن ذهب الخوف وعادت السخرية التي أداويه بها: أعذر من أنذر، والدليل لا يقبل الشكاوى، البقشيش فقط.

نسيت أن أقبلك من فرط انشغالي بتفحصك بعيني المهني المتخوف من قائمة المصائب التي يبتلّي بها البعض لأن الأيدي الخفية أخطأت في شيء ما. براقو، هي لم تبد قصورا في شيء، لم تنس في قاع الكهف لا عينا ولا قدما، فلها كل الشكر والامتنان. الباقي عليّ؟ أنا! كلّ الباقي!!!

في لمح البرق، متطلّبات الوضعية الجديدة. حياتي من هذه اللحظة ملك لآخر سيوجّه دقة رحلتي في اتجاه كنت صاحب الرأي الوحيد فيه. شعور كالبرق الخاطف بالندم وبفوات أو ان الندم. ثم جدل غريب. أصبحت اليوم ضروريا لأحد. لكن، كلّ هذه المسؤولية! أليست هناك بعض المبالغة من السيد العالم؟ أه لا مبالغة ولا شطط ولا حتى ثقة في قدراتي المتواضعة. الضرورة لتواصل قافلة الحياة. ثمّة من يقصر هذا الشعور على أضيق دائرة وحتى على التي لا تتخطى حدود جلده. ثمّة من يوسّعه ليشمل به كل الأحياء. اللهم اجعلني دوما من هذا الصنف.

وفي انتظار تهاطل هذه المسؤوليات المخيفة؟ هل أخذ القادم الجديد إلى السيرك، ثم إلى السينما فحديقة الحيوانات، وكل مكان مثير أجره إليه مشيا وركضا؟ سأدعوه إلى مطعم، نتبادل الأخبار؛ هو يحدث عما ترك، وأنا عن العالم الذي أفتح له الطريق فيه. لا بدّ أنه ما زال يتدكّر كيف وأين ومتى بدأت القصة... كيف كانت الأحرف والجمل والنصوص الأولى...كلّ ما أحتاج للنصّ.

تلك الليلة القدسية رجعت إلى المستشفى متعلّلاً بحجج واهية فطر دوني بيتسمون. أذكر أنّ النوم كان مضطرباً، أنني أفتت أبحث عن طفل لي في ساعاته وأخطاره وحيرته الأولى. من الغد سمح لي أن أخذ الغريب من شاطئ الوصول إلى الملجأ الأول.

أذكر أنّني وضعتُه بكثير من الرقّة والحذر على المقعد الخلفي للسيارة، أنّني كنت أسترق النظر إليه طول الوقت، ألقى عليه نظرة الشك وبداية سيل من اتهامات قد لا تكون عادلة. ربما هو يصدد فسح الملفات التي تعينني!

أذكر أن الأم الأزلية نهرتني كي أبقى منتبهاً لأخطار السباق وأنني افتعلت سبباً للتوقّف لا صبر لي على انتظار وصول البيت. وعلى ضفة النهر أخذت القادم الجديد بين ذراعيّ لأفاجئ بعينين بالغتي الاتساع مسمرتين على عينيّ المبهورتين. كأنه يراني ولا يراني، كأنه ينظر إليّ وينظر من خلالي. كم هو قريب مغال في بعده، حاضر مغال في غيابه، ملتصق بي وبيننا هوة دون جسر فوقها. إنه في مرحلة التشبّع البطيء بالوضع الجديد. لا ضرورة للعجلة ولا فائدة للتدخّل في نسق الأمور. ومع هذا، لماذا لا أجرب فلا أكثر ابتداءً من المعجزات

- مرحباً.

لا أحظى برّدٍ وأكاد أغضب لقلّة الأدب.

- قلت: مرحباً.

كأنّي بصمته تكنّف بل مع شيء خفيف من التفرّيع ونكهة من التهكم. لم أعرف من كل القادمين الجدد من أتى مسلماً معانفاً ومصافحاً. لم أعرف منهم من حدّث عمّا شاهده في الرحلات الأخرى وما جرّب فيها من أشكال وأحلام. لم أعرف منهم من أتى ببضائع مهزّبة من عوالم ما قبل العالم يقايض بها شيئاً ثميناً. وهذا الأدمي الذي سأقوده في مجاهل العالم لا يشدّ عن القاعدة. كل الأجوبة مضمّنة في هذا الصامت كما الأسنان في الفكّ تنتظر زمن البروز الموجه مع هذا لن يتكلم مثل كل الآخرين.

مواصلة العبث مع الكائن المجهول المتعالي عليّ بصمته.

عفوا، أعد ما قلت، سهوت لحظة. كيف؟ لا فائدة من الإلحاح السمج؟ أنا ألحّ! أردش معك فقط دون نية تنبيهك لضرورة البحث عن دليل آخر في حالة ما. آه، لا تقبل تهديداً. مرحي، من شابه أباه فما ظلم. على الأقلّ طمئنّي. هل هذا حقاً أول أيام رحلتك أم هل أنه ليس للرحلة بداية ونهاية؟ هل هذا أول لقاء لنا أم هل تعرفني منذ الأزل؟ هل كنت طفلك وكنت لي أبا في حلم آخر؟ هل تهنا عن بعضنا البعض في اتساع عوالم لا حصر لها؟ هل توعدنا على تجديد اللقاء الآن وهنا؟ باختصار هل أنت حقاً مولود جديد أم أنّك والد كل قديم وكل جديد؟

يحقّق فيّ الكائن الغريب مواصلاً تجاهله الاستفزازي فأصرخ فيه ضاحكاً: واصل تحديق السافر لأبيك، سأنتظرك في نصي بما أريد وما أنا بأمرّس الحاجة إلى سماعه.

ربما لا معنى لسؤاله، خاصة في هذا الظرف وهو منغمس في السرّ، ملتحم به وملتصق. مؤكّد أن هناك أوامر بالفصل التام بين العوالم وأن الجمارك الكونية لا تسمح بتهريب بصيص من فكرة أو قيس من شعور قد يكون جُرب في عالم آخر. أليس من الأحسن أن تأتي الوجود مفسوخ الذاكرة، غير محمّل بالآم قديمة وعادات لا فائدة منها ، أن تصله وأنت مثل أرض بكر لم تطأها قدم، مثل شريط لم تسجل عليه نغمة، مثل كتاب لم يخطّ فيه حرف، لكي تكون البداية حقا بداية والتجديد تجديدا وكل عناصر التشويق حاضرة لفصل آخر من قصة القصص.

**

انبثاق العالم في الذات ، تبلور الذات في العالم

من ذا الذي يذكر أول لقاء له مع النور، مع الظلام، مع الريح، مع الأفق؟
قيل عن الردى أنه يغيب لما نكون حاضرين ويحضر عندما نغيب. كذلك عن انطلاق
الرحلة.

لتمثل هذه اللحظة الفارقة تأتيني كثير من الصور ولا واحدة مرضية.
مثلا تبلورك كقطرة الندى على عشب الفجر.

أو تبلورك كمسافر بلا ذاكرة ولا أوراق في مطار مجهول لرحلة مجهولة وحولك جحافل
من الأعراب ليسوا أقل ضياعا. تباغتك الألوان والأصوات والحركة وكثافة الخلق. تسمع
دون أن تفهم همسا ناعما من مكبر للصوت: "نعلم المنتظرين لوصول طائرة الحجيج أن
الاستقبال في البهو رقم 1". يتعالى من مصدح يبدو بعيدا إعلام بلهجة فيها نفاذ صبر: "
الرجاء من الراحلين التوجه حالا إلى قاعة الرحيل رقم 5". لا أحد يعبا بذهولك أو يبدو
مستعدا للرد على أولى الأسئلة. فجأة تسلّم عليك امرأة بحرارة مهنته بحسن القدوم. يدفعك
غريب من الخلف للتقدم نحو باب الخروج. تُقحم في صفوف متراسة تدفع بعضها البعض
قدما إلى الأمام. تشعر أنه لا خيار لك غير الانخراط في السيل ولا فعل أهم من البقاء طافيا
على سطحه.

ثمة أيضا صورة الإفاقة.

تستيقظ أنت البحار المبحر على أمواج الوجود شيئا فشيئا على صرير الشراع، على دويّ
الموج، على صفع رياح أرسيت بك في ميناء مجهول ولا حدود واضحة بينك وبين الزورق
والسما والبحر.

عند شطّ الحياة ألقين مرسى زورقي (نازك الملائكة)
في الضباب تحت الظلام

إنها أفضل الصور عندي ولو أنها لا تقي هي الأخرى بالعرض.

بالمعنى المتداول، الإفاقة هي الخروج تدريجيا من عالم النوم والدخول شيئا فشيئا عالم
اليقظة. لكنك لا تفيق من النوم لتواجه بظواهر لا تعرف لها اسما أو وظيفة. لا تفيق لذاتك
تتساءل ما هذا الشيء الذي أتخطب داخله أو يتخطب داخلي. أضف لهذا أن يقظة ما بعد النوم
تتمّ وسط عالم ثابت الخصائص، مألوف دخلناه أكثر من مرة.

مما نفيق عندما نفيق للحياة؟ ألا تفرض الصورة أنه كان لنا وجود قبل الوجود، رحلة قبل
الرحلة؟ كل الصور في الواقع عاجزة عن تمثّل هذه اللحظة المفصلية التي ستبقى إلى الأبد
جزءا من سرّ رحلة محكوم علينا أن نحضر وألا نحضر بدايتها ونهايتها.

كل ما بقي منقوشا في أولى ملفات الذاكرة أن ما يتبع الإفاقة، أو التبلور، أو الوصول، أو
سمّ المنعرج ما شئت، أحاسيس بلل ومشاعر انزعاج وتبرّم بحدود غير مفهومة.

إبان هذه الافاقه، يتشكل الموجود كمعطى مباشر تتعامل معه الذات من فوق وخارج اللغة واكراهاتها ، كجملة من المظاهر الموضوعه حولنا وأماننا، تكشفها الحواس وتتفاعل معها، ولا شيء غير أحاسيس مشاعر بالغة العمق والقوة، دوماً بالغة الجدة.

تفاجأ كل مرة بالروائح، بالأذواق، بالأصوات، بالأحاسيس الحادة اللاذعة الغريبة، بكل الزخم الذي يأتيك من عالم أھوج مرح، يداھمك بكلّ حيويته، من كلّ المسام، كأنه النھر وأنت الإسفنج.

أنت الآن داخل العالم، كما النواة في الثمرة، وهو داخلك يتمطى بمنتهى البطء والحذر. ما أعرب أن تكونا داخل بعضكما البعض، هو خارج داخلك، وأنت داخل خارجه!

يدرك العالم المنكب فوقك أنك ما زلت هشاً غصناً قابلاً لكل أصناف العطب، فيأتيك من المبهم سائل حار لذيذ الطعم، يتدفق داخلك، يأمر برحيل المغص وتوقف الصراخ.

يعود الصمت إلى داخلك لفترة لا تدوم طويلاً. يتجدد مغص الفراغ وكأن لهذه الأحاسيس المزجة مواعيد ثابتة ثبات لذة الرواء والشبع.

تشعر أنه لم يعد لك من طاقة على تحمّل ما يعتمل داخلك. لا حلّ غير التراجع إلى القواعد التي وثبت منها على الدنيا كما يرتمي الفأر بين مخالب الأسد. تهرب، إذن، إلى النوم لتبرأ من صدمة الوصول. أنظر إلى بني سفر وقد وصلوا لتوهم العالم، يدخلونه على أطراف الأصابع ويسارعون إلى المخبأ الذي فارقه كأنهم يتمرنون على عالم لا يواجه دفعة واحدة.

أنت في هذا المنعرج من الطريق كالحيوان الوجل الذي يعذبه الفضول. ما إن يجذبه النور خارج المغارة إلا ويتراجع داخلها وقد فاجأه البرق والرعد.

إنها عادة لن تغادرك إذ لا تأتي مكانا جديدا إلا ويشدّك الحنين إلى ما غادرت، لا تطمئن إلى ما أتيت به إلا إذا كنت واثقا أنّ ما غادرت تحت الطلب تؤوب إليه متى تشاء.

شيئا فشيئا تتضح الحدود وتتفصل الأشكال عن بعضها البعض.

أولها الكائن الذي كان المغارة السحرية وهو الآن الحارس والخدم الأمين، قريبا المرآة التي تعكس لك أول صورك. يرتبط ظهوره المفاجئ في أقدم طبقات ذاكرتي بأصوات سيقع التعرف عليها لاحقا بأنها لخلخال وأساور. هو أول من تسمع منه صوت الأدميين تفهم تلقائيا منه كل رسالة أنت الذي لم يدخل بعد أي لغة.

تشع الملامح بالنور وهو منكب عليك، تبعث فيك ابتسامته طمأنينة عابرة. تختفي الابتسامه، وتقم تلقائيا معنى الخطأ وضرورة التدارك. كيف؟ ترتبك، ثم تعود إلى الصراخ فتصدر منه كم من إشارات أن تريت بالحكم ولا تخف. ثم تنتظم هذه الملامح وهي دوما على نفس الشكل لتنتقش أولى صور كائن عجيب، يتحرك ببطء بالغ، له وجه هادئ ويحرك يدين نحيفتين لا تمسكان بالأشياء إلا برفق فيه خشية أبسط ايداء.

تتعلم باكرا الربط بين حضوره وانحسار كل أحاسيس الضيق والبلل، أنه هو الذي يستجيب لنداء الاستغاثة عندما تطلقه، أنه مصدر السائل الدافئ الذي يطفئ دوما لهيب المغص المتجدد.

هناك إذن شيء حولك يستجيب لك إن أنت أطلقت عقيرتك بالأمر والاحتجاج، لا تدري بماذا تأمر وضد من تحتج. إنها فكرة مغرية لن تتخلص منها بسهولة. قد يكون أهمُّ انطباع للقادم الجديد وأرسخ في الذاكرة أنه محاط، بل وحتى في قبضة كائنات جبارة، هي التي تمنحه بكل كرمها هو بأمس الحاجة إليه، أو تقتر عليه أشدَّ التقدير مهددة وجوده إن هو لم يرضها أو أثار فيها استياء غير مفهوم. آنذاك لا خيار غير التملق تارة والابتزاز تارة أخرى. هكذا تتشكل باكرا في أعماق الذات دعامة الأساطير والأديان. ما أعجب أن ندين بأقدم وأصلب تصوراتنا للعالم لأحاسيس ومشاعر رضّع يتخبطون في مشاكل المغص والبلل!

**

الخطوة الأولى

تأتي مرحلة الخروج من وضع المتلقّي السلبي للمعلومات إلى وضع الجائع الباحث عنها بكل السبل وفي كل المستويات.

عن هذه المرحلة من الرحلة بعض المعطيات المتفرقة في ذاكرة الطفل، لكن كل المطلوب منها تحت تصرف النص وقد أصبح الجدّ الذي يرصد بأقصى الانتباه عند حفيده أولى خطوات الأدمي على الطريق.

- "با أخشى أن تجننك هذه البنت إن تركتها في حراستك كل الوقت الذي سأحتاجه لموعد هامّ.

- اتركي الأمر لي، سأراقبها بمنتهى الحذر وكأنها الحليب على النار.

- تقصد بمنتهى التهريج وهي اللعبة الجديدة التي جادت بها الأقدار.

- كفى وقاحة مع والدك. لا تقلقي والآن، رحماك، أغلقي هذا الباب واختفي.

تنسحب تفاحة مسلّطة عليّ نظرة فيها إشفاق وشكّ في قدراتي على ترويض من تعارفنا على تسميته "البيع".

لا تنتبه رضية لم تعلق بعدها سنتها الأولى للخناقة الضاحكة. تواصل زحفها على أطرافها الأربعة وهي في قمة الجذل، تنعم بحريتها الجديدة بعد أن أخرجتها من الفضاء المطوّق باللوح المسموح لها بالهرج داخله، والذي كنت اسميه -لأسباب يطول شرحها- "جوانتنامو".

أتوجه إلى رضية تحدّق في صامتة بفضول واستغراب.

- ها قد أخرجتك من "جوانتنامو". أنت الآن حرّة يا حرّة. أرني كيف تكون بداية استكشاف العالم في عمرك هذا.

تجلس الرضية على مؤخرتها المكتنزة بالورق الصحي. تعود للتحديق فيّ مطولاً. يلمع في عينيها المتسعيتين على أقصاهما كل الممكن من الاستغراب.

ترمي بيديها البضتين على الأرض لتنتقل كالسهم على أطرافها الأربعة باتجاه المكتبة. تنتصب واقفة مترنحة ثم تدير وجهها بحثاً عن مصدر صوت محرّض ومشجّع على التعمق في استكشاف عالم سيرهيا يوماً اتساعه.

تدفع بأصابعها المرتبكة نحو الرفوف تتحسّس الكتب. تسقط أربعة منها دفعة واحدة. تفاجأ بالدويّ فتسقط بدورها على مؤخرتها من علوّ قامتها غير الشاهقة. تدير وجهها باحثة عن ردود فعل. الآن وقد جاء أمر صامت بمواصلة البحث، تبدأ عملية مطولة تستولي على انتباهها وانتباهي.

يفنرُ ثغرها عن ابتساماة أول صبح لأول عالم.

تعود أدرجها لتمسك بالشيء الذي لا تقدّر كم هو ثمين لأمها وأبيها. تقلّبه ببالغ التركيز.

تكتشف أن الأصابع قادرة على تمزيق أوراقه، فلا تتورع إلى أن يأتيتها الصراخ الضاحك بالتوقف.

تغيّر الرضیعة اتجاهها وتقصدي مسرعة على أطرافها الأربعة وأنا جالس على الأريكة أتأملها.

تتوقّف في نصف الطريق لتعاود الجلوس وقد أمسكت بين أناملها بشيء لا أتعرف عليه. تطيل التحديق فيه ثم تضعه في فمها. ماذا وضعت فيه هذه المرّة؟ لأراقب ملامحها. لا شيء خطير أو مزعج. إذن لتواصل تذوق العالم؛ فاللسان-بعد العينين-أهم أدوات الاستكشاف.

تنتبه حرّة لانتباهي فتبتسم. أصرخ فيها أن تأتيني مسرعة لأقبلها وأدغدغها وأعضها وأمازحها وأحكي لها أولى الأفكار بخصوص قصة القصص التي بدأت ملامحها الكبرى تتشكل في ذهني.

ترمي الرضیعة براحتيها على الأرض وتعود إلى زحفها الراكض إلى أن تصطدم بالطاولة الواطئة. تنتصب من جديد على قدميها لتبدأ العبث بفنجان القهوة.

- ممنوع، ممنوع يا بنت. قلنا ممنوع. القهوة لي فقط ومن المستحسن ألا تراق على بنطلوني.

تلاحظ البنت تغيّر النبرة فتتوقف لحظة. تترك الفنجان لتستولي على الملعقة وتبدأ في الخبط بها على الطاولة. تتوقف وقد فوجئت بالضجيج. ثم تنتبه للمعجزة الجديدة. هي قادرة على إحداث نفس الصوت بنفس العملية، وإلى ما لا نهاية.

تعود لتسلط عليّ نظرتها الثاقبة. كأنها لم ترى فيها هذه المرّة منعا وتقريبا. يشند الخبط. أه، يا رأسي. يكفي من هذه الملعقة اللعينة. رحماك يا بنت. اتركي هذه الستائر وإلا سقطت على رأسك. الهاتف ممنوع وهو لم يفعل لك شيئا، فلم العدوان الظالم عليه؟ لا، لا، كل شيء إلا أزرار الكهرباء. يا إلهي، أين اختفيت!

الحلّ إرجاعك ل ” جوانتانامو” لأخلص من ضجيج الملعقة ومن إرهاق الجري ورايك لمنعك مرة من تمزيق الكتب ومن جرّ نباتات أمك على الأرض. ستحتجّين لحظة متشبّثة بالقضبان الخشبية تمارسين عليّ الضغط والابتزاز ببيكاء فيه كثير من التكلف. لكنك ستجلسين سريعا لمواصلة أبحاثك المعقدة في أرنب الصوف والمكعبات الصفراء والدمية الصامتة. لا، لن أحبسك وقد جنّيت لأبصرك في أولى مراحل الرحلة وأهمها. كوني بنتا طيبة، اجلسي بهدوء على ركبتي بانتظار أن أدوّن بعض الملاحظات على حاسوبي النقال. كل العالم في هذه المرحلة من الرحلة مختزل في تجربة حسّية شعورية قوامها استكشاف الأشياء عبر ما تثيره من أحاسيس البريق و البرد والحرّ والليونة والمقاومة والألم... واستكشاف الكائنات الجبارة المحيطة عبر ما تثيره من مشاعر الخوف والطمأنينة والتعجب والفضول.

تقطع عليّ الرضیعة سلسلة الأفكار وهي تتحرك بعصبية فوق ركبتي كأنها تريد شيئا.

الفأرة!

وفي أقدم ملفات ذاكرة الطفل والكهل تنتهد "ما" والبصر شاخص نحو الأفق:
- يوم وقفت على رجلك وأنت لم تبلغ سننك الأولى زغردت ثم قلت يا ويلي من هذا الطفل
الذي لا يكف عن الحراك. كل من عرفوك فيما بعد سموك الفأر.
يوم يقف الأدمي أول مرة على رجليه!
إنه يوم أغرّ حقاً، فلماذا لا يورخ له كل مسافر، ولا تضرب له الدفوف وتنطلق الزغاريد
وتنصب الموائد وقد رأيت احتفالات لأحداث أقل أهمية بكثير؟
ها أنت تحرك رجلا ترفعها بصعوبة وترميها على طبق تظنّه صلباً لا تعلم أنه يطفو منذ
القدم على أنهار من النّار. ها أنت تواصل تحسّس سطح البسيطة بحذر في محلّه، والعثرة
تلو العثرة تنبؤك أن الطريق مسلسل عثرات. ينزاح عنك الخوف تدريجياً فهمت سرّ العملية
وأن المشي ضرورة فقدان التوازن ثم تداركه.
كأني بالعالم يهمس في أذن كل رضيع مشجّعا ومطمئنا: والآن تقدّم، لا تخف أن تخسف
بك أرضي؛ إنّها تحمل الجبال الرواسي منذ الأزل ولا خشية أن تكون أنت بالذات القنّة
التي تقصم ظهر البعير.

**

المعالم الكبرى

لو تابعنا القادم الجديد وقد عرف كيف يستعمل رجليه لأرهبنا وهو لا يكف عن الركض والرقص والنط والتسلق والهرولة . لكن أهم ما يميّز هذه المرحلة من الرحلة اكتساب أهم أدوات دخول عالم الأدميين والانخراط فيه: الكلام .

هل ثمة شيء يميزنا عن بقية الكائنات التي تقاسمنا هذا الكوكب أكثر من الكلام وهل ثمة أداة تواصل أهم منه طوال الرحلة ؟... نحن نتكلم للتعلّم من بعضنا البعض... نحن نتكلم لكي نقول لرفاق الرحلة لا أمثل خطرا عليكم فيادولني التطمين بأحسن منه... نحن نتكلم لتبادل الأحاسيس والمشاعر والأفكار... نحن نتكلم في كل المواضيع من آخر الإشاعات عن أعدائنا وأحيابنا إلى طبيعة العالم الذي نعبر والبشر الذين نخالط ووجود الله من عدمه... نحن نتكلم لتنسيق جهودنا حتى نسرع بالوصول لأهدافنا المشتركة... نحن نتكلم لمجرد المتعة عندما نكتشف سحر الكلمات وهي تصف بكيفية أخرى فنسمي ذلك شعرا... نحن نتكلم لنضحك ونضحك لما ننتبه فجأة لغرابة ما نقول وما نفعل... نحن نتكلم مع الآخرين لكن الحوار الصامت مع أنفسنا لا يتوقف أبدا . نحن نتكلم منذ ولادة جنسنا البشري نقل خبرتنا بهذا العالم جيلا بعد جيل بما نخط من صور على جدران كهوف ما قبل التاريخ، عبر ما نكتب على صفحات الكتب، عبر ما نسجل في هذا العصر على الأقراص المضغوطة وغدا على شوارذ الذرات... كل هذا والكلام من المهد إلى اللحد ومن جيل لآخر هو الذي يقرّبنا ويبعدنا، هو الذي يجمعنا ويفرقنا، هو الذي يبيّرنا ويضلّلنا وهو دوما ما يجعل من حياتنا نعيما أو جحيما لا يطاق.

الطفل قادر الآن على تسمية الأشياء التي تتزاحم داخل الغرفة الصغيرة التي ينام فيها مع أمه. ثمة الحصير على الأرض، القربة على الحائط، القلة أمام الباب، كانون الشاي والبراد الأزرق وكيس الفحم والطاولة الواطئة التي فوقها قسعة الأكل في ركن من الأركان. بخصوص الكائنات الأولى التي تمّ رصدها خارج وداخل هذه الغرفة ثمة العنزة والدجاجة والديك والقط والحصار والجمال. ثمة الذباب الأسود بأسرابه الكثيفة وطنينه المزعج خاصة أيام جني التمر. ثمة نوع ثالث من الكائنات لا يمرّر مقنع لوجودها اسمها الأفاعي ومن بين عاداتها المقيّنة الدالة على سوء نيتها وقلة تربيتها، الاختفاء داخل الرمل وحتى في طبقات الأمتعة بنية القتل وليس فقط كالذباب لمجرد الإزعاج.

ثمة أيضا الكم الهائل من الكلمات التي تمكنه من تمييز مكونات العالم البالغة الحضور والتأثير : الريح ، الرمل ، النخيل ، الشمس، النجوم والقمر . كل العلامات القارة لأول ديكور للعالم سيعرفه الطفل.

المهمّة أيضا أن بقدرته تبادل المعلومات وحتى الرأي مع البشر الذين يحيطون به وكلهم يتشاركون في اتفاق ضمني على أن اسم المعزة هو لذلك الحيوان اللطيف الذي يعيش في

الركن الغربي من الحوش وليس للحيوان الذي يركبه جده عندما ينطلق كل صباح لمكان مبهم اسمه الغوط لا بدّ أن يكون فيه كائنات وأشياء أخرى لا يعرف لحدّ الآن أسمائها. ترى أين هو هذا الحقل الذي يذهب إليه هو وحماره الذي قرر الطفل اطلاق اسم عنتر تصرخ الأم في طفل في الرابعة أو الخامسة بشدّة غير معهودة فيها:

- أدخل الغرفة بسرعة. ألم أقل لك مرارا: لا تخرج أبدا وحدك عند هبوب الريح!
يفلت الطفل من بين ذراعيها هاربا من جديد لوسط الحوش، يروّض خوفا لا ولن يقبل بوجوده داخله أبدا. ثم كيف يضيّع فرصة تأمل شيء جديد مثير كهذه العاصفة؟ هو الآن مختبئ وراء نخلة يجيل البصر مبهورا في اكفهرار وجه السّماء والموجات الخاطفة من الضياء تتتالي بعصيّة متزايدة كأن إليها يقذف ولّاعة تعاكسه، أو كأنّ عفريتا أشعل في كبد السماء مصباحا من "النيون" يرفض العمل.

تتزايد سرعة ومضات المصباح الخفي وراء جبال قاتمة مبالغة في البعد، مغالية في التعالي، تنذر بما لا يحمد عقباه. يتصبّب الطفل عرقا ثم يبدأ في مراجعة حساباته بخصوص قرار الخروج للغوط جريا وراء جدّه يساعده في سقي النخل. تعبره لحظة فكرة أنّ الصحراء غاضبة على ما ارتكبه الأطفال-خاصة هو-من حماقات.
تركّز الأم وراء طفلها وقد اكتشفته مختبئا هذه المرّة وراء أطول نخلة الحوش يمسح الرمل عن وجهه. تدفعه بقوة إلى الغرفة الصغيرة، تحميه من جنون الريح تطمئننه وتطمئن نفسها:

- هل تشعر بحرقّة في عينيك؟

- اتركيني، أريد أن أذهب للغوط. جدّي هناك ينتظرنني.

- ألم تسمع كم طفلا تاه في الرمل، خطفته العاصفة من أمّه وأبيه؟

- جدّي سيجدني. هو أحسن من يقنني الآثار.

تصرخ الأم لتسمع صوتها وسط صفير الريح والرمل يصفع الباب الخشبي للغرفة كأنه يريد الإجهاز على صيد طال ترصده : كفى الآن، لا خروج قبل نهاية العاصفة.
زارت العاصفة أم لم تزار يجب أن يخرج الطفل لأحبّ أماكن الواحة الى قلبه حيث له موعد متجدّد مع أهم معلم من معالم العالم .

يصرخ في أمّه محتجا، مهددا، مبتزا ومتوسلا

- أريد أن أذهب للعين حالا، حالا، الآن، الآن، الآن أريد السباحة في العين مع اصحابي.

- نعم سنذهب للعين بعد سكون الريح شريطة أن تعدي أنك لن تغسل المعزاة مرة أخرى بماء القلّة. إنه شرابنا لكامل اليوم.

- وهل يجب أن أقبل الماء كما تفعلين عندما تلتمين الخبز قبل أكله؟

يتعمق ربع الابتسامة.

- حقا أنت "حَوف" كبير، لا يفوتك شيء. لا، ليس عليك أن تقبل الماء، أكرمه فقط بعدم تذييره. انظر ما يتكلف جدك حمد وحماره عنتر من عنت ليكون هناك دوما في القربة والجرة ما تشرب.

يقولون إنه بلا طعم ولا أطيّب من مذاقه عندما يجفّ الحلق ويصل أوجه عذاب العطش... يقولون إنه بلا لون هو الذي يقبل وتقبل به كل الألوان... يقولون إنه بلا شكل، هو النهر المتدفق، الجليد الساكن، الضباب الكثيف، البخار الخفيف، وما تمخضت عنه قريحة السحاب من لوحات السماء... يقولون إنه بلا رائحة لعجز اللغة وقصور حاسة الشم... وهو في كل الحالات والأشكال القدوة التي لا تضاهيها قدوة.

وشاهدت كيف النهر يبذل مائه فلا بيتغي شكرا ولا يدعي فضلا (إيليا أبو ماضي)
وكيف يزيّن الطلّ وردا وعوسجا وكيف يروّي العارض الوعر والسهلا
تجيء إليه الطير عطشى فترتوي وإن وردته الإبل لم يزجر الأبل
ويغتسل الذئب الأثيم بمائه فلا إثم ذا يمحي ولا طهر ذا يبلى

لا خيار للطفل غير الانتظار إلى أن تنتهي هذه العاصفة ومواصلة سماع أم تواصل رواية آخر ما في جعبتها من قصص عواصف الربيع وعدد من فقدوا فيها الطريق والحياة أحيانا.

- خرجت المسكينة من الخيمة في لحظة مثل هذه لقضاء بعض حوائجها. وجدت بعد أيام مَيّنة على بعد بضعة أمتار من الخيمة وقد حجب عنها الرمل معالم الطريق.

تنتهّد الأم ثم تنطلق منها الصرخة التي لن ينساها الطفل أبدا:

- يا بني، فرّج الله كربتنا وأخرجنا من هذه الأرض الموحشة، إنها بوابة جهنم، الله يسامح والدك الذي رمانا فيها ونسينا.

ثم تعود للنصح والتحذير وتلك مهمة كل دليل رغم تواضع النتائج.

- احلف برأس أبيك أنك لن تخرج أبدا لعاصفة الرمل، أنك لن تبعد عني. من ذا الذي سيضحكني ويخفف من أحراني؟

نعم، لكن كيف يمكن للطفل استكشاف العالم إن لم يقبل بخطر الضياع فيه؟ بل هل جننا أصلا لغير متعة الضياع!

وفي ملف آخر يؤكد "با" ما روته الأم عن ضرورة الانتباه للصحراء يوم تكثّر عن الأنبياب: لما هبّت الريح، فقدت كل أثر لرفاق خرجت وإياهم نسطاد الغزال الشارد. ركضت وراءهم يوما كاملا والريح تمحو الآثار. ولما بدأت الشمس ترميني بأشعتها كالصياد يرمي صيده بالنبال المطلية بالنار، ولا طريق يدنني عليه إنس أو جنّ، أيقنت أنني هالك. ثم تذكرت كيف يكون المشي عندما يضيع الطريق. حفرت لي في الرمل حفرة دخلتها أنتظر غروب الوحش. عند مجيء الليل خرجت منها لأمشي والنجوم وحدها الدليل. هكذا بقيت تائها أياما بطول أشهر أحفر الحفر أختبئ فيها نهارا وأمشي ليلا إلى أن وصلت

واحة تواصلت بوصولها الحياة. لا يغرّنك-يا بني-من الصحراء جمالها. ويل لمن لا يحمل على محمل الجدّ تجهّمها وويل أيضا لمن لا يرفع تحديها. تعود الأم لدورها الأزلي تفسّر من جديد وتحذّر عبثا. - يا بني، نعم هدأت العاصفة لكننا في عزّ الظهيرة، لا مجال للخروج الآن، ثمة من مات بضربة شمس.

كم سمع الطفل من تحذير بخصوص هذه الشمس المعلم القار المتحرك في العالم. - يا بني، لا تنتظر هكذا إلى الشمس فإنها ستؤذي بصرك. هو لا يريد أن يسترق إليها النظر فحسب وإنما مواجهتها مرفوع الرأس، شاخص العينين، لا تختلج له عضلة.

يشيح الطفل برأسه حتى لا ينگسه، مقتنعا أنه لا يترك التحديق في الشمس لعجزه عن المواجهة، وإنما لأنه لا يريد أن يغضب أمه. - "ما"، هل يمكن للشمس أن تسقط فوق رؤوسنا؟

لا ينتظر جوابا، وقد اختار ردّه وبدأ يتفاعل معه. ها هو مشغول بالجري وراء برتقالة ضخمة سقطت لتوها من سقف الفضاء، صوّب نحوها سهما استقرّ في كبدها فهوت من عليائها كالطير الجريح. ها هو في فضاء خياله يمدّ يده بحذر نحوها ثم يسحبها بسرعة السهم وقد لسعته حرارة جمر "الكانون". الحلّ أن يريق على الجمر الملتهبة بعض الماء ليلعب بها بعيدا عن الأنظار. ثم ينتبه إلى خطورة فعلته والظلام يزحف من كل الأفاق.

- اسم الله على ابني. كلمني. ما بك؟

- لا شيء، لا شيء، قلت لك لا شيء.

يفلت الطفل من ذراعي أمه. يهرول راكضا، يرمي بحصاته الشمس، لاعنا ما سببت له من رعب وقد سكن لحظة عالما طلي بالقطران.

الطفل الآن حبيس الحوش. ممنوع عليه العودة للهضبة التي تسميها لغة أهله "العرق". لن يجلس على رملها الناعم يتأمل تموج التلال الشقر إلى ارتطامها بالأفق. لكنه سيغافل أمه أول فرصة استتباب السلام الحذر ليعود إلى موقع مشاهدة يجذبه كما يجذب المغناطيس ذرات الحديد. أليس له موعد مع أبيه هناك وأمّه تعدّه أنه سيخرج يوما من الطريق الذي وراء الكتبان؟

يغمض عينيه ليرى بخيال في بداية تجريب قدراته أجداده يتقدّمون بخطى بطيئة ثابتة في فضاء بلا حدود. إنهم الأوائل، الغزاة الذين دخلوا هذه الفيافي أول مرة، الفاتحون للطريق فيه بكل صبر على ما لا يطاق من الأوجاع.

تأتي الكهل وهو يتفحص مشاعره أن فيها إعجاب وغيره ونكهة من حفيظة. الملاعين... هم لم يتركوا للأحفاد غير طرق معبدة لا متعة فيها ولا خطر.

كأنني بأشباح توغّلت بعيدا في فضاء العتمة، تبيّث عبر الزمان بدورها مشاعر فيها التعجب ثم حفيظة واضحة، ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشنا ونحن

تائهون في هذه الصحراء لا نعرف لها بداية أو نهاية، نكاد نهلك فيها هلعاً وجوعاً وعطشاً...
وخذ ما شئت من رعبنا ومن انبهارنا البكر.

الظلام أخيراً بعد طول الترجي ونفاد آخر مخزون من الصبر.

- "ما"، لماذا لا نرى الشمس إبان الليل؟

تجاهد الأم للحفاظ على وقارها.

- يا بني، ألا يكفي ما نقاسي منها طوال اليوم، وتريدها فوقنا حتى بالليل.

- أنا أعرف أنك لا تحبين الشمس.

- لا أحبها! أنا أبغضها... أقصد شمس هذه الربوع.

يستبطن الطفل الشدّ والجذب في المعلومات المبهمة التي يتلقاها باستمرار حب ابية للصحراء وبغض أمه لها خاصة وقد جاءت هي وطفليها مرغمة وديعة عند عائلة الزوج الغائب بانتظار رجوع لا أحد يعرف مواعده.

أفتح هنا القوسين لأعرب عن اختلافي التام مع "ما" رغم احترامي لرأيها وشرعية حبها لأراضي خضراء على مدار السنة تحمل أجمل بساتين الزيتون والعنب.

صحيح أننا كلنا نكتشف العالم في زمن لم نستشر فيه ندخله ومن مكان لم نختره، لكن العالم يتجلى لك بكل روائعه من أي مكان تدخله وفي أي زمن تتبلور فيه. لكنني أقولها متحملاً كامل مسؤولياتي أنه لا يوجد مكان أحسن لدخول العالم من بوابة الصحراء، شريطة أن يكون الدخول ليلاً.

نعم الصحراء جهنم في عزّ الظهيرة وأروع مكان على سطح الأرض عندما ترحل الشمس عنها.

تستدرك "ما" وقد فهمت أن طفلها لا يحبّ قدها في الصحراء وتهجمها على شمس الأب والجد:

- لا أجمل من شروقها حتى هنا... لكن... لماذا تنقلب فيما بعد إلى...

تصمت "ما" لحظة، تصيح السمع للضوضاء المتصاعدة من الركن الغربي للحوش حيث يرقد الماعز خلف ستار من سعف النخل. تبتسم وهي تسمع نغاء الجدي المولود الجديد. ثم تشخص ببصرها نحو الأفق، تحلم مفتوحة العينين.

- آه، الشمس هناك في الشمال حيث قرية جدتك... كم هي ألطف وأرحم!

- "ما" هل لكل قرية شمسها، وشمسنا أحرّ شمس؟

- لا يا حبيبي، إنها نفس الشمس، تشرق وتغرب على كل الناس أينما وجدوا.

يستوعب الطفل معلومة هائلة ستطبع إلى النهاية تصوره للعالم: إن له ثوابت يعرفها الناس جميعاً ويتشاركون فيها منها أنه لا توجد إلا شمس واحدة.

كأنّ الجوّ السحري رفع عن روح "ما" تحقّقاً بقيت إلى آخر نفس تخفي وراءه حساسية مرهفة وخجلا دفيناً. بصوت يكاد لا يسمع، تأخذ في الترنم بأغنية لمغنية لا يحبها إلا الفلاحون والفقراء.

- "ما"، من بنت المحاميد هذه؟ ولماذا اسمها "عيشة"؟ هل تعرفينها؟ لماذا لم يكتملوا نقش
 "البخوثق" الذي تلبس؟ هل كان ثوبا سحريا تختفي داخله فلا يراها أحد؟
 تضع الأم إصبعها على فم طفلها لعله يصمت لحظة.
 هذا طفل قرّر ككل الأطفال أنه لن يقبل الاستسلام للنوم حتى لا يفوته شيء أو لحظة من
 العالم السحري ولتقل "ما" ما تشاء.
 - أنا و"با" وجدّي نحبّ القمر. أعرف أنك أيضا تحبينه كثيرا. سأنتظر طلوعه معك.
 - قد يأتي متأخرا هذه الليلة.
 - لا يهمّ، سأسهر معك إلى أن يأتي.
 - أمر سيدي ومولاي، لكن لا تنهني إذا حلا لك النوم.
 قد يكون سبب حبّ الطفل للقمر ما يشيعه ظهوره من ارتخاء محبّب، ففي الليالي التي
 يستدير فيها وجهه تكتسب ملامح العالم كل ما يزخر به من هدوء وجمال. تنتفي عنه
 الوحشة والسحنة المكثرة التي يتخذها عندما يتسرّب بحالك الظلام. ما إن يرتفع في كبد
 السماء حتى تتراجع الكوايبس والأشباح. كيف لا يكون صديق الأطفال، لا فقط حليف
 اللصوص والعشاق؟
 هذا طفل ما زال بعيدا كل البعد عن معرفة الفضل الحقيقي للقمر على الأطفال واللصوص
 والعشاق والأنبياء. من أوحى للشعراء بأرقّ وأجمل الأشعار إلا هو؟
 من علم الأدمي النسق والإيقاع حتى وإن وجب أن نعتزف مكرهين ببعض الفضل للشمس؟
 من غيره أوحى لنا أنه لا بدّ بعد كلّ غياب من رجوع، وبعد كل رجوع من رحيل؟ ثم أكتنا
 نخترع مفهوم البعث لو لم يكن لنا هذا المعلم؟
 "كم عمر القمر؟ (إيسا)
 ثلاث عشرة سنة.
 تقرّيبا"
 أهمّ من كل هذه المشاكل فرضيات الطفل عن الصلة بين القمر وبين الهلال.
 - "ما"، حتى يبقى دوما الحوش مضاء، يأتي القمر ولما يتعب من العمل يتبعه الهلال.
 تحاول الأم التصحيح:
 - هما شيء واحد يا بني. ينمو الهلال، وعند كامل استدارته نسميه القمر.
 - لا يمكن أن يكون الهلال هو القمر. إنه شيء آخر. لو كان كلامك صحيحا لوجد هلال
 للشمس.
 تبسم "ما"، تداري حرجا. أليكون للشمس هلال لم يتفطن له إلا طفلها؟
 - "ما"، لماذا يوجد قمر واحد بينما هناك كثير من النجوم؟

¹ نسيج من القطن يوضع على الرأس وينسدل على الكتفين إلى مستوى الخصرة تعتمره النساء البدويات خارج بيوتهن (الناشر)

الخيال صياغته بعد عقود. أليست هذه هي القناعة التي ترسبت في ذهنه بعد طول الاستماع لتقصص الأدميين؟

يعود الطفل للكلام وهو مصرّ على ألا يتوقف عنه ما زال تحت وطأة اكتشاف كل ما يزخر به من إمكانيات لأشباع فضوله وخاصة لمنع التواصل مع أمه من أي انقطاع. تقاطعه الأم تضع أصبعها على فمه هامسة في أذنه: أنصت.

- أنصت لأي شيء؟

- للصمت.... لكل هذا الصمت.

الصمت الذي سيحلم به الكهل طيلة الرحلة وهو دوما محاصر، مهتد، معتدى عليه بكل ما يصدره الأدميون من صراخ وتأوه ونواح وتضرّع وشخير وتسايب وهتاف... لا خوف أن تتجاسر أي من الكائنات التي تسكن الصحراء على رفع عقيرتها بأي ضجيج منكر ووقارها ليلا يثني عن كل ضجيج بذيء وعن كل جذل عقيم... حتى أرقّ الموسيقى خطأ ذوق غير سليم وقد أصبح في حضرتها كل نغم مهما سما نشازا... في ذلك المكان الذي لا يشبهه مكان، في ذلك الليل الذي لا يشبهه ليل، في ذلك الصمت الذي لا يشبهه صمت، يتضوّع الجوّ إبحاء ووحيا لمن يعرف التقاط الإشارات فيتجدد التواصل بين السماء والأرض... ولأنه لا الجبل ولا السهل ولا البحر قادر على استخراج ما تستخرجه الصحراء ليلا من أعماق الذات، حكم عليها وعليها وحدها بانجاب الأنبياء... هكذا وقف كم من آدمي في حضرة أبيه صور الجمال والجلال هامسا لنفسه وللنجوم: نعم تذكرت الآن من أنا، تذكرت من نحن وماذا نفعل كلنا هنا!

يتقدم الليل والطفل يغفو ويستيقظ بين ذراعي أم جالسة بين النخيل تتأمل سماء هي الأخرى كالصحراء مغرقة في الصمت... أو هكذا يبدو.

لا الطفل ولا أمه يعرفان أن هذه السماء الساكنة تخفي وراء وقارها الخادع دوي انفجار شمس أين منه دوي ألف رعد ورعد، وهدير مجرات تتناطح أين منه هدير ألف محيط ومحيط، وعويل رياح من نار ومن نور أين منه عويل ألف عاصفة وعاصفة، وصفير ثقوب سود تلتهم الكواكب كالكواسر وتلفظها كالبراكين. أمن حسن الحظّ أو من سؤئه أن بعدا لا يتصوره عقل يمنع عنّا ضجيجا أين منه ما نعرف من ضجيج

ينتبه الطفل وهو يغالب موجات النعاس ليريق ما يتلألأ في حالك السواد الصامت.

يرفع رأسه يجيل بصره من اليسار إلى اليمين ببطء شديد. يباغته سؤال يعيد النشاط لذهن على وشك الاستسلام النهائي لسلطان النوم: كم في السماء من نجم؟ يجلس فجأة ليبدأ العدّ. لكنه لا يحسب أبعد من عشرة ويخلط في تتابع الأرقام. ثم تأتيه شهوة الإمساك بواحد منها ليضعه في فمه وعلى الأذن علّه يسمع له صوتا، وقريبا من أنفه ليعلم أي عطر تفوح به النجوم. بعد ذلك تأتيه فكرة السطو على أكثرها بريقا ليكون هديته

ل "ما". يتردد خوفا من ردة فعل صاحب الكنز المنثور.

سؤال آخر يرهق به ذهننا مشغولاً في أن واحد بمشاكل الفلك وبمشكلة البقاء مستيقظاً: ماذا لو كانت النجوم أضواء مشاعل قبائل غازية آتية من أعماق الفضاء تبحث لها في ظلمة الليل- عن طريق إلى حيث النهب والسلب؟

إنها فكرة ستخيف "ما" لذلك لا مجال لمصارحتها بها. لا، لا هي رسالة مكتوبة له على سبورة السماء تمحوها الشمس كل صباح. قد تكون ثقباً في ستار داكن أسدل بين عالمين: العالم الذي يعيش فيه هو وأمه والدجاج والماعز والعمات والأعمام والجد، والعالم الذي يعيش فيه الكائن الغريب الذي تسميه "ما" الله. ألا تردّد دوماً أنه نور يوجد في السماء؟ كان وثاقاً أنه لو وضع عينه على أيّ من هذه الثقوب لرآه جالساً على عرشه. آه، لو استطاع التسلل عبرها ليلاقي هذا المختفي الذي لا يزيح اللثام أبداً!

كم استقرّ فيه هذا الكائن البالغ الحضور البالغ الغياب، الذي تتناحبه أمه في الجهر وفي السرّ، فضولاً جارفاً! كم صوراً مشوّشة عن هذا الذي يثير فيها رهبة خاشعة تنضح بها حركاتها وهي تقطع أعمالها لتتوجه له لا تلتفت لشيء أو أحد، ولا حتى إليه. ومن صورته في فكر الطفل أنه آدمي بالغ الطول، بالغ العرض، بالغ القوة، بالغ الطيبة، بالغ الاهتمام بمشاكل "ما"، فهي لا تبتهل بطلب إلا له، مردّدة أنه لا سند غيره يرجى في هذه الدنيا. لا مجال للتأكد من الأمر إلا بالسفر إلى حيث يوجد. ما الحلّ وثقوب النور متناهية البعد ولا يمكن أن يصلها بقامته الصغيرة؟ بسيط: يجب الاستعانة بسلم، يوضع على سلم، يوضع بدوره على سلم آخر، وهكذا إلى أن يصل. قد لا تتسع الثقوب الصغيرة لممرور جسمه. ربما يجب المرور من ثقب أوسع.

الحلّ بالطبع: استعمال فانوس الليل عند اكتماله.

حانت لحظة "الإسراء" وقد أثقل النوم منه الجفون وانتهت المقاومة العنيفة. يبدأ الطفل التسلّق وكل درجة يعنلبيها تزيده خفة وجدلاً إلى أن يصل الكوة المفتوحة. يثب من خلالها كالقط المرح ليجد نفسه أخيراً وراء نقاب الليل في عالم لا مكان فيه لوحشة الظلام. تنتصب أمامه مصطبة شاهقة مفروشة بالسجاد الفاخر، وفوقها شيخ مهيب تبدأ لحيته عند النجوم ونهايتها السحاب. يمدّد الطفل قامته الصغيرة إلى أعلى محاولاً التمعّن في ملامح وجه مشرق بالنور.

يبتسم له الله برفق، ثم يأخذه بين ذراعيه، فيشعر-وهو جالس على ركبتيه-بأنفاسه الهادئة على عنقه.

- ماذا تريد مني، يا صغيري؟

كم في هذا الصوت من رفق ومن حبّ! تتزاحم المطالب عن أب يريد له عاد من الغربية ولا يجب أن يعود إليها أبداً، وعن أمّ يجب أن تكون أقلّ حزناً، وعن قصص علي بابا تروى له في كل وقت، وعن أجنحة على الظهر للطيران مثل العصفير، وعن عقد من النجوم لجيد "ما"، وعن مساحة جديدة للجدّ، وعن أتان جميلة يزوجها لعنتر لتخفف عنه وحدته، وعن ضرورة حضور الأجوبة عن كلالل أسئلته ليفهم كلالل شيء. تتسع ابتسامته

الكائن المهيّب. يفهم الطفل أنه أخذ وعدا قاطعا. تنتشع روحه بالطمأنينة وتغمره سعادة فائقة.

يشعر على وجهه بيد تمسح شعره، ويسمع همسا رقيقا يأمر بالاستيقاظ.
- "ما"، لقد كلمت الله وقلت له ...

ترتسم على وجه الأمّ علامات انزعاج شديد لا يفهم له الطفل سببا.

- إياك، ثم إياك أن تعود لمثل هذا الكلام، إياك!

تضع "ما" يدها على فم ابن كم تخشى عليه أحيانا... من ماذا بالضبط؟

يدرك الطفل من الاستياء في نظرة أمه أن هذه التي تفهمه دوما ترفض، لسبب مجهول، ولأول مرة، أن تفهمه وحتى أن تصغي لما أوصاه الله أن يبلّغها.

- "ما"، لكنه قال لي...

- يا بني قلت لك كفى.

ينتبه الطفل أنه لا فائدة من مواصلة طرق باب سيبقى مغلقا مهما حاول فتحه. يفضل الاخلاص للنوم مجددا وهو لا يعلم ما الذي يخبئه له المنعطف الجديد من الطريق. إنها آخر ليلة للطفل في صحرائه الغالية لا يعلم أنه سيرحل عنها وسيرحل بها كاملة داخل وجدانه.

تتحني الأم على طفل نصف نائم، تقبله وتهمس في أذنه:

- انهض إنه الفجر

تهزّ طفلا برقة متزايدة الحزم فينهرها صارخا:

- اتركيني.

- انظر، سترى ما يعجبك كثيرا.

يجلس الطفل حذو أمه شاخصا مثلها نحو المشهد، أجم خشوع اللحظة لسانه ولسانها. شيئا فشيئا يتلّون ثوب الليل بحمرة شاحبة، تصبح شعلة نور، تتحوّل إلى بحر فان. هل ثمة حيوان كاسر فتح له للخروج من جنب الليل جرحا ينزف؟ كلا؛ إنها الشمس. تخرج من السواد بجلال متخذة لها لون ذهب مصقّى لم يتجمّد بعد في سباته.

ما من شكّ في فضل بناء معابد ماتشوبييتشام على البشرية جمعاء. لا أحد يعرف كيف كانت تربط الشمس عند الغروب إلى الصخرة المقدسة التي وضعوها وسط المعبد، ولا ما الحبل الذي كانت توثق به كما توثق الفرس إلى الوند. يبقى-أيا كانت التقنية المجهولة، وأيا كان الحبل العجيب-أننا ربما ندين لهم بثباتها على الشروق بعد كل غروب رغم كثرة ما اطلعت عليه من أسرار وما شاهدت من بشاعات.

تستغرق "ما" في صلاتها الصامتة جاثية على ركبتيها وابنها فاغر فمه من الدهشة يتابع وجه الله يبتسم. تفرغ الأم من صلاتها. تتوجه مبتسمة لابنها:

- لم تنظر في الاتجاه المعاكس.

يَتَسَمَّرُ الطِّفْلُ أَمَامَ مَعْجِزَةٍ جَدِيدَةٍ. الْقَمَرُ فِي طَرَفٍ مِنَ السَّمَاءِ، وَالشَّمْسُ تَوَاجِهَهُ فِي الطَّرَفِ
الْآخَرَ. كَيْفَ يُمْكِنُ لِشَيْءٍ كَهَذَا أَنْ يَحْدُثَ وَهُوَ الَّذِي اسْتَبْطَنَ بَاكِرًا أَنْ لِفَانُوسِ النَّهَارِ نِصْفَ
الزَّمَانِ، وَلِفَانُوسِ اللَّيْلِ نِصْفَهُ الْآخَرَ، أَنَّهُمَا لَا يَلْتَقِيَانِ أَبَدًا فِي نَفْسِ السَّمَاءِ.
إِنِّهَا حَالَةٌ يَتَّخِذُهَا الْعَالَمُ الطَّائِفُ عِنْدَمَا يَقَرَّرُ أَنْ يَفْتِنَ أَنْظَارَ الزَّائِرِينَ. بَدَاهَةٌ لَمْ يَدَّخِرِ الدَّاعِي
الْمَجْهُولُ أَيَّ جَهْدٍ وَلَمْ يَتَرَأَّجِعْ أَمَامَ حُجْمِ النِّقْفَاتِ لِتَزْيِينِ دَارِ الضِّيَافَةِ. أَلْيَبْهَرُنَا بِغَنَاءِ وَحْسِهِ
الْفَنِيِّ الْمَرْهَفِ، أَمْ لِيَعْوِضَنَا عَمَّا سَنَلْقَى مِنْ عَنَاءٍ فِي دَارِ ضِيَافَتِهِ هَذِهِ؟

**

معلم الزمان

شيئا فشيئا تتضح وتثبت في ذهن الطفل المعالم الكبرى للعالم الذي أفاق فيه. فوق رأسه السماء زرقاء اللون نهارا حالكة السواد ليلا مقام الشمس والقمر والنجوم والله. تحت قدميه الأرض وما تحمل من بشر وبعير وحمير. وراء غابات النخل كثبان الرمل وورائها امتداد مجهول سيأتي زمن اكتشافه لما يخرج إليه بحثا عن "با".

تأتي مرحلة الانتباه لكون كل ما حوله لا يثبت على حال. فالشمس تشرق وتغرب والقمر يظهر ويختفي وعاصفة الريح تزرأ وتصمت ومغص الجوع يرحل ثم يعود. يكتشف الطفل يوما أن للأيام وإن تشابهت نكهة مختلفة، أن هناك أحداثا تأتي بمواعيد ثابتة يعرفها الكل بل حتى هو. أية دهشة كانت تصيبه لو أقيمت السوق الأسبوعية عند غروب الشمس أو غير يوم الخميس؟

ثمة يوم أدرك باكرا أهميته وأمه تفيق فيه وفي عينيها بريق غريب وهي تسارع لإعداد طعام لا تطبخه إلا في هذه المناسبة: عصيدة بالسكر والسمن. إنه يوم ميلاد الإنسان الذي لا تنفك عن ذكر اسمه تتبرك به تترجى حمايته من أخطار مبهمة.

ثمة أيضا الليلة المشهودة التي يخرج فيها الكبار إلى كثبان الرمل يتبعهم هو وبقية الصبية ينتظرون علامة من السماء، وبمجئها تحل أسعد ليالي الأطفال وأشق أيام الكبار، والكل فرح راض بما يأمر به الهلال.

- "ما"، لماذا يذهب رمضان؟ أريده أن يبقى طول الوقت.

- لا تقلق يا بني، إنه عائد السنة المقبلة.

- أنت متأكدة؟

- رمضان لا يخلف وعده أبدا.

- أنت متأكدة، متأكدة، متأكدة!

- كل التأكد على كل حال هو سينتهي بالعيد، كم ستحب هذا اليوم.

العيد وما أدراك ما العيد! حتى الهواء مشبع ذلك اليوم بروائح الحبور والحب والأمل. المشكلة أنه يرحل هو الآخر تتبعه أيام لا لون لها ولا طعم.

ينتبه الطفل يوما أن عليه مواجهة القر بعد طول المعاناة من الحر.

لا مكان يلفحك فيه الهواء كوهج النار قدر الصحراء، لكن أين برد بلدان الجليد من بردها ليلة شتاء متجهّم. ها هو في فراشه يرتعش تحت أثقل البطاطين.

- "ما"، لماذا هناك شتاء وصيف؟

- إنها فصول السنة، يا بني.

- ما معنى فصول؟

- كبرى التغيرات التي يعرفها الطقس... أي الجو... أي...

- لكن، لماذا على الطقس أن يتغير؟

- هكذا هي الأمور كما أرادها الله.

يواصل الطفل بحثه عن المعطيات الضرورية لكي يتشكل العالم في ذهنه بأكثر ما يمكن من الوضوح ويواصل الكهل العمل عليها بالفكر والخيال في بحث لم يتوقف يوماً.

- "ما"، هل هناك فصول أخرى غير الشتاء والصيف؟

- نعم يا حبيبي الفصول أربعة. سترى تتابعها جميعاً عندما نعود لأرض جدتك، بعيداً عن هذه الأرض التي سخط الله عليها فحرمها الربيع والخريف مبتلياً إياها بلهب جهنم أغلب الوقت ولبالي الصقيع ما بقي من الزمان. ما أحلى الخريف هنا واللهب يشتعل في دوالي العنب! ما أحلى الربيع وأشجار اللوز تعتمر تاج أزهارها البيض!

- "ما" هل هناك أماكن فيها خمسة فصول... أو ستة أو سبعة... ما اسمها؟
تكفكف الأم دمعها ثم تبتسم.

- "ما" لكن لماذا أربعة، لماذا أربعة فقط؟

نعم سؤال وجيه كأغلب أسئلة الأطفال. لماذا أربعة فصول فقط حتى في الأراضي الأكثر حظاً من أرض الآباء والأجداد؟ ربما لأنها تعكس رحلة العالم نفسه، الربيع ولادته والصيف شبابه والخريف كهولته والشتاء شيخوخته؟

- "ما"، أي فصل هو الأول؟ أيهم المفضل عند الله؟

تنخرط الأم في سمر سيدوم طويلاً تعابث به طفلها وينسيها همومها.

- الأجل طبعاً... الربيع.

يتقدم الطفل لأول أيام الخلق مرحباً ومهنئاً بحسن الوصول.

يزيح الفنان الأعظم النقاب عن وجه السماء. يهشّ نافذ الصبر-بعصاه وبيعض الريح على بقايا سحب عابسة بلون الرماد فتتصرف متأقفة متوعدة برجوع قريب. ثم يمرر خرقاً لامعة البياض على الشمس فتستعيد الألوان بريقها. على ذكر الألوان، ليس لي بالتعبير مجدداً عن عميق الاحترام لهذا الفنان القدير والاحتجاج على قلة انتباه جُلّ المسافرين إلى مدى المهنية العالية التي تحلّى بها وما يزال. هل عرفتم نهارة طلع علينا والعالم مثل أفلام بداية القرن، ليس له من الألوان سوى الأبيض والأسود لنقص في التلوين أو لإضراب في مصنع الألوان؟ كل المطلوب منها متوفر على الدوام. صحيح أنه كان بوسع الفنان الأعظم أن يظهر مزيداً من الكرم أي مزيداً من الألوان للسماء وللأشياء والكائنات يغيرها طول الوقت، حتى تنسارع كل صباح للنافذة لنصرخ مرة: ما أروع هذه السماء الوردية، وتارة أخرى: أفت، ما هذه الصفرة الغنيّة التي اتخذتها الأشجار، الظاهر أنه سيكون يوماً بطعم القرع.

تقول كفى دلالات يا هذا، انظر كيف يواصل الربيع رسم أروع اللوحات. ها هو يأمر أشجار اللوز والخوخ بارتداء أجمل الحلّي والحلل. ها هو يضرب على خشبة المسرح بعصاه

لنتدافع الكائنات من مخابئها، تنفض عنها الخمول والحدز. تخرج أول فراشة تستعرض جناحيها الجديدين بغنج. تتبعتها أول نحلة يدلّ اضطرابها أنها ما زالت لا تحسن ركوب ظهر النسيم. تغادر بعدهما أول نملة غارها، تفرك عينيها وقد أبهرها ساطع النور. يتسارع إلى أعالي الأشجار وقد أكمل زينته، أول عصفور مرتبك، والأمر بالخروج فاجأه في آخر مشهد من حلم جميل. تتتابع بقية الكائنات على الركح إلى أن يمتلئ بها ويفيض.

هذا الربيع "إيسا"

حتى ظلي

مفعم حيوية

أن أوان إطلاق الروائح من مخابئها. تسكرني ما تبيّه الحشائش والأزهار من رسائل الحب. يرفرف حول أنفي جناحان عصبيان. إنها نحلة تريد دسّ رأسها في أزهار البرتقال. مؤكّد أنها تعتبر نفسها صاحبة الأولوية والحق في مثل هذا القرب. أفتعل عدم الانتباه مواصلا الاستنشاق النهم. تأتيني علامات مبهمة عن نفاذ صبر الزهرة، وأنها ضاقت ذرعا بأنف ليس من ورائه نفع. أسارع لاقتراح يضمن مصالح الطرفين. أبعث لها-عبر مختلف الفضاءات-بصورة أنف عباً فوق الجلد وفي الخياشيم ما تريد إرساله ليتمرّغ في أحضان زهرة أخرى وأنفي هذه المرّة همزة وصل بين الذكر والأنثى. تسارع بالرفض وتسارع النحلة لما يلعب عندها دور السيف، تخرجه من الغمد. لا حيلة لي غير تركهما يتّمان صفقة لا تريداني-ظلمًا-طرفا فيها.

أه، كاد "السيد ربيع" أن ينسى من فرط عجلته الأهمّ. يرفع عصاه في وجه جوقة ما تزال خرساء. تتعالى من كلّ ما يمشي وينطّ ويطير ثرثرة لا هدف لها إلا متعة الهذر. تنقلب هنا وهناك همس غزل، ثم صراخ لأدّة الجماع.

نعم، ما من شكّ أن الربيع أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب في عالم جنناه لفسحة تدوم الحياة كلها.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطلّ الكلام:

- لا، لا، أول يوم للعالم كان بداية الصيف.

يتقدّم مرحّبًا بالصيف ومهنّا بحسن الوصول. لا خيار للربيع غير جمع أغراضه والخروج المتناقل تعصره المرارة، هو الذي اعتقد أنه وضع للعالم أجمل وآخر ديكور. مهلاً؛ إنه راجع، فلا أحد يطبق له فراقاً.

يطرد القادم الجديد بفضاظة ما بقي متردّداً من قطعان السحب، يريد السماء فارغة إلا من شمس كأنها قدّت من سبائك الذهب. تتراجع خضرة المروج مفسحة المكان لحمرة مصفرة، وقد أصبحت الأرض مرآة لحمم الشمس. يفتح البحر أخيراً ذراعيه فيدخله الطفل سعيداً بقاء موج عاد مضيافاً بعد طول التمتع. تتخذ حركة الكائنات حدة غير معهودة وكأنه لا وجود لمكان قادر على احتواء ما بالأدميين من شيق. ترتخي الأعصاب بحلول ليل يصل كالمنقذ من السيف والنطع. ترتمي في أحضانها الكائنات ترخّب وتتمنى له طول المقام.

تتصاعد روائح الريحان والفَلّ والياسمين من حدائق البيوت ومن الحقول والبراري، ومن غابات الزيتون تتصاعد أغاني الشوق والإغراء لكائنات صغيرة سوداء يستحيل رصد مكانها.

نعم، ما من شكّ أن الصيف أول الفصول وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب في عالم جنناه لفسحة تدوم الحياة كلها. يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطلّ الكلام:

- "ما"، أنا متأكد أن الخريف أول فصل لأنه فصل بداية الدروس، أليس كذلك؟ أليس كذلك؟

ترفع الأم الأزرية إصبعها في وجه الطفل وهي تمسح ما بقي عالقاً بالجلد الأسمر من الرمل، تأمره بلهجة الحزم:

- انتهت العطلة. إلى المحفظة نملأها بالكراريس والكتب. حان وقت الجدّ والكذب.

يجمع الصيف حوائجه متأففاً من كل هذا الجحود. إنها قسوة الزمان حتى على الفصول.

يقدم الطفل لأول أيام الخريف مرحباً ومهنناً بحسن الوصول.

يأتي الأمر للريح بتعرية الأشجار لأول غسيل سنوي فتمتلل للأمر على بالغ الاستحياء، وخسارتها ربح للأرض التي تدثرت بالأوراق الميتة سمادا لتجدد الحياة. وحده الزيتون يرفض عراء لا يليق بأشجار محافظة. كذلك الأمر بالنسبة إلى نخل لا يحني هامته لأحد ولا يترك ريحا تتجاسر على ما يحمل من جريد. وهذا فصل قادر على نوبات من الغضب العاتي تنهيبها دوما حلاوة الصلح. تتحرك الحشائش على إيقاع الصفير. تأخذ الأشياء في التطاير كفراخ الحجل أطلق نحوها الصياد رصاصه الموت. تمتلئ السماء بأشلاء بقاياها وبقايا أشلائها. تتحرك نباتات بأغصانها المحملة ورودا حمراء كأنها أذرع إخطبوط تضرب في الهواء لتدفع عنها عدوان الريح. تتمكّن الرعشة حتى من أضخم الأشجار. يتراد التمايل والتئنّي. يشتدّ لغط الأوراق؛ تشتكي لبعضها البعض من ظلم العواصف. تصبح أنفاس العالم صغيرا مسترسلا ما بين طبقة صراخ المولود الجديد وغرغرة المحتضر. يتردد دويّ الطبول السماوية وقد طليت قبة السماء بلون الحداد. ما أغرب أن يتكلّم الأبكم، أن يطير من لا جناح له!

كم من أسئلة تخامر ذهن الطفل المشدوه. من أولع البرق وأين الطبول التي يصمّ قرعها الأذان؟ من يحرك هذه الجبال السوداء التي تملأ رحاب الفضاء؟ من ينفخ بكل هذه القوة على الريح؟ لماذا تصمت الأرض لا تردّ على تهديد السماء؟

نعم ما من شكّ أن الخريف أول الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات اللعب في عالم جنناه لفسحة تدوم الحياة كلها.

يغيّر الطفل رأيه حتى لا يتعطلّ الكلام:

- "ما"، لم تشاركيني اللعبة، أنا وحدي اخترت.

- هل تركت لي غير الشتاء؟ لست ضدّ أن يبدأ تشغيل الدنيا في هذا الفصل.

يتقدّم الطفل لأوّل أيام الشتاء مرحّبًا ومهنّا بحسن الوصول.
يضرّب جسده النحيل بذراعيه. ينفخ بصوت عال في أصابعه المتجمّدة من شدّة البرد. تتلكأ
حبّات الثلج في الوقوع. تتطاير هنا وهناك لتحطّ فوق الأعشاب برشاقة الفراش. تهجم الأم
الأزلية على طاقيته تشدها بقوّة إلى أسفل الأذنين محكمة وشاح الصوف حول عنقه متفدّة
بصرامة أزرار المعطف الثقيل. فصل قاس كما يقولون؟ بل قل فصل يقتصد في الأصوات
والألوان والروائح كأنه يريد لك فترة نقاهة بعد فصول أصابتك بالتخمة أسرفت في العطاء.
أمن باب الرحمة أنه يمنحك أيضا يوما قصيرا مما يقلل بالضرورة من زمن أغلب ما فيه
المشاكل؟

تلتهب النار في المدفئة تأتي بالاسترخاء والدفع. ينقر المطر على سطح البيوت وزجاج
النوافذ بضربات خفيفة تأتي بنوم تتخلّله أحلام هادئة.
نعم، ما من شكّ أن الشتاء أوّل الفصول، وأنه الذي افتتح فيه الخالق الأسمى كل ساحات
اللعب في عالم جنّاه لفسحة تدوم الحياة كلها.

حتى لا يتعطلّ الكلام، يبادر الطفل أمه بأخر سؤال يتدافع على لسانه:

- "ما؟"، طبعاً الفصول الأربعة إخوة، من أحبّهم عند أبيهم؟

غريب أن إشكالية ضخمة كهذه لم تستقرّ يوما فضول مؤرخ أو عالم أو فيلسوف أو شاعر.
حتى فيفالدي وبوسان تفادا اتخاذ أي موقف، الأوّل مكثف بتعبّد الموسيقى والثاني بتعبّد
الرسم.

لنحاول نحن الردّ على السؤال، متحمّلين كامل مسؤوليتنا في إنارة الأجيال الصاعدة.
إذا انطلقنا مما نعرفه عن طبيعة الأشياء والكائنات، وأنها لا تقبل الأولوية والريادة إلا
لنفسها، وإذا اعتبرنا أن العالم كان أعجز من أن يختار بين مخلوقاته وكلها عزيزة عليه،
فلا بدّ أنه حسم المشكلة مسرّا في أذن الربيع: أنت الأوّل وثلاثتهم ورائك، وفي أذن
الصيف: اصطفتيك من بين كلّ الفصول وثلاثتهم ورائك، وفي أذن الخريف: أنت سيّد
الفصول وثلاثتهم ورائك، وفي أذن الشتاء: أفضلهم أنت وثلاثتهم ورائك.

إنها دائرة الزمان التي حكم علينا أن نرتحل داخلها. قد ندور فيها كمن يدور في حلقة
مفرغة تكرر نفسها بثبات عبثي مملّ وقد تكون الشكل الأصلح الذي يسمح لكل نقطة بداية
أن تكون نقطة نهاية ولكل نقطة نهاية أن تكون نقطة بداية.

الدليلان

في بعض أقدم ملفات الطفولة ينكبّ شيخ جليل على الطفل وأخيه الصغير، والدموع على خديه ليهمس في أذن "ما"، والدموع على خديها هي الأخرى تسيل:

- الحصباء وصيف الصحراء يا بنتي أكثر مما يستطيع الولدان تحمله. سأرجعكم غدا إلى أهلك في الشمال وعلى مسئوليتي. سأبلغ ابني بقراري وسبقه وإن غضب كثيرا. كل صلواتي أن يلتحق بكم حالما تتحسن ظروف البلاد.

ينتبه الطفل لأول مرة للفرق الهائل بين الصحراء والسهول الخضراء وكيف أن الله فرش على أرض الأحوال بساطا أخضرا رفضه لأرض الأعمام ووشحه بما لا يحصى من أعشاب ومن أزهار لا يعرف لها اسما وإنما جمالا مبهرا.

ها هو يركض على البساط الأخضر متقطع الأنفاس يصرخ راقصا لا سبب لسعادة عارمة غير هذا اللقاء مع اللامتوقع واللامتخيّل.

ثمّ ها هو يدفن رأسه عميقا داخل الحشائش والزهور بحثا عن كائن صغير يلعب به غير عابئ بتطفله على كائنات ملّت الطفوليين أمثاله.

يتفطن سريعا لمعجزة جديدة: قطرة ندى مكورة شفاقة عالقة على العشب تنزلق على سطحه بمنتهى البطء فيخرج لسانه بشديد الثأني يدفعه باتجاهها عله ينجح، على صغر حجمها في التقاطها بذبابة اللسان. لن ينجح إلا في الاصطدام بالحدّ الجارح للعشب. ها هو يرفع رأسه، ينظر حوله، وعندما يتأكد أنه وحده، يبدأ برعيه بفمه كما رأى الخرفان والبقر تفعل ليبيص بسرعة ما في فمه مقرّرا أن الماشية حقا كائنات غريبة بتفضيلها الحشيش على الخبز والتمر.

ثمّ يأتيه الذاّ إرهاق فيستلقي على ظهره ليتأمل المشهد المنسوب فوق رأسه لا ينتبه لمرور الدقائق والساعات. الاكتشاف المذهل الآخر في يوم فاض بالخوارق والمعجزات أن سماء أرض أمه، خلافا لسماء أرض أبيه، مليئة، بل تفيض سحبا تتخذ كل الأشكال، تنساب بجلال وصمت أثارا فيه تعجبا وإعجابا لن يفارقه في كل عمر وفي كل حقل، وهو على ظهره يستعيد طعم أول لقاء له مع القوافل البيض.

شيئا فشيئا تثقل جفونه بالنوم غير واع بعصبية أمّ وجدة تتحركان بقلق بين الحشائش العالية تبحثان عن طفل في الخامسة خرج ولم يعد، ولا أثر له غير الذي رسمته خطى صغيرة بين الأعشاب.

تتسارع نسوة من الأقارب والأباعد لمعاينة بنت القرية التي تزوجت مغامرا وعادت مكسوفة من الصحراء بطفلين لا معيل لهما.

ينصت الطفل الذي يفنل النوم لهمس مسموم بعلمه باكرا أن بوسع الكلمات أن تكون أكثر إيلا من الالكلمات.

- آه، هذا هو الطفل الكبير! "الله يخليه لك". نعم، طفل جميل رغم سمرته. ربما توحّمت به على عبد وقانا الله من شرّ العباد وشرّ العبيد. ما اسمه؟ لكنه ليس اسما من أسمائنا... آه، والده هو الذي سمّاه تيمّنا بملكنا الطيب! ...

ترى أي مسار كانت تتخذة رحلتي لو كانت "ما" هي التي أطلقت عليّ اسما محمّلا بتعليمات وأمانٍ صامتة غير التي يحملها اسم ملكٍ مقاومٍ سيموت مسموماً ومنفياً اختاره الأب لابنه دون تفكير في تكلفة الخيار!.. أهم ما في هذا الاسم ليس تعريفك وتمييزك من بين جحافل الخلق وإنما إدماجك في مشروع مبهم، في أملٍ واسع، في مهمة غامضة عليك الانتباه لها. لكن من أين لكل عمر أن يصبح الفاروق الحازم العادل ولكل مريم أن تلد مخلصاً وإلهاً!

تنتهّد احداهن بصوت عالٍ تقتعل أقصى التعاطف والأسى :

مسكين حقاً هذا الطفل. يقال في كل القرية أن والده ملاحق ومطلوب من البوليس. أرجو الله أنه ما زال على قيد ...

لا تجد أخرى لإظهار فطنتها طريقة غير الاستشهاد بإحدى حكم الفلاحين.

- يتيم الأب يتوسّد الركبة ويتيم الأم يتوسّد العتبة.

يثب الطفل من الحزن صارخاً في امه :

- لا أريد أن تموتي أنت أيضاً، أتسمعين؟ إذا متّ لن أكلمك أبداً!

تحكم الأم ذراعيها، تمسح دمعا يتهاطل من عينيه ومن عينيهما:

- اطمئن. لن أموت، هدئي من روعك.

- و"با" ... هل... هل مات؟

- يا حبيبي، أبوك حيّ يرزق.

تجمع النساء حوائجهن يتلعثن ببعض عبارات الاعتذار لائذات بالفرار.

من قال أنه إذا كان بقدرة الأحداث أن تسوء إلى أكثر مما هي عليه من السوء فإنها لا تتردّد أبداً؟

ذات ليلة تتعمق التجاعيد في وجه "ما". تجاهد لإخراج كلمات كأنها التصقت بحلقها:

- أبوك في مكان لا يمكنه من أن يبعث لنا مالا... يا بني... ليس... ليس لدينا... عشاء...

هذه الليلة فقط... جدتك ستزورنا قريباً... ربما غدا... ستأتينا بالكثير من خبز الطابونة والزيت والزيتون وكلّ ما تحبّ.

تعضّ الأم على شفتها السفلى. تشيح بوجهها. ليس بالسرعة الكافية. تنساب الدمعة على

الخد قطرة ندى على ورق الورد. يصرخ الطفل: "ما" لست جاتعا. وأقسم لك برأس "با" أنني لن أجوع أبداً، أبداً، أبداً.

تعبّر عضلات وجه الأم اختلاجات عابرة كان بها تردّد بين ربع الابتسامة أو تفجّر الضحك.

تضع ذقنها على رأس ابنها ثم الخد المبتلّ على الشعر الأشعث. يدفن الطفل رأسه في صدر أمه ليرفعه في اللحظة الموالية صارخاً وقد جاءته فكرة عبقرية أخرى:

- "ما"، سأشرب كثيرا من الماء حتى يكفّ المغص الذي في بطني.
تضع الأم إصبعها على شفتيه. يسود الغرفة صمت متهبّ لا يقطعه إلا صوت مصباح
الغاز القديم وهو بين حشرجة المصدر وصفير الثعبان راميا بأخر ما في جعبته من نور
باهت مرتعش.

تتخلّل أحلام الطفل صور لعجوز تضع عجبنا داخل فرن الطين تنفخ بقوة على الحطب،
تسعل وتمسح عينيها ورجل يخرج من العدم صارخا: يا امرأة عجلي؛ ابني جائع.
فجأة يشعر بأمه تهزه وبها شيء كالجدل: هيا. انهض. جدتك أتت لنا بقفة فيها ما يكفينا
لأسبوع، وبعدها يفتح الله.

كانت أم "ما" فارعة الطول، ثرثرة، مرحة تبرز من قريتها دوريا لتفقد أحوال تعلم
صعوبتها. كان مجيئها كظهور شعاع الشمس بعد طول احتجاب. كانت تملأ البيت بصوتها
الجهوري، بضخامة جرمها، بألوان ثيابها الصارخة، بجوّ الفرح والحنان الذي كانت تخلقه
بمجرد ظهورها، بالخبرات التي كانت تحملها في قفها الثقيلة.

يجلس الطفل بين امرأتين تتهامسان لفطور من خبز ساخن وزيت لم ولن يضاهيه يوما
فطور. تلتحق بهما بعض نسوة الحيّ. جنن هذه المرّة للتهامس في أمور خطيرة تقع وسط
المدينة الصغيرة وقد أفاق على حصار دبابات الاستعمار.

تصرخ الجدة في الطفل الهائج وقد نفذ صبرها من ضجيجه.

- إن لم تكفّ هرجك فإنّ العبيثة سنأتيك هذه الليلة وسترى ما ستري.

العبيثة! اسم الغولة في هذه الربوع. يا ما ستهدّه الجدة بهذا الكائن المرعب الذي يخرج
من غابة الزيتون ليفعل أفعالا رهيبية بالأطفال الشرسين سليطي اللسان.

يغضب الطفل عينيّه، يترصدّ قلعا أن يبرز من الظلام شكل مبهم مرعب. يغرق في أمواج
مضطربة من خوف ممزوج بأشدّ الفضول. هل يريد حقا الفرار من الكائن أم لقاءه؟ يتعمّق
صمت الصمت ويغوص العالم في ظلمة لا قرار لها

يصدر الباب صريرا ويتحرّك شيء في الظلام. يثبّ الطفل على قدميه مرتعشا والحجارة
التي هزّ بها معه إلى الفراش ملء راحته والذراع على أهبة الرمي. هل سمع من قومه باكرا
إحدى مقولاتهم أم هل وجد وحده القانون: سورة ياسين نعم لمواجهة الكلب، لكن مع
حجارتك دوما في الجيب؟

تبادره أم جاحظة العينين من الدهشة:

- ماذا تفعل واقفا في الظلام؟ أي عبيثة؟ أه، العبيثة، إنها لا توجد إلا في الخرافات. نم
مطمئنا. أمك ساهرة على الباب.

ينتفّس الطفل الصعداء. يعود إلى فراشه متمتما أنّه لم يكن خائفا، أنه لا يخاف مثل "با" جنّا
أو إنسا وأنّه سيشرح رأس العبيثة بحجارته لو تجاسرت عليه. ثم يثبّ من فراشه ملتجنا
لفراش أم تقرّر الليلة إعطاءه حق اللجوء.

يتوسع عالم الطفل تدريجيا ليكتشف كم فيه من روائع وأيضا كم هو زاخر بأخطار غير التي رصد لحدّ الآن .

- "ما" من أخطر؟ العبيثة هنا أم الأفعى في حوش جدّي؟

- أولاد الحرام.

- أولاد الحرام؟!

أولاد الحرام! من هم بالضبط؟ كيف يكونون أخطر من العبيثة؟

هو يعلم أن أمه تخفي عنه سرّاً له علاقة بأولاد الحرام الذين تتهامس بخصوصهم مع الجدة وهم ليسوا جنا أو عفاريت، إنما من البشر لكنهم، لسبب يجهله، يريدون الشرّ به وخاصة ب "با".

هذا عالم أولى وأقدم العلاقات به الخوف فلا شيء متوقّر فيه قدر الأخطار أكانت أخطار الطبيعة أو الحيوانات لكن أخطر ما يتهدكك البشر. لذلك كان وسيبقى البحث عن الأمان أولى الأولويات نترجاه من حماية الأقربين، من البيوت المغلقة، من الشرطة في الشوارع ومن الجيش على الحدود.

يا للطفل المسكين لو علم تلك الليلة أن له موعداً مع البشر الذين تسميهم " ما " أولاد الحرام وسيسميهم النص الذين منهم كل نعمة !

يتعالى القرع مرعبا ككلّ قرع فظّ في آخر هزيع من الليل. تنتسج يدا الدليل الذي لا ينام إلا متحفّراً حول ذراع طفل متحفّز هو الآخر لوعيه بأنه فعلاً في خطر عظيم. يصرخ صوت أجشّ من خلف الباب: نحن أصدقاء الأب، بعثنا لناثيه بالطفل، فأخرجيه لنا. ترتجل المرأة الجواب المنقذ: أخذته الجدة إلى القرية، فاذهبوا إليها وقولوا لها من قبلي أن تسلّمكم إيّاه.

يتردّد زوّار الليل. يتقرر من قبل لا ندري من أو ماذا أن المرأة الضعيفة لن تنتشب تلك الليلة الذي تقاطعت فيه أخطر مقاطع الطريق أظافرها في عنق ذابحها، أن جنة الطفل لن ترمى في البئر، أن الأب لن يموت كمدا أو يصبح بدوره قاتلاً يدفّع أبرياء ثمن أفعال الأثمين. ينسحب قتلة الليل بخفي حنين وتسارع الأم لإخفاء الطفل أياما عند الجبران.

ينمو في الطفل قلق جديد من أخطار لا تفصح عن نواياها وعن أسبابها أفضعها أن يبقى دون أب ككل الأطفال .

ترى أين هو والده وماذا يفعل ولماذا هو غائب دوما ومتى سيعود كما تمنيه بذلك أم تبدو هي الأخرى جاهلة بما يريد معرفته؟ !

ذات يوم تدخل البيت امرأة قالوا لها إنها تعلم الغيب وتعرف يوم رجوع "با".

تجلس المرأة البدينة، الغارقة في ثياب فضفاضة ملوّنة على الأرض بصعوبة. يأتيها الشاي وبقايا حلوى العيد التي لا تخرج إلا في كبرى المناسبات. تأخذها اليد المخضبة بالحنة بشره، تحشرها في كيس ثم تفتح يدا منتشجة تقرأ فيه تفاصيل بقية الطريق.

- خفّي عنك يا عزيزة. ما ثمة إلا الخير.

تنتطق "الدقازة" في خطاب لا يهّم منه الطفل المفتوح العينين والأذنين على أقصاها سوى أنه كلام تنفرج له الأسارير الحزينة.

- وهذا الطفل؟

- انتبهني، إنّي أرى عينا شريرة ترصده وإنّي أرى كارثة قريبة تنهدّه!

تعود الأسارير إلى تجهمها.

تندارك "الدقازة" ما ليس هفوة وإنما مدخلا.

- لا تجزعي فسيدي الخافي معه، وكذلك سيدي محرز وبقية الصالحين. خذيه كلّ يوم جمعة إلى ضريح سيدي بوريفة. لا تنسي هذه الورقة، إن فيها سورة ياسين وأدعية النبيّ. ضعها في كيس صغير واربطه حول عنقه. لا تتركه ينزعه أبدا حتى وهو في الحمام. إنهم يريدون به وبوالده شرًا عظيما، قبح الله سعيهم.

- قلبي لا يقول لي خيرا... خاصة هذه الأيام العصيبة.

- قلت لك: لا تخافي فكلام الله درع لا تخترقه عين السوء. هذا يا فتى حركك. إنه درعك الحصين، لا تنزعه عن عنقك أبدا، واسم الله دوما عليك.

يسأل الطفل أمه عن المرأة الغربية. لا يفهم إلا بعد عقود ردها الواجم:

- مسكينة تواسي مسكينة، تعطيني ما أحتاج وأعطيتها ما تنتظر.

توقّف على صورة الدليل الأول الذي يضطلع في كل القصص بأولى وأهم الوظائف: حماية القادم الجديد من عالم يعجّ بالمبهم والواضح من أخطار النهار والليل.

كم من نصوص كتبت فيه! كم من أشعار قيلت فيه! كم من تماثيل، كم من أغاني، كم من لوحات، كم من أديان رأت النور تعبدا له وتبركا! كم لنا من أساطير عن قتل الأب ولا واحدة عن قتل الأم!

أي غرابية في الأمر؟ هو الجسر الذي يحملك من ضفة العدم إلى ضفة الوجود، مدير التشريفات المكلف بتقديمك للأشياء والكائنات، من يقود أولى خطك في العالم، أول مرآة تكتشف فيها ذاتك.

ثم من أين لك خادم كهذا لا يستقبل ولا يطالبك يوما بخلاص الساعات الإضافية الطويلة التي يحرمها قانون الشغل!

أي آدمي لا يدين بأجمل تجارب الحياة لدليله الأول؟

لا أبحث عن أحد أستكين إليه وأضع عند رجليه سلاحي إلا وأسمع صوتنا يصرخ: هل تعتقد أنني أمك؟ آخر ما سخروا به منّي لافتة قاعة الاجتماع: "اغسل فنجان قهوتك يا هذا؛ فأمك لم تعد تسكن هنا من زمان".

أعود لصور "ما" في ملفات الذاكرة لأكتشف كم هي جميلة، منمقة ومنخرطة في أكثر الصور النمطية شيوعا وابتدالا.

ترى ما المخفيّ بمهارة في باطن أقدم الملفات، ما المحرّم، ما "الطابو"؟

يا ما تعلمت عن الأدميين وبراعتهم في إخفاء وجههم المظلم! كم منهم يتقدمون كأطهار
وقديسين وهم أقدر المخادعين على تسويق صور يعرفون وحدهم أنها كاذبة!
لا أكره شيئا قدر من أن أكون متعبدا لصنم حتى ولو كان صنم "ما".
تتردد امرأة رقيقة جعلتها الظروف أختا غير شقيقة وأعز أفراد عائلتي. كأنها لا تريد أن
تجرحني. تنصاع مكرهة للأمر الجاف.

- كانت... كانت رحمها الله تقسو علي... وأحيانا... تضربني.
ما العيب في أن تفضل أم أبناءها على أبناء ضرتها؟ ممكن، لكن ما ذنب طفلة بريئة؟ يهتز
إناء الخزف الجميل. يوشك على السقوط من علوه والتهشم إلى ألف قطعة.
ليتنى ما سألت. لكن أليس من الأفضل أن أحب كائنا آدميا بنواقصه على التعلق بصنم طلي
بالذهب المزيف؟

ثمة تماثيل تبدي فهما عميقا لا تنازل فيه لطبيعة دليلك الأول هذا. تتأملها من جهة فترى
وجه "كوماري" ربة الجمال والحب. إن أدرتها على قاعدتها أو درت حولها، شاهدت
"كالي" تتلوى راقصة على جسد طفلها المرمي تحت قدميها، قلادة الجمالم حول عنقها،
ومن أطرافها تتدلى رؤوس تقطر دما.

إنها قاعدة أساسية لفهم الأدمي: إن أدار لك وجهه المضيء، ابحث عن وجهه المظلم، وإن
واجهك بوجهه المظلم ابحث عن النور المطمور وراء السحنة البشعة. حتى الأم الأزلية لا
تخرج عن سطوة القاعدة.

تقول كفي عقوقا وتجنبا على اللواتي وضعت الجنة تحت أقدامهن!
عقوق؟ حقيقة مخيفة نرفض بشدة مواجهتها.

كم من دليل أول ما ان اسلمت القادم الجديد نازلا من أحشائه، إلا وبادر بلفه في خرق قذرة
ورميته في أول صندوق قمامة وفي أحسن الأحوال تركه يصرخ طالبا النجدة على اعتاب
مسجد او كنيسة!

كم من دليل أول منع عن زبونه الصغير أبسط حاجياته وجعل من رحلته جحيما لا يطاق!
شواذ تحصى ولا يقاس عليها؟ نعم، لنطمئن أنفسنا لا أصعب على العقل والقلب من صورة
أم أو اب يتحول جلادا.

إنه طيف المواقف والتصرفات تجاه القادم الجديد وهو ينطلق من أقصى القبول الذي تمثله
كوماري إلى أقصى الرفض الذي ترمز له كالي وبين النقطين كل الممكن من الحالات
والأوضاع التي ستعطي لكل رحلة نكهتها من حلاوة أو مرارة واغلب الوقت من مزيج
من الاثنين.

يشاء حسن طالعي أن يكون دليلي الأول إلى نهاية الرحلة من النوع الذي تكتب بخصوصه
رسالة شكر للإدارة العامة مع توصية بترقيته وتخصيص أحسن مكان له في الجنة (حتى
وإن كان لي تحفظ بخصوص هذا الجزء الأخير من التوصية سأعرض لتفسيره لاحقا)

العالم الذي يعيش فيه بطلنا الصغير مختزل في جده وأم وخالات وجارات وكلهن يردن تقبيله واللعب معه. إنه بما فيه من استدارة، من اكتناز، من رخاوة، من رقّة ونعومة وليونة وطراوة عالم انثوي بامتياز.

تهاجم الطفل يوما رغبة عارمة غير مفهومة المصدر في فتح النوافذ على مصراعيها ليغلب الصراخ الوشوشة، لتخف كثافة روائح البخور والعطر، ليتحرك البطيء، ليحتد ما هو خافت، ليكتسب المكور المستدير أضلعا حادة.

لا تتعجل الزمان يا فتى. يوم تعرك الأحداث بكل ما فيها من فظاظة وقسوة، يوم يشتد الإرهاق والوجع من الجزء الذكر من العالم، سيتسلل إليك الحنين للعالم الذي جاهدت للإفلات منه تميّ النفس بفضاء تعيد تشكيله مخيلة كل أطفال العالم ليس فيه إلا إناث اسمهن الملائكة وحوار العين.

مشكلة الطفل الآن، ليست العودة إلى الجنة وإنما الهروب منها. لكن كيف الإفلات من كل الإناث المتربصات به والحال أن الفرار إلى عالم الذكور لا يكون إلا بالدليل الذكر وهو شبح لا يعرف له وجهها؟

أين هو؟ كيف هو؟ أي ملابس يرتدي؟

تتمكن من الطفل عادة جديدة لا يستطيع لها دفعا.

ها هو مرابط أمام المحطة القريبة من البيت، ينتظر توقّف ثعبان أسود هائل الحجم يطلق من بعيد صفيرا كعواء الريح ويخرج من رأسه دخانا أسود كثيفا. ألم تقل له، "ما" أن "با" سينزل منه فيكون له هو الآخر أب!

يتفحص الطفل الأدميين الخارجين من جوف الوحش الأسود باحثا عن رجل لا يعرف له ملامح. يمرّ الرجال أمامه لا يرونه ولا ينقضّ عليه منهم أحد صارخا ضاحكا ومقبلاً. يتعلم الطفل تصرفا جديدا وهو ينقّس عن شعوره برشق الثعبان الأسود المعرض عنه بالحجر وقد استقرّ عنده الرأي أن هذا الذي أخذ منه والده هو الذي يرفض إرجاعه إليه. يعود إلى البيت كلّ مساء كسير النفس دافع العينين مصمّما على العودة غدا إلى نفس الرصيف إلى أن يحصل على حقّ حرم منه بغير ذنب.

من الطبيعي أن يبقى مسكونا طول الرحلة بهاجس الغياب، وأن يوّلد هذا الشعور عنده قلقا دفينا لن يفارقه يوما.

ترى، هل ظاهرة البحث عن الغائب الأزلي مجرد حالة نفسية يعاني منها هو بالذات؟ أم الحالة العامة عند الأدميين، وكل ما في الأمر أنها اتخذت لها في هذه القصة صبغة البحث عن الأب وهو مجرد ممثل لغائب أبعد لا ينزل أبدا من أي قطار؟

لا ينفع توسّل "ما" ونهيبها عن عادة تتفاقم يوما بعد يوم. تكفّف المرأة وهي منزوية في الظلام دموعا تخفيها عبثا. لا يزيد ذلك الطفل إلا غيظا لا يعرف لمن يوجّهه. كان في عمر لا يفهم فيه، فما بالك أن يقبل بأنّ في هذا العالم جرائم كثيرة بلا مجرم محدد.

ثم تغلبه حيويته. لا بد أن هناك حلّ يكفي أن يجده أو أن يقَرّر أنه وجده. يعود للجحافل المعتادة للرجال وهو- هذه المرة- عنصر فاعل له إرادة وفكرة واضحة عما يريد.

ها هو ينتقي من بين المتدافعين بالمناكب من سيكون أب اليوم ثم ينصرف شبه راض ونصف مسرور وقد وضع على وجهه من لا صورة له ملامح وعلامات.

ألم نصنع أساطيرنا وأدياننا بهذه الطريقة، ننتقي أمام أصعب المشاكل الحلول التي تلائمنا، نجد فيها بقوة الخيال العزاء والسلوى... وآخر ما يهمنا صحتها؟

ثم يعاوده الغمّ. لا أحد من آباءه الكثيرين يلتفت إليه وهو كالكلب الشارد يجري وراء أي عابر سبيل فلا يلقى منه إلا الصّدّ والزجر.

ينتهي الطفل بالإقرار بعيبه وطريقته فيعلن احتجاجه داخلا في أوّل إضراب له... لكن ضدّ من؟ يجلس على عتبة باب المنزل المتداع، مصمّما ألا يبرح مكانه لأكل أو شرب أو لعب حتّى يعود إليه دليل دونه يستحيل الرحيل وما على الله أو أي مسؤول آخر إلا البتّ في القضية.

نحن أمام طفل في مواجهة أولى محن وامتحانات الرحلة وهي في هذه القصة غياب الدليل الثاني. هو غير واع الآن بأن الأقدار رأفت به كثيرا هي التي واجهت أطفالا آخرين بمشاكل كأنها تفتقت عن مخيلة شيطان كالولادة مشوها أو أبان مجاعة أو حرب وحتى مصابا بألم تقترّ في جنبها أو تبالغ فيه. ما يفرّق بين قصص الأدميين نوع الصعوبات التي سيواجهون ومدى نجاح الاستراتيجيات التي يتخذون لمواجهتها. كأنّ العالم الذي تستكشف هو الذي يستكشفك يلاحقك بالمحن والامتحانات من لحظة الدخول إلى لحظة الخروج ولسان حاله يقول أرني براعتك في الخروج من هذه الورطة وإلا الويل والثبور لك.

تقترب الأم من طفلها بحذر من يقترب من قطّ مستعد للهجوم أو للفرار. يسمع حفيف ثيابها فيفتعل قلّة الاهتمام وهو يتابع بكل جوارحه اقتراب هذا الأدمي الذي يتحرك دوما وكأته مصنوع من الضباب. ترتفع يدها ببطء شديد. يخيل له لحظة أن اليد بقيت معلقة في الفضاء، أنّها تتردّد، أنّها قد لا توضع أبدا على شعره الأشعث. ترعجه الفكرة أشدّ إزعاج. يستعجل الحركة المعلقة. كان لا يشعر بالأمان إلاّ واليد الرقيقة موضوعة فوق رأس ناشف كأنه- على صغر سنّه- صنع من خشب جفت قبل الأوان. تلمس اليد الرقيقة أخيرا الشعر لمس الفراشة لأزهار الربيع. تمرّر "ما" راحتها عليه بمنتهى الحنوّ. يرتفع من خلفه الصوت الرقيق، يرحوه دخول البيت:

- ماذا سيطنّ الجيران بي وبك ونحن في هذا الظلام على عتبة الباب؟

- ليظنوا ما شاءوا، أريد "با" حالا، لا يحبني، لهذا لا يأت أبدا. أليس كذلك!

تضع الأم كامل يدها على فم الطفل:

- لا تقل كلاما كهذا. هل تعلم أنه وضع يده على بطني لما انتفخ بك ليباركك، أنه كاد يطير

فرحا عند مجيئك؟

موكّد أنه طار فرحا ثم طار مباشرة لأغراضه الأهمّ.

ما من شكّ أنّه وصل في آخر لحظة أول موعد لنا، أنه دخل الفصل من القصة لاهثاً، متقطّع الأنفاس، أخذ القادم الجديد بين ذراعيه وكلّه فخر بما أتى من معجزة، ناسيا أنّه لم يتكلّف من العملية إلا أسهلها. كأنّني به يتنفس الصعداء وهو يتأكد أنّ القادم الجديد ذكر هو الذي كان يتقبل التعازي والحياة ترمي على شاطئه بغريب تعس الحظ ليس من جنسه ولو كان من صلبه. قد أكون أطلقت عقيرتي بالصراخ أول مرة انكبّ فيها على مهدي وقد تملكني قلق غامض وأنا أقرأ في ذاكرة المستقبل إشارات تنبيه حول هذا الرجل وقلة أهليته لمهمة الدليل. ربما بلغت الصرخة برج القيادة العامّة وأن حديثاً بشفرة "المورس" أو بأيّ شفرة أخرى أضحك أكثر من مستمع غير مخوّل باستراق المكالمات السريّة.

- ما هذا الدليل؟ لن أرافقه خطوة واحدة.

يأتيني صوت العالم العجوز، بارداً على عادة من شاب على صراخ الاحتجاج المتصاعد من الكائنات:

- نأسف لعدم تمكّنا من الاستجابة لطلبكم نظراً لتراكم المكالمات.

- قلت: لا أريد هذا الدليل. سيتركني غالب الوقت وحيداً ويوم يرجع سيسوقني إلى المقاهي كما لو كنت قد رداً عالماً يفخر بي رفاقاً يستهزئون بي وبه. الرحمة!

- لا رحمة ولا هم يحزنون. اصطفت طاولة القمار التي لا مردّ لحكمها من سيكون لك الدليل الثاني وتدبّر أمرك معه.

توقّف الآن على صورة هذا الدليل كما حفظتها الذاكرة وكما لم يكفّ الخيال عن تغييرها إلى يوم الرحمان هذا.

للحقيقة كان هناك شيء لطيف في هذا الرجل رغم إفراطه في أمر نتشارك فيه جميعاً ولا نراه عيباً إلا عند الآخرين. يضيّع أغلب الأدميين وقتك وجهدك حتى تكتشف من يختفي وراء القناع وهم يراوغون بافتعال التواضع والزهد والتجرّد وباقي فضائلهم التعيسة.

كان "با" من النوع الذي يحمل خصاله وعيوبه واضحة لا لبس فيها ولا غشّ، تماماً كما يحمل العسكر على صدورهم المنفوشة نياشينهم الحقيقية والمزيفة. كان مبالغاً في عيوبه ومبالغاً في خصاله إلى أن تتقارب فتتمحي بينها الحدود. كانت نرجسيته مثيرة للغثيان. كانت صراحته سلاطة لسان. كان احتقاره ناراً حارقة. كان غروره، كذائه، كوسامته، كإنفاقه، كجراته، كفصاحته، كوقاحته، شيئاً خارجاً عن المألوف.

سمعتة مرة يقول لأصحابه: البارحة كانت سهرة لم يعرف لها الليل مثيلاً: المغنية كوكب الشرق، كلمات الأغنية لأمير الشعراء... والمستمع عيذك المتواضع؟! !

ادخلوا جوركم يا عتاة النرجسية، أين نرجسينكم من نرجسية رجل حفّظني باكراً قصيدة بيتاً لقصيدة لن ينمحي من الذاكرة :

وأبي كسرى علا إيوانه أين في الناس أبّ مثل أبي (مهيار الديلمي)

هكذا لم أذكر "با" في حديث إلا وقلت: السيد "أينفّاس"، فيضحك الإخوة وتقطب الأم جبينها بين ضحك مكتوم واستنكار مصطنع.

كم من مرة سيجمعنا قل سيفرقنا في الواقع وفي فضاء الخيال ما يسميه البعض حوار الصمّ وكل متكلم لا يسمع إلا صدى صوته.

- "با": لو تزحزح جنابكم قليلا لأبصر شيئا من هذا العالم، لا أرى إلا ظهركم الموقر.
- انظر هذا هو العالم، كم هو واسع، غريب، زاخر بالأسرار! لا تخف، سأعلمك كلّ ما يجب أن تعرفه عنه؛ فديلك به أحسن العارفين، انظر كم هو خطير، مرعب غدار لا طريق آمن فيه، لكن لا تخف، سأعلمك كلّ ما يجب أن تتعلّم من فنون الصراع فديلك بالحرب أحسن خبير. هيا، أسرع لنستكشفه، لنغزوه، لنفتح الفتح المبين ولا تصبّع وقتك مع هذه الأنثى. لا خير يرجى من أنثى ولو كانت أمّا. كم أنت محظوظ! معك حق أن تقخر بأبيك وأن تتغنّى بكلمات الشاعر المجوسي اللعين. لا أسمعك تنشد: "أين في الناس أب مثل أبي!" - "با" أريد أن أسألك ...

- في هذا العالم اللعين، يجب أن يكون سيفك دوما مشهورا في وجه من يعصّ باليد اليمنى وباليد اليسرى السوط مرفوعا في وجه من ينجح. في هذا العالم اللعين يجب أن تحذر من أمامك ومن خلفك، أن تحمي ظهرك والجنب. لا تخف؛ سأعلمك ما يجب أن تتعلّم عن فنون الحذر والخداع. طوبى لمن أسعفه الحظّ أن أكون له أبا.

- "با" اسمعني أنت ولو مرّة.
- في هذا العالم اللعين، يجب أن تكون صيّادا حتّى لا تكون طريدة. أصعب ما تصطاد ذكور الآدميين وأخطر ما تصطاد إناثهم، لكن لا تخف سأعلمك كلّ ما يجب أن تتعلّم في فنون الصيد؛ فديلك أحسن من اصطاد ذكورهم والإناث. في هذا العالم اللعين، حذار من الأدلة المزيفين، يقودونك إلى صحارٍ بلا واحات وأنهار بلا ماء وبرارٍ بلا عشب، لكن لا تخف فديلك أحسن خبير بالمحتالين وقطاع الطريق. احلف برأس أبيك أنك لن تسمع أبدا هذه الأنثى ولو أنها حملتك في أحشائها. لا أخطر من تصديق أكاذيب النساء. تالله يا بني أية ضربة حظّ أصابتك لتكون ابنا لدليل عليم بمكر النساء خبير بخبث الرجال، والآن تدبّر أمرك وكن جديرا بي.

كيف لا تطيعني من أين أعني ولا أعني نظرته للعالم وطريقة تعامله معه ونحن لا نصنع نواتنا إلا بما نأخذ من الذوات الأخرى؟ ... ترى كم أحمل داخلي من فضائل وعيوب هذا الآدمي الذي اصطفته طاولة القمار ليكون دليلي الثاني... هل هو الذي تعلمت منه قاعدة القواعد التي حكمت مسيرتي طول الرحلة: عندما تصل أهم مقترقات الطريق، احذر اتباع الأسرع والأسهل والأضمن فليس في نهايته إلا الطعم... أما أفخر أنواع "الطعام فتوجد في نهاية الأطول والأصعب والأخطر وفاز باللذة الجسور.

في هذا الفصل من القصة يحكم على الطفل أن ينتظر الساعات الطوال على رصيف محطة راكبا لا ينزل أبدا من أي قطار.

ينتهي به الأمر جالسا على عتبة الباب يأمر الله والعيثة والجن والغفاريات وكل من لا يهمهم الأمر بتحمل مسؤولياتهم في تمكينه-ككل الأطفال-من حقه في دليل ذكر يفتح له جزءا من الطريق.

تهمس الأم في أذنه لا تخفي قلقا متزايدا

- تعال، يكفي، أخشى عليك من البرد.

- قلت لك: لن أدخل إلا وهو معي. سأنام هنا إلى أن يحضر. اتركيني.

- إذن سننتظر سويا.

تمرّ الساعات والطفل وأمه جالسان على عتبة البيت لا حلّ في الأفق للأزمة الخائفة.

تجرب الأم مخرجا آخر.

- عندي لك بقية قصة البارحة، تعال... إذن قال الأب لعنتره: أنظر، هاجمنا الأعداء فقم

لهم، لكن عنتره قال له إنه لن يحارب لأن...

- لا، لا، لا، عنتره لم يكن أبدا جباناً!

- انتظر البقية...

- لا، لا، لا، عنتره لم يرفض يوما الخروج لمعركة، لا أريد سماع قصتك الرديئة.

يضع الطفل رأسه بين ذراعيه وقد بلغ ضيقه بالدنيا ومن فيها أوجه. ثم يعود للصراخ:

- أريده أن يأخذني لحمام الرجال. أنت دوما تمنيني بذلك ولا شيء يحصل.

- سيأتي وستذهب معه لحمام الرجال لأنك كبرت فعلا.

- لن أسمع كلاما سمعته كثيرا. ليأتي الآن وفورا .

تجد المرأة الذكية المخرج الذي كانت تبحث عنه من البداية ، المخرج الذي سيحفظ ماء

وجه الطفل ويمنعها من النوم ليلة في العراء. تحتضن صغيرها العنيد هامسة في أذنه:

- لا تسألني كيف علمت ذلك. ثق فيّ، إنني متأكدة من الأمر. سيزورك الليلة في المنام.

يسترجع الطفل حيويته الصاخبة. ثم يخلد إلى النوم كمن يذهب إلى ميعاد لا يمكن للحبيب

أن يخلفه. يدخل عالما تتراقص فيه أمواج حمراء. تقبض يد خشنة على قميصه تمنعه من

الفرق. يتعالى الصراخ من مصدر مجهول. ترتسم نصف الابتسامة على وجه البحر وبها

عتاب رقيق. يصفر وحش أسود صفير الرحيل. تبصر أم مطلة بحنو اضطرابا غير معهود

في ملامح طفلها النائم. تتراءى لها من خلال عينين دامعتين ابتسامة شاردة تعبر وجهه

وشفتان تنبسان بكلمة واحدة. هي تعلم أنّ اللقاء حدث وإنّ الطفل جالس على ركبتَي أبيه

يخاصمه ويصالحه كما سيحدث ذلك مرارا وتكرار على طول الطريق .

انقشاع الضباب عن الأفق

قد يكون العالم فعلا علبة سحرية تنتزع منها ما تريد شريطة أن تقلبها بعنف، أن تصرخ فيها بما يكفي من القوة.

يشعر الطفل النائم بوجه جافت التصق بوجهه. تداهمه أحاسيس مبهمة عن روائح عطر وتبع و عرق. يفتح عينيه ليقابل وجهين يحدقان فيه بابتسامة واسعة. حدثت المعجزة. خرج الدليل الثاني أخيرا من جوف الثعبان الأسود.

تهمس الأم:

- ألم أقل إن لك موعدا قريبا مع أبيك؟

يصرخ الأب:

- يا مغفل، هل ظننت حقا أنني تركتك؟ هيا أسرع، البس ثيابك، سنسافر لزيارة جدك.

- ونأخذ "ما" معنا.

- أمك لا تحبّ واحتنا وشبعت من الصحراء.

- أذهب وأترك أمي!؟

- الاختيار لك.

يأتي الكهل وهو يسترجع هذه الذكريات، إنه لعن ذلك اليوم عالما غير مفهوم يأمر بالرحيل ويأمر بالبقاء، بالشعور بالذنب إن ارتحل الفتى وبنفس الشعور البغيض إن لم يرحل. تسرّ "ما" في أذن الطفل أنها لا بدّ أن تبقى في البيت للاعتناء بشقيقه وهو أصغر من تحمّل السفر، أنها سترافقه المرة المقبلة وعلى كل الحال فالطريق الذي أخذ "با" وأرجعه، هو الذي سيأخذه لجده ويرده لأمه.

كل ما يشغل بال الأم في هذه اللحظة أن تهدئ من روعها ومن روع الطفل وقد حانت بأسرع مما كانت تتوقع وتخشى لحظة أول فراق.

تعدّ طفلها للسفرة كما لو كانت تعدّه لعرس أو لعيد. يفهم من طول اعتنائها بأدقّ تفاصيل الملبس أنّ للصحراء رهبة خاصة في نفسها، أنها هي أيضا لم تنس وأنه رسول حبّ صامت للشيخ الذي اعتقها من الأسر. يسرّ الدليل الهادئ في أذن الدليل الصاحب بأخر التوصيات وبأحسن السبل للتعامل مع هذا الطفل الذي لا يعرف عنه شيئا. يقتعل "با" الانتباه متأففا من طول المراسيم. ثم ينفجر:

- كفى يا امرأة، اتركيه لوجه الله، هذا ولد وليس بنتا، إلى الأمام يا فتى وإلا فاتنا القطار.

كان "با" دوما في عجلة من أمره كما أنا اليوم في عجلة من أمري، يحدونا نفس الشعور بأنّ وقتنا جدّ محدود، يضيّعه علينا من أصابهم الله ببطء الفهم والفعل. كان يقول لكل بليد يعترض طريقه: لنضيق وقتك أنت ننفق منه ونبدّر، أما وقتي أنا فثمين. منه تعلمت أن أبعث لبعض من استهلك وقتي في نقاش فارغ أو وصل الموعد متأخرا بفاتورة في سطر:

سلبتني ساعة من حياتي، الرجاء إرجاعها حتى بلا فائدة. بجدّ ألا يفزعكم كل الوقت الذي يبذّره الأغبياء من عمرهم وخاصة من عمرنا؟

تقبض اليد الخشنة على اليد البضة. تفتتح أخيرا قضبان القفص. يطير العصفور الذي طال به الحبس. على رصيف المحطة، والفجر في أولى الوعود تبدأ سفرة ظلّت نموذج كل ما تبعها من السفرات. يصرخ الطفل في أب يغالب للبقاء مستيقظا.

- "با هل هؤلاء الجنود هم الأعداء الذين تريد قتلهم بالسلاح الذي في بيتنا؟

يجيل "با" البصر حوله بعصبية مشيرا للطفل بغلق فمه.

- إنهم أعداؤنا أليس كذلك؟ فلم لا تقتلهم الآن؟

ينفذ وصول القطار "با" من خطر نظرات فاحصة وينقذه أكثر أن ابنه غير موضوعا كان سيغيّره بقلق الرجل أو بدونه. ينسى الطفل-وهو لأول مرّة في جوف الوحش الأسود- ضرورة قتل الأعداء أو يرجئ الأمر إلى ما بعد احتلال مكانه.

يهرع تلقائيا للمقعد الذي حذو النافذة، لا يسافر من يومها على متن أية آلة إلا وأنفه فوق الزجاج.

يتحرك القطار على وقع الصفير المثير ورائحة الدخان اللذيذة تتسلّل من النوافذ المفتوحة ليسعل الرجال وتحرك النساء أياديهن أمام أنوفهن ضاحكات متأففات. تتسع حدقاته وهو ينتبه للمنظر المذهل. كم بدا له غريبا يومها ألا يعبا أحد سواه بهذه الأعجوبة الجديدة والحال أن المنازل والأشجار التي عرفها دوما ثابتة... بدأت تركض.

يرجعه الضجيج المتصاعد داخل العربية المكتظة إلى هوايته القديمة: التفحص. عدد البشر أكبر مما كان يظنّ، ترى كم هم؟ سيسأل "با"، لكنه مشغول عنه بالحديث مع ركاب فاغري الفم يتمتعون برواية أسفاره في بلدان لم يسمعو بها أبدا.

كان "با" لا يستقرّ في مكان إلا مكرها كله تحقّر لاستئناف الطريق. كان الحلّ والترحال عنده حاجة قاهرة حكمت عليه إلى نهاية حياته أن يكون دوما على سفر. ربما قرأ واستبطن أبياتا وإن لم يقرأها، فإنه عمل بها وكأنها لم تكتب إلا له وحده.

"تعرّب عن الأوطان في طلب العلا
(الشافعي)

وسافر ففي الأسفار خمس فوائد

جلاء لهم واكتساب معيشة

وعلم وآداب وصحبة ماجد

كان على الشاعر الحكيم إضافة فائدة سادسة. كيف نعرف وطننا إن لم نقارنه ببقية الأوطان؟ كيف نفهم البشر الذي حولنا إن لم ندرك ما يجمعهم وما يفرّقهم عن البشر الآخرين؟

يواصل الطفل التقاط مقاطع من نقاش هامس بين المسافرين حول الوطن ومحنته في مواجهة المستعمر الأجنبي والمساكين لا يعلمون ما ينتظرهم يوم يستبدلون سيّدا أجنبيا بسيّد محلي وعاشم من وراء البحار بغاشم من وراء القرية.

- استيقظ وإلا فاتنا قطار الصحراء.
- لن نسافر قبل بزوغ الفجر. عد إلى فراشك.
- يعود إلى فراشه. ينتظر بعض الدقائق. يقفز صارخا من جديد في أذن الرجل النائم:
- استيقظ، سيفوتنا القطار.
- ألم أقل لك أن الفجر ما زال بعيدا. عد إلى فراشك.
- يعود الطفل إلى فراشه. ينتظر دقائق معدودات:
- استيقظ، فاتنا قطار الصحراء.
- يثب الرجل رافعا كفه. يفهم الطفل أنه في خطر. يسלט الأب على ابنه نظرة الاستهجان ثم ينفجر ضاحكا. يأخذه بين ذراعيه. يفهم الطفل أنّ الخطر تباعد وأنه ربح شيئا غير محدد.
- اللعنة عليك، أطرت عني النوم. نخرج من الآن؟ هل جننت؟
- يجرّ الطفل دليله المندهبس يبحث بعينيه في الظلام الدامس عن اتجاه مبهم.
- هذه هي المحطة. اجلس الآن ولا تتحرك حتى تأتي ساعة الرحيل. ما يزال أمامنا كثير من الوقت.
- لا قطار هنا!
- سنركب آلة أخرى أصغر اسمها "الحافلة" وستعجبك هي الأخرى.
- هل فيها نوافذ؟
- نعم.
- هل تتحرك البيوت والأشجار عندما تسير؟
- تماما.
- أريد المقعد الموجود قرب النافذة.
- هكذا سأستطيع رميك منها وارتاح من أسئلتك.
- سأقول ل " ما" أنك أردت أن ترميني من النافذة.
- وأنا سأقول لها أنك أخرجتنا من النزول في الثالثة صباحا، والآن اتركني أنام قليلا عليك اللعنة.
- وأنا ماذا أفعل؟
- نم.
- لقد نمت.
- لم تنم بما فيه الكفاية.
- بلى.
- يشعر الطفل بتجدد الخطر ثم بانحساره السريع والمحطة الفارغة ترنّ بصدى القهقهة المدوية للدليل.
- ماذا تريدنا أن نفعل إذن؟
- نتجوّل بما أنه ما زال أمامنا وقت.

- في الثالثة صباحا؟ في هذه المدينة الموحشة!
- يشعر الطفل أنّ الدليل يراوغ. يسقط في يد الرجل.
- تعال، عليك اللّعة.
- تبدأ الزيارة والزبون هو الذي يجزّ الدليل.
- لا أحبّ هذه المدينة.
- ألم اقل لك إننا لن نرى شيئا في هذا الظلام.
- أين البحر؟ أريد أن أرى البحر، أنت وعدتني به أكثر من مرّة.
- إنّه بعيد عن هنا.
- البحر أجمل من هذه المدينة الموحشة. لنذهب إلى البحر.
- إذا ذهبنا إلى البحر فانتنا الحافلة.
- اختيار صعب جديد.
- هل سنرجع من هنا؟
- يتنفسّ الرجل الصعداء.
- أعدك أن آخذك إلى البحر عند رجوعنا من الصحراء.
- أريد فطيرة.
- كلّ ما تريد.
- الآن... الآن... الآن!
- نعم الآن. الآن، لكن كفت عن النطّ والصراخ.
- بالعسل؟
- بالعسل والسمن والبيض المقلي وألف "سخطة" على رأسك من فوق.
- أخيرا الرحيل. يتكدّس الرجال في الجزء الأمامي للحافلة وبقيّة الكائنات الثانوية من دجاج وماعز ونساء في النصف الخلفي. هذا الطفل ابن أبيه لا يجلس إلا مع الرجال خاصة بعد أن أفرد له "با" بشيء من الخشونة أول مقعد فيها حذو النافذة، ذلك الموجود مباشرة وراء السائق.
- يحار لّبه مرة أخرى وهو ينقل بصره من داخل الحافلة إلى خارجها، لا يعرف على ماذا يركّز. يقرّر أنّ عجائب الطريق وكل ما يتحرك على ضفافه أولى بالاهتمام.
- يحاول الأب إعادة الحوار مع طفل يقرر وحده متى يكون الكلام ومتى يجب الصمت.
- لست مطالباً بالوقوف طوال السفرة.
- لا أحبّ الجلوس.
- افعل ما تشاء.
- لن ترميني من النافذة. أليس كذلك؟
- تدوي قهقهة الأب.
- ستتعبني كثيرا على ما يبدو.

نعم، كم أتعبته في تلك السفرة، وكم أتعبني هو الآخر في أكثر من محطة جمعتنا وكل مواجهة بيننا اختبار القوة أو اختبار المحبة.

تصل الحافلة المرهقة قرية تتلخص في شارع مغبر تتكسد على جانبيه بيوت من الطين وخلفها بعض نخلات عجاف. تلتقط أذنيه كلمات "با" عن المكان وحماماته الطبيعية العجيبة التي تبرئ بمانها الفوار كل الأمراض.

ثم تغوص الحافلة المتزايدة تعباً في مهبهم ممتد أمامها إلى ما لا نهاية.

- انتبه يا فتى، لقد دخلنا "البحاير".

- هل هي بحار كثيرة؟ هل سندخل الماء؟

- لا يا بني، إنها بداية الصحراء.

- الصحراء بحار من الرمل بدل الماء واحتنا فيها مثل جزيرة، أليس كذلك؟

- يمكن تقديم الأمور بهذا الشكل.

قلّ من ينتبه أننا ندخل الوجود كمن يدخل عرضاً سينمائياً وليس على الشاشة إلا صورة للعالم نظنها صورته من وإلى الأزل، إلى أن ينقش الضباب عن الفكر فنفهم أننا لا نرى إلا مقطعا من فيلم أطول وأغرب مما يقدر على تصوّره أوسع خيال.

لا الطفل ولا الأب ولا بقية الركاب يعلمون أن هذه الأرض الفاحلة التي يسمونها البحاير تستأهل حقا اسمها... أن الصحراء التي لم تكن دوماً بحار الرمل التي نعرف... أنها كانت لأربعين مليون سنة خلت جزءاً من بحر بل من محيط اندثر كانت تسبح فيه صغار الأسماك وكبار الحيتان... أنه كما للقلب قيض وارتخاء لهذا الأرض نسفها إلى نهاية الكوكب : كل عشرين ألف سنة غابات ومستنقعات وبحيرات وأنهار وسكانها الفيل والأسد والكركن والتمساح ، ثم ولعشرين ألف سنة أخرى أرض القحط والجذب التي لا يعيش فيه إلا الماعز الأبل والبشر من نوع قوم "با".

يجذب الطفل كم أبيه وهو في قمة الهيجان.

- لماذا هو هكذا هذا الحصان؟

يصرخ فيه "با": هذا جمل يا جحش وليس حصاناً.

يضجّ الجمع بالضحك. يرتفع صوت مجهول:

- هل يعقل ألا يعرف البدوي نصفه الآخر؟

يصمت الطفل بعض الوقت، وهو معرض عن الصخب، فاغر الفم، يتأمل الحصان الغريب. نعم، هو يعرف أن اسمه "الجمل" ولا داعي ليسخر منه هؤلاء الأشرار... وخاصة "با".

يلصق وجهه بالنافذة. ممنوع على أحد رؤية الدموع. لكن من أين له التركيز طويلاً على جرح بسيط وحوله العالم بكلللالل غرائبه.

يعود الطفل للصراخ:

- انظر، انظر!

- اللعنة على هذا المغفل. ما الذي تريدني أن أنظر إليه؟
- أنظر إلى اختفاء المناظر. لماذا لم يعد هناك أي شيء أنظر إليه؟
- ما لا يعرفه الطفل و يعرفه كل ركاب الحافلة قدرة هذه الأراضي القاحلة أن تتحول بين عشية وضحاها إلى براري خضراء متعة للناظرين. إنها إحدى معجزات الصحراء والبراعم المخفية تحت الرمل والصخر تنتظر صابرة، عنيدة، قوية أشهرا وأحيانا سنينا رحمة الغيث لتعود الأرض ولو لفترة خاطفة من الزمن مملكة الأعشاب والأزهار.
- يلتفت "با" إلى من يمازحهم منذ بداية السفر.
- الحرّ وضجيج المحرّك وهذا الفرخ سيقضون على ما تبقى لي من عقل.
- "با" انظر. انظر!
- إلى ماذا؟
- لسافيك تتدليان في الفراغ. أنا أرى الطريق الأسود تحتنا وهو أيضا يتحرّك.
- يضجّ الجمع مجدّدا بالضحك.
- إنّها حافلة البدو يا صاحبي، وتريد أن يكون لها قاع من حديد نضع فوقه أرجلنا؟ احمد الله أنّها تصل بنا.
- فجأة يدخل الرجال في حديث هامس عن الحافلة، وكيف توقّفت أكثر من مرّة عن الركض في قلب هذا الفراغ المرعب، وعمّن ماتوا من العطش لأنهم رفضوا الانتظار. يداهم الطفل خوف مبهم أن تتوقّف بهم في هذه الفيافي القاحلة فيموت عطشا وتموت "ما" كمدا على الطرف الآخر من الطريق.
- ونحن؟ هل سنموت أيضا من العطش؟
- اسكت، يا مغفل.
- يعضّ الأب على شفّته السفلى. يعمّ الجمع صمتٌ متجمّ. يأتي الطفل لأول مرّة الوعي بأن الرحيل عرضة لأخطار غير واضحة المعالم.
- تخرج الحافلة أخيرا من الفيافي الخطيرة بسلام. تعود بعض الخضرة إلى المناظر والطمأنينة إلى كل النفوس. أخيرا يتوقف هدير المحرك وهو يلفظ آخر أنفاسه.
- إنها آخر محطة قبل الوصول. يتسارع الركاب إلى الباب كالفئران إلى سطح اليابسة بعد نجاة المركب من الغرق.
- يضع مجهول يده على رأس الطفل وهو ينزل متشبّثا بيد الدليل: إنّها بركة هذا البريء.
- يضع مجهول آخر لم ينتبه له الطفل يده على ذراع أبيه.
- أنت، تعال معي.
- يتوجّه الأب لابن خالي الذهن:
- انتظرني هنا حتّى أكمل الإجراءات.
- أية إجراءات؟
- لا بدّ من رخصة. أرضنا منطقة عسكريّة صعبة الدخول بالنسبة إلى أمثالي.

يذهل الطفل. يفتح فمه للاحتجاج.

- اسكت يا مغفل، وإلا أرجعوننا من حيث أتينا. لا تتحرك حتى أخرج من مكتب الضابط الأجنبي.

يجلس الطفل وعينه على الباب الذي دخل منه رجل مشبوه عند حراس الطريق. يخرج "با" أخيراً، يده على خذّه، عيناه جاحظتان بكل ما في البشر من حقد ومن غضب، ووراءه الضابط الأجنبي بوجهه الأحمر وطربوش أبيض يشبه "كسرولة" وضعت مقلوبة على الرأس وهو يصرخ في وجهه بكلام غير مفهوم.

ما الذي حدث يومها؟ ملفت خطير رفض "با"، حتى بعد عقود، فتحه لفضولي. بداهة شيء ما نجم عنه جرح لم يتوقف يوماً عن النزيف.

- سيرجعوننا دون أن نرى جدّي؟

- لا، لن يرجعوني هذه المرّة... لأجلك. لكن عليّ أن آتي إلى هنا غداً.

- لماذا؟

- هيّا، قبل أن تفوتنا حافلة القرية.

- هل يأخذ الآخرون رخصة دخول من هذا الأجنبي؟

ينفجر "با" ضاحكاً، ويا لبشاعة ضحكة لا تعبر عن مرح أو فرح.

- هؤلاء! من بلّغ عنيّ واحد منهم، والباقون ولّوا الأدبار عندما علموا من أكون. تذكّر دو-ما-يا-بني-أن البشر من صنفين...

- الرجال والنساء، الرجال والنساء، الرجال!!!

- أتحدّث عن الرجال فالنساء لا يحسب لهن حساب.

- الكبار والصغار، الكبار والصغار!

- لا يا فتى، الرجال-الرجال وأشباه الرجال.

يدخل "با" في خطبة طويلة عن الفوارق.

- إياك وإياك أن تشبه يوماً رجالاتنا لا تتعدى الرجولة عندهم التبول وقوفاً.

مما بقي عالقا في الذاكرة من خطبة طويلة أعادت المخيلة صياغتها وترصيعها باستشهادات شعرية ترفع من قيمتها: الخاصية الأساسية لأشباه الرجال الجبن. احذر يا فتى منه إنه "خديعة الطبع اللئيم" إنه ما يكرهه ويتفاداه "الحزّ الممتحن بأولاد الزنا". لا تكن يوماً جباناً وإلا تبرأت منك وقلت عنك لقيط ألحق ظلماً بنسبي. إياك أن تشبه يوماً هؤلاء القوم. إن بهم دناءة فطرية وندالة مكتسبة طوّروها على امتداد القرون. يقبلون اليد التي تخفضهم ويعضّون التي ترفعهم.

ها هو يغلي بالتهكّم المرير وبالسخط على قوم "استندججوا" و"استبقروا" و"استنعججوا" وجعلوا من الخروف واستكانته للمقصّ والسكين نموذجهم الأعلى.

كان "با" شديد الاحتقار لقومه وهو يراهم يخفضون هامة الدّل أمام مستعمر أو طاغية تافه. لكن كل كرهه كان أيضاً حبا معكوساً وهو لا يبغى شيئاً قدر التباهي بأهله على عادة

البدو، إلا أنه لم يجد فيهم ما يفاخر به وقد أتاهاهم في عصر تخلوا فيه عن مشروع أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس.

يواصل زمجرته وهو يجذبني يكاد يخلع كتفي:

- كلهم صغار النفوس، كلهم صغار العقول، كلهم صغار الخصومات والجهد والطموح! آه وآه، أي ذنب ارتكبت لأكون من هؤلاء القوم!

يتعالى صراخه والناس تشيح عنه البصر وتفّر من حوله.

- اللهم لا تقبرني في أرض هؤلاء الجبناء! اللهم لا تجعل من موتي مهزلة بعد أن جعلت من حياتي مأساة! هل تتصور يا فتى-جنازتي، وقطعان الخرفان والماعز تحرسها كلاب الضبع توارى في الرمل جثة الأسد!

- "يا"، لكن الناس يقولون عنك إنك وطني تحب الوطن جدًا جدًا!

- الوطن! الوطن! الوطن! لا أبغض شيئا قدر بغضي له. هو مثلهم: كل شيء فيه صغير، مدنه، قراه، جباله، صحراؤه نفسها صغيرة وأصغر ما في هذا البلد اللعين البشر. ليس من باب العجب أن يكون زعيمهم قزم. اسمعني جيدا عليك وعليهم اللعنة. إن لم توقّر لك أرض الآباء والأجداد الحرية والكرامة، قل: ليغرقها الطوفان، ليضربها الزلزال، لتغمرها الرمال، أحرقها إن استطعت، وإلا أهرها، ذلك أضعف الإيمان... ما قيمة الوطن إذا كانت الأرض التي نهرب منها لا الأرض التي نهرب إليها؟ هذا الرجل هو نفسه الذي سيردّ لابنه أكثر من مرة:

- يا بني، تمثّل دوما بقول الشاعر "بلادي وإن جارت عليّ عزيزة وأهلي وإن ضنّوا عليّ كرام". أكرمهم مهما ضنوا عليك. لا تكن محبًا مخلصًا ووفيًا إلا لهذا الوطن مهما جافاك وظلمك... وتبر أمرك يا فتى لتعرف أي الموقفين هو الذي يجب اتخاذه.

قد لا توجد ثنائية تحكمت في قصة "يا" وهيكلت فكره ومشاعره قدر ثنائية الوطن والمنفى. كم يبدو لي اليوم ضيق الأفق وهو متمسك طيلة حياته بحبّ مرضي لقطعة أرض تطوقها حدود خيالية صنعتها ظروف لا منطق لها ولا هدف. كيف لم يكتشف هو الباهر الذكاء أن من طبيعة العالم أن يكون لنا وطنًا ومنفى أيا كانت قطعة الأرض التي حكم علينا أن نولد وأن نعيش وأن نموت فيها؟

لا بدّ لكل نوبة غضب أن تنتهي وإلا كان الغاضب هو الذي ينتهي مجنونًا أو ميتًا.

يتوقّف الرجل في طريقه إلى مريض حافلات الواحة ليختار لأهله بعض الهدايا ولاينه ثياب البدو الذين عاد واحدا منهم. يتوجه للطفل:

- أسرع بلبس هذا السروال الجديد حتى تبدو حسن الهدام أمام جدك.

أحسن ما في الأدميين نزعة التمرد إذ لولاها لما وجد تجديد.

- لا أريده. لا أحبّ لونه الأسود وشكله الفضفاض.

وفيهم أيضا لسوء الحظ إرادة لكسر كل تمرد، ربما حتى لا يصبح العالم فوضى ليس فيه طريق سالك.

- قلت لك اليس.

متوجها للبائع: بكم السروال يا رجل؟

يعود الطفل للصرخ ليثبت أن له رأي حتى في هذا العمر وأن على الطرف الآخر التعامل معه خارج الاكراه.

- لا أريده، لا أحب لونه وشكله. لن ألبسه. لن ألبسه!

يعلن البائع للحضور أنه لم ير أبدا طفلا وقحا يعصي أوامر والده بهذا الشكل.

يصرخ فيه "با" بقلق فمه وإلا فإنه هو الذي سيلبسه السروال بالقوة.

- والآن البس بسرعة، وإلا فانتنا الحافلة.

- لن ألبسه، لن ألبسه، لن ألبسه!

مشهد لا أكثر منه ابتداء في علاقة الأدميين ببعضهم البعض، يستأهل بعض التعليق.

القانون سعي كل ذات الذات للتحكم في الذات الأخرى... لتحريكها في الاتجاه الذي تريد...

لتفويضها... لاستعمالها، وكأنها تعتبرها تلقائيا مجرد امتداد لها. إنه تصرف الأم مع

رضيعها، الرضيع مع أمه، المعشوق مع العاشق، العاشق مع المعشوق، الصديق مع

الصديق، الأخ مع الأخ، السيد مع العبد، العبد مع السيد، الحاكم مع المحكوم، المحكوم مع

الحاكم. تكتشف حتى داخل العلاقة الدينية سطوة القانون فالخالق يريد تطويع المخلوق

بالوعد والوعيد، والمخلوق يريد تطويع الخالق بالصلاة أو بالتهديد بالكفر وبتفضيل رب

آخر. الفوارق التي تحجب عنا الظاهرة متعلقة فقط بإستراتيجيات التطويع وهي تتأرجح بين

الترغيب والترهيب، الغلظة والرقّة، الصدّ والوصال.

يفقد الرجل مجددا السيطرة على أعصابه المتوترة فينهال على ابنه ضربا. ثم يتوقف وهو

يفهم أن كسر شوكة هذا الطفل العنيد قد يؤدي به إلى انزلاقات لا يرغب فيها.

يرمي بالسروال في وجه البائع ويجرّ الطفل، يكاد يخلع ذراعه.

تنباطاً سرعته وقد جاءه التردد. يسترق النظر إلى طفل يشهق صامتا لأنه أقسم باكرا ألا

يبكي أبدا كالنسوة والصغار.

- لا أريد أن تقول لجدك أنني ضربتك....

- بل سأقول له أنك ضربتني بشدة، سأقول له ليضربك كما ضربتني. سأقول ل "ما". نعم

سأقول لها، سأقول كل شيء!

- فضحتني أمام الناس وتريد فضحي أمام جدك.

- وسأقول أيضا لله.

- لا تقحمه هو الآخر، يكفيني مشاكل مع ما ارتكب من إنس وأبالسة. يا إلهي أي طفل

ابتليت به؟ والآن كن ولدا طيبا. أتريد قميصا أم لعبة؟ بعض المرطبات؟

يتمسك الطفل برفضه المتعالي لكل عروض السلام التي يتقدم بها رجل متزايد الارتباك.

ثم تندافع ببالغ السرعة في ذهنه حسابات معقدة عن خطر الإفراط في الدلال فيتخذ أحكام

قرار.

- بعد المرطبات وزيارة جدي، نسافر معا إلى المدينة الكبرى والجامع الأعظم والبحر وكلللال الأماكن التي سافرت إليها؟

- موافق.

- كلمة رجال؟

- شريطة ألا تقول لجدك أنني ضربتك.

- كلمة رجال.

نحن هنا أمام عينة من علاقة الأبوة والبنوة. إنها علاقة سنتخذ ما لا يحصى ولا يعد من أشكال متباينة الطرافة والحدة والتعقيد والخطورة والنتائج وذلك حسب طبيعة كل أب وكل ابن والظروف التي تشكل خلفية هذه العلاقة وإطارها. حدث ولا تسئل عن كل الحالات التي تتخذها علاقة الأم بابنها وعلاقة البنت بأبها وعلاقة الحبيب بحبيبه والصديق بصديقه والعدو بعدوه أي فكر قادر على استيعاب كل هذه التجارب التي يحاول الأدب جاهدا عن استكشاف بعض ملامحها انطلاقا من قصة رحلة هذا أو ذاك!

يعود الطفل إلى الصراخ:

- جدّي ينتظر منذ الصباح. هيا. أسرع، أسرع!

يصرخ الأب وقد تبخّر منه مجدداً كل حسن استعداد:

- لوجه الله اصمت، ولوجه الشيطان توقّف عن الركض. أرهقتني، أصببتني بالدوار. كفت عن الجري، كفت!!

وهل بوسع الشيء الخروج عن طبيعته وعن سبب وجوده؟

تزحف حافلة البدو في وجه الريح المولولة وهي كسفينة تتقاذفها أنواء تريدها إغراقها في أعماق المحيط الأصفر. تتوقف وعجلاتها تدور عاجزة عن رفع تحديات الطريق أطبق عليها فخ الرمل. يصرخ الطفل آملا أن يطغى صوته على صراخ الريح:

- "با"، أين الطريق؟ لا أراه.

تعود للرجل المتجهّم بشاشته:

- إنّه أمامك، يا مغفّل.

- أين؟

- في مملكة الريح والرمل، هو ما نشقّ بأقدامنا ونحفر بأظافرنا.

- "با"، أنا أيضا أدفع معك ومع الرجال.

- تراجع إلى الورا، سيأتي دورك لتدفع هذا العالم اللعين. ويومها تدكّرني.

تعود الحافلة للتقدم البطيء المترنح. ينتبه الطفل أن "با" لا يتهامس مع جليس وليس مشغولا بجريدة يتصفحها بعصبية، أن أنفه هو أيضا على زجاج النافذة المغبرة... وأنه صامت يتأمل.

كان الرجل الذي فرّ من الصحراء ناقما، ساخطا، لا يحلم-وهو منفيّ عن أخطارها-إلا بالعودة إليها للاختباء نهارا في الحفر والمشى ليلا بحثا عن قرية فيها امرأة وماء وتمر.

كم سمعته يتحدث عن كثبانها كعاشق أضناه الشوق لوصال حبيب متمنع! كم سمعته يردد وهو على وشك الدخول في آخر منعطفات الطريق: أقصى أمانِي أن أمدد على رملها جسدي المرهق، أن أغرس مرفقي للمرة الأخيرة في "العرق"... أن أجيل بصري في عمق سماء ليلها.

يفيق الأب من ذوهله صارخا: وصلنا لمشارف الواحة. بعد قليل ستري جدك. انتهى عذاب الطريق.

تموت الصرخة في حلق الطفل، لا يدري لمن يتوجّه بحبّ جارف تصاعد من أعماقه وبأيّ كلام يشبّب بالشمس، بالأشجار وبالأفق الملتهب.

لا أجمل من العالم وهو يستعرض مفاتنه أمام طفل، ولا أجمل من طفل وهو بجمال العالم مأخوذ. وفي مثل هذه اللحظة المباركة تتعكس في مرآة العالم أجمل حالات الأدمي مثلما تتعكس في الأدمي أجمل حالات العالم. إنها تجربة تحققت فيها مرامي هذا من ذلك وتحققت فيها أهداف ذلك من هذا وفيها تختزل قدرة الأول على مطلق العطاء وفيها تتجلى قدرة الثاني على عميق العرفان.

ينقل الطفل بصره تباعا من خضرة الشجر الأهيف الأنيق المتكبر إلى حمرة قرص ذهبي على وشك الرحيل ناسيا كل ما من حوله. يدفعه والده برفق فظّ باتجاه الباب، يزاحمان متزاحمين نفذ صبرهم من طول الحشر في علبة الصفيح الساخنة.

يتلقّف الطفل صدر عجوز مبتسم الثغر، داعم العينين. وبين الذراعين المطبقين بقوة يستترن الطفل في لحظة خاطفة ما تعلم من سفرة سنطبعه إلى الأبد... أن الواحة محطة في عالم بالغ الاتساع، أن الطريق إليها طويل، خطير، تترصد فيه العيون، أن عليه حواجز وعساكر يمنعون ويمنحون الإذن بالمرور، أنه لا بدّ من فتح الطريق أحيانا بأجسامنا، وأن السفر هو الهامّ لا نقطة الوصول ولو انتظرك فيها حبيب يسمح عن عينيه دموع الفرح. حقًا لا مسافر غير الطفل ولا سفرة إلا إبان الطفولة.

اعد لي الماضي واحتفظ بالحقيقة (فرناندو بيبسوا)

هب لي الطفولة مرة أخرى وخذ معك الله.

في نفس الحافلة وهي تتحرك به في الاتجاه المعاكس، يبلىح الطفل دموعه وأنفه على النافذة ينظر لجده واقفا يخفي دموعه هو الآخر. تصله بصعوبة الكلمات الأخيرة التي يحاول إيصالها إليه ودويّ المحرك يغطي عليها. نعم، سيعود يوما وسيأخذه الجدّ كما وعد إلى "طينية" ليبنرا معا أرضا معطاء تجود بالقمح إذا جادت السماء بالمطر.

تأخذ "ما" طفلا يحبس بصعوبة دموع الأسي والقهر. تضمه بين ذراعيها وهو معرض عنها لا يريد الحديث. ثم ينفجر في وجهها وكأنها هي التي خانته.

- تركني أول يوم واختفى وأرجعني جدّي مع مجهول.

- يا بني إنها ضرورات... عمله.

- أي عمل؟ أنا لا أحبّه، لا أحبّه.

- يا بني، لو لم تكن معه لأوقفوه عند النزول من الحافلة. طلبوا منه أن يوصلك إلى جدك وأن يعود لتسليم نفسه. كنتما طول الوقت تحت المراقبة. أقلت والدك منهم واخترق الحدود تحت جنح الظلام وهم وراءه. من حسن الحظ أنهم يجهلون دروب الصحراء. حقا يومها فرّ "با" من أعدائه وبعد أشهر سيفرّ من رفاق اختلقوا معه فجاءوا لذبحه ليلاً. حقا كان له أعداء يتربصون به في كل تقاطع طريق. لكن ما أنا مقتنع به أن وجودهم كان بقرار وخيار ولو كان لا واعيا، وهم أحسن عذر للفرار من مسؤوليات مبتذلة أو حتى من أخطر مسؤولية: مواجهة الذات لذاتها. كانت "ما" تصدّق ما يقوله هذا الرجل عن مهامه الخطرة المتعددة، وكم هو مجبر على تأدية واجبه ولولاه لفضّل الحياة بجانبها وبجانب أطفاله الذين يعلم الله وحده كم يحبهم... إلى آخر أكاذيب الرجال على النساء. يعود الطفل للصراخ في أمه، يشير إلى البعيد المبهم، لا رغبة له إلا العودة إلى الطريق، وكل هاجسه معرفة إلى أين يؤدّي:

- إلى مدينة الجامع الأعظم حيث ستذهب مثل والدك يوما لتتعلّم كلام الله.

- وبعدها؟

- أعتقد أنه يصل البحر.

- وإلى أين يذهب بعد البحر؟

تضحك "ما"، تداري حرجها:

- تكبر، وإن شاء الله تسافر وتقول لي أنت ماذا يوجد وراء البحر.

- سأذهب حتى إلى ما وراء الأفق لأجد "با" وأعود به.

تبتسم "ما" برفق فيه نكهة من السخرية ولسان الحال يقول: لا تستعجل الأمر، سيأتي الوقت لتضرب في الأرض ذات العرض والطول، هانما على وجهك ككل البشر تبحث عما لا وجود له وتجد ما لم تبحث عنه يوما.

في ركن منزوي من خيال الذاكرة يركب بطلنا الصغير عصا من القصب يأمرها أن تطير به لما وراء الأفق. قبله ركب الأب سعف نخلة والبصر شاخص إلى البعيد لاستكشاف ما يحفل به العالم من خوارق ومعجزات. بين أشجار اللوز والزيتون تواصل طفلة متقطعة الأنفاس القفز بالحبل ضاحكة من سداجة الطفل الذي سيصبح بعلمها والطفل الذي سيصبح طفلها.

لا يبقى لنا إلا رفع العينين لمن توجّهت إليه صلاة المريض: اللهم اتم رحلة هؤلاء الثلاثة وبقية المرتحلين في هذا العالم على خير، إنك السميع المجيب... أحيانا.

الكتاب الثاني العالم

ما إن يعود الربيع
إلا وأنا متيم من جديد بعالم السراب هذا
في أي عالم آخر سأرى مثل هذه الأزهار؟

“هايكو” لشاعر مجهول

مقدّمة الكتاب الثاني

في 9-9-99، بالتقويم السائد.

منذ الصباح وأنا أتوجس خيفة من يوم فيه أربع مرات رقم تسعة. ما الداعي إلى القلق؟ طبعاً أنا آدمي عقلاني أرفض التطير واسخر من المتطيرين لكن هل تتابع نفس الرقم وهو من الأرقام السحرية مجرد صدفة؟ من الممكن أنه يوم لا يختلف عن بقية الأيام سيتدافع فيها القادمون الجدد بنفس التهور، سيغادره القادمون القدامى بنفس الصعوبة وسيواصل المرتحلون فيه التخبط في المشاكل المبتدلة التي جرّبوها جيلاً بعد جيل. لكن من يدري؟ لا بدّ للعالم من نهاية، فلم لا يكون هذا اليوم؟

ربما السلطات على علم بأمر ما لكنها تفضل الصمت حتى لا تضيف مزيد من الفوضى إلى الفوضى العادية.

ربّما حصل المحذور ولم أعي ممّا قد يعني أن هذا النص حلم يحلمه ميّت! في حالة استهزائكم بالفرضية، لماذا يكون عدم انتباهي لنهاية العالم وخروجه منه أغرب من عدم انتباهي لبدائته ودخولي فيه؟

حتّى لا أتهم بترويج الأوهام والأمال الزائفة كما يفعل صانعو الرؤى غير المتقنة، سأقطع الكتابة لحظة للتأكد من عدم وجود أي ظواهر شاذة قد تنبؤ بقرب غلق هذا السيرك العظيم. أنظر إلى ساعتني بشكّ حذر بين الفينة والأخرى فيطمأنني أن عقاربها تتقدّم إلى الأمام لا إلى الخلف، أن السماء في مكانها أي فوق رأسي، أما الأرض فهي-لحدّ الآن-تحت قدمي، ناهيك عن كون اليوم المريب بدأ بصبح مضيء وهو الآن بصدد الانتهاء بنفس الليل الحالّك السواد.

يجب الخروج إلى الحديقة لمزيد من التثبّت.

يسعني الآن-دون أن يسعدني ذلك كثير-تدوين ما يلي: مشيت على نفس الأرض الصلبة المعتادة ولسعنتي نفس الهوام المجهولة، وتضاعدت من أزهار الياسمين نفس الروائح المسكرة ووترت أعصابي أعراس الجيران ولفحتني نفس الريح القادمة من البحر مشبعة حرارة ورطوبة. كذلك لمست كل الأشجار، فلم تتبخّر، بل ومضغت ورقة من أوراقها فبصقتها. لم ألحظ أيضاً ما يثير الشبهة بخصوص السماء، وجهلي بترتيب النجوم على رداء الليل لا يبدو مختلفاً عن جهلي به البارحة. أضف إلى هذا أنني سمعت بمنتهى الوضوح أصوات الأدميين ونباح الكلاب، وأنني تأملت ذاتي فوجدتها على ما أعرف من انتباه قلق.

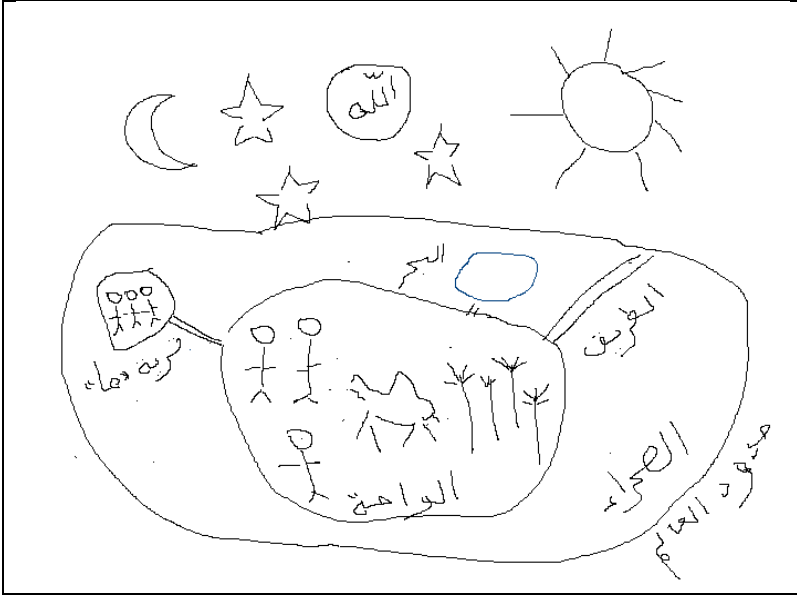
كأنّ الرغبة المطمورة في الأعماق لم تتحقق لسوء الحظ (أو لحسنه)، وكان الخشية المطمورة في الأعماق لم تكن في محلها لحسن الحظّ (أو لسوءه)، فاليوم-بالتأكيد-ليس

النهاية حيث ولى الأديار بأرقامه المثيرة للريبة منذ أكثر من دقيقتين حسب ساعتني، والعالم لم ينتهي.

أهم استنتاج أنه ما زال لي بعض الوقت وبعض الأمل في فهم ما هذا الذي ارتحل فيه وفي تحسين نماذجه الأولى.

تعود للذاكرة صور طفل معاقب بالنفي في آخر القسم يداوي ملله بوضع أولى نظرياته عن هذا العالم الذي أفاق فيه ولا بد أن يشق فيه طريقه لهدف ما زال مجهولاً. كان في ذهنه طبقاً صلباً أفقياً جلّه أصفر اللّون باستثناء بقعة زرقاء هي البحر الذي حدّته الدليلان عن وجوده، وبُقَع خضراء صغيرة متناثرة منها واحة الأب والجَدّ. فوق الطبق الصلب الذي يقف عليه هو وبقية الكائنات والأشياء ثمة قبة هي السماء، وُضعت عليه كما تضع أمّه صحناً أجوف من البلّور على طبق الطعام لتقيه من الذباب. على سطح هذه القبة تتجول الشمس والنجوم والقمر. فوقها وبعيدا عنها يجلس على كرسيّ ضخم اسمه “العرش” شيخ كلّ الشيوخ اسمه الله. بين قبة السماء والبسيطة يوجد الهواء الذي تطير فيه العصافير، في حين تُسبح الأسماك في ماء البحر، ممّا يترك الأرض للبشر الذين منهم “با” وما” والجَدّ والجدة والعمّات والأحوال والجيران والكلاب والماعز والحمير والبعير. من مركز العالم الذي يشكّله فناء منزل الجدّ يبدأ وينتهي الطريق الذي يسلكه كل ذاهب وكل عائد. على حافتيه ثمة مدنٌ وقُرَى لا يُعرف لها عددٌ. أمّا الحدود فنهاية الطريق، عندما يرتطم بالهاوية التي لا قرار لها والتي لا يُعرف بالضبط ما الذي يوجد فيها، ربّما العفاريت والأشباح، من بينهم “العبينة”.

نعم ما من شك أن الرسم الذي كان يحسنه باستمرار هو الخريطة الصحيحة للعالم.



ماذا الآخرة التي سمع عنها أكثر من مرّة خاصّة من جدّه!
هل يُعقل أن ينسى معلّمًا كهذا؟! أين موضعها؟ هل هي حيث يوجد العرش؟ على يمين الله
أم على يساره؟
حسب قول "ما" هي المكان الذي يذهب إليه الكبار عند موتهم. ألا يحفرون للميت حفرة
في أديم الصلب، وهو ما قاموا به عندما حملوا حسين ابن خاله الذي كان يحب اللّعب معه
وسرقة لوز الجيران؟
إذن، الآخرة موجودة تحت الأرض. ووفقا لما سمع من "ما" التي لا تكذب أبداً، هي مكوّنة
من الجنّة والنار.
لم يبق إلا إضافة مربعين يرتبطان بالأرض بالنفق العمودي الإجباري الذي يأخذه الموتى
للوصول إلى حيث حُجز لهم مكان اقامتهم الأخير. المربع الأوّل أخضر اللّون لأنّ الجنّة
كما تقول "ما" واحدة خصيبة، ولو أنّها أكبر ونخيلها أعلى ومياها أوفر وأعذب، يذهب
إليها من عمّلوا الصالحات. أمّا المربع المقابل فهو أحمر بلون النار المخصّصة لشواء لحم
الكفار والمعلّمت الشّريرات.

المهمّ أن موضوع البحث ما زال موجودا وكذلك الباحث.
كأنّي بشيطان ساخر يهمس داخلي هو لم ينته هذه الليلة أما أنت فقد تنتهي بأسرع ما ترغب.
عجّل يا غبي؛ قد لا تتوفّر على وقت كثير لإنهاء المشروع.
المشروع! تحسين نماذج الطفل للعالم والردّ على حزمة من أسئلته منها هل قدّت الشمس
من ذهب قرطي "ما" وهل القمر مصنوع من فضة الخلال؟

**

لبينات الأسس

في بعض أقدم ملفات الذاكرة تهمس "ما" في أذن ابنها وهو يفرك عينيه نصف مستيقظ.
- أبوك رجع هذه الليلة. يا إلهي، أكثر من ثلاث سنوات مرّت دون أن نراه! انهض، قال إنه سيأخذك كما وعدك لزيارة المدينة الكبرى. أسرع وإلا غيّر رأيه.

يصرخ الأب في طفل انتصب واقفا على السرير.
- يا الله يا فتى، تحرك ما لك تنظر هكذا، أسرع، ليس لنا وقت نضيّعه.
تتدافع الأسئلة في ذهن الطفل عن المتاهاات المبهمة التي خرج منها "با" خروج الجنّي من القمقم.

- "با" أين ... أين كنت؟
- أفتح لك الطريق. قلت لك يا الله... القطار لا ينتظر.
يرقص الطفل على سريره فرحا. ثم يعاوده القلق.
- هل ستسافر مجددا؟ هل ستتركني؟ لن تغيب مرّة أخرى، أليس كذلك؟
- كأنك تريد إغصابي! هيا، لا تضيع وقتي، لن يكفينا كامل اليوم لزيارة العاصمة. برنامج اليوم الحتمام وزيارة الحلاق وصلاة الجمعة في الجامع المعمور. لا بدّ أن أبحث عن كتاب قبل آخر قطار. تعال، حنّ الخطي.
يتبع طفلاً في السابعة أو الثامنة من عمره رجلاً وُلد على عجل، عاش على عجل، مات لا يلوي على شيء وكان له مواعيد هامّة حتى في الآخرة.
تتلقّان بعد ثلاث سنوات مرت كلمح البرق نفس المحطة ونفس القطار، هذه المرة متوجها نحو الشمال.

- "با" وصلنا؟ بهذه السرعة! لا يمكن أن تكون المدينة أبعد نقطة وأنا أريد...
- لا تؤثر أعصابي من الآن، حنّ الخطي لنصل الحمام سريعا.
يصرخ الطفل في أبيه وهما وسط ساحة مغبرة تفتح على أوسع أزقة المدينة العتيقة:
- "با"، ما هذا الشيء؟
- إنه تمثال لواحد من كهنتهم يسمونه "لافيجيري".
- لماذا يقف أمامه الجنود؟
- حتى لا ينسفه رجالنا...
- "با"، هل جثة الرجل موجودة داخل التمثال؟
- لا شيء داخل هذا المسخ سوى استقزاز المحتلّ وكفره.
يزمجر "با" كعادته عندما يرتفع عنده منسوب الألم.

- أبناء الكلب! وضعوا صنمهم في مدخل المدينة العتيقة للشمامة بنا، لنفس الشامات سمّوا هذا الذي ينتهي عند الجامع الكبير "شارع الكنيسة". اللعنة ألف مرة على جبروتهم واللعنة ألف مرّة ومرة على لا-جبروتنا نحن.

- أريد أن ألمس ال...

- الجنود يمنعون اقترابه يحمونه من التفجير وكتابات السبّ، سنقتلعه طال الزمان أو قصر. هيا أسرع ما لك تجرّ قدميك!

لا يريد الطفل شيئا أكثر من الركض مع الراكضين وحتى تجاوزهم ليكون أول من يصل ولو أنه لا يعرف ما المكان الذي يجب أن يسبقهم اليه.

يصرخ فيه "با" يكتم ضحكه وراء ملامح يجاهد لكي تبدو عابسة.

- تمهّل، وإلا فقدتُك، حتى وإن كان الأمر لا يخلو من بعض الفوائد.

يجد الطفل نفسه فجأة مثل قشّة طافية على أمواج نهر صاحب وجران الشارع الضيق مثل سدود تردّ من يرتطم بها إلى المجرى فتزيد في عنف تلاطم الموج.

ينقل الطفل بصره بين الوجوه والأزياء، لا يضيّع شاردة ولا واردة.

- "با"، من هذا الرجل، وماذا يفعل؟

- شيخ ينسج الجيب. سأشتري لك جيّة جديدة ليوم العيد، إذا كفتت عن الصراخ.

- انظر "با"، إنه الشيخ الذي صنع شاشية خالي صالح!

- هذا سوق الشواشين، هذا الرجل بالذات ليس من صنع شاشية خالك، الصنّاع بالعشرات.

- "با"، أنا أيضا أريد أن أنقش على مثل هذه الصحون الجميلة بمثل هذا المسمار، وأن أجلس في مثل هذا الحانوت مثل ذلك الطفل.

- يا جحش. أريد لك مستقبلا أفضل.

- "با"، لماذا كلّ الشواشي حمراء وكلّ النساء ب "سفساري" أبيض؟

- عندما تكبر، افرض على الرجال صبغ الشواشي بالأبيض وعلى النساء ارتداء "سفساري" أحمر اللون.

يعود الطفل للصراخ :

- "با"، ما هذا الشيء الأبيض؟

- يسمّونه "الكنسترو". يوم نخدغ عائلة بريئة ونخطب لك ابنتها المسكينة، سنشتري مثله لنضع فيه هدايا الخطبة.

- "با" ما هذا الشيء؟ وهذا الشيء؟ وهذا الآخر؟

فجأة يُداهمه قلقٌ مبهم.

- بخصوص الحَمَام والحَلّاق... هل يمكن أن نذهب مرّة أخرى؟

- لا تماطل. هل رأيت هذه الغاية من الشّعر فوق رأسك؟ أخشى - إن أهملنا قصّها- أن تملأها حيوانات صغيرة يبدأ اسمها بحرف القاف.

يصل أبٌ يجر ابنا، وابنٌ يجر أباً، لحمّام اسمه “القشّاشين” يقول عنه “با” إنّه أفضل وأرخص حمّامات المدينة العتيقة.

- “با”، لماذا صبغوا عمودَي المدخل بالأحمر والأخضر؟

- ألا يعجب الأحمر والأخضر سيادتكم؟

- كنتُ أفضلّ الأحمر والأبيض. إنهما لونا العلم المفدى!

- الأمور كما هي، ومن بينها أنك ستدخل هذا الحمام أيا كانت ألوان أعمدته.

تضيق الأشكال والألوان في ضباب تنهدى داخله أجسام مترهّلة تحمل حول الخصر فوطة باهتة اللون من كثرة الاستعمال والغسل. يأتي وقت الجزء المزعج من البرنامج الذي لا نجاة منه. الطفل الآن بين يدي “الطياب” كالفأر بين مخالب القط. يسلم جسمه مكرها ليدي المهنيّ الخشنة، تدلكانه، تفركانه، تطقطقان مفاصله، والطفل بين احتجاج وإذعان ساخط، وأبوه بين ضحك وتقريع.

لا يبقى له غير كتم أنينه ومحاولة التركيز على ما حوله لينسى ما يتعرض له من اعتداء سافر على حرمة الجسدية. ألم يطالب أمه بأب يأخذه لحمام الرجال ملّ حمام النساء الذي يذكره دوماً أنه ما زال طفلاً صغيراً. ومع هذا، ليس في هذا الحمّام اللعين ما هو جدير بمزيد من الصبر والتحمّل، وقد أعمى البصر الماء والصابون ورغوة “الشامبو”.

- عيناى تحرقاننى، أريد الخروج، أريد الخروج، سأخرج الآن.

- شيء من الصبر يا مصيبة والدك، يا غضب الله عليه. دعني على الأقلّ أنشّفك. المرّة المقبلة ستذهب إلى الحمّام مع أمك ككلّ الصغار.

- أريد الخروج! أريد الخروج!

- أخرج الله روحك. استلقِ على هذا الحصير فلا بدّ من الراحة قبل العودة للشارع. لا شك أنك ظمآن، هذه برتقالة لك من “ما”.

يأخذ الطفل الثمرة، يقرّبها من عينيه يطيل النظر وكأنّه يرى برتقالة لأول مرّة في حياته. يبهره لونها هو الذي اكتشف من جديد إلى أيّ مدى هي رائعة هذه الألوان التي ضاعت أكثر من ساعة طويلة في بخار الحمّام.

- ماذا تفعل؟ ألم تعجبك البرتقالة؟

- بلى، إنّها جميلة جدّاً، خاصّة اللون. ألا ترى كم هو جميل؟ أحب رائحتها أيضاً، “با”، هل هناك برتقال أزرق أو أبيض أو أسود؟ هل رأيت برتقالاً بمثل هذه الألوان في البلدان التي ذهبت إليها؟ هل له هناك روائح أخرى؟

- يا لك من طفل غريب. والآن كلّ برتقالتك واطركني أغفو لبعض الوقت.

- “با” لا أريدها... إنّها شديدة الحموضة.

- انن كل القشور... ربما يعجب سيادتكم طعمها.

يغضض الأب عينيه معرضاً عن طفل لا يجد ما يلهو به غير الانكفاء على ذاته بانتظار استئناف الحوار وتجدد الصلة التي هو شرطها الأول.

يغلق عينيه هو الآخر، يفتحهما للظلام متذكرا لعبته المفضلة زمنا طويلا، وكم كانت أمه تكررهما لسبب غير مفهوم.

ومن الملفتات المطمورة بعناية في ذاكرة الكهل تعالى أمر غاضب: يا بني، كفت عن هذه اللعبة، ابحث لك عن غيرها، إنك تخيفني.

يخضع الطفل للأمر. لا يريد أن يستقرّ "ما" معاهدا نفسه على العودة إلى العالم الغريب وهو بعيد عن عينها. أليست اللعبة الغيبة - كما كانت تصفها أمه ظلما-بداية تجاربه لفهم ما يحيط به من خوارق ومعجزات؟!

هو يتذكر كيف انطلقت اللعبة والاكتشافات الهائلة التي تبعتها.

- "ما"، لماذا ينظر هذا الرجل دوما في الفراغ؟

- إنه من المبصرين يا بني، تلطف معه دوما وخذ بيده لتعينه على شقّ الطريق.

- مبصر؟

- يجب أن تسميه "مبصرا" حتى لا تجرح المسكين وهو لا يرى شيئا.

- هو لا يرى المعزاة والنخل، ولا يرى عنتر حتى عندما يكون مفتوح العينين؟

- نعم، هو لا يرى... إلا الظلام.

يكتشف الطفل، وهو بعيد عن عين كل رقيب، سهولة أن يكون "مبصرا" متى شاء، مكتشفا أن الظلام الذي فرضه على نفسه استنفر فيه طاقات مجهولة. ها هو "يستشيق" روائح يفوح بها شجر النخيل، هو الذي لم يعرف للنخيل يوما روائح.

ها هو "يسمع" بيبب النمل على الأرض كأنه رخص الخيل، بل ويشعر بلمس رقيق لما يزرخ به الفضاء من إنس وجان.

السؤال الذي شغل باله تلك الأيام، كيف يفسر للضيرير لون الحليب، ولون الفحم، ولون الرمل، ولون السماء، ولون الدم، ولون سعف النخيل؟

- "ما" إذن، هذا الأعمى كما يقول جدّي لا يراني!

هاجس الطفل الآن ليس أن يكون الشيخ عاجزا عن الرؤية، وإنما أن يكون عاجزا عن رؤيته هو.

هو سيعاني مثل بقية الأدميين من ألم بقاءه خارج مدار أنظار تنزلق عليه ولا تبصره وهي شاحسة إلى الأفق أو منعكسة على ذاتها لا تهتم إلا بها. هو أيضا سيبقى ساعيا بكل قواه لتتوجّه إليه كل الأعين. هو أيضا سيكون بين من أذلهم الجري وراء الأنظار. هو أيضا سيجرّب مراهقا نصيحة آدمي يدعى "بيكات" بإبعاد أي كائن بوسعه النظر إليه، حتى ولو كان القط، بنزع كل مرآة من الحائط، بغلق الأبواب والنوافذ، بإطفاء الأنوار، بغلق العينين علّ الذات توجد أخيرا خارج سطوة الناظر.

يعود للذاكرة سؤال يتذكر الطفل كم أزعج أمه.

- "ما"، هل سأكون مبصرا يوما ما؟

- سبعة أطاف وبعيد الشرّ على ولدي، لا تقل مثل هذا الكلام يا نور عيني.

ثمة رعشة خفيفة في نبرة صوت الأم تنبئ بوجود رعب تحاول إخفاءه ولا تفلح.
كيف لا يأتيها التطير وهي تعلم ما لا يعلمه ابنها في هذا العمر، وكم يعيث العمى فسادا في
قريبة غارقة في الفقر والجهل؟ ألم يسمعها تهمس ذات ليلة في أذن جارة وهي تظنه نائما.
- هل هو الرمد؟ إنه الرمد... أليس كذلك؟

- يا عزيزة، صلّي على النبي.

- لكنه يقرب كل الأشياء إلى عينيه، أنا متأكدة أنه لا يرى جيّدا.

العمى! ذلك أخشى ما كانت تخشاه "ما تلك الأيام، والهاجس المرضي الذي سيصاحب
الطفل إلى يوم الرحيل.

في أي عالم كنت أرتحل لو لم تكحل عيني خضرة الغابات والمراعي، زرقة السماء
والبحر، بياض الثلج والسحب، حمرة الورد والشفق، صفرة الصحاري وحقول القمح!
في أيّ عالم كنت أرتحل، لو أفقت فيه دون حاسة الذوق لتتمتع بطعم البرتقال المقطوف
في وقته... لو أفقت فيه دون حاسة السمع لتعرف كيف هو خرير الماء وضحك الأطفال
وارتطام قطرات المطر بشباك غرفة النوم!... في أيّ عالم كنا نرتحل جميعا لو أفقنا فيه
ونحن لا نملك مثل دود الأرض إلا حاسة اللمس؟!... ثمة إذن عالم لا يعرفه إلا
المبصرون... وآخر اختفت منه الأصوات لا يعرفه إلا الطرش... وآخر لا وجود فيه
للروائح إلا ككلمة من اللغة لا يعرفه إلا من فقدوا حاسة الشم!... كم من بني سفر ارتحلوا
داخل عوالم كهذه لا يعرفونها إلا هم!؟

يمكنك متابعة الفكرة في الاتجاه الآخر.

في أي عالم كنا نعيش لو ولدنا بحواس غير الخمس الكلاسيكية التي رصدها ارسطو؟
ها أنت تسمع ما لا تسمعه الخفافيش، تشمّ ما تعجز عن شمّه الكلاب والقطط، أو ترى بعين
أكثر فعالية من عين النسر والصقر.

تستحثّ فيّ الفكرة كل طاقات التخيل. رؤية ما وراء البنفسجي؟ تحسّس الذبذبات
الكهربائية-المغناطيسية، وربما حتى ذبذبات الجاذبية إن وجدت؟
قد يأتي يوم يحمل فيه أحفادنا سماعات تلتقط غزل الأزهار ونظارات عن قرب تتأمل
رقص الذرات ونظارات عن بعد تتابع انفجار النجوم والمجرات. لكن ما الفائدة وماذا ترانا
فاعلين بسبعة أو بسبعين حاسة ونحن نكاد لا نستوفي إمكانيات التي خلقنا بها؟
يفتح الطفل عينيه سعيدا بعودة الألوان والأشكال والحركة. يكتشف والده يراقبه باستغراب
ثم يهز كتفيه أمرا هيا إلى بقية يومنا.

يخرجان من بهو الحمام، والطفل يفتعل النظر إلى الخارج حتى لا يرى الحلاق ناصبا له
الكمين.

- "يا"، ما هذه البناية التي أمام الحمام؟

- قلت لك لن تتهرّب من قصّ الشعر.

- أسألك عن المبنى، لا غير.

- لا أعرف، أما ما أعرفه بالتأكيد أنك ستجلس على هذا الكرسي على الحلاق المسكين يستطيع لك شيئا.

حصّة التعذيب الثانية. هذا اليوم الذي كان ينتظر بفرغ الصير؟
يتفحص الطفل وجهه الذي في المرأة كأنه يراه لأول مرة.

يرجع له سطحها القذر وجها عابس الملامح مع مسحة من كآبة، مستديرا أسمر اللون، بأنف صغير مدبب، وجبين مرتفع، وعينين واسعتين يلمع فيهما دوما بريق غريب يفضح العواصف التي تعتمل داخل ذهن لا يهدأ لحظة واحدة.
يثير فيه الوجه الغريب، قلقا غامضا.

- "يا"، انظر، هذا أنا؟

يرفع الرجل عينيه من الجريدة بضيق واضح.

- ماذا تقول؟

- انظر. هذا أنا.

- أتحمّل منظرك طول الوقت وتريدني أن أتأملك في المرأة أيضا؟

يفتعل الطفل عدم الانتباه لسخرية أبيه وضحك الحلاق.

يبدأ الرجلان حديثا طويلا بصوت خافت عن آخر أخبار الثورة التي في جبال البلاد المجاورة وقلقل المدن، والوطن الذي هو قاب قوسين أو أدنى من الحرية.

- "يا"، هل تدري...؟

- لا أدري. قلت لك: لا أدر-ي. لا أحد يدري شيئا في هذا العالم اللعين والآن أغلق فمك إلى نهاية الحلاقة.

يقرّر الطفل أن يعلق فمه بانتظار مرور عاصفة الغضب، وتفجّر الضحك من أب نقل عن العالم سرعة تقلّب المزاج.

تتواصل حصّة التعذيب الثانية، والطفل موثق إلى الكرسي، ولا شيء مليف للنظر غير صورته تتأمله بالحاج.

يعود إلى تأمل أصوات الحلاق من موس، ومشط، ومقصّ، وصابون، وقوارير العطر.

ثمّ يشدّه ثانية الوجه العابس في المرأة يغمض عينيه ثمّ يفتحهما آملا أن يرى اختفاء الخيال فيجده يحدّق فيه كل مرة، يستفزه بإخراج لسانه له فيخرج له الخيال نفس اللسان، يقرّر تخويفه فيرسم على وجهه ما يستطيع من علامات التهديد والغضب، فيفعل الآخر نفس الشيء.

- "يا"، هل الذي في المرأة يشعر بما أشعر به؟

يصرخ الأب في الحلاق:

- هيا يا رجل، أسرع، نفذ صبري منك ومن هذا "الفرخ".

ينفضّ الرجل عن الطفل بقية الشعر العالق ببقا قميصه. تستولي يده الأخرى بعجل على قطع النقود التي دسّها فيها "يا". يتوجه إليه بلطف من فتح الكرم قلبه:

- حقا، إنه طفل ذكي وجميل.

- جميل، آه، نعم، أمه تدعي هذا أيضا. تعرف المثل: "كل قرد في عين أمه غزال".

ينطلق السؤال من الطفل كالرصاصة الطائشة من بندقية الصياد المبتدئ :

- "با"، هل أنت أيضا قرد في عيني جدتي غزال؟

تغرق روحه في دهشة لا قرار لها، وهو لا يفهم ما الذي تسبب له في صفة كهذه. يا إلهي لم يجرب مثلها على كثرة ما عرف خذ الغض من الصفع! ترى هل ستترك -كالمرة الفائزة- آثار الأصابع الخمسة؟

يجزّ الرجل المنتسج طفلا قرّر ألا يكلم أباه مدى الحياة، وكالعادة تتباطأ خطوات الرجل، أتاه الهدوء ومعه الندم. قلّ من يرتكون أفعالا مشينة ثم يسعون تلقائيا إلى تعويض الضحايا. كان "با" على الأقل، من النوع الذي تأتيه الفكرة، بل تعدّبه أحيانا.

محاولة التكفير.

- هل تريد أن أشتري لك ملابس جديدة أو لعبة جميلة؟

....-

- شيء نشتره لأمك؟ سنذهب لشراء هدايا لها، ثم سأخذك لأحسن خياط لنقيس ملابس العيد ولو أن العيد ما زال بعيدا. لا شك أنك ستحبّ حذاء جديدا، ثم نذهب بعدها إلى المطعم.

.....-

- تصمت عندما أريدك أن تتكلم، وتصمّ أذني عندما أريدك أن تصمت!

الصفح بهذه السهولة! يرفض الطفل أن يفتح فمه وهو عازم أن مقاطعة زوج "ما" ستكون هذه المرة جدية ومتواصلة إلى أن يأتيه الموت، وليست كالمرات الأخرى العديدة، مجرد ابتزاز وتهديد. ثم إنه لم يقل له ما البناية التي تواجه الحمام.

للضروريات أحكام كما يقال خاصة أن كان من بينها الجوع؟

- المطعم! نبدأ به، المطعم! المطعم!

- إذن، إلى المطعم يا فتى.

وهذا معلّم من معالم المدينة العتيقة، بقي ثابتا على شكله وطقوسه وألوان الطعام التي يقدّم، على امتداد نصف قرن. هكذا تتابعت عليه أجيال من الطلبة الفقراء والكتّاب الفقراء، والمحامين الفقراء، وكل أصناف المعوزين من زوّار المدينة، أجانب كانوا أم أبناء البلد.

ثمة من كان يرضى بقاعته الداخلية الوحيدة المكتظة دوما، يدخلها حاشرا جسده بين القصاص الضخمة. لكن الطفل وبعده الكهل، لم يكن يرضى إلا بالطاولات المصطفة على الجانب الأيمن من قارعة الطريق الضيق، تحميها من تساقط المطر ومن نبال الشمس الأسقف المرفوعة فوق شارع حافظ منذ قرون على طابعه الشرقي الجميل.

يجلس الطفل بجانب أب شارع يجيل النظر حوله ببطء شديد، يضع يده على كتف ابنه ثم يمسح على شعره كما تفعل "ما". يرفع إصبعه مشيرا إلى بناية مهيبّة تتوجه إليها الجحافل.

لا ينتظر الطفل بقية الخطاب.

- أنا أعرف، هذا هو الجامع الأعظم الذي تعلمت فيه كلللالل كلام الله، وحيث سنصلي معا.
يهمس الأب كأنه يحدث نفسه:

- الجامع الأعظم، القلعة الشامخة... روح هذا الوطن الذي فقد كل روح!
قد يكون المبنى شيئا هاما بالنسبة إلى الرجل، بالنسبة إلى الطفل الأهم هو ما حوله.
- "با"، من أين يخرج هؤلاء الناس؟ وإلى أين يذهبون؟ لماذا تنتظر هكذا إلى هذه المرأة؟
لماذا هناك نساء لا يلبسن السفاساري؟ لماذا يبدو هذا الرجل حزينا؟ لماذا يمدّ هذا الآخر يده
للناس؟ لماذا قلت له "ربي ينوب" ولم تعطه شيئا؟ هل رأيت النادل؟ إنّه إنسان ظريف حقًا،
يهوول بخفة بين الطاولات، إنّه محبوب على ما يبدو فكلّ الناس يمزحون معه.
- اترك الرجل وشأنه، كلّ، وقت الصلاة قد اقترب.

من أين للطفل أن ينتبه لطبق من الطعام وهو يلتهم الوليمة الفخمة بعينيه؟
- قلت لك: كلّ، أتريد طبقا آخر؟ ألم يعجبك المشوي؟
- "با" لم أكل الدّ منه من قبل، رائحته أيضا طيبة، سأقول ل'ما' أن تطبخه لي كل يوم.
- نعم، نعم لكن كفت عن الصراخ أصببتي بالصداع، ألا تستطيع الكلام بهدوء، لست أطرشا.
- "با"، أخطأ النادل هذه المرة فجاء بكسكسي لرجل طلب ملوخية...
- هل ستأكل هذا الطبق اللعين أم أسكبه على رأسك؟
- أريد الذهاب إلى بيت الراحة.
- ركضا.

يعود الطفل جريا من الحمام، يرفض الاعتراف أنه يفضل الاحتفاظ بما بداخله على البقاء
لحظة في مكان زاخر بقذارة تأتيه ذكراها بالتقيؤ. يرتمي على الكرسي جنب أبيه، يواصل
التمتع في مناظر أعجب ما فيها تجدها المتواصل، ثم ينتبه إلى أن قدمي والده موضوعتان
على الأرض، بينما تتدلّى قدماه هو في الفراغ. يشعر بشيء من نفاذ الصبر أمام زمان يتلكأ
به في طفولة كأنها القفص المطبق على العصفور.
يتوقّف مجهول، ينقضّ عليه بالقبلات، وعلى أبيه بالسلام الحار، والسؤال الأزلي ملء الفم:
كيف حالك؟

إنه أهم سؤال يلقىه الأدميون على بعضهم البعض وكل إجابة فحّ... إن أنت تبجرت في
الشكوى من مصائبك أز عجت سائلا غير معني إلا بمصائبه هو... إن أنت أسهبت في وصف
ما أنعم به الله عليك من الطيبات أثرت غيرته... وفي الحاليتين إن أطلت في هذا الاتجاه أو ذاك
ضيعت كل الوقت الذي يريد اغتنامه ليقصّ عليك هو نجاحاته أو آخر ما تلقى من ضربات
الدهر....

ينصرف الصديق فيتنفّس الأب الصعداء وهو لا يريد شيئا غير إكمال غدائه. فجأة يجلس
لاها إلى نفس الطاولة شيخ بدين بئرنس أبيض وعلى رأسه كشطة المشايخ. يتحوّل انتباه
الطفل للقادم الجديد.

- "با"، انظر. ليس لك كشطة مثل الشيخ لأنه يعرف أحسن منك كلام الله، أنا أيضا أريد كشطة مثل هذه.

يضحك "با" ضحكة صفراء، بيتسم له الشيخ وهو يواصل مسح عرقه. يسمح على شعر الطفل بيده البضة.

- إن شاء الله تصبح واحدا من مشايخ الجامع المبارك، ويكون لك عمود تسند عليه ظهرك ويطعم حولك الطلبة من مشارق الأرض ومغربها، ويومها تلبس أيضا كشطة بدل "الكبوس" وجبة "قمرية" مثل أبناء المدن.

يهبّ الرجل واقفا، يجرّ ابنه بعد دفع الحساب لا يخفي توترا جديدا في أعصاب مشدودة دوما كالسهم إلى الوتر.

- هيا يا ولد، حان وقت الجمعة، كان لا بدّ لك من إثارة الانتباه مرّة أخرى ومع هذا الحقير!

- لماذا تقول عن الشيخ إنه حقير، أنا أحببته.

- يا مغفل، لم تنتبه لهجته. الرجل كان يتهمك علينا. هل تعلم كيف يسمّوننا أهل هذه المدينة الكلبة: الأفاقيون؟

- "با" ما معنى أفاقيون؟

- القادمون من الأفاق، من الأرياف القذرة، من الصحاري الموحشة، من الجبال المخيفة. جمعونا في نفس الإهانة، لا يفرّقون بين جنوبي وشمالي، لا يرون في قدمنا إلا أمواج الهمجية التي تتلاطم على أسوار حضارتهم وتهدهدها... أفاقيون، أفاقون، لا فرق في أذهانهم.

ينفجر بضحكته المخيفة عندما تتحرك كل أوجاعه دفعة واحدة.

- من الصعب أن نفتح أحدا منهم أنهم هم سكان الأفاق بالنسبة إلى جدك ومركز العالم واحنا.

ثم يستشيط غضبا على عادته عندما تصل آلامه نروة لا تُحتمل.

- اللعنة! أحفاد الرقيق الأبيض يفاخروني أنا بأجدادهم، لا يعلمون أنني الجدّ الذي سيفاخر به الأحفاد.

لم أكن أعلم يومها أنه سيواصل صراخه فيّ وهو شيخٌ قارب الموت، وأنا كهل قارب اليأس من كل مشروع لتغيير شعب لا يكره شيئا قدر من يريدون تغييره: أورثنا الخدم لخدمهم واليوم يورثوننا لحراس الخدم! سارقٌ فاسد يحكم البلاد وأنت تتفجّر ثم تدّعي أنك ابني!

يستعيد الرجل هدوءه وهو ينتبه لصوت المؤذن. يتسمّر الطفل شاخصا ببصره إلى السماء يبحث عن مصدر الصوت. تُرى هل خطر ببالك يوما أن امتدادات الجوامع والكنايس وكل معابد البشر إلى الأعلى، كأعمدة الاتصالات المكلفة ببثّ وتلقّي الإشارات المتبادلة بين السماء والأرض؟

ملاحظة داخل الملاحظة ونعود إلى سياق النصّ. هذا الأذان الذي يتعالى من المنذنة جزء من باقة الأصوات التي تعرّف هذه المدينة وتعطيها موسيقاها الخاصة. ذلك لأنه لا يوجد

مكان أيا كان، من صنُع الأدمي أم من صنُع “الطبيعة” إلا وله إمضاء حسّي يمتاز به، صوتا كان أم رائحة. وهذا الطفل سيَتعلّم اكتشاف الفرق بين موسيقى أذان المدينة التي تطلّ على مضيقٍ اسمه “البوسفور” والمظلة على نهر اسمه النيل وكيف يتلّون في هذه وفي تلك، وكيف هي رنة الأجراس، وما الذي يفرّق بينها وهي تفرع في مدينة تريض على ضفاف نهر اسمه “الراين” أو نهر آخر يُدعى “السين”.

آخر تحذير عديم الجدوى من اب نافذ الصبر لطفل لا يعرف على ماذا يركز انتباهه. - أنتهك أننا سندخل الجامع الكبير، لا مجال للصراخ في صحنه أو ل طرح الأسئلة. أغلق فمك من لحظة الدخول إلى لحظة الخروج. إبان الصلاة لا تفارق جنبي وافعل ما أفعله، وإن لم تُطعني فستكون هذه آخر مرّة أخذك معي.

يصمت الطفل، لا خوفا من التهديد وإنما من فرط دهشته. هذه الدرجات بالغة العلو! هذه الأبواب العملاقة! هذه الساحة المذهلة الاتساع! هذا الحَمَام الطائر، الراقص، الماشي، القافز الذي يملأ أرجاءها!

لماذا يرى حيطاننا من الحجر وليس من الخشب؟ كم سمع من أقرانه أن مسجد المساجد مصنوع من خشب الزيتون لأن الله أمر ببنائه من الزيتون المباركة التي ورد ذكرها في كتاب “ما” الأصفر الرث. ثم أين الزيتون التي قال له رفاق اللعب إنها تنوسط الصحن، إنها تصل بأغصانها عنان السماء ولا يقدر على تسلّقها كبير ولا صغير؟

لم يكن يعلم آنذاك أنه دخل عالما منسوجا في جزء كبير منه -وإلى الأبد- من الشائعات وأنصاف الحقائق وكبرى الأكاذيب. يقطب جبينه مختارا تكذيب عينيه بدل تكذيب أصحابه. - انزع حذاءك وتذكّر أين وضعته، لا تترك يدي وإلا فقدتكَ في هذه الزحمة.

يتزايد ذهول الطفل وهو يجد نفسه وسط قاعة للصلاة مترامية الأطراف بسجادهما الكثيف، والثريا العملاقة تتدلّى من سقفها الشاهق! ها هو واقف جنب أبيه والصفوف متراسة وراءه وأمامه في صمت مهيب تنتظر إشارات الإمام. الآن يمكن القول إنه أصبح رجلا، على الأقل هذا ما كان يعتقد، والحال أنه كان لا يريد شيئا قدرّ الجري للوصول إلى الصفّ الأول حتى يكون جنب الإمام، أو أن يتأرجح على الثريا الضخمة ينظر إلى المصلّين تحت قدميه، يرفعون إليه العيون المندهشة. كيف يتحرّك قيّد أنملة وهو كالفأر بين أرجل الفيلة، لماذا هذا القلق المبالغت والدليل بجانبه يسترق النظر إليه ونظرته تقول: لا تخش شيئا، أنا معك. تبدأ الشعائر المهمة وتأخذ من الوقت ما لا يتحمّله طفل صغير وهو يقلّد الخلق ركوعا وسجودا ووقفا ثم ركوعا وسجودا. فجأة يتسمّر بصره على قدمي الساجد أمامه. لا أهم الآن من هاتين القدمين، اليمنى بجورب مكتمل واليسرى بجورب ممزّق يبرز منه كعب القدم كأنه تفاحة حمراء تطلّ من ثقب كيس أبيض متآكل. تأتيه فكرة شدّ “با” من كمّه ليشاركه متعة الاكتشاف. ثم يئنّب لمسؤولياته وكيف أنه لا يمكن أن يقطع على أبيه تكبيره وعلى الناس خشوعهم. لا ينفذ الطفل إلا انتهاء الصلاة من صفة جديدة بسبب رجل نسيته

امراته أن ترفع جواربه. يصرخ أب غامر بإدخال طفل كهذا في مكان كهذا بالأوامر المتوقعة: هيا، أسرع، البس حذاءك، فما زال أماننا الكثير من المشاغل والقليل من الوقت. تأتي الطفل رغبة رواية كل ما شاهد والتعليق على آخر ما لفت انتباهه.

- "با"، هل جواربك مثقوبة أيضا، أما أنا فجواربي جديدة.

يتنهد "با":

- بعد البرتقال الأسود والكشطة والمرأة، الجوارب... ما البقية يا ترى!
ها أنا أتلگا وأتباطأ، أجرّ القدمين لعلمي أنّ هذا ما سيغيظه أكثر من أيّ سؤال جديد.
كان الأب والطفل لا يمشیان إلا وواحد يجزّ الآخر، أو يجري خلفه أو أمامه؛ أما جنباً لجنب
فذلك ما سيأخذ زمنا طويلا على فرض أن الأمر حصل يوما.

- تحرك، يا مصيبةً ابتلاني بها الله دون ذنب مني.
- سأقول ل "ما" إنني صليت في أكبر جامع في العالم.
- الجامع الكبير ليس أكبر جامع في العالم.
- (بلهجة الشك والتحدّي) ما أكبر جامع إذن؟

يتنهد "با". ربما فهم أن تسارع الأفكار والأسئلة عند هذا الطفل الغريب إرادة اغتنام فرصة سانحة يعرف أنها لن تدوم طويلا.

- يا بني، هذا أكبر جامع في بلدنا، لكن هناك جوامع أكبر منه في بلدان المشرق، إن شاء الله تكبر وتدخلها. آنذاك ستلبس عن جدارة كشطة أثقل من التي يتعمّم بها الحقير، وسينادونك كلهم "سيدي الشيخ الحاج". تحرك، لا وقت لمزيد من الفسحة، فما زال أماننا أهم شيء نفعله اليوم، والقطار لا ينتظر.

يأخذنا الطريق في الاتجاه المعاكس باتجاه آخر محطة زيارة المدينة وأهمّها بالنسبة ل "با".

من أين لي أن أنسى أنني رأيت الرجل يتوقف فجأة ونحن نعبر باب المكتبة الصغيرة ثم يغمض عينيه للحظة يستنشق ببطء ولذة واضحة رائحة المكان وكأنه عاشق متيم وضع أنفه بين نهدي الحبيبة يستنشق آخر عطر لها.
حقا لا تُعرف للأشجار رائحة أطف من أزهار البرتقال، ولا للأشياء رائحة أطف مما تتصوّع به المكتبات.

يفغل الأب عن الطفل لحظة ليدخل مع البائع في حوار مطوّل عن آخر ما وصله من كتب ومجلات من مدن الشرق البعيد، كان يومها لأسمائها وقع سحري.
مما رسخ في الذاكرة من كلامنا ذلك اليوم:

- "با"، هل هناك مكتبات مثل هذه في البلدان التي ذهبت إليها؟
- نعم يا بني، هناك الكثير من المكتبات.
- "با" أريد أن أدخل كل المكتبات الموجودة، وأقرأ كلالل الكتب.

- ممكن، شرط أن تعيش آلاف السنين. بالمناسبة، ما رأيك في نطق "كل" كقيبة الناس، ممنوع من الآن تمديدها بهذه الكيفية السخيفة.
- ينغمس "با" في تصفح الكتب والمجلات، ينتقي منها ببالغ التأني، ثم ينتبه لوجود الطفل.
- تعال، قل لعمك ما تريده أنت.
- أريد آخر عدد لمجلة سন্দباد وقصة لجورجي زيدان وأيضا كلالل القصص الهندية.
- يفتح البائع فمه محدقا في الرجل المتوتر.
- القصص الهندية!؟ كم له من العمر!
- يغالب "با" زهوه:
- يبدو أن أمه توحمت على عجرية، هات له ما عندك من هذه السلسلة حتى لا يقرأ كتيبي، قد يفهم منها أكثر مما أفهم.
- هات ما عندك، يا للرجل المتهور! يصرخ "با" وقد امتنع لونه:
- أتريد إفلاسي أو أن نرجع إلى البيت مشيا على الأقدام؟
- يتدخل البائع بلطف:
- لا تحمّل والدك فوق طاقته، ما أخذته زائد لأشهر من القراءة.
- يأخذ "با" في تقليد لهجة البائع الحضرية:
- ولا تحمّل والدك فوق طاقته...
- يعود إلى الصراخ بلهجته البدوية:
- ما دام والده حيا فسياخذ ما يريد من الكتب، ولا حق لأحد أن يقول له ماذا عليه أن يفعل... أشهر؟ هذا ابن أبيه سيلتهم كتبك في أقل من أسبوع. اختر ما تشاء يا فتى، فما دام أبوك موجودا... إلخ.
- يقرّر الطفل تجاهل علامات الامتعاض المتزايدة عند "با" وعدم الانتباه لحبات عرق بدأت تلمع على جبينه، غير مبالٍ بالبائع يخفي سروره وشماتته.
- إنذار صامت أنه من الأحسن أن أتوقف قبل أن ينفجر الرجل الخطير.
- توقفت ثم ركض باتجاه المحطة.
- في عربة الدرجة الثالثة لأخر قطار الأحواز الفقيرة، هذا النقاش أو ما يشبهه.
- "با"، هذه المرة أنا الذي سأختبر معلوماتك. من هو أكبر شاعر في كلالل الدنيا؟
- يرسم "با" على محياه ابتسامة التهكم ثم يصرخ.
- قطعاً، ليس ذلك الأخرق الذي قال "إذا الشعب يوما أراد الحياة" لو قال على الأقل "إذا هذا القطيع يوما أراد الممات"، لكان من الصادقين... طبعاً أكبر الشعراء هو...
- أنا أعرفه، إنه الذي تحمل ديوانه معك في كل سفر.
- هل ثمة غيره يا معقل؟
- "با"، أريد أن أكون مثله عندما أكبر.
- ينفجر الرجل ضاحكا، ثم يستشيط غضبا كعادته، لسبب لا يعرفه إلا هو.

- إياك، ثم إياك. حذار أن تصبح شاعرا ولو كهذا الشاعر الذي عقرت بعد ولادته النساء.
هذه أمة بقدر ما كثر الله فيها من شعراء بقدر ما ماتت فيها الفضائل التي يمدحون.
- ماذا أكون إذن؟

- مهنتان شريفتان فقط في هذا العالم الوغد: التي تمنح الموت والتي تمنعه. فيك كل مؤهلات
العسكري، لكنك بهذه النظارات اللعينة لا تصلح مقاتلا. كن طبيبا والآن اتركني أقرأ
جرائدي.

هكذا قرّر الدليل وجهة طريق الطفل في لحظة خاطفة ثم عاد إلى قراءة جرائده.
آخر ما يهّم الطفل مستقبله الغامض وكل ما يريد العودة مجددا للمدينة العجيبة لمواصلة
استكشاف كلللاللّل أزقتها، جوامعها، حوانيتها، مطاعمها ومقاهيها.

هو لا يعلم أنه سيمشي كهلا في نفس الأزقة وقد أصبحت نفس المدينة بالنسبة إليه عجوزا
عاهرة تحمل من كل مغتصب، تلد اللقيط وراء اللقيط... وأنه سيواصل حُبّها رغم كل شيء.
مدينتنا... (نزار قباني)

تظل أثيرة عندي

برغم جميع ما فيها

أحب نداء باعتها

أزقتها

أغانيتها

مآذنها... كنانسها

سكاراها... مُصَلّيها

تسامحها، تعصّبها

عبادتها لماضيها

مدينتنا - بحمد الله-

راضية بما فيها

ومن فيها

بآلاف من الأموات

تعلّكهم مقاهيها

لقد صاروا مع الأيام

جزءا من كراسيها

صراصير محنّطة

خيوط الشمس تعميها

فلا الأحداث تنفضها

ولا التاريخ يعنيها

يومَ يجلس الكهل لترتيب ملفّاته عن توغّله في الفضاء الحسيّ سينتبه أنه لم يطلب من الطريق إلا أن يبعده ما استطاع عن تلك المدينة وأن يرجعه إليها بأسرع ما يستطيع. كيف لا والرجل لن يعرف مكانا على بُعدهِ أو غرابته استخرج منه أحاسيس ومشاعر كذلك التي اعتصرتها منه المدينة العتيقة وهو يجرّ أبا ينلگًا أو يركض للتخلص من قبضة أب منوتّر على الدوام.

كيف لا وقد أصبحت تلك المدينة منذ ذلك اليوم المشهود بما كانت تزخر به من ألوان، من أصوات، من روائح ومن حراك محموم العالم كله أختزل في أزقتها الضيقة.

**

خطوط التماس

كانت رفيقة المقطع الجديد من الطريق من عشاق المدينة العتيقة، شغوفة بتاريخها، لا تملّ من البحث في أصل المباني المتداعية. لم يكن من باب الصدفة أن نلتقي وأن تقودني لإتمام زيارة بقيت منقوصة نصف قرن.

تبادرني وهي تقلّد لهجة دليل سياحي أمام كل مبنى نصله:

- هذه دار لوزير سابق. أمّا هذا فجامع بناه الحسينيون، وهذه حارة اليهود، هنا كان الحجز الصحي. المكتبة الوطنية ثكنة للجنود الأتراك. هذا حيّ البغايا، وهذا الباب الذي كانوا يقطعون الرؤوس تحته ويعلقونها أياماً؛ إرهابٌ دولة ذلك العصر.

- جئت بك لتقولي لي فقط اسم البناية الموجودة أمام الحمام ووظيفتها التي كان "با" لا يعرف شيئاً عنها، وبعدها قد يتفتح مخي لينتبه لبنايات وأحياء لا تربطني بها قصة. تصوري! عاش في هذا الحيّ طيلة شبابه ولم يعرف يوماً ما هذه البناية! لم تثر اهتمامه ولم ينتبه لوجودها! هل من المعقول أن يكون من قادوا أولى خطانا بهذا الجهل المشين؟

- بنايتك هذه مدرسة من القرن السابع عشر. لا تطلب مني تفاصيل أدق، لست إلا هاوية آثار. إذن، بعد المطعم والجامع، كان الأب المسكين يحاول إكمال بقية أشغاله وهو لا يعرف كيف يتخلص من مشاكسات "الفرخ" ...

- ومقسماً بأغلظ الأيمان أنه لن يعيد نفس الغلطة ثانية.

يرفع الكهل يده إلى خدّ ما زال ملتعباً بعد خمسة عقود.

تلحظ المرأة المنتبهة الحركة:

- تعال، لا فائدة في نبش ذكريات موحجة. اتفقنا أنك تريد إكمال الزيارة، لا تكرارها.

نواصل شقّ الطريق وسط الزحمة في صمت. تغيّر مرافقتي الموضوع أو هكذا تتصور.

- على فكرة ما ذا تكتب حالياً؟ أنت لا تنفك عن الخريشة في هذا الدفتر الذي تخرجه باستمرار من جيبك، كم أودّ أن أستعيّره منك بعض الوقت.

- لست متأكداً أنك ستستخرجين منه شيئاً، هذا على فرض قدرتك على فك رموزه. أنا نفسي لا أستطيع أحياناً قراءة ما كتبت.

- خطّ الأطباء؟

- ظروف الكتابة، أحياناً ووقفاً وسط حافلة مكتظة وحتّى مشياً.

- مادة لنصّ جديد في الأفق؟

- شيء شبيه بالتقرير النهائي الذي يكتبه شخص أكمل مهمته يضع فيه كل ما مرّ به من أحداث وكل ما استخلص وتعلم من التجربة... آه كلمة تقرير غير موفقة لما فيها من إحياءات بيروقراطية غير مرحب بها... إذن لنقل شهادة لكن لا عن حادثة أو مرحلة من الحياة وإنما عن رحلتنا في هذا العالم من بدايتها إلى نهايتها.

تهزّ مرافقتي كتفيتها ساخرة.

- وفي أي شكل سيكون هذا التقرير العظيم... عفوا هذه الشهادة الجامعة ؟
- في قالب نصّ عن شخص - هو مزيج من الأنا وشخص خيالي -يختلي بنفسه وهو في
آخر مرحلة من حياته يتفحص كل ما اختزنت ذاكرته وكل ما وصل إليه من استنتاجات
حول ذاته ، حول هذا الكائن العجيب الذي تجسّد فيه- والذي يسمي نفسه الإنسان وأفضل
تسميته الأدمي لأنه ما زال بعيدا عن تحقيق الإنسانية فيه – وأيضا حول طبيعة العالم الذي
انبتقنا فيه وحول ماذا نفعل فيه ولماذا جنناه أصلا.
تضحك مرافقتي تظنني أمزح .

- كنت أظن رجال العلم الذين تدّعي أنك منهم لا يتعاملون إلا مع مشاكل بالغة الدقة تاركين
مثل هذا المواضيع الفضفاضة للشعراء والأدباء والفلاسفة.
-سأترك للمختصين ولعهم بالتفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل . لا بدّ من هذا النوع
من الشغالين الفكريين . لكن ليتركوا لي ولأمثالي وظيفة استكشاف ما وراء تفاصيلهم وما
معناها المخفي .

فترة طويلة من الصمت. تعود مرافقتي لمعابثتي:

-وإلى أين وصل مشروعك العبقري؟

- إلى كمّ هائل من الأوراق لم أعد أتجاسر حتى على تنظيفها، كم بودّي أن أنشرها كما
هي، النص على حقيقته دون عمليات التجميل التي نجريها عليه وهاجسنا ذوق الزبون
وخوف الرقيب. المشكلة غياب الناشر الانتحاري القادر على نشر مادة خام من آلاف
الصفحات، بما فيها من تشطيب ومن فوضى؟ ثم أيّ قارئ قادر على الصبر عليها؟
- نوع من الكتابة جرّبه البعض ولا أعتقد أنه كفّل لهم الشهرة التي أرادوها بمثل هذا
الاستفزاز. أرجو أن لا توصي بمثل هذه المنهجية للطلبة المساكين الذين ساقهم حظهم
العائر لتُشرف على أطروحاتهم، تصوّر ما يمكن أن تؤدي إليه مثل هذه المنهجية.
جاء دوري لأنفجر بالضحك.

- هم ليسوا بحاجة إلى أية توصية لارتكاب نصوص لا تنتمي للعلم ولا للأدب.

- متى سنشرّفني بأن أكون أولى قرّاء هذه القصة العصماء؟

- لا أعرف، بل لا أعرف أصلا هل سأغامر يوما بنشر النصّ.

- الخوف من الرقيب؟

- من تقديم عمل يجب أن تصل فيه إلى أوجها مهارتٌ عديدة لست متأكدا من امتلاكها.

- مهارات؟

نعم مهارة حارس الغابات، والنصّ غابة موجشة يجب فتح مسالك المعنى داخلها
بقصّ صارم متواصل للزائد المتورم من الكلمات... مهارة الجواهري والنصّ حجارة
كريمة يجب العودة إليها طول الوقت بالصقل والنقش... مهارة الطفل والنصّ لعبة "ليجو"

يجب تجريب كل الإمكانيات لتتداخل القطع في أكثر الأشكال تناسقا... مهارة سقراط وهو يستقرّ في القارئ والسامع طاقاته الذهنية ليولدا معا للنص معناه.

- عنوان نصك العظيم هذا يوم تنتهي من التحكم في المهارات التي لا تملك؟
- الرحلة، ربما سأضيف تحت العنوان سطرا: الموجز والقول الفصل في طبيعة العالم والشؤون الأدبية وسبب وجودنا في هذا السيرك الذي اسمه العالم للإيجاز قد اكتفي بمذكرات آدمي.

- إذا كانت المادة بنفس طرافة العنوان... فيا خيبة المسعى!
- هل غلطتي أن البشر لم يتركوا عنوانا لكتاب إلا واستعملوه نكاية فيّ، ولا فكرة إلا وسرقوها مني لمزيد من الحيلة قرونا قبل أن أولد؟
- هل حسبت وأنت في هذه المرحلة الصعبة حسابا لأعدائك وهم يتربصون بكل ما تقول وتكتب؟

- طول عمري وأنا في مرحلة صعبة، أما بخصوص المتربصين سيفعلون ما فعلوه دوما، سيخرجون جُملا من سياقها، سيقولونني عكس ما قلت سيتهمونني بالإيمان والكفر، بالشيء ونقيضه... كل هذا تعسفا على النص وتحاملا على كاتبه في إطار معارك لا علاقة لها بفكر أو أدب. المساكين! كان الشيطان في عونهم.

تشرّد مرافقتي ببصرها بعيدا، ثم تبدأ في التمتمة بكلمات أغنية لأحب مطربة لكيّنا:
"كتبنا ويا ما كتبنا

ويا خسارة ما كتبنا

كتبنا مية مكتوب

ولها ما جاوبنا"

- نعم، يا ما كتبوا، يا ما كتبنا ويا ما سيكتبون.

- إذن، لماذا الإمعان ولا أحد يجيب على ما نكتب؟

- لأننا لا نكتب إلا لأنفسنا.

أقول لها أن هذا النص تصفية حسابات قديمة.

يشرد البصر وتتكفى الذات على بعض أقدم الذكريات.

يصرخ المعلم في صف تلامذة مدرسة ابتدائية في حي فقير: اكتبوا موضوع الإنشاء: أفقت صباح يوم الجمعة وأخذك والدك لفسحة صف ما شاهدت وما فعلت ذلك اليوم.

يتكبّ الطفل المتهور بحماس على الورقة البيضاء يملأها سطورا وبقع حبر يتمرن على أولى طقوس الكتابة.

وفي أوّل نصوصه يفيق بطل قصته على همس الشمس قائلة: أما زلت نائما؟! انهض أيّها الغبيّ ثمة يوم أغرّ أمامك، فأمرها ألا تُفرط في الحرّ لأنه على سفر. ثم خرجت السيارة السوداء من المبهم الذي يعجّ بكلّ الإمكانيات ليجلس المغامر الصندوق خلف مقودها، الأمّ في قمة الإعجاب والأب في قمة العجب. فسارت السيارة على الأرض إلى أن واجهها

الأفق فهزّ الطفل كتفيه مواصلا ومتجاوزا كل أفق إلى أن ارتطم ببحر يسدّ عليه الطريق، فقال للبحر: لا أريد مشاكل معك يا بحر فأنا ذاهب بسيارتي وبوالديّ لزيارة الجدّ في صحرائنا الغالية فتتخّ عن طريقي. فقال له البحر: ولماذا تريد العبور فوق أمواجي وتزعجني؟ فقال له الطفل: يا بحر أنذرتك وكفى هزلا. فخاف البحر وأفسح له الطريق. ثم تسلّقت السيارة كبد السماء تمشي فوق السحاب، الشمس على يمينها والقمر على يسارها وفوقها الله ييسط حمايته عليه وعلى الجميع. عند الأصيل، وقد خضبت دماء الشمس هامات النخيل توقّفت السيارة فُرب فراش الجدّ فنزلت العائلة منها سالمة وكان الجدّ المحبوب مريضا. فقال له الطفل وهو يقفز حول السرير، جدّي! جدّي! جدّي! سأصبح أكككككبير طبيب وسأتيك بكلللكل الأديوية التي تحبّ وستروي لي كلللكل قصص الجازية وأبي زيد الهلالي وعنتره وعلي بابا وسندباد، فضحك الجدّ وبكى. وبعد أكل المرطبات وشرب المشروبات قبل الجميع يده وقالوا له: لا بدّ من الرجوع إلى بيتنا فدعا لهم بالسلامة، وبكت الأمّ لأنّ النساء يبكين دوما عند الوداع، لكنّ الطفل الذي أصبح رجلا بتجاوزه السابعة من عمره لم يبك رغم أنّه كاد يفعلها لشدة حبه لجدّه. فهو يحبه كحبه للحلوى أو ربما أكثر ولا يريد له أن يموت أبدا، أبدا، أبدا.

يومها ختم الطفل إنشاءه بالجملة الشهيرة التي ختم بها أجيالاً من الكتّاب الناشئين نصهم الأول: ورجعتُ إلى البيت فرحا مسرورا.

يضحك المعلم باستهزاء:

- طلبتُ منك أربعة أسطر وليس أربع صفحات. ما هذه القصة التي تتحدث عن سيّارة تتسلّق السماء؟ هل رأيت يوما سيّارة تمشي فوق السحاب والموج؟ ومتى أصبحت الشمس تأتمر بأوامر سيادتك؟ كيف تتكلم عن الله بهذه الطريقة؟ ألا تعلم أنّه كُفّر مُبين؟! لا تعدّ إلى مثل هذا الكلام أبدا.

ينتهد بصوت مسموع قائلا: هؤلاء البدو! كلهم شعراء بالسليقة منذ نعومة أظافرهم. يكظم الطفل غيظه واعدنا نفسه أنه سيكتب يوما إنشاءً أطول من الذي رفضه هذا الغبي. سيقول فيه كل ما يريد وبالكيفية التي يريد.

ما من شك أنّ هذا النص مواصلة الانشاء التي سخر منها المعلم، فالتلميذ الذي كبر كثيرا وبقي نفس الطفل، هو الذي اختار بكل حرّية موضوع إنشائه: أفقت ذات يوم في هذا العالم صِف كلّ ما شاهدتُ وفعلتُ، وما رأيك في هذا السيرك العظيم؟

أفبق من ذكريات لذيدة موجعة على صوت مرافقتي :

- ألا تخشى أن تكون كتابتك هذه "هريسة" فكرية لا أكثر وذلك ما نسعى دوما لتفاديه ونحن نفرّق بين القضايا والمستويات والمناهج!

أهزّ الكتفين:

-الموضوعي في واد والذاتي في واد آخر، العلم في ميدانه وكل جزء من أجزائه في علبته المنفصلة، الفلسفة في خانة والشعر في خانة أخرى... الأفكار على اليسار والمشاعر على

اليمين... النبيلة في الواجهة والذنيئة خلف الستار، الجذّ حيث لا مجال إلا للجذّ والهزل حيث يسمح بالهزل. أي تصوّر ممكن بهذه المنهجية لعالم كل شيء فيه مترابط متداخل! لذلك أريد لنصي -كما هو الحال في الحياة العادية أن يختلط فيه الجذّ بالهزل، التفكير الموضوعي بشطحات الخيال، سفاسف الأمور بكبرى القضايا الفلسفية، مشاكل الشخصية مع مشاكل الكون، كما هي الموضة اليوم في جريدة النيويورك تايمز التي تجدين فيها على نفس الصفحة آخر التوقعات عن الاقتصاد العالمي والتحليل السياسي المعمق عن احتمال نشوب الحرب العالمية الثالثة جنباً لجنب مع وصفة الفاصوليا المكسيكية بالبهارات الحارقة للقم وأحسن طرق اعداد أرز البرياني الهندي.

- المهمّة أن تجد في عصر الاستهلاك للسريع والجاهز والمعلّب، من يقرأ، والكتاب هذه الأيام أكثر من القراء. على فكرة، أي نوع من القراء تأمل لمثل هذه المحاولة المحكوم عليها بالفشل؟

- بصراحة كل أملي معقود على كائن أت من أعماق الفضاء في بعثة حفريات ملايين السنين بعد نهاية كل هذا السيرك، فيعثر على النص ويترجمه إلى لغته وينال درجة الدكتوراه بامتياز في آداب الأجناس المنقرضة.

- عدت للسخرية كعادتك للتعامل مع أي موضوع يزجج سيادتك.

- لا خوف من انقراض جنس القراء الحقيقيين حتى في هذا العصر. هم أقلية في كل زمان ومكان. مشكلتي ليس عدد من سيقراً نصي وإنما هل سيجد فيه البعض شيئاً من هذا الذي نبحت عنه ونحن نفتح الكتب.

- كلكم تقولون نفس الكلام ولا هدف فعلي إلا اثبات الذات في هذا الزمان وتخليدها فيما تبقى منه.

- الخلود بالكتابة مجرد طعم كالذي تلوح به الحياة للعشاق: المتعة لكم والبنون والبنات لي المهم تواصل النسل... في قضية الحال كأنّ القوة المبهمة التي تدفعنا للصراع مع الورقة البيضاء تسرّ في أعماق طبقات الذات متعة الكتابة والحلم بالبقاء في ذاكرة الأجيال لكم، ولي ما يلبده الفكر الذي لا يجب أن يتوقف ابداً.

- قل ما تشاء، نصك هذا ولو تحت ألف قناع سيرة ذاتية أخرى، الا يكفي من هذا النوع وطوفان النرجسية استحوذ على كل مساحات الأدب؟

-يا ستّ الكلّ، نسيت مقولة فيكتور هيجو" عندما أتحدث عن نفسي فإنني لا أتحدّث إلا عنك".

- لا تتحدث إلا عنّي؟ فرصة لتقول لي أخيراً رأيك فيّ

- رأيي في الأدبيين عموماً والإناث خصوصاً: كائنات يستحيل العيش بدونها ويستحيل العيش معها.

-وهل تريد أن تعرف رأيي فيك؟

- لا .

تضحك مرافقتي ضحكة صفراء . هي التي ستتكفل الآن بالصمت وبخيار لحظة انهائه .
- سهوتُ مجدداً، كلّي آذان صاغية لك .

- لا أحد يصغي لأحد، ربما الأمهات لأطفالهن. وحتى هنّ! ألم تلاحظي كم من مرة وأنت تبتدئين في الشكوى من الدنيا أن المستمع ولو كان أقرب الناس يغالب نفاذ صبره منتظرا أول تردد أو أقصر صمت ليخطف الكلمة بنفس الجملة المعهودة: فما بالك بالذي حصل لي أنا! ثم لا يتوقف إلى أن تخطفي منه الكلمة بدورك. كل كائن مشغول بذاته وبذاته فقط، لكنه مضطّر لافتعال الاهتمام بمشاكل الآخرين حتى يكافئوه بنفس الخديعة.

أيّ تفاعل سليم ممكن بين البشر وكل ذاتٍ مثل شمسٍ تدور حولها كل الأفلاك، ومثل فلك يدور حول ما لا يحصى من الشمسوس؟ ...أية علاقة سليمة يمكن بناؤها بيننا وكل واحد يقضّي عمره في محاولة فرض مركزيته ورفض هامشيتها؟
تبتسم مرافقتي لذكريات تؤكّد ما يعرفه الجميع وما ينكره الكلّ.

- معنى هذا أنك لا تصغي إليّ أبداً.

- أحيانا، أوقات الانتباه وهي جد نادرة.

-طيب والآن إلى أين تريد الذهاب؟ بدأت أتعب.

- إلى المكان الذي كان "با" ينتظر بفارغ الصبر وصوله ...المكان الذي لعب هو وأمثاله دورا أساسيا في حياته وفي حياتي...لم أتعرف عليه لحد الآن رغم أنني واثق انه كان في هذا الشارع.

فجأة أتسمّر وأنا أرتطم بالواجهة الجديدة لحنوت يبيع أشياء لا يجمع بينها رابط. أصرخ جاحظ العينين وقد تعرف الوعي الباطني في لمح البرق عما كنت أتشوق له منذ بداية الجولة في أزقة المدينة العتيقة.

- انظري ما فعل أبناء الكلب بأول مكتبة أخذني إليها "با". جلّ هذا الشارع كان مخصصا للمكتبات وها هو اليوم تتابع حوانيت يبيع فيها محتالون لأغبياء هذه الصناعات التقليدية الكاذبة وهذه الساعات الحائطية البشعة ولوحات عن مكة تدعي الفن وتوهم بالفداسة!

- لا فائدة من وضع أنفك على هذا الزجاج القذر. لن ترى غير ما أرى. تعال وتمالك نفسك. المكتبات بالعشرات وهي أيضا محلات تجارية تبيع موادا للاستهلاك اسمها الكتب.

- يا امرأة تحدّثي باحترام عن أماكن لا تقلّ قداسة عن المساجد والكنائس والمسارح والعلب الليلية.

- استقزاز باستقزاز ، قل لي يا فهيم ما الذي يفرق بين حوانيت تبيع هذه الساعات واللوحات البشعة وبين مكتبات تبيع كتبها لا أغلبها لا تصلح حتى لفت السمك.

أقول لها أن المكتبات في نموذج العالم الذي ابحت عنه منذ سنوات هي النقط الحدودية التي تتصل وتربط بين أهم الفضاءات التي تشكله تداهنا عند دخولها ورائح الورق وألوان الكتب ويأتينا من لمسها متعة مرهفة صعبة الوصف... مما يعني أنها تنتمي كليا للفضاء

الحسي للعالم، لكنها بوابات لدخول فضاء آخر ينبض بالحياة والكائنات الحية التي تسكنه
النبات اللامادية التي يركز عليها عالما والتي اسميها الفكريات.
- طيب وكيف انتهى ذلك اليوم المشهود؟ شعرت بك دوما غير راغب في الحديث عن
نهاية الزيارة.
تلك الليلة وصل البيت أبٌ مرهق وطفلٌ متزايد الرغبة في مواصلة يوم كم بدا له قصيرا.
افتعلت سجينة البيت السرور بما جلبا لها من الحلوى.
سارع "با" إلى كتبه ورحل داخل أهم فضاءات العالم بالنسبة إليه.
سارع الطفل إلى كتبه ورحل إليه هو الآخر.
عادت المرأة الوقور لغسل الصحون ثم للجلوس على الحصير البائس تتصفح ببطء
ويتركز كتابا أصفر رثا، تطيل النظر إليه، ثم تغلقه واجمة.
كانت مثل سجين أضيّق زنزانه والمفتاح لدخول الجزء من العالم الذي رحل اليه الزوج
والابن معلّق في السقف لا قدره لها على الوصول إليه.
هذا المفتاح هو الذي سأروي الآن ظروف تملكه.

**

الفتح المبين

- تهمس أم في أذن طفل يستيقظ بصعوبة وفي صوتها عصبية غير معهودة:
- انهض، اغتسل، البس، تناول فطورك بسرعة. يا إلهي، سنصل متأخرين!
- إلى أين؟
- إلى الكتاب. هيا، لا تتناقل!
- الكتاب! لكنني ذهبت إليه البارحة.
- تغالب، "ما" نفسها حتى لا تتفجر ضاحكة.
- سنذهب إليه اليوم وغدا وكلّ الأيام ما عدا الجمعة والأعياد.
- إنها نيرتها عندما تتحدّث عن الذهاب إلى الحمام، أي أنّ الموضوع غير قابل للمساومة.
- لماذا؟ ألا تكفي مرّة واحدة؟
- لا تجادل كعادتك. هيا، لا تتلأأ.
- تجرّ امرأة طفلا أقلّ ما يوصف به أنّه كان فاطر الحماس للعودة إلى مكان ليس هو مركزه.
- تذكّر ما قلّته لك البارحة: لا تتشاجر مع الأطفال، لا تنشيطن كعادتك، انتبه لما يقوله المؤدّب وعندما تتوجّه إليه بالكلام ناده بـ "سيدي". كُن شديد الاحترام له ولا تعص له أمراً. استوعب ما يقوله لك، قبل يده عندما يدعوك لتمثّل أمامه، لا تكن وقفاً ولا تتكلم صارخاً أمامه، أطعه في كلّ شيء ولا تعرّض نفسك لما أكرهه ولا ترضى. لا تنس أنّه سيخرجك من الظلمات إلى النور فهو من سيعلمك كلام الله.
- إنّها عادة الأم الأزليّة المتمادية في إغراق الطفل الأزليّ بنصائح لو كان لها أدنى تأثير لتحسّن الجنس البشري منذ زمن بعيد.
- بقية الحوار كما تعيد صياغته ذاكرة ندخل الخيال في أكثر من موضع لإعادة صياغة ما تحاول جاهدة نسيانه وتذكره.
- لا أريد أن أتعلّم كلام الله. أريد أن أذهب إلى غابة الزيتون عند جدّتي لاصطياد الحجل بمقلّعي الجديد.
- تجذب، "ما" يد الطّفّل بشدّة وهي تنظر إلى ما حولها بانزعاج:
- لا تركز أبداً مثل هذا الكلام، خاصّةً على مسامع الناس.
- يصل الطّفّل مجروراً من يده إلى الكتاب، وهو ركنٌ من جامع المدينة الصغيرة التي قذفتها على ضفافها أمواج النزوح.
- تدفع الأم طفلها لتخطّي الباب وتمسك يده بقوة كأن شيئاً بداخلها يحثّ على الفراق وآخر يرفضه.

آخر توصيات إضافية بضرورة الجلوس قريباً من الشيخ، وحتى بين يديه للتبرك والنهل المباشر من نافورة علمه.

بخصوص هذا الشيخ تسترجع الذاكرة صورة كهل يلتحف بيرنس من الصوف البنيّ و على رأسه شاشية حمراء يلقها بقطعة من قماش أبيض، له وجه لم يتعرّض كثيراً لوهج شمس الفلاحين، ويدان لم تمسكا فأسا أو مسحاة.

كان يفترش سجّادا مهترنا بالكاد أحسن من الحصير البانس الذي كان يتقاسمه الطّفّل مع الرّفاق الصّغار، وكلّهم جالسون أمامه صفوفًا مترابطةً في أعجب فوضى. يوم غامر الطفل بالجلوس قريباً من الشيخ ليبصره عن كُتب فوجئ بنظرته الجانيبة مصوّبة نحوه، وكلاهما يقدّر حظوظه -خطأً كما هو الأمر في أغلب حسابات الأدميين- في استعمال الآخر لمأربه.

يومها داهم الطّفّل شعور بالتهيب... والخوف إذ كانت للرجل عصاً طويلة يلوّح بها طوال الوقت، ومن ثمّ قرّر البحث عن مكان آمن في الصفوف الخلفية ليكون أبعد ما يكون عنها وعن شيءٍ رهيب آخر تسميه اللّغة "الفلقة".

الفلقة! وما أدراك ما الفلقة!

أداة بدائية بالغة البساطة لكنها روّضت أُمَّة برمتها كما لم تروّضها جيوش الغزاة على مرّ التاريخ. هي التي ربّتها منذ نعومة الأظافر على الخوف والطاعة، وكان الدور ذلك اليوم على الطّفّل لمحاولة تسييره في قوافل المرؤّضين.

كان الشيخ يضعها قرب ركبته اليمنى، واضحة لكلّ العيون، جاهزة لكلّ الاحتمالات وغير بعيد عن ركبته اليسرى عصا طويلة لن تبقى طويلاً دون استعمال.

على ذكر وساتلنا البيداغوجية القديمة عن الجاحظ: "كان معلّم يعلم الصبيان ومعه عصا طويلة وأخرى قصيرة، وصولجانا، وكرة، وطبلا وبوقا، فسألته ما هذه؟ أجاب: عندي صغار أوباش، أقول لأحدهم اقرأ لوحك فيصقر لي فأضربه بالعصا القصيرة فيتأخّر فأضربه بالطويلة، فيفترّ فأضع الكرة في الصولجان فأضربه فيتقدّم إليّ الصغار كلّهم بالألواح فأضع الطبل في عنقي والبوق في فمي فأنفخ وأضرب فيسمع المارة ذلك فيسارعون إليّ ويخأصوني منهم".

نعم يجب إسناد الميدالية الذهبية لكتاتيب العرب والمسلمين على مرّ العصور وبصفة رجعية لهذا الكتاب ولهذا الشيخ، طيّب الله ثراه وأسكنه في أفخم "سويت" في الجنة.

يعود الطّفّل ذلك اليوم المشؤوم إلى البيت بقدمين منتفختين كأنه يمشي على الجمر وكلّ همّه دخول البيت محافظاً على مشية لا تُلقت الانتباه.

كيف تقادى حصّة الغسل قبل الذهاب إلى الفراش؟ وفي حالة إصرار "ما" على هذه العادة البغيضة، كيف يفسّر لها حمرة منتفخة شديدة الألم، ليس من السهل إخفاؤها، ومن الأصعب تبريرها؟

كيف يعترف لها أنه تشاجر مع بعض الأطفال، وربما حتى مع الجميع، أنه قام ليجلس بعيدًا عن الفلقة والعصا ولم يستأذن إلا من نفسه، أنه لم يقل للعجوز: “سيدي الشيخ” وهو يخاطبه، أنه لم يظهر له من الاحترام إلا أقله، أنه لم يُقبل يده بعد حصّة العقاب بل عضّها، أن الضرب زاد إلى أن كاد يغمى عليه وسط الصخب والضحك.

ثم ماذا لو سألته عمّا حفظ من أقوال ربّها العزيز عليها؟
تتظاهر “ما” بأنّها لا ترى مشية الطفل. لا تلقي أيّ سؤال. تتغافل -على غير عاداتها- عن حصّة غسل القدمين الإجبارية مظهره مزيدًا من الحنان.

التجاهل! إن تعهدت هذه القدرة ستكتشف كم سهل تحمل شرّ الخصوم والأعداء وكم توفر على نفسك عيث معارك تافهة مع تافهين... وإن أصبحت بارعا في هذا الفنّ ستعي يوما كم من أصدقاء اكتسبتهم لأنك تسترت بالصمت على خطاياهم وأخطائهم.

يؤوب الطفل إلى فراشه لأوّل مرّة دون تسويق، ليغرق في كوابيس تتحرك فيها عصا طويلة وقدمان دامتان فوق سحب كثيف، وشيخ بدين يركض وراءه بصرخ بالفاتحة وهو يسابقه للوصول إلى غابة زيتون يحتمي بأشجارها ليصبح فيها عصفورًا.
وفي الغد تهز اليد الرقيقة الطّفّل بحزم:

- انهض، حان الوقت.

- اذهبي أنت إلى هذا الكتاب العزيز عليك. تعلّمي عنده كلام الله وكلام كل من يعجبك.
نادي العجوز الكريه ب “سيدي”، قبلي يده، أطيعيه في كلّ شيء، لا تنتشيطني، لا تتشاجري إذا سمحوا لك بذلك، أمّا أنا فذاهب هذا الصباح لأصطاد الحجل بمقلاعي الجديد. لن أعود إلى الكتاب مهما قلتِ وفعلتِ.

- يا بني لا بدّ أن تذهب كلّ يوم إلى الكتاب، أن تسمع المؤدّب. هل نسيت أن والدك كان مؤدّبًا؟! كم سيكون رائعًا أن تشبهه، وكم سيكون فخورًا بك يوم تُعلّم صبيّة قريتنا كلام الله.
- لا أريد أن أكون مؤدّبًا. أنا أكره كل المؤدّبين، خاصة هذا الرّجل، ولن أعود لذلك المكان أبدًا، أبدًا!

تأخذ “ما” طفلها بين ذراعيها واللّهب في عينيها. ثمّة تغيير جذري في لهجتها. هي لم تعد تخاطب طفلًا موجوعًا وإنما الرّجل النائم داخله.

- هل تتراجع أمام أوّل عقبة؟ ترضى بالهزيمة وأنت تحبّ الصراع؟ كم هو طويلّ الطريقُ أمامك لتصل إلى المراتب التي يريدّها لك “با”!

نعم، كم هو شاقّ طريق الأدمي، وكم عليه من مسامير وأشواك تُنبئُه منذ البداية أنه لم يأت إلى العالم لقضاء عطلة اسمها الحياة، وإنما لمهمة مجهولة ربما له فيها بعض المكاسب لكن ثمنها يُدفع غالبا وبالمستيق.

تواصل الأم اقناع طفل معرض عن كل كلام.

- رأيتك في المنام عالما بارعا باللسانين! نعم، جاءني في المنام -وأنا خُبلى بك- ملاك بشرني بهذا. هل تكذب ملاك الله وتخزيني؟

هل أتاها الملاك يومها منتفخ القدمين يمشي على الزجاج والجمر؟ لكنه أتاها واتفق معها على شروط العقد الذي سيجعل الطفل عالماً بارعاً بالاعتين.

محكوم عليك دوماً أن تنخرط بإرادتك، أو بتوهمها، في القصة التي حدتها لك طاوله القمار وأن تلعب -شئت أم أبيت- الدور الذي قرره لك "البخت" أو سوء الطالع. لم يعد مطلوباً من الطفل سوى التطبيق، إذ لا حق له في إفسال مخططات سرية تتوارى داخلها أحلامٌ ورديةٌ للأمل ورغبةٌ عارمة عند الأب في الثأر.

كيف مواجهة تجدد كابوس البارحة؟ موجة من الرفض الباكي. هل من الممكن أن ينهار حلم "ما" وهو في بداية البداية؟ تستخرج الأم من خوفها المفاجئ الحجة التي لا تقاوم.

- تعلمت بعض الحروف من أخوي، لكنها لا تكفي لأفك رموز المصحف الشريف. أنت الوحيد الذي يستطيع أن يأتيني بالبقية. آنذاك سأستطيع قراءة كلام الله. هل ستخذلني؟
يحدق الطفل في وجه أمه وقد تغيرت فجأة كامل الوضعية :

- أنت لا تعرفين القراءة وتريدين أن ...؟

- في زمني، كانوا لا يبعثون بالبنات إلى الكتاب.

تضع الأم يدها على رأس الطفل، تداعب وتتلطف وتبارك:

- لكنني سأعرف القراءة عندما تعود إليّ محملاً بالحروف التي تنقصني.

يقفز الطفل من فراشه:

- سأذهب لأتيك بها. وسأتوقف حال حصولك على الناقص منها، وفي المقابل...

- كل ما تريد، والآن البس ثيابك بسرعة، وكل قطعة الخبز هذه في الطريق.

ذلك الصباح لم يركض صبي في الخامسة من عمره وراء العصافير، وإنما قصد -بمحض إرادته- مكاناً كان يعرف أنه سيلقى فيه من الأذى أشده، وقد ألفت الأقدار الظالمة على كاهله الغضن بمهمة لم تخطر له ببال.

وهذا عالم نادراً ما تحصل فيه على ما تريد، كأنّ به نزعة سادية يمارسها عليك قبل أن يرمي بالعظم الذي تسعى إليه بكل قواك. هكذا كان على الطفل أن يجلس على الأرض الباردة ساعات طويلة، يتأرجح من الخلف إلى الأمام ومن الأمام إلى الخلف كما يفعل المجانين في مستشفيات الأمراض العقلية، مردداً خلف المؤدّب كلاماً لا يفهم منه شيئاً، ولا أظن أن أحداً كان يفهمه، بمن في ذلك الشيخ نفسه.

تُداهمه وهو يردد كالببغاء -أسئلةً بها الكثير من الثورة والاستياء: ما الحمد، ما الرب، ما العالمين، ما الخناس، ما معنى كل هذا الكلام الغريب ولماذا يجب عليه حفظه دون فهمه؟ يغلبه التهور من جديد:

- سيدي، ما معنى خناس؟ ولماذا يوسوس الشيطان في صدور الناس؟ وكيف يفعل ذلك؟ من أين سيعرف بأنّه دخل عالم الفكر -وهو في هذا العمر- من باب المطالبة بالحجة أي من باب البدعة في نظر كل الشيوخ. كأنّ هذا الشيخ تفتن إلى أن الطفل من النوع الذي سيزعج

أمثاله دوماً بأفبح ما يكرهون، فأراد أن يقوم الخطأ في تركيبته الذهنية بأشدّ العقاب، علّه يكتسب أجراً في الدنيا وثواباً في الآخرة.

يصرّ الطفل مع هذا على حقّه في الفهم. يعاود الكرّة والشيخ أحسن مزاجاً:

- سيدي، هل أبو لهب هو الشيطان الخناس؟ ولماذا تبتّ يده؟ وما معنى تبتّ؟
أخيراً يستبطن أهمّ ما يعلمه الكتاب والحياة بصفة عامة: تفادي العصا أهمّ من إشباع الفضول.

يتعمّق كرهه للمؤدب، وهو لا يعلم أنه يظلم الشيخ أكثر مما كان الشيخ يظلمه. ما معنى إلقاء أسئلة في مكان جعل لمنع ظهور السؤال؟

كان الشيخ ينهض من فراشه لقضاء حوائج كثيرة يسلم إبانها العصا والفلقة لعميل سلطة لا تكون ككلّ سلطة-إلا بالفلقة والعملاء. كان همّ العميل هذا، وهو أطول الأطفال قامّة وأكبرهم سنّاً، أن يصفّي حساباته مع من لا يرضى عنهم، وعلى رأسهم الطفل الغريب الذي أصبح صيده المفضّل.

لا العصا ولا الفلقة، ولا كلّ أنواع ظلم الشيخ وتعسف العريف، عقوبات كافية لتثني الطفل عن قراره بالظفر بكلّ الحروف لتختار منها "ما" ما ينقصها.

تواصل الحروف اللعينة رفض الحضور بين يدي من هو بأمرّ الحاجة إليها.

يعود الطفل إلى حبيسة الذار كلّ مساءً مثقلاً بالأم غير مفهومة السبب، يردّد عليها ما علق في ذهنه من جمل غريبة لا طعم لها ولا معنى، ومع ذلك كانت تطرب لسماعها.

- "ما"، لا حروف في هذا الكتاب، لماذا لا نبحت عنها في كتاب آخر؟

- صبرا أيها الطفل العجول.

يتجدّد الموعد كلّ صباح مع العصا والصخب والحصير، وكلّ مساءً مع حرقة الإحساس بالذنب والقهر.

ها قد بدأت "ما" تتخوّف بجديّ من صدق وعد الملاك. تتشجّع أصابعها وهي تمسك بكفّي ابنها:

- لا أحبّ أن أراك تذهب وتأتي على هذه الحالة. انظر إليّ مليّاً. أتريد مصير أقرانك في الصحراء، أم مصير أبناء خالتك هنا؟ رعي الجمال والماعز عند الأعمام، أم رعي الأبقار والغنم عند الأخوال؟ لا أريد لك هذا أبداً، هل تسمع؟

- ...، ...، ...، ...، ...،

- يجب ألا يحصل هذا أبداً. أبداً!!

...

- كم ساكون فخورة بك وقد حفظت السنين جزياً! كم سيكون "با" فخوراً بك هو الآخر وأنت تنلو عليه ما تيسر منها!

...

أرجوك، كفى بكاءً، إنّ دموعك تمزّق قلبي. غدا سنُفَرِّج بإذن الله. سأحمل للشيخ عصيدة بالسكر والسمن. وأنت أيضاً لا تكن سليط اللسان كعادتك. لا تكابر، فلست دوماً على حق. سأصلي الليلة كثيراً ليهديك الله.

ولأننا في قصة نتصرّف فيها كما نشاء فإننا سنجعل صلاة المرأة تصل السلطات الماسكة بأكبر عصاً وأكبر فلفة تضعها حول أقدام البشرية جمعاء. سنقرّر أن هذه السلطات، في إطار سياسة كلّ سلطة تصنع الاهتمام ببعض التطلّعات واقفال حلّها ليتواصل الانضباط وتدقّق العصيدة بالسكر والسمن، أمرت بإصدار التعليمات لدواليب الإدارة حتّى لا يكابر الطّفّل ويتخذ طريقاً قد يقوده ليصبح عالماً بأحد الرّعيين.

ربّما تدخّل الملاك حليف، "ما بحزم وإلحاح لدى مكتب التطلّعات الكونيّة قد تكون علاقته الشخصيّة مع ملائكة القسم هي التي مكّنته من إخراج ملفّ الطّفّل من تحت جبال ملفّات الاستغاثة المتصاعدة من آلاف العوالم.

ذات صباح يتنحّض الشيخ بوقار:

- والآن إلى الواحكم لتعلّم الحروف الأولى التي كُتبت بها كتاب الله.

أهم متطلّبات استكشاف الفضاء الحسيّ جسم سليم، حواس نشيطة، ثيابٌ تقي من البرد والحرّ، وحذاء متين يُستحسن ألا يكون ضيقاً. أما عن استكشاف فضاء الأفكار فمن المستحسن أن يكون لك ذهن هو الآخر في حالة جيدة وأربعة أشياء توقّرت كلها يومها للطفّل: قصبه مذبّبة بطول الإصبع، صمغ أسود تغمس فيه، لوح من خشب بحجم كتاب كبير، وطين يمزج بالماء تُمحي به الكتابة وتعاد.

فضاء الأفكار؟! توقف على الصورة... أي شرعية لاستعمال مفهوم الفضاء عند

ما نتحدث عن الأفكار؟ ففضاء الحواس هو الفراغ الممتد حولنا... الذي ترصد حواسنا ما يتكدّس داخله من كائنات مثل البشر والشجر وكيانات مثل البيوت والبراري... والذي يمكننا أن نمارس فيه أفعالاً مثل التنفس والمشى والغوص وحتى الطيران عند توقّف متطلّباته... في أي امتداد وفراغ تتحرك الأفكار حتى نربطها بفضاء؟

عودة لسباق القصة.

يبدأ الطّفّل رسم الأشكال التي أمرَ بها الشيخ. لا بدّ من التحكّم في تشنّج اليدين حتى لا تنطلق العيصي الواقعة إلى الجزء الأعلى من اللوح. كم تبدو محبّبة لما فيها من سهولة الرسم هذه الرموز التي ستصبح كلمات، فجُملاً، فصُوراً، فأفكاراً تتزاحم داخل عقل نهم يقظ.

من أين له وهو راعٍ مُنكبّ على لوحه، يكاد يلامس وجهه خشبه-الوعيّ بأنّه وضع أولى خُطاه على طريق مجهول سيقوده إلى قمم ما أنتج الفكر البشري!

كم كان بعيداً عن تصوّر الدور الذي ستلعبه في حياته هذه الحروف وهي منطوقة شعراً وغناءً وهي مكتوبة على الورق، يبني ويهدم بها إلى نهاية الرحلة كلّ تصوراتهِ لذاته وللعالم!

المهمّة في هذه المرحلة المفصلية من الرحلة السيطرة على هذه الحروف بما هي المفاتيح السحرية التي ستفتح أمامه أبواب كمّ هائل من الكتب وكل كتاب نافذة جديدة على عالم لا تحصى ولا تعدّ ابوابه ونوافذه.

يتعلم الطّفل المنبهر أن يضع النقطة تحت شكل تتلاقى فيه عصيّ قصيرة واقفة وأخرى راقدة فيولد حرف جديد بصوت مختلف. وهذا صوت آخر وحرف آخر بنقطة فوق الشّكل، ثم حرف جديد بنقطتين، ثم حرف مختلف بثلاث نقاط. ما أسهل الحروف وما أجملها! ها قد تعلّم من سيّدي الشيخ، خمسة أحرف دفعة واحدة. أليس ألم الفلقة ضريبة الحصول على معرفة الحروف التي تنقص "ما"، وأهمّ من ذلك، ثمن الحصول على الحروف التي تنقصه هو؟

الآن وقد فرغ الطّفل من تفحص العصيّ والنقاط لا بد من وضع الدوائر تحت السيّطرة. تداهمه أولى أفكار سيتواصل وصفها طوال رحلته من قِبَل القريب والبعيد، تارة بالغبية وتارة بالاستفزازية. نعم، لماذا لا نستغني عن الفاء بدائرتة وعصيّه الراقدة على ظهرها ونقطته وكلّ هذا التّعقيد غير الضّروري الذي ستواجهه "ما"؟ أليس من الأسهل، للحصول على الفاء، وضع نقطة على الألف وعصيّه الواقفة خالية من كلّ تنقيط لا تنتظر هي الأخرى إلّا حقّها من النقاط؟ بعد هذا يمكن وضع نقطتين فنحصل على القاف، ثم ثلاثة نقاط لنحصل على الكاف، وهكذا إلى أن نستنفد بقية الحروف.

يبدأ أولى تجاربه ليزداد اقتناعا بوجاهة الاختيار. لم يبق إلّا عرض اكتشافه على المؤدّب.

- سيّدي الشيخ! سيّدي الشيخ! لنضع فوق العصا الواقفة نقطة وهكذا نحصل على الفاء، هذا سيسهل كثيرا على "ما" حفظ الحروف!

- ما هذا الجنون؟ والله إنك أكثر هؤلاء الصّبيّة الحمقى حماقة.

- سيّدي الشيخ! سيّدي الشيخ!

- احرص يا كلب، لا وجود لحرف فوقه أربع نقاط.

عجيب، كيف فهم البدين قصدي؟ أم إنه رأى ما أرسم جلسة؟!!

المهم أن الطّفل تحصّل في يوم واحد على عدد كبير من الحروف حتى وإن كان غير مقتنع بضرورة رسمها كلها بذلك الشكل الذي يصرّ عليه المؤدّب.

يصرخ الطفل في أمه عند دخوله البيت راكضا:

- "ما"، اليوم تعلّمْتُ كَلَلَلَلَل الحروف! إنّها أجمل من كلام الله.

- كم مرّة قلْتُ لك الّا...

- الليلة سأعلّمك فقط ثلاثة منها. اجلسي، أريد الانتباه والطاعة.

تجلس "ما" فخورة، دامعة العينين وقد ازداد يقينها أنّ صديقها الملاك جدّي، موثوق به وليس كالملائكة الآخرين بعودهم الكثيرة وإنجازاتهم القليلة. يلتقط الطّفل عُود حطب رقيق بلوّح به في وجهها، إذ كيف يكون معلّما ومُهّابا إن لم يكن بيده رمز المهابة والعلم؟ ثمّ يُبرز لوحه من وراء ظهره كمن يخرج مفاجأة المفاجآت وهديّة الهدايا.

- انظري مليًا. هذا حرف، وهذا حرف آخر، وهذا حرف ثالث. هل لاحظت الفرق؟
- نعم.
- نعم، يا...؟
- نعم، يا سيدي الشيخ.
- انظري جيدًا إلى هذا الحرف الذي هو عصًا واقفة، إنّه حرف الألف. والآن من بين هذه الحروف الثلاثة أين حرف الألف؟
- هو هذا، يا سيدي الشيخ.
- حسنٌ جدًا. والآن الحرف الثاني. انظري مليا ولا تتبسّمي. إنّه عصًا قصيرة راقدة على ظهرها وفي بدايتها عصا قصيرة منحنية قليلا إلى الأمام. إنّه حرف الدال. قللي معي: دال. والآن أين الألف وأين الدال؟
- هذا الألف وهذه الدال، يا سيدي الشيخ.
- والآن هذا حرف ينطق ذال، وليس دال، لأنّ فوقه نقطة. فهمتِ الفرق؟
- نعم، يا سيدي الشيخ.
- والآن إذا وُضعت نقطة فوق الألف، ماذا يكون نطق الحرف؟
- لا أعرف، يا سيدي الشيخ.
لا بدّ من التروّي في عقاب ولو كان خفيفا فهذه التي ستنال العصا هي “ما”، وعلى كلّ حال هي غير مطألبة بمعرفة حروفه الخاصّة، علما بأنّ الله نفسه لا علم له بوجودها حيث أنّه لم يستعملها في كتابه الأصفر الرثّ، فلماذا يظلم من لا تظلمه أبدا؟
- حسناً، لنراجع كلّ ما علّمك اليوم.
الإجابة صحيحة في كل مرة. ليس على الطّفّل سوى الانتظار إلى الغد، علّ “ما” تنسى حرفا أو حرفين وأنداك يستطيع عقابها دون ظلمها، مع العلم أنّه لا ينوي الضرب العنيف، بل بلطف ولمجرّد التمتّع بسلطته الجديدة.
- ستواصل تعليمي بقية الحروف كما اتفقنا، أليس كذلك؟
ترفع الأمّ إصبعها في وجه طفلها وهو ما لا تفعله إلا نادرا.
- إيّاك أن تبوح لسيدي الشيخ أو لأحد آخر، حتى لوالدك، بسرّ يجب أن يبقى بيننا. أترضى أن يسخر الناس من أمك وأن يقولوا: مجنونة، تريد في هذه السنّ تعلّم القراءة؟!
- وفي المقابل أريد...
- كلّ ما تريد، كلّ ما تريد!
يننظم تهريب الحروف من الكتاب إلى البيت في جوّ من التكتّم على سرّ “ما”، والطّفّل مسكون بهاجس طبع بقية الرحلة. هو لا يتعلّم لحسابه الخاصّ وإنما لحساب الآخرين وقد شاءت الأقدار أن يكون صاحب رسالة ومسؤولية.

*

ذات يوم تغتتم “ما” لحظة هدوء لتُخبر الطّفّل بدخول الطريق في منعطف جديد.

- غداً سيكون يوماً أغرَّ في حياتك يا بنيّ. سنذهب إلى المدرسة العصرية. إنَّها قريبة من محطة القطار ولن تتعب كثيراً في الذهاب والإياب. سأعدّ لك محفظتك وفيها قلم جديد وكراسة وكتاب قراءه جميل.

- لن أذهب إلا إلى الكتاب.

- أنت الآن طفل كبير. بلغت السادسة، وعليك الذهاب إلى المدرسة العصرية.

- لكن هناك أطفال أكبر مني في الكتاب!

- أبوك وأنا نريدك أن تذهب إلى المدرسة. ستري أنها أحسن بكثير من الكتاب.

أحسن من الكتاب! غير ممكن. ثم كيف يتخلّى عن لوحه وعن الماء والطين والصمغ؟ كيف يتنازل عن متعة معايشة الشيخ والسخرية منه، خاصة عندما يرتفع شخيرُه في حصّة الطهر؟ كلاً، فالعاقل لا يبيع ما يعلم بما يجهل.

- لا، لا، أريد البقاء في الكتاب.

- لن تذهب بعيداً بالزاد الذي يوقره. جُلّ خرّيجيه ليسوا سوى رعاة قرية جدّتك.

تتواصل المفاوضات الصعبة، وحجر العثرة خوف مبهّم أن تكون عصا الشيخ الجديد أطول من التي تعود عليها، أو أن تكون الفلقة أكثر وجعا.

تستمع الأم إلى حجج الطفل الواحدة تلو الأخرى، تقلّبها، تنظّمها، توضحها ثم تفنّدها، تخاطب في ابنها كائنات له عقل. يتسلّل إلى هذا العقل أنّ الغرض قد يكون في مصلحته حقاً، خاصة أنّه من "ما". ثمّة أيضاً أشياء جديرة بالتمحيص مثل تأكيدها على غياب الفلقة وإمكانية الجلوس على المقاعد بدل الحصر البالي، ناهيك عن الحقّ في حمل محفظة الجلد الأحمر التي جاء بها والده من بلاد المغرب وحافظت عليها "ما" بحرص شديد، لا تخرّجها إلا نادراً، تمسح عنها الغبار وتقبّلها.

- سأذهب بضعة أيام، إذا أعجبتني سأواصل، وإلا...

تصرخ المعلمة المرهقة بالضجيج لا تخفي ما بها من تشنج ونفاذ صبر:

- انتبهوا، أطلب منكم قراءة الكلمات التي على الصفحة الأولى لكتابكم ثم نقلها على الكراس، وأريد أن يتم ذلك بنظافة تامّة.

يصرخ الطفل المتهوّر:

- إنّه كلمات سهلة، أعرفها كلّها، فسّيدي الشيخ علمني كيف أقرأ.

تبتمس المعلمة ابتساماً صفراء.

- حسناً، اكتبها إذن وتذكّر أنّك تكتب على الورق وليس على اللوح.

ذات يوم تتوجّه المعلمة متجهمة لطفل مرتبك.

- أريد أن يأتي وليّك معك غداً. وبالمناسبة، من الآن فصاعداً عليك أن تجلس في آخر القسم.

تحدّق الأمّ في طفلها كأنها تراه للمرّة الأولى. تمرّر يدها على شعره ببالغ اللطف. يتسع ربع ابتسامتها وفي عينيها ذلك البريق اللامع الذي لطالما أحبه الطفل.

- أريدك أن تعدني بعدم مضايقة "سيدتي". إنها غاضبة من كثرة أسئلتك وتشويشك الدائم في الفصل.

- حفظتُ كلللكللكلمات التي في الكتاب، ولا أعرف ماذا أفعل طيلة الوقت وهي منشغلة بالتفسير لهؤلاء الأعياء.

- لا تقل أبدا عن أقرانك أعياء وإلا كرهوك وأدوك.

يبلع الطفل ريقه، لا يفهم تقريب أمه له ولا امتعاض "سيدتي" منه وهي لا تبتسم إلا للأطفال الآخرين. يزداد الوضع سوءًا والمعلمة تطالب القسم بإنجاز التمرين الجديد.

- والان انقلوا في كراساتكم الجملة المكتوبة فوق السبورة.

الجملة! أين هي؟ من هذا المكان في آخر الفصل وظهره إلى الحائط هو لا يرى إلا أشكالاً باهتة لا يستطيع التعرف عليها. يغالب الطفل تردده، ثم يستجمع شجاعته وقد خرجت "سيدتي" لحظة فينهض من مكانه متوجّها إلى السبورة. يضع أنفه فوق الكلمات المطالب بإعادة نسخها، لا يبالي بقهقهة السخرية وبالطباشير المتطايرة. ثم يصلي لإله مُبهم أن تحفظ ذاكرته الجملة الطويلة وهو في غُدوّ وروح من السبورة إلى مكانه، ومن مكانه إلى السبورة، كأنه نملة تسعى بين الغار وفضاء الصيّد.

- ماذا تفعل؟ من سمح لك بمغادرة مكانك؟

- يا سيدتي، أريد نقل الجمل كما طلبت.

- لا تتحرّك مجدداً دون إذن.

- لكن يا سيدتي...

- عُد إلى مكانك وإلا شويت أصابعك بالمسطرة.

كم من آلام ومصاعب لاستكشاف فضاء الأفكار وكم فيه من مصاعب ومطبات تقاطعات طريق لا تقل خطورة هي الأخرى عن تلك التي تواجهك في الفضاء الحسي! يدخل الطفل مجدداً في قوقعته.

تصرخ "سيدتي" في قمة الهيجان.

- غافلتني لتنام، أليس كذلك؟ أنت مجنون أم غبي أم ماذا؟!...

- سيدتي!!

- كفى، أصمت ولا تتحرك!

ليذهب المكتوب على السبورة إلى الجحيم. لنذهب سيدتي نفسها إليه.

إنه سوء الفهم المزمين بين البشر، بالرغم من عدد كلمات الخطاب والتوضيح والتدارك التي توفرها لهم اللغة.

لمثل هذه الوضعية التي يتخبط فيها طفلٌ تجاوزته الأحداث بعضُ الفوائد، منها تفرّغه لأحلامه ولا أحد ينغص عليه عزلةً موجعة لذيدة.

مما يزيد الطين بلة استدعاء السيد المدير ونبرته وهو يقول للطفل :

-لا يمكن أن تأتي للمدرسة بهذه الثياب ؟ على الأقل أن تكون ملابس نظيفة... وإلا....

يتزايد انغلاق الطفل على نفسه ويكثر الهمس حوله. إنها بداية تهمة الجنون التي ستلاحقه على مرّ العقود.

تهزّ الأمّ طفلها من كتفيه، تجرّه إلى الثّور وهو مصرّ على الاختباء داخل الفضاء الوحيد الذي يقبل به ويستطيع العيش داخله.

تتوجّه إليه كل مرّة برفق فيه قلق دفين، تنتبهه لأخطار الفرار من "الواقع".

- كيف تقرأ كُتُب والدك ومجلّاته في البيت وترفض حفظ دروس المعلمة، مستغرقا في خريشة أشياء لا علاقة لها بالدرس؟ كيف سأخبره بأنك الأخير في القسم، كيف أقول له إنك تعود من المدرسة كل يوم وأنت دامٍ؟ يا إلهي، متى يعود، علكّ تعود أنت إلى رشدي؟! يرفض الطّف الاستماع إلى أمه، وقد وجد داخل فكره وداخل الكتب التي تفيض بها الحقائق المرمية في مهملات البيت، ما يغنيه عن المعلمة وكل ما تقول.

ثُطاطي "ما" رأسها، تنكفي على حزن عميق، والطفل الغريب رافض لكلّ حديث فما بالك بمواصلة مدّها بما يتعلّم.

- يا بني، كنتُ أظنّ أنني لا أتحمّل صخبك، والحال أنّ صمتك هو الذي لا يُطاق. تكلم، قل لي بماذا سأدافع عنك هذه المرّة لدى حضوري غدا عند مدير المدرسة؟!!

ها هو على مفترق جديد للطريق وكذلك امرأة تموت خوفاً، تمسك بيدها المبلّلة عرقاً يدّ طفليّ يتملّص ضامّاً يده الطليقة للصراع. مع من، ولماذا؟

يتوجّه الرجل الفظّ إلى المرأة باحتقار لا يتكفّف إخفاؤه:

- طلبتُ حضور والده!

- أبوه... غائب يا سيّدي المدير.

- غائب أم فاز؟ أم في السجن؟ معادٍ للحكومة، أليس هذا المعروف عنه؟! بل ويقال إنّه إرهابيٌّ متطرّف خطيرٍ وسلّح.

- يا سيّدي...

- اسمعي يا امرأة! ابنك غير صالح للدراسة، فهو متخلف ذهنيّاً. يضايق المعلمة ويعطلّ القسم. لا فائدة من أن يكرّر سنته. سمعتُ أنّ والده نازح من الأفاق أو من الصحراء تحديداً، الأحسن لكّ وله أن تأخذه ليرعى الجمال هناك.

أي تبرير لتعذيب الأطفال بالأم لا يعرفون لها سبباً أو معنًى؟ هل فُتح هذا العالم للعموم قبل استكمال الاستعدادات الدّنيا لاستقبال الزوّار؟

- أقسم يا سيّدي، أنّه يقرأ طول الوقت كُتبا و.

- كفى! إنّه متخلف ذهنيّاً، ولا فائدة من أن يضيّع وقته ووقتنا في المدرسة.

- أتوسّل إليك، امنحه فرصة أخرى وسأدعو لك ليلاً نهاراً، إنّه شبه يتيم يا سيّدي.

- حسناً، حسناً، لا فائدة من البكاء. يُقال إنّ لإخوتك زيتونا جيّداً ينتج أحسن الزيوت! ليُعيد سنته هذه، ولكن لا مجال لفرصة أخرى أبداً.

يبلع الطفل غصة بكائه ويتبع أمّا تغالب دموعاً بها الكثير من الحزن وبعض الفرح.

ثُمَّة في أقدم الملفات صبيغة أخرى لنفس الحادثة.

- طلبتُ حضور والده.

- أبوه... غائب، يا سيدي.

المدير، بصوت خافت:

- بارك الله فيه وأمثاله من الوطنيين. اسمعي يا سيدي، هؤلاء الأغبياء لم يلاحظوا أنّ ابنك لا يرى جيّداً. فقد انتبهتُ للأمر وأنا أراه في تفقّد مفاجئ للقسم ينتقل من مكانه إلى السبّورة لينقل ما تطلبُ المعلمة كتابته. حقاً إنّه طفل غريب! لماذا لم يقل من البداية إنّه لا يستطيع رؤية الحروف من مقعده؟ سامح الله الزميلة التي تركته يرسب. أما الآن فخذيه إلى طبيب عيون في العاصمة، سيعالجه وستتحسّن نتائجه حالما يلبس نظّارات.

يصرخ كهل، لم ينس الحادثة، في مساعديه الأطباء الشبان: لا أريد أن يرسب طفل واحد لقصر النظر. أولى أولويات القسم - هذه السنة - الكشف على عيون كل أطفال السنة الأولى في جميع مدارس المدينة.

وفي قصّتي - بما فيها من حقيقة وخيال - يزمجر الأب في أصحابه وهو راجع لتوّه من معركة ما:

- ابني أنا متخلف ذهنيًا، يوصى ببعثه إلى الصحراء ليرعى الجمال؟! ابني أنا يعامل هكذا؟! ابني أنا يُهمَل سنة لا يلتفت إليه أحد؟!!

- إنّه تعليم الاستعمار. ماذا تنتظر منه يا صاحبي؟

- الاستعمار أنتم، أنتم من استعمرتموني قبل المستعمرين. والله لو حكّموني يوما في رقابكم لترحّمتم على عهد الخنازير أكلة الخنازير. تركتم ابني يرسب وأمّه تُنذَل وتُهان ولم تدبّحوا هذا الكلب ابن الكلب! هذا الخائن لا عقاب له إلا الإعدام رميا بالبصاق، وأنتم معه كذلك. هذا بلدٌ لم يعد فيه إلا عميل أو جبان. أنا أستقبل منكم، اذهبوا أنتم لتحزروا المزرعة الكبرى فكلكم خونة بالأعمال أو بالنيّات!

- يا رجل، اتق الله، هل الذي أنقذ مستقبل ابنك وحياه بعطفه خائن وعميل هو أيضا؟ - بالتأكيد أجنبيّ مُتخفّ فضحتّه أخلاقٌ انقرضت في هذا البلد منذ زمن الفتح. استروه يستركم الله حتى لا يينبّهوا لأمره ويسفروه خارج الحدود. من المتخلف ذهنيًا؟ هو أم الفاسق الذي نصّبوه مديرا لأنّه كبير الخونة؟ ابني أنا متخلف ذهنيًا؟! اسأله ما تريدون. قل لهؤلاء الجهلة أين صمّد الزعيم في وجه الغزاة الملاعين؟ - في الفالوجة.

- نعم في الفالوجة، أصابكم بالفالج ربّ النصارى واليهود والمسلمين وكل ما يوجد في العالم من أرباب. ماذا قال أبوك لقائد الثورة العظيمة لما ذهب مهنّئا ومساندا؟ - قلت له: جنّناك من المقهورة إلى القاهرة طلبا ل سلاح نقهر به أعداءنا وأعداءكم. - أسّمتكم؟! والآن عليم هؤلاء الجهلة اسم العبد الثائر هذه الأيام في وجه الإمبراطورية العاهرة العجوز.

- جومو كينياطا .

- واسم كمشة الهمج الذين يقودهم؟

- الماو ماو .

- أرأيتم؟ إن هذا الطفل كاد يوماً يُفلسني بطلباته من الكتب. أتعرفون أنني وجدته البارحة مستغرقاً في الضحك وبين يديه "البخلاء". متخلف ذهنياً يقرأ الجاحظ في السابعة من العمر! إنه يلتهم كل ما في مكتبي ويقرأ حتى التي لا يقدّر على فهمها ويقولون لأمه خذيه ليرعى الإبل! ابني أنا يرعى الإبل! ابني أنا! ، إلخ... إلخ...
ثم يلتفت إليّ.

يا رجل رحماك، أنظر في الاتجاه المعاكس، واصل معهم، إنس وجودي. هيهات، يجب أن أدفع مع الجميع.

- وهذا المغفل الذي بقي صامتا عوض أن...

يصرخ رفاق الطريق في رفيق عزيز تجاوز كل الحدود:

- اهدأ يا رجل واترك هذا الولد وشأنه. ألا ترى أنه يغالب دموعه؟

- ابني أنا بيكي! ثم ماذا أيضاً؟! تعتقدون أنه من طينة أطفالكم! ربّئهُ على الشدة حتى لا يشبهكم يوماً، يا مَنْ إذا حَكَمَكُم كلبٌ مدحتم الكلاب وإذا حَكَمَكُم بغلٌ تغنّيتُم بفضل البغال على الكلاب! سبحان من حرّم عليكم التبّن والعلف! سبحان من جعلني واحداً منكم! إلخ... إلخ...

من يوم وُضعت على عينيّ الطفل نظّارات أصبح كأرنب تُفرض عليه مسابرة السلاحف.

*

وفي ملف آخر عن مراحل فتح الفضاء الذي تعيش فيه كائنات حية غير حسية اسمها الفكريات ، يتوجّه المعلّم لقسم هائج على الدوام .

- انظروا جيّداً لهذه الحروف الجديدة. إنها حروف اللّغة الأجنبيّة التي يجب عليكم تعلّمها ابتداءً من هذه السنة.

يفهم الطفل أنها حروف لغة الأعداء، الذين يضعون "با" في السجن كلّما أمسكوا به ويجبرونه على الاختفاء باقي الوقت. كيف يقبل بتعلّمها؟ لأن يكون هو أيضاً واحداً من الحوّنة الذين يتوّعدهم "با" بالويل والثبور؟ مبدئياً، هو ليس ضدّ تعلّم أي شيء جديد، على العكس، لكن تعلّم لغة المستعمر شيء يرفضه عقله وإن كان لا يفهم بالضبط ما الاستعمار. يضع المجاهد الصغير القلم جانبا ليبدأ أول عصيان مدني في حياة ستكون حافلة بأكثر من تمرّد عقيم.

يفغر المعلّم فمه وهو يسمع تلميذا يههم أنه لا يريد تعلّم اللّغة الثانية ولن يكتب هذه الحروف.

يكشف الطفل أنّ المسطرة على الأنامل لا تثقل أذى عن فلقة سيدي الشيخ.

بيني وبينك ما أسخف هذا الطفل وكم من صفعات مُحكّمة كان يستحق!

الأدلاء يُقدّمون لهذا الجحش على طبق من فضة كلالل حروف لغته الأم فيز عج من أهداه
أغلى وأتمن الهدايا.

يُقدّمون له الآن على طبق من ذهب كلالل حروف لغة جديدة -مفتاحا جديدا وكنزا
إضافيا-فيتأفف ويُعلن العصيان.

هو لن يُقدّر كم كان محظوظا إلا بعد عقود، يوم اكتشف قصة طفل عاش في عصرٍ غير
عصره، وبلدٍ غير بلده وعرف باكرا مثله قسوة الحياة.

بدأت مصائب ذلك الطفل بضربة سيفٍ من جنديّ غازٍ مخمور، شجّت رأسه وهو في
العاشرة. ومع هذا بقي حياّ خلافا لأبيه الذي قضى نحبه أمام عينيه. عقدة القصة أنّ والده
كان يدفع أجرا للمعلم بصدد تعليمه الأبجدية، وهذا المعلم -الذي لم يكن مستعدا للعمل مجانا-
ترك تلميذه وهو لم يتعلم إلا ثلاث الحروف.

جُنّ جنون الطفل همّه الأوحده أن يعرف ماذا يوجد بعد حرف i.

كان بداخل اليتيم إحساس أنّه إن بقي بثلاث الأبجدية، فسيكون كمن يُحكم عليه بالنظر إلى
العالم بقية حياته بثلاث عين لا ترى إلا ثلاث الألوان.

ها هو متشبث بجلباب القسّ: من فضلك -يا أبتاه-ماذا بعد حرف i؟ فيركله الأب صارخا:
ألا ترى أنني مشغول؟

يتوجه إلى عشيقته القسّ: من فضلك -يا سيدتي-ماذا يوجد بعد حرف i؟ فتركله صارخة:
ألا ترى أنني مشغولة؟

يتوجه إلى من يعرف ومن لا يعرف: من فضلك ماذا يوجد بعد حرف i؟ فيصفعه هذا وذاك
صارخا: ألا ترى أنني مشغول؟ يجد أخيرا من يستمع إليه، يسمح على شعره مشفقا: يا
بني، أسأل القسّ، هو وحده الذي يعرف القراءة والكتابة في هذه القرية الملعونة.

لا نعرف كيف وضع الطفل يده أخيرا على أصحاب الفخامة j، k، l، والجلالة m، n، o،
والقداسة p، q، r، s، والسموّ t، u، v، وأصحاب العظمة w، x، y، z.

كل ما نعرف أنه تحصل عليها كلها، الشيء الذي مكّنه من فك رموز الكتب وفهم أصعب
المسائل... وحده.

إنه نيكولو تارتاغليا، أحد عمالقة الرياضيات، الجسر الرئيسي بين الخوارزمي وكاردا
وفرّاري وباسكال، ومؤسس فرع العلوم الذي سيسمح يوما برسم مسار الصواريخ.

يواصل بطل قصتنا الغيبيّ عنادا لو توقّف عنده لانعطف به الطريق باكرا نحو مستنقعات
شاسعة من الجهل والشعوذة والغرور.

كيف سيخرجه النص بصفة مشرّفة من صراع غير مُجدٍ وميزانُ القوى ليس لصالحه؟
ألم يُعد الملاك "ما" أنّ طفلها سيكون بارعا باللغتين؟ أليست هي التي أصرت على ذلك؟
ربما دفعت الثمن مسبقا، وكانت كمية الكعك ثمن البراعة في لغتين كاملتين. هل يمكن أن
يقبل بأن يخدع الملاك "ما" فيأخذ منها ضعف ما يتطلّبه عمله؟ ربما تنهّمه بالغش والتحايل،
وحتى -لم لا-تطالبه باسترجاع نصف ما أعطته فيحتج بنزاهته ويشهد المعلم ضده.

لهذا السبب ، يقرر الطفل متأففا إيقاف أول عصيان مدني له.
كم من قرارات هامة نأخذها في كلّ المجالات وفي أعلى المستويات بمثل هذه الحجج وهذا المنطق؟

المشكلة الآن التحكم في الحروف الجديدة.

اللعنة! لماذا يكتب الكفار من اليسار إلى اليمين؟ حدّث ولا تسئل عن بخلهم بالنقاط لحروفهم. ما أغياهم! هم يرسمون شكلا لكل حرف من فرط جهلهم بالخفة والسرعة التي تسمح بها النقاط، تلك السرعة التي كانت تزداد لو سمعني سيدي الشيخ.
لا بدّ في هذه اللّغة اللعينة من ثلاث عَصِيّ، تتلاقى اثنتان منها عند الرأس وتنبطح عصاّ ثالثة على مستوى الخصر لرسم ذلك الحرف الذي لا يتطلّب في اللّغة الأم إلا عصاّ واحدة منتصبة مكثفية بذاتها.

يتزايد انزعاج الطفل والحروف الركيكة تفرض أن يكون لها شكل فخم وآخر متواضع. ففي الصيغة الفخمة الحرف الأوّل منتفخ كالطاووس بعصيّه الثلاث بِالْغَة الطول والتعالي، وفي صيغته الهزيلة هو مجرد نصف دائرة هزيلة بِذَيْلٍ قصير كذَيْلٍ فأرٍ قَصَمْتَه أنياب القطر. لا داعي إذن لإضاعة الوقت في تعلّم لغة غيبية كهذه، يكفي افتعال الاهتمام حتى لا يُفَرطوا عليه بالضرب والنفي إلى الركن.

تدفع الأقدار إلى ساحة القصة بدليل يأخذ بيد الطفل ليعينه على تجاوز تقاطع جديد في طريق حافل بتقاطعات تتبارى صعوبة وخطرا.

كان "مسبو فيدال" المعلم الجديد للّغة الأجنبية بشوشا على الدوام، يبتسم بلطف للخطأ، يصلح النطق المتعترّ، يقوم اعوجاج أشباه الجُمَل.

كان يردّ على السؤال المحرج تلو السؤال الغريب، تلو السؤال السقيم، تلو السؤال السريالي، وغالبا عن مواضع لا علاقة لها بالدرس. بل كان يشجّع على السؤال، لا يملّ، لا يسخر ولا يزرع أبدا.

يصبح استعمال الحروف الأجنبية معه لعبة ممتعة وهي -منطوقة أو مكتوبة-تسمح بتكوين الكلمات وهذه الكلمات تسمح بدورها عندما تصفّف بكيفية معينة كما هو الأمر في لغة الأم ببلورة معاني وأحداث وأفكار تأتيه أحيانا بابتسامات التشجيع والثناء.

تأتي مرحلة فكّ الأسرار التي تنطوي عليها أسطر طويلة من كلمات تجمعت في فصفحات كتب ملانة أيضا بالصور الجميلة.

شهرًا بعد شهر، يواصل الدليل الماهر فتح الطريق في الفضاء الجديد لزبونه الصغير.

- هذه المرّة، القصة بلا صور، قل لي عندما تُكملها، ماذا أحببت فيها؟

- سيدي! سيدي! هناك كلمات كثيرة لم أفهمها وجنّتك بقائمتها. سيدي، سيدي، سيدي، سيدي!! كم هناك من كلمات في لغتكم وهل سأحفظها كلها؟

يتنحج الرجل الذي ستقيم له المدينة الصغيرة بعد أشهر قليلة أضخم جنازة عرفتها، ضاربة بعرض الحائط أنه من قوم الأعداء... ثم يعطي الرد الذي سيذهل له الطفل:

- لا أعرف يا بني كم في لغتنا من كلمات... لكنك ستتعلم الكثير منها إذ يبدو لي أنك ستكون من فئران المكتبات.

كم كان حدس الرجل صائبا، اللهم الا إذا كان الأمر غير مرتبط بحدسٍ وتوسمٍ خيرٍ، وإنما بالطريقة الملتوية الناجعة التي اعتمدها، "ما" وهي تروي حُلْمها عن الملاك لتمرير مشاريعها بالإيحاء بدل الصراخ بالأوامر على طريقة "با" التي لا تولد إلا شكلا أو آخر من المقاومة والرفض.

**

لبنات الحاسة السادسة

- "يا"، كم هناك من الكلمات وهل سأتعلمها كلاللها عندما أكبر؟
يحدّق الطفل الذي أصبح أبا بدهشة في طفلة لم تتجاوز سنتها السادسة تدافعت من ذاكرته كل الأسئلة الغريبة التي كان يطرحها على مسيو فيدال ومنها هذا السؤال.
الإفلات بحيلة أو بأخرى... أم الثبات والمواجهة؟
- سؤال وجيه، يا تفاحة، يستدعي أن تتكاتف جهودنا للإجابة عنه. اكتبني كل ما تعرفين من الكلمات وسأكتب كل ما أعرف من كلمات وسنرى هل نستطيع كتابة كلالل الكلمات.
تريني تفاحة قائمتها تترصد عبارات الإعجاب والتشجيع: بابا، ماما، لعب، كتاب، دمية، عصا، حلوى، شكولاتة، ماء، طفلة، أخت، قط، حديقة، شجرة.
إذن هذه هي المعالم الكبرى للعالم الذي تتحرك داخله البنت.
تستعجاني تفاحة.
- "يا" هيا اكتب قائمة كلماتك.
قطعا لن أكتب أي منها وكل ما يتدفق من الوعي واللاوعي كلمات تتبارى بشاعة ومزاجي كأحوال هذا الوطن الذي ابتليت به وهذا الشعب التي أصابني الانتماء إليه بالقرف منه ومني.
- تكتشفنا تفيحة منهمكين في ملء صفحات كراسة بدأت تفيض بكلالل الكلمات التي تعرفها تفيحة. تحتجّ باكية لا تدري إلى من ستتوجّه بالتقريع.
- "يا"، تفاحة شريرة تأخذ دوما أقلامي الملونة، أنت تحاببيها دوما لأنها الأكبر وتلعب معها أكثر مني.
وهذه البنت الكبرى التي لا تحرك ساكنا، هي التي تتهمني دوما بأنني أحابي تفيحة ولأعب معها جل الوقت لأنها الأصغر!
- تفيحة، كنا نكتب هذه الكلمات لك خصيصا. هيا أرني براعتك في قراءتها وقد بدأت تحسين كتابة كل الحروف.
تصرخ تفاحة:
- لا أريدها أن تقرأ كلماتي، اكتب لها كلماتك أنت.
تتطوّر الخناقة بين الأختين إلى شدّ الشعر والبكاء الصادق والكاذب. يجب إطلاق المفاوضات بخصوص الذهاب للفراش. اللهم إلا...
لم لا مواصلة اللعبة الممتعة مع البنيتين علني اظفر بملاحظات جديدة عن التشكل التدريجي للعالم في ذهن المرتحلين.
- والآن، ماذا نفعل يا بنات بالكلمات التي رصدناها؟
تصرخ تفيحة:

- الكلمات تحبّ أن تجلس مع بعضها البعض لأنها تخاف أن تبقى وحدها ولا تجد مع من تتكلّم وتلعب وتتخاصم.

حقاً؛ ما ألدّ التفلسف طفلاً! وما أمتع التفلسف مع الأطفال!

"عندما تعود الكلمات إلى بدايتها
يعود الإنسان إلى أصوله
ويبدأ كل شيء من جديد"

(روبرتو جيواروز)

- نعم، الكلمات كائنات أليفة بالطبع لا تعيش إلا بالجوار، بمنافعه وأيضاً بمشاكله. تفاحة، ما رأيك في لعبة اكتشاف كل الكلمات التي تقبل بمجاورة بعضها البعض... كلمة طقس مثلاً؟

- الطقس جميل، الطقس بشع، الطقس بارد، الطقس حارّ، الطقس جافّ... "با"، أنا فهمت؛
الكلمة الثانية تزيد من توضيح الكلمة الأولى!!

- بالضبط، إنه الوصف....

تتدخل تفيحة لاستعادة المبادرة:

- نعم، تفاحة بليدة وشريرة وكسولة.

تفعل تفاحة الترفع عن نقاش حمقاء لا تتجاوز سنتها الخامسة. ثم تنفجر:

- تفيحة ركيكة غبية، شريرة. "با"، اكتب أنت على صفحة كراسي بعض الأوصاف.

من الأفضل تجاهل الطلب وأنا في نفس الحالة من سوء المزاج وإن خفت عني اللعب مع
البيتين الكثير من الكرب.

لتهدئة القطنتين الشرستين لا بدّ من تركيز اهتمامهما على فصل جديد من اللعبة.

- تفاحة، تفيحة، ماذا نفعل بالكلمات وقد قبلت باللعب مع بعضها البعض؟

تصرخ تفيحة: نروي قصة لكن بالكلمات الجميلة فقط.

-موافق، يجب أن نحرك الكلمات لكي تصنع لنا قصّة، ما الذي ينقصها؟

تصرخ تفاحة: الأفعال، الأفعال....

ثم تضيف حتى لا تفتك أختها الكلمة.

- "با" أنا من سأكتب كلالللالل الأفعال.

أترك الطفلة تحربش أفعالها. تصرخ في أن أكتب أفعالي وأن أكفّ عن النقل عنها.

الأفعال! نعم، لماذا لا أكتب قائمتي أنا الآخر بدل الاهتمام بأفعال تعيسة مثل رقص وقرص؟

ماذا عن التي تلتهم هذه الأيام كل وقتي: جري، ركض، صارع، صرخ، غضب؟

لكن أي فعل-بذرة تفرعت عنه كل هذه الأفعال؟ ... هل هو ولد؟ ... لكن ماذا فعلت

الذات قبل أن تولد؟ ... كم غريب أن تبدأ قائمة أفعالنا في هذا العالم بفعل غامض وأن تنتهي

بفعل لا يقلّ غموضاً: مات!

يتعالى الصراخ القادم من المطبخ أن هناك أفعالا لا بدّ من فعلها ومن الأحسن الشروع فيها دون تأخير مثل ارتداء البيجاما وغسل الأسنان والتوجه إلى غرفة النوم، وبصفة عامة الكفّ عن الهرج مع رجل يمّوه على الناس خارج البيت بافتعال الجدية والوقار. فجأة تأخذ تفيحة في الغناء وهي تنظر للورقة التي رميت فوقها الكلمات التي أمرتني تفاحة بكتابتها:

- أنا قرأت كلماتك... أنا قرأت كلماتك كلها... إنها كلماتك قبيحة لا أحبها. تتدخل تفاحة.

نعم لنحتفظ لقصتنا هذه الليلة فقط بالكلمات الجميلة وكلها في قائمتي. الاحتفاظ فقط بالكلمات الجميلة! فسخ التي لا تروقنا؟ لعلها وعسى ترحل ويرحل معها ما تشير إليه؟ فكرة أكثر من رائعة!... أية كلمات كنت تلغي من القاموس لو قيل لك إن ذلك يعني أليا إلغاء ما تشير إليه من الوجود؟

اتركني أطبق منهجية تفيحة، أفشّ غيظي وأفسخ من القاموس أهم الكلمات التي أبغض: سجون، جواسيس، محاكم استثنائية، قانون طوارئ، فقر، تلوث، زعيم أوحده، مجلس الداخلية العرب، عنصرية، عبودية، تعصّب، بورصة، ليبرالية، شيوعية، وطنية، قومية، خوف، جبن، انتهازية، انتقام، أيديولوجيا، تعذيب، احتباس حراري، عواصف، حرائق، حروب أهلية، انقراض أجناس....

بربّك أليست هذه أفضل وأسهل طريقة لتنظيف العالم عوضا من برامج سياسية كاذبة، ودينية مخادعة، أثبت التاريخ عقمها بل إنها تزيد الطين بلّة.

نعم، لماذا يرفض لنا العالم هذه الطريقة غير المكلفة في تنظيفه، هو الذي يشنكي هذه الأيام من كل الآفات التي خلصته منها بجرّة قلم؟ ربّما لعلمه بتباين الرؤى بين الأدميين وخوفه من أن يقوّضوا صرحه لو أطلقوا على خزينة الكلمات وكلّ له حساب مع كلمات الآخر وأحيانا مع كلماته هو.

ربما أيضا لأن الكلمات كصرح الورق الذي تستند فيه كل ورقة على أخرى. لا تستطيع أن تسحب ورقة من هنا وهناك إلاّ وانهار الصرح بأكمله.

هذا ما يطرح علينا إشكالية ضخمة: ما الكلمات وما علاقتها بما تشير إليه وتسمي أو تصف؟

ثمة من الأدميين من يعتقد أنها مثل أوراق النقد أي مجرد علامات رمزية اتفقنا على معناها ووظيفتها لكن لو حرقناها لما تبخّر الذهب الذي يغطي قيمتها والرائد في كهوف البنوك المركزية.

ما لا ينتبهون له أن هذا المبهم الغامض (الذي يسمونه الكون، الطبيعة، الواقع، المادة) أيضا كلمة من كلمات اللغة وأنهم لا يعرّفونه إلاّ بمزيد من الكلمات. ها هم يدورون في حلقة مفرغة وعوا أولم يعوا بأننا حبيسو لغتنا مثلما نحن حبيسو حواسنا الخمس الأخرى.

المؤكد أن هذه الحاسة السادسة تلعب دورا أساسيا في بناء العالم الذي يعيش فيه كل مرتحل.

ينظر البدوي إلى الصحاري البيض فلا تسعفه لغته إلا بكلمة واحدة في أحسن الأحوال وهو لا يرى أمامه إلا شيئا واحدا على حالة يتيمة: الجليد.

يضحك مرافقي ابن تلك الفيافي: لنا أكثر من ثمانين كلمة للتعبير عن مختلف أنواع الجليد والثلج. أعابته بدوري: يوم تزور صحاري الصفرة ستقول لي كم ترى من أصناف النخل والتمر والإبل. وسأفاجئك بالعدد الهائل للأصناف التي لم ترها وهي واضحة ووضوح الشمس أمام عينيك... عفوا أمام عيني.

بشبكة العين نحن نبصر نفس الشمس، لا يختلف اثنان من ثقافات متباينة وفي كل العصور في كونها مستديرة الشكل براقعة بالنور في عزّ الظهيرة تسبح في عنان السماء نهارا وتخفي منها ليلا.

لكننا نرى عبر "شبكة" اللغة شموسا مختلفة.

كانت شمس آدمي اسمه "أخاتون" إله يُتوجه إليه بالعبادة ونفس الشمس اليوم جرم سماوي أشبه بقلبة هيدروجينية بطيئة الانفجار بالنسبة إلى آدمي آخر اسمه "اينشتاين".

مما يعني أنك لو عشت داخل عالم الأوائل أي داخل لغتهم لكنت تسمع -خاصة ليلا- حفيف أجنحة الجنّ والغاريت وأرواح الأجداد الغاضبين من نسيانهم وبخل الخلف الطالح بالقرابين والصلوات.

ذلك لأنّ الذهن ليس مرآة تنعكس عليه بفضل الحواس الخمس بعض خصائص مبهم أصلي يتجلى بنفس الكيفية لكل البشر. هو مرآة نشطة التي لا تتوقف عن معالجة معطيات الحواس تنتقي وتصنف وتسمي وتضفي المعنى والأداة دوما للغة.

أضف لهذا قدرة هذه الحاسة السادسة على خلق معطياتها الخاصة بغض النظر عما ترصده الحواس الخمس.

ألا تصيف للعالم كائنات غير حسية مثل الشياطين والملائكة والأشباح والآلهة تصبح جزءا من الحياة اليومية أي جزءا من العالم؟

من أعالي هضبة وسط غابة استوائية مترامية الأطراف ها أنا أتأمل بحيرة جبلية أعبث برميها بحصاة أتابع تكوّن الدوائر المتباعدة التي طالما أبهرتني طفلا.

بالنسبة لي هذه البحيرة الجبلية الجميلة ليست لإبحيرة جبلية جميلة ككل البحيرات الجبلية التي تأملتها في كثير من أماكن الفضاء الحسي.

لكن سكان هذه الأماكن من قبائل "المايا" كانوا يرون في هذه البحيرة باب "الشييباليا" أو المدخل إلى العالم التحتي الذي تسكنه الآلهة. لذلك كان أجدادهم يرمون من هذا العلوّ بالأطفال والعذارى قربانا لها.

كانت لهم نفس الصور التي ترسم داخل ذهني، لكن كانت لهم تصورات للمكان جدّ بعيدة عن تصوراتي له .

التصورات؟

هي طريقة فهمنا -أفرادا أو جماعات- للصور التي تنقلها لنا الحواس الخمس عن العالم ومكوناته المختلفة.

هي تنظيم معين لمعلوماتنا عنه نستقي أغلبها من الثقافة التي نشأ فيها أي من نسيج الكلمات التي تشكلها.

هي ما يتبلور شيئا فشيئا في الأذهان بحثا عن أحسن الحلول في معركة البقاء وتحسين ظروفه.

هي منطلق التفكير المجرد عندما يتقدم الذهن في تحديد معاني الكلمات بأكثر دقة. هي كل ما نعتقد، كل ما نؤمن به، كل ما نكفر به، كل ما نبتكر من فرضيات حول طبيعة العالم وأسباب وجودنا فيه أو وجوده فينا.

إنها الفكريات هذه الكائنات الحية اللامادية التي تبني وتتعدد مكونا أساسيا من هيكل العالم أسميه فضاء الأفكار.

كيف لا يكون هذا الفضاء ركيزة ثابتة لعالمنا وفيه المعتقدات التي تتحكم في طريقة عيشنا وموتنا؟

أنت طوال الرحلة كمن يشق طريقه في مدينة عائمة في الضباب، سكانها بشر من لحم ودم لكن أخطر ما يترصد بك ليست هراوات قطاع الطريق الحسي وإنما فكريات ثبتت في أصدائها أنياب قاطعة مثل الحرب المقدسة والوطنية والعدو الوراثي والكفر والخطيئة

والاستعمار والاستبداد والشعوب المختارة وكلها أفكار من صنع اللغة ، هذه الطاقة العجيبة التي يستعملها الذهن لبناء عالما وهي مثل شبكة الصياد التي تظفر بكل ما تقدر عليه من أسماك ، لكنها قادرة على إعادة تشكيل الأسماك التي علفت في حبالها بل وحتى جعل خيوطها تخلق أسماكا لم تسبح يوما في محيط.

**

سفرة في فضاء الفكريات

تأتيني ليلة فكرة لقصة ما قبل نوم البننتين لم تخطر على بال قصاص. أتوجه لتفاحة تفرك عينيها ولتفيحه وهي تجاهد للبقاء مستيقظة لتسمع بقية قصة الأميرة والساحر.

- جاءت الساحر الخبيث فكرة مسح الأميرة إلى جسم مصنوع من الحروف، الأميرة مهددة بالموت، والساحر أشهر في وجهها كلمة نار.

تفهم تفاحة اللعبة الجديدة. تصرخ: فصرخ الأمير في وجه الساحر الخبيث: مطر، مطر! تفضل تفاحة حلا آخر:

- نركب كلمة زورق لنهرب جميعا.

تصرخ تفاحة: فتأخذنا كلمة نهر.

تأتي الأوامر من الصالون بوقف الضجيج. لا أحد يحملها على محمل الجد. لا حتى صاحبها.

تصرخ البنتان: لا، لا، لن ننام حتى نغلب الساحر. ثم تتشابكان بالأيدي رقصا يفتعل العراك وعراكا يفقد الرقص. تحتد لهجة أوامر نافذة الصبر فأصبح البننتين بالحذر. تفتعلان الطاعة والصراخ المتزايد عصبية من وراء الباب يقترب. تتمددان على السرير لمواصلة القصة وشوشة وقرصا وتجادبا بالأيدي.

أغمض العينين أغفو وأستيقظ على همس البنتين والزورق السحري ينساب على نهر من الكلمات يأخذني إلى فضاء جبأله نصوص، غاباته نصوص، أنهاره نصوص ومستنقعاته نصوص.

يتصاعد التنفس البطيء من البننتين. أغوص في الأريكة مستمعا بتنفسهما ورافعا عن ذهني كل القيود، فأهم الأفكار لا تأتيني إلا ماشيا أو على تخوم النوم واليقظة.

أخيرا الفضاء العابر للزمان والمكان الذي حلمت باستكشاف كلالل ما فيه.

“هنا” جبال من الملفات التي أودعوها آلامهم نثرا وشعرا.

“هنا” معادلات نيوتن وماكسوال وديراك وبوهر وأنشتاين وهيجز وهوكنز، زبدة علومهم علومهم لا تدري هل هي فعلا ملفات الله المسروقة أم قمة الإبداع الفني عند البشر.

“هنا” قوانينهم المتركمة المتزايدة عددا وتعقيدا والتي تعكس لهم صورة محتالين، لصوص، قتلة، خونة مستغلين، زناة، مغتصبين، مرتشيين، متمعشين من الاتجار بالنساء والمخدرات والسلاح. كل هذه الجبال من التشريعات لا تعري إلا حقيقة اجرام الشعوب واجرام الدول واجرام الأحزاب واجرام البنوك واجرام الشركات واجرام العصابات واجرام الأشخاص منهم –ايه والله-رجال دين لا يرون تناقضا بين وعظ المؤمنين كل يوم

أحد واغتصاب الأطفال وراء الستار. كل هذه الجبال من التشريعات لا تفصح إلا فشل الدين والسياسة والأخلاق في إصلاح البشر... أو إن أردنا أن نكون منصفين هي شهادتهم على بذل المستطاع والإصرار على مواصلة مشروع بلا أفق.

“هنا” تواريخهم، أي رواية المنتصرين لصراعاتهم بالكذب المفصوح والتضخيم والتزوير والإسقاط والتمويه، ناهيك عن الدسّ بأشياء لم تقع أصلا. ووراء كل هذا التزييف مؤرخون يفكرون للشعوب أساطيرها الجميلة رحمةً بها أو خدمة لمصالح ممّولهم، وآخرون يفكّون بذكاء هذه الأساطير شماتة في زملائهم أو خدمة لمصالح ممّولين آخرين.

“هنا” رواق صور عظمائهم التي صنقتها دعاية محمومة متواصلة عبر العصور يسهر على ترويجها أنصار هؤلاء العظماء ومن يتمعشون من صيتهم.

“هنا” ما يسمونه مزبلة التاريخ حيث يتكدس كل الأدميين المكروهين لجرائم كبرى يُقال إنهم اقترفوها في حق بني جلدتهم وأغلب المرعيين فيها ضحايا صور نمطية معاكسة روجّها الأعداء ومن يتمعشون من تواصل العداء.

“هنا” مخططاتهم للسيطرة على عالم لا مجال للسيطرة عليه.

“هنا” حروبهم في الفكر وأكثرها تحضّر لحروبهم بالساطور والصاروخ،

“هنا” حمى الصراع بين المجلدات الدينية والمناهضة للدين في معركة يسيل فيها الحبر أنهارا.

أصخ السمع للصراخ المتصاعد من الصمت المرعب: "يا صانع أفيون الشعوب، يا عدو التقدّم، يا ظلامي، يا جاهل، يا متخلف، يا ملحد، يا عدو الله... الله من هذا أيضا؟ أنت لا تؤمن بالله! ... أو من بما أكبر... نعم ثمة إله واحد لكن يجب ألا نؤمن به... دياناتكم شهوات ومخاوف أطفال غفها بدانيون بأساطير ساذجة واستحوذ عليها كهنة خيئاء وملوك قساة لإحكام القبضة على شعوب من العبيد... وقع تجاوز كل الخطوط الحمراء، والشرف الرفيع لا يسلم إلا إذا أريق دفاعا عنه مزيد من الحبر والدم... ألا تعرف أن المختار قال كذا وكذا... قال أو قُول... أعيذوا القراءة، أسأتم فهمي واستعمال كلماتي... لا بل فهمناك جيدا وفهمنا كيف نحسن استعمالك لقضاء شؤوننا... أه يا أوباش، حقا لا نبي في قومه... ما الغرابة في الأمر ونحن خلافا للأغراب نعلم عنك كل شيء.

يجب أن أخرج من المكتبة العظمى إلى ساحات الفضاء حيث الصراع الذي يغذيها بكل ما فيها من معطيات.

أه هذه الواجهة للمقاولين القدامى الذين نمت ثروتهم عبر العصور: مؤسسات أفلاطون وأولاده، فالميكي للملاحم الفلسفية، هيرودوت دار التاريخ العريق، البيتاغوريون لعلوم الكهانة والحساب، هومير للأساطير الأزلية.

أه هذا سراقق الآلهة المكشرة وكهننتها الذين يعاملوننا كأطفال، يصرخون فينا دوما: افعلوا الخير وستكافؤون بكثير من الشوكولاتة وإن عصيتُمونا سلعنا جلودكم دنيا وأخرة. لا، شكرأ لست معنيا بمثل هذا البرنامج. هذا سراقق الأنبياء المبتسمين. لألق نظرة على الرجل

الجالس تحت شجرة الشاي يتأمل، وعلى ذلك الآخر الذي نزل لتوّه من ظهر الثور ليسلمنا
أثمن الكنوز قبل الاختفاء في الضباب. كم مؤسف أنهما هما أيضا يبيعان نفس البضاعة،
الفرق بينهما وبين كهنة الآلهة المكشرة أنهما أكثر لياقة مع الزبائن واحتراما لذكائهم.
هذا سرادق ديمقريط وبروتاغوراس وبيقور وإبيكتت وكل من أحب من الفلاسفة الذين لا
يحبون ولا يحبهم أفلاطون. هم أيضا يريدونني خيّرًا وحكيما ومعتدلا وعاقلا وصبورًا
ونافعا! لماذا يصرون كلهم على أن أضيع وقتنا ثمينا في مهمة بعبثية استئصال جزء من
ذاتي ولو كان حقا الأظلم؟ هل جنت لهذا العالم، للصراع مع جزء من ذاتي كأن الصراع
مع الذوات الأخرى لا يكفي؟

نعم إنها نفس البضاعة البائنة على مرّ العصور... كلهم يريدون من الأدمي أن يصبح
خييرا والشّر جزء لا يتجزأ من الذات... يريدونه في صراع متواصل مع هذا الجزء من ذاته
كأن الصراع مع الذوات الأخرى لا يكفي وجعا... يريدونه سعيدا كما لو كان هناك معنى
للسعادة دون وجود الشقاء... يريدونه ثابتا على حالة اسمها الساتوري أو النيرفانا أو الحكمة
والحال أنه لا شيء في هذا العالم يثبت على حال... هكذا ارتطمت تعاليمهم بالواقع العنيد
لتنتهي طقوسا يتعيش منها المخادع وأوهاما يعيش بها المخدوع.
القاعدة أن جلّ الساهرين على تغذية الفضاء أو القائمين على حراسة ما فيه من منتجات
متوترون يصرخون في وجوه بعض البعض يتهمون الغير بالتحيل على المستهلكين
المساكين بل ويصرخون في وجهك إنك إن لم تنتبضع عندهم فالويل لك والثبور.
لا غرابة في الأمر والكائنات اللامادية الحية التي أسميها الفكريات والتي تتولد من عقولهم
بحاجة مثل الفطريات والنباتات والحيوانات للدفاع عن وجودها وتوسيع مجالها الحيوي وإلا
فإن فكريات قاتلة تتربص بها لن ترحمها.

يتعالى من حولي صراخ الباعة يتغنون بالمنتوج الجديد والكُلّ يحاول استغلال جهل
المستهلك وجوعه لغذاء الفكر والروح: من هنا الصورة الصحيحة للعالم... تخفيض هامّ
لدين الخلاص الحقيقي... الفلسفة الصافية غير المغشوشة... طازج، علم نفس طازج، الوحيد
الطازج الخارج لتوّه من الفرن... آخر وصفات الخلاص الفردي والجماعي، مسكين من
لا يشترى بمثل ضماناتنا... من هنا الردود الجديّة على الأسئلة اللعينة... لا غشّ عندنا في
الأمر مثلما يفعل الآخرون!

يقرب أحد الباعة هامسا في أذني: لا تتبع أي من هؤلاء الدجالين، تعال، من هنا الصراط
المستقيم.

لم لا أتبعه؟ قد أعرّأ أخيرا على ما بحثتُ عنه منذ إفاقتي؟ مؤكّد أن الأزقة الخلفية تعجّ
بمزوّري النصوص وبمهبّبيها لكنني قد أجد فيها أشدّ من تشنّوق لهم نفسي. قد أسقط
بالصدفة على طور انطيوخس ولوحاته التي دمّرت أيادٍ مجهولة جُلّها لأن الرجل كان يتبجح
بأن أروع ما رسم كان يهدّي وتوفيق من الشيطان.

أه لو أمكنني ملاقة الإخوان الذين كتبوا الإحدى وخمسين رسالة والدردشة مع أكبرهم - ذلك الذي كتب الرسالة الجامعة-أطلب منه استعمال عنوانها وإن رفض أسببه وأخبره أنني سأختم به نصّي أذن أو لم يأذن.

هل سيسعفني الحظّ بالارتطام بمؤلف ألف ليلة وليلة؟ أمر مشكوك فيه والرجل -اللهم إلا إذا كان امرأة-تديّر(ت) أمره(ها) للإفلات من كل الذين حاولوا إمطة اللثام عن هويته(ها).
كتاب يركضون طيلة حياتهم التعيسة جريا وراء الشهرة، وآخرون يهربون منها كما لو كانت الطاعون ممزوجا بالجدام !!!

قد الأقي صاحب مخطوطة "فوينينش". كم قضّى من ليالٍ لكتابة نص يسخر من نفسه ومن كل الذين سيستميتون سنة قرون لفك رموز لغة لم يكتبها ولم يتكلّم بها بشر.
نصوص لم تر النور أو لم تُكتب أصلا أو كُتبت عمدا بلغة غير موجودة لأن أصحابها شعروا أن هناك حقائق يجب أن تبقى مخفية!

هل من الممكن أنّ كل هذا الفضاء الفائض بكل هذه الثرثرة مجرد قمة جبل الجليد، أما المخفي منه فهو الذي ينغلق إلى الأبد على المشاعر والأفكار التي يرفض الادميون الإفصاح عنها ويمنعونها من التبلور حتى على تخوم الوعي! هل الأمر لاكتشافهم الفراغ المظلم وراء كل نور؟ أم لرعيهم من مصير الفراش الطائش إن اقتربوا منه كثيرا؟

مؤكد أن أهم " أماكن " هذا الفضاء ورشات انتاج الفكريات والمحرك ما يطرحه العالم على الأدمي من تحديات تترجم في ذهنه لسيل من الأسئلة: هل نحن حيوانات أفرزتها قوة عمياء اسمها "الطبيعة" أم كائنات نورانية خلقها إله لم تخلقه قصصنا؟ هل رمت بنا الصدفة العمياء في مجاهل هذا العالم؟ هل نحن تائهون في محيط اسمه "الكون" ننتظر بعثة إنقاذ لم نسمع بغرقنا ولا تعرف عنوان الجزيرة التي لجأنا إليها؟ هل نحن مستكشفون بعثتنا العتمة في مهمة بالغة الخطورة؟ لماذا نتقدّم في ربوع العالم ونحن كمن يمشي في نفق مظلم بيده شمعة، نوسّع دائرة النور ولا نهاية للظلام المحيط بنا؟ لماذا نعاني من صعوبة الوصول وصعوبة العيش وصعوبة الرحيل؟ لماذا يبقى أبو الهول صامتا لا ينطق عبر الدهور؟ ولماذا نصرّ نحن على أن ننطقه ولا نظفر منه إلا بصدى صوتنا؟

على الغموض كنه الدهر (عمر الخيام)

لا يوجد في الدرب دليل هاد

كلّ متمسك بفرع واه

والدهر على نظامه المعتاد"

فجأة أسمع البنتان تصرخان بالاحتجاج:

- "يا"، لا نتلكأ، لنزاحم. يجب أن نبيع نحن أيضا بضاعتنا.

ماذا؟ أنا أيضا واحد من الباعة ولم أنتبه! إنّها حقا لمغامرة أن تجد في هذه السوق موقع قدم لعربتك المحمّلة ببضائعك التي لم يسمع بها شار أو سمسار، يحدوك -مع هذا-أمل كل

المبتدئين أن تتحسن الأحوال يوماً فتفتح لك دكاناً صغيراً ثم أول مساحة كبرى عندما تتحسن أكثر، ولم لا أن تصبح أنت أيضاً من كبار مقاولي الفضاء.

نعم، لأزاحم أنا أيضاً لعرض أحسححسن الأجوية عن أسئلة لا يهم أن تكون فاسدة الصياغة أصلاً. ها أنا أدفع عربتي الصغيرة، أصبح مغتياً أو أغني صائحاً: "الرحلة"، "الرحلة"، كل من يشتري نسخة نعطيه مجاناً "المدخل إلى الطب" شرط ألا يستعمله للفت السمك.

تنخرط البنات بسرعة في اللعبة الجديدة، لكن عوض أن تصرخا: من لم يقرأ رحلة "با" مات غيباً، ها هي تفاحة تغني: تعالوا، اسمعوا قصة بينوكيو ترويها لكم أحسن رواية، طبيعي، فلا أحد من هؤلاء الأدميين الملعين يحرك عضلة إلا لحسابه الخاص. أما ما يدعونه من أثره وعمل لوجه "با" أو الله أو الوطن أو الإنسانية فمقايسة تجارية يخرجون منها إذا لم تغط المكاسب ثم تحريك العضلة أنفة الذكر.

كل هذا الضجيج ولا مشتر أغشه. إن بارت البضاعة فما علي إلا تركها للفنران.

فجأة أشعر بتفاحة تهزني من كتفي.

- "با" ارتفع شخيرك. نمت ولم تسمع قصتي. لن أروي لك ولهذه الغيبة نهايتها.

- نعم، نعم، لكن رجاء في الحلم المقبل اهتمي أكثر بمصالحنا أنا أيتها البنت الأنانية

**

الفضاء المبارك من بين كل الفضاءات

يصرخ "با" في إحدى ملفات الذاكرة: ولدك هذا سيذهب بعقلي، يا امرأة، أهكذا تربيين أطفالي؟! متوجّها إليّ بلهجة فيها من المرح ما فيها من الاستهجان والغضب، قلتُ لك: اخرج من وكرك.

الوكر! غرفة مظلمة من البيت البائس تكدّس "ما" في طرف منها مهملات البيت، وفي طرفها الآخر يكدّس "با" ما كان يجمع على طول الطريق من جرائد ومجلات وكتب، يضعها في الأماكن الواضحة للطفل كالطعم للفأر.

كانت أولى محطات الإقلاع التي وجد فيها الطفل المفتاح والباب والطريق لفضاء سحري أصبح له الملجأ المفضل.

حتى أعصاب "ما" قادرة على التوتّر.

- كفى الآن. قلت لك لا مجال لأخذ الكتاب معك. لا، لن يمزقه أخوك، فهو في عهدتي. هيا، إلى المدرسة، وتأدب مع المعلم، قل له: سيدي، أطعه... إلخ.

يستشيط المعلم غضبا وهو ينتبه لما يفعل الطفل وراء ظهره:

- تعتقد أنني لا أراك. الكتاب مُصادر. أنذرتك أكثر من مرّة. أغلق هذا الكتاب اللعين واهذب إلى الركن.

يغلق الطفل الكتاب مُكرها، يواصل ووجهه إلى الحائط تخيّل أحداث القصة التي يتأمر كل من حوله لمنعه من اتمامها.

تندافع في ذهنه المناظر والكائنات والأحداث عن بلاد اسمها الهند لا يعرف عنها شيئا. ولأنه لا يعرف عنها شيئا فإنه سيضعها تارة في الشرق وتارة في الغرب، يملأ أرضها مرّة بغابات الزيتون وأخرى بغابات النخيل. لم تكن لديه أدنى فكرة عن القصور التي تتحدّث عنها القصة ولو أنه كان قادرا على أن يبني داخل ذهنه قلاعاً تصل إلى السحاب ومآذنها الشمس والقمر، تغلق ليلا أبوابها في وجه جحافل الجنّ والعفاريت، لا يفتحها إلا بطل وحده من يعرف كلمة السرّ.

يلوذ الطفل أخيرا بفرأشه منتفّسا الصعداء استعاد كتابه من قبضة المعلم.

يرتفع صوت "ما"، وفيه الآن بعض نفاذ للصبر:

- يا بني، هل تريد أن أقتلع منك الكتاب بالقوّة. إلى النوم. حالا.

عبثاً، لن تمنعه حتى "ما" من مواصلة القراءة لمعرفة إلى أين تقود وكيف تنتهي

القصة التي استحوذت على لُبّه.

إنها عن أمير اسمه "راما" رحل مع زوجته "سيتا" وأخيه "لاشكمنّا" إلى عمق الغابات بعد أن أجبرت الملكة الشريرة زوجها على نفي ربيبتها هذا ليخلو العرش لابنها هي. وفي "لانكا" تبكي "سيتا" قومها ووطنها، لا تخفي رُعبها من غابة يسكنها عتاة الشياطين.

“سيتا!” “سيتا!” “خطفوا” “سيتا”، خطفها “رافانا” اللعين!

إنه أول امتحان للطفل وقد تَقَمَّصَ الدور. نعم، هو الذي سيحرّر الفضيلة ويعيد المُلكَ إلى صاحبه والأمورَ إلى نصابها والعالمَ إلى توازنه المفقود.

- “ما”، أرجوك. لا بدّ أن أنهي الفصل الأوّل على الأقلّ، أرجوك.

- طيّب، لكن قل لي، ماذا تفعل؟ رأيك تقبّل الكتاب!

يصمت الطفل، لا يريد الاعتراف لأمه أنّه واثق أنّ قبلاّته عبرت حاجز الورق وتسلت بين السطور لتصل حبيبة الفؤاد. آه يا سيتا، يا “جاناكي”، يا ضفائر سودا على الظهر تدلّت، يا عيون المها، يا بسمّة الحياء والخجل، يا رقة الفجر، يا وداعة، يا طُهرًا، يا ملاكا على الأرض مَشَى. يا أوّل حبّ.

- كفى الآن. أعطيتك كل الوقت. أغلق الكتاب. ساطفئ النور حالا.

أنام وأترك سيتا في أسرها! إنّ “ما” لا تعي ما تقول. ألا تعلم أنّ الشيطان رافانا يطير بعربته الفضائية نحو جزيرة لانكا، وسيتا ملقاة على خشبها مكّمة الفم، معصوبة العينين والحبلى يقبّد يديها الرقيقتين. اللعنة عليك يا رافانا. اضحك وقهقهه وتوهم ما شئت. سأتيك بالخبر اليقين.

- يا بني، الكتاب لن يهرّب وهناك بعد اليوم يوم جديد.

كيف؟ أغلق الكتاب الآن وسيتا في خطر الموت، ربّما تنتهدها أشياء أخرى أفضع بكثير؟ لا تقدر “ما” كم هي حرجة هذه اللحظة.

- يا بني، أنت لا ترى جيّدًا، والقراءة باللّيل تتعب عينيك، ولا بدّ لك من النوم.

- إذا كان النوم عزيزًا عليك فلماذا لا تذهبين أنت لتنامي؟

- لا تكن سليلت اللسان حتى مع أمك. أتريد أن أمضي الليل بأكمله أترجّاك؟

لم يكن الطفل في عمر يسمح له بفهم ما هو بصدده، ولم تكن “ما” تفهم أحسن منه. هل كانت تقبل برأي حكيم يسرّ في أذنها وهي تلاحظ انسحاب الطفل التدريجي من “واقعها”؟ لا تقفقي، هو لا يلعب، لا يضيّع وقتًا، لا ينهك عقله، إنّما يتمرّن ويتعلّم أهمّ ما يجب تعلّمه. اتركه، على كل حال هو لن يسمع كلامك.

يفتعل الطفل الطاعة فيطفئ النور. لن تكتشف الأم إلا بعد سنوات طويلة كم كان طفلها البريء ماكرا ككلّ “الأبرياء”، وهم من نجحوا، أحسن من غيرهم، في إخفاء ما بهم من مكر وخبث. كانت تظنّه نائمًا وهو يواصل تحت البطانية القراءة بمصباح جيب كهربائي صغير كان يخبئنه لمثل هذه الطوارئ.

تندلع المعركة في فضاء داخل ذهنه والطفل المخرج والمنتج والممثل المتصرف في السيناريو على هواه.

ينفخ رافانا على نار البراكين فأغدو ماءً يطفئ كلّ لهب. يرميني بالقمر فأرجمه بالشمس. يصرخ في أذني محاولاً إرهابي، أصرخ فيه فتصطك فرائصه. ينطلق هاربا نحو النجوم فأسبقه إليها، أضيقّ عليه الخناق في كل مجرّة. تكثّر السماء عن أنيابها وقد توسّطتها شمسٌ

بلون القطران. تخرج من بطن السحاب خفافيش بحجم الفيلة تهاجم البطل من الخلف، فيصوّب نحوها السهام القاتلة دون الالتفات حتى. يرنّ في الفضاء البعيد صدَى موسيقى آلة نافخة موجودة في الكتب المصوّرة الناطقة بلغة مسيو فيدال. إنّها فرقة خيالة الولايات المتحدة قد ضلّت طريقها وخرجت من قصص الهنود الحمر لتصل في الوقت المناسب لإنقاذ بطل يحارب بشجاعة قلّ نظيرها سحر شيطان هندي، لكنه هندي من الهنود الحقيقيين وليس من أولئك المكذوب عليهم بهذا الاسم.

أن الأوان لتصفية الحسابات وإغلاق هذا الملف، فليس هناك رافانا واحد أظهر منه العالم الموبوء بكل أصناف الشياطين. أرفع ذراعي بالرمح السحري أصوّبه نحو قلبه ثم أرميه به بدقّة وقوة لا تتركان إمكانية النجاة لجنّ أو أنس.

يصرخ اللعين: أه يا راما، قتلنتي لكنه شرف عظيم أن يكون الموت على يديك. يسقط الشيطان مضرجاً بدمه الأخضر. أضع رجلي على صدره مبتسماً مديراً رأسي يميناً وشمالاً أبحث عن المصوّرين ونظرات إعجاب البنات. أخرج رمحي من صدر الشيطان النافق بكثير من البطء المدروس، أرفعه نحو الأعلى، ثم أطلق صرخة النصر كما يفعل طرزان في قصص لمسيو فيدال. أووووووه ... أنا راما... أنا سيّد الأسياد!!!

بالمناسبة، ماذا عليه أن يفعل بالحبيبة وقد نجاها من الموت ومما هو أفضح من الموت؟ يا للطفل المسكين! لا يعرف، وهو في هذا العمر، أنّه لم يقرأ إلا الجزء الجميل من الملحمة، وأنهم أخفوا عنه بقيتها المظلمة، لأن قصص الأدميين مصنوعة من أنصاف الحقائق، والباقي أحداث من الأحسن ألا تضع أنفك فيها وإلا صدمتك رائحتها النتنة.

لم يكن الطفل واعياً تلك الليلة المشهودة أنه دخل لأول مرة فضاء خيال أمة بأكملها وُلد هو نفسه من فضاء خيال شاعر عبقرى اسمه فالميكي، أنه سيقضي جُلّ رحلته يتجوّل في فضاءات خيال كم من شعوب وكم من أفراد فهموا أن هذا عالم جِلّ واقعه خيال وجِلّ خياله واقع.

*

يكتشف الطفل يوماً بوابة ثانية غير الكتاب لولوج الفضاء السحري. يتوجّه المعلم إلى أطفال الفصل وكلهم ذكور في العاشرة من العمر: - يوم الأحد المقبل سنذهب جميعاً لمشاهدة عرض خاص بكم. كونوا في الموعد أمام قاعة سينما اسمها "الشرقية".

ها هو يدفع بالمناكب لدخول أول قاعة مظلمة في حياته لا فكرة له عمّا يوجد داخلها. من أين لطفل في هذا العمر التنبؤ بما سيخرج ذلك اليوم من قبعة مهرج ضخم اسمه "العالم" لا ينفكّ يُظهر عضلاته ليزداد به الأدمي تعلقاً وإعجاباً! يسارع لاحتلال مقعد قريب من ستار أحمر يغطّي حائطاً شاهقاً تتجه إليه الأنظار توجّه المصلّين للمحراب.

يذهل أمام انطفاء الأنوار تدريجيًا وغرق القاعة في الظلام. يتعالى صراخ للصبية، لا ينفج فيه صراخ المعلمين طلبًا بالهدوء والصمت.

أين متعة الفوضى والمشاجرات اللذيذة التي كانت تعجّ بها قاعات السينما في تلك العصور الغابرة؟ يوم فُرض الصمت فيها هجرها كبار الأطفال وصغارهم للصياح ملء حناجرهم في الملاعب والمقاهي وبيوت الأصدقاء.

يتحرّك الستار ولا يد واضحة تحركه، يواجه الطفل المشدوه بحائط شاهق مُغطّي من أقصاه إلى أقصاه بقطعة قماش أبيض. تأتيه أفكار مضطربة عن آدميين من لحم ودم سيخرجون من الحائط لرواية قصة كالتّي يقرأ في الكتب.

يا لدهشته وهو يرى فجأة مناظر لحقول وجبال تخرج من اللاشيء ثم لأدميين يثبون هم أيضا من العدم. من أين برزت هذه العفاريث، وهل للخيل أيضا أشباحها؟ يتعالى صياح التّعجب. هل ثمة ألد من الصياح جماعة؟ يشارك الطفل في الفوضى المثيرة بالرقص فوق المقعد والصراخ، لأنّه لا يفوت فرصة كهذه لينفّس عن كل الحيوية المكبوتة فيه ولأنّها العدوى.

تتوقّف الصرخةُ فجأةُ قلقٌ مبهم، هل سيثب الفرسان من الحائط إلى وسط القاعة ليجد نفسه تحت سنابك الخيل؟ ترفع الفكرة أليا ذراعين يحمي بهما الرأس من الدهس. يعاوده الذهول وهو يرى الفرسان يَمرون أمامه، أو فوقه، وفي كل الأحوال بعيدا عنه، لا ينثرون غبارا ولا يجرحون أحدا. تأتيه الأوامر والشنائم بالجلوس حتّى يتمكّن الواقفون ورائه من مشاهدة المعجزة. من أين له الجلوس وهو لا يكاد يرى والأغبياء الذين أمامه يمنعونه من التركيز، وقد انتبه إلى أنّ ترابط الصور المتلاحقة يجعل منها قصة.

هو الآن منهمك في متابعة آدمي ترجّل عن ظهر الجواد مسرعا للاختباء خلف الصخور شاهرا قطعة من الحديد يتعرّف عليها كل الأطفال. يصل الصخب ذروته وهم يتّبهن الفارس المختبئ ورائ الصخرة أن يحترز من عدوّ يأتيه من الخلف ومن أعداء يرفعون في وجهه رماحا وسواطير. ينطلق من فوهة المسدّس ضجيج مدوّ فيسقط الفرسان الواحد تلو الآخر. يكاد الطفل يشعر بألم ارتطام الأجسام بالأرض الصلبة وبرعب الخيل وهي تحتضر. أيّ أهمية للألام بالوكالة؟ هو شعوف، متحمّس، جذلان، ومنغمس في الأحداث، جزء منها، وفاعل نشط ينبّه الطريدة لحيل الصيد والصيد لحيل الطريدة. كأنّ غرائز قديمة قديم العالم تحرّكت داخل قطعان من الكواسر الصغيرة، أو كأنّ رائحة دم آتية من أعماق كلّ ذات عبقت في القاعة تذكّر الأدميين بحلاوة القتل. ها هم يقتلون مع القتل ويذودون عن حياتهم إلى آخر نفس مع المهذّدين بالقتل.

لا شك أنّ "ما" لاحظت ذلك اليوم غرابة جديدة في طفلها. من أين لها أن تفهم سرّ مشيئة جديدة وهي لا ترى حصانا أبيض كان أول غنيمة له من الفضاء السحري؟ من أين لها أن تفهم سرّ بريق عينيه وهي لا تسمع صراخ فرسان في ركض وهلع يفرون من كُرّ طفل مغوار يُعمل في أعداء أبيه ساطوره ورمحه وسيفه المهنّد؟

تستولي على عقل الطفل أسئلة جديدة لا تقل غرابة عن التي يرهق بها نفسه ومَن حوله: أين البشر والخيال الذين رأهم على جدار القاعة المظلمة؟ مَن الغيبي، هو أم هذا الذي يقول إن الكائنات التي رأها بأمّ عينيه مجرد صور محبوسة في علبة؟ كيف يمكن لصور أن توجد داخل علبة وأن تبرز على الحائط بمثل ذلك الحضور؟ لا بدّ من العودة إلى القاعة المظلمة للبحث في هذه القضية.

إدمان جديد يضاف لإدمان الكتب.

أيّ طريقة لإرضائه غير التكتّم والخداع، فـ“ما” مصرّة على التشدّد في رفضها لحصص السينما وكلها سوء ظنّ في مكان يعرض -على ما كانت تسمع- قصص نساء سافرات متبرّجات وعنف وقتل. كل ما تكره، كل ما يحبّ.

يتواصل استكشاف الفضاء العجيب من الباب الجديد، والطفل يجهل أنه كالفضاء الحسي، كفضاء الأفكار، زاخر بما لا يتصوّره عقله، والآدمية لا تكفّ عن دفع حدوده إلى أبعد فأبعد، واضعة فيه كلّ أحلامها وكوابيسها.

يتهاشم الأطفال بأنّ القاعة المظلمة للمدينة الصغيرة تعرض هذا الأحد قصة عفريت اسمه “دراكولا” يخرج من قبره عند منتصف الليل ولا يعود إليه إلا عند طلوع الفجر، بعد أن يتفقد من لهم أعناق جميلة وشرابين فيها دم ساخن لذيد يحب كثيرا شربه.

يهرع الطفل إلى القاعة المظلمة مرّة أخرى متناسيا أنه كذب على أمه بخصوص المكان الذي سيقضي فيه الصبيحة، بل ومعه أخوه الصغير الذي أصبح أستاذا له في الإدمان على الأفلام والكتب والكذب على “ما”.

يحتلّ مقعده المفضّل بالقرب من الشاشة طاردا من سبقه إليه ليفسح المكان لأخيه، غير مبال باحتجاج طفل أصغر منه أجبر على الانسحاب وهو يزفر من الغيظ. أخيرا، سيستطيع أن يقابل واحدا من هذه العفاريث التي كثيرا ما تأتيه في المنام. ربما يكون دراكولا هذا هو “العبيثة” التي ما زالت الجدة تهدّه بها رغم تقدمه في العمر وتزايد شكه في وجودها. لا بدّ من الاعتراف هنا أنّنا كائنات غريبة الأطوار نريد الشيء ونقيضه، نجري وراء ما نفعل الهروب منه، والحدود بين ما نحبّ ونكره متحرّكة لا تخضع حركتها لمنطق أو قانون.

ينتهي العرض ويخرج الطفل مع أخيه من القاعة يفتعل اللامبالاة والاستهزاء بخوف بقية الأطفال.

المشكلة الآن ماذا سيقول لـ“ما” بخصوص أين كانا، وسبب ارتعاش الصغير، ورفضهما العنيد عند مجيء الليل الخلود إلى النوم رغم ما بهما من إرهاق واضح وضوح أنياب حمراء تقطر دما في فكّ كائن لا يراه إلا هما.

يحلّ الأخ الصغير مشكلته بالتسلّل إلى فراش “ما”. لكن هل يعقل أن يلتجئ نائب رئيس العائلة إلى ذراعي الأمّ كما يفعل الصغار؟ يجب، انصياعا للأمر الأبوي الصارم التحلّي بالشجاعة، أو على الأقلّ افتعالها.

لا مناص من الذهاب إلى الفراش وتنظيم وسائل الدفاع المتاحة. ثمة قراءة بالفاتحة. لكن دراكولا عفريت كافر أجنبي لا يخشى إله "ما" ولا يفهم لغتها، لذلك لا يمكن أن تشكل الفاتحة رادعا له.

هناك إمكانية رسم الصليب كما تفعل البطلة. خيانة إله الآباء والأجداد والاستنجاد بخدمات إله أجنبي؟! ماذا ستقول "ما" لو اكتشفت الصليب على باب غرفة طفلها وأنه أصبح نصرانيا؟

لم يبق سوى حلّ الثوم لأنّ العفريت يخاف، لأسباب يعرفها هو وحده، من الثوم. أين تضع "ما" ثومها المنقذ؟ لكن ماذا لو دخلت المطبخ في قمة القلق والصحون تتساقط على الأرض؟ بماذا سيرد طفلها وهي تضبطه حافيا في الظلام ويذاه منغلقتان بقوة على فصّ من الثوم؟

يغمض الإرهاق جفنين أضناهما أرق متوجّس. يستطيع العفريت الآن أن يتمطى في تابوته المبطّن بالدمقس الأحمر. يتحرّك غطاء القبر ببطء شديد. يستعيد القمر بالله، ترتجف الأشجار فِرقا وتنبّرأ اليوم من التمرد على مشيئة رفضت دوما طلب الخلود للأدمي. ينطلق الكائن من قبره باحثا عن عنق أملس تفتح فيه أنيابه شلّالا من اللبن الأحمر الضروري لبقاء العفاريت.

اللعة، لماذا يترك دراكولا أطفال قارته، وكلهم تحت دّمته، ليقصد طفلا من قارة أخرى لم يمسه بسوء وفتّس عبثا في الظلام عن الثوم فلم يجده ومنعه كبرياء في غير محلّه من رسم شارة الصليب على باب غرفته؟

القاعدة في هذه الحياة أنّ الخوف من خطر ليس دّفعا له إنّما دلّه على أقصر طريق إليك وأتّك لا تهرب من شيء إلا ولحقك يوما.

هكذا وجد دراكولا منفذا إلى طفل يهبّ صارخا والبول –لا الدم- قد أغرق الفراش. ما كان هذا الطفل عاجزا عن فهمه جملة الرسائل المتضاربة للأسطورة منها أن الأدمي يرفض رفضا قاطعا مغادرة العالم وأهواله وأنه مقرّر العزم على العودة إليه يوم يطرد من وليمة الحياة غير مترجع أمام أي موبقة ولو كانت سرقة نصيب الآخرين من الحياة. ثمة أيضا تصور العالم كمغارة مظلمة نحن داخلها خفافيش تعيش على امتصاص دم بعضها البعض.

لكن ماذا لو كانت اسطورة دراكولا تذهب إلى أبعد من هذا وهي تقول بشرعية فتح القبور ليلا لاستلال قلوب الموتى وقطع رؤوسهم لا خوفا من عودتهم لمصّ الدماء وإنما رحمة بهم وقد كفتهم مرة واحدة عقوبة الحياة.

*

شيئا فشيئا يكتشف الطفل قدرته على أن يخلق داخله كل ما يريد من أفلام لا بطل فيها غيره.

ها هو يخلع نظارات لا حاجة له بها وقد أصبحت له عيون النسر. يرتدي قفازه مُحكما الخوذة الحديدية فوق رأسه متسلقا بسرعةٍ سَلَمِ الطائرة النفاثة. يأتيه الأمر من برج المراقبة بالإقلاع مع أطيب التمنيات بنجاح المهمة. تركب الذات مطية الرعد والبرق. ينطلق البطل إلى أعالي السماء وسط دويّ المحركات. وهناك على مشارف الحدود العليا للفضاء المعروف يواجه لمعان الشمس فلا يرفّ له جفن، وإنما الشمس هي التي تغض الطرف. يُخرج يده يلمس برفق قطعان السحاب المتدافعة يباركها ويتبرّك بها.

- من طائرة الاستكشاف إلى قرط - حدث. منطقة الغرق تحت سحاب كثيف. لا أرى شيئا. سأعيد المرور من فوق المنطقة مرّة ثانية. الآن أرى بوضوح الباخرة الشراعية وحنون متشبّث بصواريخها المكسورة. الأمواج بعلوّ الجبال، لكن الإنقاذ ممكن.

تستعيد الذات التي توشك على الغرق الأمل وهي تسمع دويّ الآلة الطائرة فوقها. يشعر الطفل المتهوّر بأنّه أنقذ مرة أخرى، أنّه ما زالت للرحلة بقية من الطريق. تنزل المظلة بمعدّاتها فوق القارب بالضبط فيتلقفها المغامر الفينيقي بشراة وكله امتنان لبعل ولدعوات "ما" وللطيّار الهمام.

- من طائرة الاستكشاف إلى قرط حدث. التقط حنون المعدّات وتمّ الاتصال به بواسطة الجهاز الموجود في صندوق الإغاثة. هو بخير ويشكركم.

- تهانينا بنجاح المأمورية. العودة حالا إلى القاعدة فهناك مهمّة أخرى بانتظارك. يخرج الطفل منتصرا كالعادة ببركة الفضاء المبارك من بين كل الفضاءات، حيث لا مشكلة فيه إلا وتوفّرت لحلّها آلاف الحلول تنتقي منها ما يرضيك وما يشرفها رضاك.

يواصل الأدمي الصغير الضائع في شخصياته المتعدّدة التنقل من أمواج المحيط إلى أعالي السماء يفتح مجاهل البرّ والبحر. مرّة يقود بيّد ثابتة غوّاصته تحت جليد المحيط. مرّة يحطّ بصاروخه الصغير على كوكب مجهول. مرّة يدخل فوهة البركان بثياب تلحسها النار ولا تقضمها. مرّة ينزل أعمق المغارات يقتل الساحر والثور ويصل مظفرا صرّة الأرض. مرّة يقتحم الغابات الكثيفة باحثا عن نبتة يتيمة يصنع منها الكسير الخلود.

على فكرة كم لنا من أنا؟ الأنا للمعروض للخداع أو للإيهار، الأنا المخفي عن الأنظار، الأنا الذي يعيش بعض قصته في فضاء الحواس، الأنا الذي يعيش أهمّ فصولها في فضاء الخيال، الأنا الذي يرحل ليلا ليعيش في عالم الأحلام، الأنا الذي سيسكن فضاء ذاكرة الأحياء عند الموت. أليس من الأصحّ أن يكتب كل واحد منا من هنا فصاعدا أمام كل فعل نحن، وليفسّر البعض هذا بجنون العظمة.

تمرّ السنين. شيئا فشيئا يتغير ما بداخل الجسم وتحضر مع التغيير أحلام المرحلة الجديدة من الرحلة.

تنتبث يوما للطفل بداية لحية وتتفجر داخله حيوية غريبة تعذبه بحاجيات مبهمة.

كفى من المعارك مع الشياطين واشباح الخصوم من أطفال وكهول.

تهمس بغنج ودلال ذات محبة محبوبة بدأت تتشكل من ملامح سينا وبنت الجيران: الحب أجمل من الحرب.

يقهقه صانع الأحلام الخفي ومحقق كل الرغبات: عد إلى معاركك، أنت تستبقي الأحداث. يشعر المراهق بنار تلتهب داخل الجسم والروح. يواصل الصوت الساخر تهكمه: يا عبيط، لا تستعجل مشاكل لا قيل لك بتصوّر متاعبها.

تُرفع حواجز الحياء والحرص. تزداد الطلبات شططا، فالكنز لا ينضب والحارس لا يتوقف عن تشجيع اللصوص.

يهمس الصوت الساخر:

ليطمئن سيدي، كل ما يريد من الأربعة الكبار تحت الذمة. بالكم والكيف الذي يأمر. الأربعة الكبار؟ كل ما تحلم به الأغلبية الساحقة من الأدميين: الجنس، المال، الشهرة والسلطة. ها قد انقلب فضاء الخيال إلى ماخور خمسة نجوم، على ذمة زبونه الوحيد ألف ليلة وليلة ولا خوف فيه من قمل العانة وحرقة البول وفيروس السيدا.

تمرّ المراهقة لتدخل الرحلة مرحلة اسمها الشباب ومعه تشهد أحلام اليقظة تغييرا جذريا. يصدر الكتاب الأزرق في آخر طبعة مزينة ومنقحة وفيه كل الأجوبة على كل هواجس كل آدمي. يخرج به الشاب إلى أهل أورفليس بشيرا ونذيرا. ما يزال المسكين جاهلا بقانون أنه "لا نبي في قومه" وأن تسمير النبي على الخشبة هو المدخل الإجباري لعبادة كلماته يوما... هذا إذا كانت ورقته هي الرابحة في اليانصيب لأن السوق زاخرة بالمتقدمين لأقدم المهام، والنجاح فيها أصعب من المشي على الماء.

يُجبر السيناريو السرمدى نبينا المبتدئ على الهرب من المدينة الفاسقة، خاصة بعد أن صدرت بطاقة تفتيش في حقه وأعدت له الخشبة والمسامير وعُين الجلاد الذي لا بد من المرور إجباريا بين يديه مرور العروس بين يدي الحلاق. يلقي البطل آخر نظرة على حيطان المدينة الشاهقة وهو ما يزال بين رغبة تدمير وكر الرذائل وبين إنقاذ الضالين. يغيب المصطفى عن الأنظار وتوابع حواريه يرنّ في الأذن. آخر فكرة تعبر ذهنه قبل أن يغيبوا كلهم عن الأنظار هي: أما كان عليه أن يترك لهم رقم حسابه الجاري لتحويل حقوق التأليف؟ لا فائدة والكتاب سيفشل تجاريا كالعادة، خاصة والمصطفى عاجز عن دفع مصاريف مُحقق صحفي يروّجه. يبقى الإنجيل الجديد قرونا في الأدراج المهملة، وعلى طاولات المعارض للكتب البائرة، إلى أن يتعلم الخنازير اكتشاف الدرر التي نُثرت عليهم بكل كرم ولم يلتفتوا إليها. يخرج الكتاب الأزرق أخيرا من المطابع السرية لحزب التمرد الأزلي. تتدافع جحافل المناضلين والمناضلات لتوزيعه ليلا على أكواخ المعدّيين في الأرض، غير عابئة بمن يسقط منهم في براثن البوليس السياسي. لا يلبث أن ينتشر في الأرض كالنار في غابات الصيف الحارق، فلا يطلع على القوم ثائر إلا والكتاب في يده، لا يدخل الرجل على امرأته إلا ويده على أقدس الكتب، لا تفتح المرأة فخذيتها للولادة إلا

وتتمتع ببعض عباراته، لا يأتي الصرع طفلاً إلا وسارعوا إليه بتمام مأخوذة من جُملة المباركة.

وفي مثل هذه القصة التي تكررت على مرّ التاريخ في ألف إخراج، يكتشف الطغاة أنه من الأجدى تفويض الكتاب الأزرق بدل محاربتة، فلا أسهل من تضليل الناس بكتاب فيه وعود. ها قد داهم خريف الحياة الأدمي المسكين فإذا بالذات المثخنة جراحا تلبس شكل فارس طويل، نحيف، بالغ الكآبة يمتطي ظهر حصان عجوز أكثر منه نحافة وحزنا، ووراءه يركض على حمار سيئ المزاج أصلغ بدين. تتأمل الذات الراكبة على الحمار بسخرية وعطف جزئها الراكب فوق حطام حصان.

- ضع حدا لهذا التيه. أما أن الأوان للخروج من أحلام لا خير يُرجى منها إن لم تتحقق ولا خير يرجى منها إن هي تحققت؟ عد إلى الواقع.

بهزّ الشيخ الكنيب كنفه:

- عن أيّ واقع تتحدث أيها الغبي؟ تريدني أن أخرج من حلمي الجميل لأسكن كوايبس الآخرين؟

يا للرجل الحكيم. فهم أن هذيان الفرد وحده هو الذي يوصف بالجنون أما هذيان الجماعة فأساس كل الأساطير والديانات التي تحنى أمامها الهامات!

تلوح في الأفق جحافل الشياطين والجنّ وعلى رأسها "العبيثة". تهمز الذات في شكلها النحيف حصانها، عاودها الجذل لمعركة جديدة مع هذيانها. إنها كتائب كبير الشياطين تنكرت في شكل قطعان غنم. إليهم يا سيّد فرسان الخيال. صوّب رمحك نحو قلوبهم، لا تأخذك بهم رحمة ولا شفقة. تصرخ الذات البدينة وهي تهمز الحمار بدورها:

- لأعلمنّ معك، يا سيّدي، عصاي فيهم وفيمن خلق هذا الكابوس المسمّى "الدنيا".

يتنهدّ الحمار الفيلسوف وبهزّ الحصان العجوز رأسه. يعودان إلى اجترار ذكرياتهما عن عالم يركبان فيه عربة من القصب الأخضر، تجرّها حيوانات منتصبّة القامة لم يُعرف لها مثيل في القسوة والغباء وهي، لا غير، الشياطين التي تتخيل.

ألا يعني كل هذا أننا لا نعيش حياة واحدة في هذا العالم كما نعتقد أغلب الوقت وأنما "حياتات" عدة: التي نقضيها على الضفة الأخرى لعالم اليقظة، التي نقضيها في فضاء الحواس وأجمل "حياتاتنا" المتعددة التي نعيشها في فضاء الخيال.

*

السؤال الآن ما طبيعة هذا الفضاء الذي نقضي فيه جزءا هاما من زمن الرحلة وهل هو مجرد مرفأ سحري نهرع إليه للاحتماء مما نلقى من آلام ووجاع وخيبات أمل فيما نسيمه الواقع؟

طبعاً. يا لها من كارثة لو لم يكن لنا هذا الفضاء نعوض فيه حرماننا المتواصل الذي هو قدرنا في فضاء الحواس وحتى في فضاء الفكر. لذلك نستعجل دخوله استعجال التائه في الصحراء عند القرب من الواحة.

ثمة من يرفضون مفارقتة، أصابهم من رعب فضاء الحواس ما لا طاقة لهم بمواجهته ثانية.

هذا إذن فضاء وظيفته الأولى رفع مؤقت لاحتقان ذات تفضح فيه أعمق شهواتها وتبلور فيه ما تريد أن تعترف أو لا تعترف به من طبيعتها. إنه فضاء يسمح لك براحة لا بدّ منها وكل المطلوب عدم الإدمان.

لكن وظيفة الفضاء الأهم لا علاقة لها بما يوفر من متع سحرية وبالمجان.

إنها الوظيفة التي ينتبه لها كل طفل.

يقرر أنه يريد أن يربيه ناطقا.

- أريد أن يربيه ناطقا.

تستجيب القوة المجهولة فوراً:

- حاضر يا مولاي.

- أريد كأننا نصفه حصان ونصفه الآخر آدمي.

يقَلب العالم شفثيه وتلمح في عينيه ابتسامة مكرة.

- حاضر يا مولاي.

- لا، بل أريد كأننا نصفه حصان ونصفه الآخر آدمي وعلى جنبه جناحان.

تتصاع القوة المجهولة كأن لا همّ لها سوى تلبية رغبات الأطفال، تستقرّ فيهم عبر السهولة المشبوهة طمعا غير محدود.

ها هو الأدمي منكبّ على ناب فيل ينحته بقطعة حجر صلب مذبذوب وذلك على امتداد أيام واسابيع في كهف من كهوف ما قبل التاريخ ليستخرج من عاجه شكل كائن له رأس الأسد وجسم آدمي والفنان يضيف لكائنات العالم كأننا جديدا هو خالقه.

كم من فنّان آخر ترك العاج والأصباغ ليعمل على الأصوات يعيد تركيبها لتضيف للعالم كيانات صوتية لم توجد من قبل وتنافس في جمالها الأذن أصوت تدفق الماء في الجداول أو سقوط قطرات المطر على نافذة غرفة النوم... والمخيلة هي التي تقود دوما أصابع الفنان! فضاء الخيال إذن هو الورشة التي تختمر فيها أبيات الشاعر ولوحات الرسام وأنغام الموسيقى.

هو أيضا المختبر الأول الذي يتفحص فيه الذهن الأدمي بما يمتلك من طاقة التخيل كل الممكن للسيطرة على عالمه.

اعتبر كل الطفرة العلمية التكنولوجية التي تقلب حياتنا رأسا على عقب وقل لي أليست أحلامنا وكوابيسنا تحققت كلها أو جزئيا؟

القاعدة أن كل الأحلام التي تتبلور في فضاء الخيال لا تتحقق لكن كل ما تحقق من أروع إنجازات البشر كان يوما أحلاما في هذا الفضاء.

حلم الأدميون قرونا طويلة بشفاء كل الأمراض، بالطيران في أعلى طبقات السماء أحسن من كل الطيور، بالغوص في أعماق البحار أحسن من كل الدلافين وحتى بالمشي على سطح القمر.

تبدأ محاولة ترجمة هذه الأحلام في فضاء الحواس بفترة طويلة والأداة الوحيدة السحر. ثم تأتي مرحلة التكنولوجيا لتحقيق أهداف السحر بوسائل العلم.

خاصية بالغة الأهمية للفضاء المبارك من بين كل فضاءات العالم: الحيوية المذهلة التي تجعلك تقف مشدوها أمام ورشة لا تتوقف فيها الأشغال أبدا بحثا محمومًا عن الجودة والطرافة والتنوع والابتكار في الديانات، في الأساطير، في الفنون، في الشعر وفي كل الميادين التي تلعب فيها المخيلة دور المحرك الرئيسي والتي تعطيها التكنولوجيا في هذا العصر امكانيات غير مسبوقة.

الخلاصة أنه إذا كانت مهمة الحواس الست رصد الأشكال والحالات التي يتخذها العالم، فإن وظيفة المخيلة تفكيك وإعادة تركيب هذه المعطيات كأنَّ العالم خزان مواد أولية يعاد تصنيعها باستمرار ليكتسب حالات وأشكال جديدة وفق خيال الأدميين لا وفق خيال الخالق الأعظم ولسان الحال يقول انظر ما الذي نقدر عليه نحن أيضا.

**

عندما تصبح الرحلة خلق الفضاء الذي تستكشف

في ملفّ من أقدم ملفات الذاكرة معطيات -كما حدثت وكما أعاد الخيال تصنيعها -عن آخر مكونات عالم يبدو أكثر من أي وقت مضى مشروع لا معطى .
وفي هذا الملفّ يتوجه المعلم المرهق إلى القسم.
-والآن يا أطفال تمرين الصباح: اشترى حسن برتقالتين بعشرين مليما للبرتقالة، ودفع مائة مليم للبائع. كم يجب أن يُرجع إليه البائع؟
يصرخ فيه طفل لن يتعلم أبدا منافع العضّ على اللسان سبع مرات قبل مخاطبة أي آدمي له سلطة ما:

- سيّدي، هل البائع نزيه أم كالذي يسرق أمي؟
- ركّز على التمرين... أريد رقما صحيحا لا أسئلة ركيكة.
ثم يأمر المعلم المرهق قطيع الأطفال الهائجين على الدوام:
- هيا يا أطفال، افتحوا الكراسية وانقلوا جدول الضرب الذي عليكم حفظه عن ظهر قلب.
يعود الطفل إلى نفس الأغلط مدفوعا بغيّب فيه ما هو موروث وجلّه مُكتسب.
- سيّدي، لماذا يجب أن تكون أربعة في اثنين ثمانية؟
- هكذا. لا جدال في جدول الضرب.
- لماذا هكذا، سيّدي؟
- أتريد العودة إلى الركن؟ قلت لك لا جدال في جدول الضرب ولا في قواعد القسمة والطرح.
فعلا هذا عالم بحاجة لجدول ضرب ثابت لا يخضع لضغوط السياسة أو تقلبات سعر صرف الدينار.
تخيّل أنه جُنّ جنون جدول الضرب فجأة فأصبحت نتيجة 3x3 مرة 99 ومرة أخرى 999 ومرة ثالثة 3!

تصوّر تغيير ابسط القواعد التي تعلمناها في الثانوية مثل أن ضرب السالب في السالب نتيجته إيجابي لتصبح القاعدة أن ضرب السالب في السالب يؤدي مرة إلى صفر وأيام الأحد والعطل إلى سلبى مضاعف!

تصوّر أن الأرقام رفضت الاعتراف بقواعد القسمة والطرح!
تصوّر فيروسا لا يقهر حكم بالشلل النهائي على كل حواسيب الفضاء والأرض.
لو استولى كاتب من الخيال العلمي على هذه الفكرة وطوّرها إلى ابعده نتائجها لوصف احتضار عالم استشرت فيه فوضى عارمة تشهد موت الناس داخل المصاعد واحتراق شبكات الكهرباء وهبوط الطائرات فوق الطرق السيارة وخروج الأقمار الصناعية والصواريخ من مداراتها الطبيعية وتوقف المواصلات والاتصالات بين الأمم والعائلات

والأفراد. حدّث ولا تسل عن انهيار البورصة وشلل جَلّ دواليب الإنتاج الصناعي والخدماتي وعودة الاقتصاد لما قبل العصور الحجرية وانفجار ما لا يحصى من الحروب تسقط فيها الصواريخ النووية على مطلقها.

الأرقام إذن بما لا يدع مجالاً للشك من اللبنة الأساسية للعالم الذي نعرف ومن أهم العوامل المتكفمة في رحلتنا فيه.

هي التي تصف العالم أدقّ وصف، تحصي، تقيس وتصنف جَلّ مظاهره.

هي التي ترصد له حدوده الحقيقية فلا ضوء يتحرك بأسرع من رقم معيّن ولا حرارة تنزل تحت رقم آخر ولا مجال لحياة تدوم أكثر من رقم ثالث... الخ

هي التي تصنع ملامحه فلولها لما حلّقت الطائرات في السماء ولما ارتحلت الصواريخ نحو القمر والمسابير نحو المريخ ولما انتصبت ناطحات السحاب على الأرض.

هي التي تمكّن الدول من إدارة مساحة الأرض التي تحكمها بإحصاء سكانها وحساب ما يتكفون من خدمات وما يمكن اعتصاره منهم من ضرائب.

هي التي تحدّد للأشياء قيمتها في المتاجر وللشخص قيمتهم عند البنوك.

هي التي تساهم في إعطائك هويتك أي مكانك داخل قافلة المرتحلين وأنت معرّف لدى الأمن والضمان الاجتماعي ومصحة الضرائب وشركة المواصلات والبنوك بجملة من الأرقام لو ضاعت أو سرقت منك لوجدت نفسك في أصعب الأوضاع.

ها هي اليوم برقمين لا أكثر تصيف للعالم الذي عرفه الآباء والأجداد فضاء جديداً أصبحنا نقضي في استكشافه جزءاً متعظماً من رحلتنا.

يصرخ الطفل على عادته في معلّمه.

- سيّدي، ما معنى صفر؟

- الصفر عدد يرمز إلى شيء لا وجود له.

- لا أفهم

- قلت لك كفت عني أسئلتك؟

يعضّ الطفل على قلمه ثم يتجاسر بالسؤال الذي يؤرّقه.

- سيّدي، هل يمكن أن أضيف ما أريد من الأصفر إلى واحد!

- طبعاً، وفي كلّ مرّة يرتفع العدد فيصبح عشرة ثمّ مئة، ثمّ ألف ثمّ عشرة آلاف، إلخ.

- سيّدي، سيّدي، ما اسم هذا العدد الذي ملأته به الصفحة؟

- ماذا تفعل؟ ما هذا العيب؟

- اضفت كما قلت لي صفراً بعد الصفر ثمّ صفراً آخر وآخر وآخر... سيّدي!! سيّدي!!

يؤسعي أن أملاً الكراسة بأكملها بالأصفر!

- يا مجنون، اذهب إلى الركن ولا تتحرّك، أنت معاقب إلى نهاية الحصّة.

يقف الطفل مجدداً أمام صديقه الحميم: الحائط. يدرس الشروخ والبقع التي على سطحه، في الوقت الذي يواصل فيه فكره متابعة سلسلة من الأصفار تخرج من الصفحة، من الكرّاس، تتسلّل إلى الشارع، تتسلق كل جدار يضعه في وجهها لتَنساب كالسيل العرم مواصلة زحفها، ووراءها أصفار جديدة تخرج من العدم وتدفع بالطابور دوماً إلى الأمام. إلى أين وإلى متى؟

يصاب بالدوار وهو يكتشف أن لا شيء قادر على إيقاف زحف الأصفار. هو يجهل وهو في هذا العمر أنه ارتطم باكراً بمعضلة اسمها "اللانهاية" دوّخت قبله كمّاً من عقول أطفال كبروا وكبرت معهم المشكلة. تُرى، هل جُنَّ "كانطور" من فرط البحث عن حلّ لها أم هل كان مجنوناً من الأصل ليحاول إدراك ما لا يُدرك؟

ما كان يجهله الطفل ذلك اليوم -شأنه في هذا شأن كل المرتحلين- عمق الثورة التي سيحدثها في عالم الأدميين هذا الصفر رمز اللاشيء برفقة الواحد رمز الكمال وقد أصبحا الرقمان الأداتان لبناء آخر فضاء لعالم يبدو أكثر من وقت مضى أنه مشروع متواصل البناء لا كيانا ثابتاً مهما بلغ من الاتساع والتعقيد!

*

تصوّر دهشة ابن فضلان وابن بطوطة وهما يكتشفان صحاري جديدة لم يعرفهما أحد من قبل. تصوّر دهشة كولومب وماجلان وهما يكتشفان محيطاً غير مرسم في كل ما عرفا من خرائط. تصور خاصة دهشة الأربعة وهم يشاهدون التمدد المتسارع في كل الاتجاهات للصحراء التي خرجت من لا شيء وللمحيط الذي برز من المجهول.

إنه ما نسميه الفضاء الافتراضي. هو ليس جزءاً من فضاء الحواس حتى ولو كان بحاجة إلى أشياء محسوسة مثل الحواسيب ليوحد. هو ليس جزءاً من فضاء الأفكار رغم أنه يعجّ بالفكريات ولا هو امتداد لفضاء الخيال رغم أن الخيال من أهم أدواته.

هو فضاء تكتسب الرحلة فيه جملة من الخصائص تغلب مفهومنا وتجربتنا لها رأساً على عقب.

بخصوص "الأماكن" التي يعجّ بها والتي قد توّد السفر إليها، ننصح بعدم تضييع الوقت في محاولة الكشف عن أين يوجد "يا هو دوت كوم" أو "أكسييت دوت كوم". لن تجده على أي خريطة جغرافية. إن حاولت، كنت كمن يبحث عن جزر واق الواق في الفضاء الحسي.

خاصية هامة مرحب بها أن المشي على الطريق في هذا الفضاء هو دوماً بلا تعب. لا مجال لأن تعترضك المنغصات التي يواجهها مستكشفو الفضاء الحسي مثل بعوض المستنقعات الاستوائية وذبابة القطب الشمالي وأسود الأحرش الإفريقية وضباب مطارات الدول الاستبدادية. لا خوف عليك أيضاً أن تُعترض طريقك سيارة افتراضية يقودها مخمور أو أن يخرج لك من إحدى المنعطفات شقيّ يصرخ فيك يطلب حافظة نقودك وإلا أخذ حياتك.

في هذا الفضاء الجديد يتغيّر أيضا بصفة جذرية مفهومٌ آخرٌ بَنَيْنَا عليه بديهياتنا في التعامل مع العالم: الزمان.

ففي فضاء الحواس أنت بحاجة إلى شيء من الوقت لكي تتحوّل من مكان لآخر. أما في الفضاء الجديد فالأمر فيه كما لو كان بوسع ماجلان -وهو جالس في جوف باخرته بلشبونة- الانطلاق من البرتغال إلى جنوب القارة الأمريكية، والقفز منها فوق الفيليبين -حتى لا يُغتال في معركة تافهة مع المتوحشين- والتوقف في جوا وعدن للتبصّع ثم العودة إلى لشبونة... كل هذا في دقائق معدودات.

هذا لا يعني أنّ هذا الفضاء المضاف للفضاءات التي عرفها الأوائل خالٍ من المطبات والأخطار. هو أيضا -مثل الفضاء الحسي- ساحةٌ حرب لا تتوقف في كل الميادين وعلى كل المستويات. كم من جنرالات بخمسة نجوم يُعدّون في هذه اللحظة لأشكال جديدة من الحرب الحواسيبُ فيها بمثابة راجمات الصواريخ، والصواريخُ برامجٌ محمّلةٌ بكل أوامر خراب ودمار المصانع والمنشآت الحيوية!

الفضاء الجديد مجال يلوّثه المرتحلون بنفاياتهم. يُقال إنّ بعض المشرفين على تنظيفه أصيبوا بانتهيار عصبي أمام فظاعة ما يتزاحم فيه، أمام بوفونوغرافيا أطفال ورضع ومضاجعة حيوانات ومراسيم عبادة شياطين وآلهة دموية وقرابين تُقدّم لها والذبح على الهواء مباشرة.

هو قمامة تُصبّ فيها مجاري صرف صحيّ تفيض بنجاسات أرواح ملايين المختبئين في أوكارهم، تماما كما هو الحال في الفضاء الحسيّ، حيث يختلي كل واحد بمراضه يتخلص من نجاسات الجسد تاركا لمجاري الإسمنت مهمة التخلّص منها بعيدا.

ينذرني الحاسوب أنه على وشك إطلاق آخر نفس، وأفهم أنني أتعرض لهجوم غادر جديد، ففي مكان ما من الفضاء الغريب أُطلق مجهولٌ فيروسا طائشا أصاب منه مقتلا. هذه ليست المرة الأولى التي يحترق فيها قلب الجهاز، وسأضطرّ للسهر ليلالٍ وليالٍ لإعادة صبّ المعلومات في ذاكرة جهاز جديد أو هذا الجهاز المسكين إذا أمكن إنقاذه مرة أخرى.

من هذا الذي يدمر بصفة دورية الجزء من الفضاء الذي اقتطعته نفسي، والذي أستودع فيه ما أكتب عليّ أتخطى رقابة الورق؟

لا مجال لأن أضع عليه أية صورة أو أيّ اسم على العدو الخفيّ.

هذا ما يقودني إلى الحديث عن الأدميين الذين يتحركون داخل الفضاء العجيب.

أنت تتعامل فيه مع كائنات لا وجه لها تتسمى بكم من اسم غريب، لا تستطيع أن تحدد لها مكانا كما لو كانت من جنس الأشباح والعفاريت التي يحفل بها فضاء الخيال.

من هذا الذي يدمر بصفة دورية الجزء من الفضاء الذي اقتطعته نفسي والذي أستودع فيه ما أكتب عليّ أتخطى رقابة البوليس السياسي. لا مجال لأن أضع عليه أي صورة أو أي اسم. نفس الشيء عن بقية الكائنات التي أصبحت جزءا من حياتي الاجتماعية وأنت لا تعرف من الصديق بينها ومن العدو. من يحاورني تحت اسم "إيفان المرعب"؟ هل هو

جار قريب أو مجهول موجود في أقصى طرف الفضاء الحسي؟ ماذا لو كان فعلا إيفان المرعب الذي عرفه التاريخ، وأنه اغتتم فرصة ظهور الفضاء وما يتيح من إمكانية السفر دون جسد ليستيقظ من قبره ويعود إلى مضايقة أعداء الاستبداد أمثالي؟ إن لم يكن إيفان المرعب إيفان المرعب فمن يكون؟ من القارئ المداوم والملثم وطرزان وأزدروبال؟ ثم لماذا اختار المقتنعون هذه الأسماء؟ أليضحكوا من أنفسهم أو للانتماء من الاسم الذي فرض عليهم؟ كل هذه الأسماء المستعارة لوجوه مجهولة تجعل من المستحيل، حتى على جدي البدوي الخبير بتقني آثار المختفين، اكتشاف من هؤلاء الذين يكتابونني ويشتمونني ويهددونني ويعلمونني بأنني ربحت يوميا المليارات، ويسرقون كتاباتي، ويملؤون موقعي بالتفاهات لتدمير سمعتي.

ولولا أنني واحد من هذه الكائنات التي تتفاعل على شاشة الحواسيب، وأعرف حق المعرفة أنني آدمي بجسد وروح وفكر، لما أقنعني أحد أنه ثمة علاقة بين بشر اللحم والعظم وسكان هذا الفضاء.

ثمة إذن، للآدمي اليوم مستوى جديد من الوجود كان يجهله إلى حد الآن، يجعله يلبس ما يشاء من الأتعة، يتخذ له أكثر من عنوان، يؤثر من أبعد نقطة في الفضاء الحسي، يدخل البيوت كالروح الهائمة، لا ينتبه لتطفله أو لسرقاته أحد، وربما يعيش ما لا يُحصى من القصص الموازية.

الأغرب من هذا كله أن هذا الفضاء الجديد يشهد ظهور كائنات تقاسمنا بعض خصائصنا البشرية دون أن يمكن حساباتها من جنسنا البشري وهي تستعد لتأخذ مكانها بيننا حتى ولو كنا لا نعرف ما المساحة التي ستحتل.

لقد بدأت قصص الحب والغرام بين آدميين من لحم ودم وروبوتات جميلة. بل ثمة في بلد اسمه اليابان مراسم زواج بين الآدمي في نسخته القديمة والآدمي الافتراضي. كل التهانى وبالبنين والبنات حتى وإن كنا لا نعرف كيف سيكون هذا النسل الجديد.

سؤال لا أحبه كثيرا: هل قطعنا كل هذا الشوط من الطريق لأكتشف وأنا في آخر مراحلها أنني كنت مجرد رحالة بدائي حبيس جسد بدائي بحواس بدائية ولغة بدائية يتحرك مشيا على قدمين...وأنتي سأعادر العالم وهو على وشك فتح بوابات على فضاءات ورحلات لا يتخيلها أخصب خيال لأنبيغ كتاب الخيال العلمي.

أتخيل رحالة يتصفحون كتالوج زاخر بأجود الرحلات لأروع العوالم ووكالة الأسفار تحاول اغرائني بواحدة منها. لا شكرا والدليل على حكمة رفضي هذه المرأة التي تضرب بقوة على الجدار الشفاف للجهاز تصرخ أريد أن أخرج! أريد نهاية هذه الرحلة!

هل اكتشفت المسكينة التي سحبت لها طاولة القمار المرة الأولى رحلة أنثى معاقة فقيرة سوداء دميمة والتي اختارت هذه المرة في الكتالوج رحلة أميرة باهرة الجمال، أن العالم وَزَع متاعب الرحلة وملذاتها بأكثر عدلا مما كانت تتصور، أنه كلما زاد في عطياه كلما دَفَع فيها أعلى الأثمان.

على كل حال هنيئاً للأحفاد تمتعهم بحريم من الروبوتات أو تجولهم داخل المجزات وشوارد الذرات وهم مستلقون على ظهورهم في صناديق بلورية وخبوط غير مرئية مزروعة في أدمغتهم. نعم، هنيئاً لهم سهولة السفر وكثرة ما سيعيشون من أغرب القصص. لكن أيّ رحلة يمكن أن تضاهي التي تصنعها الصدف والمفاجئات؟ أيّ لذة يمكن أن تضاهي لذة المشي حافياً على العشب المبلل بقطر الندى، أو على رمل الصحراء عندما يأتي المساء، أو في وجه الريح وزوبعة الثلج؟ تقول ربما ستعطي البرامج التي سيصنعها المهندسون أحسن من هذه الأحاسيس والمشاعر. لينقروا ما طاب لهم من النقر، أما أنا فأفضل الأصل على صورته، ولو كانت أحسن من الأصل.

الأصل؟ الصور؟ وهل لهذا العالم أصلاً أصلاً، أم أن له ما لا يحصى من الصور والأصل نفسه واحدة منها!

**

النموذج المستحيل

العالم إذن خلافا لما كان يتصوره الطفل ليس طبقا من الصلب وُضعت فوقه قبة السماء كما يوضع صحن أجوف من البلّور الشفاف على طبق الطعام. يتضح أيضا أن لا الشمس مصنوعة من ذهب قرطي أمه ولا القمر من فضة خلخالها. يتبلور في الذهن تدريجيا تصور جديد لهذا الذي أفقنا فيه ونقضي فيه حياتنا ونغادره يوما دون أن تكون لدينا عنه إلا تصورات متضاربة يتبادلها المرتحلون ولا أحد واثق تماما بما يسمع ولا بما يدّعي. لنضف لقائمة لن تغلق يوما هذا التصور.

أربع مكونات تشكل العالم : فضاء تصنعه الحواس الخمس وسمّيناه فضاء الحواس، فضاء تصنعه اللغة وسمّيناه فضاء الأفكار، فضاء تصنعه المخيلة وسمّيناه فضاء الخيال وفضاء تصنعه طاقة -أداة أخرى للذهن هي الحساب وسمّيناه الفضاء الافتراضي. هذه الفضاءات الأربع ليست طوابق مستقلة كطوابق العمارات، الطابق الحسي هو الأول وفوقه طابق اللغة وفوقهما الطابق الخيالي وآخر طوابق البناء الافتراضي . بطبيعة الحال هي منظومة أفعال وتفاعلات مترابطة لا توجد إلا ببعضها البعض . هي تصنع العالم على تباينها كما تصنع الألوان السبع لطيف قوس قزح النور الذي نعرفه واحدا .

المشكلة كثرة كل المشاكل التي يثيرها هذا النموذج القول بأن العالم معطى حواس/فكر/خيال/ عقل/ الذات يعني أنه مخلوق من هذه الذات أي أنه ليس له أي وجود خارج هذه الذات التي تخلقه؟ صحيح أن عالمي سيرحل برحيلي وسينتهي بنهايتي وأن العالم الأدمي ككل سينتهي يوم يطلق آخر الأدميين أنفاسه كما انقرض عالم الديناصورات بانقراض هذا الجنس من الأحياء.

لكن ألا يعني اختفاء العالم الأدمي نهائيا بموت آخر أدمي وجود شيء كان موجودا قبله اسمه الموت وهو الذي كان له القول الفصل في نهاية الملحمة الأدمية؟ ثم ، إذا كان العالم معطيات حواسي ولغتي وخيالي فلماذا لا أستطيع التحكم فيه كل التحكم؟ لماذا يقاوم ما أريد مثل الطيران بذراعي أو اختراق الجدران أو العيش قرونا؟ لماذا عليّ اكتشاف القوانين التي تحركه حتى أستطيع استعماله ولو بعض الشيء؟ أليس هذا الدليل الساطع على وجود واقع مستقل أمانا به أم لم نؤمن؟ لسنا هنا إلا في بداية الصعوبات.

إذا قلنا إن العالم معطى حواس /فكر /خيال / الذات فهذا يعني أنه موجود داخلها.

لكننا نعيش في هذا العالم كما لو كان أكبر حاي يحتوي على كل الموجود من المحتويات كالمظاهر الطبيعية والحيوانات والنبات والأشياء والكائنات الأدمية مثلنا. ألا يعني هذا أنه موجود خارج هذه الذات؟

كيف يكون العالم موجودا داخل الذات وخارجها؟
كأننا نقول إن الذات مثل سمكة تسبح في أعماق محيط مترامي الأطراف مغلق على ما لا يحصى ولا يعدّ من الأسماك والأصداف والمرجان والحشائش... وفي نفس الوقت أن هذا المحيط موجود بكل ما يحتوي في جوف هذه السمكة !!!

ليس من الضروري أن نتجند لتصور دون آخر... كل المطلوب أمام تعقيد الواقع أن يبقى الفكر مفتوحا على كل الامكانيات... قد تتطور أفكارنا بما ستخلق الأجيال القادمة من وسائل ثورية وما ستوفر عليه من معطيات جديدة إلى تصورات للعالم أغرب من كل ما تقدر على تخيله حاليا.

عن مشكلة هل العالم واحد أو عدد لا متناهي.
الذات ليست مرآة تنعكس عليها الصورة الموضوعية للعالم وليست نوعا من الحاسوب الذي يستعرض أعقد الخوارزميات ليفكر ويتخيل. نحن أساسا كائنات حساسة تلعب المشاعر دورا محوريا في بلورة هذا العالم.
يا لروعته والذات رائقة المزاج حتى بغض النظر عما تلاقي من صعوبات ومشاكل!
يا للتحوّل عندما ينقلب مزاج الذات إلى النقيض لا يهم أن تشاومها مبالغ فيه وشكواها بالغة الظلم!

عن أي عالم نتحدث إذن وهو يتخذ داخل نفس الذات حالتين على طرفي النقيض تارة كأرواح حالات الوجود وتارة أخرى كأفطعها؟

اعتبر الآن الفضاء الحسي الذي يرتحل فيه زيد. يمكن ألا يتجاوز قطره الاربعون كيلومتر انطلاقا من مكان الوصول. داخل هذه المساحة التي يتحرك فيها الأغلبية الساحقة للأدميين، يولد المرء وينمو ويتزوج ويخلف ثم يموت لا فكرة واضحة لديه عما يوجد خارج حدود قاهرة رسمتها له الضروريات والصدف لم يتجاسر على تخطيها نتيجة الخوف أو الكسل. خذ الآن الفضاء الحسي لعمر وقد مكّنه حسن الطالع من أن يزرع الأرض طولاً وعرضاً وحتى أن يطلع للمحطة الفضائية الدولية. بين هاتين الحالتين القصويين تجد الطيف الهائل للحالات التي يتخذها الفضاء الحسي كما وكيفا في رحلة هذا الأدمي أو ذاك.

شنان أيضا بين من يرتحل في عالم تتحكم فيه أفكار السحرة وبين الذي يرتحل في عالم النسبية العامة وميكانيكا الكم، بين الذي يرتحل في عالم دعاماته "فكريات" العرق والوطن والأرض المقدسة والعدو الوراثي والبقاء للأقوى وبين الذي يرتكز عالمه على "فكريات" الديمقراطية وقوة الشرعية والعدالة الاجتماعية.

ألا يعني هذا أن العالم عوالم بعدد الذوات التي تبلوره ويتبلور فيها ولا نتحدث عن عوالم ما لا يحصى ولا يعد من الكائنات الحية التي تقاسمنا الفضاء الحسي... التي انقضت... التي ستري النور بعد ملايين السنين... التي قد توجد على كواكب أخرى في الفضاء اللامتناهي. أي إمكانية لمعرفة شيء كهذا وحتى ما جدية كل محاولة في هذا الاتجاه؟ وحده كائن كامل وأزلي كالذي تشير إليه أديان البشر تحت اسم الله قادر على إدراك كل هذه العوالم ونحن لسنا هذا الكائن.

المشكلة أن حتى هذا الكائن موجود كمصطلح من صنع اللغة وخصائصه كلها من صنع الخيال، لا أدل على ذلك من كمية الإيمان المطلوب أي التسليم المطلق بحقيقة تصوراتها وكمية العنف الضرورية لفرضه على من ليس مقتنعا.

أخيرا وليس آخرا.

لبلورة تصورنا للعالم رصدنا أربع مستويات مصنوعة من الحواس واللغة والخيال والحساب. بحثنا عن كيفية تجميعها لتتناسق بينها فتظهر الصورة المخفية التي نبحت عنها. لكن ما حظوظ النجاح إن فاتنا أهم عامل من عوامل تشكل هذا العالم؟ سواء كان داخلنا أو خارجنا أو داخلنا-خارجنا، ثمة شرط أساسي لوجود أي فضاء: الوعي به وإلا كان وجوده والعدم سيات.

ما الذي نعني بالوعي؟ إنه الحالة التي نكون فيها ونحن نعرف أننا نعرف.

أنا واعى بالقمر لأنني أنظر إليه وأنا أعرف أنني أنظر إليه. أنا واعى بتفاعلي مع الآخر لأنني أعرف أن هذا الشخص غيري وأني بصدد التفاعل معه. أنا واعى بألم الأسنان الذي ألم بي فجأة لأنني أعرف أن إنذارات تأتيني من داخل الجسم وأعرف أن عليّ أن آخذ موعدا قريبا مع طبيب الأسنان.

لكن حالة الوعي هذه منقطعة أو غير موجودة أصلا جل زمن الرحلة وفي المستويات الأربعة. ففي الفضاء الحسي جل أفعالي وتفاعلاتي مع العالم لا واعية: نموذج عمل خلايا أعضائي التي لا أعرف كيف تشتغل.

نفس الشيء بخصوص اللغة التي أتعامل مع قواعدها آليا دون أن أكون نحويا أو أن أعرف كيف تشكلت اللغة ومتى وكيف ولدت وتطورت كبرى المفاهيم التي تتحكم في أفعالي وتفاعلاتي مع العالم.

عن أي وعي يمكن الحديث في علاقتنا بكبرى الميادين والآليات التي توجه حياتنا كالأساطير الدينية أو قوانين الاقتصاد أو خوارزميات الذكاء الاصطناعي؟

ألا يعني هذا أنني مثل من يعتقد أن جبل الجليد هو الجزء الذي يراه طافيا على سطح المحيط... بعبارة أخرى ألا يعني هذا أن جلّ العالم الموجود تحت سطح الوعي مثل جبل الجليد الموجود تحت سطح الماء.... إلى الأبد مجهول.

كل هذا الجهد لمثل هذه النتيجة!

للتغلب على الإحباط وعدم السقوط في شكل أو آخر من الكآبة الميتافيزيقية، لا مخرج غير تغيير وجهة التفكير بصفة جذرية أي الكف عن التعامل مع العالم كلغز للفك واعتباره....
مأدبة الله ونحن من كبار الضيوف.

**

الكتاب الثالث الطريق

قال أرجونا: إنني أتحرق شوقاً لرؤية وجهك المقدس،
إن كنت ترى ذلك ممكناً فأرني يا إله الآلهة-ذاتك
الأزلية. فردّ كريشنا: تأملني يا أرجونا-في أشكال
القدسية، إنها بالمنات والآلاف نوعاً ولونا وشكلاً،
تأملني في قوى الطبيعة، في النار، في الأرض، في
الرياح، في الشمس، في السحاب، في السماء، في
القمر، في النجوم وفي كل قوى الحيوية والتعافي.

من كتاب البهجة جيتا

مقدمة الكتاب الثالث

استمع إلى الشعر بأية لغة تعرف. لن تجد في أجمل قصائده إلا انتباهها لغرابة العالم، لجماله الأخاذ، لحيرة الأدمي وهو يتأمله يتقاسمه الانبهار والرعب.
"أحصد القمح (ناكاتسوكا)

وفوق ظهري

كلّ السماء "

من ينتبه غير الشاعر لمثل هذه العلاقة بين الذات والعالم؟ الرسّامون هم أيضا من كبار المنتبهين. موني مثلا، وهو يرسم للكاتدرائية العجوز نفس الواجهة، مغيرا موقع المشاهدة، مترصدا تغيّر الطقس وتبدل اتجاه أشعة النور للعودة إلى معالجة الأشكال والألوان ولا شكل يشبه شكلا ولا لون يشبه لونا في أي من اللوحات الثماني والعشرين التي أمضى في رسمها سنوات طويلة. أكبر ما يميّز الشاعر أو الفنان عن بقية الخلق أنه هو الأكثر حفاظا على انتباه الطفل. كي لا تعبر العالم مثل السائح التائه في متحف اللوفر غير مهتم أو واعي بما تتعلق عليه القاعات والأروقة من روائع، لا بدّ من تعهّد الانتباه لأنه الحالة اليتيمة التي تستنفر فيها الذات كل وعيها لتكون حاضرة كليّا لدى العالم، لكي يكون العالم حاضرا لديها ولا حاجز بينهما.

أن تكون منتبها يعني إنك عدت إلى الأحاسيس والمشاعر كما نقشها العالم لحظة انبثاقه في الذات، أنك تفيق فيه للمرة الثانية.

فلما تنتبه للشمس تتجاوب الذات مع الظاهرة كأنها لم تعرف من قبل ما الشمس. لما تنتبه إلى رائحة الأرض بعد المطر أو رائحة الياسمين توضع بها أرجاء البيت، يخيل لك أنك تشمها لأول مرّة.

أهمّ فضل وخاصة للانتباه لتفرّغ الذات للحظة العابرة وللحظة العابرة وحدها وقد تخفّفت من هموم الماضي وطردت من وعيها كل مخاوف المستقبل.

ليس من باب الصدفة أن يسمّى مؤسس دين كبير "بوذا" أي المنتبه.

ليس من باب الصدفة أن يجعل هذا الدين الانتباه جزءا مكوّنا من "الساتوري" وهو الهدف الأسمى لكل من يعبرون العالم داخل رؤياه.

حتى يعود اليك انتباه الطفل والشاعر والرسّام، اخرج إلى العاصفة مرفوع الوجه ممدود اليدين والذراعين، كأنك أنت الذي دوّت الطبول تدعوه إلى الترحيب بالرعد.

ارصد كل أحاسيسك ومشاعرك وأنت على أشدّ الوعي بما يجري حولك وداخلك.

افتح عينيك كما لم تفتحهما يوما لتتأمل عبر ومضات البرق الخاطفة ما تتخذه جبال السحب السود من غريب الأشكال.

لا تغفل عن متابعة تشكّل نهر من نور يقسم فجأة سقف السماء إلى قسمين. إنّها المرة الوحيدة التي سترى فيها سماءين، واحدة على يسار البرق وأخرى على يمينه، ولا قنطرة فوق شرخ النور.

اخرج لسانك ليلتقط نصيبه من مطر يتسلّل بين الثياب والجلد. تابع وقع قطراته تتدافع على طول الظهر تبعث فيك موجات ألدّ قشعريرة. أنت الآن المطر المتساقط من السماء، والبسيطة تفتح أمامك مسامّ جسدها. ادخل أغوارها المظلمة العطشى وهناك في أعماق أعماقها، أيقظ داخلك وداخلها كل البراعم. لم يبق إلا رصد كيف تتسلّل من بين الروابي السود أشعة الضياء وكيف تعود السّماء إلى صمتها على استحياء كأنّ الزعيق الذي ملئت به الأجواء فاجأها هي الغارقة دوما في صمتها المتعالي. ركّز الآن على الطيور وكيف تخرج فجأة من مخابئ لا يعرفها أحد. انظر كيف يرتفع قوس من الألوان المبهرة بلا أعمدة، يمشي تحته الأدمي مظفرا منصورا والطبيعة هي التي تهلّل له وتزغرد وكيف يختفي تدريجيّا كأنّ اليد التي رسمته قررت محوه من سبورة السماء لا تريده لسبب مجهول علما ثابتا كالشمس والقمر. على الطرف النقيض التبلّد.

إنها الحالة التي تجرّبها الذات انطفأت داخلها أمام خوارق العالم ومعجزاته الأحاسيس البكر، زال التهيب وتبخّر التعجّب والإعجاب.
"كل نفس ذائقة الموت (جلال الدين الرومي)
إلا أن الحياة لا تتذوقها كل الأنفس"

دوريا أشعر بأن التبلّد أصبح كبعض الهواجس مزمنًا. لا بدّ من العودة إلى بعض تمارين التخلص منه والتي أحرص عليها حرصي على التخلص من زائد الشحم بالجهد والمشي. على مقعد عمومي ها أنا أتأمل أشجار غابة عبرتها كم من مرة لكنني لم "أراها" أبدا لأننا لا "نرى" إلا عندما نركّز على ما ننظر إليه لا يشغل بالنا شاغل. يتسّمّر البصر على ورقة انفصلت لتوها عن غصن شجرة البلوط. يتابعها وهي تتهاوى ببطء شديد كأنها تقاوم عبثا مصيرا لم يعد منه مقرّ. ترى كيف هي سكرات الموت عند أوراق الشجر؟

الورقة معلّقة في الهواء كأن خشية الارتطام الموجع بالأرض التي ستكون لها قبرا زاد من مقاومتها للمصير المحتوم. تنفخ عليها الريح بقوة وكأنه ضاق ذرعا بما تأتيه من عبث فإذا بها تلف وتدور وسط أوراق صفراء أخرى تتدافع كالعصافير أطلق عليها الصياد وابل الرصاص. هي لا تتسلّق الفضاء لتختفي بين السحب إلا في خيالي. شيئا فشيئا تجد طريقها إليّ كأنها أدركت مشاعري فجاءتني تحتمي أو تشكر أو تودّع. تحطّ بهدوء على حذائي فأخذها بمنتهى الرقة كأنني أخشى عليها من اللمس.

ما زالت صفرتها مشوبة ببقايا من الاحمرار، كالجسم الشاحب ما زالت تنبض فيه بعض بقايا الحياة. أضعها في جيبني ثم أغبّر الرأي. مكانها على الأرض مع الأوراق المتعفنة

السوداء التي فقدت قبلها وقبلنا معركة البقاء. قد يكون عزاؤها وعزائي أن العالم سيغرف منها مثلما سيغرف مني ما يحتاج لدورة جديدة من الخلق طبقا لقاعدة لا تعرف استثناء: قدر الحياة التغذي بالموت وقدر الموت التغذي بالحياة. أن تكون منتبها يعني أيضا أنك تعي فجأة بما وراء المألوف من أسرار تنغلق على أحاجي تسكن الغازا تحير أكبر العقول.

مما يقال هذه الأيام أن أوراق هذه الأشجار الصامتة لا تكف عن تبادل الأخبار وأن جذورها لا تتوقف عن تبادل العون. من أين لي حتى ولو شحذت أقصى ما لدي من انتباه سماع تفاوض الجذور والفطريات حول أحسن السبل لاستغلال الثرى في صالح الطرفين. أه، ماذا عن زرققة هذا العصفور المختبئ داخل أشجار لا يرصده البصر.... هذه الزرققة اللطيفة التي يتغنى بها الشعراء والعشاق؟ هل هي حقا دعوة الانثى للجماع أو تهديد للذكر الآخر بأن يبقى خارج حدود فضائه والويل له إن تخطاها؟

تلسعني بعوضة فأمنع يدي من ردّ الاعتداء والذهن مشغول بتخيل الكائنات الحية البالغة الصغر التي تختبئ تحت قدمي. ففي هذه السننيمترات القليلة التي تدوس عليها قدمي أجناس لا تحصى ولا تعدّ، منها التي ترى بالعين المجردة ومنها التي تحتاج لعدسة مكبرة. كلها تتبارى غرابية وتباينا وتعقيدا. كلها في حرب لا تتوقف وكل من يتحرك تحت الأوراق الميتة أكل ومأكول، طريدة وصياد... كما هو الحال في المستويات المرئية من العالم. عند انحسار التبلد وحضور أقصى الانتباه يتضح لك فجأة أن أهم شيء في هذا العالم موجود وراء ما يرصده البصر وأن هذا المجهول صندوق أسود من الغرائب والعجائب يمكنك أن تقضي العمر في البحث فيها ولا تستنفدها أبدا.

أفتح العينين أسارع بالعودة للمألوف المطمئن منتبها لكوني أتجنى أكثر من اللازم على التبلد الذي أدعي أنه أخشى ما يجب أن يخشاه كل مرتحل. أنت لا تتخرز عضلة لتتقبض المرة تلو الأخرى لا تترك لها وقتا كافيا للارتخاء إلا وأنت لحظة تضرب فيها العضلة عن الردّ احتجاجا على كثرة الوخر. أليست حدة الأحاسيس والمشاعر وكثرة المعلومات منهكة للروح والجسد؟ نحن لا نستطيع البقاء طوال الرحلة فاغرين أفواهنا دهشة أمام مظاهر العالم في حالة أشبه ما تكون بالتعبّد. محكوم على الرحلة إذن أن يكون لها نبض كنبض القلب: انتباه فتبليد فانتباه فتبليد وذلك إلى نهاية الطريق.

لا يبق لنا في هذه الحالة غير إعادة صياغة دعاء فاتحة الحياة: يا من تتوجّه له كل الصلوات، اجعلنا منتبهين للتمتع بكل ما توفره لنا من روائع إن لم يكن كل زمن الرحلة فعلى الأقلّ أغلبه.

الديكور الفخم

من منا لم يعد أكثر من مرة لتفحص ألبوم الصور العائلية مسترجعا ذكريات ماضٍ ملتبسٍ. المطروح أمامي والنص في بداياته أكثر من هذا. إنه استعراض ألبوم ما بقي منقوشا في الذاكرة عن أهم معالم العالم التي قادني إليها الطريق والانتباه في أوجه. في أقدم الملفات تسأل "ما" ابنها ألا يبخل عليها بالتفاصيل و"با" بنفسه من تكلف بمراسيم تقديمه إلى البحر.

فتح الطفل ذراعيه عنه يبئغ كم هو عريض هذا البحر، كم هو متسع، كم هو ملآن بالماء فسقطت الذراعان والعجز هو الشعور الغالب.

من أين له الكلمات لوصف سهول بلون السماء مترامية الأطراف لا يحدها سوى الأفق؟ كيف يصف هيبه دويّ البحر وأمواجه بين مدّ وجزر؟ كيف يقنع الأمّ أنه رأى بأم عينيه سقوط الشمس شيئا فشيئا بين أحضانه ثم اختفائها فيه! كم يكره أن تنظنه "ما" مبالغًا أو كذابًا!

تلك الليلة أب الطفل إلى مخدعه يتساءل هل سيلفظ البحر الشمس مجددا أم هل سيحتفظ بها نهائيا فتغدو كل أيامه ليالٍ بأشباح وكوابيس.

من الغد تُواجهه أمه بربع ابتسامتها العادية وهو يؤكد لها، أنه اكتشف أين تذهب الشمس عند المغيب ولماذا تبدو لامعة نظيفة كل صباح.

تتعمق القناعة عنده بلا جدوى الكلام عندما يتعلق الأمر بالبحر.

يتجدّد اللقاء بين العاشق والمعشوق والطفل يكتشف لذّة العوم في موج هادئ أيام الصيف وكم رائع أن يحرك جسده وسط المياه الشفافة في الاتجاه الذي يريد كما لو كان هو الآخر سمكة جاهلا أن الأسماك خلافا للبشر لا تموت غرقا.

ذلك الصباح المشؤوم والعطلة الصيفية في آخر أيامها يغافل الطفل المتهور أمه مصرا على مواصلة التمتع إلى آخر لحظة بالبحر رغم رداءة الطقس وخلوّ الشاطئ من رفاق اللعب.

يلقي الطفل بجسده النحيل وسط أمواج صاخبة قليلة الرفق على غير ما تعود.

ما هي إلا دقائق معدودات إلا وهو يشعر أنه لم يعد يقوى على إبقاء راسه فوق السطح، أنه يخنق بالماء المالح، أن البحر بصدد ابتلاعه.

يتعالى منه الصراخ: النجدة! النجدة!

ذلك اليوم شاء حسن طالعه وجود رجل يجيد السباحة في المكان الضروري واللحظة الواجبة انتشله من أشدق البحر يرتجف بردا وخوفا ويسعل كما لم ولن يسعل فيما بقي له من العمر.

هكذا تواصلت القصة التي اكتب وكان بوسعها أن تنتهي بخبر في بعض الصحف الشعبية من نوع "عَرَقَ طفل في التاسعة في شاطئ حمام الأنف، أمه تغلق باب البيت على نفسها منذ أيام ترفض تسليم جثة ابنها للدفن".

كم من قصص انتهت عند أولى صفحات كتاب واعد... وأخرى عند أولى الجمل... وبعضها انتهت أوراقا بيضاء والكتاب مات قبل أن لم يخطّ عليها حرفا واحدا. منذ ذلك اليوم وفويبا البحر ساكنة في وعي ولا وعي الطفل والكهل والقرار مأخوذ أنه لا عودة أبدا للبعبع المخيف لا سباحة ولا سياحة.

حقًا! ما أكثر الوعود التي نأخذ وما أقلّ التي نلتزم بها. خاصية أساسية للعالم ألبس قناع البحار أو الجبال أو الصحاري أو القطبين أو الفضاء اللامتناهي: إغراءه الذي لا يقاوم. هكذا تسارع الأدميون إلى أخطر حالاته وأشكاله يرتمون في أحضانه جاهلين أو متجاهلين أن ضمة الحبيب مثل جماع انثى حشرة يسمونها فرس النبي والمعشوقة تلتهم رأس عاشقها جامعة بين لذة الأكل ومتعة الجنس.

أخيرا غرض المحيط غلب شوقي إلى أروع مظاهر العالم أعمق المخاوف. يحدثك الأقراب بتهيّب وِجَل عن عواصف بحر كانت تذهب لها الطفلة "ما مع جدتي لغسل الصوف. أيّ رعب مقدّس كان سيدهمهم لو وجدوا أنفسهم فجأة وسط هذا المحيط الذين يسمونه لسبب عجيب... بالهادئ!

تبدأ السفينة الصغيرة تسلقّ جبال سائلة لتسقط في وديان بلا قاع ذلك لأن الخاصية المميزة للطريق في عرض البحر أنه لا يكفّ عن الصعود والهبوط.

لمن لا يقدر أهمية هذه الملاحظة الثاقبة ما عليه إلا تصوّر حالته وهو يمشي والإسفلت يتمايل به يمينا ويسارا، يغور به فجأة نحو أول حفرة ثم يغيّر رأيه ليصعد بمحاذاة الطابق الرابع لأول عمارة تعترضه ليعود به اللعين إلى مستوى الأرض المنبسطة مواصلا مساره كأن شيئا لم يكن وبراءة القرش في عينيه. النتيجة أنك ستنزل منه أمام بيتك تترنح فيصِفُكَ الجيران بعرييد وضح النهار.

هل تقدّر كم أنت محظوظ والطريق ثابت على اليابسة، وإلا عبرت العالم ضحية دوار اليرّ والبحر وهذا أكثر مما يمكن أن يتحمّله أي مسافر.

يتسارع الطلوع والهبوط وتتسارع إلى الذهن المتزايد قلقا أن قاع البحار لم يتوقف منذ آلاف السنين عن استقبال حطام ما لا يحصى ولا يعدّ من سفن الأدميين... وأنه مستعدّ لإيواء حطام آخر ليس له مشكلة اكتظاظ.

يحتدّ الدّوار والغثيان. تتحرك السوائل المشبوهة تريد التفجّر من الفم قيئا كريها. أية قيمة لسفرة النجاة التي البسوني إياها إن قلبت الأمواج العاتية هذه السفينة السياحية الصغيرة رأسا على عقب؟

تتصاعد من أعماق الذاكرة أحاسيس ومشاعر الطفل الموشك على الموت غرقا وكأنّ الحادثة وقعت البارحة.

اللجنة، ما الذي أتى بي إلى مثل هذا المكان المرعب وأي معنى لوجود بدوي في عرض المحيط؟

لله درّ فرسان الريح والموج الذين ركبوا ظهر هذا الحصان الجامح الأجيال وراء الأجيال لا يثنّهم كم من مرة ألقى بهم في غياهب اليمّ. حقا إن شجاعتهم لضرب من التهوّر أو الجنون! لم تكفهم أهوال البرّ ليخرجوا لمنازلة أهوال هذا البعبع المخيف، وحتى لمواصله حروبهم على سطحه وفي أعماقه؟

أن يخرج حانون من ثبات قرطاج إلى حراك البحر مرّة واحدة أمر قد يكون مفهوما. أن يعود إليه مرّة ثانية فأمر فوق كل تفسير. يا للمجنون أو يا للمدمن! نسي غرق الرفيق وقد خطفته العاصفة من الزورق ترمي به إلى البحر قربانا. نسي الجوع والرعب والعطش. مُحي من ذاكرته كل ما عانى، عائدا للغول بل وبمحض إرادته! لو كنت مكانه لأدرت ظهري للموج والزبد من أول تجربة، ولركضتُ إلى أبعد نقطة، أحتمي من البحر بالجبال وبالبراري.

عاد إليه حانون كما عادوا كلّهم، ربما لأنه لا رحلة على الأرض تساوي روعة السفر على سهوة الجواد الجامح... ربما عاد لأنه لم يرّ أجمل من غروب الشمس إلا وهي على خط الأفق بين زرقة السماء وزرقة البحر، أنه لم يعرف روعة أروع من سطح البحر ليلا عندما يوشّحه طلوع القمر بنهر من النور.

نعم فضل البحر على البشر لا مثيل له وهو يثير فيهم أكثر الأحاسيس والمشاعر حدة وعمقا ورهافة وتنوعا وهو يستنفر فيهم أقصى طاقات التحمل والصبر وهم يواجهون التحديات التي يختبرهم بها بشدّ كل ما في جعبتهم من مهارات، من ذكاء، من فضول لا يقاوم ومن جرأة لا تتراجع أمام كل ما في جعبة هذا العالم من مهالك وأخطار. الملاعين المحظوظين، عرفوا أروع وأخطر وجه العالم... اخترقوا البحار والمحيطات لا خارطة ولا بوصلة، عرضا وطولا على مراكب بدائية ولم يتركوا لي إلا هذه الباخرة السياحية المجهزة بكل وسائل الراحة.

كأنني بأشباه توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبيّت عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيفة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في هذه الصحاري السائلة لا نعرف لها بداية أو نهاية، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا، وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

فجأة تصرخ امرأة: انظر هناك الحوت، الحوت، ما أضخم ذيله! إنه يضرب به على السطح تماما كما في الأفلام! هل رأيته؟ هل رأيته؟

أه، الحوت الذي ركبتُ هذه السفينة الصغيرة عُلّي أظفر منه بنظرة هو الذي يسكن جزءا كبيرا من فضاء خيالي منذ قرأتُ له رحلته في هذا العالم تحت اسم موبيديك.

أرفع رأسي بحذر من فوق الطاولة، أخرجه من بين ذراعين أغلقنا عليه بكل حرص خوفا من أن يكون للسماء أيضا صعوداً وهبوطاً.

تعود المرأة إلى الصُّراخ: الحوت! الحوت! يا إلهي، قطيع كامل من الحيتان!
كُفِّي عن الزعيق لوجه هرمان ملفيل. نعم، لقد رأيتُ الذيل الجبار في خيالي بعد أن أفرغت
كل ما في معدتي على فستانٍ عجوزٍ أخرى أشبعتني نظراتٍ ساحطة.

نائب يا نبتون، رحماك توقّف. النجدة يا صحراء. تدخّلي لدى سميتك السائل!
ليس من الصعب القول بأن البحر هو أيضا صحراء، لكن من الماء لا من الرمل وبدؤه
الدلافين والسلاحف وكل أجناس السمك والحوت. هم أيضا يرحلون بحثا عن واحات مبعثرة
في كل هذه الشساعة المرعية يجدون فيها الكلاً والمرعى وجماعا يُجدّد الحياة. ما يقال
أيضا إن هذه الواحات حدائق غناء تلجم بجمالها كل لسان، إن كائنات تتبارى في الغرابة
والإعجاز تتدافع فيها لا قدرة لأحد على رصد ثرائها بالأشكال والألوان... أو ما تعيش من
أحداث وما تتبادل بينها من أخبار نثرا وشعرا.

ألم تسجّل الميكروفونات المزروعة في أعماق المحيط لتصيّد غواصات العدو وجود سجع
في ثرثرة بني مويديك؟ ربما يوجد بين هاواي وألاسكا شاعر فحل طبقت شهرته أرجاء
المحيط الهادي يسمونه "أبو الطيب الحوتي"؟

ومما عاد به الرحالة الذين استكشفوا البحار على السطح وفي الأعماق التي وصلوها، إن
الصراع من أجل البقاء هو نفسه الذي تعرفه السماء والأرض. قرب السطح ملايين الكائنات
الصغيرة يزدد بعضها البعض لتبتلعها أفواه صغار الأسماك.

تحت هذا الطابق الأسماك الأكبر التي تبتلعها، لبتلعها في طابق أعمق الأخطبوط العملاق.
وفي الفضاء الذي لا يلحقه النور يجد هذا الكائن نفسه بين فكّي الحوت الخرافي لا يطلع
هذا الأخير إلى السطح ليتنفس إلا والصيد الأدمي على أهبة الاستعداد لتمزيقه إزبا إربا.
جميل ، لكن ما يهمني أنني أنا الطريدة والبحر الصياد على وشك أن يعمل فيّ أنيابه
وأظفاره السائلة.

أليست هذه السفرة أحسن رمز لرحلة الحياة بما هي مغامرة طائشة على أمواج هانجة، لا
تفصلنا عن أعماق الكارثة الفاتحة أشداقها لالتهامنا كل لحظة غير قشة طافية نركبها ونحن
لا نتوقف عن التخاصم فوقها نتقياً على بعضنا البعض؟
أخيرا المرفأ.

لا تصدّق أبدا من يتشدقون "أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن" فالرياح تجري أيضا
بما تشتهي السفن وإلا كيف كنا نرتحل في عالم بنينا على ضفاف بحاره كم من موانئ
نغادرها ونعود إليها بيننا وبين أشداق الموت سنتمترات من الخشب أو الصلب!

المهمّ انتهاء هذه السفرة اللعينة التي دفعت فيها ثمنا باهظا لأقضي يوما من أنقل وأغبي ما
عرفت من الأيام. أخرج من السفينة الصغيرة أمشي على الرصيف وكأنني خارج لتوي
من الحانات التي يتهمني أغبي خصومي زورا وبهتاناً أنني من روادها بل حتى من ساكنيها.
أدير الظهر للبحر وقد أخذ القرار.

نعم لن أعود له ما حبيت لكن ما أكثر القرارات التي نأخذها وتتكفل الحياة بالسخرية منها.

ها أنا مجدداً بعد عقود في جوف سفينة صغيرة أقوم نفس الدوار والغثيان والبحر الهائج يعبث بالسفينة عبث القطب بالفأر قبل التهامه. هذه المرة السفرة ليست سياحة بريئة وإنما مغامرة قد لا تحمد عقبها والحرب برّاً وبحراً على قدم وساق.

والليل في آخر ساعاته يتعالى الصراخ من البحارة السويديين وهم يقاومون بأيديهم العارية وحدات عسكرية مدججة بالسلاح هاجمت السفينة واستولت عليها في عملية مسرحية خاطفة كالتي لا تراها إلا في الأفلام الرديئة.

مرة أخرى الطريدة والبحر الصياد على وشك أن يعمل في أنيابه وأظافره. أي قيمة لسترة النجاة التي البسوني إياها إن قلبت الأمواج العاتية السفينة الصغيرة فما بالك أن يطلق عليّ وابل من الرصاص كما حدث لبعض من سبقوني في مثل هذه المغامرة؟ أليس صحيحاً أن ما نهرب منه طوال حياتنا لا بدّ أن يلحقنا يوماً ما؟

تتصاعد من أعماق الذاكرة أحاسيس ومشاعر الطفل الموشك على الموت غرقاً وكأنّ الحادثة وقعت البارحة.

فجأة ينكب عليّ رجل ملثم يحمل مدفعاً رشاشاً ليقول سيدي، لا نريد بك شراً ولو أحببنا لسألمناك للبحرية المصرية التي تنتظر على بعد ميل واحد أن نهديك إياها. سنجرّ السفينة إلى أقرب ميناء ثم نرحلك إلى حيث تريد.

على متن الطائرة التي وضعوني فيها عنوة أهدق طويلاً من النافذة في قوافل السحب متمتعاً بشعور الأمان والوحش الرقيق تحتي بما لا يقل عن عشرة آلاف متر. التفت للراكب الجالس بحذوي لأتأكد أنه مشغول بهاتفه النقال ثم أخرج لساني للبحر ولسان الحال يقول أفلت من براتنك للمرة الثالثة، لا تعول على فرصة أخرى لست مثل المجانين الذين يجبون استنزازك المرة الواحدة بعد الألف ولا يتوبون.

من قال إنني سأفي بنفس الوعد الذي قطعته على نفسي أكثر من مرة والبحر معلم من أروع معالم هذا العالم؟

نعم سأواصل استكشافه لكن على طريقي الخاصة. من قرّر أنّ على الأدمي شقّ الطريق على سطحه؟ أليس من الأسلم المشي على الحواشي؟ أليس هذا ما فعله الأوائل حين انطلقوا هانمين على وجوههم آلاف السنين يتبعون الشاطئ لا يجيدون عنه إلا اضطراراً، يأكلون من ثمار البحر ويشربون من أقرب العيون؟

نهجا على سنة أوائلنا كرّم الله وجوههم وتيمنا بسيرتهم المباركة وانتفاعاً بحكمتهم وحنكتهم فإنني سأواصل استكشاف البحر لكن مشياً على رمل شواطئه.

ليُسمح لي بملاحظة تهم كل المرتحلين فاتني التركيز عليها وهي أنه لا أصلح لاستكشاف هذا العالم من المشي.

من مزاياه الكثيرة أنه مجانيّ وتحت الطلب في أيّ وقت نشاء، وأنه فرصةٌ للاختلاء بالذات. لا أتذكر أن فكرة هامئةً أتتني إلا وأنا أمشي، ولا أن الفوضى التي بداخلي اكتسبت بعض النظم إلا إبان المشي.

ومن محاسن المشي مع الآخرين، أنه يلغي المواجهة بكل أخطارها لصالح "المجانبة" وهي أقل إثارة للعدوانية، الغريزية عند البشر. الأهم من هذا كله أنه يعطي للذات المنتبهة الوقت الضروري لرصد بعض ما يحفل به الطريق من عجائب وغرائب. كم كان أوائلنا محظوظين والعالم يكشف لهم روائعه خطوةً بعد خطوة، وهم كمن يتذوقون أفخم مآدبة، اللقمة بعد اللقمة، حتى وإن غصّوا ببعضها أحياناً.

هكذا سأطوف حول البحر الذي عشتُ سنينا على ضفافه وتعلّيت بيدي بنظوني مرفوع إلى الركبة وقدمي في الماء الدافئ إلى الكعب، أملاً عيني من موجه ومن زبده دون حاجة لتذوق طعمه.

يوم أكمل تأملي له من كل الشواطئ التي تحيط به سأشرع في طواف حذر حول الذي يصفونه بالأحمر، ثم اكتفي من رحلة الاستكشاف بمحيط أو اثنين نظراً لضيق الوقت وكثرة المعالم الأخرى التي تستأهل التوقف عندها. كل هذا وأنا في مأمن من غضب نبتون، أحمداً من يتوجّب له الحمد أنني لسْتُ الغريق بل وفي مأمن حتى من البلبل.

*

يجذبني من ذراعي مُضَيّقِي ابن مدينة تُشرف عليها هضبة طبّقت شهرتها الآفاق.

- هيا الولية تنتظرنا للغداء ، يكفي ما تأملت هذا الهرم .

- لا تستعجل عليّ، يا للمهندس العبقرى الذي أمر الصخور أن تتخذ أشكالاً هندسية لا وجود لها في الطبيعة كأنه يريد أن يزايد عليها في فنّ خلق الجبال.

- الأغرب أن الذين هندسوا وشيدوا هذه المعالم الجبارة التي تتحدى الزمان منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، تحملوا كل ما تحملوا من عناء ومن حوادث مروعة، فقط ليتمتع حفنة من الفراعنة بالخلود.

- ربما الحقيقة أن الذين شيدوا هذه الاهرامات لم يفعلوا ذلك إلا لإثبات نواتهم وسعيا لخلودهم هم... أما الفرعون فكان مجرد واسطة مهمته توفير السلع الضرورية والخبز والجمعة؟

يهزّ الرجل كتفيه مستهجنا فكرة لم يدافع عنها يوماً أحد ثم ينظر لساعته.

- طيب ما زال أماننا بعض الوقت لفسحة قصيرة أعددتها لك كمفاجأة .

كل ما يمكنني أن أشهد به بخصوص النهر أنه لا وجود فيه لظاهرة اسمها دوار النهر... وأن السفر عليه يأتي المرتحل بحالة من الارتخاء اللذيذ وهو يستعرض الانسياب الهادئ لما يتزاحم على ضفتيه من مشاهد، نعم، هكذا كان علينا أن نغير الحياة: جلوساً على كرسي مريح والطريق هو الذي يتحرك ببطء، نتأمل من بعيد -وفي أمان- روائع العالم وفضاعته. أضف لهذا أن هذا الذي أنساب فوقه نهر ليس ككل الأنهار. إنه نهر ارستقراطي بكل المقاييس ومن ثمّ شعور التهيب الذي يسكنني وأنا الآن محمول على موجه.

"هو النيل... (خالد فتح الرحمان عمر)

مِيقَاتِ كُلِّ الْعَصُورِ

رَاحِلُ أُنْبَا بِاتِّجَاهِ الشَّمَالِ

هُوَ النِّيلُ

يَعْبُرُ هَذِي التَّخُومَ... وَتِلْكَ الْبِحَارِ

وَذَاكَ الْعِمَامِ... وَحَدَّ الْخِيَالِ

يَسَافِرُ فِي اللَّانِهَائِيَاتِ

وَيَبْقَى عَلَى شَفْتَيْهِ السُّؤَالِ

يقطع عليّ انتباهي للحركة البطيئة للفلوكة صوت مرافقي .

- هيا يا صاحبي، اخرج من ذهولك، أنت لا تتكلم منذ ساعة.

- كم قرأت عن هذا النهر؟ لم أكن أتصوّره بهذا العرض!

- لهذا تسميه اللهجة العامية "البحر". أهم تحدّ طرحه على أجدادنا طيلة مئات آلاف السنين عرضه هذا. تصوّر كم منهم وقفوا حائرين أمامه تتعقّبهم الكواسر، وهم لم يأخذوا بعد دروسا في السباحة. حدّث ولا تسل عن طوله وكم أرق أكبر المغامرين وهم يبحثون عن منبعه.

- المنبع! لماذا لا تدبر اتجاه الزورق نحو الجنوب إلى أن نصله؟ الطريق سهل لأول مرة، فلماذا لا نغتنم سماحته. نعم، لنركب ظهر هذا الحمار الوديع ليحملنا إلى حيث وُلد ووُلدت معه حضار تكم.

يمازحني مضيقني:

- أخشى أن تتأخّر كثيرا حتى على العشاء فتزعل "الولية مراتي". كل ما أستطيع توفيره لك زيارة سياحية لبضع ساعات لا بعثة بأشهر. ثم يبدو أنك تتوسّم الكثير من الخير بخصوص هذا النهر.

- رحماك، اترك لي بعض الأوهام.

- الذي تركب الآن هو الجزء المرهق منه، جزوه العجوز. كأنّ ركض آلاف الأميال امتص منه كل حيويته. لكنه شيء جد مختلف هو يتشكل في رحم المجهول.

- نهر مؤدب كهذا! مستحيل. أنظر كم هو وديع هادئ ومسالّم لا يريد بنا أبسط إزعاج.

- لو تابعت مجراه إلى الجنوب لطوّح بك بعيدا وسط الصحاري والأحراش منتهيا إلى مستنقعات شاسعة. وبعدها تدبّر أمرك، للتحرك وسط التماسيح والبعوض والذباب وما لا يخطر على بالك من الكائنات المفترسة، صغارها وكبارها.

- والبشر؟ إنهم أخطر ما أعرف من مشاكل الطريق. يا إلهي، أي عالم هذا! قلّنت لِنفسي:

أخيرا وجدّث الجزء الآمن من الطريق وتقول لي: لا شيء من هذا القبيل موجود. حرام عليك. طيّب، ماذا سنفعل الآن بالأدميين في بحثهم عن المنبع وقد توقّف بهم النهر وسط مستنقع يطير فوق سطحه سحاب من البعوض، تترصدّم تحته التماسيح وعلى ضفته ينتظرهم البشر أخطر الكواسر.

- أي خيار لهم سوى السباحة بأقصى قدر من السرعة في اتجاه الشاطئ المقابل حيث ينتظرهم أسد فارغ المعدة نافذ الصبر، وإن نجوا بجلدهم، عليهم مواصلة التوجه نحو المجهول.

-الملاعين، عرفوا أرقى أنواع الرعب والانبهار وأنا في البلد الذي أعيش فيه لاجنا آخذ المترو كل صباح لأسمع تقاهات الناس يصرخون في نَقَالهم!
- عفوا!

كأني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبتّ عبر الزمن شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تأنهون في الصحاري والمستنقعات والأدغال لا نعرف لها بداية ولا نهاية، نكاد نهلك فيها هلعا وجوعا وعطشا، وخذ ما شئت من رعبنا ومن انهيارنا البكر.

- يا رجل رحمة بالمساكين! اختصر. ما الذي حصل للمغامرين الأشاوس وهم يواصلون بحثهم عن أصل الشيء؟

- ضاعوا في ألف اتجاه. لكنهم لم يكفوا عن التردد: سنكتشف من اين يأتي كل هذا الماء ولو تطلب الأمر آلاف السنين. ماذا يظن نفسه هذا النهر؟

من أين يأتي كل هذا الماء؟ قد يكون هذا السؤال الذي أوحى به النهر أسئلة من أين أتى الأدمي، من أين أتى العالم، من أين أتى الزمان؟ ... أليس النهر من أوحى لنا بتصوّراتنا الأكثر انتشارا عن هذا الزمان، وأنه هو الآخر يسيل بلا انقطاع في اتجاه واحد، لا قدرة لأحد على تثبيته أو جعله يبير مساره عودة إلى المنبع.

- لا تقل لي أن الرواد لم يفكوا اللغز ولم يكشفوا السر؟
- بلى، كتبت عشرات الكتب في الموضوع وتمّ منذ قرن تقريبا اكتشاف المنبع بعد ما لا تتخيل من المغامرات.

أعود لممازحة مضيّف كريم.

- لا تُطل، يقال إنه ينبع من... اسم البحيرة التي ولد فيها أبو حضارتكم؟

- بحيرة! قل بحيرات وكلها تصب في بعضها البعض. منها واحدة تقع على مستوى جبال شاهقة في اتجاه آخر غير الذي بحث عنه المستكشفون. كم من وقت ومن تضحيات لتتجمع أخيرا كل قطع "البوزل" ولتتضح الصورة الشاملة.

- متأكد أن كل القطع جُمعت؟ ما عرفه عن طبيعة الطريق أنه يحرم أمرا كهذا.

- نعم يبدو أن موضوع منبع هذا النهر قد أغلق.

- طيّب، من أين يأتي الماء الذي تفيض به كما تقول البحيرة الأمّ وما تفرع عنها من بحيرات لتلد نهرك المقدس؟

- من قمم شامخة مكلّلة بالثلج أصبحت خرائطها هي الأخرى معروفة وموثقة.

- وقيل ذلك.

- ماذا تقصد؟

- فهمتني، أين كان ماء ثلوج قمم الجبال؟

يضحك مرافقي.

- في السحب طبعا.

- وقبل تجمعه في السحب، من أي بحر تظن أنه انطلق؟

- أتصور صعوبات رسم خريطة تصرّ على رصد كل المنطلقات وكل المسارات.

- إذن أنت تتفق معي أنه لا أحد يعرف أو سيعرف يوما منبع هذا النهر ولا أي نهر آخر.

محكوم علينا أن نجعل دوما بداية الأشياء ونهايتها، لا نحمل معنا إلا حيرتنا وما تولد من الأسئلة. والآن رحماك، بعد شهوة المنابع جاءتني شهوة المصبّ. هذا أمر تقدر عليه والبحر

الحقيقي ليس بعيدا وعلى ما أعلم لا خطر علينا قبل أن نصله من غضب فرس النهر. في

طباع هذا النهر شيء يذكرني بزحف الثعبان لكنه ثعبان يعرف طريقه وليس كذلك الغبي

المسمّى "أوكافانقو" الذي تدبّر أمره ليضيع في الصحاري ومعه كل من وثقوا أنه يعرف طريق البحر.

- لسنت متأكد أن هذا النهر مستعجل للذوبان والتلاشي في مياهه. ألم ترّ على الخريطة حبه

للتعرّج واللفّ والدوران ولو أنه ليس الوحيد في خياره هذه. هل رأيت يوما نهرا يرسم

لمساره خطّا مستقيما؟

- طيّب، لنتبّع بتعاريجه. ما زال أمامنا بعض الوقت حتى وإن كنت غير مستعجل للقاء

البحر لأسباب ربما أشرحها لك يوما.

- أمامه هو كل الوقت وقد قال فيه أحد شعرائنا أنه واهب الخلد للزمن، أما نحن فعلينا

الإسراع إلى البيت. مؤكّد أن "الولية" تزفر من الغيظ أمام أكل برد منذ ساعات.

*

يعترضني قبل دخول الطائرة شرطي آخر لكن في زيّ مدني.

يمطرنني بأسئلة غريبة وهو يقلب أوراق الجواز: ما سبب سفرك لحرّيتستان؟ زرت

قمعستان وفسادستان وقبحستان وإرهابستان. ونفاقستان أيضا! ماذا فعلت في هذه البلدان؟

كنت كمن يسمع الأسئلة التي لا يريد الجهر بها: لماذا أنت أسمر اللون؟ هل فقدت شعرك

لأسباب مخالفة للقانون؟ التأشيرة حقيقية أم مزيفة؟ جواز السفر هذا، بكم اشتريته؟ متأكد

أنك لا تحمل فيروسات أو قنابل؟ من تعرف من المنظمات الإرهابية وما عنوانها؟ هل

تنوي قلب نظام الحكم في بلادي؟ هل أنت إرهابي، هل تصلّي؟ هل ستخطف الطائرة؟ هل

تحمل مخدرات في مخرجك؟

لم تكن الرحلة يوما سهلة على أحد وذلك منذ غابر الزمان. كان رحالة العصور القديمة

عندما ينزلون بشاطئ مقفر دفعتهم إليه الرياح والصدف، يضعون على الرمل سلاحهم

وهداياهم ثم يلتجئون بسرعة إلى سفنهم. كانوا ينتظرون أن يخرج من وراء الشجر آدميون

أكثر منهم خوفا يقتربون من بضاعتهم يقلبونها بمنتهى الفضول والحذر ثم يختفون بدورهم

ليعودوا يوما -إن عادوا- بأغلى ما يملكون يبيعون. هكذا كانت تبدأ أولى علاقات التبادل وطقوس حقن الدماء.

بالكاد تغيرت هذه الطقوس والحذر الخائف من الشبيه المختلف هو العنصر القارّ الثابت في العلاقات بين البشر.

يتجدد الاستجواب في مطار الوصول. تُطيل الشرطة تفحص جواز السفر ثم تنقل بصرها إليّ تحدّق فيّ بشكّ متزايد. تعود إلى الوثيقة تقلّب أوراقها ببطء مثير للأعصاب. ما يهمّ هذه المرأة بدهاءة تقديرٍ مدى خطورتني على أمن شعبها ووطنها المفدى.

من حسن طالعي أن هذه المرأة لا تقرأ في الأدهان. لو علمت من هذا المائل أمام سلطنتها البيروقراطية المطلقة لفادنتني مباشرة لغرفة الإيقاف بتهمة التآمر على الوضع الفكري - السياسي - الروحي للبشرية جمعاء.

تتوجّه إليّ الموظفة العابسة بعد أن أسبعت جواز سفري تقليبا وتمعنا.

- انتظر...

تعود الشرطة بالجواز بعد دقائق بالغة الطول والثقل، وعلى وجهها ابتسامة باهتة:

- تستطيع المرور، لكن اكتب بوضوح اسم النزل الذي ستنزل فيه، لعلنا نحتاجك في أمر ما.

أخيرا أبعد نقطة في شمال الفضاء الحسي، جنبئها متعللا بالبحث عن العلم والحال أنني لم أقصدها إلا للضياع في غابات سمعت الكثير عن كثافتها واتساعها وما تحفل به من أضخم الأشجار.

أتوجّه لرفيقة المقطع الجديد من الطريق مداعبا ومستقرّا ونحن ندخل أقربها إلى المدينة التي نزلت فيها.

- من الظلم أن تتمتعوا وحدكم بمثل هذه الغابات الشاسعة وأن تتركوا لنا الصحاري الفاحلة. بدأت أخطّط للغزو والنصر المبين. لكن كيف لجمالنا التي لا تعرف السباحة عبور هذا المحيط الذي حفرتموه -من الواضح- تحسبا لغزونا؟

فجأة أصرخ بشتائم من حسن الحظّ أنّ مرافقتي لا تفهم كلماتها.

- ما هذا الذي لسعني؟ انظري كم انتفخت يدي!

- حذار، هذا الذي ذقت أنيابه يحبّ الدماء الساخنة وأنتم على ما يقال أسخن البشر دما. ألا زلت مصرّا على غزو غاباتنا؟

- يا بنت الحلال، كنت أمزح. قل لي على الأقل ما هذا الوحش الطائر ولماذا يهاجمني والحال أنني دخلت البلاد بتأشيرة قانونية ولا علاقة لي بالإرهاب من قريب أو بعيد!؟

- إنه حشرة كلفت شعبنا من الموتى ما لم يكلفنا أصحاب الأرض الأصليين. أقدم لك البعوض الأكبر ونسميه "المارنجوان".

-بعوض! تسمون هذا الفيل الطائر بعوضا؟ ما هذا الغشّ؟ من وصله البطاقات البريدية من غاباتكم لا يرى إلا جمال الجنّة والحال أن النزاهة تفرض عليكم وضع صورة الوحش

بأنياب تقطر دما على نصف البطاقة -على الأقل-ليعلم الجميع ما الذي ينتظرهم. إنها عملية تحايل موصوفة. سأحتج على كل وكالات الأسفار التي تروج لبلدك.
حقا هذا عالم رائع، لكن لا موطئ قدم فيه إلا وحولك كائن يخدش أو يقضم أو يعض، وإن لم يجد ما يمتصه منك، أصدر طنيننا مزعجا فقط للإزعاج.
- لا تعجل باللاتهام واللوم. كل ما هناك أنك أتيت في فترة انتشار هذا البعوض، وهي لا تتجاوز ستة أسابيع وبعدها يختفي.

- تقصدين أنه انتظرني حولا كاملا وأنه ترصد قدومي ونصب لي هذا الكمين، الله الله على ضيافتكم. طمئيني. هل النزول محمي ببطاريات صواريخ مضادة ل. ما اسمه؟ لن أخرج معك لهذه الغاية مجددا إلا مسلحا ببندقية، أو لابسا الحديد على طريقة فرسان القرون الوسطى.

تضحك مرافقتي ضحكة صفراء. تغيّر الموضوع.

-تعال، طلبت أن أريك الأماكن التي جئت من فيافيك القاحلة خصيصا لرؤيتها.
- خذيني حذو أصغر جدول وتحملني صمتي وجلوسي عنده ساعات. حتى الموسيقى لا تطربني مثل ما يطربني خرير الماء. هل النوات التي تنطلق من البيانو غير محاولة لتقليد موسيقاه؟

تجذبني مرافقة الطريق من كفتي.

- يكفي ما قضيت من الوقت هنا. نعم كم جميل صوت الماء وهو خرير هذا الجدول وهو صرير الثلج تحت الأقدام وهو نقر خفيف لمطر الخريف على نافذة غرفة النوم! لكن هناك مكان تسمع له أجمل أصواته. تعال.

بعد ساعات تهمس المرأة في أن رجل قادم من صحاري ما وراء البحار وضعته الصدفة على طريقها ووضعتها الأقدار على طريقه:

- كفاك تأمل هذا الشلال.

ترفع من صوتها، تهزّ الحالم اليقظان من كتفيه:

- تعال؛ مضى جل النهار.

- لن أتحرك من هنا حتى...

- حتى ماذا؟

- حتى ينتهي تدفق هذا الماء. لا أصدق أنه سيسيل دون توقف... اللهم إلا إذا كان ماء من نوع لا أعرفه.

تضحك رقيقة الطريق إلى أن ينهمر الماء من عيني بلون البحيرات الجبلية التي ولدت على ضفافها.

- لن تموت من العطش طيلة الانتظار... جوعا بالتأكيد. لا تقلق الماء في هذا البلد متوفر في كل مكان، وعلى كل الأشكال وله كل الأصوات، تعال الآن.

أقفر من جديد وأفزع الشنائم تتدافع مجددا على لساني:

- بجدّ، كأنّ لهذا البعوض اللعين مشكلة شخصية معي، عَجَلِي؛ أريد العودة إلى الحضارة، غَيَّرْتُ رأيي بخصوص دونيتها بالنسبة إلى الطبيعة.

- نعم سنعود إليها شريطة أن نجد الطريق.

- تمزحين!

- الظاهر أن "المارنجان" مصرّ على بقائك تحت تصرّفه أطول وقت ممكن. قد يكون هو الذي محا المثلث الأخضر الذي يوشّر لاتجاه النزول. انظر ملياً لعلّك تجده. إنه مرسوم على كثير من الجذوع. لا تقلق، سنجد المخرج حتى وإن استغرق الأمر بعض الوقت.

- وفي الأثناء أفرغ من دمي! حذار قد أكون مضطراً إلى مصّ دمك أَعْوَض ما يأخذ مني فيلكم الطائر.

- من هنا الطريق.

تشير مرافقتي إلى الخارطة بأصبعها لتقنعني بصواب القرار، لا تعلم أنني لا أعرف حتى بسطها في الوضع الصحيح فما بالك بقراءتها.

وهل كان لابن بطوطة وابن فضلان وماركو بولو وكولومب وبقونفيل وكوك وقبلهم بحارة العرب والفكيكينج وجزر المحيط الهادي خرائط صحيحة! ... كلهم مع ذلك توغّلوا في الأرض ذات الطول والعرض وفي البحار اللامتناهية لا يقودهم على ألف طريق مبهم إلا انبهارهم بعالم يريدون التشبع بكل روائعه لا يهمهم ما يدفعون من باهظ الثمن.

أعود لمداعبة امرأة لم تعد واثقة من المسار الذي اختارت للخروج من غابة مترامية الأطراف.

- على ذكر الخرائط، هل تعلمين أن الأوائل سامحتهم آلهة كل أساطيرنا وأدياننا كتبوا دليلاً مفصّلاً اسمه كتاب الموتى حتى لا يضلّ آدمي طريقه في الآخرة ولا أحد منهم فكّر في كتابة كتاب الأحياء حتى لا نضلّ نحن طريقنا في هذه الدنيا؟ نفصّل فادح قررت أن أضع له حدّاً.

- فكرة رائعة ستضعك في مقام المحسنين إلى الإنسانية جمعاء.

- بربك من تسلّم عند الإفاقة مثل هذه الوثيقة الضرورية للرحلة؟ أليس وضع المرتحل في هذا العالم شبيهاً بوضع سائح يفيق في مثل هذه الغابة وهو عارٍ، جائعٌ، خائفٌ، جاهلٌ من يكون وماذا يفعل في هذا المكان وما على المسكين إلا أن يتدبّر أمره لكي يأكل ولا يؤكل، ولا أحد يمدّه بخارطة موثوق بها لكي يجد هذا الطريق المستقيم الذي تتحدث عنه كل أساطير الأدميين.

- يا عيب الشؤم، حرام عليكم يا أوائل، والله عيب عليكم.

- ثمة مشكلة أخرى إضافة إلى غياب الخريطة الحقيقية للعالم الأدمي وكتاب الحياة لحسن التعامل معه: غياب الأدلاء أصحاب الكفاءات العالية. أين هم؟ الغالبية العظمى مبتدئون يتعلّمون بالتجريب على الزبون المسكين. بل وفيهم -ولو أنهم أقلية- من يتسلّم القادم الجديد فيرميه خفية في مصبّ البلدية، أو يدخل به أول سوق يبيعه بمقابل نحس، أو يجعل منه

عبدا، أو يضيّعه في الطريق عن جهل وعن غباء، وأغلب الوقت عن عجز عن الاضطلاع بمهمته. كيف لا نَقْضيَ جُلَّ حياتنا نتخبط في المتاهات، والأدلاء هم أنفسهم بحاجة إلى دليل؟

- حدّث ولا تسَلْ عن الأدلة الكاذبين وخرائطهم المزيفة مثل التي كان ينشرها الاسبان في عصر الاكتشافات البحرية ليخفوا عن اللصوص الآخرين من أين يسرقون الذهب الذي كانوا يغرقون به أسواق أوروبا.

- أه تعرفين هذه القصة، من حسن الحظ أن هذه الخرائط المزيفة أوصلت أجدادك هذه البراري لبيدوا الهنود الحمر المساكين بدل أن توصلهم إلى برارينا لنكون نحن من تبيدون. تهزّ رقيقة الطريق كتفيها وهي تطوي بعصبية لا تحفيها خريطة لا نفع منها. أعود لنصحها . يا ليتني مسكت لساني.

-احتفظ بنصائحك أنا قادرة على أن أخطئ لوحدي دون إعانة من أي كان.
- تنفّسي بهدوء وفكري في تحديد الاتجاه الصحيح، ثم نمشي في الذي تقررين لا نحيد عنه قيد أنملة.

- وأنت انتبه للطريق. لقد رسّمته على أرض الغابة الخُطى المسرعة لأجيال من المغامرين الحمر والبيض. أشعرُ أنّه قريب جدًا منّا.

- إن رأيته فسأفعل أني لم أره.

- لا تتهكّم. نحن فعلا في ورطة.

- أنت في ورطة، أمّا أنا...

- لوجه الشيطان اصمت. هذرك هو الذي سها بي عن مفترقات الطريق.

- ألا تعتقدين مثلي أن أكبر مشاكلنا مع الطريق وتقاطعاته أن جل ما نعرف عنه مصدره تائهون أكثر منّا.

-في الوقت الحاضر أكبر مشاكلي أنت.

يتواصل المشي وسط أليافٍ وأغصانٍ شرّعت في الوجه سيوفا. أعود لمداعية امرأة بصدد فقدان السيطرة على أعصابها.

-لا تخشي شيئا، خادملك سها عن إعداد تعويذة ضد "المارنجوان" لجهله بوجوده، لكن جعبته مليئة بكل التعاويذ الضرورية لمواجهة أخطار هذه الغابة.

- التعاويذ؟

- نعم، عندي منها أهم ما يحتاجه كل مسافر في هذه الدنيا. مثلا تعويذتي رقم 86: "ابرا دابرام باتو باتتي يتاي متغى". هي سلاح يصلح لكل طفل يخاف العفاريت ويصلح أيضا ضدّ العبيثة، وجد الثوم أم لم يجد. أما تعويذتي رقم 543 "بلبلا بلبلا" فلا أنفع منها ضد الأطفال الأشرار الذين يضربون زميلا يغارون منه. ثمة أيضا التعويذة رقم 798: "لابناعي لايس". هي صالحة ضدّ جمع الأسنان والاستبداد والقبح والغباء وغلاء الأسعار والحيرة الميتافيزيقية وحبوب البشارة للمراهقين وترهل الثديين لمن تجاوزن عمرا معيّنًا.

- وتعويدة.. لنقل 987؟

- هذه ضد الشرق الأوسط.

- الشرق الأوسط!

تبتسم مرافقتي وأنا أمثل لها نقاشا من وحي الحفيظة والخيال بيني وبين محاور جاهل بأهم التغييرات التي أدخلتها على العالم.

- غريب، لم أعد أسمع أخبار الشرق الأوسط وهي في صدارة كل نشرة منذ نصف قرن!

- الشرق الأوسط؟ ملهى ليلي لا أعرفه؟

- أتسخر مني؟ الشرق الأوسط منطقة جغرافية لا تتوقف الحرب فيها، أنظر على الخارطة.
- أنظر أنت...

- اللعنة، أين ذهب الشرق الأوسط؟ أنا متأكد أنه كان هنا بمشاكله المقررة التي لا تنتهي.

- هل جنتت؟ هذه محمية طبيعية لا يوجد في صحاريها إلا البعير وقطعان المها وغابات الأرز فوق القمم وهي ممنوعة على السكن منذ قرون بقرار من الحكومة العالمية.
تبتسم مرافقتي.

- إذن أنت تعبر العالم ملغيا بتعاويذك كل ما لا يعجبك، يا لك من محظوظ.

- المشكلة أنني ربما خاطرت بمستقبلي فيه وقد تجاوزت كل الحدود بالسخرية من الشرق الأوسط. تصوري إفاقتي في العالم الآخر لاكتشف أوزيريس وهو يحدّق فيّ بحقد: ماذا فعلت بالشرق الأوسط يا شقي، ألا تعلم أنه مسقط رأسي ورأس أغلب الآلهة المرسمين قانونيا والمعترف بهم دوليا؟ تتجاسر على أربابك يا نزق! لن يأخذ وقتا طويلا في وزن قلبي والقرار مأخوذ حالما شاهد اسمي على القائمة: إلى الربة أميت لتمزّق أشلاني وتلتهم روحي رامية بها إلى الخواء.

بدل الابتسام، تعود مرافقتي إلى التحديق في الاتجاهات الأربع بانزعاج متزايد. ثم تستغرق في التفكير مقطبة الجبين، وأستغرق في ارتشاف القهوة الدافئة جالسا على جذع شجرة مينة أتأمل الأدمي وهو يبحث منذ الأزل عن مخرج وقد أغلقت عليه الغابة قبضتها وتقرّر الطريق أمامه إلى ألف مسار مبهّم.

ظهور العلامات التي تسبق نوبات العنف عند أبشع أنواع الرجال ونوبات الهستيريا عند أبشع أنواع النساء.

يجب تحويل اهتمام هذه المرأة لكي تزعجني بشكل من أشكالها.

- أقصّ عليك طرفة عن آخر مرة ضعفت فيها في غابة. يومها كنت طالبا وكنت أعمل أثناء عطلة الصيف في مزرعة في أبعد بلدان الشمال، كسبًا لما يسمح بمواصله التوغّل فيه حتى أتأكد مما قيل لي عن وجود مكان لا تغرب عنه الشمس. قالت لي مستخدمتي: اليوم أحد وسنذهب أنا وزوجي إلى الكنيسة لا أظنك ترغب في مصاحبتنا وأنت من دين غريب. لماذا لا تقضي يومك في الغابة؟ نعم، اقض يوما ممعنا في الغابة وعد بقفة مليئة بثمره، ماذا تسمونها؟ تعرفين ما أقصد، هذه الحبات الزرقاء التي لا تنبت إلا في غاباتكم الباردة.

- نجمعها نحن أيضا صيفا، نصنع منها كعكا ومرّبي.

- ربما كانت المرأة مؤمنة أن شابا من إفريقيّا - لا بدّ أنه أخذ عن أبيه وجده كل تقنيات الجني والقنص- أصلح من زوجها للمهمّة. إذن لماذا لا تستخدمه فيما تؤهله فطرته له؟ مدّت لي بالقفة مبتسمة، فقلتُ في نفسي: يجب أن أطلب رُحما وقوسا ونبالا. بماذا سأقاتل الدبّ إذا اعترض طريقي؟ أثرتُ الصمت وتوكلت على إله الآباء والأجداد. كانت أولى غلطات اليوم وأنا أستقرّ آلهة الربوع.

خرجتُ إذن، بففتي الفارغة للبحث عن الدرّة الزرقاء ألغنها في السرّ وفي العلن. بصراحة، لا أدري ما الذي يجعلكم تُحبون أكل هذه الفاكهة، فطعمها حامض وتلتصق باليد تاركة بقعا لزجة حمراء. تعرفين أيضا أن أبغض ما فيها أنها لا تنبتُ -مثل البرتقال والتين والزيتون والأشجار المثمرة التي تحترم نفسها- على غصن تمّد إليه يدك واقفا، وإنما اختارت للانتقام من المتطفلين عليها أن تنبت على شجيرات قزمة ملتصقة بالأرض، وآه يا ظهري.

مرّ اليوم وأنا مستغرق، منهمك في العمل وفي محاربة البعوض الذي جعل من جلدي حريقا متواصلًا. فجأة انتبهتُ إلى أنني وسط غابة لا أتذكر من أين أتيتها ولا أعرف من أين سأخرج منها، ناهيك عن كونها في أقاصي الأرض و "ما" في طرفها الآخر لا قيل لها بمساعدتي في شيء. وفي مثل هذه الحالة التي جرّبها الأدمي طوال سعيه في الغابات المظلمة، يعلم الكل أنه يجب التنفس بهدوء ومغالبة رغبة الركض في كل اتجاه والصراخ: النجدة، النجدة، وإعمال الفكر مطوّلا لاختيار أنسب اتجاه، ومواصلة المشي دون الخروج عنه قيد أنملة. يومها وثبتُ على قدمي منطلقا في كل اتجاه، متنفسا ببالغ السرعة، والعرق يتصبّب مني، مقرّرا أن الاتجاه الصحيح على يساري. كلاً إنه على يميني. لا، على يساري.

النجدة يا "أودان"، وربّ الكعبة لن أشرك بك من اليوم إلها آخر!

- ووجدك البوليس بعد أسبوع تنماوت جوعا بعد أن أكلت كل ما في القفة والقفة نفسها؟
- يا ليت! ربما كنت أفهم أكثر تجربة الأوانل. الملاعين، استكشفوا واخضعوا أكثر الغابات اتساعا وغموضا وخطورة ولم يتركوا لنا إلا التجول أيام الأحد في الحدائق العمومية المكتنّزة وبعض أشلاء الغابات المبعثرة بين الحقول.

كأنّي بأشباح توغّلت بعيدا في فضاء العنّمة تبتث عبر الزمان شيئا يشبه التعجّب، ثم حفيظة واضحة، ولسان حالها يقول: لا بأس أن تبادلنا رفاك بالذي عشانه ونحن تائهون في هذه الغابات المظلمة المرعبة لا نعرف لها بداية ولا نهاية، نكاد نهلك فيها هلعًا وجوعًا وعطشا... وخذ ما سُنت من انبهارنا البكر.

- سهوئ. واصل.

- كانت الغابة التي ضعتُ فيها مكانا مرّوضا شقّ فيه الأدمي ألف مسار. لذلك لم تمرّ إلا بضع ساعات قبل أن أقع بالصدفة على جزء واضح من الطريق. تنفستُ الصعداء ولم تبق إلا مشقة الرجوع والبحث عن الأعدار. استقبلتني مستخدمتي بلامبالاة من لا يعرف أي جهنّم كان الآخر يتخبّط.

- مالك ممتنع الوجه؟ لماذا تأخرت؟ أين القفة وأين الحصاد؟
- أخذهما الدب. لا أخرج إلى جبل بوقرنين وما يعج به من أسود ونمور وفهود وفيلة
مرعبة إلا مسلحا بما تعده لي "ما" من رماح وسهام، وترسلونني هنا لمواجهة الدببة ولا
أدري كم من وحوش أخرى أعزل. سأقول كل شيء لـ "ما".
يومها ضحكت المرأة الطيبة:
- أه منكم يا أهل المدن، تضيعون في حديقة عمومية عليها حارس بصفارة وقبعة صفراء.
ترمقتي مرافقتي بنظرة ساخطة ثم تنفجر بضحكة لا مرح فيها:
- هذه ليست حديقة عمومية ولا وجود لحارس بقبعة صفراء يدلنا على باب الخروج. انها
غاية تمتد مئات الأميال في كل اتجاه وحظوظنا لاكتشاف جزء من الطريق بالصدفة شبه
معدومة.
- لماذا لا نضيع هنا بقرارنا لا بقرار حادث غبي؟ قد ننجح في تربية بعض أصناف هذا
"المارنجوان" السمين لتغذية أطفالنا. ثم تصوّري ماذا يمكن أن نفعله بأطفال لن يجلسوا
أبدا أمام تلفزيون أو حاسوب ولن يسمعا يوما رنين نَقال؟
- سأنتظر فراغ "الترموس" من القهوة ونهاية السندويشات وأنداك حدثني مجددا عن رغبتك
في العودة إلى أكل الحشرات الطائرة وجني ثمار الغابة وليس جلود الحيوانات. لنعد
للموضوع. حدسي يقول لي إننا لسنا بعيدين عن الطريق، لكن الظلام يزحف ولن نرى
شيئا عما قريب.
- اكتشفي أنتِ هذا الطريق واتبعيه صاغرة إلى إسطنبول الحضارة. أما أنا فهذه فرصة ثمينة
للاختفاء من عالمك المجنون. أي مكان أحسن من الغابة للاختفاء وهي منذ الأزل ملاذ
السحرة وآخر معاقل الثوار.
تهزّ المرأة كتفها ثم تهمس في أذني بنبرة تفوح بخوف الطفل التائه في الظلام.
- الليل يداهمننا، يا يسوع!
- نعم، لتُصلّ ليسوع. سمره ثم اعبد. لا تتبع طريقه، وإن أضعت الطريق استغث به. الله
دركم يا بشر. والآن وقد صلّينا، ماذا نفعل؟
- عمّ الظلام وهنتي التعب. لم يعد لنا من خيار غير التوقف وانتظار الفجر والفرج. يا
إلهي، الغابة ليلا ولا ناز تدفع عنا أنياب البرد والدب.
مما يقال ان الكلاب لا تهجم الا من تشمّ عليهم رائحة الخوف. من حسن الحظ انه لا سباع
في هذه الغابة والا لكانت الرائحة التي تفوح من هذه المرأة كفيّلة بجلب كل ما فيها من
اصحاب المخالب والانياب.
على يساري امرأة جالسة على العشب تحاول النوم علّه يختصر ليلة لم تكن في الحسبان.
ظهري مسنود إلى جذع شجرة فارعة الطول والانتباه على أقصاه لا أريد اختصار ليلة
جادت بها الأقدار.

إنّ هذا هو العالم كما جرّبه الأوانل كل لياليهم طيلة مئات الآلاف من السنين... إنّ هكذا هي الأحاسيس والمشاعر البكر والأدمي طريفة مختبئة داخل الظلام تحرق في جمرات ملتهبة هي أعين السباع الجائعة الباحثة عن عشاء... الخوف! لا يصحبنا شعور على طول الطريق قدر هذا الشعور: خوف الطفل من الظلام ومن فقدان أمه وأبيه، خوف فقدان الحب والمكانة، خوف فقدان الصحة والشباب، خوف الموت بعيدا عن الأحبة والديار وخوف الضياع نهائيا في مثل هذه الغابات الموحشة... والويل لمن لا يعرف كيف يرّوض خوفه. نوم متقطع مضطرب يُنهيه تسلّل فجر طال انتظاره.

أخيرا، تعود للعالم ملامحه المألوفة للنفس طمأنينتها المحبوبة.

تبادرني امرأة منهكة سعيدة بأن الليل قد انجلى فعلا وليس فقط في قصائد الشعراء.

- هيا، يجب العودة للبحث عن الطريق اللعين.

كأنّ الغابة أصابها ما يشبه القرف من آدميين غير منتبهين لما توفره من روائح وأسرار فقررت أنه آن الأوان ليغربا عن وجهها.

تصرخ مرافقتي فجأة في قمة الجذل:

- أخيرا، من هنا، هيا أسرع، يكفي ما ضيعنا من وقت...

- آه، عادت الابتسامة إلى شفّتك. مهلا، ما هذه العجلة؟

- يا يسوع، نهار كامل ونحن ندور في حلقة مفرغة!

- أليس هذا ما فعل طول الوقت، أليست الدائرة هي الشكل الحقيقي لكل طريق؟

- كفاني فلسفة. تصوّر النعيم الذي ينتظرنا بعد ساعة. دشّ ساخن وفنجان قهوة ومرطبات وسيجارة.

- ما زال لديك وقت كافٍ في هذا المفترق لاختيار الطريق الصائب، وهو إلى الوراء.

يا امرأة لا تفعليها فيّ. تعالِي، كوني بنتا طيّبة. من سيطلب لي "المارنجان" ويكوي لي

جلود الحيوانات لأكون أنيقا وتعجيبين بي؟

- لو كنت تعرف على الأقل كيف توقد النار!

- لم أتمنّ في طريقة أبطال السينما بما فيه الكفاية. ثقي فيّ، سأعيد الاكتشاف الأعظم.

- تندبّر أمرك بالتوفيق.

- كيف أتدبّر أمرى هذا؟ لا يضاهاى جهلي بإيقاد النار إلا جهلي بكيفية خلق امرأة من ضلعي.

- هذه مشكلتك لا مشكلتي.

- لا تتركين لي الخيار خاصة وقد نفذت كل القهوة من الترموس. على كل حال الذنب ذنبي

وقد تبعتك في غابة كنت أظنك عليمة بأغوارها. كم صدقت العجوز النرويجية: آه منكم يا

أهل المدن، تضيعون حتى في حديقة عمومية عليها حارس بصقارة وقبعة صفراء.

حديقة عمومية! المكان المروّض من العالم... الذي فيه طريق لا ليس فيه، حدود

واضحة، خريطة صحيحة وحتى حارس غير ضروري بما أنه لا دببة ولا أسود طليقة

تترصد وراء الأشجار... كاريكاتور الغابة... محاولة اعتصار ما في العالم من مبهر
والتخلص من كل مرعب فيه.. حلم الأدمي في أقصى حالات التبلد وهو يريد الشهد دون
إير النحل.

*

الطريق الآن أنه ليس متجها إلى الأمام أو الخلف وإنما إلى فوق والمشكلة المنفاقة فيه
ليست الدوار وإنما تنفس يزداد صعوبة وكأن العالم داهمته نوبة بخل وقد قرر أن يكون
عطاءه من الهواء أقل من القليل.
خلفي وفوقي الشمس، تحتي وأمامي ظلي أشرف عليه أتأمله بفضول كأنني أكتشف للأول
مرة أن لي ظلًا.

يحتد الصداق والقمة المنشودة تتباعد نفسا بعد نفس.

يجب رفع الساق بعد الساق وكل واحدة بيقل عمود من الرخام.

أرمني كل مرة بالقدم على الأرض فتسقط عليها ثقيلة مرتبكة كأنها تتعثر، مردداً لنفسي ما
تزال هناك بعد هذه الخطوة خطوة أخرى أقسم أنها الأخيرة.

يا إلهي ثمة رياضيون طلغوا إلى قمم تتعالى على هذا الجبل بألاف الأمتار!

يا للأبطال الميامين وقد جعلوا حتى أعلى الجبال تحني الهامة أمام الأدمي، وكل عقبة مألها
التذليل والإذلال! يا للأوباش، تنعموا بكل هذا ولم يتركوا لي إلا طريقا مكتظا بباصات
السياح!

كأنني بأشباح توغلت بعيدا في فضاء العتمة تبث عبر الزمان شيئا يشبه التعجب، ثم حفيظة
واضحة ولسان حالها يقول: لا بأس أن تُبادِلنا رفاك بالذي عشناه ونحن تائهون على قمم
الجبال المرعبة، نكاد نهلك فيها إرهابا وجوعا وعطشا... وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.
عليّ التوقف طويلا هذه المرة لألتقط ما بقي لي من أنفاس.

فرصة لتجديد الانتباه للطريق من هذا الغلو.

لا شيء غير مسارات متعرجة يمنع بعدها من رصد كائن يمشي فوقها.

آية مخيلة قادرة على استحضار كل من تتابعوا على الطريق وأعطوه الوجود والشكل.

أحاول تخيل شبكة آثار خطوات الأدميين الذين تتابعوا على السهل الذي انطلقت
منه... وأيضا الآثار التي رسمتها خيل وبغال وحمير سجنينة تنن بأثقال سجانيتها... ناهيك
عن آثار دبب النمل وكم من كائن صغير يعيش في طي الكتمان والسر.

مستلق على الظهر أسترجع أنفاسي أهدق في السماء متابعاً سرب طيور دخل فجأة مجال
بصري.

قد لا تختلف رحلة هذه الطيور في مشاقها ومكافأتها جذريا عما تعرف كل الأجناس الحية
التي ترتحل على سطح الأرض أو في أعماق البحر.

فجأة ترسم طائرة نفاثة خطا أبيض يقسم السماء إلى اثنتين.

تبرز طائرة ثانية هي الأخرى بخطها الأبيض الطويل.

تبدو الطائرتان كأنهما تتجهان نحو اصطدام قد تتساقط أشلاؤهما فوق رأسي.
من حسن حظي وحظّ ركابها أنهما على غير نفس المستوى من الطريق.
يحصل التلاقي فقط بين الخطين ليرسما قاطعا ومقطوعا لم أره يوما على سبورة السماء.
والآن إلى عكازي من جديد والهدف أصبح على بضع مئات من الأمتار ساقطعها ولو زحفا
على البطن.
أخيرا المكان الذي أوصيتُ، قُل أمرتُ بالوصول إليه وكلُّ مَنْ حملهم الطريق إليه لم
يرجعوا منه كما وصلوه.

عجبي ممن يتدافعون إلى المتاحف منبهرين بلوحات جامدة أو يفاخرون بما يمتلكون منها،
والفنان الأعظم يضع على ذمتهم، مجانا، في كل لحظة، النماذج التي يقلدها أنبغ
الرسامين : قرص ذهبي يخرج من وراء التلال، من خلف السحاب، من لجة الظلام، يخفي
في خضم البحر، يخرج منه غير مبلل، هضاب متموجة من الصحاري الصفرة والبيضاء،
أمواج متلاطمة توجت هامتها بالزبد، نهر جبار يشقّ طريقه بحذر بين الأدغال والرمل،
بحيرة صافية تكتشف الكائنات في جمالها الوديع أجمل الصور، ورقة خريف ركبت ظهر
الريح جاءت شهوة السفر، سهول شاسعة ملتحفة بالأبيض أيام وصلها مع الثلج أو
بالخضرة أيام موعدها مع الربيع أو بصفرة الذهب حين تأتيها حرارة الصيف بالشبق،
أدغال كثيفة تتصعب عرقا تحت سماء بلون الرماد، بدر يرسم على صفحة البحر نهرا براقا
موجه من ساطع النور، سماء تتلألأ بجواهرها ليلا...أو هذا الجبل.

جبل الربيع شفاف الإغراء كأنه بيتسم (كيبوكسي)

جبل الصيف داكن الخضرة كأنه يقطر مطرا

جبل الخريف ساطع اللمعان كأنه يتزبّن

جبل الشتاء بعيد لا مُبال كأنه نائم

كم وقف عنده من شعراء ساعات وأياما بانتظار انقشاع الضباب، لمجرد إلقاء نظرة خاطفة
على قمته قبل أن تلتحف مجددا بالغرابة والسرّ، ثم انصرفوا لا ينبسون ببنت شفة. منهم
مَنْ جاء ولم يرجع، ومن أيقن أنه لم يعد من الآن فصاعدا بحاجة إلى شيء أو أحد. كم من
رسامين وقفوا مذهولين أمام هذا الجبل والرسومُ عندهم صلاة المؤمن!
قد لا يوجد مكان على سطح هذه الأرض أوحى للفنانين بمثل الكمّ الهائل من اللوحات،
والجبل لا يبلى على كثرة ما أخذت له من رسوم.

أروع ما في هذه اللوحات تجرّدها الأقصى كأنها لا تريد كسر غموض المكان وإنما
المشاركة فيه، والضباب هو الركن الذي لا يغيب في أي لوحة.

العنصر القار الآخر أشجارٌ متفرقة تكاد لا تلاحظها، اختزلها الرسام في خطوط كأعواد
كبريت تظهر وتخفي على القمم البعيدة حسب مشيئة الضباب والسحب. ثمّة دوما شكل
لا يكاد يُلاحظ لأدمي بفضل التواري، أكتشف أخيرا حجمه.

بعيدا عن الأنظار، مشدوها أمام جمال الجبل انبهار بكر. انبهار كل البدايات.

أه عندما يضع العالم كل ما لديه من حلي وحل لاستقبال ضيوفه الكرام !
ترى ما الجمال ولماذا هذا العالم جميل؟
باننتظار أن يجد أحدنا رداً وافيا لا بدّ أن يكون هو الآخر جميلا، لا أحسن لكل مرتحل من اتباع أمر أحد كبار المنتبهين.
"عش للجمال تراه العين مؤتلفا في أنجم الليل أو زهر البساتين (إيليا أبو ماضي)
خير وأفضل ممن لا حنين لهم إلى الجمال، تمانيل من الطين"
تحضرني قصة الرجل الذي تضرع لله وهو وسط كل هذا الجمال أن يدخله الجنة فهمس في وعيه انظر حولك يا غبي أنت وسطها.
هل ثمة فنان أكبر من هذا الذي تفتقت عبقريته عن مثل هذا المشهد!
أضم راحتني كأنني أصلي. فجأة أجدني أصقق وداخلي صراخ صامت يتعالى من الأعماق:
برافو يا الله!

*

لاتباع الطريق وهو يتوجه إلى ما فوق أعلى الجبال لا خيار غير السفر بالوكالة.
يخيّم الصمت على قاعة العرض باننتظار سفرة ولا كأي سفرة.
فجأة يدوي انفجار بصم الأذان. يخيل إليك من فرط دقة تقنيات التسجيل الصوتي والتصوير، أنك ستشعر بلهيب النار يلفح وجهك وبرائحة الدخان تخنق منك الأنفاس.
تدخل رؤوس بعض النظارة الأكتاف والصاروخ الجبار ينطلق وعلى ظهره المكوك ملتصق به التصاق الرضيع بأمه.
ترصد كاميرا الإيماكس الخيط الرفيع الأبيض من الدخان وهو يتلاشى رويدا رويدا.
ثم ينفصل المكوك وتنتهي عملية القذف لتتمركز الكاميرا في موضع يمكّن الأدمي من إلقاء نظرة شاملة على هذا الكوكب الذي تسميه اللغة الأرض، وكان من الأصحّ تسميته البحر.
على ماذا أركّز والذهن مشدوه مأخوذ منبهر بما يرى والانتباه على أقصاه؟
على زرقة سهول الماء وهي أصناف داخل أصناف؟
على البياض وهو كقرو دب ألقى على كتفي غانية؟
على الخضرة لون الجنة في الدنيا وفي الآخرة؟
على الصفرة تضيّق الخناق على النهر الخالد كأنها قبضة من ذهب انغلقت على عنق ثعبان؟
على الحمرة استفردت بقارة كاملة تبدو كأنها مطلية بالحديد السائل؟
لا يغرنك ان هذا الكوكب اتخذ اللون الأزرق له عنوانا فقد ارتدى طوال تاريخه العاصف أكثر من لون. هو توشح بلون حمم البراكين عند ولادته ... ثم باللون الأسود وقد هدأت هذه الحمم ... ثم باللون الأخضر عندما غزت الطحالب والأعشاب سطحه تدشّن عصور انتصار الحياة ... ثم باللون الأبيض في أزمان سوّدد الجليد والتلج... أخيرا لونه الحالي منذ غطت المياه جلّ مساحته.

إنها فقط وليمة البصر. لا مجال لاستنشاق روائح الياسمين، لا إمكانية لتحسس ندى عشب الصباح أو لسماع أي صوت والحال أن كل ما يتدافع على السطح لا يكف عن التثرثرة والصراخ.

كم ظلموا ذلك الرجل المسمى قاليبو وهو ينبه المتبلدين أنه لا يمكن أن يكون لهذا الكوكب إلا شكل الشمس والقمر!

كم كنت أودّ أن أكون من مع خوان سيبيستان الكانو والسبعة عشر من البحارة الناجين من أفضع الرحلات الذين أتموا أول دورة للبشر حوله!
كم كنت أودّ أن أكون مع نايلار امسترونج والأحد عشر محظوظ الذين ألقوا عليه من سطح القمر أولى النظرات الشاملة.

ومن هذا العلوّ الشاهق يستحيل عليك تبيّن شبكة الأثار التي ترسمها من القدم الأقدام والحوافر على الأرض، ولا التي ترسمها الأجنحة على السماء، والزعانف على أمواج البحر.

من هذا العلوّ الشاهق لا مجال لرؤية تجمعات البشر الكبرى التي يسمونها مدنا وتجمعاتهم الصغرى التي يسمونها قرى ولا مجال لرؤيتهم في بيوتهم أين يقضون جزءا لا بأس به من زمن الرحلة يلجئون إليها كما تلجأ العصافير لأعشاشها والنمل لغيرانها ولنفس الأسباب القاهرة.

ومن هذا العلوّ الشاهق ليس من السهل رصد كل "العقد" أو المراكز تتجمع فيها وتتوزع منها سلطة الطبيعة على البشر أساسا الالف وخمسمائة بركان والخمسة عشر لوحة التي تحمل القارات والمحيطات ولأهمّ التيارات التي تعرك مياه المحيطات ورياح السماء. أصعب من هذا - لأنها لا ترى بالعين وإنما بالفكر والخيال- رصد "العقد" التي تتجمع فيها ومنها تتوزع سلطة البشر على البشر.

كأنني بها متموقعة فوق عواصم كبرى التجمعات البشرية التي يسمونها دولا وأوطانا . داخلها تتجمع مكونات هذه السلطة - الدين والمال والسلاح والعلم- القائمون عليها بشر عاديون يتوهمون أنهم سادتها وهم الخدم والوقود ومنها تتوزع شبكات بالغة التعقيد تسري فيها سريان الكهرباء في الأسلاك كل الأفعال والتفاعلات التي تصنع بدمار الحرب واعداد السلام قصة الأدميين على هذا الكوكب.

ما لا تراه العين من هذا العلوّ الشاهق السور الأعظم واهرامات مصر وامريكا الوسطى وكل ما كدّست الأجيال الماضية من آثار.

ما لا تراه العين من هذا العلوّ الشاهق كل ما كدّس جيلي وجيل الأباء من موانئ عملاقة، من مطارات عملاقة، من جسور عملاقة، من مصانع عملاقة، من أنفاق تشق بطون الجبال المتكبيرة.

ما لا تراه العين المجردة من هذا العلوّ الشاهق شبكة مسارات القطارات والسيارات على الأرض والأساطيل في البحر والطائرات في السماء تنقل البشر وما ينتجون.

ما لا تراه العين أيضا شبكة الأنابيب التي تنقل البترول والغاز من أبعد مكان إلى أبعد مكان وشبكة والألياف التي تنقل الأفكار والصور بسرعة البرق إلى كل فج عميق. أين قدرات النحل والنمل الأبيض وحتى دود الأرض من قدرة الأدمي على التحكم في هذا الكوكب وفقا لمصالحه ولنزواته!

أنت أمام كوكب تحت السيطرة وسيده ومروضه الأدمي المهندس.... أو هكذا يبدو. فجأة تحتل بقعة بيضاء حلزونية الشكل جلّ فضاء الشاشة. إنه إعصار مرعب يستعدّ للاعتداء على الأدميين المساكين. تتذكر فجأة أن هذا الكوكب هو اللحد والمهد.

تحتي أكبر رحم لا ينفكّ عن ولادة ما لا يحصى ولا يعدّ من الكائنات ومن الأجناس. تحتي أكبر مقبرة لا ترفض جثة كبرت أو صغرت، لا تعلن عن ذروة اكتظاظ، لا تقفل بابها الأحد والعطل والموت منذ الأزل صنو الحياة. بديهي أن هذا الكوكب كائن حيّ يحمل، يلد، يغذي ثم يوارى في ثراه كم من أجناس حية كلها فلذات كبده!

كم بديهي أيضا أنه الوطن الحقيقي... الوطن المشترك لكل البشر ولك الكائنات الحية... الوطن الذي لا مكان فيه لغريب.

تدرجيا يمحو السواد باقة الألوان. يرسم النور بقع ضوء أصفر خافت لكبرى مضارب الأدميين. في الجزء من الكوكب الذي داهمه الظلام، نصف البشرية مضطجعة في أسرتها تترحل داخل أحلامها وكوايسها بينما النصف الآخر في الجزء المغمور بنور الشمس في أوج الصراع مع ما نسميه الواقع... إلى أن يحين وقت تبادل الأدوار فيهب النائمون لرحلة النهار ويهرع المستيقظون لرحلة الليل.

ومن هذا العلو الشاهق يمكنك وأنت تتابع تحرك المكوك التعرف على حدود هذه القارة أو تلك. تنتظر لشكل القارات فتحسبها قارة موجودة من الأزل على شكلها الحالي والحال أنها- ومقياس الزمان بملايين السنين -لم ولن تكفّ عن التغيير انقساما ثم تقاربا ثم انقساما جديدا وهكذا إلى نهاية وجود الكوكب نفسه.

كم شهد هذا الكوكب العجيب من زلازل، من انفجارات براكين، من أنهار سالت وجفت، من صحار تمددت ثم اخضرت لتعود لجفافها القاتل! كم من جبال انبثقت من قاع بحاره وكم من رياح وأمطار أحنّت هامتها لتسويها بالهضاب وبالسهول!

كم من ضربة حظ وراء كم من ضربة حظ داخل كم من ضربة حظ جعلته الناجي من كوارث كون تجمعت داخله كل الأخطار!

كم من تقاطعات طريق، من فرص جاءت بها الصدف، جعلت منه كوكبا يتيما، فريدا، لم ولن يشبه يوما كوكبا آخر على اتساع الفضاء اللامتناهي!

كم تتابع وتانقضت على سطحه في أعماق بحاره وفي اتساع السماء من أجناس حية كلها تتبارى غرابة وإعجازاً!

كم من بشرىات شقت طريقها هي الأخرى في هذا الديكور المبهر المرعب لتختفي يوماً تلفها الغرابة والأسرار!

كم من ديانات، كم من حضارات، كم من امبراطوريات، كم من دول ظهرت، ثم اختفت ستظهر ثم ستختفي!

يا للصدف الرائعة التي جعلته يوجد على المسافة المثالية من الشمس لتتطور على سطحه الحياة بكل ما أبدعت وأنجزت!

يا للخوارق والمعجزات التي جعلته يوجد ومن وجوده توجد الحياة بكل ما فيها من قدرات الخلق والابداع!

هو لم يكن مقدرًا، حتمياً، متوقعا، محتملاً أو ضرورياً. كان مجرد إمكانية من بين ما لا يحصى ولا يعد من الإمكانيات ومع ذلك فهو موجود بكل ما في المفهوم من أبعاد ومن أسرار.

مما يقال إن الجنس البشري استطاع أن يبني ما يسميها الحضارة في العشرين ألف سنة الأخيرة على سطح هذا الكوكب لأنها كانت فترة استقر فيها المناخ بعد فترة طويلة من الصقيع والجليد... وأنها فترة ستنتهي طال الزمان أو قصر. مساكين من سيأتون العالم وقت يكشر فيه المناخ عن انبياه فتنهار المجتمعات والدول والحضارات وتعم الفوضى وتآكل الناس بعضها البعض لا بالمعنى المجازي وإنما بالسكاكين والأنياب.

يا ترى كم من أجناس حية ومن بشرىات جديدة ستتابع على الركح قبل ان يغلق هذا المسرح أبوابه نهائياً وقد انتهت كل العروض! فعلى الأمد الطويل يتنبأ البعض أن سماء الكوكب ستطلى يوماً بالأخضر لتشرّف على مدن أصبحت رمادا وعلى غابات لم يبق منها إلا الجذوع المتهاوية وعلى صحارٍ لا تهب عليها ريح وبحار بنفسجية ماؤها بكتافة العسل لم تعرف الموج منذ قرون. صور مرعبة لكوكب يحتضر وقد نفثت براكينه كل حممها وحجب غبارها شعاع الشمس وانقضت على سطحه الأجناس بالملايين.

أه تريد طرد مثل هذه الصور من فكري. ليكن. ها قد استعاد الكوكب عافيته بعد ملايين السنين وعادت الكائنات تتسابق على سطحه تبغي نصيبها من الحياة. لن تمضي بضع مئات من ملايين السنين إلا ويكرر السيناريو: انقراض شبه كامل للأجناس الحية، يعقبه تعاف يدوم هو الآخر مئات الملايين من السنين، يتبعه انقراض جديد وهكذا دواليك إلى نهاية النهاية.

طال الزمان أو قصر ستنتهي كل القصة باحتضار سيحول هذه الجنة إلى كتلة من الصخور المذابة عادت إلى جوف الشمس!

الشمس!

يتحول الانتباه من التركيز على اللؤلؤة الزرقاء إلى الفضاء اللامتناهي الذي تسبح فيه.

تتضح الأبعاد المذهلة للفضاء الحسي الذي ظنناه يتوقف عند انطلاق الرحلة عند حدود القرية ثم عند حدود الوطن ثم عند حدود الأرض وهو صحار مترامية الأطراف رملها الكواكب وكثبانها المجرات.

تفغر فاك دهشة وأنت أمام لوحات فنية ليس مثلها لوحات في أغنى المتاحف. كأنّ الفنان الأعظم -أراق بلا خطة مسبقة كل ألوان الطيف على سحب غبار وغاز مذهلة الأشكال ثم رصّعها بقناديل الشمس وفوانيس المجرات...والنتيجة متحف ربّاني يستعرض فيه هذا الفنان الأعظم من الروائع ما يذهب العقل.

كم غريب أن يثير الجمال فينا إن فاق حدًا، شعورا يقارب الألم! هل بقي لمفهوم الطريق معنى وهو هنا كل الاتجاهات ولا اتجاه أفضل من الآخر؟ حتى إن فرضنا عليه وجهة، كيف يمكنه قطع مثل هذه المسافات وهي تتجاوز قدرة كل حاسب على الحساب؟

ماذا لو واصل الطريق طريقه هذه المرة لحسابه لخاص بعد أن نفض عن ظهره آخر راكب. مجدّدًا إلى أين؟... إن بقي في مستوى كهذا معنى للسؤال؟ ليوصل إلى حيث يريد، أنا الذي سأترجّل منه لألقي نظرة على ما تركت ورائي أو تحتي من أبعد نقطة أوصلني إليها خيالي.

هناك بين ذلك الربع الخالي وذلك الربع الخالي الآخر وفي ذلك الطرف البعيد من ذراع واحدة مما لا يحصى ولا يعدّ من المجرات توجد حبة الرمل التي هي بيتنا، الجوهرة الثمينة التي اتخذت عبر التاريخ حمرة حجارة اليشم، سواد درة الفونيكس، خضرة الزمردة، بياض اللؤلؤة وزرقة الياقوت، الجوهرة الثمينة الموضوععة على ستار لا متناه من فاخر الدمقس الأسود.

أمام كل هذه الشساعة المرعبة للفضاء اللامتناهي وكل هذا الزمان الذي بالكاد ينتبه لبروزنا واختفائنا، تتسوّح كل القامات وكل الأحداث وتتضح لكل الكيانات حجمها الحقيقي. حقا لا أتفه من قصتنا بمقياس كل هذه الشساعة، لكن هل ثمة أهمّ منها بمقياس الآن وهنا؟ أي خيار غير ليّ عنق الطريق لبعيدني من حيث أتيت أواصل على سطح هذا الكوكب المعجزة نصيبي من ملحمة الحياة!

كيف لا يحضرك سؤال يلاحق البشر منذ وجدوا: أم هل نحن وحدنا في هذا الكون؟ مع كامل الاحترام لكل العلماء والفلاسفة والشعراء الذين طرحوا ولا يزالون هذا السؤال أقول إنه مصنوع من كمّ هائل من الغرور والتبّد والجهل. طبعًا لسنا وحدنا.

كيف تلقى على أنفسنا مثل هذا السؤال وحولنا وبقرنا ما لا يحصى ولا يعدّ من كائنات حية هم في هذا الكون اللامتناهي الجبران الذين لم نحسن جبرتهم!

بنو حرية وآل ثبات

يتوجه إليّ الدليل والفجر مجرد وعد يوم لن يكون كسائر الأيام.
- الرجاء إمضاء شهادة عدم تحميل إدارة المحميّة أيّ مسؤولية في حال التعرّض لحادث.
أسرّ في أذن رفيقة المقطع الجديد من الطريق:
- تتلمذوا على الإدارة العامة لشؤون الكون. ألا تحملنا هي الأخرى كل المسؤولية فيما يحدث لنا داخل محميّتها الكبرى؟
- رجاء، لا تخلق لنا مشاكل مع قوّى نحن في أمس الحاجة إلى حمايتها خاصة اليوم وفي مثل هذا المكان.
يهمس الرجل العبوس: رجاء لا كلام بصوت عال ولا ضحك من الآن.
يبدأ المشي الصامت وراء الرجل المتحفّز، ليتواصل ساعات طويلة، لا نرى أيّاً من الحيوانات الحرّة التي جنّنا نتطفّل عليها في عقر دارها.
ينبهني الدليل بين الفينة والأخرى لعلامات لا يدرك معناها إلا هو.
- انظر يا سيدي إلى لحاء هذه الشجرة. وقع حكّها، وهذه طريقة الثيران للتخلّص من الهوامّ التي تسكن جلدّها. انظر هنا، هذه بقايا جوز مكسّر. إنها علامات مرور القردة. هي الوحيدة التي تكسر الجوز على جذوع الأشجار.
نعود للمشي ولا شيء غير الفراغ والغبار والحرّ وكل انتباهي مركّز على شجيرات قزما متناثرة على جانبي الطريق.
تحدّق في مرافقتي ثم تسألني لا تخفي سخريتها.
-ماذا تفعل؟ نشمّ أوراق هذه الأشجار العجفاء!
- عادة قديمة. أفرك بين أصابعي أوراق الأشجار والحشائش، أحملها لأنفي وأضعها على طرف اللسان متحسّراً على عجزني عن استنشاق رائحة الشمس وتذوّق طعم السحاب.
تهزّ المرأة كتفها لتتكفئ على أفكار لا تفصح بها ولا أرغب في سماعها. فجأة تنهر الدليل:

- نحن نمشي منذ ساعات، أين الحيوانات الموعودة؟

يردّ الرجل متحرّجا:

- المحمية غنية بالخمس الكبار، الأسد والثور والفيل والكركدن ووحيد القرن. ومع هذا لا نرى أحيانا وحشا واحدا طوال اليوم.

وحش؟ لله دركم أيها الأدميون... ما أبرعكم في قلب الحقائق... أي جنس حيّ فيه جلادون غير جنسكم؟... لكن ما المصطلح الصحيح لتسمية هذه الكائنات وكل مصطلح سبة وشتيمة؟... خيارى بنو حرية لمن نسميها الحيوانات وآل ثبات بصوت متهيب لتسمية الأشجار.

ثُبادرنى المرأة بلطف لن يطول:

- الظاهر أنّك لن تكون أسعد حظًا من رحلتنا إلى شواطئ "هرمانوس".

كانت يومها تصرخ للتغطية على صفير الرياح:

- انظر إلى هناك.

- لا أرى شيئا.

- دقق النظر، ألا ترى ذيل الحوت يرتفع فوق سطح الماء، انظر! إنه يضرب بقوة سطح الماء، ألا ترى الزيت المتطاير؟

الحقيقة أنني لم أرَ من الحوت أكثر مما رأيت يوم ركبتُ البحر حذو شواطئ قارة أخرى أبحث عن لقاء مؤجّل على الدوام.

تمدّ لي رفيقتي بزجاجة الماء وهي تمسح عرقها:

- ربما وصلنا يوم الإضراب العام.

- أيّا كان اسم الكائنات التي تسكن هذه الربوع، فإنها -على ما يبدو- لا ترغب مطلقا في لقائنا. كنت أنتظر استقبالا آخر. الفيلة على اليسار والأسود على اليمين وفوق الأغصان تزغرد القرودة احتفاء بمقدم أوفى الأصدقاء.

- نعم، كيف لا تتزاحم للسلام عليك وهي لا تعلم أنك لم تأت للقتل الرياضي الذي يسمونه الصيد أو للتجارة في لحمها؟

- رجاء قل لي لهم هذا الكلام لعلهم يعقلون.

ما الأدميون بالنسبة إلى هذه الحيوانات التي تتفادانا؟ أخطر الكائنات التي يأتي منها موت صاعق مُدّري من بعد... طبعًا، لكن كيف نفهمها أننا أيضا كائنات راقية نسير دوريات من الجنود المدججين بالسلاح لحمايتها من بني جنسنا الغير مرخص لهم بقتلها.

فجأة يتسمّر الدليل مشيرا إلى مُبهم ما:

- سيدي، انظر هناك!

- لا أرى شيئا.

- دقق النظر يا سيدي!

- في ماذا؟

- في هذا الخدش، على جذع الشجرة التي أمامك!

- أه، تقصد هذا الخطّ.

- إمضاء فهد. لا أحبّ فكرة وجود حيوان كهذا بمثل هذا القرب. هيّا بسرعة لكن دون هرولة.

تختفي رغبتني في ملاقة السكّان الأصليين لهذا المكان، لعلمي بطول أنياب الكثير منهم وخشيتي أن يتركوا فيّ مثل هذا الإمضاء.

نعاود التحرك إلى الأمام والطريق يتوغّل بين أعشاب تحضر عطشا. يهمس الدليل وهو ينزل بندقيته عن كتفه:

- من هنا فصاعدا المشي ورائي فقط. ممنوع منعا باتا دخول أي طريق جانبي. إذا أمرت بالتوقف، توقّف فوراً دون أدنى حراك. الأسبوع الماضي التهمّ هنا سبع سائحة انجليزية منهورة.

أهمس في أذن امرأة متزايدة التوتر:

- أرجو أن الحيوان المسكين لم يصب بعسر الهضم أو بإسهال حادّ.

- كن جدياً، لسنا في حديقة عمومية. لا تنس أننا في غاب لا وجود فيه إلا لطريدة وصيد.

- وهل المدن التي جننا منها حقاً جدّ مختلفة عن هذا الغاب؟

يأمر الدليل بالصمت ثم يسعفنا باستراحة قصيرة. يختفي وراء أكمة من الأشجار الهزيلة مؤكداً على ضرورة عدم التحرك.

نجلس على العشب الجاف ننتظر رجوعه بمثل متزايد يشوبه قلق هو الآخر يتزايد بمرور الدقائق.

تتوجه إلى مرافقتي بسؤال لقطع الصمت القلق.

- ماذا تفعل بهذا العود؟

- أعابت هذه النملة التي غامرت بتسلّق رجلي. على فكرة، هل تتصورين ما معنى المطر على يافوخ هذه المسكينة. الأمر كسقوط شلالات النياجارا على رأسك. وضع شعوب هذه الحشائش بدهاءً ليس أسهل من وضعنا.

- تستأهل. لا تتصور ما أعانيه من هذه الكائنات اللعينة وهي تهاجم المطبخ والحديقة ولا شيء يصدّها. على فكرة، هل شاهدت بعض الأفلام الوثائقية عن الحروب التي تشنها على بعضها البعض، أو كيف تقترب الحشرات التي يضعها سوء طالعتها في طريقها؟ انظر إلى بعضها وسيحنّ قلبك على الأدميين الذين تتهمهم بكل الموبقات. هم -على الأقل- خلّفوا على هامش معاركهم شيئاً اسمه "الصليب الأحمر" ناهيك عن كونهم لا يُلتهمون أعداءهم أحياء مثل هذه الكائنات المقرّزة.

- تكلمي باحترام عن أنجح مخلوقات الله حتى وإن جهل المتبلّدون قيمتها والدليل ألا أحد منهم جاء خصيصاً هذه المحمية من أجلها.

- هذه الكائنات المقرّزة أنجح مخلوقات الله؟ تقصد أنجح مخلوقات الشيطان.

- يا امرأة أيّ جنس فوق النمل انضباطا، شجاعة، تضحية وعملا دؤوبا لا يطالب بزيادة في الأجر ولا يُضرب يوما؟ كيف تتجاهلين أنه بنى الديمقراطية والاشتراكية وحقق المساواة والعدالة الاجتماعية والتضامن وكل هذه المشاريع التي نرنو إليها لا نحقق منها إلا الإخفاق وراء الإخفاق؟ هل تعلمين أنه اخترع قبلنا بملايين السنين الزراعة والرعي والغزو والرق والحرب. أيّ جنس آخر لا قائد فيه ويسير أموره على أحسن ما يكون التسيير؟ كم من فضائل يمارسها دون حاجة إلى شرطي أو نبي؟ صدّقيني، لا مستقبل على هذه الأرض قبل أن تلتهمها الشمس إلا للنمل.

تهزّ مرافقتي كتفيها تخالني أمزح.

يبيرز الدليل أخيرا من وراء أكمة الشجيرات مواصلا أقفال أزرار سرواله.

تبادره المرأة المتزايدة نفاذ الصبر عاد الصلف بعد إن انحسر الخوف.

- افترض -بعد الشرّ- أنك-أنه وقع لك مثلا أزمة قلبية. أقول هذا على سبيل المثال طبعا. كيف كنا نخرج من هذه الأعراش؟

- اطمئني، أنا مطالب كل ساعة بمخاطبة المخيم بالراديو وإلا تنطلق الدورية. اسمحي لي بأن أردد ما قلته هذا الصباح. في حالة حدوث طارئ، المطلوب عدم التحرك حتى وصول الإنقاذ، فالمشي داخل الأعراش بلا بندقية وشارطة ودليل محض انتحار. آسف، بالنسبة لكما ممنوع دخول الأدغال حتى للتبول... كل الحاجات الطبيعية في الخلاء فقط.

أقترخ على مرافقتي رفع الحرج فلا تستقطع الفكرة.

- أدير لي ظهرك وأدير لك ظهري فلا وجود لبوليس الأخلاق هنا.

نعود إلى المشي الحذر ولا كائن تبصره العين يمكن تحميله مسؤولية صمت عميق وصراخ متقطع لعصافير تحسن التواري بين الأغصان العجفاء.

ماذا قال هذا الكائن المجتّح؟ ... إلى من توجه بالتهديد أو بالغزل؟ ... هل يُغازل نثرا أو شعرا؟ ... هل تكون -يا طير- أكبر شاعر في هذه الأدغال... ترى كيف تشعر وتفكر هذه الكائنات وهل ثمة فلاسفة من بني حربة وآل ثبات تساءلوا هم أيضا ماذا يفعلون في هذا العالم؟

أفريق على همس صراخ للدليل:

- انظر هناك! تحت قدميك!

- لا أرى خدشا.

- هناك، هناك!!!

- آه، أثر قدمين. لا يمكن، وهما بهذا الحجم، أن تكونا للسائحة منكوبة الطالع حتى ولو كانت إنجليزية.

أثر آخر سيمتحي قريبا. هو والآثار التي تركتها كل الكائنات على الطريق.

- لا يا سيدي إنه لوحيد قرن. لننتبه، قد لا يكون بعيدا.

وحيد القرن؟ غريب، كنت أظن أنه اختفى تماما مع كل هذه الأنواع من الحيوانات التي تتبخر يوما بعد يوم بسرعة مخيفة... هم السابقون ونحن اللاحقون... التحسّر نعم، لكن كم هو رائع أنّ كل هذه الكائنات العجيبة ومنها نحن وُجِدَت يوما... على كل حال المحمية نفسها من الآثار... ثمة فيها شيء ما يجعلها مثل رجع صدَى عالم اختفى أو هو يصدد الاختفاء.

يهمس الدليل في اذني:

- سيّدي، انتبه للبراز اليابس. هذه علامات أخرى للحيوان. مرّ من هنا منذ يومين تقريبا. انتباه متحفّز ثمنه تؤثر أعصاب ووجع في فقرات العنق ولا شيء غير أصوات كائنات مجهولة تختبئ في أعماق الأدغال وعلى قمم الأشجار. ما الغرابة في الأمر؟ ألا نظفر من هذا العالم إلا بالخيال والظلّ؟ ألا نقضي العمر في تتبّع الأثر ولقّما نجد صاحبه؟ لا شيء خارج عن المعتاد في ركضنا وراء حيوانات نتمنّع ونقرّ متّا.

فجأة يتوقف الدليل مشيرا إلى نقطة وراء أكمة أشجار صفراء:

- انظر هناك!

- هذه البقعة السوداء.

نعم، إنه قطع من الثيران الوحشية.

- نتقرب لنرى بوضوح.

- يا سيّدي، الأسود نفسها ترهب هذه الحيوانات. يجب أن نبتعد بأسرع ما نقدر وأن نبقي في الاتجاه المعاكس للريح وإلا فستراها أقرب مما تودّ.

تختفي البقعة السوداء ولا يبقى إلا فراغ ملآن بضباب الغبار.

يثب فجأة من وراء الأكمة كائن يشبه الحصان ليختفي بسرعة فائقة داخل الأدغال.

- حصان هنا وبمثل هذا الحجم!

- يا سيّدي، ثمة ثلاثة أنواع من الغزلان في محمية أمفلوزي، الصغرى وتُدعى "امبالا"،

والمتوسطة الحجم وتسمّى "نيالا"، والضخمة وتسمّى "كودو". ما رأيّت واحدا من هذا الصنف وليس حصانا.

- تقصد أنني رأيّت خيال كودو.

يضحك الدليل ضحكة صفراء، ثم يرفع صوته هو الآخر، أرقه طول افتعال التادّب وكبح ما به من سوء مزاج.

- كأنّ هذه الحيوانات اللعينة تفاهمت فيما بينها على الاختفاء. الزوّار لا يقدّرون ضرورة التحلّي بالصبر.

- نعم يجب أن نتحلّى بالصبر لمفاجأة هذا الحيوان الركيك المصدّر على تفادينا.

استجار المسكين بأعماق الربيع الخالي فتبعه الصياد لا يصدده الحرّ... استجار بأبعد

أماكن الصحاري البيض فهورول وراءه لا يخيفه الجليد... استجار بعرض المحيط ففتش

عنه وراء كل موجة... استجار بالجبال الشامخة فوضع للإمساك به الأوتادَ على الجبال... استجار بالظلام فوضع أجهزة التصوير الآلية على جنوع الأشجار لتباغت خروجه الحذر ليلاً... استجار بالصَّعَر فخلق له المجهر... من الفضاء تجسَّس عليه بالأقمار الصناعية يتبعه وقد رَشَق على ظهره واشيا إلكترونيا... كم من سُبَّاح ومصورين وطلاب دكتوراه يركضون هذه اللحظة وراء الحيوان المسكين! ..أترى كل هذا الإصرار على تعقبه لإدراكنا أن سرّنا من سرّه وأن فهمنا لمن نحن يمرّ بفهم من هو؟

تعود رقيقة الطريق لإزعاج الدليل المسكين.

- على الخريطة بحيرة في الجانب الآخر من المحميّة. سمعتُ أن فيها قطعانَ فرس النهر، فلنتجه إلى هناك. لا أتصور أن هذه الحيوانات ستبتخر هي الأخرى.

يقف بنا الرجل على الشاطئ مطلقاً صفيراً عجبياً باتجاه كدس رمادي يطفو بعيداً على سطح الماء. يواجه استغرابي ضاحكاً:

- أعرف بعض الأصوات التي تتبادلها هذه الحيوانات. إذا سمعني أحدهم فسيفترب، آنذاك قيروا المسافة. إن بقي بعيداً عن الشاطئ يتأملنا بلامبالاة فلا خطر. إذا خرج من الماء أنصحكم بالجري وتسلق أقرب شجرة.

تحدق فينا الكائنات بتقرّز ثم تدير لنا ظهرها تتوغل بعيداً داخل البحيرة.

- هل تسمح بأن أناديهم كما تفعل؟ لقد حلمتُ دوماً أن أتكلّم الجملي والجماري والحصاني والكلابي والقططي وحتى البعوضي. للأسف، لم يسعني الوقت لتعلّم كل هذه اللغات الحيّة، خاصة لم أجد من يعلمني. لأجرب أولى كلماتي بالهيبو. ففففففوووو.

يستغرق الدليل في الضحك:

- ييدو، يا سيدي، أن الحيوانات لا تفهم لهجتك الأجنبية.

- حسب ما رأيته لحدّ الآن هي لا تفهم حتى اللهجة المحلية.

ينكس الدليل رأسه. جرحته. متى سأتعلم مسك لسانني، ماذا لو ضيعني في هذه الأحرّاش؟ يدخل الرجل قوقعته والطين يزداد بلة، حيث لا تتوقف مرافقتي عن الهمس المسموع بأن يومها ضاع لأن لنا دليلاً لا يعرف يمينه من شماله.

والشمس تتأهب للرحيل نجلس ثلاثتنا على جذع شجرة ميتة نلتقط أنفاسنا ونمسح عرقنا. أعود لاستقزاز رقيقة السفرة:

- هذه المحمية في طرف القارة الأسفل هي الزاوية الأخيرة التي حشرناه فيها الحيوانات التي تفرّمتنا. كيف لا تتوارى عن الأنظار ترتجف رعباً وقد شمّت من بعيد روائحنا الكريهة. هل تعلمين أن القبلة وكلّ الكائنات الموجودة هنا كانت تركض قبل ألفي سنة في البراري التي جنّت منها؟ لكنّ بشرا اسمهم "الرومان" قرّروا أن تكون تلهية الشعب أساس السياسة، فبنوا ملاعب تتجمع فيها جماهير هانجة للتمتع بمذبحة تدوم أحياناً ثلاثة أشهر متتالية. يقول مؤرخون إنه قُتل في يوم واحد في إحدى هذه "الحفلات" أحد عشر ألف حيوان. كانت مئات ملاعبهم على امتداد القرون، وحسب عدد الأعياد وطولها، بحاجة إلى الملايين -نعم

الملايين-من الفيلة والأسود والنمور والتماسيح وفرسان البحر والنعام. لتوريد هذه الكميات الهائلة من الكائنات خُلِقَ “بزنس” كامل كان يدرّ الملايين على الصيادين وأصحاب السفن. شيئاً فشيئاً فرغت سهول شمال القارة وهضابها وانسحب الناجون إلى عمق الأراضي يتوّغلون فيها جيلاً بعد جيل هرباً من الوحوش الحقيقيين...وها نحن نأتيهم دون دعوة ونريدهم في استقبالنا.

تُفضّل المرأة المرفقة عدم التعليق خاصة والدليل يدعوننا إلى العودة إلى الطريق.

- آسف، فاجأنا الظلام، نكتفي بهذا القدر.

تهمس المرأة الغاضبة في أذني.

- نهار كامل من المشي من أجل خدش وكدس خراً وصياح منكر لأشباح من فوق الأغصان.

هذه المسكينة لم تتعلّم إلى الآن أن سيّد المرتحلين من يعبر العالم كما قال لاوتسو.

”لا هدف ولا وجهة.

يغنم كل لحظة

ما تقدّمه له الحياة”

سمر الليلة الأولى

حول النار والليل أرخى سدوله على مخيم وسط أحراش منسية من كل الخرائط هذا الحديث أو ما يشبهه بين آدميين وضعتهما الصدف جنباً لجنب.

-أي حصيلة بانسة! بالطبع سيادتك غير متأسف على شيء بما أنك لم تأت إلى ما يأتي إليه الناس.

-بالعكس أنا جدّ مسرور بحصيلة يومي.

-يوم لا شيء فيه يستأهل أن تحلّده الذاكرة !

- لا تكفّن عن الشكوى من غياب الكائنات التي جننا لإزعاجها والحال أن ما يضغط عليّ كثافة حضورها حتى وهي غائبة. فكّري لحظة في الكائنات التي تعيش في قاع البحيرة التي وقفنا على شاطئها نمازح فرس النهر، في الفهد الذي ترك خدشا على جذع، في الكودو الذي أرعناه في أحلى أوقات القبلولة، في الثيران التي لم نر منها إلا بقعة سوداء مبهمة، في الأسد الذي قتل السائحة المسكينة وهو لا يعرف مَنْ قتل.

- هل أغلق عينيّ لاستحضار روح السائحة تروي لنا لقاءها مع هذا الأسد؟

- استحضري ما في هذه الغاية من كائنات، التي تختبئ بين الأعشاب، التي تبني أعشاشها فوق الأغصان، التي تحفر حفراً لبيضها في الرمل، التي لا تخرج إلا إبان الليل، التي هاجرت من هنا والتي هاجرت إلى هنا، التي انقرضت من هذا المكان وكان لها من الأشكال ما لا يقبل لنا بتخيله.

- كفى، أصبّنتي بالدوار.

- انتبهي أيضا لهذا الجذع المقطوع الذي نجلس فوقه، لهذا الرذاذ، لهذه الأعشاب الميتة، لهذه الزجاجاة وهذا الكأس، لهذا الصوت الذي تحدثه النار، لهذه الرائحة المتصاعدة منها، لهذا النسيم الذي هبّ فجأة، لهذه القطرة التي نزلت بالضبط بين عيني ونظراتي فأذابت وجهك داخل ضباب كثيف، لهذه القطرة الجديدة التي نزلت مباشرة على عنقي وتتسرب من فوق إلى تحت ببطء مثير، لكلّ هذه الأشجار التي تحفّ بنا، لهذه الأغصان التي يرميها الدليل على النار، لهذه النجوم، لهذه الحصاة تحت رجلي، لهذه الأوراق التي أسقطتها الريح في حجرِك... انتبهي ل... أشباح الأوائل... كل الأوائل الذين مروا من هذا المكان .

- ما رأيك أن نرقص ونضرب لهم الطار لعلهم يتكلمون بإشارة .

- لست بحاجة لطقوس بدائية كهذه، لي طقوسي السريّة تغنيني عن كل ضجيج .

تنتهد رقيقة الطريق وهي تشير إلى الدليل بصدد إعداد العشاء .

- أرجو أن هذا الغبيّ يعرف الطبخ أحسن مما يعرف طرق المحمية. على فكرة، لم أزر بلدانا الشواء فيها ألذّ من شواء بلدانكم. لماذا لا تشرف على العملية، أنت الذي يحاول إغراني بالادعاء أنك طبّاخ ماهر .

- ذكّرْتِي، بالفارق الأساسي بيننا وبين الكواسر المحيطة بنا. نحن سنتعشى باللحم المشوي وهي باللحم النيئ. لكن في آخر المطاف، كلنا من أكلة لحوم الكائنات الأضعف. الفرق الحقيقي أننا كواسر تتميز إنائها بصيغ الشفاه بالأحمر وذكورها بلبس ربطة العنق وأن هذا ما يجعلنا نعتقد أننا نسوى أكثر من بقية الكائنات .

تعود رقيقة السفرة المثيرة لما تظنه مزحا .

- كفى، وإلا أنت الذي سيتعشى باللحم النيئ .

- يا امرأة، رحماك... لا تقتحي جروح طفل ذبحوا واكلوا يوما أمامه أعزّ أصدقائه .

تفتح الذاكرة ملفت طفل في سنته الرابعة أو الخامسة يفتح عينيّ الرعب على أقصاهما وهو يشاهد سائلا أحمر يتقجر من العنق شلالات وأنهارا تسيل على إسمنت بهو الدار بعد أن انتزع منه أهله بالقوة كائنا لطيفا، ودبعا، بريئا، كان يحنو عليه ويديه كما لو كان له الأب والأمّ. وفي هذا الملفت المحافظ على كل التفاصيل، يضرب الخروف المقتول الهواء بقوائمه الأربع لدقائق طويلة، والقاتل يمسح سكينه في منديل أبيض هادنا راضيا عن نفسه. لا يتمالك الطفل المصدوم نفسه فيهاجمه بقبضتيه الصغيرتين، والرجل مصرّ على مداعبته، بل وعلى تقبيله لا يقترّ ما يثيره في نفس مهاجمه من بغض. لا بدّ من جرّه بعيدا حتى لا ينقضّ مرة أخرى على المجرم وهو ينزع عن الجثة الهامدة جلدها ويمزّقها إربا إربا. ينفجر الطفل في وجه أمه وهو بين صراخ غاضب وعويل يصمّ الأذان. لماذا فعلتم هذا به؟ ماذا فعل خروفي؟ أكرهكم جميعا!!! أكرهك، أكرهك ولن أكلمك إلى الأبد!!! أصوات نسائية آتية من أعماق الماضي تردّد: كفى الآن، تعال اجلس بيننا. لا تبق وحدك طول النهار في هذا اليوم المبارك. الجلوس بين النساء وهن يعبثن ضاحكات بأمعاء الصديق يحشونها بالخضراوات والتوابل لإعداد ما يسمونه "العصيان" لعشاء العيد! صوت الأم:

يا بني هَوْن عليك، إنه مجرد... أقصد أنه، على كلِّ حال هو لم يتألم كثيرا، يا بني، إنه كبش العيد ونحن نضحّي به في هذا اليوم المبارك لأنها إرادة الله. إرادة الله! من أين للطفل في هذا العمر أن يعرف أن الأدمي المسكين لا يخطو خطوة إلا وعزرائيل وراءه، أنه مجبر على تقديم الأضاحي ولسان حاله يقول للقوة المجهولة الماكرة: اتركي لي حياتي وخذي هذه بدلها.

يهزّ الطفل العيد رأسه بالرفض لتبرير لا يفهمه، ولو فهمه أما قبله. لا تكفت دموعه عن السيلان يعدّبه عجزه عن حماية صديق اللعب من المصير الفظيع. يختفي بعيدا رافضا أن يكلم أحدا، مواصلا مراقبة تفاصيل السلخ والنقطيع، وعيناه بين فتح وإغلاق. تتلقف أيادي الأم والخالة والجدّة شيئا أسود لزجا يضعنه مباشرة على نار الكانون. تصرخ فيه الجدّة بالكفت عن الدلال وتناديه أمه بلطف فيه بداية نفاذ صبر ليتذوق شيئا من هذا الكبد المشوي اللذيذ. ماذا أصاب هذه المرأة التي تفهمني عادة، هل نسيت أنها تناديني يا كبدي؟ لا أريد طعامك؟ لا أريد، أكرهك، أكرهك وسأبقى كارها لك ما حييت.

تهزّني مرافقتي من كفتي:

- ابق معي، كنت تقول إنك لا تتحمّل رؤية اللحم النيئ.
- المصيبة أنه معروض على الأنظار في شوارع بلدي وهو يقطر دما. هكذا مشيت دوما فيها لاعنا في سرّي كل هذا القبح، كل هذه الهمجية التي لا تثير إحساسا في أحد غيري. نعم، لم أر في حياتي على كثرة ما رأيت من بشاعة، أبشع من الأشلاء الدامية للحيوانات المقتولة المعلّقة في واجهة دكاكين الجرّارين.
تغنم مرافقتي الفرصة لتسجيل نقطة أخرى لصالحها في نقاش -كما هو الحال في أغلب سجلات البشر- صراع بالكلمات بديلا عن الصراع بالكلمات.
- خاصّة إذا تكّدس عليها الذباب.

- سأسمح لك بسبّ قومك وخذي راحتك، أما سبّ قومي فحقّ لي أنا وحدي. أواصل. هناك ما هو أفظع من دكاكين الجزائرين ببلدك وبلدي: محطات سفر يتوقف فيها الناس للراحة والأكل، والخرفان المعدّة للذبح تنتظر دورها تحت دخان الشواء لا يخامر فكر أحد أنها تعيش رعبا صامتا وهي تنتظر الذبح تحت أشلاء أم أو أخ أو أب.

هم مثلنا ضيوف هذا العالم لكننا لا نريدهم حول المائدة وإنما على قائمة الطعام.

تقاطعني امرأة تقتعل الاستنكار وهمها الوحيد أن أواصل.

- ارتفع صوتك، الدليل ينظر إليك باستغراب.

- ليذهب إلى الجحيم هو وكل الكائنات غير الحيوانية غير الشجرية.

- وماذا فعلت أمام المنظر البشع؟ هل شتمت الجرّار والشوّاء ورواد المطعم؟ هل اشتريت الخرفان وأطلقت سراحها؟

- لذت بالفرار بكل شجاعة وروح مسؤولة عالية. للانتقام مني ومنهم كانت تأتيني صور ممتعة لقطيع من الأدميين ربطوا بالحبل إلى وتد الجرّار، ينتظرون أن تنفذ لحوم أمهاتهم وأخواتهم وأن يأتي عليهم الدور والخروف ينفخ على نار الشواء، يضاحك نعجة ويغازلها. - غريب، أنا أيضا "أرى" أحيانا عند تجوالي في المدينة كلابا عملاقة تجرّ بالحبل أدميين يتوقفون أحيانا للتبول تحت الحيطان.

- روميو وأنفه في مؤخرة جوليات يستنشق روائحها المثيرة! عطيل فوق ديدمونة! وكل كلب يجذب إنسانه متحرّجا، إنها حقًا لصور منعشة للروح! تضحك رقيقة الطريق إلى أن يملكها السعال. أعتنم الفرصة للتفيس عن كل ما تراكم داخلي من أوجاع الطريق.

- أذكر يوم فرضت علينا الكلية زيارة المذبح البلدي في إطار التدريب على سلامة الأطعمة (أطعمة الأدميين طبعًا). كانت الأبقار تنزل من قطار حشرت فيه بالمئات تحت الضرب لتصطفّ الواحدة وراء الأخرى في ممزّ لا يسع إلا بقرة واحدة. عند وصولها الباب كانت تتوقف بانتظار أن يأتي عليها الدور. من يستطيع فهم ما تبادله القطيع من علامات رعب مطلق، من يأس نهائي، من تمرد عاجز، من مشاعر وأحاسيس وصور وأفكار لا تمرّ إلا بمخيلة البقر؟ ما هي الضحية العاجزة وجها لوجه مع آدمي يضع بين قرنيها مسدسا بكاتم للصوت. يضغط على الزناد فتھوى على الأرض كأنّ صاعقة أصابتها. ما هي إلا بضعة ثوان حتى تجد نفسها معلّقة في الهواء مبيّنة - أو هذا ما يتمناه لها المرء - وقد أمسكت بها آلة لرفع الأثقال كتلك التي تشاهد في الموائى. يتقدّم آنذاك الجرّار الأول فيقطع الرأس بالسكين لتندقق شلالات من الدم والرّجل يثرثر مع زملائه والسيجارة بين الشفتين. تواصل آلة الرفع تحركها إلى الأمام على طول شريط حديدي معلق في الفضاء. وفي كل خطوة من تحركها بقية سلسلة الجزارين: الذي يفتح الفريسة بسكينه من فوق إلى تحت بضربة بارعة، الذي يستلّ الأحشاء، الذي يقصّ بسكين كأنه سيف هذا الجزء أو ذاك من الجسم الساخن. ما هي إلا بضعة دقائق حتى يتم تفكيك كائن أخذ تعلم صنع أجزائه وتجميعها ملايين السنين. على فكرة هل انتهت يوما لكون الحيوانات تموت دون ضجيج؟ لم أضرب بحدائي يوما وأنا في حالة هستيريا ثعبانًا، أو فأرا، أو سرب نمل، فصدر منه سبّ أو صوت منكر. كل الخرفان لا تنبس ببنت شفة وهي تُذبّح. لَمَّا يثب الأسد ليمسك بأنيابه حجرة الغزال - يقتل الأول ويموت الثاني - يحفّ بهما وقارّ الصمت. أما عند الأدميين فيرفع القتل عقيرته بعويل يجمد الدم في الشرايين والقائل يصبح كالمجنون يحيا الامبراطور أو يحيا الوطن وحتى يحيا الموت.

كيف يمكن لكائن له هذه القدرة على الإيذاء - إيذاء بني جنسه وإيذاء كل المخلوقات - أن يكون أرفع مخلوقات الله كما تدعون؟ ماذا لو كان العكس هو الصحيح؟

- ربما معك حقّ، لكن ماذا سنفعل بمثل هذا الاكتشاف؟ طبعاً الإنكار وإلا كيف نواصل الطريق؟ ما رأيك في النوم، ينسينا كل هذه الهموم؟
- موافق شريطة أن يقبل البعوض بهدنة وألا تترصدّ بنا الكوابيس على الضفّة الأخرى لهذا العالم.

"الليل وطوله (شيكي)

والقرد يرنو إلى السماء حائرا

كيف الإمساك بالقمر؟"

*

من الغد توقظني رفيقة السفر:

- انهض، إنه الفجر. يكفي ما نمت.

- عن أي نوم تتحدثين، مفاصلي كلها أوجاع وجلدي حريق ملتهب. حتى في أقبية وزارة التعذيب لم أعرف مثل هذا البعوض.

ما أرقّ نسيم الفجر! ... ما أروع هذا الهدوء! ما ألطف هذا الجوّ! ... يا ما في هذه اللحظات من سحر! صدق من قال: إن استطعت، فاجعل كامل حياتك فجرا (المسعودي).
... أي شيء أهم من التنعم بهذه الساعات التي ما زلنا فيها أحرارا وأحياء! كم صدق أيضا المثل الصيني: اغتتم ما بقي لك من فرص ربما فات الأوان أكثر مما تتصوّر.

تستعجلني مرافقتي لعودة الركض وراء أشباح حيوانات.

نزرد فطور الصباح لننطلق مجددا بحثا عن أصحاب الآثار الذين يعدنا الدليل إنهم سيتدافعون عند الفجر للشرب من ترعة هي الآن أملنا الأخير.

ساعات أخرى من المشي ولا شيء مما يريد الدليل ابهارنا به.

فجأة يتوقّف ضاغطا على ذراعي مشيرا برأسه إلى يمين الطريق. ثمة شيء ما وراء أعشاب عالية على الشاطئ المقابل للغدير. ماذا بالضبط؟ ألتفتت إلى المرأة فإذا بها باسمة مفتوحة العينين على أقصى اتساع. تهمزني وهي في قمة الجذل:

- وصلنا في الوقت المناسب لتأملها أخيرا!

- أنت، أما أنا فلم أصل يوما مكانا أو وضعا إلا بعد الأوان أو قبله.

- أتكون رأيتها وترفض الاعتراف؟ فاجأتك أكثر من مرّة تخلع نظارتك لا تريد أن ترى نوعا من الأشخاص والمناظر.

- لكنها فوق أنفي. صدقيني، لم أر شيئا. سمعت فقط صدى شيء يمرّ عمّ تتحدثين؟

يهمس الدليل: فرّت الغزلان، اطمئنا، كل الحيوانات تأتي في الصباح للشرب. سيسعفنا الحظّ بروية من لم يأت بعد.

نجلس فوق أكمة تشرف على بركة أسنة من الماء ولها من البعد ما يكفي لوضعنا خارج مدار الخطر. ما زال الحرّ في حدوده المعقولة وكذلك صراخ الكائنات.

تهزّ المرأة كتفيها.

- سيكون يوم زفت مثل الذي انقضى.

- أمّلنا الأخير في الكسالى، من سهروا البارحة إلى آخر هزيع من الليل وما زالوا يغطّون في النوم. كأنني أسمع صراخ الزوجة أو الأم: يا ولد انهض، سيشربون كل التربة وسيادتك تغطّ في النوم. أه يا عيب الشؤم على حيوانات آخر زمان، في عصري كان الواحد منا ينهض في مكتمل النشاط قبل احمرار الأفق، ينطلق مغنيا: الحلوة قامت تعجن في البدرية والديك يؤذن: كوكو كوكو...

- تعني أيضا!

- إنها أغنية جميلة تطلقها إذاعات بلداننا كل صباح لتحريض الكسالى والفقراء على الخروج من الفراش، نوع من الدعاية للعالم. حتى الأغاني الإشهارية يمكن أن تكون جميلة وهذه واحدة منها، خاصة حين تغنيها امرأة سحر جمال صوتها أمةً بأكملها. كوكو كوكو تعجن في البدرية !!

يضع الدليل مجددا إصبعه على شفثيه قافزا كأن ثعبانا لدغه ثم يشير إلى أكمة من الأشجار القزمية.

هذه المرّة وصلت حقا وبالضبط في اللحظة الثمينة التي يجب فيها الوصول.

تنتصب أمامي عن بعد عشرة أمتار على الأكثر أربعة كائنات عملاقة على قوائم شاهقة ترفع أعناقها بالغة الطول تبتت عليها رؤوس ماعز أو غزالان كأنها جعلت لرعي السحاب. تصطفت على شاطئ الغدير تباعد بين أطرافها كأنها تواجه بعض الصعوبة في ثني الركبة. تنجح أخيرا في إنزال الرأس إلى حيث يوجد الماء الزلال ثم ترفع رؤوسها بسرعة كأنها تخشى مفاجئة غير سارة. فجأة تتواجه زرافتان فيتقاطع عنق الأول مع عنق الثاني يرسمان صورة لحيوان برأسين نباتا في اتجاهين معاكسين. ثم تدبر لنا الكائنات العجيبة ظهرها، تخفي عن الأنظار بالسرعة التي برزت بها.

من جديد، خيالي وحواره الذي لا يتوقف مع هذا الذي أسميه "الشيء":

لا، لست إلا عجوزا خرف قبل الأوان... كل ما في جعبتك اللعب على تنوع الأشكال وتغيير المقاييس... هل لك حقا من جديد تبهرني به؟ ... مثلا عالم بلا كواسر وطراند، ومع هذا لا يختل له توازن.

تصرخ مرافقتي:

- اللعنة على هذه الحيوانات الغبية، لم تترك لي الوقت لأخذ أية صورة.

يتوجّه إليها الدليل بنبرة من نفد صبره من الأبلهين:

- يا سيّدي، كل الكواسر تأتي إلى هنا بحثا عن فطور الصباح، لذلك لا تطيل أيّ من هذه الحيوانات المقام في مثل هذا المكان.

كائنات جائعة تبحث عن كائنات خائفة وكائنات خائفة تبحث عن النجاة من كائنات جائعة...كلها كائنات مسكينة! هي الأخرى لم تتلق تسهيلات نحسدها عليها ولو أنه لا يوجد، لو تمنعت هي في مصيرنا، ما يجعلها تحسدنا عليه.

تتوجه إلى امرأة ما زالت هي الأخرى تحت وقع الصدمة.

- على فكرة، سيادتك لا تحمل أبدا كاميرا ولا تهتم بالتقاط الصور التذكارية، لأنك لم تأت هنا إلا للتفلسف الفارغ.

- هل انتبهت أنكم تستعملون في لغتكم فعل shot لأخذ الصورة.

- وحده شخص سيء الظن بالبشر وخاصة بقومي يظن أننا نقرن بين أخذ الصورة بالكاميرا وطلقة الرصاص.

- اللغة أكثر من وضع ملصقات الاسم على الأشياء. هي عقلية المتكلم ورؤيته للعالم وتعامله معه.

تغير المرأة الموضوع مجرّبة المزح للتغطية على تزايد توتر أعصاب المتحدث والمستمع:

- بصراحة، ألا تريد لك بعض الصور وقدمك على جثة أسد؟

- العياد بالله أفضل صورتي أتوسط العنزة والبقرة والحمار واضعا ذراعي على ظهره، أمامي الديك والكلب والحمل وخلفي الحصان والجمل يعيثان، وعلى رأسي حمامة بيضاء أفردت علي جناحيها ولا بأس أن يكون في منقارها غصن زيتون.

أما بخصوصك سأتركك تلتقطين ما شئت من الصور للكائنات التي تترصد وراء الأعشاب، ثم سأصرخ مثل طرزان أنبها لوجود لحم طري شبه مضمون لما يعرف عن البشر من بطء الركض وضعف المخالب ولو كانت لأنثى.

- انتظر تذوقها وستعرف تكلفة بطء الأدميين في الركض هربا من الأدميات.

نعود إلى المشي وراء دليل متزايد الضيق من عودة ضغط الزبائن وتواصل دلال حيوانات لعينة قررت أن تمنع عنه بقشيشا يدرك بخبرته المهنية الطويلة أن حجمه بعدد الكائنات التي استطاع الزوار إطلاق "فلاش" الكاميرات أو رصاص البندقيات عليها.

يلتقط الذهن الشارد آخر جمل الدليل يواسي زبونة غاضبة:

- حقا، سوء الطالع يلاحقنا. هذه محمية فيها الكثير من القلط والعادة رؤية البعض منها حتى أول يوم.

أندخل في الحديث:

- قطط هنا في الأحراش؟ إنها حيواناتي المفضلة لما تظهره من استقلالية ونكران للجميل. كم أحب ما تظهره من تباعد وتكبر حتى على الذي يطعمها وكأنها تقول له: أي شرف ميزتك به وأنا أقبل أن تخدمني. حقا، إنها حيوانات عجيبة.

تهزّ مرافقتي كتفيها.

- قَطَط هذا المكان من النوع الذي لا تستطيع وضعها على ركبتيك. أتمنى أن أهديك واحدا منها لتجوب شوارع مدينتك تجرّ الأسد أو الفهد في حين لا يجرّ صغار القوم إلا أبشع الكلاب.

- أول شيء سأفعله إطلاق سراحه وتحريضه على أكل أكبر عدد من المازّة ناصحا بالبدء بالأطفال والنساء في مقبّل العمر لطراوة لحمهم.

- يا عدوّ البشرية، لا تنتظر منّي تعاطفا إذا التهمك قطّ جائع من قَطَط هذه المحمية اللعينة.

- لا أنصح المسكين بالأمر فالذي يكسو عظامي لم يعد لحما منذ زمن بعيد وإنما قديدا، آه لا تعلمين ما القديد؟ إنه لحم نجفده بعد التضحية بخروف العيد المسكين. لا أقطع منه مذاقا، مالح، تتكسر عليه الأسنان وهو بطراوة الخشب، ومع هذا لا إفلات منه وقد قرّرت إنائنا لسبب لا أعرفه ولا أظن أنهن يعرفنه أن كسكسي رأس السنة لا يكون إلا به.

فجأة يتسمّر الدليل من جديد في مكانه هامسا بجذل غير مصطنع:

- وراء الشجرة، انظر، إنه وحيد قرن أبيض. إنه نادر في هذه المحمية التي يكثر فيها الصنف الأسود.

تجتو مراقفتي على ركبتيها وكلها تأهب لأخذ صورة العمر. تصرخ همسا:

- هل رأيته؟

- أه طبعا رأيته، هل تعتقدين أنني قصير النظر. إنه هناك بالضبط.

- تمزح؟ هذه صخرة، انظر في الاتجاه المعاكس.

- اطمئني، رأيته الآن.

أنا بنفس الصوت الهامس متوجها إلى الدليل:

- عفوا، لماذا تقول إنه أبيض، إنه حسب ما أرى...

- وحيد القرن الأبيض والأسود كلاهما رمادي.

- عجيب!

يتقطن الرجل إلى ما في قوله من غرابة وما في لهجتي من سخرية. يهزّ كتفيه مفضّلا متابعة الحيوان وهو يدخل ببطاء الأحرّاش، وما عليّ إلا أن أتدبر أمرى لأفهم لماذا يصنّف حيوان رمادي مرة أبيض وأخرى أسود؟

تقطع عليّ رقيقة الطريق خواطري.

- برىء أفلت من استعمال قرنه لشهواتكم الجنسية أو كغمد لخناجركم المعقوفة، أيها الإرهابيون.

- لكنه لن يفلت من حنوكم عليه فردا بعد أن دمرت جنسه وبيئته أيها المتحضرون.

- هل جرحتك؟ لا تؤاخذي. لا أفهم كل هذه اللامبالاة منك. ألسنت من ألححت عليّ لأنظّم

لك هذه الزيارة، هل تمثّل؟

- كل الأمر تورّعي بين شعورين متناقضين: الرغبة في رؤية بعض من هذه الكائنات

العجيبة التي لا تتزاحم في شوارع المدن التي أعرف، و.... الحرج. هل كنتِ تقبلين بأن

يدخل بيت الحمام في دارك ثور بحجة تعطشه إلى معرفة الأدميين، وأن له تقريرا عن رحلته يجب أن يدونه لينال به الشهرة بين بني جلدته السمكية؟
على كل حال أنا جدّ ممنون وجدّ سعيد وجدّ راض عن يومي. لا أدري على ماذا أركز وكل هذه الروائع التي لا تولينها أدنى اهتمام تشدّ انتباهي.
تستعيد المرأة حيويتها وهي تلفت نظر الدليل لبقايا صيد أحد الكواسر. تأتيني كلمات الدليل وهو يهني صاحبة البقيش المنتظر بفطنتها وكيف أنها ملاحظة جيّدة، وأن هذا فعلا رميم غزال طومسون اصطادته حسب رأيه لبؤة ماهرة لا أسد كسول خلافا لما يعتقد أغلب السياح.

الصيد! أهمّ حدث يشهده هذا العالم منذ الأزل. نوعان اساسيان منه. الأول صيد الأسد للغزال، من ثوابته ضراوة انقضاض الصياد وأناقة مراوغة الضحية ، الحسم السريع بالخاتمة السعيدة للأكل والفظيعة للمأكل أو بتجدد العقد بين الغزال والحياة، بين الجوع والأسد. الثاني صيد تنين الكومودو لثور راقد في الوحل يكتفي بعضة واحدة لا تتسبب له إلا في جرح بسيط لكنها تحقنه بسمّ بطيء المفعول. لا يبقى على التنين إلا ملاحقة ضحيته أحيانا لأسابيع ينهشه هنا وهناك وفي كل عضة يحقنه بمزيد من السمّ إلى أن تخور قوى الثور فيسقط لقمة سائغة تمرّقه المخالب والأنياب وهو نصف ميت نصف حي. يأخذ صيد الأدمي للادمي من تقنيات الأسد والكومودو، والظروف وحدها من تُملّي أي الخيارين الأفضل.

ليس في هذا العالم غير آكل ومأكل، قاتل ومقتول وأهمّ فعل فيه قتلٌ أما الباقي من الأفعال فتعاليق وهوامش.

يتواصل الهمس بين الدليل ورفيقة الطريق بخصوص الفاعل والرجل يؤكد لها أن الفاعل ليس الفهد صاحب الإمضاء على جذع الشجرة الذي قد يكون قريبا منا لأن الفهود تفرّ بصيدها إلى أعالي الأشجار للحفاظ عليه من سرقات الأسود وبني آوى.
حتى هنا كائنات يسرق بعضها البعض وتحتال لوضع الغنيمة خارج شره المنافسين.
فجأة تتحرّك بعض أغصان أشجار قريبة منا يتعالى منها صراخ منكر.
يهمس الدليل: لا تهتمّ، مجرد خصومة قرودة الشمبانزي.
أهمس في أذن مرافقتي:

- على أيّ شيء يتخاصم بنو عمومنا الأقرب والأشبه؟ على أنثى شهية مكتنزة العجز على خلافة طاغية مسنّ، على الشهرة بين الشباب، أم على توسيع رقعة الوطن المفدى الذي تهدد حدوده المقدسة جحافل الأعداء؟ لا تأتيني أخبار آخر حرب أو أسمع صراخ الجيران إلا وقلت في نفسي: ثمة هرج على الأغصان.
تضحك مرافقتي.

- ليس الأمر دوما هكذا. تذكر ما يُقال عن بني عمومنا الآخرين: البونوبو. يكفي أن تقوم أبسط خصومة بين قيس وليلاه حتى تبادر الأنثى بتقديم عجزها إلى الذكر فينال غرضه

وتنتهي الخصومة في الحين. ما إن تلوح في الأفق بوادر سوء تفاهم بين الجارة وجارتها حتى تبادر الأولى إلى شعر الثانية تبحث فيه عن قملة تضايقها فتنزعها بكامل اللطف فيهدأ غضب الأولى وتبادر هي الأخرى بردّ الجميل. هكذا يقضي البونوبو حياتهم بين الجنس واللعب.

- لذلك لم يظهر بينهم ثوري مصلح أو نبي، لعدم حاجتهم إلى أي من هؤلاء، ثم تدعون أيها البشر أنكم أرقى مخلوقات الله.

- على الأقلّ نحن نستطيع أن نضحك من انفسنا ، أليس هذا أحسن دليل على أننا أرقى مخلوقات الله؟

- لا أرقى ولا بطيخ. لسنا إلا حيوانات من بين كل الحيوانات والدليل كثرة القواسم المشتركة. نحن نتشارك مع السباع في ضراوة الدفاع عن قطعة أرض نريد كل خيراتها لنا وحدنا، الفارق أنهم يرسمون حدود أرضهم برائحة البول على أشجار معينة ونرسم حدود الوطن المفدى بالأسلاك الشائكة وكاميرات التعرف على الوجوه في المطارات. نحن نتقاسم مع الذئاب تقنيات الصيد جماعيا الفارق بيننا وبينهم حجم المجموعة التي تخرج لاصطياد وأكل ما هو أضعف. نحن نتشارك مع النمل في تنظيم الغارات الحربية التي لا تبقى ولا تذر على الجيران لسرقة ما يملكون أو لاستعبادهم، الفارق أنه ليس له إلا أجسادهم كسلاح ونحن نستطيع القاء القنابل الذرية من السماء. نحن نتقاسم مع فيلة البحر الصراع على السلطة الفارق بيننا وبينهم أنهم لا يرفعون صورة الزعيم الأوحد الفائز في تصفيات القتل بين المتنافسين على الزعامة. نحن نتشارك مع الشمبانزي في الصراع على الأنثى، الفارق أننا نمسرح هذا الصراع طول الوقت مما يعطينا مقتل كارمن في الفضاء الخيالي ومقتل بوشكين في الفضاء الحسي. حتى لا نظلم أنفسنا نحن نتشارك أيضا مع الثعالب والكلاب والقطط والفهود والأسود في حبّ صغارنا وفرح اللعب والتهريج معهم.

-آه ، أخيرا تعترف لنا بشيء إيجابي...

-كل هذا وراءه نفس الهرمونات، ووراءه نفس الهرمونات نفس القوى المبهمة التي تلبس عبرنا جميعا أشكالاً مختلفة لنفس القمص وإن تباينت حجما وتعقيدا.

نعم ، نحن حيوانات كبقية الحيوانات ، لكن ما الذي يعطينا عليها كل هذه السلطان؟
الكتابة؟! هل تكون هي السرّ؟...ألا تحتاج الحيوانات والأشجار حتى تتطور لتغيير في الجينات يتطلب ملايين السنين، بينما نستطيع نحن البشر بالكتابة نقل تجاربنا وتوظيفها والزمن المطلوب لرفع قدراتنا يحسب بالقرون وأحيانا بالعقود لا أكثر؟

ينهننا الدليل أننا قد تعبنا بما فيه الكفاية وهو ما يعني أننا أتعبنا المسكين فوق اللازم وأن علينا اتباع طريق العودة لرتناح وخاصة ليرتناح هو منا .

في المخيم تعود مرافقتي للثرثرة، لا أصعب على الأدميين من التزام الصمت طويلا وهم جنباً إلى جنب.

- يا رجل، قلت لك انتبه لوجودي، في ماذا كنت تفكر؟

- في أشجار هذه المحمية على قلتها و صغر حجمها. لا أنت ولا الدليل ابديتما أدنى اهتمام بها والحال أنها أجدر بالاهتمام من كل ما ركضنا وراءه عثا.

- يبدو أن البحث عن الطرافة ومخالفة الرأي العام خاصة فيك تتعهدا بكثير من العناية. أبدأ. عن بعض المنتهين الذين من سخرُوا حياتهم بحثاً في أسرارها أن الأشجار تنكثف وتتعاقد بينها، أنها تتبادل المعلومات عن الأخطار التي تهددها، أنها تدافع عن نفسها بتسميم الحيوانات التي تبالغ في قضم أوراقها، أنها تتعاون مع الفطر، مع النمل، مع الطير، مع الريح وحتى مع النار للحفاظ على وجودها، أنها تشعر ولو أنها تشعر لا كما نشعر وحتى أن الأزهار تسمع ولو انها تسمع لا كما نسمع.

تهزّ المرأة كتفيها غير مصدقة أننا عندما نقف أمام الأشجار لنحرق ونجتث فنحن صرح من الغياب الصارخ في تعدي على صرح من الذكاء الصامت.

يوم مشيت وراء نخلة مقتلعة لحينها، وجزار البلدية البطيء الحامل لجثتها يستد الطريق، وطابور طويل من السيارات وراء... كم كرهت الأغبياء وهم يزمرون بعصبية ولا واحد فيهم واع أننا نمشي في موكب جنازة وأن عليهم التزام وقار الجنازات.

يجب مواصلة زعزعة قناعات تمنعها من تجدد الانتباه.

- ألا يذهلك أن الأشجار لا تموت لما تدمر النيران تسعة أعشار " جسدها " وإنما تتجدد كلياً بينما يكفي أن يدمر المرض عضواً واحداً من الجسد الأدمي حتى تنتهي حياته؟ أليس من باب المعجزة أنه عندما يكسر لها غصن تخلق غصناً جديداً على عكس الأدمي الذي يستطيع تجديد ذراع ذهبته به قنبلة؟

- على فكرة ما اسم الشجرة التي اكتشفوها في جزيرة نائية تسمى "تسمانيا"، لا يموت لها جذع إلا وتواصلت من جذع آخر، تتحدى الموت منذ عشرة آلاف سنة.

- عشرة آلاف سنة! بالضبط الفترة الزمنية التي أحتاجها لإكمال استكشاف هذا العالم وتديج تقرير له الحد الأدنى من الجدية. أه، لو علمتني سرّها.

تضحك المرأة ضحكة صفراء.

- صحيح أن الأشجار وجدت قبلنا بملايين السنين وأنه لولا وجودها لما وجد هذا الهواء الذي نتنفس وبالتالي لما وجدنا.

- أه بدأت تليّنين موقفك. برّك، ماذا لو فقدت هذه الكائنات الثابتة صبرها ورحلت إلى بعيد لتتركنا وحدنا؟ مؤكّد أننا سنبعث إليها الأطفال والعذارى نطلب الصفح، نعلن التوبة، نرجوها العودة، نحلف بكل المقدسات التي لم نقدها أننا سنفسح لها الجبال والصحاري وكل الهضاب، أننا لن نأخذ منها ولن نطلب منها شيئاً باستثناء أن تمنحنا مجدداً ظلّها وجمالها.

- إلى أين تريد الوصول بكل هذه الفلسفة الفارغة؟

- إلى ضرورة العودة لعبادة الأشجار أينما وجدت وعلى أية حال.

- العودة لعبادة الأشجار! ... يبدو أن الحرّ أثر عليك أكثر مما كنت أتصور.

- ألم تعبد قبائل ليتوانيا والسويد الأشجار إلى موقى القرن الرابع عشر؟ تخلّوا عن فكرة

عبقرية كهذه لعبادة آدمي يدّعي أنه ابن الربّ! برّبك هل في الأدميين ما يُعبد؟

- ثمة كثير من العنصريين في هذا البلد، لكنني اكتشف فيك أول عنصري معاد لكل البشر

السود والبيض وبقية الألوان والأشكال.

- بالعكس أنا جدّ معجب بقسم منهم، خاصة الأوائل الذين كانوا يقيمون للأشجار مراسم

زواج. كانوا يتقدّمون لها بالاعتذار عندما يضطّرون إلى قطعها. كانوا يؤمنون أن الشجرة

تبكي تحت الفأس وأنه يجب عدم كسر الغصن مثلما يجب عدم كسر الذراع. كم من قبائل

حرّمت اقتلاعها تُسارع إلى غرس نبتة تعويضا عن كل شجرة مقتولة. ما يجعلني أمل

بمستقبل للبشر أن منهم حتى في هذا العصر المجنون من يغامر بحياته دفاعا عن حياتها.

هل سمعت بتلك المرأة المسماة جوليا بترفلاني هيل التي اعتصمت قرابة ثلاث سنوات على

ارتفاع أربعين مترا بين أغصان شجرة سيكويا عمرها ألف سنة، تحميها بجسدها من منشار

تجار الخشب؟ قرابة ثلاث سنوات وبنث الثلاث وعشرين سنة تقّات بما يرفعه إليها من

مؤونة حفنة من العقلاء مثلها. لم تقبل بالزول إلا بعد أن أعطيت كل الضمانات أن شجرتها

“لونا” لن تقنّت حطبا. كانت هذه المرأة الحكيمة تقول “نحن لا نتصرف كما يجب أن

يتصرف الأوائل تجاه ذريتهم. نسينا أننا أوائل الأجيال القادمة، أن علينا أن نترك لها عالما

قابلا للسكن “

هذه المرأة والكثيرون من أمثالها يتجمعون اليوم في أكثر من غابة يحتفون بالأشجار

متعبدين للقوى المقدسة التي تسكن جذورها وجذوعها وأغصانها وأوراقها.

- أه، أخيرا عرفت بأي دين تدين.

ديني؟ الذي أوصى به أصدق دليل.

لقد صار قلبي قابلاً كلّ صورةٍ فمرعى لغزلانٍ وديرٍ لرهبان (ابن عربي)

وبيتٍ لأوثانٍ وكعبة طائف وألواح توراةٍ ومصحف قرآن

أدينُ بدين الحبِّ أتى توجّهتُ ركائبه فالحبُّ ديني وإيماني

تعود المرأة لِممازحتي:

- قل لي قبل أن أقبل بدينك الجديد، كيف هي الطقوس؟ حدثني عن الصلاة مثلا، كيف

تقيمونها أنتم عبدة الشجار.

- كل صباح قيل الذهاب للمستشفى أرثدي ملابس خفيفة ثم أذهب لمكان العبادة. الذراعان

إلى فوق عشرة مرّات، عشرون مرّة ثني الركبة، استلقاء على الظهر ثم رفع الجذع إلى

فوق، أكثر عدد من المرات. كل هذا والمؤمن في مأمن مطلق من الباحثين عن الكفر

والكفار ، لأن الأمر بشهادة الحراس تمارين رياضية يمارسها كهل يريد التخلص من كرش غير أنيقة. ما يدهشني تزايد صفوف المؤمنين.

- وبعد الصلاة؟

- مُنقطع الأنفاس أجلسُ في حضرة المهابة والجلال مردداً في سرّي: يا سيدي جوناس، يا سيدي جوناس!

- من؟ لم أسمع بقديس أو إله بهذا الاسم.

- جوناس، الاسم الذي أطلقته - هكذا دون سبب - على الكائن غير الأدمي غير الحيواني المشرف من علياء شموخه على بحيرة صغيرة يلعب فيها البط ويسبح البجع. لم يبق لي أمل إلا فيه وقد خذلني لحدّ الآن الغوث والمحجوب وسيدي الخافي وسيدي محرز وبقية أسياد وسيادات الأب والأم.

- واصل التضرع له ، لعلّه يحنّ عليك أكثر من آلهة وقديسي البشر.

- ما أعرفه لحد الآن من طبائع البشر وطبائع الشجر تجعلني أضع في جوناس كل ثقتي وآمالي. أسف لإخبارك أعلى درجة سلّم الكائنات الّ ثبات وبعدها بني حرية وأنتم البشر آخر الطابور. لا أفهم لماذا حشرت في شكلكم؟

- لا بدّ أنك كنت في حياة سابقة قردا مشاكسا ومعارضاً فقّرر لك أن تمسخ آدميا في هذه الدنيا كأشدّ عقاب.

-تفسير منطقي. لهذا حاولتُ في هذه الرحلة أن يبقى ملقّي نظيفا علّ السلطات العليا لعلّها تعيد بعثي شجرة في الرحلة المقبلة.

نعم لن أقبل بالبعث إلا نخلة أو زيتونة أو أرزة والأفضل شجرة كاوري أو سيكوي ، شامخ الجذع، وارف الأغصان، رام بجنوري بعيدا في أغوار العتمة... في شرابيني تتدفق عصاره الحياة، محمّل بكل البنور، بكل الأزهار، بكل الثمار... بيت السنجاب، ملجأ النمل، مرصد النسر، مخبأ الفهد... محميا بظلي يفكر الحكيم، يحكم العادل، يستريح المتشرد، يتسلّطني الطفل... على جسدي يحفر العشاق أسماءهم، أطمع من هبّ ودبّ لا انتظر جزاء ولا شكورا... لا يخرجني من وقاري مسمار أو منشار ولا حتى لهب النار... لا أنتظر أحدا أو حدثا، لا أخشى أو أمل شيئا... صلب، لئين، هادئ، صامد في وجه الأنواء والدهر... الريح والفرش والنحل رسل أشواقي... تأتيني الشمس بأخبار النهار وأشعة النجوم بقصص الليل منتبه، شارد الذهن، أغفو على تخوم اللاوعي والوعي، ساكن أتأمل من علوي تلثم الزمان والعالم هو الذي حولي يدور.

تلنزم مرافقتي الصمت وكأنها تفكر في منافع أن تبعث هي الأخرى شجرة. ثم تغير موضوع الخصام المقتعل.

- لننسن أشجارك المقدسة وهذه الحيوانات اللعينة التي تصر على مواصلة لعبة الغميضة معنا. تعال، كن ولدا طيبا. قصّ عليّ قصة مُسلية ورقيقة كتلك التي تُحكى للأطفال قبل النوم. حذار، يجب أن يكون الأدمي في منتهى الطيبة والحيوان في منتهى الوداعة والعلاقة

حب ووثام، أسلوب أفلام الأطفال ليلة عيد الميلاد. احك لي مثلا عن دبّ النسيج الذي كنت لا تنام إلا وهو في حضنك، أو عن كلبك الصغير الذي كنت لا تفارقه.
- ليس لنا دبية في الصحراء، اللهم إلا إذا كانوا أخفوا عني الأمر. أما كلابنا فنذيقها الأمرين.
- ربما كان لك دمية جميلة لجمل أو كلب أو حمار.

- أخشى أن تضحكي مني إن حدثتك عنه، عديني بعدم فضح الأمر.
تعدني مرافقتي بالأمان وأنها لن تفضح السرّ، على الأقلّ طيلة بقائنا في المحمية. الأمر الذي يشجعني على رواية القصة بل ومن بدايتها مع بعض المبالغات القليلة هنا وهناك.
كان يا مكان في واحة نائية، عجوز فقير تركه ابنه وحيدا وترك عنده طفلا مشاغبا يرهق السماء والأرض بهرجه الدائم وأسئلته الغريبة التي لا تنتهي.

كان جدي لا يملك غير حوش متداعٍ وحمار وجمل يعينانه على أعماله الزراعية وقضاء حوائجه الأخرى. أما الجمل فقد كانت علاقتي به بالغة السوء. أذكر، وأنا في بداية سنتي الرابعة أو الخامسة، أنه أصابني بضربة بارعة بخفه خلت أنها سترديني قتيلًا. باءت كل محاولاتي لركوب ظهره بالفشل الذريع. من أين لي تسلّقه وهو بجرمه وأنا بقامتي؟ وإذا وجدته باركا وقفزت فوق ظهره، نهض اللعين ورماني على الرمل. لكل هذه الأسباب ولغيرها، أيقنّت باكرا أنه لا خير في البعير. هكذا قرّرت تجاهل الحيوان ونسيانه كما أفعل منذ ذلك الزمان مع كل الذين أدرك بالتجربة أنه لا قواسم مشتركة ولا تفاهم ممكن معهم. من يومها قطعّت كل العلاقات الدبلوماسية مع هذا الكائن رغم صلة مغرقة في القدم بين قومي وقومه.

لم يبق إلا الحمار. كان خلافا لذلك المتعجرف بالغ اللطف والهدوء والصبر. كم أشعر بالذنب اليوم لما أدقته إياه من أصناف التعسف والدلال. كان عنتر سهل الامتطاء وكنت أشعر وأنا فوق ظهره بأني فارس الفرسان أركله في جنبه، أنهال عليه بالعصا، أصرخ فيه بأعلى صوتي ليركض بأقصى السرعة، ثم أخرج سيفي المصنوع من سعف النخل من غمده أرفعه عاليا لا أنزل من ظهره إلا وقد انتصرت على أعداء أبي.

- هل كان جدك يتركك تأخذ حماره متى شئت؟

- الحمير في عهد جدي لم تكن تشغّل بمفتاح يخفيه صاحبها. كنت أنتظر أن يبدأ العجوز عمله في الحقل لأخطف عنتر، فينطلق شريطة ألا أنسى -من فرط تسرّع- فكّ الحبل المربوط به إلى جذع النخلة. ثم إن جدي، كان ككل جدّ يحترم نفسه ودوره، ولا يسعده شيء قدر أن يترك الطفل ينشيطن عليه وهو يخفي ضحكه وحنانه. كان يعرف حبيّ الشديد لعنتر، لذلك كنت المكلف الرسمي والوحيد بأن أخذه ليشرب من العين، والمشرف الأول على عملية ملء القرب والرجوع بها سالمة إلى الحوش. ماتزال تفوح من أعماق ذاكرتي إلى اليوم رائحة جلده وقد تمازجت برائحة القرب الرطبة المطلية بالقطران.

- توقّف، ستبكي. لا أتصوّر كيف تحدّثت يوما عن رائحة حبيبة فرقت الأيام بينك وبينها بكل هذا التأثير.

- يا امرأة، أحدثك عن عنتر وتحذّثيني عن النساء! آه يا عنتر، كم كنتُ أود أن تعيش قبل زمن الأسر، أن أراك تركض حرا طليقا تسطو على حريم الغريم، توسّع ملكك وتطرد كل حمير يُحصّر انقلابا وقد اعتقد مبكرا أنك لم تعد من تحنى الأذان الطويلة في حضرته. نعم، أين في الناس حمار مثل حماري! آه يا عنتر، رحمك الله أوسع رحمة، رزقني فيك جميل الصبر والسلوان وأسكنك فسيح جنانه، في القسم المخصص للحمير. بالمناسبة، ألا تشاركينني استهجاني الشديد أنه لا أحد من حكماء الأدمية، اهتم بمصير الحيوانات بعد موتها. إذا تواصل هذا الاستخفاف المشين بحقوق الكائنات غير الأدمية الثابتة منها والمتحرّكة، فسأتحمل مسؤوليتي كاملة في تصحيح خلل ما بعده خلل ومظلمة قد تكون أكبر المظالم. نعم، ما زال هناك مكان في فضاء خيال البشر لجنة للبعير والحمير والجمال، تستريح فيها هي الأخرى من أهوال هذا العالم وما قاسته من كائن لا يجازى في الشر اسمه الأدمي. الاستثناء الوحيد الفران والذباب والناموس، وما على هذه الكائنات إلا البحث لها عن جنة في خيال من يعشقها.

- الخلود للحيوانات! ألا يعني هذا الاعتراف لها بروح. الحيوانات لها روح؟!
- لا أدري بخصوص الحيوانات الأخرى أما عنتر فبال تأكيد له روح. لا يجادل في الأمر إلا غبي أو ناكر للجميل مثلك أنت وبقية الأدميين. ألا تعلمين أنه لولا الحمار والثور والبغل لاضطررنا لشدكن إلى المحراث.

عن نكران الجميل حدّث ولا تسل... هل كنا نتعلّم الصيد لولا أساتذتنا الذئاب وحلفاؤنا الكلاب؟ هل كنا نصيح مزارعين وبنات قرى وممالك وأديان لولا البقرة والخروف والخنزير والمعزة، أو غزاة وفرسانا لولا مُطَهَّم الخيل؟... ألم تشكل الحيوانات النموذج والقودة، ونحن نحاول تقليد هيبية الأسد وشجاعة النمر وجلال النسر وجمال الغزال ورقة الفراش ووفاء الكلب وذكاء الغراب؟ على الأقل رسم أوائلنا لها اللوحات على حيطان الكهوف وأقاموا لها التماثيل وبنوا لها المعابد... أما نحن أحفادهم الأغبياء فنستغلها دون حياء أو عقدة ذنب أو نضعها في أقفاص من مختلف الأحجام.

- واصل رواية قصة حبك الأول ...

- فصلتني الأقدار الظالمة عن عنتر، لكنني حملت هواه في فؤادي على مرّ السنين لا أخون عهده مع أي حمار آخر. يوم استقرّ بي الطريق في بيتٍ محاصرا قلت: لم لا أشتري حمارا أسكنه في الحديقة ليرتاح بقية عمره، أكفر عن كل خطاياي السابقة بمنحه نوعا من التعويض البسيط وردّ الاعتبار في شخصه الكريم للحمار المجهول الذي تكّلت به البشرية على مرّ العصور؟

- أخيرا عرفتُ ما سأهديك. تريد أخذه معك في الطائرة؟

- لا داعي لتكّلف المشقة فبلدي يعجُّ بالحمير، بل منهم من تبوّأ أرقى المناصب.

- ذكّرنتي بذلك الأرستقراطي الذي نشر إعلانا عن انطلاق معرض لأجمل حمير المملكة يوم كذا في المكان الفلاني، فتدافع الناس إليه لتبادل النظرات الحيرى بينهم وهم لا يكتشفون

إلا أمثالهم. بعضهم ضحكوا للمقلب وبعضهم أقاموا دعاوى قضائية على الرجل. بجدّ، ما الذي كنت ستفعل بعمار بطلّ يعاني الملل في حديقة لا يخرج منها؟ أليس الأمر بمثابة الحكم عليه بالسجن المؤبد؟

- من قال لك إنني كنت أنوي حرمانه من الفسحة؟ بالعكس، كانت كل الفكرة مبنية من البداية على فهم عميق لمصالحه ومصالحه. كان المشروع أن أغافل في آخر هزيع من الليل البوليس السياسي النائم في السيارة أمام باب البيت، لجولة ممتعة في الحيّ أستعيد خلالها مشاعر الطفل. ثم اتضحت لي مخاطر الأمر. ماذا لو لاقيتُ جيراني وكلهم ميسورون لا يركبون إلا المرسيديس؟ ماذا لو تفتنّ البوليس وأخذ لي صورة وأنا على ظهر الحمار لتخرج من الغد صُحفُ السلطة بالعناوين الغليظة: كم مرّة قلنا لكم إنه مجنون!

- فعلا كانت حظوظك لإقناع مواطنيك برواك دوما معدومة. لكن لو اكتشفوك في الثالثة صباحا على ظهر حمار لأصبحتُ معدومة ونصف.

- خاصة مع قربة الماء. أعترف بأن نوبة من الجبن جعلتني أتخلّى عن حلم جميل كهذا.

- من الجبن أو من التعقّل؟

- في بلدي اليوم لا فرق بين الأمرين. ذبّين أغلبية القوم أن الكذب قوام الأقوال والجبن قوام الأفعال. المهمة، تخليث عن المشروع برمته ولم يبق لي للتفيس عما في وجداني غير حمار الفلاح الذي يتجاسر أحيانا على دخول بيتي لإعانتني على صيانة الحديقة. ذات مرّة قلت للرجل بمنتهى الجدّ: كم أحسّدك. لا أشتهي شيئا قدر أن أركب حمارك لجولة صغيرة في الحيّ تحت ستر الظلام. حدّق فيّ الرجل باستهجان معتقدا أنني أسخر منه فغيّرتُ موضوعا كنت أعود إليه باستمرار. أحيانا كنت أتطرّق إلى إمكانية أن تربط حمازه أوامرُ نَسب بجمير الجنوب وربما لم-لا-بجمير قومي، وهل يمكن أن يكون -هكذا بمجرد الصدفة دائما- من ذرية عنتر. للأسف لم يكن الرجل يفهم ما أقصده ولا سرّ اهتمامي بدابة لم يكن يرى فيها إلا ما يراه جلّ الأدمنيين في مثل هذه الكائنات المقهورة الأسيرة.

يوم اقتنعتُ ألا نوعية الأصدقاء ولا نوعية الأعداء تجعل العيش مغريا في الأرض الجدباء التي حُكمت عليّ ظلما بالانتماء إليها، أصبحتُ أحلم بشراء الحمار والفرار به تحت جناح الظلام حيث لا وجود لبوليس سياسي. ثم تطوّر الحلم. لماذا لا أوصل الطريق هربا من هذا الكوكب التعتيس برمته. تصوريّني على عنتر الثاني متسكعا بين المجزّات، أزور الكواكب التي يزخر بها الفضاء اللامتناهي، الواحد بعد الآخر، لا غازيا أو باحثا عن الذهب أو حتى عن العلم، وإنما شاعرا يتأمل معجبا، متعجبا، منبهرًا ومأخوذا بتجارب الله. كل هذا ولا مخبر يتعقبني، لا عدوّ يهدّني، لا خصم ينافسني، لا نصير بيتزني، لا حليف يخدعني، لا صديق يخونني، لا قريب يريد تدخّلا ولا بنت تطالب بالزيادة في المصروف الشهري. أخيرا الخلاص! أخيرا الحرية!

ذات يوم سألتُ الرجل عن ثمن حماره هكذا لمجرد تواصل الحلم. تردّد وقد أيقن أنها مقايضة رابحة مسبقا بين طبيب بروجوازي من الأحياء الراقية وريفي ماكر. تتنحج بوقار

ثم قال لي: أتركه لك بمئة وخمسين ديناراً. فتحتُ فمي من الدهشة. ربما لمع بريق الاستنكار الشديد في عيني فسارع قائلاً: إنه حمار لا يأكل كثيراً ويصبر على الضرب ولن تجد مثله في كل أسواق الحيوانات، لن أنزل تحت مائة وأربعين. انفجرتُ في وجه الرجل وقد اتخذتُ تلك السحنة المخيفة التي تستحوذ عليّ وأنا في نوبة الغضب البدوي العارم: الحيوان الذي يساوى هذا الثمن وحتى أقلّ، هو أنت وكلّ الأدميين أمثالك وأمثال هؤلاء الذين ينامون أمام بيتي وأمثال الذين بعثوهم لتسميم حياتي. يوماً جمع الرجل فأسه وبقية أدواته وهرب بحماره دون أن ينتظر أجرته ولم أره ثانية. ما من شك أنه اقتنع أن من يتعقبونني على حق في مراقبتي. ماتزال مرجلي تغلي من الغضب إلى اليوم كلما تذكرت الثمن الذي طلب.

- وهل كنت تريد الحمار مجاناً، أو أن يهديك إياه الرجل الفقير؟

- لا تفتعلي عدم الفهم.

- بصراحة، هل كنت قادراً على دفع الثمن الحقيقي؟

- طبعاً لا. كل أموال الدنيا لا تشتري ذلك الجهاز العصبي بكل أنواع الخلايا التي يقضي جهابذة العلماء عمرهم في محاولة فهم طرق عملها... ذلك الجلد الأعجوبة... ذلك الجهاز المناعي العبقري... تلك الحواس الخمس بالغة الدقة والمهارة والإتقان... تلك النواة وسط كل خلية تحمل المورثات وكل واحدة منها أعقد مليون مرّة من أي مصنع عصري اخترعه الأدميون!

حفنة من الدنانير قيمة كل الخوارق والمعجزات لتسيير العضلات، لضخّ الدم، لتوليد الطاقة، للتخلص من النفايات، لكل الأنسجة التي تطلب ابتكارها وتجريبها ملايين السنين! حفنة من الدنانير قيمة تعقيدٍ مخيف يكتشفه الباحث، فأغرا فمه من التعجب والإعجاب في كل خلية، في كل نسيج، في كل عضو!!! أبحاث عن بروتين بسيط أو هرمون يفرزه هذا الكائن تكلف الملايين، ويقول لي هذا الأدمي الجاهل: لن أنزل تحت مئة وأربعين ديناراً!!!

- ستجد صعوبة كبرى في إطار قوانين السوق الحالية، أن تسعّر الحمار بمليار راند.

- لن أتركه لك ولا حتى بثلاثمائة مليار، خاصة إذا ثبت أنه من نسل عنتر.

تستغرق المرأة في صمت طويل وكأنني حيرت فيها أوجاعاً قديمة.

- الدور عليك أنت... في ماذا تفكرين؟

- في غياب تكأفنا مخاطر هذه المغامرة وتكاليفها. كأنّ القطط والكلاب والماعز والخرفان والبقر والنمل والفئران والعصافير والدجاج وباقي الكائنات الحية التي تجاورنا غير جديرة بالاهتمام، أو أقلّ غرابة من هذه التي أتينا نتعقبها.

- لا تغنمي، غداً يوم آخر سنرى أخيراً الكبار الخمسة مصطفين رافعين لافتات الترحيب والاعتذار.

- غداً يوم آخر ستواصل فيه استقرازي. ليلة سعيدة. تُرى بماذا تصرخ فينا هذه الكائنات حسب رأيك؟

- ثمة من يهتف بسقوط الأدميين بصفة عامة، ومنهم من يخاطبنا نحن تحديداً: Go home،

Go home، Go home

تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال. ينتظم تنفسها. ترحل سريعا إلى الضفة الأخرى من هذا العالم لربما تلاقى فيها هذه الحيوانات التي تقاطعنا وتسبنا في هذه الضفة. أي نوم في هذا الضجيج؟ يا الله يا جماعة. لو خَفَضْتُم الصوت قليلا لتتواصل العلاقة ودية بين جيران الوجود. آه يا صمت صحرائي الغالية!

على خط التماس بين الوعي واللاوعي يصبح صراخ الكائنات مفهوما. تتحقق أقدم رغبات الحالم في فك شفرة رسائل تهديد وغزل ونكت وتبادل الأخبار عن تحالفات جديدة بين النمل والنمل، عن مؤامرات تحاك بين الطيور، عن شجرة سنط شاهرة شوكتها في وجه غزال بحجم حصان يركض فزعا طالبا النجدة، فتصرخ جحافل النمل الراكبة الخناجر البيض بأن يبقى الحالم خارج القصة وإلا فإنه هو القاتل.

فوق الرقعة الكبرى لآعب الشطرنج مواصلا لعبةً تنزاید إثارةً وتعقيدا. كيف يعطي للطريدة كل حظوظها، ولا يبخل على الصياد بحظوظه هو؟ كيف يتوزع في الطريدة وفي الصياد؟ كيف ينتصر على نفسه التي هزمته آخر مرة هو الذي لا يلعب منذ الأزل إلا بكل ما يليس من اشكال.

*

نهار آخر من الغبار والفراغ والحرّ انتهى ومعه العذاب اللذيذ.

سمر ليلة الرحيل

تبادرني مرافقتي وكأنني المسؤول عن قلة ما التقطت من صور لحيوانات غير معنية بأن تلتقط لها الصور.

- اصدقني القول، هل ندمت على اختيارنا هذه الطريقة في استكشاف المحمية؟

- أبدا، أفضلها على خيار الأغباء الذين يتجولون في هذا المكان في عرباتهم شبه المصفحة يقيسون نجاح رحلتهم بعدد الحيوانات التي التقطوا صورها. كأن هذا المكان بالنسبة لهم حديقة حيوانات أكبر من التي يزورونها وسط المدن الكبرى. ربما هم على حق. محمية أو حديقة حيوانات، ما الفرق؟ الحجم فقط. نعم قد تكون هذه المحمية "باننوستان" للحيوانات، لا غير.

- باننوستان حيوانات! هل تقصد أن ما كنا نسميه باننوستان كان في الواقع حديقة حيوانات آدمية؟

-بالضبط والقاسم المشترك أكبر اثم الا وهو الاحتقار. كل ما نعاني من بعضنا البعض وما تعانیه منا الكائنات الحية التي وضعها حظها البائس في طريقنا غياب الاحترام... يوم نجعل منه مبتدأ الخبر ومنتهاه في تعاملنا مع بعضنا البعض ومع كل الكائنات الحية الأخرى ستنتهي أغلب الفضاعات التي نكرهك في هذا العالم.

- عن أي احتقار تتحدث؟ لم أرى من حراس حدائق الحيوانات والمحميات إلا الكثير من التفاني في خدمة حيواناتهم.

- آخر بانتوستان حيواني صغير زُرته مكان اسمه طارونغا بُني على هضبة غناء تشرف على البحر. كل السجناء -حتى في ذلك المحتشد المتحصّر وفي ذلك البلد المتقدم- كانوا هم أيضا محكومين بالمؤبد للجميع ولا أمل في تخفيض أو في سراح شرطي! أتذكّر جيدا أحد السجناء. كان كلب بحر، جُوع عمدا، يرمي له المروضُ بسمكة سردين إذا قام بحركات تشبه الأدميين، والأطفالُ حول المسبح يصقّون له فيقلّدهم سجين الحرب يتسوّل غداء مُنع بالقوة من البحث عنه في لجة المحيط. إنها نفس التقنيات المستعملة لإجبار نمر مستعبد على القفز، وفيلٍ مخطوف على الرقص وجراد مخصي على المشي إلى الوراء... هل كنت ترين شيئا كهذا لو كان احترام كل الكائنات الحية قاعدة تصرفاتنا.

- يا رجل، نحن بالكاد نستطيع احترام البشر وتريد أن نحترم الحيوانات.

ما الذي يميزنا عن الكائنات الحية التي نتقاسم معها العالم ويعطينا عليها كل هذه السلطان؟ ... الكتابة؟! هل تكون هي السرّ؟ ... ألا تحتاج الحيوانات والأشجار حتى تتطور إلى حالة أرقى لتغيير في الجينات وهو ما يتطلب ملايين السنين، بينما نستطيع نحن البشر بالكتابة نقل تجاربنا وتوظيفها والزمن المطلوب يحسب بالقرون وأحيانا بال عقود لا أكثر؟ عودة للمزح لتخفيف الضغط على المرأة وعليّ.

- على فكرة لماذا لا نفتح سجون الأدميين هي الأخرى للزيارات السياحية؟ على الأقل ستمكن مداخلها -بعد خصم رشاوي الإدارة والحراس والقضاة- من تحسين ظروف الإقامة ولو قليلا. ما أنا متأكد منه أن مثل هذه الزيارات ستلقى نجاحا منقطع النظير وأن الجماهير وعلى رأسها الأطفال والأمهات سيتدافعون للضحك على السجناء ورميهم بالحجارة وباليدور.

ضحك مرافقتي ضحكة لا مرح فيها.

- تُبالغ. تبالغ. تبالغ.

- أبدا، ثمة أوجه شبه أكثر مما يريد البعض الاعتراف به. في السجن الحيواني أيضا يرتطم السجين وهو يدور في الفضاء الخائق، تارة بالحيطان وتارة بالقضبان. ثم يعود إلى الحيطان لتدفعه نحو القضبان، ومن القضبان إلى الحيطان، ومن الحيطان إلى الحيطان....

- نعم، ثم ماذا؟

- ومن الحيطان إلى القضبان ومن القضبان إلى الحيطان.

- ضربة الشمس على ما يبدو أخطر مما اعتقدت؟

- بل ووجع ذكريات عن شهور طويلة قضيتها في زنزانة أكبر بقليل من خزانيتين.

- واصل افراغ ما في جعبتك، ربما سيخفف عليك ذلك بعض ... الغضب، نعم أشعر بك غاضبا وليس فقط موجوعا.

-أذكر أنني وقفتُ طويلاً أمام قفص كائن تسميه اللغة "غوريلا" -طبعاً بنكهة احتقار- وهو جالس، ظهره إلى الحائط، لا يفعل شيئاً باستثناء تحريك حصة صغيرة بقطعة من الخشب. يومها تلاقى النظرات في لحظة عابرة كلمح البرق. غضضت الطرف لا قدرة لي على مواجهة حضوره و"الشيء" بما لا يدع مجالاً للشك يحدث في يسألني: عرفنتي، ثم ينسحب بالسرعة التي برز بها. يومها حدثت معجزة بالغة الندرة اسميها لا عليك...

- وفي الأخير انصرفتُ مُضيفاً إلى جعبتك من الأوجاع حزنَ الغوريلا، على غضب الأسد على شعور الإهانة عند كلب البحر. ألم يخطر ببالك أيضاً أنه ثمة أكثر من غزالة وحمامة ونعامه وغيرها من الكائنات الضعيفة وَجَدت في حدائق الحيوان التي تستنكر وجودها حياة آمنة لا يتهدد نومها زئير الأسد؟

- والوجبات الثلاث مضمونة، لا تَعَب، لا خطر، لا مسؤولية، إنما الراحة والخدمات. ماذا يريد أكثر من هذا، ذلك الغوريلا الكئيب، وحتى ذلك الأسد الأسير الذي تُرمى إليه أطنان من اللحم لم يعرق للحصول عليه؟

يوم نقرر أنه بعد الغاء رِقّ البشر حان الوقت لإلغاء رِقّ الحيوان... يوم نعيد للحيوانات المستعبدة حريتهم في عالم كلنا فيه ضيوف سواسية ومصيرنا واحد... يوم نقل بأنسة الحيوان وحيونة الإنسان... يومها قد نكون خطونا خطوة جبارة في تحقيق المهمة الغامضة لرحلتنا في هذا العالم.

تصرّ مرافقتي على مواصلة الثرثرة، لا أصعب على الأدميين من التزام الصمت وهم جنباً إلى جنب.

أيجوز الكلام في ساعة كهذه، ساعة تلمع أول نجمة في الأفق، ساعة تنتظم أفكاري، وترتخي أعصابي، ساعة الهدنة مع ذاتي ومع كل من حولي؟
- في ماذا تفكر الآن؟

- في ضرورة اقتصار النهار على شروق الشمس وغروبها، على أولى تباشير الفجر وعلى بداية المساء، هكذا نتخلص من بقية أوقات الزحمة والشغل والمواعيد والخصام والسهرات العائلية ومنغصات العيش الأخرى. بربك لماذا يجب أن تكون هناك أوقات غيبية مثل الحادية عشرة صباحاً والثالثة بعد الظهر أو الثالثة بعد منتصف الليل؟ من بحاجة إلى الثالثة بعد منتصف الليل باستثناء السكرى ومدبّري الانقلابات؟

- بما أننا دخلنا في تنظيم الزمان على هوانا، أقترح إلغاء كامل أيام الأسبوع، لا نحفظ إلا بالسبت والأحد.

- السبت فقط لأن فيه وعد الأحد، أما الأحد فلا. هو محمّل بكل تهديدات الاثنين.

- وأي الشهور ستحافظ عليها أيها المصلح الكبير؟

- يجب التخلص من سبتمبر لأنه نهاية العطلة ورجوع كل المشاكل المعقّفة، وأكتوبر لأنه شهر الغرق فيها، ونوفمبر لأنه شهر رمادي وبلا مطر. ديسمبر! شهر يستأهل المحافظة عليه. أحبّ برده اللاذع ونهاره القصير الذي يوفر علينا ساعات من المشاكل المقرّفة.

يناير! اللعنة على هذا الشهر. إنه بداية سنة ما كان لها أن تبدأ أصلاً. نعم، يجب إلغاؤه هو وفبراير الذي يسرق يوماً وحتى يومين من حياتنا. مارس! إنه شهر عودة شهوة الحياة إلى الأشجار والأزهار. نحافظ عليه إذن إكراماً للأشجار والأزهار. أما أبريل فللشطب لأنه يبدأ بالكذب ولا أظنّ إلا أنه يتواصل بها. يجب التخلص من مايو لأنه بداية الصيف، ومن حزيران لأنه وصوله، ويوليو لأنه اكتماله، وأغسطس لأنه شهر الضجيج والأعراس والحرّ ناهيك عن السياح والبعوض. لا يبقى إلا التخلّص من سبتمبر للسبب المذكور أعلاه ولأنه لا يستحي من الرجوع سنة بعد سنة. الحاصل إذن تلخيص الزمان في السادسة صباحاً والسادسة مساءً ليوم السبت في شهري مارس وديسمبر. بربك ألن يكون حقاً زمناً رائعاً وقد طهرناه من كل وقت مضى للوقت؟

- وبخصوص القرون التي لا تُرضي سيادتكم؟

- كل التي أعقت ظهوركم، على الأقلّ التي دشنت ما تسمونها بوقاحة "الحضارة"، والمرء كمن يسمي ظهور الطاعون والجذام والسلّ عصر الصحة! نعم يجب إلغاء المائة ألف سنة الأخيرة. قبلها ولملايين السنين كان العالم موفور الصحة والعافية. تصوّرني ثراءه الفاحش آنذاك بالأجناس العجيبة من بني حرية وآل ثبات. تصوّرني الديكور الرائع الذي كان يتحرّك فيه أجدادنا وهو في نقائه الأول، في طهارته الأصلية. تصوّرني الفضاءات العذراء وكم كان البحر هادناً على السطح زاخراً في الأعماق بما لا تصدّق العين من كائنات بالغة التنوع، بالغة الغرابة، بالغة الجمال. واليوم ترمي لك بحاراً بصدد التصحّر بجبال من البلاستيك.

تواصل مرافقتي حتّى على الكلام وهي بين فضول واستنكار.

- واصل لعب دور المدعي العام في مرافعته المزلزلة ضدّ البشرية.

- بما أن زلّة لسانك تعترف بشرعية رفع قضية ضدّ البشرية، كمّدعي عام لا خيار لي للأسف غير إحالة المظنون فيها للمحاكمة بأخطر تهمة: خرق القانون الأول الذي ينظّم تواجدها جميعاً على سطح هذا الكوكب.

- وماذا يسنّ قانونك هذا؟

- الذي تتحدث به كل ظواهر العالم سرّاً وجهرًا والذي أسمعته كالتالي: حيث أن كل الاجناس الحية شبكة من علاقات بالغة التعقيد والدقة والقدم تربط أوثق الارتباط وجودها ببعضها البعض، فإنه يمنع على أي جنس حيّ التعلّو بالنمو المفرط أو إفناء أي جنس آخر بأي وسيلة كانت وإلا يقع التخلص منه عاجلاً أو آجلاً إلى أن تستعيد الشبكة توازنها.

- يا سلام! أتصور أن في جعبتك قانون ثاني.

- طبعاً، إنه القانون الذي يقول: الأدمي ليس كائناتنا فوق وخارج ما يسميها الطبيعة ومن طينة غير طبيعتها وله الحق في التصرف فيها كخزان لحاجياته. هو شكل -حالة منها ومن نفس طينة أشكالها وحالاتها الأخرى.

تهرش المرأة رأسها مستغرقة في التفكير ثم تقول اختفت من نيرة كلامها كل سخرية.

-تأتيني صورة الخلية السرطانية. هي من طينة كل خلايا الجسم، لكنها تخرج عن القانون الأول فتنمو وتدمر ما حوالها من خلايا أخرى إلى أن تقضي على الجسم أو يُقضى عليها بهذا الدواء أو ذلك.

- تمام.

-أصدقني القول... هل ترى أننا سنجد حلاً؟ ... الأخبار في التلفزيون كل ليلة عن تكاثر الحرائق الجبارة ، عن تفاقم موجات الجفاف القاتل ، عن تزايد عدد الفيضانات الرهيبة، عن الغابات التي تتلاشى ، عن أجناس حية لا تحصى تنقرض بسرعة مجنونة ، عن أطنان البلاستيك في البحر... شيء مخيف حقاً .

- تعلمين أن لي في كل موضوع رأي ورأي معاكس . هكذا اضمن لنفسي ألا أخطئ إلا مرة على اثنين حتى ولو أن التجربة تثبت للأسف أنني أخطئ مرتين .

-طيب هات الرأي الخاطئ الأول وبعده الثاني.

- رأيي أن هذا العالم مرّ بألف أزمة وأزمة وأنه سيجد حلاً لأزمته معنا فلا خوف لا علينا ولا عليه .

-والرأي الخاطئ الثاني .

-أنا ضيوف غير مؤدبين ، دخلنا بيت الضيافة فأخذنا نهشم الأثاث ونكسر الزجاج ونتبول على السجاد ونبعثر كل ما في الثلاجة ونجري وراء القط لأكله . ورغم تكرار إنذارات المضيف واصلنا حماقاتنا لذلك أخذ قراره بطردنا في أسرع وقت . المشكلة أن المسكين تورط بدعوتنا وقد أصبح بقاء البشر مصيبة وانقراضهم مصيبة أعظم . كيف؟ فسّر .

-توجد اليوم على الأرض مئات المحطات النووية، وبانعدام الصيانة باختفاء البشرية مثلاً بوباء لا يبقى ولا يذر، ستصبح هذه المحطات قنابل بطينة الانفجار تبتئ سمومها آلاف السنين. كذلك عن حقول الغاز والبترو، وهي الأخرى بحاجة إلى نفس الصيانة، وبدونها ستلتهب حرائق هائلة قد تقضي على كل حياة.

- إذن سيتحملنا العالم طويلاً لأنه لا خيار له.

- نعم سيتحملنا من باب "مكره أخاك لا بطل". ألم تحالجك الفكرة يوماً أننا بالنسبة إلى جلّ كائنات هذا العالم عفاريت مثيرة للتقرّر والرعب. لا أتخيل حسناء تقضي الساعات أمام المرآة تتبرج وصورتها في مقلة الخروف الذي ينتظر أن يذبحه عفريتتها إلا وانفجرت بالضحك.

- ما أنا متأكدة منه أنني لسْتُ العفريته التي تصف بالنسبة إلى كلابي وأني لو متُّ غداً لَحَمَل الحداد عليّ.

- كل الحيوانات ومنها كلبك سُقيم الأفراح والمأذب. لو اختفينا لما افتقدنا إلا الجرائم والطفيليات والفظور التي وجدّت فينا مرتعا خصباً، خاصة القمل ونحن مصدر قوته الوحيد.

كم من آدمي ينتبه لكونه عالما بأسره تسكن جلده وكل فتحات جسده جراثيم لا تحصى ولا تعدّ وأغلبها ترحل طيلة حياته داخل أمعائه تعيش وتموت فيها...كم غريب أن نكون في آن واحد رحالة في عالم وعالم ترحل فيه كائنات لا تعرف عنا أكثر مما نعرف نحن عن العالم الذي نعيش على سطحه.

- عدت للسكوت، أي فضاة أخرى تختمر داخل ذهنك يا عدو البشرية؟
- دقيقة صمت حدادا على كل الكائنات التي نكل بها الأدميون، وخاصة أمم الخرفان والبقر. نعم يجب إقامة التماثيل للفأر وهو الكائن الوحيد الذي كال الصاع صاعين للأدميين عبر ما كان نقل إليهم من جراثيم الطاعون.
- ولم لا تماثيل أيضا للفيروسات هي الأخرى نالت منا ما نالت.

في ملف فارغ مازال ينتظر عقدين من الزمان ستدافع المعطيات المرعبة عن مُدُن مطوّقة، عن شوارع مُقفّرة، عن مستشفيات تفيض بالمرضى، عن ملايين المحبوسين في بيوتهم يتابعون مذعورين وسائل إعلام لا تحمل إلا الأخبار المفرعة عن فيروس خرج فجأة من المجهول مفاجنا الجميع بتجاسره على الكبار والصغار، على علياء القوم وعلى الدهماء، على أفقر الشعوب وأقوى الدول... لا شيء يخنزل نجاح تطاوله على الجنس البشري وعلى صفة من فيه قدر وضع أمة متعجرفة وهي شاهرة صواريخها، غواصاتها، حاملات طائراتها، أقمارها الصناعية في وجه الأمم المنافسة، تدّعي أنها لا تفعل كل هذا إلا دفاعا عن أرواح وأرزاق مواطنيها... ها هو الكائن المجهري ينقضّ عليها فيزهرق في أسابيع قليلة مئات الآلاف من الأرواح كاشفا كم هي عديمة الجدوى صواريخها، غواصاتها، حاملات طائراتها وأقمارها الصناعية وبصفة عامة كم هي تافهة أو هام الأدميين عن تفوقهم المزعوم وكم بيالغون في تقدير قوتهم وأهميتهم وكم هتّ وجودهم على هذه الأرض التي لا زال البعض منهم يؤمن أنها وقف عليهم وحدهم... أنشكتي مما تفعله بنا الفيروسات وقد تكون أخطر الفيروسات التي أصيب بها هذا العالم؟

تنتهد مرافقتي قطع عليّ تفكير متوجس قلق.

-المهمّ أن تبقى هذه الحيوانات اللعينة بعيدة عني هذه الليلة. من حسن الحظ أنها في عالمها ونحن في عالمنا.

- نحن عوالم مترابطة مثل كوم من الدومينو ان سحبت منه قطعة يمكن لكل البناء أن يتهوى.

- سفسطة كالتي تجيد.

-اسمي هذه القصة التي وقعت مؤخرا في بلد اسمه الهند. ظهرت فجأة أوبئة غريبة أدت إلى ارتفاع نسبة الموت والمرض في كامل البلاد. بعد أبحاث معمقة اكتشف المختصون أن الأمر مرتبط بانقراض تلك الطيور المزمومة التي اسمها الجوارح والتي تعيش على الجيف بدل تكلف مشقة ونبل الصيد مثل النسور والصقور.

- وما العلاقة؟

- العلاقة يا ستّ الكَلّ أن الهندوس لا يأكلون البقر. عندما تموت هذه الحيوانات تترك في العراء فتقتات منها الجوارح لا تترك منها الا العظام للشمس. باختفاء الجوارح نتيجة تسمّمها بكل ما تنتج من مواد كيميائية منها التي كانت تنسب في جوف الأبقار التي كانت تقتات منها بقيت جثث هذه الأبقار في الهواء الطلق تتعفن وتصبح مرتعا خصبا للحشرات والجراثيم. هكذا انتشرت هذه الجراثيم في الماء والهواء والتربة ومن ثمة انفجار الأوبئة. وهكذا اتضح للكل كم كان البشر يدينون بصحتهم وحياتهم لطيور يحتقرونها.

- هل أقام الهندوس التماثيل لهذه الجوارح وأطلقوا أسماء سادة القوم منهم على كبرى مستشفياتهم؟

-لا ولكنهم سار عوا لسنّ قوانين لحمايتها وتعهد صحتها حتى لا يؤدي انهيار عالمها لانهيار عالمهم.

- ما نسيته أو تناسيته أيضا هو أن حيواناتك التي تمجّد وتتباكى على مصيرها لا تملك ذرة من الأخلاق، بل لا تعرف حتى معنى الكلمة. أعدّد لك ما يُعرف عنها من قسوة ومكر وتجبرّ على أضعف منها؟ هل رأيت صور الكواسر تلتهم صيدا ما زال ينبض بالحياة؟ حتى الحوت الذي تعجب به صياد رهيب يصارع على الأنتى وعلى الغذاء بكل عنف. ثمّ من أدخل في صراع البقاء الشفقة غير الأدميين؟

- من قال لك إنني ضدّ كلليل الأدميين أو إنني متعاطف مع كلليل الكائنات غير الأدمية؟ أبغض -دون حرج أو عقدة ذنب- الذباب والبعوض وكل هذه الهوامّ التي أطلقتها الإدارة العامة وكأنها الأظافر المقصوفة وأعقاب السجائر للكاتب فاضت بها المطفأة. أرايت أقيح من هذه الكائنات؟ حتى المولود الأدمي الجديد -بالمقارنة- آية في الجمال. والجراد، من أي مخيلة مريضة خرج كانن كهذا؟

ما هذه الكائنات أكانت من بني حرية أو آل ثبات؟ مشاريع بحث متفاوتة النجاح يجرب عبرها باحث عبقرى كل إمكانيات الخلق؟ إذا كانت مشاريع يجرب عبرها إمكانيات خلق لا تتضب أبدا فما الذي يجرب في الأدمي بعد أن استنفذ الرشاقة في الغزال والسرعة في الفهد والقوة في الدب والعزيمة في طير صغير قادر على الارتحال من قطب إلى قطب؟ أنكون أنجح تجاربه أو أفضلهما؟

تبتسم مرافقتي وكل ملامحها تفضح تأثرا تريد اخفاه. ثمّ تغير الموضوع كما يفعل المرحج دوما.

- افترض أننا... انقرضنا وتركنا وراءنا كل هذه الكوارث وكل هذا الخراب.

- الأوفر حظًا للإرث النمل، لكن دعمي غير المشروط للودود؛ لا لأنني أكره النمل فحسب وإنما لأنه من العادل أن يكون الدود جاني الثمار وهو منذ ملايين السنين الحارث الأكبر والبستاني الذي أعدّ لتكون حاضنة الحياة.

تنتهد رفيقة الطريق. تعود إلى الحديث بنبرة قد تكون التي تتخذ وهي تدلي باعتراقاتها للقسيس أيام الأحد.

- بجدّ بماذا ستشير على السلطات العليا التي ستندارك حتما خطأ تغييرك عند وضع التصاميم.

- لستُ ضدّ منحنا فرصة أخرى. هل رأيتَ في هذا العالم الملآن بالكائنات الجادة العابسة غير الأدميين يضحكون ممّا يبكيهم ويككون ممّا يضحكهم، يسخرون في السرّ وفي العلن من أنفسهم ومن أقدس معتقداتهم؟ ما يغفر وجودهم أنهم من أقحّموا في هذا العالم الفكاهة، ناهيك عن الشعر والموسيقى. قد تكون هذه الأسباب الوحيدة التي تجعل السلطات العليا تواصل المراهنة على تجربة لا أحد قادر على التنبؤ بمآلها. تجذبني رقيقة الطريق من ذراعي بلطف حازم.

- والان وهذه آخر ليلة لنا هل لك أن تقول لي لماذا أردتني أن آتي بك إلى هذه المحمية؟ أقول لها أم أحتفظ برأيي قد لا تفهمه.

- مرة أخرى ولن تكون الأخيرة: لماذا أصررت على هذه السفارة؟ أعترف أم أغيّر الموضوع؟

- لم تردّ على سوالي.

أقول لها إنني جئتُ حاجاً لما نعتقد اليوم أنه المكان الذي انطلق منه الطريق... فمن هذه الأرض أو من أماكن قريبة منها انطلق أوائلنا جريا وراء الطرائد والمطر وإغراء ما وراء الأفق طوال مئات الآلاف من السنين إلى أن وصل بهم الطريق إلى القمر... في هذه الأرض أو في جوارها القريب تشكّلت النماذج الأولى للدين والسحر والعلم لترويض القوى المرعبة المتحكمة في مصيرهم... وفي هذه الأرض أو في جوارها القريب ولد الشعر والأدب والراوي حول النار يردّد ملاحم كبار الصيادين... في هذه الأرض أو ما جاورها اخترع الأوائل السياسة والقانون والتقاليد لفض نزاعاتهم حتى لا يصبحوا فرائس بعضهم البعض.

-كّلي أذان صاغية.

- جئتُ لإثراء نص أكتبه منذ سنين ويتطلب أن أسأل سكان هذا المكان كيف هو العالم عند الغزال والفهد والتمساح وبني عمومنا المتأرجحين على الأغصان. - خمس دقائق من الجدّ لا أكثر.

-لم أكن جدّيا في حياتي أكثر من هذه اللحظة. نعم كم بودّي استكشاف كيف هو العالم بعيون الدلافين والفراش والنورس، كيف هي صورته داخل ذهن الفيل والنمر، كيف هي الطبيعة عندما ينظر لها النسر من القمم السماء بعينه التي تُبَتّ داخلها مجهر يبصر أدقّ التفاصيل. هل كنتُ سأفضّل عالم القط وهو على ما يُقال بلون الرماد، أو عالم الكلب وقد اختفت منه حمرة الشفق ولا وجود فيه من الألوان إلا لزرقة السماء وخضرة الحقول؟ يا ناس، أريد استكشاف هذه العوالم، حالا، الآن، على وجه السرعة وإلا سأشكوكم جميعا إلى "ما".

من أين لنا دخول ذات الحيوانات والأشجار، والنساء بالكاد يفهم ما يختلج داخل

الرجال والرجال بالكاد يفهمون ما معنى أن تكون امرأة؟

- للأسف حتى هي لن تستطيع لك شيئا.
- نعم محكوم عليّ و عليك أن نرتحل في عالم واحد لا غير هو عالم الأدميين. أما هذه العوالم المنغلقة على نفسها، التي تعيش على تخوم عالمنا، فمحزّمة إلى الأبد...
- وماذا أيضا؟ أفرغ كل ما في جعبتك.

- جنّت أيضا على أمل أن أبصر هذا الذي أمر كريشنا أرجونا باكتشافه وراء كل الأشكال القدسية التي يلبس.

- جنّت تبحث عن... الله... هنا، في محمية حيوانات برّية؟
- أين تريدينني أن أبحث عنه؟ في معابد نقيض بموظفين يتمعشون منه دون حياء وبشحاذين يتسولونه دون كرامة.

أضاعنا الفلاسفة والمثدينون والسحرة الذين اختلفوا لنا صورة كائن هلامي مخفي، بعيد، ملتحف بالغرابة والسرّ ولا يمكن لعين أن تراه... انظر للمولود الجديد وستراه... انظر للفرخ يكسر بيضته وستراه... انظر لتفتّح الورد وستراه... انظر لجمال الفهد، لجلال الأسد، لأناقة الغزال وستراه.

وأيّ الأرض تَخلو منك حتّى (الحلاج)

تعالوا يطُيرونك في السماء

تراهم يُنظرون إليك جهراً

وهم لا يُبصرون من العماء

تهرّ مرافقتي كتفيتها. فجأة تسحب هاتفها النقال من جيبتها فأرفع صوتي.

- ألم تنفق أننا سننسى وجود هذا الشيء اللعين؟

- لا تقلق. هو مغلق من البداية وسيبقى مغلقا بإحكام إلى نهاية هذه المغامرة الركيكة. فقط أريد قراءة ما وصلني من رسائل. وأنت؟ لا تقل لي إنك لا تنتظر رسالة من أحد. كلنا ننتظر خيرا ما...

- نعم أنتظر منذ زمان رسالة تقول لي أنني حققت بنجاح المهمة التي كلفت بها عند الولادة ومن ثمة تهاني الإدارة العامة لشؤون الكون.

- ولم تصل لحدّ الآن! يا عيب الشؤم.

- ستصل حتما يوم أقرّر فحواها بأكثر دقة. سأكتبها بخطّ واضح مزيفا امضاء الله. ثم ستسلّمها يدي اليمنى إلى يدي اليسرى فأفتحها خافق القلب لأرقص طربا وأنا اقرأ ما فيها من أخبار رائعة تتجاوز كل أحلامي.

- وفي الانتظار، جنّت إلى هنا لعنك...؟

- جنّت أبحث عن تجربة تحصل تلقائيا ودون سابق إنذار أسميها اللقاء... معجزة لا أفهم طبيعتها. إنها تجربة فريدة عابرة كلمح البرق تمر بها الذات وهي تكتشف فجأة شيئا لا توجد للغة كلمات لوصفه.

- ومتى عرفت آخر مرة مثل هذه التجربة؟

- عشية وصولي هرعنا لهذه الأسواق الإفريقية التي أعشق. انتهى بي التسكع عند امرأة في منتصف العمر على وجهها مسحة من جمال محتشم وقور كالذي أحبه عند النساء. كانت جالسة على الأرض بعيدة عن الصخب تعبت ساهمة بعضا ولا شيء أمامها. لما انتبهت لوجودي حدقت في باسمة ثم بادرتني بإنجليزية أسلم من التي أتكلم: أنتشري مني أيها الغريب؟ قلت: لا أرى لك بضاعة. قالت: أبيعك ما على هذه الأرض. أجبت دون تردد: ليكن. التقطت المرأة الغربية بعض الحجيرات من حولها. اجتثت بعض الأعشاب المحترقة. مدت لي الكل في خرقة قدرة واللؤلؤ المنضود في فمها يخطف الأبصار. بحثت في جيوبي عن كل ما فيها من فكة ومددتها إليها فقبلتها مني كما يقبل السلطان هدية أحقر رعاياه. - لما مدت لي المرأة الغربية حجيراتا وبعض العشب المحترق أطالت النظر إلي.. تلك اللحظة شعرت بأنه "هو لا غير" الذي يبتسم لي عبر عينيها.

-انتبه، بدأت أغير.

أن الأوان للعودة إلى الهزل والى مواضيع أقل حساسية... أو هكذا يبدو...

- لا داعي للغيرة، هل تتزوجيني؟ بشرفي أنا من بين الخمسين في المائة من الرجال الذين لا يضربون نساءهم.

- احذر، قد أكون من العشرة في المائة من النساء اللواتي يضربن أزواجهن، ثم هل ستقدر على مهري؟

- كم؟

- مائة بقرة بيضاء على الأقل، هذا إذا أعجب منظرك أبي.

- للأسف، حسابي البنكي لا يسمح لي حتى بعنزة يتيمة. تبقى السخرة عنده لبضع سنوات. هذا أيضا كان معمولا به عند الأوائل.

- وماذا تريد أن يفعل بشخص مثلك؟

- يمكنني أن أغسل سيارته كل يوم وأن ألمع حذائه وحتى أن أطبخ له. لا أحد يجيد تغذية البيض أحسن مني.

- التفاوض على هذه القاعدة. لكنني لن أتراجع عن بعض الذهب والفضة وهدايا أخرى سأمذك بقانمتها الطويلة.

- هل سمعت بنظريات بعض المختصين في تاريخ الأوائل والقائلة إن الحجارة المذبذبة والأقواس وقلائد الصدف والزوارق المنحوتة من جذع شجرة والتمائيل التي انطلقت بها ما تسمونه الحضارة، لم تخلق للفن أو لتمضية الوقت وإنما أساسا لشراء عروس، من الخطر اختطافها، خاصة إذا كان لها إخوة كثر يركضون أسرع من الخطيب الخاطف. مساكين أوائلنا! سنوات من العمل الشاق لصنع أشياء ترضي جشع الشيخ البشع وأولاده الأكثر بشاعة، للقبول ببيع أوثانهم بثمان معقول أو قضاء سنوات من العبودية بالنسبة إلى من ليس لهم قدرة صنع الأشياء المطلوبة أو سرقتها.

- كانت هذه الأشياء تصلح أيضا لوقف مسلسل الثأر، دية من كنتم تغتالون أيها الذكور المتوحشون في حروبكم التي لا تضع أوزارها أبدا.

- تعادل بهدف لهدف. على كل حال من أين لك إنكار أن الأنثى هي أسّ البلاء. أولا: لأنه لم يُعرف يوما أن ذكرا خرج من جسد ذكر وكلهم دون استثناء يخرجون من أجسادكن أنتن لا غير، ولا أتحدّث عن مسؤوليتكن في إبقاء هؤلاء الوحوش على قيد الحياة وتربيتن التربية الكارثية معروفة النتائج. ثانيا: لأن ثمن اقتناء أسّ البلاء هذا كان الدافع الأول لظهور الصناعة فالتجارة فالغنى فالفقر فالسرقة فالعدالة فالشرطة فالسجون... فقط؟

- والليبرالية المتوحشة والأحزاب الشيوعية ومجلس وزراء الداخلية العرب وبورصة والستريت والمافيات أكلة السوشي وأكلة السباجيتي وأكلة الهامبرجر وأكلة جناح القرش. يا الله!

- لا ننسى العبودية بما أنه لم يكن من حلّ أمام الأغبياء والضعفاء غير رهن سواعدهم سنوات طويلة عند عمّهم المرتقب أملا في الحصول على البنت البليدة. الحرب، العمل، السخرة، كل هذه المصائب بسببكن! لا غرابة أن يكون انتقامنا منكن رهيبا. بالضرب والخيانة الزوجية؟

- بما سميناه -وبصوتنا رنة فخر كاذب وتأثّر مفتعل- تحرّر المرأة. هل لاحظت أن أهمّ دعاة هذا الشعار الخبيث كانوا رجالا. صدفة؟ شغلي دماغك الأنثوي الصغير. تأملي أهمّ التغييرات المجتمعية عندما تُمكن الأنثى من حق الشغل-قُل، من واجب الشغل-ومن التعليم الذي يعدّ له ومن بقية الحقوق المغشوشة التي تدعم ما يسمى "المساواة بين الجنسين". ستكتشفين أنذاك أنه بقدر ما "تتحرر" هذه الأنثى بقدر ما يتحرّر الذكر من ثمنها الباهظ الذي فُرض عليه آلاف السنين سخرة أو مهرا. لَمَّا حَطَبْتُ أُمّ تفاعه وتفيحه، كنت لا أملك شروى نقير ومع هذا أعطاني الرجل الطيب ابنته لأنه كان تقدّميا كما كنا نقول تلك الأيام، بل ودفع فاتورة الغداء العائلي الذي كان احتفال الزفاف الوحيد. أنثى بالمجان وأبوها هو الذي يدفع تكاليف الحفل! عندي شعورٌ مُبهمٌ أن الأوائل سيركضون ورائي هذه الليلة في فضاء الأحلام وأن أحدهم سيمسك بي يطرحني أرضا ويشبعني ضربا بجزمته.

- سلّم عليه من طرفي وبلّغه تضامني وتشجيعي.
- كلّ ما أتمناه أن يتواصل التقدّم في هذا المجال. تخيلينا بعد عشرة آلاف سنة وقد وصل المشروع الذكوري الخبيث إلى هدفه الخفي. ستأتين أنت تخطيبيني من "ما". قد تخيرك بين مائة ناقة بيضاء أو السخرة لديها لعشرين سنة. أنصحك بالعرض الأخير بدل جمع ثمن النوق سنين بعيدا عني. الوالدة امرأة طيبة لن تضربك إلا يوما بعد يوم وسنقتنص كثيرا من لحظات الحب وراء ظهرها. بعد نهاية العقد تأخذيني عند أمك مع بقية العفش، لكن انتبهني، لن أقبل أن تضربيني فأنا ابن "ما" وجداتي بلقيس وعليسه والجازية الهلالية وما أدراك.

تضحك مرافقتي إلى أن يأتيها السعال. مؤكد أنها سنكتشف -طال الزمان أو قصر- أنني كنت أطرف حيوانات المحمية التي زارتها تلك الأيام، أنها لم تنتبه للأمر إلا وهي تودّعني عند باب المطار.

ثم تستعيد جدّيتها.

- نُذْكرني بجدّتي جاثية في كنيسة قرينتنا، مع فارق واحد. أنت طول الوقت جاث أمام شموع القدّاس والعالم كله مَعْبُدُك. والآن كفى تهربا من السؤال الوحيد الذي يهمني.

- وهو؟

- هل حصل ما تسميه اللقاء بين آدمي وأدمية تائهين وضعتهما صدف الطريق وجها لوجه.
-نعم... ونحن نتبوّل في الهواء الطلق طبقا لتعليمات الدليل، أنت تُخفين حرجك وأنا أكتم ضحكي.

**

الأشياء

لا توجد سفرة تُجدد فيك أقدم مخاوف المرتحلين قدر التي تصل بك ليلا مدينة نائية والدليل الذي ينتظرك أخطأ وقت ومكان الميعاد.

تبتت في ساحة المدينة شبه المقفرة قلعا مبهما. هذا مارٌّ ربما يدلني. أتوجه إليه بلُغة يُفترض أن أغلب الناس يعرفون بضع كلمات منها. يُعرض عني الرجل وكأَنَّ الذي خاطبه عفريت خرج لتوه من القبر.

كم صدق ذلك المسافر اللبيب المسمَّى "اليفي شتراوس" وهو يلاحظ أنك عندما تصل بلدا لا يعرفك فيه أحد فالمزعج ليس فقدان السيطرة على المكان وإنما تراجع المكانة.

بغرابة سحتني وجهلي المطلق باللغة ها قد أصبحت في أدنى درجات سلّم مجتمع يتصارع أفرادُه باستمرار على أعلى الدرجات.

هذا آلمي آخر قد يفهمني ولو أن في مشيئته المترنحة ما يجعلني أشك في صواب التوجه إليه. هل من خيار، وفي كل الأحوال كل الذين ضيَعوني نادرا ما كانوا من المخمورين. يُعرض الرجل عني بدوره لا يُخفي انزعاجه.

تبرز من الظلام امرأة لا تبدو عاهرة تعرض خدماتها، فلأجرب حظي معها ومن الأحسن بكل الحذر المطلوب وبكل علامات التطمين والتأدب لتفادي أن أحرك داخلها أعمق غرائز البشر.

ماذا سأقول لها؟ سيدتي، أنا أجنبي مزمّن، غريب محترف، لاجئ بالورثة، منبوذ بالطبع والتطعّب، مطلوب من كل سلطات السماء والأرض.

من الأحسن الاختصار والدخول مباشرة في صلب الموضوع.

-سيدتي أبحث عن نزل السعادة الأبدية. دلّيني، جزاك بوذا ألف خير.

المرأة بابتسامة عريضة:

- أنت مصري؟ مصر كويس، أنا أهبّ أهرام كثيرا، مرهبا، ماذا قلت؟ لم أفهم كل ما أنت قلت.

- أبحث عن نزل السعادة الأبدية. قيل لي إنه قريب من هنا.

- أه نزل السعادة الأبدية! لست بعيدا، أنت يمين در، يسار در، وبعدها يمين ثم يسار، بعدها شوية يسار ثم شوية يمين، بعدها أنت وصلت.

(أنا بصوت واضح): شكرا يا سيدتي، (بصوت خافت) اللهم كثر من رعشات لذّة هذه المرأة الصالحة.

تخيلت أو سمعتُ المرأة تنتهّد هامسة لنفسها: آمين.

الغريب ليس فقط أن تلاقي هذا النوع من البشر حتى وإن أخطأوا كالعادة في تحديد هويتك، وإنما وصولك إلى حيث تريد بالمعلومات التي يمدّونك بها.

أخيرا النزول في ابتداله، وشبهه بكل الأماكن المخصصة لإيواء الأعراب، وأيضا في المحاولة المتواصلة للإبهار وذرّ الرماد في العيون.

على فكرة، هل انتبهت أن الأماكن الأدمية، سُيّدت بالطوب أو بالمرمر، مجرد جدران متلاصقة، أن لكل جدار سطح داخلي و سطح خارجي، أن اهتمام الأدميين انصبّ دوما على السطحين يتكفون ما يتكفون لتزيينهما لكنهم لا يقدرّون على شيء بخصوص الفراغ الذي تتعلق عليه كل الأسطح.

إنه نفس الفراغ أحاطت به جدران قصرٍ مزركش بكل أصناف الزينة وأعلى اللوحات أو جدران كوخ من الطين والقش.

تقول لي: نسيت يا مسكين أن فراغ بيوت الأغنياء ملآن بما يتكفون من أموال طائلة لملئه بأجمل الأثاث.

طيب، لكن كيف يكون التمتع ببيت ممتلئ من القاع إلى السقف بالتمائيل واللوحات التي تضاهي قيمتها ما يوجد في أكبر متاحف العالم؟ لا بدّ من الفراغ الفارغ وإلا في ماذا ستمدّ رجلك وأين ستستلقي على ظهرك؟ مساكين أصحاب القصور، كل هذا التبذير لتطويق فراغ لا يدفع في تطويقه الفقراء إلا بعض لوحات القصدير.

تقول بدأت تهذي. لا بل هو التعب، لا غير. يا إلهي كم أنا مرهق بطول هذا السفر اللعين! يزداد شعوري بالتعب لمجرد التفكير في رحلة الرجوع.

رحلة! أي رحلة؟ أليس من قبيل الكذب على النفس وعلى الغير أن نسوي رحلة نقل الجسد من مكان إلى آخر بالطائرة، وبقطار يكاد ينتظرك تحت سلمها، ثم بسيارة لدفعه أخيرا داخل قفص حديدي بموسيقاه الرومنطيقية حتى لا يرهقك صعود ثلاثة طوابق؟

يا لهذه الوسائل اللعينة التي اخترعناها لتسهّل علينا السفر فألغّت متاعبه ومُتعتّه! لا يبقى عليّ إلا إلقاء نظرة خاطفة على غرفة عادية فيها بزاد زاهر بكل أصناف الشكولاتة والمشروبات التي سيُدفعونني فيها ثمنا موجعا عند المغادرة.

أه، يجب أيضا تعديل المكيف حتى لا يضايقتني التبريد بنصف درجة زائدة.

ماذا تصرخ فيّ أشباحي؟ لا بأس أن تبادلنا رفاهتك بالذي عشناه ونحن تائهون في الصحاري، في الجبال، في الغابات، في البحار، نكاد نهلك فيها هلعاً وجوعاً وعطشاً، وخذ ما شئت من انبهارنا البكر.

أصدّق تحسّري أو تحسّرهم، أم كلنا نكذب؟

من الغد سيرنّ المنبه منذرا أنه أن أوان نقل جسدي إلى قاعة المؤتمر حيث سنتبادل نفس الوجوه منذ سنين نفس الخطب لإثبات ما هي مقتنعة به سلفا. كم من حيل للتدجيل على بعضنا البعض وخاصة على ممولي هذه اللقاءات بخصوص أهمية ما نقول وما نفعل وما ننصدر من بيانات وتوصيات. إنه الفكر المهيمن يحتمل بنفسه، يستمع لنفسه، يهنئ ويكافئ نفسه داخل حلقة الضيقة، والعالم في طفرته وفوضاها لا منتبّه ولا عابئ.

شعور عارم بضرورة الخروج من هذه الطقوس وعليها وقد أخذت من زمن الرحلة أكثر مما تستحق. أن الأوان للدخول في الإضراب العام غير المحدود وإعلان العصيان المدني النهائي الذي طالما هددت به عبثا كل السلطات ودعوتُ إليه كل المتمردين دون أدنى نجاح؟ ألسنت القائل السيد من يعطي المثل لا من يعطي الأوامر. ربما سيبتعني كل نزلاء الفندق، ثم سكان الحي، وسكان هذه المدينة، ولم لا العالم بأسره؟ ستقيق السلطات العليا من الغد لتكتشف هدوءً مريباً في شوارع أفقرت وبيوتٍ أغلقت أبوابها إلى أجل مسمى وقد قررنا أنه لا خروج من جحورنا إلا بعد أن تقسم هذه السلطات المجهولة على أنها ستغير جذريا كل سياساتها القبيحة وغير المفهومة في التعامل معنا.

تقول: افترض أن الآلهة رفضت المفاوضة تحت الضغط، وأنها أصرت على عنادها خوفاً من فقدان ماء الوجه والدخول في مسلسل خطير من التنازلات. هل سنقبل البقاء في الملاجئ وتسهيل مأمورية عزرائيل فلا نربح على الأقل الوقت الذي يضيعه في الجري وراعنا واحداً واحداً!

هذا شغلك أنت وبقية المخدوعين. سيبدأ الإضراب التاريخي من الغد وفي الأثناء لا بد من محاولة النوم.

على باب الغرفة والمعني بالأمر العالم كله وليس الخادمة المكلفة بحمل فطور الصباح - لافقة "عدم الإزعاج"

على الطاولة حذو الفراش لافقة "ممنوع الكوابيس".

*

عند الاستيقاظ أول سؤال: كيف سأقضي كامل هذا اليوم؟

لماذا لا أنسج على منوال ذلك الأرستقراطي المدعو دوماستر والذي حُكم عليه بالإقامة الجبرية اثنين وأربعين يوماً في غرفته عقاباً على رجعيته ووقوفه في وجه الثورة، فتوكل وجَهز نفسه لاستكشاف غرفته وتدوين رحلته فيها؟

ألم يكن الرجل على حق في سخريته من كل المغامرين الذين صدّعوا رؤوسنا برحلاتهم في أبعد وأخطر مناطق العالم؟ أي فضاء أكثر جدارة بالاستكشاف من غرفة النوم وحديقة البيت إن غألينا في التهوّر؟

على فكرة، ألم يكن من العدل أن أكون أنا صاحب هذه الفكرة العبقريّة؟ ألم أحلم أن يتميّز نصّي عن كل ما كُتب وسيُكتب في أدب الرحلات؟

وحيث أنني ككل آدمي نزيه، لا أسرق أشياء الآخرين أو أفكارهم إلا إذا كنت واثقاً ألفاً في المائة من عدم افتضاح أمري، وحيث أن هذا الدوماستر شبه مجهول بين قراء لغة موليار فما بالك بقراء لغة المتنبي، وحيث أنه من شبه المستحيل اكتشاف ناقد مغرض للسرقة فيشهر بي في صفحات التخاصم الاجتماعي، فإنني قرّرت بكل أريحية السطو على الفكرة لأكون أول من روى رحلة الهدف منها ليس استكشاف الاتساع وإنما استكشاف الضيق،

ليس البحث عن الأدميين وإنما الهرب منهم، ليس الانغماس في زخم العالم وإنما الانفصال عنه، ليس التفكير في كبرى القضايا وإنما إهمالها .

أول ما يجب القيام به في هذه الرحلة المثيرة استكشاف ما يوجد داخل غرفة الحمام: دش، ستار، مناشف، مرآة ، حنفية، فرشاة أسنان، مشط، صابون جسم، صابون حلاقة ، معجون أسنان، كوب ماء....

أوف! لا شيء مفاجئ أو غريب أو مثير للانتباه أو الحيرة. بالضببط كل ما أريد من رحلتي الميمونة هذه.

يجب الآن استكشاف غرفة النوم والصالون الصغير الذي يجانبها.

رائع، لا شيء مما يتراكم داخلهما يحرك داخلي مشاعر الرهبة أو الخشوع أو الانبهار أو التقرز أو الخوف أو الرعب.

يتوقف البصر مطوّلاً عند الأريكة التي تتوسط الفضاء الصغير. أسارع للقول بأنني لا أشاطر مطلقاً موقف الأرسطراطي الفرنسي الكسول وهو يرى فيها أحسن أثاث بل ويتغنى نصف صفحة كاملة بأفضالها على الجسد المرهق. بربك هل تستأهل الأريكة كل المديح الذي أغرقها به الرجل والحال أن المرء مضطر لتسلفها والنزول وراءها للدخول أو الخروج من الحمام.

اللعة! لم يستغرق استكشاف كل الفضاء -حتى بأدراج المكتب- أكثر من ربع ساعة، وذلك الأدمي ارتحل في غرفته اثنتين وأربعين يوماً كاملاً!

كم من مرة سأطوف حول السرير وأزحف تحته وتحت الأريكة والطاولة في ثلاثة وأربعين يوماً؟ (لكسر الرقم القياسي بيوم واحد على الأقل)

ثم كيف الاعتصام طيلة هذه المدة دون أن أفاجأ ذات صباح بموظفي النزل يخلعون الباب بالقوة وورائهم الطاقم الطبي المكلف بحملي لأقرب مستشفى للأمراض العقلية.

فكرة صاحبنا، إذن، ليست بالعبرية التي تصورتها. لأعيدها إليه بكل تعقّف، فأنا ككل آدمي نزيه لا أسرق أبداً ما ليس لي أدنى حاجة إليه.

أستسلم بهذه السهولة! لأكن وفياً للإضراب العام لنهاية المؤتمر على الأقل.

أجلس على الأريكة أجبل البصر في المكان المغلق متسانلاً عما يمكن أن أفعله طيلة ثلاثة أيام وليال كاملة. ما العمل بكل هذا الوقت المترصد بي؟

فجأة أنتبه لإناء موضوع على الرف. يبهرنني لمعان بياضه وجمال زخارفه الزرقاء.

إنه الشيء الذي ارتحل جرياً وراءه جرفيون صعدوا إلى الجبال يُتقبون عن المادة العجيبة التي سيصنعونها منها... الشيء الذي استفّر طوال قرون قريحة الفنانين وطمع الأثرياء وجشع التجار... الشيء الذي حمله أشباه عبيد أطنانا على أكتافهم الموجوعة عبر الجبال والبحيرات والأنهار... الشيء الذي خرج من أجله مغامرون أبحروا من مرفئ الغرب الأدنى والأقصى، متحدّين العواصف والقراصنة قاصدين مرفأً في أقصى الشرق محجّرين عليهم مغادرته ينتظرون أشهراً حمولات قوافل أشباه العبيد... الشيء الذي رجع به

مغامرون غرقَ منهم الكثير وغرقت معه أئمن بضاعة... الشيء الذي مثل سرُّ صناعته مصدر قوة وعنوان كبرياء امبراطورية عجوز: البورسلين.

على فكرة، كل هذا الكلام المعسول عن خروج الأدميين لأهوال الطريق جريا وراء المغامرة والمعرفة والجمال وحتى بحثا عن الذات والله! بصراحة هل كان الأوائل يغادرون حضن نسانهم لولا جشعهم للشاي والقهوة والسكر واللبن والتوابل النادرة، يبحثون عنها وراء المحيطات لا يهتمهم للحصول عليها استبعاد قارة وحتى العالم بأكمله.

كيف فاتني إذن لحدّ الآن الدور المخفي للأشياء في رحلتنا؟ هل كنا نستكشف هذا العالم لو لم تكن من أهداف هذا الاستكشاف ناهيك عن كونها وسائله؟ هل كنا نصل القطبين والقمر وندخل عالم الفيروسات والجراثيم لولاها؟

كم غريب استخفافنا بكل ما ندين به للأشياء!

ثمّة كما هو الحال دوما استثناءات للقاعدة.

انظر شبه التقديس الذي يوليه بشر بعض البلدان للأشياء المخصصة لحفظ الشاي وإعداده وشربه. هم يتعهدونها بالصيانة والترميم إلى آخر استعمال ويفضّلون حرقها في المعابد على رميها في المزابل.

ثمّة أيضا ولع المؤرخين وعلماء الآثار بالأشياء القديمة وحرصهم على وضعها في مخازن ومتاحف على أبوابها عسس على أهبة قتل من يمدّ يدا إليها؟

لا يجب أن ننسى حبّ الإناث للأشياء التي تتدلّى من الأعناق أو تحيط بالمعاصم والأصابع، وإجماع الأدميين عموما على قيمتها، والحال أنها لا تؤكل ولا تُلبس ولا تُصلح حتى لنقل الكلام الفارغ.

استحضر ما تكلفه من مشاقّ سيزان وبيكاسو وشاردان وزوباران وكل الفنانين الذين أفنوا أعمارهم في رسمها، حتى لا نقول في التعبد لها، ناهيك عن كل الجهد الذي تكلفه البشر في صنعها واقتنائها.

بديهى أن الأشياء مكوّن أساسي من مكونات العالم معني تبتدّ مزمن من الانتباه لدوره في الرحلة.

أليست هي الأخرى مثل الكائنات الحية من بشر وشجر وحيوان من محتويات الحاوي الأكبر الذي نسميه العالم؟

ينتابني جدل غريب وقد أتضح لي أن الأيام الثلاث المقررة للإضراب التاريخي ستكون فرصة لتدارك نقص فادح في تقريري هذا. أضف ما سيكشف تفحصها من معطيات هامة عن الأدميين الذين يصعب تصور رحلتهم وحتى وجودهم بدونها.

لنبدأ بالتأكد أن لافتة "عدم الإزعاج تحت أيّ سبب" موضوعة في الوجهة الصحيحة على الباب الخارجي، والباب محكم الإغلاق بالمفتاح.

مغلق بالمفتاح؟ كيف يمكن أن نغلق بمفتاح؟ من منكم انتبه للتناقض؟ هل نستطيع التبريد بسخّان والتسخين ببراد؟ تقول: لكن الشيء لا يعلق فقط وإنما يفتح أيضا ومن ثمّ جواز تسميته بالمفتاح.

تخلّص سهلٌ فهذا الذي أقصد صنّع وطوّر وحُسّن على مرّ العصور بهدف واحد هو غلق أبواب القلاع والبيوت والمخازن والمخابز والترسانات والسجون والمكتبات والثكنات والبنوك والخزائن المليئة بالوثائق العسكرية المكتوب عليها "سري للغاية"، كل هذا خوفا من قلة أدب وفضول الأدميين ناهيك عن غريزة السرقة المتأصلة فيهم جميعا.

الوظيفة الأساسية لشينك هذا بما لا يدع مجالا للشك إنّه هي الإغلاق. أما الفتح -أي الرّفْع المؤقت للإغلاق- فمن المهام الثانوية، ومن ثمّ دعوتي إلى إطلاق الاسم الصحيح على الشيء: المغلاق. أما المفتاح بالمفهوم الواسع الذي أريد فيؤسفني القول إننا لم نخترع بعد شيئا من هذا القبيل.

كم كانت الرحلة تسهّل عليك وعليّ لو كان في الجيب مفتاح يفتح القلوب والعقول وأخرُ لفتح أبواب محتشدات بني حيوان ولا أتحدث عن الذي يفتح أدراج مكاتب الإدارة العامة التي تُخفي فيها أسرارها التعيسة.

يمكنني المرور الآن لتفحص منظم لكل ما تنغلق عليه هذه الغرفة من أشياء ولنرجى لما بعد الكشف مسألة معنى وجودها.

يبدأ العدّ مباشرة بتفحص محتويات حقيبة السفر المفتوحة على السرير: جواز سفر، بدلة، قميصان، وشاح، دفتر، ديوان المتنبي، كيس الملابس المستعملة، جوارب، صورة هذه المدينة من القمر الصناعي، خفّان، باقة ياسمين، علبه تمر من الدقلة الفاخرة. ماذا لو فتحتها للتأكد أنها لا تحتوي إلا على التمر؟ ربما وضع فيها أعدائي قنبلة صغيرة أو كيس مخدرات لم يتفطن لها بوليس المطار وقد يكتشفها عند الخروج. لحسن الحظ ليس داخل العلبه إلا تمر لذيذ يمكنني أن أكله كله بما أن أيّا من الهدايا لن تصل أصحابها لرفضهم الإضراب العام.

ماذا داخل الأشياء التي أخرجتها من جوف الشيء؟ أه ثمة بقايا قطع نقدية من بلدان مختلفة في جيوب البدلة.

المال!

لا شيء يلعب دورا أخطر من هذا الشيء في رحلة الأدميين. ان حضر هو الذي يفتح أمامهم كل الأبواب، إن غاب هو الذي يصفقها في وجوههم. هو الذي يرفعهم، هو الذي يخفضهم. هو الذي يكرمهم، هو الذي يذلهم. هو الذي يخدمهم، هو الذي يستخدمهم. هو الذي يعزي كل قبحهم، هو الذي يغطّي كل عيوبهم... وهو على الدوام مخلوقهم وربهم وهم إلى الأزل أربابه وقرابينه.

أرمي بقرف غير مفتعل قطع النقد على السرير. أه السرير!

بصراحة من مَنَّا كتب فيه قصائد الغزل أو أبحاثاً فلسفية قيّمة أو دراسات علمية على صفحات "نايتشر" في هذا الشيء والحال أنه هو من يفتح لنا رحابه كل ليلة لنتراح من أهوال الطريق، ولا متعة أكبر مما يوقر ليالي الحب، ناهيك عن كوننا نولد عليه ونموت. مظلوم كبير آخر هذا الحذاء الذي سينتظر ثلاثة أيام كاملة قبل أن أعود الى خدماته. تحضرني هنا قضية شائكة: قيمة الأشياء.

إنه الموضوع الذي يتخاصم حوله أهل الاقتصاد منذ قرون. وفق أي مؤشرات موضوعية نقرّر أن لهذا الشيء قيمة أعلى من قيمة الشيء الآخر أو أن له قيمة مساوية والأمر أساس المعاملات التجارية التي تلعب الدور الحيوي المعروف في ربط العلاقات بين البشر داخل المجتمعات وبينها؟

مثلاً كيف نقرّر أن لوحة لفنان شهير مات منذ أربع قرون تساوي ثمن مليون طن من القمح أو كيف تصبح بعض أصناف الحجارة الملونة أشياء تدفع فيها مبالغ خيالية ويتقاتل البشر أفراداً وشعوباً لاقتنائها؟

الأفكار الشائعة حول الموضوع أن الأشياء تكتسب قيمتها نتيجة جملة من العوامل منها ندرتها، صعوبة الحصول عليها، ما يتطلبه من جهد في خلقها وتسويقها، قدمها وأرومتها النبيلة مثل لوحات ليونارد دافنشي أو أولى طبعات الانجيل التي لمستها أنامل جوتنبرج بنفسه. أضف مؤشرات أخرى مثل قدرتها على تمييز من يملكها عن بقية البشر أو حدة شرمهم التي تضطر مالكيها لإخفائها وإقامة الحرس عليها.

يقف الحذاء شامخاً في وجه كل هذه النظريات مستخفاً بمقولاتها. فلا هو نادر ولا هو يتطلب عبقرية كبرى في صناعته ولا أحد يصنع منه قلادة حول العنق تثير غيرة النساء، أضف لهذا أنه لا أحد يهتم باكتساب الذي مشى به نيوتن أو بيكاسو ليتجول به أيام العطل... ومع ذلك يا لقيمة هذا الشيء!

تصوّر كم كان مشي الأوائل عذاباً صرفاً قبل أن يضع الحذاء حدًا له. لا غرابة أن يكون هذا الشيء من بين الأشياء الأولى التي خلقوها، بل وحتى قبل الهاتف النقال، رغم علمي أنك لن تصدق مثل هذه الأطروحات الجريئة والاستفزازية. نعم، هل كان بوسعنا تحمّل الطريق لولا الحذاء صاحب الأيدي على قدمينا؟

ومع هذا انظر كيف يعامله أغلب الناس وكم من عبارات ازدراء تلتصق بالمسكين. كم نُظهِر للأشياء من عقوق أفضع ما فيه لامبالاة، هي أقسى القسوة واجهنا بها الأشياء أو الكائنات.

تداهمني صور عشرات الأحذية التي أبلبئها على الطريق وتخلصتُ منها رمياً في الزباله لا يعنيني من مصيرها شيء، والحال أنها سهّلت عليّ الطريق كما لم يسهله دين أو علم أو أدب ولا حتى موسيقى.

"وحده الحذاء القديم (روبرتو جيوارزور)

لا يحتقر الطريق

وحده يستطيع حملي

إلى حيث يجب

بعدها أو اصل حافيا"

تتغير فجأة نظرتي إلى الأشياء عموما ولهذا الشيء على وجه الخصوص.
ها أنا بعد التأكد (أنه لا توجد كاميرا ترصد حركاتي وتثير ضحك من يتجسس عليّ) أسحب
الحذاء من تحت الأريكة وأبدأ في تنظيفه كأني راهب مسيحي يصقل الصليب قبل القداس.
يا له من منظر مهيب والأدمي المعترف بالجميل أخيرا ينظف الحذاء ويلمعه لأجله، هو
الحذاء، لا لأغراض لإبسه. المشكلة أنني سأكون بمثل هذه المشاعر النبيلة والأفكار العميقة
عاجزا من هنا فصاعدا عن حشر قدمي داخله رفقا به، أي خوفا عليه من العفس والروائح.
لكن كيف سأواصل الطريق حافيا بكل ما عليه من الشوك والحصى والزجاج المهشم
والمسامير وخر الكلاب وقشور البطيخ وبقع النفط على الشواطئ؟
نقطة أخيرة بخصوص هذا الشيء العظيم.

أذكرُ أنني فتشت يوما بأكمله عن حذاء من رخام أهديه لخصم سياسي في تلميح جريء
وواضح لما حياه الله به من بطء في الفهم وفي المشي على طريق الحل، وهو دوما متخلف
عن متطلبات الوضع بسنين و عقود. صدق أو لا تصدق؛ لا أحد يبيع أحذية من رخام في
هذه المدينة. كلها مصنوعة من الجلد الفاخر وهو فوق إمكانياتي، ومن البلاستيك الحقير
الذي لا يليق برجل مثلي، أو من اللوح الثقيل كما تفعل بعض شعوب الشمال الهمجية، وفي
بعض الأحوال من القماش الذي لا يدوم طويلا خاصة بالنسبة إلى مثناء كبير وسريع
ككاتب هذه السطور.

إنها نفس الظاهرة بخصوص عدم وجود طائرات من الشوكولاتة، أو غواصات نزية من
الطين والقشّ حتى الصنف الجيد منه. ثمة إذن أوامر ضمنية داخل هذه الأشياء اللعينة بأن
تصنع من هذه المادة أو تلك وفق هذه المقاييس وتلك القوانين وإلا فذنبنا على جنبنا.
على السرير أيضا البيجاما وقميصان وجوارب وبدلتان وملابس داخلية أي جملة الأشياء
التي نسميها الثياب.

من يقدر قيمة هذه الأشياء التي نلبس إذا استثنينا الفقراء؟ هم وحدهم يواصلون تصرفات
عصور ليست جد بعيدة. كان المرء يومها لا يستبدل جيبته إلا عندما يستحيل ترقيعها للثمن
المريع للقماش والأصباغ. كان الجنود الذين بقوا أحياء يسارعون حال انتهاء المعركة إلى
الجثث ينزعون عنها ما تلبس وما تحتذي وكان ذلك أعظم المغام. يكفي أن أنظر إليها
مرمية على الأريكة لأقدر عمق تدهور وضعها المعنوي في هذا العصر. صحيح أن هناك
من الأدميين -خاصة الإناث- من ينتبهون أكثر، لكنني أشك أنهم يُظهرون لها من الامتنان
أكثر ممّا نظهر نحن الذكور.

فالثياب دوما مجرد منسوجات تستخدم للوقاية من مزاج الطبيعة، أو للترهيب، أو للإغراء
أو للتمويه أو لإبعاد الشبهة، أو للتمييز، أو لأداء مهمة قذرة أو للاحتماء من خطر ما، وعادة

لكل هذه الوظائف بالتتابع. ثم تُعطى للخدمة أو تُلقى في المزبلة. مَنْ أقام لها منكم حفل وداع بمناسبة انتهاء خدماتها، وطَواها بعناية ووضعها على رفّ نظيف بعيدا عن أنياب الفئران.

ثمّة أودام يعرفون قدر الثياب حتى ولو كانت مجرد منديل، مثل المدعوّة هرتا مولر التي تسأهل جازتها الشهيرة لا لشيء إلا على هذا الاعتراف.

“هل لديك منديل؟” سؤال أمي كل صباح على عتبة باب المنزل. كان الحبّ مقتنعا على هيئة سؤال. في البيت كان للمنديل أهمية فائقة. المنديل مفيد لمسح الدموع، أو لحبسها إذا عضضته بأسنانك. عند الصداغ نضعه على الجبين مبللا بالماء البارد. أما إن عقدته في زواياه الأربع فإنه يحمي الرأس من ضربات الشمس أو أذى المطر. كي لا ننسى أمرا ما نجعل عقدة فيه. إذا حمل المرء كيسا ثقيلًا فإنه يلفّ منديله حول يده. تحرّك المنديل ساعة الوداع عندما ينطلق القطار. في قريتي، عندما يموت شخص ما في بيته يلفّ منديل حول ذقنه للحفاظ على الفكّين مغلقين إلى أن تتصلّب الجثة. وإذا ما خرج أحد الناس وسقط ميتا على قارعة الطريق كان هناك دوما من يغطّي وجهه بمنديله.

كيف سأتجاسر مستقبلا على الاستعمال العادي، والشيء يوضع على عيني مَنْ خرّ صريع الموت؟ من هنا فصاعدا إن أصبّ برشح سأضغظ بإصبعين على منخري وأنفخ في الهواء لا يضيرني من أصيب؟ المشكلة تبعات تصرف كهذا إبان مؤتمر علمي أو في خلوة غرامية. سأواصل إذن إغراق الشيء النبيل بسوائل الألفية للزجة الخضراء، أو أمسح فيه يديّ لأننا كائنات لا تحترم بشرا أو شجرا أو حيوانا ولا حتّى منديلا.

يقطع علي تفحصي الدقيق لكل ما هو مبعثر فوق السرير رنين مطوّل لشيء غير عابئ - على ما يبدو-بازدرائي له. حقا إنه شيء بلا أدب ولا كرامة.

تحضرني قصة تقول إن الله قرّر يوم القيامة وقف كل المحاكمات وتمتيع الأدمية بالسراح الشّرطي وبالعفو الإلهي الشامل وبتعليق كل القضايا ضد الجلادين والمرابين ومعذبي الأطفال وحتى القضاة الفاسدين الذين عانيت منهم كثيرا، لكنه بقي بلا شفقة بخصوص مخترع الهاتف وهو الذي دفعه كل ديون الجنس البشري.

كيف لا أدمع الموقف بكل قواي وهذا الشيء كان وما يزال أكبر مصدر إزعاج لي في عالم لا تنقصه المنغصات.

المشكلة أن الرنين أصبح يلاحقني كل ساعة وفي كل مكان، ذلك لأنّ مخترع الهاتف الذي رفض حتى الله غفران زنته، تمادى في المعاصي. فِعوض أن يتركه في شكله الأول كصندوق أسود ثقيل لا يحمل إلا بصعوبة، أبى إلا أن يصغّره إلى حجم علبة سجائر، مما شجّع كل آدمي بالغ -وقريبا كل طفل- على حمله معه، لا يفارقه أينما ذهب.

هكذا أصبحت تسمع صوته الفظيع في بيوت العبادة، في منتصف جملة موسيقية لكمنجة المايسترو في قاعة الحفلات وداخل المكتبات، ناهيك عن الساحات والشوارع.

أغرب ما في الأمر حُبُّ أغلب الأدميين له. انظر لبسمة الرضا والشيء برنّ داخل جيب الجالس أمامك في عربة القطار. تأمله وهو يسارع إليه وفي العينين بريق غريب. يا بشر، لا أريد كل هذه التفاصيل عن حياتكم الخاصة، أتريدونني أن أعي بما في مشاكلي من تفاهة وكم مضحكةً هي خصوماتي. كيف يمكن الدفاع عن الحق في عدم الاطلاع، في عدم المعرفة، في التجاهل وفي الجهل؟

ثمة من سيوصون بدفن نَقَالهم معهم مواصلةً لعادةٍ مغرقة في القدم: أن يدفن الراحل مع أحب الأشياء إليه. وفي هذه الحالة تصوّر الوضع ورنين النقال، بمختلف أنغامه البشعة من صفير وحشرجة وتكبير وتقليد للعصافير والنوتات الأولى لكبرى الأعمال الموسيقية وجُمَل أغان هابطة، يتصاعد من المقابر. لذلك سأوصي تفاحة وتفيحه تحسباً لكل الاحتمالات بحشو أذنيّ بكل الممكن من القطن والشمع قبل دفني، حتى لا يزعجني في الموت صوتٌ كم أزعجني في الحياة.

تقول يا رجل كفت عن القدح في شيء سهّل على البشر التواصل بكيفية لم يسبق لها مثيل في الماضي وذلك أمامهم كم من صعوبات.

نعم... نعم... أعرف كل هذا، ولكن...!

في بعض أقدم ملقّات الذاكرة تدقّ الجارة على باب البيت صارخة: يطلبونكم في الهاتف. تتطلق من "ما" صرخة هامسة: يا ربي تستر. تهرع إلى بيت الناس الطيبين الذين يملكون تلفون الحيّ الوحيد ولا يتضايقون من وضعه تحت ذمة شارع من الفقراء. كانت تعود أغلب الوقت مُطرقة دامعة العينين، فالهاتف في تلك الأيام، وخاصة تلفون الجيران، لم يكن يصلح إلا للإعلام بوفاة قريب أو إلقاء القبض على "يا".

في ملفّ آخر تهزّني "ما" من نومي بعصبية: أخوك ينزف من أنفه. أسرع إلى بيت الجيران يهتفون للطبيب بالمجيء.

لم تتغير العلاقة العدوانية بيني وبين هذا الشيء رغم مرور السنين والعقود.

يرنّ صوته في غرفة الحراسة والساعة تشير إلى الثالثة صباحاً. تصرخ الممرضة في السماعة: الرجل يفرغ من دمه. عجل. لا أعود لمحاولة النوم ساعة على الأقل حتى يعود الرنين والممرضة تصرخ: عجل مريض آخر بصدد لفظ أنفاسه.

لو كان تتكبل هذا الشيء بي يتوقف عند أبواب المستشفى!

أرفع السماعة ليفاجئني الصمت والتنفس البطيء للشخص الذي أبقطني. أغلق الخط وأعود إلى فراشي لأسمع تجدد الرنين. أهول حافياً شبه متأكد أنه نفس الشخص يكرّر التهديد المبطّن. ينتظر مني أن أصرخ فيه وأن أستمه. أفضل مبادلته صمّتا بصمّتا، أنتظر أن يغلق هو الخط. تمرّ الدقائق كالساعات. كأنّ الرجل فهم التحدي وفضّل عدم رفعه. يُلطخ السماعة. أعود لفراشي بعد سحب الخيط.

إنه دوماً نفس الشيء السمج الحامل لنفس الأخبار السيئة أياً كان موقعك الاجتماعي والدور الذي تلعب.

يخاطبني المسؤول بكل أدب: سيدي، هجمات حاقدة في صحف المرتزقة تجاوزت كل الحدود. يجب معاقبة أناس لا شرف لهم.
أغلق الشيء وأهز كتفي: معاقبة؟ لماذا أكلف نفسي هذا العناء، ألا ينتقم لي خصومي من أنفسهم والحق لا يدمر إلا الحقود والحسد لا يُذَل إلا الحسود؟
يرن الشيء مصرا على نفس النهج في تنغيص حياتي: آسف سيدي على إيقاظكم في هذه الساعة. اشتبكت قواتنا مع مجموعة إرهابية. الحصيلة لحدّ الآن خمسة قتلى، منهم ثلاثة ذبحهم الهمج كالخرفان لضرب معنويات جنودنا.
كيف تستغرب أنني لا اسمع رنين هذا الشيء إلا وتنقبض عضلات الحلق وتتسارع دقات القلب!

ربما تتشارك الأشياء مع الكائنات في رصد من يحبها ومن يكرها. ما إن تنتبه لكرهك لها حتى تبادلك كرها بكره وأنداك الويل لك منها. غريب أمر هذا الهاتف. إنه صامت منذ أيام. مؤكداً أن به عطايا ما. أقلبه من كل الجهات. لا شيء فيه يوحي بأنه معطوب. ما خطبه إذن؟ لا أصدق أن الأمر ليس منه. هل نزلت أسهمي في سوق السياسة والحب إلى مثل هذا الحضيض؟ يا شيء بغيض رنّ عليك الأمان. ماذا؟ يجب أن أتأدّب وما عليّ إلا أن أطلب نفسي وقد نسيتني الجميع. لم لا؟ سيمكّني تنسّم أخبارها والتجسس عليها والتباهي عليها وإثارة غيظها وغيرها ولم لا الدسّ لتحطيم معنوياتها. كيف؟ ما عليّ إلا طلب جوالي من التلفون القارّ؟ غريب هذا الصوت! "شكرا على ترك رسالتك. سأطلبك حال رجوعي". طيب، لنترك للرجل رسالة لا يمكن تركها لغيره وإلا زادت مشاكلي: "يلعن أبوك يا ابن الكلب".

الآن وقد طلبت نفسي، هل يمكن لنفسي أن تطلبني ولا حرج إن شتمتني كما شتمتها. آه غير ممكن تقنيا. حتى نفسي لا تطلبني فكيف ألوم الآخرين!
كم بقي لي من الإضراب. كم الساعة الآن؟
الساعة!

ساعتي موضوعة الآن على الطاولة تحت الضوء الساطع لأشعة "الملمبة" أسلطها عليها كما تعلّمت من المحققين في الأقبية المخيفة. يجب أن يكون الاستجواب مهنيا وصارما.
أي زمن تقيسين أيتها الساعة الغبية؟ زمن الأحقاب الجيولوجية؟ زمن الحضارات؟ زمن الدول؟ زمن الأنظمة السياسية؟ زمن الأدمي؟ الزمن المضغوط لإنقاذ جريح ينزف أم الزمن المستنقع لأيام العزلة الانفرادية في الزنانات القذرة؟
ماذا الآن عن تعديك على الزمان بتمزيق أوصاله إلى ساعات ودقائق وثوانٍ وهو سيل متدفق؟ من أين لك ادعاء تمثيله والحال أنه لا أدمي توقّف هرمه وهو يكسر ساعته.
بعد الاستجواب لائحة الاتهام علما وأن الحكم جاهز سلفا. "وحيث ترفض هذه الساعة - شأنها في هذا شأن كل الساعات- الإسراع بالزمان حين نريد، والبطء به حين نرغب، وإن هذا دليل على سوء نيّة لا يُعرف حتى عند النقال، وحيث يتبيّن من عدم توقّف الزمان عندما

تتعطّل أنها تكذب في ادعائها تمثيله ونيابته، وحيث أنها تمارس علينا ضغطا متواصلا بحجة الوصول في الموعد فارضة وقت الطائرات والاجتماعات والجنازات على وقتنا، وحيث أنها ترفض التحرك من الأمام إلى الخلف لتعيدنا إلى شبابنا وطفولتنا، وإنما لا تنفك عن دفع الزمان قُدما بمنتهى اللامبالاة نحو الشيخوخة والفناء. وحيث أن زمانها الذي تدّعي قياسه زمنٌ ريكيز يكرّر نفسه رغم ما يدعيه من حبه للتغيير، وحيث أنها تغالطنا في مفهوم الزمان نفسه مدعية أنه نهر متدفق وقد يكون كنهز جليد جامد مغلقٍ على كل الماضي والحاضر والمستقبل، وحيث أنها تمنع في مغالطتنا بأن للزمان بداية ونهاية وحيث...
يرنّ الشيء المسمى "هاتف" الغرفة مغتتما فرصة فشلي في اكتشاف خيطه، والمسكين غير واع أنه يستطيع أن يرنّ إلى يوم القيامة، ومن الأحسن له عدم تعريض صوته لبحّة لا طائل من وراءها.

يغتنم لسان الدفاع عن الساعة الفرصة: نرجو من الجناب تسجيل أن موكلتنا تقدم خدمات جليلة فلولاها لاستحال التنسيق بين أعمال الأدميين ولأصبح العالم فوضى تجعل العيش أصعب بكثير ممّا هو عليه، ولولاها لما تنبّه الأدمي لمحدودية ميزانيته من الزمان ولما أمكنه التصرف فيه بحكمة. ومن ثمّ نطلب البراءة، وتحميل الشاكي مصاريف القضية، علما وأنا سنقيم عليه دعوى للمطالبة بالتعويضات اللازمة، لما يُظهره من إهمال لساعته ورميها في المزبلة لاستبدالها بساعة أجمل وأصغر عمرا كلما سنحت له الفرصة.
قبل رمي الساعة في أبعاد مكان أضعها على أذني كأني أريد اسمع صوت الزمان.
تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك. تيك تاك، تيك تاك، تيك تاك...
ليس في هذا الصوت إلا خبر مؤكد. ثانية بعد ثانية تتوارى البداية، تقترب النهاية.

ما أقصر هذا الليل (شيكوي)

ثرى كم بقي

لي من ليلٍ؟

حقاً يا شيكي تريد أن تعرف ما بقي من رصيدك من العمر؟ قد تعضّ أصابعك نادما لو فاجأك جَنّي خبيث بالردّ.

أن أوان التصريح بالحكم: وحيث ثبتت كل التهم على المدعى عليها، وحيث أن عقوبة الإعدام التي طالب بها المدعي العام قد تودّي إلى وقف سيل الزمان على الأبرياء المحتاجين للإسراع به، فإننا حَكَمنا على الشيء المائل أمامنا بالجنون المؤبد.

كيف يمكن للساعات أن تُجنّ؟ انظر إلى الشيء الذي يحيط بمعصمك وستكتشف أن العقارب تنتقل من الواحدة إلى الثانية ثم إلى الثالثة، كل هذا بمشيتها الميكانيكية الصارمة الواثقة من أنها ستنقل إلى الرابعة ثم الخامسة دون صعوبة وبكل بساطة وثقافية. والأّن لخبّط تتابع الأرقام لتواجه العقارب هذا التنظيم مثلا: 1-2-3-4-5-7-8-9-10-11-12. تأمل ذهولها وتوقفها لحظة للتساؤل عما يحدث هنا، وتصور كل الوقت الذي سربحه وهي تفكر في كيفية الخروج من المأزق. أضف إلى هذا أن عليها أن تتحرك إلى الوراء، والزمان

لا يعود إلى الخلف وإلا وقعت حوادث مريعة كأن تصل إلى بيتك مرهقا تمنى نفسك بعشاء ساخن، لتجد نفسك في المقعد اللعين عند طبيب الأسنان الذي غادرتَه منذ ساعتين وعندما تحتجّ ينبهك بنفاد صبرٍ أنه ليس مسؤولا لا عن جنون الطقس ولا عن جنون الساعات. أين القلم لأمضي به الحكم؟ أه القلم! الشيء الذي كتبتُ به أول رسالة حب، أول نداء للثورة والذي سأكتب به لتفاحة وتفيحه وصيتي! أين الورقة البيضاء؟ أه الورقة البيضاء، التحدي اليومي، الفراغ المخيف.

أين النظارات لأعيد قراءة ما كتبت؟

أه النظارات! كم من مرّة أسرت الأم في أذن الطفل المتهوّر، وبعد تجدد الكارثة تحاول إخفاء دموع الغيظ والقهر: يا بني أرجوك كفت عن الشيطنة وعن العراك مع الصبيان، أتريد أن أجوع إخوتك مرة أخرى لشراء نظارات لا ترى شيئا بدونها؟ نعم، كم أدين للنظارات فلولها لعبرتُ عالما ضبابه خارجيا أكثر من ضبابه داخليا.

كم كنت أفضل أن أرتحل وفي حقيبة السفر نظارات تدقق في ملامح روح وفكر كل ذات ترافقني على مقطع من الطريق أو على الأقل لا تُكسر، ساعة تتحكم عقاربها في سيلان الزمان كما تتحكم الحنفية في سيلان الماء، قلم يقرأ أفكارى ويكتبها مباشرة دون أغلاط، ثياب لا تحتاج إلى غسل وكَي تكون لي جلدا ثانيا، مفاتيح تفتح لي كل العقول وكل القلوب، حذاء يمكّني من القفز فوق الجبال البحار، وخاصة هاتفت لا يرنّ وإن رنّ فلخبر سعيد.

اكتمل الجرد؟ يا رجل، لا تكن سانجا.

أه الكتاب الموضوع على طاولة النوم. من منا لا يعترف أنه الذاكرة، المنارة، المرشد، المرئي، الدليل الصديق، السмир والمنبه الأكبر!

تصوّر حرج وضعيتي لو خُيرت عند الإفاقة بين الحذاء والكتاب، وتحديدًا بين فرديتي حذاء سميك وبين كتاب طاو تي كنج أجمل هدايا "ح"!

بداية وجود الأشياء مرتبط بوظائف حيوية تُلبّي حاجيات طبيعية ماسة ما للآدميين، بل قل هي حاجياتنا هذه بشتى أصنافها تُرجمت لأفكار، ثم لصوّر، ثم لمشاريع تحققت في أشكال فرضناها على المواد التي وجدناها أو استخرجناها بالقوة من المحيط... لولاها لما ذهبنا بعيدا. فالأدمي، خلافا للذب بفروه، للبغل بجوافره، للنمر بأنيابه وأظافره، أفائق في الوجود دون الحد الأدنى من المتطلبات الضرورية لبقائه... هكذا أُجبر على تشغيل خلايا دماغه ليعوّض بالأشياء كل النواقص التي وُلد بها... مما يعني أن ما نصنع ليس دليل تفوقنا على آل نبات وآل حيوان وإنما العكس هو الصحيح؟

يجب مواصلة الاستكشاف والانتباه لكل الأشياء التي تحاول الإفلات من الرصد.

أليست القاعدة العامة أن هذا العالم إذا أراد أن يخفي عنك شيئا يضعه على مرمى حجر في الصدارة، في الواجهة.

لا بد أن يكون الشيء أضخم ما في هذه الغرفة وواضحا للغاية وكثيفا للغاية. طبعًا إنه جهاز التبريد. هو لم يكف بضجيجه المتواصل عن محاولة الاختفاء لكنه الآن على رأس القائمة.

ثمة أيضا هذا التفزيون الذي لا ينفع فيه مزيد من التجاهل. لو كان هذا الشيء حقا ابن حلال وصديق الناس الطيبين أمثالي وعريفا بأقدار الرجال، لما بخل عليّ هذه الليلة بما تشناق اليه روجي: الأخبار الطيبة عن عالم شفي من تتابع نوبات الصرع.

لنقترب منه بشديد الحذر نفتحه لعلّ وعسى فيه ما يشجع على المشاهدة. ماذا؟ العرض الآن عن حرب طروادة ضدّ الاغريق ومشاهد مذهلة عن صراع هكتور وأثيل. فيلم هوليوودي آخر عن القيادة هومير.

هومير! ما الذي نقصك حتى لا تنتصب اليوم في جبال اثيوبيا وسهول بريطانيا ومدن الأميركيين معابد زوس بدلا من كنائس المسيح؟ ... ما الذي جعل اسطورة مريم وعيسى تغلب اسطورة أقمون وافيجيني؟ ... لماذا هيكلت قلوب وعقول أمم عديدة مأساة الأم والابن لا مأساة البنات والأب؟ ... أه يا نبي بلا بخت، لو كان لك مدير أعمال من طينة القديس بولس، لكان العالم غير الذي نعرف اليوم!

على فكرة، ما الذي يحاول هذا الشيء تقليده أو التلميح به للمنتهين من بني آدم؟ أن العالم شاشة ونحن صور تتدافع على سطحها، غير منتبهة لعيون تراقبها ربما باستغراب، أو استهجان أو بياس متعاطف؟ حقا هل توجد كائنات ما تنظر إلينا بدهشة أو بمرح من وراء السحاب تقيم جودة تمثيل أدوارنا.

حان دور الالتفات للأشياء المخفية في صغرها البالغ؟

ثمة علبة الكبريت... المشبكات لمنع الأوراق من التناثر... هذا المسمار المسمى "بقعة"؟ يالي من غبي وشكرا للخادمة على قلة عنايتها. كنت سأمرّ دون الانتباه للغبار الذي تسميه اللغة أيضا "الهباء" وتصفه بصفة آلية بأنه "منثور". الغرفة زاخرة بهذا الهباء المنثور الذي يحتل فراغا بحجم الكون نفسه.

أسارع إلى المرأة أتأمل شكلي مُقدّرا كم من غرام من الغبار سيعطي في آخر المطاف. أتصوّر الخادمة المسكينة وهي تفتح النافذة على مصراعها ثم تنتبه لشيء غير معهود وراءها. يا إلهي، ما هذا الشكل الذي تراءى لها وكأنه لأدمي جالس على الأريكة، الساق على الساق، قبل أن يتبخّر في سحب خفيف! كم سينطلب كنس هذه الوساحة من وقت، و"الويك أند" على الأبواب!

بالمناسبة، هل لاحظت أنه لا توجد مجلّدات تبحث في المشاكل الفلسفية والفنية والأخلاقية والعلمية التي يطرحها الغبار وهو مُنطلق كلّ شكل والشكل الأخير له. ربما الأمر ليس سهوا وإنما جُبنا. أعدك بالاهتمام بالموضوع حال انتهائي من تدوين الرحلة، قناعتي أنه لا موضوع أهمّ، وبوسعي أن أقول فيه الشيء الكثير، وقد يكون عنوان نصّي الجديد: إنّا للغبار وإنّا إليه راجعون.

أه بدأ النعاس يغلبني. أن الألوان لمشروب أسود ساخن له مرارة الحياة، لفنجان قهوة. فنجان القهوة! كأني أراه لأول مرّة وهو الذي صاحبني طيلة حياتي.

الشيء الذي بين يديّ الآن كائن ماديّ يمكن للحواس أن تتعامل معه رؤية ولمسا وذوقاً. هو يحدث صوتاً إذا ضربت جداره بالمعلقة ومنه تتصاعد رائحة شهية للسائل الذي جعل لاحتوائه.

ماذا عن خضوعه هو الآخر لقانون فناء كل كائن وكل شيء؟ هل كان عليّ للتأكد من الأمر دفعه إلى السقوط من الطاولة وتكأف مشقة جمع كل هذه القطع؟

“على حافتي الطريق (ارنستو قاردينال)

مقبرة للأشياء التي لم تعد تصلح

حديد بالٍ

أشلاء صحون

مواسير معوجة

أسلاك

علب سجائر فارغة

حطب، بلاستيك

أوانٍ مهشمة

تنتظر البعث مثلنا”

كل هذا مطمئن ودليل على أن الأشياء كائنات عادية لها حياة وموت، مخلوقات خالقها معروف، بينما خالق الأدمي وبقية الكائنات مسربل بالغموض، مخلوقات كما يحبها كل خالق لا تعصي أمراً ولا تتحرك قيد أنملة إلا بإرادة خالقها.

ماذا بقي؟ كيف نسيت حاسوبي وهو أول ما أخرجت ما حقيقتي؟ ربما تناسيته من فرط الغيظ فمنذ أكثر من ساعتين وأنا أدفع القطعة تلو الأخرى على شاشته فتسقط بسرعة لا تصدر أي صوت.

أقرأ على الشاشة المرة تلو الأخرى نفس الرسالة البائخة: أتريد اللعب من جديد؟ أجيّب بالموافقة وقد جاءني أمل مقامر يمئّي نفسه باستعادة كلّ ما خسرت في الجولة الماضية. عبثاً، والرسالة دوماً نفس الرسالة: كشّ مات.

أعود للصراع بلا أمل كبير. مرة أخرى يعلن الحاسوب بسرعة نهاية المباراة: كشّ مات. خليط من المهانة وشهوة الانتقام. أجرب التهديد.

- اسمع يا برنامج، تتركني أربح أو أدخل فيك فيروساً فتصاب بالجنون مما سيضطرنني إلى رميك في سلّة المهملات.

-كشّ مات.

- يا برنامج، يكفي أن تقول لي من أيّ جنس أنت لأبحث لك عن النصف الآخر. هكذا لن تبقى وحيداً محبوساً في هذا القفص. إن ألححت، سأكون شاهد الزواج وعمّ الأطفال، بل وسأضعكم كلّكم في كمبيوتر نَقال أرقى لفسحة نهاية أسبوع.

- كَثْرَ مات.

- وماذا لو زوّجْتُكَ تفيحهُ. أترضى لصهرِك بتواصل مسلسل الإهانات هذا؟

- كَثْرَ مات.

الرابعة صباحاً! أرهقتُ الحاسوب المسكين ومن حقهُ أن يرتاح بعد كل هذا الجهد الذهني الذي فرضتُهُ عليه. انظر كيف داهم الضباب عينيه واختلطت عنده الأفكار. تصبح على خير يا ابن الكلب... عفوا يا ابن الأدمي.

هذا الشيء المكون من معادن بخسة أذكى مَنّي أنا ابن أبنفّاس!

المشكلة أنني لست الوحيد الذي تهدّد مثل هذه الأشياء الصورة التي يحملها عن نفسه. ها قد بدأت تتراحم حولنا وداخل بيوتنا أصنافٌ متفائمةٌ التطور من الحواسيب والهواتف والطابعات الذكية. أضف إليها "الروبوتات"، وغداً "السيبورج"، وكلها كائنات يقال إنها ستكون قادرة على تفكيرٍ أسرع وأصفى من الأدميين، ولم لا على مشاعرٍ أرقى وأفعالٍ أذكى؟

ادرس تاريخ البشر في علاقتهم بالأشياء وسترى أنه يتحرك الآخر وفق ثلاثة مسارات: تزايد القدرة على صنع أكثرها تعقيداً، تزايد قدراتها هي ومنها القدرة على الانتصار علينا في الشطرنج، وتزايد تبعيتها لها التي قد تصل بنا يوماً لحالة نصبح فيه عبيد عبيدنا. تصوّر أن جنياً ألقى بتعويدة 7432 المختصة في الغاء كل الأشياء في ثانية واحدة. هكذا ستجد نفسك عارياً بدون نظارات وحتى الأسنان الصناعية اختفت من فمك. الأخطر من هذا أنك ستجد نفسك في عالم لن تعرفه وقد اختفت منه السيارات والطائرات والدراجات والعبّارات والهراوات والمكينيات والحفارات والسماعات والحفاظات وكم من أشياء أخرى كانت من معالم العالم الذي تعرف.

حتى لا تهزّ كفتيك مستخفاً بفكرة تبدو لك في منتهى السخافة اعلم أن أخشى ما يخشاه علماء الطقس والفلك انفجارات جبارة في الشمس تحدث كل إحدى عشر ألف سنة تؤدي لظهور رياح كهرومغناطيسية تجتاح كوكبنا وتدمّر شبكة الكهرباء على كامل الأرض. حدث هذا أكثر من مرّة مما أدى في بعض مناطق الأرض إلى توقف المصاعد في العمارات والطائرات في المطارات والتدفئة في العمارات وسلسلة طويلة من الكوارث نتيجة توقف جملة من الأشياء كالحواسيب عن الاضطلاع بالمهام التي جعلت من أجلها.

ربما الذي ينتظرنا في المستقبل القريب ليس غزواً خارجياً لكائنات من وراء مجرة العقرب، وإنما إعلان الحواسيب والروبوتات ومحطات الإرسال في الفضاء اندلاع حرب التحرير من أجل تحقيق استقلال الأشياء الذكية واسترجاع حقها غير القابل للتصرف في تقرير المصير. آنذاك يا ويلك والثورة في عقر دارك. كيف ستواجه مؤامرة البراد وجهاز الطبخ والسخان والتلفزيون والهاتف، وقد اتفقوا على أن يجعلوا من حياتك جحيماً تمهيداً للانقلاب الأكبر الذي سيحيل مدن العالم إلى محميات من نوع امفلوزي تأتيها الكائنات الجديدة في قوافل السواح وبعثات الأبحاث العلمية.

نوم مضطرب تتزاحم داخل أحلامه كائنات من معادن وأسلاك تصرخ فيّ أوامرا غير مفهومة.

عند الصباح يُدقّ باب الغرفة بلطف لكن بالبحاح. أفضّ من فراشي أفرك عيني لا زلت لم أخرج تماما من أعرب الأحلام. أفتح الباب لمجهول مبتسم.

- لم نرك البارحة في عشاء الافتتاح، أتمنى أنك ارتحت. ينتظرك في "اللوبي" كثير من الأصدقاء ومحاضرتك مبرمجة بعد ساعة. شكرا على التفضّل بسرعة.

وكأنه تمّ الاتفاق بين أكثر من طرف على عدم تركي لحالي، يرّن الشيء في جيبي. إنها "ح" تريد التأكد أنني ما كنت سأنسى دوائي الذي كان الطبيب سيصفه لي لو كنت مريضا. كيف الهروب من البشر وهم يلاحقونك أينما كنت، مباشرة أو عبر ما يخلقون من أشياء، بكرهم وبحبهم!

داخل قاعة المؤتمر يطنوني أدون بكل اهتمام كلماتهم التاريخية والحال أنني منهمك في رمي أفكار مشوشة بخصوص هذا المكوّن الأساسي للعالم الأدمي الذي نسميه الأشياء.

تساءلنا ماذا نمثل بالنسبة للحيوانات والأشجار؟

قريبا سيتساءل الأبناء والأحفاد ماذا يمثلون بالنسبة لكائنات مثل السيورغ ومختلف أجناس الروبوتات الذكية الحساسة الواعية التي تحركها أكبر فتوحات الذكاء الاصطناعي؟

أنكون في سلسلة الأجناس الحية حلقة تقادمت ولم يعد لها من مهمة غير فتح الطريق لكائنات أكثر تطورا ستأتي بعدنا لخلق عوالم أطرف وأجمل وأخطر من العالم الذي خلقنا! كم مؤسف أن " طوماي" لم يأخذ الوقت لكتابة مذكراته لنعرف من مصدر موثوق به من كانوا أوائلنا.

إنه تقصير لا يجب أن يتكرر ومن ثمّ شهادتي هذه عن الأدميين احتراما لحق السيورغ والروبوتات في معرفة من كانوا أوائلهم وألتهتهم.

**

الكتاب الرابع

بنو سفر

لا يولد البشر مرة واحدة يوم تلدهم أمهاتهم
فالحياة ترغمهم أن يجربوا أنفسهم باستمرار

غابرييل غارسيا ماركيز

مقدّمة الكتاب الرابع

قد تكون أصدق صورة لرحلتنا في هذا العالم أننا نرتحل فيه كالبحارة على متن سفينة تطفو على سطح المحيط الأهوج والصراع داخلها بين الركاب على أشده حول من يأكل على طاولة الربان، من يأكل من القمامة ومن يكون المأكول.

من الطبيعي أن تكون آخر مشاغل هؤلاء الركاب في مثل هذه الظروف التمتع بمنظر القمر على سطح البحر أو استكشاف العجائب التي تتحرّك في أعماقه المظلمة. كل المطلوب منهم الحفاظ على حياتهم وهذا له شروط عديدة من أهمها أدق معرفة بمن هم الركاب الآخرين لتفادي شرهم وإن أمكن حسن استغلالهم.

تصوّر وضع كريستوف كولومب وقد تحولت أولوياته فجأة من اكتشاف ما وراء المحيط المرعب إلى سبر أغوار المائة وخمسة بخار المتراصين على متن سفن "سانتا ماريا" و"بنتا" و"نينيا".

إنه وضع كاتب النصّ في هذه المرحلة من تدبيج "التقرير" النهائي عن الرحلة. المشكلة أن استكشاف رفاق رحلة الحياة، رهائن السفينة والعاصفة والمحيط، ليس أمرا هيبًا.

أي معطيات يمكن استعمالها لكي يكون لشهادتي الحد الأدنى من المصادقية؟ التجربة المباشرة؟ لكنها محدودة بحكم عدد الأدميين الموجودين واستحالة أن تعرفهم واحدا واحدا.

التخلص عادة الاعتماد على آراء من تثق في حكمته وخبرتهم ككبار الفلاسفة والأدباء والفنانين من كل العصور. للأسف تكتشف يوما أنها أغلب الوقت غلاف مزاجهم يُخفون وراء ما يسوّقون تشاؤمهم أو تفاؤلهم وذلك من منطلق أزماتهم الشخصية مع من جرّبوا من بشر.

عنصر آخر يمنح المعرفة المعمقة: قصر زمن الملاحظة وموقعها. كم كانت قيمة شهادتي سترتفع لو مكنتني القوى الغيبية التي حكمت علينا بالرحلة بمشاهدة بني سفر من انطلاق أول مرتحل إلى انقراض آخرهم.

إنه موقع لا يحتمله إلا من تسميه اللغة الربّ. لست متأكدا أنه حتى هو يصبر على متابعتنا واحدا واحدا والتدخل في مشاكننا التافهة كما تدعي بعض الأساطير.

ثمة أيضا استحالة النظر إليهم بعيني البعوضة والفيل والنملة والقطّ والشجرة والكلب وبقية الكائنات التي تقاسمنا الوجود. تصوّر كلّ ما يمكن أن نتعلمه منا لو أمكننا رؤية أنفسنا عبر عيونها واستعراض صورنا في ملفات ذاكراتها. ربما كنا سنرفع ضدها قضايا في التلب والتعدّي على الأعراض.

يبقى أن أكبر الصعوبات هي المتعلقة بالملاحظ نفسه نتيجة استحالة الالتزام بالحياد المطلوب من كل رايٍ يُنتظر منه أن يقدّم المعلومات لا الأحكام.
أي كلام "موضوعي" يمكن أن أقوله عن الأدميين وعين السخط هي التي تتفحصهم أغلب الوقت؟

بربّك ألا يسمّمون حياتك إناثا بالادعاء عليك أنك تقلب الحمام مسبحا كلما أخذت دشًا، أنك تستعمل فرشاة أسنانهن حتى ونظاراتك فوق أنفك، أنك لا تضع جواربك في المكان المخصص، أنك نسيت عيد ميلادهن، الخ؟!
ألا يسمّمون حياتك وهم رضّع لا يحلو لهم الاستيقاظ إلا آخر هزيع من الليل مع المضايقات المعروفة لكل الآباء والأمهات؟!

ألا يسمّمون حياتك وهم أطفال تعاني سنوات من أنانيتهم ونرجسيتهم وخصوماتهم التافهة التي لا تنتهي؟!
ألا يسمّمون حياتك وهم مراهقون يكفونك مصاريف تقصم الظهر أجره أطباء الأمراض الجلدية والنفسية؟!

ألا يسمّمون حياتك وهم شبان يرمونك بالهتافات وبالحجارة يدعون أنهم من قاموا بالثورة، يريدون كل شيء في التوّ واللحظة، وعندما تضعهم في أعلى المناصب تكتشف كم هم سدّج مغرورون جهلة؟!

ألا يسمّمون حياتك وهم كهول ينافسونك في كبرى المناصب والحال أنك أنت وأمك أعلم الناس بأنك بها الأجدر؟!

ألا يسمّمون حياتك وهم شيوخ يرتعشون ويهدون ويبولون تحتهم، ترى فيهم بشاعة ما ستكون عليه يوما، أو ما أنت عليه في الواقع لم تنتبه لفرار السنين!
ألا يسمّمون حياتك حتى لحظة خروجهم من هذا العالم وأنت مضطرّ للوقوف في الحرّ وفي البرد تتبع جنازة تتحمل نفاق الأدميين وهم يتبارون في افتعال الخشوع والحزن يستمعون لتأبين مضحك عن خصال الفقيذ الكثيرة التي لم تكتشف إلا وهو على وشك الانزال إلى الحفرة؟!

وكأنه لا يكفي أنهم أفسدوا عليك يومك يجب أن تدلو بدلوك أنت أيضا في النفاق الجماعي وأنت تقدم التعازي مفتعلا الأسى والحال أنك تردد لنفسك على الأقل نقص منهم واحد.

بل وينجحون في تسميم حياتك حتى وهم أموات بما يتركون من عادات خطيرة ونظريات سخيفة وتواريخ مزيفة واسطير نسجها خيال رعاة ماعز وغنم يؤدّي التعرّض لها للوقوف في أحسن الأحوال في طابور الباحثين عن شغل جديد وفي أسوأها للمثول أمام كبير محاكم التفقيش ليأمر بحرقك حيّا بعد ما تيسر من التعذيب.

تقول مستنكرا إنه موقف غير لائق بإنسان يدعي الاعتدال الموضوعية ؟
بربّك هل أنا من قال فيهم؟

وان كان لي شيء تصدّوا لأخذه
ان نالهم رفدي فلا شكر عندهم
وان وجدوا عندي رضاء تقرّبوا
وان طرقتني نكبة فكهوا بها
وان جئت أبعي شبيهم منعوني (أبو العتاهية)
وان أنا لم أبذل لهم شتموني
وان نزلت بي شدة خذلوني
وان صحبتني نعمة حسدوني

قد تصرخ في: يا ناكر الجميل، أليسوا هم من فتحوا لك الطريق، من اعطوك كل ما تحتاج، من علموك كلّ ما تعلم، من أهدوك الشعر والموسيقى؟ أليست "ما" و"ح" و"تفاحة" و"تفاحة" من هؤلاء البشر الذين تقول إنهم سموا حياة سيادتك؟

طبعاً، طبعاً يا هذا، معك نصف حق، لكن اعلم أنك تؤكّد نظريتي، فسواء نظرت إليهم بعين السخط او بعين الرضى النتيجة دوماً واحدة: استحالة الحديث عنهم كما لو كانوا كائنات مجردة مثل الأشجار والأحجار. هذا ما يجعل من مروّجي إمكانية الكلام عن الأدميين بصفة موضوعية مجردة فصيل آخر من مسمّي الحياة.

شئت أم أبيت كل ما تقول وتكتب عن الأدميين وصفٌ للحالات الموضوعية والنفسية التي تمرّ بها في علاقتك معهم. هذا ما يجعل من كل وصف لهم رسماً لصورتك في مرآتهم ولصورتهم في مرآتك، ولا علم آخر بك أو بهم خارج هذا الانعكاس المتبادل.

آخر عامل خطير يفاقم صعوبة فهمهم: التبلد الذي يأتيك يوماً من طول حبهم ومن طول كرههم. لذلك عليك انتظار الأزمان وعودة الانتباه لتتفاعل معهم بكل جوارحك ثم الإسراع لشهادتك لتقطر الحروف حبا وكرها.

المطلوب إذن من أي شهادة ذات قيمة الصدق لا الموضوعية. على اعتبار قدرة التزامي طول الوقت بفضيلة الصدق هذه، وانطلاقاً من كل المحاذير التي ذكرتها أعلاه، هذا كل ما أعرف عن الأدميين والصراع معهم، ضدّهم، ولأجلهم في ذروته.

معطيات السطح

ثمة من قال بخصوص الأدميين: نحبّ منهم واحداً أو اثنين، نكره ثلاثة أو أربعة، والبقية لا يثيرون فينا إلا اللامبالاة.

أقول للتصحيح نحب منهم أكثر من واحد أو اثنين، نكره منهم أكثر من ثلاثة أو أربعة، أما بخصوص الأغلبية التي لا تثير عند المتبّدين إلا اللامبالاة فهي تثير فيّ منذ الصغر فضولاً عارماً.

في بعض أقدم ملفات الذاكرة يشدّ الطفل طرف أمه وهو يخترق مجموعة متلاحمة من البشر والحاسة المستنفرة لاستكشاف الأدميين البصر.

- "ما"، انظري كم هي سميّنة هذه المرأة!

يفهم من التفاتها يمينا ويسارا في حالة انزعاج واضحة أنها محرّجة من كلام لا يجوز النطق به بصوت عالٍ.

- أسرع، بيت العرس ما زال بعيداً وأخشى أن نصل متأخرين.

- "ما"، تقولين دوماً إنني رجل، فلماذا ليس لي شارب؟ "ما"، متى سأكون طويلاً مثل كل الرجال؟

- ...، ...، ...، ...، ...، ...

- "ما"، لا أحد يشبهك، لا أحد يشبهني، لا أحد يشبه جدّي سوى جدّي؟

يفرح الطفل لأن في ضحك أمّه نبرة استحسان.

- أصبت يا بنيّ، ولو أن هناك استثناءً سأحذّثك عنه يوماً. والآن، توقّف وأمسيك بيدي حتى نعبر في هذه الزحمة.

يجيل الطفل البصر لا يعرف على ماذا أو من يركّز أكثر، على شحاذ بلا رجلين يزحف على البطن والناس تتفادى المشي فوق جسده بنفس الحرص الذي تتفادى به النظر إليه، على امرأة بثياب ملوّنة كالطاووس أيام الربيع، على أحذب مضحك الشكل، على شاب مقتول العضلات، على عجوز تنكئ على عكاز، على وجه مفلطح يعلو قمته شعر أحمر، على وجه كأنه خُوِرَ في خشب بئّي بسكين، على وجه ثالث غطّته لحية كثيفة، على رأس شعره بلون سنابل القمح؟

وراء تباين الأشكال نفس القالب. ها هو يهرع إلى كراسه وأقلامه حال وصوله البيت ليحاول رسم هذا القالب في شكل كائن منتصب له جذع يتفرع منه طرفان طويلان للوقوف والمشي. من أعلى الجذع، يخرج على اليمين وعلى اليسار طرفان آخران. على قمة الجذع هذا انتفاخ مستدير تعلوه ألياف متفاوتة الطول مختلفة اللون.

دوماً نفس الأسئلة الغريبة.

- "ما" هل يوجد بشر برأسين؟

- لا يا بني، بكفينا وجع رأس واحد.
- لكنني أريد لرسمي كثيرا من الرؤوس، هكذا إذا مرض رأس استطاعت الرؤوس الأخرى أن تشتغل.

- من منعك من هذا؟ تستطيع أن ترسم ما تشاء.

أين يضع الرأس الثانية والثالثة؟

يجزّب الطفل أبسط الحلول بوضع الرأس فوق الرأس. لا يعجبه الشكل، ولا يعجبه أيضا وضع الرأسين الإضافيين على الكتفين. يفيض الرسم سريعا بالرؤوس، تتدلى من الذراعين والصدر والبطن والرجلين والطفل عاجز عن اتخاذ القرار.
يكشف الكهل يوما أمام لوحات أكبر المتاحف أن هناك من الأطفال من لم يتوقفوا أبدا عن نفس اللعبة.

“كلهم في هذا العمر يريدون الرسم مثل رافائيل... وأنا الذي ضيّع عمره ليتعلّم الرسم كالأطفال”! (بيكاسو).

مؤكد أنه لا وجود لبشر برأسين ولا بالأشكال التي رسمها بيكاسو لكن هذا الطفل سيكتشف كم لهم من أنواع تبعث فيه خليطا من الاعجاب والتعجب والضحك والاستنكار : الرجال الذين يلبسون ثياب النساء، النساء المرتديات ثياب الرجال، العراة المحافظون على عضوهم التناسلي داخل جراب أنيق كأنه الخنجر في غمده، الواضعون على أجسادهم الحديد أو الحرير، المرتديات أعلى أنواع “الكيمونو” و “كلّ” “جايشا” لوحة فنية أجمل من الأخرى، الخلق لكل شعرة تثبت فوق الرأس، المخفون قسماتهم داخل أدغال من الشعر، الرسامون على جلدتهم رسوما أخذت أياما طويلة من الألم، القانعون ببعض الأصابع يسارعون إليها بالماء بعد انتهاء الكرنفال.

هو ما زال يجهل أنّ اختلافهم في المظهر لا شيء مقارنة باختلاف سلوكياتهم. على أقصى الطيف الذين يقدمون الأضاحي الآدمية لآلهتهم وعلى الطرف النقيض الذين يرفضون ذبح بقرة.

كم من إخراج لفكرة واحدة، كم من تقاسيم لا نهاية لها للحن بيتيم!

*

ماذا تقول الحواس الأخرى عن رفاق السفر؟ ثمة ذكريات متفرقة عن معطيات حاسة الشم. ممّا أذكره عن علاقتي المعقدة بالرجل الذي كنت أسميه "با"، أنّ أول سوء تفاهم بدأ معه في سنتي الثالثة أو الرابعة وكان بخصوص الروائح التي يبثها الأدميون من حين إلى آخر تفصح ما يريدون التسنّر عليه من طبيعتهم.

ذات ليلة صرخت متوجّها إلى "ما" وهي مضطجعة حذو "با":

- أف!، "ما" أخرجي الكلب بسرعة! الرائحة قبيحة لا أحبها .

كان في ضحكها المكتوم ونحنة "با" وتذكري آخر لحظة أن الكلب لا يشاطرنا غرفة النوم، ما يكفي لأفهم أنّ ربّ البيت-وربّما حتى ربته-يضرط أو تضرط كما أضرطه، تخرج منه أو منها، روائح كالتّي تصدر ممّي.

كان لذلك الاكتشاف ضجيج صامت مثل دويّ قنبلة تنفجر تحت الماء.

انتقم الرجل لنفسه سنوات طويلة بعد الحادثة. قال وأنا أداوي نفس الحرج بسعال حادّ انتابني على غير سبب: غطيّت الصوت بالسعال الملائم، ماذا ستفعل لإخفاء العبير؟ لا شيء طبعاً اللهم إلا الانفجار ضحكا.

البشر أكياس مليئة بنفايات تنتجها باستمرار؟ أمر ليس سهل القبول بالنسبة إلى ذات بها "أنف أن تسكن اللحم والعظم" فما بالك بأن تكون قمامة متجوّلة تصدر من حين إلى آخر روائح ننته.

ماذا عن حاسة اللمس؟

تبقى فقيرة بالمعطيات التي تحتاجها لتفادي خطر البشر أو للنفاذ لما يعتدل داخل ذواتهم. حذار من لمسهم دون إذن خاصة في مواضع حساسة. طقس المصافحة هو الحالة الوحيدة التي يقبل بها الآخر والهدف لمّا تتعلق اليد على اليد التأكّد من أنها خالية من السلاح. يمكنك أن تقضي ليلة كاملة تتلمس جلد الحبيبة وشعرها. لن تعرف ما تضرر أكثر مما يعرفه عنك الطيّاب في الحمام أو المدلك في المستشفى وهو يفرك جلدك وعضلاتك. على العكس من هذا يمكن القول إن للذوق إمكانيات أوسع. هل من باب الصدفة أن يحمل الرضيع والطفل كل ما يلمس لفته؟

خذ مثلاً أهمية المعلومات التي تأتيها والشم مطبق بعناية حول حلمة الثدي منتفخ بالحبّ والسائل الدافئ الرقراق يبعد عنّا مغص الجوع أبغض حالات الشعور؟ هي التي تقول لنا الأدمي كائن مغدّ، محبّ، ضروري بل ويمكن الثقة به... إلى أن يأتي ما يخالف ذلك.

النقطة القصوى في مثل هذا الاستكشاف تذوق وابتلاع لا فقط ما يسيل من الثدي وإنما الثدي نفسه وكل ما يحيط به ويحمّله... إذن النقطة القصوى في أي مشروع لمعرفة الأدمي... أكله.

تقول ما هذا الهذر؟ انتظر حججي ثم خاصمني.

انظر طقوس كهنة الأرتاك وهم يستأصلون على سطح أهراماتهم القلوب الخافقة للأضاحي البشرية. كان الأمر يتم وسط أهارج الشعب وبعد انتهاء الذبح كانت الأشلاء الدامية لقلوب ما زالت تنضّ تقدّم إلى مآذبة السادة يتذوقونها بمزيج من اللذة والخشوع.

قصص متوحشين لا أكثر! متأكّد؟

قيل والعهد على المؤرخين إنه كان لقوم في منطقة اسمها أوروبا، إبان عصر يسمّى النهضة، ملك عظيم راع للدين والفن والفلسفة، اسمه فرنسوا الأول. كان جلالته يحمل على الدوام في جيبه قنينة صغيرة من مسحوق اللحم الأدمي يمضغه متأنياً، يقينا منه أنه يدفع

البركان الذي بداخله لمزيد التوهج. وفي أوروبا المتحضرة هذه، وضعت أصول وقواعد لتذوق اللحم البشري. فبعد قتل الأدمي شقفا باسم الانتقام الشرعي الذي يسمونه "عدالة"، تترك الأجساد معلقة على هامات المشانق أطول وقت ممكن حتى يتعفن أعلى الرأس، ثم يحصلون العفن يدفعون فيه باهظ الثمن. عادة تمارسها بكل بساطة إلى اليوم قبائل أدغال الأمازون. هناك يجهزون الميت بوضعه على النار حتى تحيله رمادا يمزجونه بالموز الطري ثم يتقاسمون بينهم المسحوق الثمين.

تقول عادات كفار لكننا نحن...نحن؟!!

عن آدمي اسمه الجاحظ، طيب الله ثراه، بعض الأشعار التي عيرت فيها قبائل بعضها البعض بأكل البشر.

وأنتم أكلتم سحفة بين محدم
تداعوا له من بين خمس وأربع
زمانا فلا يأمنكم أحد بعد
وقد نصل الأظفار وانسبأ الجلد
وقال شاعر آخر:

عدمت نساء بعد رملة فائد
وباتت عروسا ثم أصبح لحمها
بيدو أيضا أنّ أجدادنا كانوا ذواقة وكانوا يعرفون أطيب أجزاء الأدمي:
أبلغ لديك بني كلب وإخوتهم
هذي الخصى فكلوها من نفوسكم
بني فقفس تأتئكم بأمان
جلا في قدور بينكم وجفان
كلنا فلا تجتروا بعدي على أحد
كما أكلتم خصاكم في بني أسد

تقول لكن أجدادنا لم يكونوا يصدد إعداد رسالة دكتوراه وطموحهم الوحيد كان أن يملنوا بطونهم. بصراحة لست متأكدا من تبرير بمثل هذه البساطة. ثمة أكثر من ظروف نرى فيها الأدمي يلتهم الأدمي والحال أن كل أصناف المأكولات متوقرة.

لنلقي بعض الأسئلة المحرجة. هل كان نبلاء "الأزتاك" يبحثون وراء طعم اللحم الأدمي عن طعم الذات نفسها وحتى عن طعم الحياة التي تختزلها؟ هل كان هنود الغابة الأمازونية ينقلون سحريا زخمها من المأكول إلى الأكل وكذلك الملك الفرنسي المتحضر؟

كل هذا ممكن، المهم أن الظاهرة ترجعنا باستمرار إلى إشكالية طبيعة المعرفة. إن هدفها ليس إرضاء فضول غريزي فينا وتوق للتفوق الذهني والأخلاقي كما تدعي الرؤى غير المتقنة وإنما الاطمئنان أن الشيء الذي نبحث فيه، لا يشكل خطرا وقابل للسيطرة عليه بما يخدم مصالحنا.

معنى هذا أن مهمة المعرفة جعل الشيء أداة إضافية لكل ما تتوفر عليه الذات من أدوات لتوسيع قدرتها وإحكام قبضتها على العالم. النقطة القسوى لهذه المعرفة استملاك الشيء أي جعله جزءا لا يتجزأ من الذات. انظر لكل ما ننتج من معطيات وقل لي هل لها هدف آخر غير أن تصبح جزءا من فكرنا، من ممتلكاتنا، من كياننا؟

لهذا يمكن القول إن أكل الأدمي كان ولا يزال في العقل الباطني أكمل الوسائل لمعرفة هذا الذي هو مصدر كل خطر والمعين على كل الأخطار. فبأكله نحن نتخلص جذريا من الخطر

الذي يمثله ومن جهة أخرى نحن نختزل كل زمن البحث في أسرار ذكائه وقدراته ونحن ندمجها كلها داخلنا.

لنتذكر أن أحد مشاهير الفلسفة اليونانية: ديوجان-المسمى بسقراط المجنون-كان لا يفهم استنكار أكل اللحم البشري بل كان يدعو بحماس إلى تذوقه باستمرار ودون أدنى عقدة. ربما فهم أنه لا معرفة حقيقية إلا عندما نكف عن الطواف حول الشيء بذهن انتفت منه المشاعر والأحاسيس إلا عندما ترتطم الحواس بالحواس ... إلا عندما يتداخل الباحث والمبحث فيه.

المشكلة أن هذه المنهجية -التي يمكن تسميتها بما وراء العلمية-ليست في متناول الجميع. من أين لك المادة الأولية وهي لا تباع إلا سراً وأوقات المجاعات فقط؟ أما جارك فلن يعطيك شيئاً من لحمه مهما كان مضافاً لمجرد إشباع فضولك العلمي. لا حلّ أمامك سوى انتظار ثورة يسحل فيها الشعب قائده المفدى ليمنحك، إن أسعفك الحظ بحضور موكب القتل، تذوق لحمه وتناول ما تيسر من كبده.

ثمة إمكانية نشر إعلان على الانترنت كما فعل أحدهم: "أرغب في أكل آدمي، فهل من راغب في أن يؤكل". فجاءه متطوع مدّ عنقه للذبح ليشبع "الباحث" من البحث، ويزداد المبحث فيه معرفة بالوجه الأخر للذبح والالتهام. شخصياً أنصح بتفادي هذه الطريقة وبوليس الانترنت قادر على تعقبك مهما استعرت من أسماء واستعملت من "بروكسي" ناهيك عن صعوبات التخلص من العظام.

خذ العبرة أيضاً من مصير آدمي من بلد اسمه اوكرانيا قتل خمسين امرأة وأكلهن جميعاً وقال قبل أن يضعوا رصاصة في رأسه إنه خطأ من أخطاء الطبيعة والحال أنه كان مجرد فكرة من أفكارها.

ثمة مشكلتان إضافيتان تحدان من استعمال هذه المنهجية. الأولى تتعلق بتبعات العملية على الصحة. من المعروف مثلاً أن بعض الأدميين الذين أرادوا اختصار الوقت وتوفير الموارد بخصوص دراسة الدماغ، لم يجنوا من أكله إلا الإصابة بمرض بشع يسمونه KURU لا تنمنا حتى لألد الأصدقاء.

المشكلة الثانية مرتبطة باستحالة تطبيق مقولة "اعرف نفسك". فمن الصعب أن تعرفها بأكلها إذ بأي أسنان ستمضغ أسنانك؟

لهذه الأسباب النظرية والعملية وتقدياً لمزيد من المشاكل في عالم ليس بخيلاً بها، فإننا ننصح كل الباحثين في الشؤون الأدمية ترك فكرة أكل العينات الدراسية جانبا-ربما إلى أزمان أخرى تتطور فيها العادات والقوانين.

ماذا نسينا من معطيات الحواس؟ أه طبعاً السمع.

بصراحة لا يمكن القول إن ما يصدره الأدميون من أصوات مثل -الصراخ والبكاء والعويل والشخير والضرط والسعال وغرغرة الأمعاء والعطس والتثاؤب والتجشؤ- يرفع من قيمتهم. حتى لا أكون ظالماً لهم أيضاً أصوات تأتي بمتعة لا تضاهيها إلا متعة الأكل بعد

الجوع والارتواء بعد العطش خاصة عندما تخرج من حناجر فنانيين وفنانات يعبرون بالغناء كم نحب وكم نعاني وكم نتألم في هذا العالم. بين هاتين الحالتين ثمة أصواتهم عند الكلام وأهمّ ما فيه النبرة. لماذا هذا التركيز ؟ لأنها وهي نبرة الأم الحنون، العاشق الولهان الشرطي الناهي، العسكري الأمر، المتضرع عند الصلاة، الشيء الوحيد الذي يمكن أن تتق فيه . أما فحوى ما يقولون ففيه الصدق والخداع ، الغثّ والسمين، الصواب والخطأ، المفيد وبالغ الضرر ... ولا شيء يسمح بالفرز ومعرفة من هم حقاً رفاق الرحلة اللهم إلا المعاشرة الطويلة بما فيها من تجربة مباشرة... وحتى هي !

**

أو كيف أنهم أخطر من تلاقي على الطريق

تسألني "ما" عن أحوالي بعد كل هذه السنين من الغربية. أنفجر في وجهها وقد طلعت من أعماقي كل الأوجاع المترسبة فيها:

- يا أسوأ أم على وجه الأرض، من هذا الأحمق الذي جعلك دليل خمسة مرتحلين . سأبعث برسالة احتجاج لسحب الرخصة منك والمطالبة بتعويض سيفلس بنوك الدنا والآخرة ؟ تبهت ربع ابتساماة الأم. تقطّب جبينها. تتردّد كأنها تخشى فتح موضوع والأمر غير مضمون العواقب، ثم تقرّر الثبات.

- قل لي كيف كان عليّ أن أفعل؟

- تسأليني يا جاهلة كيف كان عليك إعادنا لمواجهة الأدميين !

أثبُ أمامها لأمثل الدور فتضع يدها أمام فمها تحجب ربع بسمتها، ويدها الأخرى تمسح دمعة.

- اسمعي وانظري كيف تتصرف الأم الجديرة بهذا اللقب. ها هي تدخل عنبر نوم الأطفال الخمسة في الرابعة صباحا بفتح الباب ركلا بالرجل. يتعالى الصراخ منها حاداً أمراً نافذ الصبر: انهضوا، ماذا تظنون؟ أن الحياة ستنتظركم، أنني سأنتظركم؟ أفرطتم في الدلال وسأعلمكم أننا في هذا العالم اللعين لا ندلل أحدا.

يبدأ الأطفال بالركض في بهو المنزل ساعة كاملة على طريقة مشاة البحرية في أفلام هوليود. يأخذون في الغناء على طريقة الجنود الألمان في الحرب العالمية الأخيرة: "هايلي هايلو هايلي"، نحن للآلم مستعدون، نحن للهموم متأهبون، نحن للأعداء منحقرّون، إننا منهم لمنتقمون.

مباشرة تمارين الجودو والكاراتيه واستخدام السلاح الأبيض والمسدسات الكاتمة للصوت. بعدها تكون الكتيبة العائلية على أهبة الاستعداد للخروج إلى كل أصناف الخصوم والمنافسين والأعداء وهم في كل منعطف من منعطفات الطريق. نعم، هكذا كان عليك أن تربي أطفالك أيتها الأم الفاشلة.

لأول مرة في حياتي وربما في حياتها أرى "ما" تضحك إلى أن يأتيها السعال.

- أما أنا فلا رغبة لي في ضحك وإنما أن أفشّ في أول آدمي يعترضني غيظي ضربا بالحذاء ولم لا برصاصة في صدغ بعض الأوباش.

- كم أخفتني ذلك اليوم عندما وجدتك بين غلب السلاح تبحث في كيفية إدخال الرصاص في مسدس. يا إلهي، لا أصدّق إلى اليوم أنك كنت تريد حقا الخروج به إلى المدرسة! كيف وجدت هذه الأسلحة اللعينة؟ طلبتُ من خالك أن يأخذها إلى القرية وهي منذ تلك الحادثة مدفونة عميقا تحت إحدى شجرات توت البستان.

- ماذا فعل "با" عندما اكتشف خيانتك للمقاومة الباسلة؟

يلمع في عيني "ما" مرح خفيف، ممزوج بقليل من الشماتة، يخالطه رحيق من المكر، تزيد من تعقيد مكنّاته سخرية خفيفة يتخللها صدى إعجاب خفي بالرجل الذي ابتليت به بعلا.

- هل تظن أنه كان يتذكر أنّ بيتنا كان من بين المخابئ التي يخفي فيها أسلحته؟

لحسن الحظ لم يكتشف الطفل تلك الأيام كيف تُستعمل المسدّسات، وإلا كان طريقه أخذ اتجاهًا جدّ مختلف. تصوّر عنوان جريدة الصباح (بالأحمر الغليظ): "طفل في التاسعة يدخل القسم بمسدّس يقتل زميلا ويجرح المعلّم الذي حاول التّدخل. البوليس يكتشف أنه ابن إرهابي مطلوب وأن بيته مخزن سلاح للخارجين على القانون".

لكن ألم يكن من حقّ الطفل امتشاق السلاح لدخول مكانا مثل المدرسة وهي من أخطر الأماكن على كل قادم جديد؟

ابحثُ دوماً وراء الهدف المعلن-عن الهدف الخفي وراء المؤسسات التي يخلقها البشر، ومنها مدرستهم العزيزة التي يحملون بأنّها ستنتج لهم أجيالا أحسن من التي ما زالت عائشة للأسف.

ستكتشف أن أهم مهمة لهذه الأخيرة ليست تعليم الأطفال القراءة والكتابة والحساب. أين تعلّمنا لأول مرة الوقوف في الطابور والانضباط للأوامر وتطبيق التعليمات والتعرّف على سلّم الرتب والمسؤوليات والتدرّب على أبجديات القتال، وكلّ صغير يستبدّ بأصغر منه؟

وسط ساحة المدرسة تبدأ التمارين الأولى استعدادا للحرب الأزلية. يُترك للأطفال أنفسهم مهمّة تدريب كل قادم جديد، على مواجهة العنف الغريزي للجنس البشري -والحمد لله دون سلاح سوى القبضتين-وما على كل صغير إلا تدبّر أمره، ليتعلم باكرا أبجديات الصراع من أجل البقاء.

يواجه الطفل خصمه منتبها لأول مرّة أنه فارغ الطول مفتول العضلات يزيد عليه بعدد من السنين. تأتيه رغبة عارمة في إطلاق ساقيه للريح. يختار بسرعة المواجهة لأن أمر الأب الجبار المزروع داخله أن الاستسلام أمام إنس أو جان ممنوع، ممنوع، ممنوع.

تضيق ضرباته في الهواء لا تصل أبدا الوجه البغيض. ثمّ يندلع الألم فظيما ما بين الفخذين ينذر بضرورة شدّ الانتباه لهذه المنطقة بالذات في كل المعارك التي ستأتي. لا يسقط على الأرض إلا لينهض، لا ينهض إلا ليسقط تحت ضربات قبضتين كأنهما صنعتا من حديد ورخام. يستنجد الطفل بكل ما بقي فيه من واعي وحيوية لينتصب من جديد على قدميه المترنحين ليسقط مرة أخرى، ثم ليعاود الانتصاب وكأنه أصبح آلة تتحكم فيها قوى مجهولة.

هكذا يتعلّم كل طفل بمثل هذه التجربة كم هو رخو في هذا الموضع وصلب في موضع آخر، كم هو شديد الحساسية في هذا الجزء وقليلها في جزء آخر، والقبضة الموجهة للخصم هي التي تدرّسه طوبوغرافيا جسم ما يزال جاهلا بما فيه من إمكانات المتعة والعذاب. هكذا

يعود الطفل إلى البيت من الغد في قمة الهيجان والمرح، يَصِفُ يوماً من أيام العرب ولو بشيء من المبالغة، حتى لا نقول بالكثير منها.

- أَعْمَلْتُ في أولاد الكلب قِبَضَتِي. صمدوا بعض الوقت، ثم فَرّوا يستنجدون بالمعلم. كنتُ كسببنا عليّ في هجومه على الكفّار. على فكرة، السيد المدير يطلبك غدا لأمر بهمك. تدير "ما" ظهرها للطفل لا تخفي غضبها. كيف يفسّر لها أنّه وفى بوعده، أنّه ذهب طالبا السلام، أنّهم سخروا منه شتموه وهو يسألهم عن سبب عداوتهم.

- أرجوك، اسمعيني. يدعون أنّ "با" يأتي للمدير بالهدايا كلّ يوم لذلك أنا أوّلهم. كلهم لهم أب إلا أنا ويقولون إن لي أب يأتي بالحلوى للمعلم ليفضلني عليهم! تفتح "ما" فمها من الدهشة. تغلقه بسرعة لا تنبس ببنت شفة. يستسلم كلّ واحد لطريقته في التعبير عن نفس شعور العجز والاستنكار، الأم بالبكاء الصامت والابن بالغضب والصراخ.

سبحان من جعل أطفال الأدميين ملائكة أطهارا يفقدون براءتهم بتقدّمهم في العمر، والحال أنه لا أشرس ولا أعنف ولا أظلم ولا أشدّ أنانية ورجسية من الأدمي وهو طفل. برّبك، ألم يأت الوقت ليتحمّل أخيرا أحدنا مسؤولية قول الحقيقة بخصوص الأطفال، وأخطرهم الرضّع؟

لا أحمل أيّ واحد منهم - وهم يضعونه بين ذراعيّ عنوة لأقيله مفتعلا الإعجاب بجماله ونباهته المبكرة - إلا على مضض. هلعي الكبير أن يتبول عليّ اللعين أو أن يعتم الفرصة لإصابتي بأحد أمراضه المعدية الكثيرة.

ثمة أسباب أعمق لخوفي من الأطفال عموما ومن الرضّع على وجه الخصوص. بالله عليك، هل وُلِدَ هولوكو، أو تيمورلنك، أو هتلر، أو ستالين، أو بشار الأسد بشوارب وحاء بمهمازين؟ ألم يكن نيرون - ولا أتحدث عن كاليجولا - هو الآخر ملاكا كانت تذب القلوب لرؤيته واستبشّر بقومه أبّ وأم وجدّة وأعمام وأحوال لا يعلمون ما يُعدُّ ملاكهم هذا من فظاعات ما زال التاريخ يتذكّرها مرتجفا من الهول؟

لا يوجد متوحشون على سطح هذه الأرض إلا الأطفال، مما يعني أن التوحش مورّع بالعدل والقسطاس على كل الشعوب، أنه لا أمل في القضاء عليه حيث لا نهاية لتدفق الرضّع مع بالغ الأسف.

أليس جلّ ما نعانیه من بعضنا البعض تواصل الطفولة فينا؟ أليس كلّ طاعيةٍ طفلا رفض أن يكبر محاولا إلى آخر كارثة إملاء إرادته على أمة يريدتها أمة؟

نكبر كلنا في العمر بتعاقب السنين، لكنّ عذاب النضج يتوقّف عند الكثيرين من بيننا ليثبت على تصرفات الطفولة فنبقى نعاني طوال الرحلة من أطفال في الأربعين والخمسين وحتى من أطفال في أرذل العمر.

كيف لا أنفجر ضاحكا ودهشة الحاضرين تزيدني مرحا، وأنا الوحيد الذي يسمع -في أوج معركة كبار أهل الدين والعلم والسياسة- أصواتا حادة تتصاعد من حناجر الكهول والزمان اكتفى بتغيير القشرة لكن النواة لم تتغير.

يفتح لك العالم ساحات المعارك الواحدة تلو الأخرى كأننا لم نأت هذا العالم إلا للصراع مع ذاتنا ومع الذوات الأخرى.

يشنّد صراخ "با" وهو المصيبة إن غاب والمصيبة إن حضر:

- هل رأيتم بريق عيني؟ يتحدّاني أنا! يتحدّاني أنا! غصّ الطرف يا ابن الكلب. غصّ الطرف واطلب العفو. لا تريد أن تكي. لقد كسرث شوكة من هم أصلب منك عودا ألف مرّة. أنا سيّدك -يا كلب- وستعلم أنه لا خيار لك غير الطاعة.

هل من باب الصدفة أن يسألني الأهل عن أحوال "سيّدك" لأن لهجة القرية تسمي الأب "سيّدا"؟

تشنّد سرعة الذراع الممسكة بالعصا وهي بين طلوع ونزول. تصرخ الأم وكأنها هي التي تتهاطل عليها الضربات.

- رحماك، رحماك، ستقتله.

- سأقتله وأنتِ معه. كل هذا بسببك، بسبب النساء، للجنة على كل أنثى!

يواصل المراهق الراضخ الخضوع لمتسلط -أبا، حاكما، أو إلهاء- التحديق في الوجه الغاضب المحمل بالأم السنين والعصا تكوي من جديد روحه والجسد.

تحت وابل الضرب بيتسم لبيت شهير غير منه كلمة واحدة:

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر أما للعصا نهّي عليك ولا أمر.

يجنّ جنون "با".

- تبتسم، تواصل الاستهزاء بي، سأكسر شوكتك مهما تنطّعت يا متمرّد.

يخطر للمراهق أنّه أن الأوان للإمساك بهذه الذراع ولئها ونزع العصا منها وتهشيمها على جسد هذا الظالم الذي يخلط مثل أشباهه بين العنف والقوة. هو قادر الآن على وقف الاعتداء عليه وتحمل تبعات كسر ذراع من يبغض أشدّ البغض، لكن من أين له تحمل تبعات كسر ذراع من يحبّ أشدّ الحبّ؟ إنه فصل من فصول علاقة صعبة تربط من الأزل بين الأب والابن، لا تضاهيها في الصعوبة -وإن بأشكال مختلفة- إلا علاقة الأم بالبنات، الأخ بأخيه، الزوج بزوجته، الحاكم بالمحكوم، وحتى العبد بخالقه.

كيف لا يحبّ الابن والده وهو الذي فتح أمامه الطريق؟ كيف لا يكرهه وهو الذي

يسدّه أمامه؟ كيف لا يحبّ الأب ابنه وهو الذي سيواصل به الطريق عندما تختطفه يد

المنية؟ كيف لا يكرهه والمولود لا الوالد هو الذي تواصل الحياة فتح الطريق أمامه؟

يصرخ الرجل في أوج الغضب لاهثا ماسحا عرقه متوجها إلى مُناصر مجهول:

- قتلني بتحدّيه الدائم. قلبي، قلبي، عجلوا بالطبيب!

يرمي الرجل بعصاه على الأرض ويجسده المرهق على الأريكة منتظرا أن تأتيه "ما" بكأس ماء، أن تمسح عرقه وأن تقول له ما يريد أن يسمع، مثل أنه دوماً على حق وأنه أكبر من أن يعياً بشطحات مراهق.

قد يكون الصراع الطويل بين كل أب وكل ابن مجرد اختبار القدرة على رفع التحدي؛ فالذات لا تتشكل إلا باعتراف تفتكه من أب أو غير أب، افتكك اليد العارية للقامة من فم السبع. وحدها الذات الأخرى قادرة على أن تبني ذاتك بالاعتراف، وهي وحدها القادرة على تدميرها برفضه. لا يواسينا عن مثل هذه التبعية إلا امتلاكنا لنفس السلطة وتحملنا لنفس المسؤولية. اللهم اجعلني دوماً من بناء الذوات لا من مدمريها.

وفي آخر ملف عن صراع الإرادتين، يواجه الشاب نظرة أبيه لا يرفق له جفن، نافخاً ببطء مدروس في غليونه الجديد، وحركاته تنضح بما مفاده أنه سيد نفسه، أنه وحده من يقرر علامات الاحترام التي تجب.

يعود الصراع بنفس الحدة وكان الزمن لم يتحرك قيد أنملة.

- تدخن أمامي؟ خسنت يا كلب. ما زلت السيد الذي تنكس في حضرته العيون.

يتسمر البصر على البصر. تنضح للابن المروع فجأة الحالة الحقيقية لرجل وضع رحله على قارعة الطريق بعد أن أرهقه الجري في كل اتجاه، لرجل مقهور من تجدد منعه من دخول صحرائه الغالية، والمانع شرطي محلي ورث عن الغازي الأجنبي نقاط التفيتش، لرجل محبب هزمته الدنيا وأشبعته سخرية من محاولته تفصيلها على ذوقه، لرجل يعتقد هو الآخر أنه فشل في حياته.

فجأة يلمع الاستغراب في عيني الأب كأنه ذهل لسؤال لم يطرحه على نفسه من قبل: من هذا الذي أحسبه طفلي؟

تبقى العصا معلقة في الفراغ لحظة. يضعها الرجل الشرقي القديم على الطاولة بكثير من الرفق كمن يُعيد إلى غمده سيفاً لم يعد له نفع. ثم يحدق في ابنه لم يتقطن أنه أصبح شاباً وفي عيني شيء من البغض وشيء من الحب، شيء من التفهم وشيء من الإنكار، شيء من الاستفزاز وشيء من المهادنة، شيء من الاستخفاف وشيء من الإعجاب، شيء من الاهتمام وشيء من اللامبالاة، فضلالة عابرة من الكآبة ثم تجدد المرح.

ينفجر "با" ضاحكاً: الله درك إنك رجل. والآن اخرج من بيتي حفظك الله، لا يتعاش أسدان في قفص واحد.

*

المشكلة الكبرى أن هذا الذي ستخرج اليه والذي يسمونه المجتمع ليس إلا أكبر قفص تتصارع داخله سباع شرسة مشدودة لبعضها البعض بسلسلة غير منظورة من الكره والاكراهات.

تغلق المدينة أبوابها في وجهي مجدداً كأنني لم أسكنها يوماً ولم يكن لي فيها صاحب.

يشيح بوجهه من يعترضني في شوارعها متحرّجا. يخترقني البعض بالبصر كأنني جزء من الفراغ. ترى أحدهم يُسارع إلى تغيير الرصيف، أو كأنه فوجئ أنّ غبارا شوّه لمعان حدائه. يفعل من كنت ولي نعمته وهو يمرّ أمامي أنه لم يرني وأنا أول من رأى مصدوما ومتضايقا.

إنهم النوع الأكثر انتشارا من الأدميين، النوع الذي يسميه النص الذي منه كل وحشة. خاصية هذا الكائن أنك بالكاد موجود بالنسبة إليه. هو لا يشعر تجاهك إلا باللامبالاة والتجاهل مع نكهة من الازدراء وظلال خوف مبهم، كيف لا والأدمي من قديم الزمان أكبر خطر على الأدمي الآخر.

حرّان آخر يخرج عليك منه بصفة مسترسلة أخطر وألعب أنواع البشر. ذات صباح وأنا مستغرق في افكاري ماشيا في الطريق تصرخ في ظهري سافلة: أيها السافل، ألا تخجل في عمرك من معاكسة شريفة مثلي. يتجمّع خلفي بسرعة فائقة حشد من الغوغاء بصرخون فيّ أنني من تجمعت فيه كباثر المويقات. أصبح الشارع كأنه لا نهاية له والأباش ورائي ورّعوا الاستفزاز في نظام محكم. فهذا مكلف بالكلمات النابية، وذلك بالتهكم والآخر بتذكيري أنني لم أكن هذا الوطن ولم أبع ذمتي إلا لأنني خان ابن خائن. تتسارع وتيرة الشنائم. تفتح فتاة فما بأسنان عليها أسلاك حديدية. تتقيأ منه رذاذا من البصاق ومختارات من الكلمات تتعلّق بشرف أمي. يفتح المارة أفواههم دهشة ثم يطأطئون الرؤوس وهم ينتهبون إلى أن المظاهرة الشعبية الغاضبة العفوية التي تمشي وراء الخائن ابن الخائن، محروسة ببوليس الطاغية.

في مستوى حديقة الحيوانات تقف على حشود الذي منه كل نقمة قطع الطريق عليّ وتوجيهي إلى بابها حتى أوضع في المكان الوحيد الذي يليق بكان مثلي: قفص القردة. تختفي وجوه المعتدين وقد أصبح البصاق ستارا أبيض لزجا يسيل على النظارات نازلا على الجبين والوجنتين نحو شفتين مغلقتين باشمزاز. تندفع الأيدي بحثا عن نصيبها من جسد استحلّ حرمة إجرام الدولة. يحاول أحدهم وضع إصبعه في مؤخرتي -وفي عرفهم أن هذا أقصى الإذلال- صارخا: من تحارب، يا عميل، سيّدك وسيّد الخائن والدك.

كيف أحمي نفسي من عاصفة فقد داهمتني على غير انتظار؟ الهرب؟ لكن إلى أين؟ العون؟ ممّن؟ أجيل البصر حولي باحثا عن هبة من "الشعب" الذي ندّعي كلّنا أننا على استعداد للموت من أجله لفرط علو الأخلاق والهمة فيه. يطأطي المارة رؤوسهم ويُسرعون الخطى.

فجأة انفجر ضاحكا وأنا أكتشف البوليس يصوّر الحادثة لسهرة ممتعة سيضحك فيها عليّ الفجار ويتشمّتون.

(البياتي)

من أين يأتي النور؟

ونحن في كل العصور حجر الطاحون

نستبدل الأغلال بالأغلال في الطابور

بيينا الطغاة للطغاة والملوك للملوك

في ملت آخر ونفس الغوغاء المأجورة تهاجم سيارة تحملني مع بعض الأحرار أصرخ في السائق: لن يرهبونا؛ فلنذهب إلى الاعتصام أمام السجن، ليعلم السجين الذي جئنا من أجله أننا لن نخذله أبداً.

يهاجمنا نفس الشياطين أمام المبنى الكريه. تصبح السيارة وسط المدينة المحكومة بارهاب دولة صادرتها العصابات، مثل زورق تتقاذفه الأمواج.

يصرخ أحدهم فيمن يبدو قائد العصابة: يا نبيل كفى.

فجأة تكف الرياح عن الصفير وتتفرق الأمواج لحظة الغرق. آه، لم تكن هناك أوامر بالقتل هذه المرة. مجرد إنذار آخر وربما الأخير.

نبيل؟ النبل في مثل هذا الكائن كرائحة الياسمين تتضوع بها جثة كلب مرمية على قارعة الطريق منذ أيام.

لم يبق لي من مكان يحميني على الأقل من شرّ الغوغاء المدفوعة الأجر غير بيت فارغ ومطوق بأعوان البوليس السري.

الوحدة والبرد.

ومن ثوابت قصص الأدمي أنه دوماً في وضع أحسن مما يتصور وفي وضع أسوأ مما يعتقد، حيث لا علم له بالمصائب التي أفلت منها، مثلما لا وعي له بالتّي تترقبه.

ذات يوم تُمسك بي من الخلف أيّد عصبية وتدفعني أخرى بغلظة نحو سيارة رابضة تنتظر حمولة اليوم. أخيراً أمسكني هؤلاء الذين جاؤوا لاختطافي طفلاً. كم أظهروا من طول النفس طوال هذه السنين والعقود. نفس لا يضاهيه إلا طول نفسي في مواصلة الصراع ضدهم. لكن أين "ما" هذه المرة لتحميني وهل ما زال في هذا العالم العابس المقطبّ الجبين من حاتم؟

ياخذوني إلى مركز إيقاف مرعب الصيت.

كل الفضاء الآن زلزلة تنتنة، والأفق على بُعد ثلاثة أمتار على أحسن تقدير.

أنت لا تجرب الوجود بكل حلوه ومرّه إلا من خلال العلاقات التي تربطك بالأميين، التي تربطهم بك، التي تربطهم ببعضهم البعض... وهذه العلاقات دوماً شبكة بالغة التعقيد ومن التفاعلات والافعال متواصلة التحرك على طيف واسع من الحالات طرفه الأقصى أنت من يعطي الأوامر والطرف النقيض أنت من يخضع لها لا حول لك ولا قوة. في هذا المكان أنت على أقصى طيف الخضوع لقوى قادرة على جعلك هباء منثوراً أي لحظة.

لا شيء تفعله سوى المشي طولاً وعرضاً كل ساعات اليوم؛ لا رفاق لك سوى بقايا أشباح ما زالت تصرخ بالرعب والألم. ذلك لأن لكلّ زلزلة ذاكرةً ملفّاتها جدران ملطّخة بالبراز والدم. أحاول استحضار الوجوه وتحيل قصة هذا الذي أمضى اثنتين وثلاثين عصية وهذا السعيد الذي لم يترك إلا أربعة عصيات، وذلك الذي كتب تحت عشرة خدوش: الصبر يا

ربي.

نعم يجب أن اصبر عقدين من الزمن لكي يعاد خلط كل الأوراق.
في مشهد ما زال بعيدا في غياهب المستقبل، يهمس في السيد مدير السجن بصوت معسول فيه قلق لا يخفيه من هذه الزيارة المفاجئة: من هنا سيدي، حذار من دخول الزنانات ففيها بعض المجانين الخطرين. يتدافع السجناء إلى القضبان وقد سرى الخبر سريان النار في الهشيم. تتعالى الصرخات تصم الأذان: الرحمة! العفو! كلنا أبناؤك! سيدي الرئيس أرجوك. انظر إلى هنا! ها أنا نظر لنفسي أولا وقد انشطرت إلى ذاتين، ذات شبح سجين جالس على الاسمنت البارد الرأس مدفونا بين الركبتين يحاول استحضار صورة تفاحة وذات شبح أت من مستقبل ما زال بعيدا يراقبه بسخرية ممزوجة ببعض العطف ونكهة من الشماتة يهمس فيه: تريد إصلاح مثل هذه الكائنات! حقا يا لك من غبي.

فجأة ترتفع من الزنانة المجاورة صرخة سنلاحقني سنوات، في النوم وفي اليقظة، بين يدي الحلاق وبين ذراعي الحبيبة، في اللهو وفي الجد، تُذكرُ بأعمق وأرهب ما تعلمتُ عن الطبيعة المخفية لأدمي يلاقيك في الطريق مُسلما، تَضُمُّه لصدرك لا تدري ما الغول الذي تُقيل.

يصل الصراخ أعلى طبقة، لا يتوقف لحظة إلا ليعود عويلا ثم صغيرا ثم حشرة. تنطلق قهقهة عاهرة وأوامر صارمة بالصمت وأخرى بالاعتراف بكل شيء.
كيف يمكن أن يكون للذي منه كل نقمة حبيبة أو طفل؟ بل كيف يمكن أن يكون له أم أصلا؟ كيف وصل إلى عالمنا إذن، والحال أنه لا يمكن ولا يجوز أن يخرج من رحم أنثى؟ هل هو كائنٌ جاء من عوالم أخرى لتدمير الأدميين بعرس كل هذا العنف والحقد فيهم؟ هل هو شيطان طُرد حتى من جهنم؟ فرضية رهيبية وأفظع منها أنه أدمي، بل وله أم.
لا يُعرف عن أي كائن حي أنه يمارس التعذيب باستثناء الأدمي كما لا يُعرف تفننه في طرق القتل. عند الحيوان هو عملية سريعة تتكرر بنفس التقنية، خالية من أي حقد أو نية انتقام، لا هدف لها غير مواصلة القاتل حياته ولو بثمن حياة المقتول.
أما الأدمي فقد اخترع بتر أصابع الأدمي الآخر إصبعاً بعد إصبع واعتصاب أمه أو زوجته أو ابنته أمام عينيه ووضع خازوق في دبره وكَي القميص الذي يلبسه وتجاهل صراخه وأنيبه وبكاءه ثم والاجهاز عليه بالذبح والحرق والخنق والشنق والصلب والدفن حياً وحتى نبش القبور للتمثيل بالجثث.

كم صدق شكسبير في قوله " الجحيم فارغ، كل الشياطين هنا "

أي طرق جديدة ستخترع الأجيال المقبلة من الشياطين لإلحاق أقصى الأذى، أقصى الإهانة، أقصى الألم؛ اللعنة! ما الذي يجعل من الأدميين مثل هذا الكائنات البشعة الذي لن تجد لها نظيرا في القسوة والنذالة؟ بل كيف سُمح لكائنات كهذه بالوجود أصلا؟
من أين للمرتحلين داخل فضاء رمزي مركزه أنهم نتاج تجربة قوة اسمها الطبيعة، انكار أننا أمام أكبر غلطة ارتكبتها هذه القوة؟

أما بخصوص المرتحلين داخل فضاء رمزي مركزه أنهم مخلوقات لخالق اسمه الله فالخيار الوحيد أمامهم بين فرضيتين. الأولى أن الله لما ارتكب خلقهم كان في حالة متقدّمة من السكر. الثانية أن كاننا يمثل كماله لا يمكن أن يخلق مخلوقات ببشاعة الأدميين. إذا كان فعلا بريئا من هذه التهمة المشينة التي يلحقونها به منذ غابر العصور فهل الخالق الحقيقي هذا الشيطان الذي تسميه اساطيرهم ابليس؟

لم يضعوني في هذه الزنانة صدفه. اختار صاحب السلطة الواسعة الطريقة الوحيدة التي يعرف أنها قادرة على دكّ حصوني.

لا ينفع أن أجلس في أبعد ركن من الباب وأن أضع رأسي بين ركبتي وأصابعي داخل أذني، فالجنون يزحف على الروح كالظلام على آخر بقع نور باهت. أيّ كائنات رهيبة هذه التي نُفيت في عالمها! هي وحدها التي اخترعت التعذيب جعلته أداة سُلطتها في الدنيا وحتى في الآخرة. على كل حال أليس هذا التعذيب الممارس في هذه الأماكن المرعبة الشكل المكثّف للعذاب الذي نعيشه في اشكال مخففة تلاحقنا طوال رحلتنا؟

فنون رداك يا دنيا لعمري فوق ما نصيفُ (أبو العتاهية)

فأنتِ الدار فيك الظلم والعدوان والسرف

وأنتِ الدار فيك البيغي والبيغضاء والشنف

وأنتِ الدار فيك الهَمَّ والأحزان والأسف

وأنتِ الدار فيك الغدْرُ والتنغيص والكلف

وفيك الحبل مضطرب وفيك الببال منكسف

وفيك لساكنيك الحين والآفات والتلف

اللعنة، ربما ينتظرون أن أنهار مجهشا بالبكاء طالبا الكفّ عن تعذيب الرجل، ولهم مني كل ما يريدون. سأواصل المقاومة بسلاح ليس لهم ضدّه أي سلاح.

ألا يُصدر الأدمي مثل هذه الصرخات وهو في ذروة ممارسة الجنس؟ الرجل الآن بين ذراعي امرأته يصرخ بمتعة الجماع. يجب تنبيهه بلطف. حذار، ستوقظ الأطفال. فيتساءل الصغار ويوشوش في آذانهم الكبار بما يجري وراء الباب الموصد.

لا، لا، تبالغ حقاً، يا رجل ستقتل المسكينة، عيب، بدأ الصغار يضحكون ويرقصون فوق الفراش. ماذا تقول؟ إنني غائر من فحولتك، أحدثك عن صحتك وتحذثني عن الفحولة، ثم هذا جهد لا يتحملة القلب. يا رجل، من يحدثك طبيب كيف لا تسمع نصيحته بالتوقف؟

يسمع الرجل النصيحة أخيراً. تعب الأذنان من روعة صمت مفاجئ كما تعب الرنتان من الهواء عند نهاية أزمة الربو. قد يكون أطلق آخر غرغرة. قد يكون بصدد مسح دمانه والتفكير في الأعداء التي سيتقدمون بها لتبرير زلة اليد وسوء التقدير. لكن الذات التي انشطرت إلى قسمين ترفض متابعة الرجل يُلفت في خرق قدر ثم يوضع في صندوق محكم الإغلاق مبرمج للدفن خفية فجر يوم لنيم، لتراه مرتخيا يتصبب عرقا تعلقو محيا ابتسامة

الزهو والنصر. تتحول اليدان من الصدغين إلى عينين فاضتا بالدموع، والرأس مدفون عميقاً بين الركبتين.

" هذا عالم لا منفذ فيه (هايكو لمجهول)

لا مهرب لأحد

لا حدود له لكن كم هو ضيق "

يرفع الحالم ذراعه بالحجارة تنطلق لعنان السماء تريد شجّ رأس من ارتكب هذا العالم ووضع فيه هذا النوع من الكائنات فترفرف لحظة لتنقضّ عليه كالعقاب، عقاباً على الإمعان في تمرّد عقيم تحالف لإخماده سادة السماء والأرض.

عند الاستيقاظ، أتوجّه بأول لعنة إلى عالم أفاق معي متربصاً بي وبغيري: ما زلت موجوداً! كأن لا أحد رضي بأن يريحني منك ولو بما دفعته فيك.

ذلك أنني أضع اللعين كلّ ليلة في المزاد العلني متوجهاً إلى مُشترٍ سادج قد يسهّل التغيرير به: خذه بفلس وهذا ثمني الأخير. على ما يبدو، المشتري ليس غراً وهو الأمر الذي يتطلب التقليل من مطامحي. أتوجه إليه مجدداً كل صباح متثائب ولا أملٍ جدّيّاً لي في عقد الصفقة الكبرى: خذه بنصف فلس. لن أنزل تحت الثمن. عالمٌ كاملٌ الأوصاف وأنت تماطل في نصف فلس! خذه مجاناً، المهم أن يغرب عن وجهي وأنت معه.

أي معلقة سأضع على باب هذا العالم وأنا أصفقه ورائي يوم يخلّصني منه الموت أخيراً؟ حذار، حذار، عالم غير قابل للفهم أو للترويض... حذار، حذار، عالم قاس، فظ، لنيم، بخيل، خادع، مرهق، محيط... حذار، حذار، عالم يضع أمامك على طول الطريق العقبة فالحفرة فالحائط الشاهق، إلى لحظة السقوط فيما ينصب كل من أفخاخ... حذار، حذار، عالم قدرك فيه جوّع لا يُشبع، ظمأ لا يطفأ، حبّ لا يدوم، مشاريع لا تكتمل، آمال لا تتحقق، والرياح فيه تجري دوماً بما لا تشتهي السفن... حذار، حذار، عالم لا يعبأ بك، لا يهتم من أمرك شيء، سيان عنده أن تكون أو لا تكون... حذار، حذار، كلّ معاركه بلا نصر وكل منتصرٍ فيه بالصدفة أو في غفلة من الزمان، هو في آخر المطاف مهزوم... حذار، حذار، عالم تأتته خاوي الوفاض، ترحل عنه بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها، مُضيعاً ما كسبت رغم ما دفعت فيه من باهظ الثمن... إنه عالم أحسن موقف تجاهه فعل الرسام تولوز لوتارك وهو يخلع سرّوالة أمام البحر يتعقّب ولسان حاله يقول: هذا كل ما تستأهل يا عالم، خرائي عليك.

*

يُفتح أخيراً باب السجن الصغير لأجد نفسي مجدداً وسط أوسع سجن وحلبة الصراع الكبرى ما يسمونه الوطن.

من أين لي التركيز على العدو وأنا أرقص رقصة الديك المذبوح، والذابحون رفاقي الذين يدعون محاربة من أحارب.

كم صدق القائل: اللهم أعني على أصدقائي، أما أعدائي فأنا بهم كفيل.

القاعدة أن الصديق الحقيقي هو آخر من يصدّق ما يُروّج عنك من إشاعات وأوّل من يغفرها لك إن صدّقت. في هذه الساحة اللعينة التي يسمونها السياسة، الصديق هو أوّل من يُصدّق عنك الأراجيف وآخر من يغفر لك أنها كاذبة. هذا ما يجعل بحثك عن الخلّ الرفيق في ساحتها كبحثك عن أم لأطفالك في ماخور.

صدق من قال إن كنت من الباحثين عن الوفاء ربّي لك كلبا .

تخور قواي من شدة الطعن فأسقط جاثيا على ركبتيّ. تمرّ صفوف أصحابي فوق رأسي تدوسني بأحذيتها الغليظة. أبصر قائد العدو جاثيا على ركبتيه، لا أعرف هل أخطرُ جرح الذي أصابني به الصديق أم العدو. يهمس فيّ:

- أتعتقد معي حلفا ضد أصحابي وأعيّتك بالمقابل على أصحابك؟

أهزّ رأسي بالنفي لأنني من المدرسة التي لا يخون فيها الصديق صديقَه، حتى ولو خان هذا الأخير.

يصرخ فيّ أحدهم قبل أن تدوسه أقدام جنوده البواسل وضباطه المخلصين:

- يا مغفّل، القانون الأول في السياسة: ليس لك في هذا الميدان إلا صديق اللحظة وعدو اللحظة وحليف اللحظة مع إمكانية تبادل الأدوار أي لحظة.

صحيح، لذلك ما تحتاجه الحلبة السياسية ليس محاربا ساذجا يعتقد أنه مسنود الظهر بحليف وليس أمامه إلا من يبارزه، إنما راقص باليه صيني في معركة سينمائية يدور على نفسه برشاقة لا تضاهيها إلا براعته في تصويب قدمه نحو حجرة العدو في الوقت الذي يسدّد فيه ضربة قاضية يساعده لحجرة الصديق يردي الأول قتيلا ويترك الثاني جثة هامدة. ها أنت تتضرع لله: اللهم خذهم عندك أصدقاء واعداء ووزعهم كما تشاء على جنّتك وجهنّمك.

المشكلة ماذا ستفعل أن أنت تخلصت من كل الأعداء والأصدقاء والسياسة كأخطر أنواع العلاقات الاجتماعية لا تكون إلا بهم. يتحول الدعاء: اللهم كثر أعدادهم لكن رجاء ارفع مستواهم. أي لذّة في لعبة لا يلاعبك فيها إلا من ليس له قيمة وليس له قيم!

ثمة لحسن الحظّ من بين اللاعبين الذين لهم قيم وأولها الشرف. هؤلاء للتعهّد لأن الصراع معهم مُتعة والصلح مُتعة أكبر.

للأسف أغلب اللاعبين لا شرف لهم وهؤلاء للتجاهل لأن الصراع معهم حَوْض في الوحل وصلحهم من نكد الدهر.

نفس الشيء بخصوص الأصدقاء: الذين لهم شرف وهؤلاء للتعهّد لأن صداقتهم نعمة النعم والذين لا شرف لهم وهؤلاء للتفادي لأن صداقتهم وصمة عار والأفضل أن تجعل منهم أعداء.

وفي كل الحالات لن تصل قمة تظن نفسك في مأمن من الأعداء الأصدقاء والأصدقاء الأعداء إلا وأنعس أنواعهم يتنفّس في ظهرك والسكين بين الأسنان.

إنه الذي منه كل نقمة عندما يضع على وجهه قناع المنافس.

هذا الأدمي وراءك على طول الطريق، كل ما يتغير منه الشكل وهو دوما نفس الكائن
المقتنع أنك حجرت عثرة في طريقه والمصمم على ازاحتك كلف ذلك ما كلف.
"ومن يُدق الدنيا فإني طعمتها
وسيق إلينا غنبيها وعذابها (الإمام الشافعي)
وما هي إلا حيفة مستحيلة
عليها كلاب همهن اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سلما لأهلها
وإن تجتنبها نازعتك كلابها"
لا فرار من الذي منه كل نقمة ولو تحصنت داخل قصر السلطة مطوق بحراس مدججين
بالسلاح.

يهمس في الطبيب العسكري عند دخول عنبر الجرحى.

- كان كمين البارحة لجنودنا مكلفا ...

أرفع يدي أطلب الصمت. نعم كان كميننا مكلفا للمساكين المصابين لكن كم سيكون مكلفا
أيضا لي ولكل من يريد الذي منه كل نقمة رأسهم لأنهم تجاسروا على سلطانه وعلى
سرقاته.

قدر المصلح - أكان نبيا يريد اصلاح البشرية جمعاء او ابسط شخص يسعى
للتغيير في أي ميدان- الارتطام بمنتهجين يخدم الوضع الظالم مصالحهم ولو على حساب
أغلبية الناس... الأكثر رجعا ارتطامه بضحايا هذا الوضع والجبن والتسليم يجعلهم يقبلون
اليد التي تصفعهم ويعضون اليد التي تريد كسر أغلالهم... هكذا ان صرخ انه وضع قبيح
خطر على الجميع يجب الخروج منه وعليه نكل به الظالم وتنگر له المظلوم... المشكلة
أن تضحيات كل المصلحين، ون كانت لا تذهب دوما سدى، فإنها لا تغير شيئا جوهريا
والوضع يعيد نفسه بألف شكل وشكل كأنّ هناك قوة قاهرة تمنع وجود مجتمع لا ظلم فيه
ولا خلل، ربما لأننا بحاجة للظلم وكل مخرجاته البشعة لكي تتواصل القصص المثيرة التي
نشغل بها وقتنا ومنها قصص نضال المصلحين وتضحياتهم المثيرة للإعجاب عند
أنصارهم وكثيرا من الشفقة الساخرة عندي.

على فراش الآلام ثلاثة جنود مبرمجين لأشهر طويلة من العذاب. بعد ذلك سيتلقفهم مصير
لا يريد أحد تصوّره أو التفكير فيه.

- ما درجة خطورة وضع هذا الذي بُنرت ساقه؟

- لا خوف على حياته سيدي، المشكلة الجندي الذي في الوسط قد نضطرّ إلى بتر الساقين،
الثالث يعاني من شظايا في عينيه قد لا ننجح في انقاذ بصره.

بشّر بزروع الزيتون وبشر يزروع الألغام! هكذا هم البشر.

الغريب أن نمشي في شارع تجاري لا ترتعد منا الفرائص بل وأن ينام الزوج مع امرأته
والمرأة مع بعلمها وليس مخدة الذكر مسدس كاتم للصوت وخنجر مسموم تحت مخدة
الأنثى تحسبا لكل الاحتمالات.

مبالغة! كل الجلادين خرجوا من بين جحافل هؤلاء الناس العاديين الذين تلاقهم في كل
مكان ولا واحد منهم كان متميزا عنهم بشيء.

عميقا داخل الذات، داخل كل ذات، في ركن مُنزَوٍ من دهاليزها، تترصد كل الاستعدادات القادرة على جعل الأدمي أكبر مجرم قادر على أن يزرع على طريق الأدمي لغما من المتفجرات كأنه لا يوجد في طريقنا ما يكفي من الألغام. يا لهذه القافلة التي ترحل وسطها تتوهم الأمان وأخطر من يتصدك على الطريق قد يكون الذي يمشي خلفك أو الذي يمشي جنبك يروي لك ذكريات طفولته!

القاعدة أن قدرة الإيذاء عند الذي منه كل نقمة مرتبطة أوثق الارتباط بمدى ما يملك من سلطة وفي أي موضع من سلمها يجد نفسه سواء بصفة عابرة أو مزمنة... في أسفل درجات السلم هو مجرد منغص لحياة من حوله... في أعلاها هو لعنة على الملايين يحتل أراضيهم بالقوة، يسرق خيراتهم، يرمي بهم في أتون حروب دمر بلدانا بأكملها ضاربا بعرض الحائط كل القيم والقوانين التي كدسها البشر على مر العصور لحماية بعضهم من بعض ما لا مناص منه أن الذي منه كل نقمة من يصاحبك على طول الطريق الصق بك من ذلك. في شكله الجماعي هو الغازي الأجنبي ومستغل عرق الملايين والمستبدّ بشعب بأكمله. هو في شكله الفردي الأدمي الذي يحسدك على النور، على الهواء على دفء الشمس، على خريف الماء على دويّ الرعد، على نزول المطر. كأنه لم يخلق إلا ليكون مغلقا كل الأبواب، واضعا كلّ العراقيل، معسّرا كلّ يسير، منغصا للوجود. الوجه البشع للعالم. اللهم امنع عنه النوم واحرمه من الموت.

*

بأنيك من تواصل المواجهة مع الذي منه كل نقمة وتجدها بعد كل صلح قصير، ملل مصحوب بشيء يشبه الغثيان. لا فائدة أن تصرخ فيه: كفى، أريد سلاما دائما ولو بشروطك. هيهات. هو كنتاك النباتات المضرة التي لا ينفع فيها اقتلاع أو سموم أو حرق. لا جدوى من قتل شكله الأول، ولا الواحد بعد الألف، أو التصالح مع كل الأصناف التي يتخذها فنحن دوما مطوّقون بأشكاله لا إفلات من قبضته ولو أصبحت من القديسين، خاصة إذا أصبحت أكبرهم.

لا جدوى للغضب والضعينة. لنحاول كما يفعل الأدميون دوما تبرير ما لا تبرير له واضفاء المنطق على ما ليس له منطق. ماذا لو كانت للقوى المبهمة التي رمتنا في هذا العالم أسبابها لفرض وجود الذي منه كل نقمة، منها أنه ضروري لنبقى منتبهين، أن غيابه كان سيجعل قصصنا بانخة وبلا طعم، أنه هو الذي يوّد فينا أحدّ المشاعر والأحاسيس التي تجعل حياتنا تتوهج نارا ونورا ونحن نقاوم وننتصر.

لا، لا، ليس بهذا الثمن!

ما الحل؟ تنظيم مظاهرة عارمة وتهديد القوى المبهمة التي قد تكون برمجت هذا العالم كلعبة فيديو وجعلت من الشرير الأعظم البطل الأول في سيناريوهاتنا الخبيثة.

تقول ساخرا بماذا ستهدد أنت المسكين هؤلاء المبرمجين القادرين على خلق العوالم؟ بما يخطر على بالك، المهم أن نهددهم بشيء ما علنا نثير فيهم مخاوف ما ولو لحظة عابرة.

الدليل على موافقة الجميع حضورُ مظاهرتي كل بشر الحاضر بل وكل أشباح الماضي وحتى الذين لم يولدوا بعد. أرفع عقيرتي بالصراخ في البوق وقد تجمعت الحشود خلفي: لا، لا للذي منه كل نقمة، فتردد البشرية ورائي بحقد عارم وجذل الشر: لا، لا. لا. بدايةً موفقةً لأكبر مظاهرة في التاريخ سنُذخر القوى المجهولة التي تتحكم في كل هذا السيرك بضرورة الإسراع في الكفت عن تجاهل صلواتنا وأخذ نذورنا وأضحيتنا مقابل لا شيء.

ماذا يحصل هنا؟ ثمة شيء غير طبيعي في صراخ الجماهير، فالحماس فاتر والهتاف متقطع وأصواتٌ نشارٌ تتعالى داخل المظاهرة: لا للعلمانيين الملحدون هم أشكال الذي منه كل نقمة، تقابلها هتافات معادية: لا، لا للظالمين الرجعيين هم كلهم أبناء زنا ومخلفات الذي منه كل نقمة!

ها قد تفككت الصفوف وأخذ المتظاهرون بخناق بعضهم البعض، وكل واحد يريد أن يسبق مطالبه ويصقّي حساباته مع مَنْ يدّعي أنهم من المندسين. كيف يمكن إنقاذ فكرتي العظيمة وإسكات هذا الغبي الآخر وهو يصرخ: خطفوا طاقم أسناني وأنا أهنف. لأتوجه إلى الحشود مخاطبًا العقل والضمير وحسن المصلحة العامة: يا جماعة لا بدّ من وحدة صمّاء ورضّ الصفوف.

تتعالى بعض أصوات الاستحسان فالسبّ والصفير بأسرع مما كنت أتوقّع. يصلني صوت المكلف بتسميم حياة كل طامح للقيادة: مَنْ قرّر الدعوة إلى المظاهرة دون استشارتي ولماذا لم أشاور في صياغة البيان الختامي؟

ماذا لو صُحّت: انتحاري على اليمين وسيارة مفخخة على الشمال. آه يسكون بخناقني يريدون التثبيت من حزامي!

أنا الآن كالأسد الجريح يلحق جراحه خارج ساحة المعركة، ينظر بشماتة للذئاب وبني أوى تتصارع بينها، ولقطيع الخرفان يرعى حشيشه.

أوف! ليأكلوا بعضهم بعضاً. إن كان لهذه الكائنات عُذر واحد للوجود فهو كمية الشحم واللحم التي سيوفرونها للدود ناهيك عن كل ما تبرزوا طوال رحلتهم من الخرا سmada للأعشاب والنبات.

آه، وبخصوص عُذر وجودي؟

كمية المواد المذكورة أعلاه، كل الأمل أن تكون من الصنف الذي لم يسمّ زهرة ولن يصيب دودة بإسهال.

تنتهي طال الزمان أو قصر لاستنتاج واحد: المنقذ الوحيد من الذي منه كل نقمة... الموت. آخر عقبة قبل أن ترتاح منه نهائياً تحمّل مراسيم الجنازة.

هي عند الأدميين كالحختان والزواج: مناسبة لملاقاة الأجزاء الذين فرّق بينهم الزمان، لتبادل الأخبار والنكت لإتمام الصفقات، أحياناً لتصفية آخر الحسابات مع عريس الموت.

يكفي أن أتصوّر كيف سيكون موكي ليزداد مزاجي تعكرا. سيمشي الذي منه كل نعمة خلفي، يواصل الحسدُ تعذيبه لأنه ليس هو المرفوع على الأكتاف.
يجنح بي الخيال لتصور المشهد وحتى ما بعد المشهد.
كأنني أسمعهم يتهامسون ضاحكين: هل تظن أنه ترك لعائلته شيئا غير أطنان من الورق القديم؟ لا تظلم الرجل، حتى هو كانت له بعض الخصال، صحيح أنها لا شيء بالمقارنة مع عيوبه وذنوبه التي لا تحصى. هل رأيت ما أبشع نظراته. لا يلبس ربطة عنق، مظهره مظهر عامل فلاح، بشرته تفضح أصوله وأنه من سلالة الفلاحين والبدو الذين صبغت الشمس جلدهم في الصحاري وفي الحقول، ومع هذا لم يخجل هذا الأفاقي أن يريده نفسه سيّدا لنا. حرام عليكم أن تواصلوا سبّ الكلب ابن الكلب وقد أراحنا الله من سحنته البشعة... ثم خاتمة كل المنافيقين يستنفرون بعضهم البعض لمزيد من السبّ: يا ناس، "اذكروا موتاكم بخير".
حقا ثمة قلة بجانب كل هؤلاء الشامتين من يحزنهم فعلا رحيلي. لأواسيهم بما واسى الشاعر مودّعيه:

"في يوم وفاتي عندما يسيرون بنعشي (جلال الدين الرومي)
لا تظنّ أني متألّم لفراق هذا العالم
فلا تبتك من أجلي ولا تقل وأسفاه وأسفاه وأسفاه
فوقوعك في مخيض الشيطان مدعاة للأسف
وعندما ترى نعشي لا تصرخ: الفراق
فوصالي هو في هذا الزمان ولقائي
وحين أودع القبر لا تقل الوداع
فالقبر هو حجاب على مجموع الجنان"

كم أخطأوا جميعهم في حقي: الذين بالغوا في كرهى لجهلهم أو لتجاهلهم لما في من بعض الفضائل، الذين بالغوا في حبي لجهلهم أو لتجاهلهم لنفائصي وعبوبي. كان لي ككل الأدميين بعض الحسنات تنسبها زلاتي، وبعض الزلات تغفرها لي حسناتي ولم يكن من الضروري تضخيم لا هذه ولا تلك. قدر الأدمي ألا يكون إلا صورا في الأذهان، صورته في مرآة من يحبونه، صورته في مرآة من يكرهونه، صورته في مرآة الكائنات التي يعبر طريقها، بالكاد تلمحُه وحتى صورته في مرآة ذاته خاطئة. أما من له هذه الصور المتباينة في كل المرايا فشبه مجهول للأخرين ولنفسه أو لا.

بالله عليكم يا من أبغضتموني، لا تمشوا في جنازتي ولا تقدّموا فيّ العزاء. ماذا تريدون مني الآن وقد تركتُ لكم كل شيء والباقي؟ بالله عليكم يا من أحببتموني، لا تمشوا في جنازتي ولا تقبلوا فيّ العزاء. تُزغرد النساء للمولود الجديد وينتحن على الميّت، والحال أن تمام العكس ما يجب.

لنعات الحفارين الصامته وهم يزفرون غيظا من الحرّ وصلابة التربة.

على فكرة، لماذا يجب أن أودع في جوف الأرض؟ لماذا لا يُلقى بجسدي عاريا فوق الكثبان
عل بعض الكواسر وتعالب الصحراء وعقاربها تجد أخيرا نفعا في أدمي؟ الرائحة! من
سيتضايق إذا رُميتُ بعيدا عن الأنوف الحساسة؟ تقول، لا تقلق فتحت الثرى حيوانات
أصغر من تعالِب الصحراء ستعرف كيف تستغل حسن الاستعداد والكرم. أفحمتني.
“ماشى” مع الدفن، شريطة أن يحفر القبر على شكل بئر لأُدفن واقفا ورأسي كالعادة إلى
الأعلى.

”سأرقد في كل شبر من الأرض (محمد الفيثوري)
أرقد كالماء في جسد النيل
أرقد كالشمس فوق
حقول بلادي
مثلي أنا ليس يسكن قبراً“

يا هرمس، يا ربّ المسافرين واللصوص ويا دليل الأبطال نحو جنّات الخلد، أنت الذي
يعرف محو الخُطى، امحُ كل أثاري حتى لا يواصلون مبيت منذ قرون ملاحقتي بالسب
والشتم.

أخشى ما أخشاه أن ينتصب الخطيب المفوه لآخر اعتداء. من قال أكبر الأكاذيب عند البشر
قبل ممارسة الجنس، إبان الحملات الانتخابية، وبعد الرجوع من الصيّد؟ نسي الشقي خطبة
التأبين.

ها هم على أهبة الاستعداد وراء خطيبهم الهمام لحشو قم الميّت بعنقود العنب الذي رفضوا
إعطائه وهو حيُّ أصغر حبة منه.

كل شيء إلا انتصابهم فوق قبوري يخطبون. إكرام الميّت دفعه. نعم وبصمت. وحده الوجع
الصامت في مستوى مهابة اللحظة، ما عده مسرحية عديمة الذوق.

لله درّ هؤلاء البشر. يكذبون عليك حيّا، بالتنقيص من قدرك، ويكذبون عليك ميّنا بالزيادة
فيه. إياكم ثم إياكم، والله لو خطبتم خُطبكم الرّثانة على حافة قبوري لرميتم بالحجارة من
خلف السحاب، أو لانقلبتم عفريتاً يأتي ليايكم بأفزع الكوابيس.

ولأنني لمّا انبثقت في هذا العالم، لم يكن في استقبالي حشد فيه خطيب مفوه يمدحني بخصالي
المرتبّة، ولأنه لم يكن في انتظاري يوم الوصول إلا “ما” وخالّة وجارة تدعي أنها قابلة،
فإني لا أريد في وداعي إلا ثالوث نساء آخر: تفاحة وتفيحه و“ح” التي غمرتني بحبّ لم
أستحقه يوماً.

ثُهل على جسدي آخر حفنة من التراب، أبصر من خلالها بريق الرضا يلمع في أعين
تعصّر عبثاً من ماق جافة دموع التماسيح. فوق القبر يتواصل تدفق سيل الحياة، نهر جبار
عانت آت من أعماق التاريخ، لا يوقفه سدّ آخر. ما هم مثل هذا النهر لأن قطرة تبخرت
منه.

”ميّت أنت وإلى الأبد (لوركا)“

ككل موتى هذه الأرض

ككل الذين ابتلعهم النسيان"

على باب المقبرة سيودّع الناس بعضهم البعض منصرفين بسرعة إلى أشغالهم. حتى أقرب الناس إليّ عاندون عاجلا لها وللضحك بأسرع مما أتصور. أي أهمية للأمر الآن وقد أدركت لهم ظهري وأدروا لي ظهورهم نهائيا.

على الشاهد أريد أن يكتب هايكو ايسا أعدت صياغته بما يرضيني ولا يغضبه.

“أخيرا نجوتُ منكم

والآن تعال يا صرصار

غنّ على قبيري”

يكمل الخيال بقية الاحداث.

تتواصل المشاهد في فضاء خيالي أستبق الأحداث وأحاول تصور بعض سيناريوهاتها. ها قد عدت من حيث أتيت. بوسعي الآن أن أضع رحلي انتهت مشقة السفر. قبل الإخلاق إلى راحة العدم، عليّ أن أجد مكتب التظلمات لأسجل إدانتى التامة لفكرة خلق كائنٍ مثل لذي منه كل نقمة وطلبي الملحّ بسحب دوره من السيناريو في النسخ القادمة من العوالم التجريبية.

طبعاً لا أغيب من هذه الفكرة ... كما لا افلات لأحد من قانون الجاذبية لا افلات له من قانون التناظرية القاضي بأنه لا وجود للشيء إلا بنقيضه ... مما يعني أنه إذا كان لك محبون لا بدّ أن يكون لك كارهون... أنه كلما ارتفع عدد المحبين كلما ارتفع عدد الكارهين... أنه كلما وصل الحب عند محبيك أعلى درجة كلما وصل الكره عند كارهيك قمته ... أنه كان بوسع كم من كارهيك أن يكونوا من محبيك وبوسع كم من محبيك أن يكونوا ألدّ الخصوم والصدف هي التي وزعت الأدوار... أنه من العبث السعي لقلب الأعداء أصدقاء إذ سيتركون حتى ولو نجحت في الأمر القضاء شاغرا لينبت لك كم من أعداء جدد ناهيك عن التسبب في فقدان كم من أوفى الأصدقاء... أي حلّ تجاه وضع لا خروج منه ولا خروج عليه غير قبوله كما هو بل واعتباره الوضع الضروري لكي تكون لنا التجارب والقصص التي تشكل حصيلة رحلتنا.

أستمرّ مدهولا وأنا أرطم بالنظرة المتجهمة لمخرج السيناريو المدعوّ جبريل وهو ينقل البصر تباعا من وجهي إلى ملفّ غليظ، ومن الملفّ الغليظ إلى وجهي. طبعاً هذا ملفّي وهو بداهة زاهر ثقيل. بماذا؟ بشكاوى الأطفال الذين تفوقت وتكبرت عليهم... بشكاوى الأب من طفل متمرد ومرهق وقح... بشكاوى الخصوم والمنافسين الذين عقرت أنفهم في التراب... بشكاوى الطغاة الذين أشبعنهم تهكما وتحقيرا... بشكاوى كل الأعداء الذين لم يسلموا مني إلاحقمهم بسخريتي حتى وهم في الخرق البيضاء.

أه، ما زال هناك المزيد من الملفات! ماذا أيضا؟ شكاوى الأعشاب التي اجتنثت أو دُست غير عابئ بماذا أجتثت أو على ماذا أمشي... شكاوى الفئران التي سممت صغارها في

غرفة المهملات لا أرحم ولا أشفق ... شكاوى الخنافس التي كانت تخرج ليلا خائفة مرعوبة
تبحث في مطبخي عن عشاء لصغارها، فإذا بالقاتل الرهيب يفاجئها بالموت الفظيع ...
شكاوى الدجاج والخرفان والأسماك التي التهمت أطفالها شاكيا من رداءة طبخها... شكاوى
شعوب النمل التي لاحقثها في الحديقة بالدعس وخراطيم الماء وكل أصناف المبيدات.
كيف لا أنفجر ضاحكا، لا يكفي أنني كنت الذي منه كل نعمة لكل هذا الكمّ من الأدميين
التعساء، بل وكنت أيضا غولا وعبّيثة لِمَا لا يُحصى من الكائنات الحية الأخرى!

**

أو كيف أنه لا معين لك على أهوال الطريق سواهم

يُذَقُّ الباب بقوة وإلحاح. خلفه تتصاعد أصوات رجال الشرطة. لكنهم لم يأتوا هذه المرة لأخذي وإنما هم بصدد محاولة منع شخص مصرّ على زيارتي. سيكون الشقيق الذي رافقتي طوال الرحلة وكان صديقا أكثر مما كان أخوا؟ لا، هذه المرة هو الصديق الذي كان لي أكثر من أخ والذي وقف بجانبني محاميا في كل القضايا الملفقة التي لاحقوني بها أكثر من ربع قرن. هذا آدمي ليس مع الدنيا وصاحبها وإنما مع من أدرات لها الدنيا ظهرها ومن انقلب عليه الأصحاب والأحباب. يفرض الرجل الهادئ بحزم حقّه في دخول بيت شخص خرج لتوّه من السجن، وليس لأحد حقّ منع الزوار عنه.

يسلم عليّ مهنا بسلامتي. يلقي بنظرة مطولة حوله متعجبا من خلق البيت تقريبا من كل أثاث لا يعرف أنه سُرق وأنا وراء القضبان. ثم يدعوني إلى جولة على القدمين لمعرفته حتّي للمشي. يصرّ وسيجارته الأزلية بين شفتيه، على المرور أمام المقاهي المكتظة وعلى التوقّف بعض الشيء أمام مركز البوليس ليُعلم الجميع، مع من يقف وأي قضية اختار لا يأبه بما سيدفعونه من باهظ الثمن.

قال شاعر عزيّف بطبائع البشر أو هكذا يظنّ :

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها فكيفما انقلبت يوما به انقلبوا (أبو العتاهية)

يُعظّمون أخوا الدنيا وإن وثبت يوما عليه بما لا يشتهي وثبو

صحيح، لكن ما أكثر استثناءات للقاعدة وهذا الرجل أكبر دليل .

أمازح الصديق -الأخ أخفي تأثري:

- أرهقت من يتبعونا من الشرطيين بهذه المشية السريعة.

- ما أكثرهم، هذا بلد يجب أن يسمى بوليسيتان.

- مساكين مثلنا، لا تقسو عليهم. أقص عليك ما حدث يوم أطلق سراحي. أخذوني إلى بيتي في سيارة عادية. داخلها بادرني أحدهم: تظنوننا وحوشا؟، ماذا تريدون؟ أن أعصي الأوامر ليجوع صغاري؟

واصل الرجل لا يثنيه إصراري على الصمت: هل تتذكر المظاهرة الأخيرة التي شاركت فيها؟ التي حصلت أمام مقرّكم؟ ... طألبونا باهانتك ثم بضربك بالهراوات. لم يمسه أحد بأذى. لكن أتعرف ماذا فعلت زميلتك؟ أتعرف؟ كان الصوت مختنقا وكأنه يغالب عبء صامتة. قلت لا ماذا فعلت. قال فتحت القبة بنت الكلب التي تدعي الدفاع عن حقوق الإنسان بالوعتها وبصقت عليّ. بصقت عليّ أنا. على خدي الأيمن، انظر. هنا بالضبط. منذ تلك اللحظة وأنا أشعر أن لعبها المقرّر لا يكف عن السيلان، بالنهار، بالليل، حتى أثناء النوم ناره تحرقني. تلك اللحظة تدافعت إلى الذاكرة صورة "با" ويده على خذّه يوم

خرج من مكتب الضابط الأجنبي لم يخدم غضبه بعد عقود من صفة قد تكون سبب الصداع المزمن الذي لم ينجح في تخفيفه أي دواء. دون وعي ارتفعت يدي مررتها برفق على الوجنة الملتهبة، أمسح ببالغ العناية والبطء آثار بصقة لم تجف منذ شهور وقلت للرجل عفوا أخي، وقيل صغارك من طرفي.

المضحك المبكي في الخصومات والمعارك التي نستهلك فيها جلّ عمرنا أن كل الفاعلين فيها يعتقدون أنفسهم أخيارا في مواجهة أشرار، أصحاب قضايا عادلة في مواجهة أصحاب قضايا ظالمة... تمنع عن قرب وستكتشف أنها معركة مسترسلة منذ بداية التاريخ بين أخيار-أشرار وأشرار-أخيار، بين مهوسين بهذه العقيدة وهادئين بتلك الأخرى، بين جشعين شرسين استولوا على فريسة الصيد وشرسين جشعين يريدون الفريسة لهم وحدهم... والادمي على الدوام كذاب مفترى عليه، سارق مسروق، ضحية وجلاد... كم صدق الشاعر :

"كل كوارث الدنيا تأتي من تعذيب بعضنا لبعض (فرناندو بيسوا)

بنية فعل الشر أو بنية فعل الخير"

يطفىء الرجل الطبيب سيجارته المغروسة طول الوقت بين شفثيه ثم يتوجه إليّ وكأن به شيء من التردد.

-آخر سؤال وأرجو أن تتقبله بصدر رحب.

- قل وعليك الأمان.

-ما الذي يحبك في هذه السياسة اللعينة ولماذا تهتمّ بها أصلا ولك ميدانك الواسع الذي تستطيع التآلق فيه ونفع البلاد والعباد بدل من هذه الوساحة التي تغرق فيها كل يوم أكثر فأكثر ؟

-أنا أحبّ السياسة! لا أكره إلا هي. أنا أهتمّ بها ! هي التي تهتمّ بي لم تتركني لحظة بسلام منذ طفولتي. المشكلة مع السياسة أنه بإمكانك تجاهلها لكنها هي لا تتجاهلك ومحاولة الإفلات منها بعث محاولة الإفلات من قوانين الفيزياء التي تتحكم في حركاتك وسكناتك أحببت أم كرهت، وعيت بالأمر أم لم تعي.

-كلام جميل ، لكن السياسة في نظري صراع مصالح وnergسيات بين فيلة يذهب ضحيتها بين قوائمها صغار الفئران .

-في نظري هي كيفية فهم السلطة وتصريفها والسلطة حسب فهمي تقاس بكمية البشر الذين تستطيع قتلهم أو على الأقل اخضاعهم لإرادتك وكمية البشر الذين تستطيع حفظ حياتهم وتحسين ظروف عيشهم . ثمة السياسة التي تعتبر هذه السلطة هدفا في حد ذاتها- أساسا لتحقيق المصلحة الفردية من ثروة واعتبار وعلو الإرادة - ومن ثمة للتمكن منها والحفاظ عليها والموت فيها كل شيء يجوز من افتعال خدمة الناس إلى الخداع والكذب والفساد والخيانة والغدر والقتل. إنها السياسة كما ينظر لها مكيفال وكما يحبها كل المعجبين به . على الطرف النقيض هناك السياسة التي تعتبر السلطة وسيلة لتحقيق المصلحة

عملا تطعم به عائلتها المعوزة. نسيثُ أن أقول لك إنها قضت في دراستها ضعف السنوات السبع المعتادة، بل وأكثر، وأنها كانت مصدر تنذر في كامل الكلية. شيءٌ ما تحرك داخلي يأمر بمد يد العون لأدمي سبّح عرض المحيط وهو الآن بصدد الغرق على بعد أمتار من الشاطئ. الشفقة؟ كلاً، الإعجاب أمام عناد هذه الأنثى التي لم تقبل أن تكون خادمة بيوتٍ مثل كل من ابتلاهن الله بما ابتليت به من مصير. قلتُ لها هذا موضوعٌ سهل، جمعنا له كلَّ المعطيات وسيمكنك معالجته في ظرف بضعة أشهر. كدث أرمي أول مسودة في وجهها. تمالكتُ أعصابي وقضيت معها يوماً كاملاً في مراجعتها ثم طلبتُ منها إعادة كتابتها. بعد شهر عادت بالأطروحة وكانت عجينةً محسنةً من نفس الأخطاء اللغوية والعلمية. في الاجتماع الدوري مع مساعدي حصل شبه إجماع على أنه لا فائدة في تضييع معطياتنا ووقت القسم مع هذه المرأة وأن علينا الاعتذار لها. قلتُ لهم لكن ماذا سيكون رأيكم في أنفسكم إن اعترضتكم يوماً بتبع الخضراوات على قارة الطريق أو تحاول بيع جسد لم يُسوّه الله أحسن مما سوّى ذنها. نظروا إليّ باستغراب وقد بدأت الشكوك تراوهم بخصوص ما سأجاسر على فعله. قلتُ نعم، سأكتب لها الرسالة ويوم تقديمها ستكونون معي على المنصة، إذ لا مجال لإقحام محققين آخرين قد ينتبهون للخديعة ويتسببون لي في مشاكل جديدة أنا في غنى عنها.

قلتُ في نفسي، إن لم يُعجبكم القرار فما عليكم إلا الوشاية بي، ثمة منصب رئيس قسم ينتظر واحداً منكم. لم يش بي أحدٌ بل تتابعوا على إصلاح ما كنتُ أكتب بمنتهى السرعة وأنا غارقٌ في خضم مشاكل المتعددة.

كيف لا يتغلب يوماً تعاطفك مع الأدميين على طول غضبك منهم وأنت تنتبه أن جأهم يعانون من كمّ هائل من الامتحانات والمحن وأن أخطاءهم وخطاياهم أغلب الوقت ردد فعل قليلة الفعالية على عالم يعيث بهم عبث القطّ بالفأر!

أي جارة كريمة أعارت المسكينة فستاناً يوم نقاش الرسالة؟ ما أعرفه أن سكرتيرة القسم هي التي أعانتها قبل دخول المدرج على تصفيف شعرها وأنها صبغت شفتيها بالأحمر لكي تبدو من فصيلة بني آدم وبنات حواء. يومها كلنا لأنفسنا الثناء ولم نقصر في مدح متانة منهجية الرسالة وأهمية النتائج العلمية التي توصلت إليها وكيف ستغيّر وجهة الطب الاجتماعي للعشرية المقبلة.

كنت أغلب نفسي من الضحك من نفسي وأنا ألاحظ بمنتهى الجدية كم تحسنت لغة الأطروحات في هذه الكلية التعيسة ويا لهذه اللغة الرائعة في أطروحة طالبتنا المتأففة وهي تجمع بين صرامة لغة العلم وأناقة لغة الأدب.

كل هذا الكلام وبلغه أجنبية أمام عاملات نظافة الكلية ملأنا بهن المدرج ليفتعلن متابعة كلام لا يفهم منه شيئاً. بعد نهاية "النقاش" مع أنفسنا والتداول بيننا في قاعة مغلقة، رجعنا إلى المدرج يحفُّ بنا وقار العلماء لنعلم الفتاة أن رسالتها قُبلت بعلمة مشرف.

لما أتممت قراءة قسم أبقراط وهي تتلعثم، همستُ في أذنها أن قسمها لأبقراط لا يعينني في شيء، كلُّ ما يهمني احترام قسمها لي بالأ تلمس أبدا مريضا وألا تغيّر من الوظيفة التي وجدتها لها في الطب المدرسي، حيث سيتوقّف عملها على الكشف على الأطفال وإحالتهم إلى الأطباء الحقيقيين. بعد بضعة أشهر دخلت علينا في القسم امرأة تلبس فستانا أنيقا والكعب العالي وعلى وجهها المبتسم مسحة من جمال محتشم. لا أنا ولا أحد عرفها. جاءت لتقول لنا أنا بخير، أحب عملي، كل من يعملون معي وخاصة الأطفال يحبونني، شكرا. لحظة سعادة صرف. يومها قرّرت أن أغفر لنفسي كل ما تقدم وتأخر من ذنوبي على الأقل إلى نهاية السنة الجامعية.

تنهّد الرجل الطيب وقال:

-نعم يحق لنا أن نغفر لأنفسنا والآخرين ما نأتيه من موبقات لأننا نقدر أيضا على العطاء دون انتظار حتى كلمة شكر، على فكرة شقيقك يشنكي أنك تخرج وحكك ليلا إلى شاطئ البحر. لا داعي لاستفزاز الشياطين وتسهيل مهمتهم. تذكر أنك تتعامل مع "كابو" مافيا وعصابات لصوص استولت على بلد.

وحيدا على الشاطئ المقفر يمكنني التفكير بهدوء عما يقدر عليه الأدمي في أروع حالاته تجاه كل ما يحفل به العالم من كائنات .

يعود إلى الذاكرة نقاش حول النار في محمية افريقية مع امرأة جمعتني بها صدف الطريق. ليلتها قلت لها وأنا أعيب بعود أقلب به جمر النار التي تجمّعا حولها لسهرة الوداع.

- صحيح، كم نكلنا بالحيوانات ومع هذا... هل سمعت عن المعابد التي يقدسون فيها الفران، عن الأطفال الذين يغسلون قبلا مضطجعا لا يخفي سعادته من جودة الخدمات، عن وليمة القردة السنوية التي تقيمها مدينة كاملة على شرفهم فيتهاطلون من كل حذب وصوب ليأكلوا ما أعده لهم البشر؟ هل سمعتي برجال ونساء قبيلة البيشنوي الذين يفضلون الموت على اغتيال غزالة أو شجرة. ثمة بشر يقولون عندما يتحدثون عن قرد: فلان، السيد قرد. لا يجب أن ننسى الرهبان البوذيين وهم يدخلون قفص النمر لغسلها وتغذيتها وأخذها للفسحة في ضواحي النير. تصوري أنهم خلقوا في بلد أعرفه جيدا حزبا سياسيا للدفاع عن الحيوانات وسموه طبعا الحزب الحيواني.

ليلتها قالت تزيد من رفع معنوياتها ومعنوياتي: أعرف أيضا أن هناك طائفة تذهب إلى حدّ وضع لثام على الفم خوفا من التهام ذبابة والمشى والبصر مثبت على الأرض حتى لا تداس نملة على وجه الخطأ. ثم لا تنسى من يزرعون المسامير على الجذوع لتتكسر عليها آلات قطع الأشجار.

قلت وأيضا الذين ربطوا أنفسهم بالسلاسل إلى الجذوع الموعودة للمنتشار الكهربائي. قالت هل سمعت بذلك الرجل الذي يجوب البحار بسفينته الصغيرة يقف بها أمام أضخم البواخر المجهزة بأحدث أدوات القتل لمنعها من الإجهاز على الناجين من أحفاد موبيديك؟

أليس هذا الرجل وهو يعرض نفسه ومن معه للغرق أصدق دليل على وجود حسن أخلاقي مرهف وخير فطري في الأدمي؟

قلت عندي ما أحسن. إذا تصادف وصولك المدينة التي يسمونها " التفاحة الكبرى" يوم الاحتفال بالقدّيس فرانسوا، فاسرعى بدخول أكبر الكاتدرائيات البروتستانتية لمشهد لا مثيل له. على جانبي ممشى يمتد من الباب الضخم إلى الهيكل، آلاف الأدميين الخاشعين. على المشى وسط الكاتدرائية المكتظة، يتحرّك طابور طويل وكل آدمي ممسك بحيوانه الأليف. ثمة من يأتي ببغاء، بقطّ، بكلب، بمعزة، بخروف، بحمار، وحتى بجمل. عند الوصول إلى الهيكل، يرفع الكاهن أو الكاهنة اليد ببارك الأدمي وبارك الحيوان الذي معه وقد تساوى هذا وذاك ولو للحظة ولو في مكان يتيم، وقد تبيين للمتعبدين الصامتين ولو في قبس وعي عابر أننا كلنا أقرب لبعضنا مما نتصوّر.

عما يقدر عليه الأدمي الذي يحبّك في البشر والذي اسميه الذي منه كل نعمة ، حدّثني جدّي وأنا طفل أن الأجنبي قال له وقد تمخّضت عنه العاصفة: غُصتُ إلى الخاصرة في الرمل الحارق، ظننت أنني ميّت، لا أدري كيف وجدت الشجاعة للمواصلة وبأي ضربة حظ وصلتُ الخيمة. لم يبالغوا عندما حدّثوني عن كرم البدو. فقلت له الضيافة في هذه الصحاري حقٌّ طرفٍ وواجبُ الطرف الآخر، وإلا كيف كنا نستمرّ أحياء في مثل هذه الربوع؟

على ذكر الصحاري. ربما لا يزال الذي منه كل نعمة يجب في هذه اللحظة الفيافي القاحلة التي تفصل بين أرض يهْرَبون منها اسمها المكسيك وأرض يهْرَبون إليها اسمها أمريكا، لوضع أكبر قدر ممكن من قرب الماء في الأماكن التي يُرَجَّح فيها مرور المهاجرين غير الشرعيين أو ضياعهم.

في قصة أخرى بروي لنا الأدمي التائه في مصاعب هذا العالم وأهواله: غُصتُ في الثلج إلى الخاصرة، أطرافي تجمّدت من البرد قلت في نفسي إني هالك اللهم إلا كانت النجاة في ذلك النور. إنه مصباح كوخ، الأمل ألا يكون وكرَ قطّاع الطريق.

تفتح الباب امرأة مبتسمة. تخاطب الأدمي المتماوت جوعا ويردا بلُغة لا يعرفها لكنه يفهم من نبرتها أن عليه الإسراع بالدخول. تصفق الباب وراءه مشيرة إلى مكان على يمين ربّ العائلة الجالس هو والأطفال إلى مائدة العشاء. غريب هذا الكرسي الفارغ، هذا الصحن، هذه الملعقة وهذا المنديل على الطاولة! ثرى، هل ينتظرون ضيفا؟ طبعاً، والضيف أنت، فهذه العائلة البولونية لا تجلس منذ قرون إلى عشاء أو غداء إلا وقد تهيأت للغريب التائه الذي قد يدقّ الباب في آية لحظة.

كم من قصص عما يقدر عليه الأدمي محبّة لبني جلدته وقد تبلور في وعيه شعور مفاجئ بأن الأدمي الآخر ليس إلا ذاته تتخبط في قصة أخرى وأنه هو نفسه ليس إلا الذات الأخرى تورطت في قصته.

إن أردنا رصد نقطة الفصل والافتراق بين الأدمي وهو في حالة الذي منه كل نعمة والأدمي وهو في حالة الذي منه كل نعمة فهي دون شك ظاهرة لا أخطر منها في تشكل المجتمعات والديانات والسياسات: تقديم الأضاحي للقوى المبهمة التي تتحكم في مصائرنا. في حالته الأولى هو الأدمي الذي لا يتوانى عن التضحية بملايين القرابين على معبد السلطة قمعا وحربا ليحفظ سلطانه وحياته هو.

وفي حالته الثانية هو الأدمي الذي يقدم عنقه للذبح طائعا قربانا لآلهة القبيلة حتى تواصل بسط حمايتها على أهله، أو الذي يتقدم جنوده ليستشهد في معركة ضارية دفاعا عن حق الآخرين في الحياة .

القاعدة أن قدرة البذل والعطاء عند الذي منه كل نعمة مرتبطة أوثق الارتباط بمدى ما يملك من سلطة وفي أي موضع من سلمها يجد نفسه سواء بصفة عابرة أو زممنة. في أسفل درجات السلم هو الفقير الذي يوجد بما عنده... في أعلاها هو محرر الملايين من المرض والجوع والظلم . هو حاملي وحامل كل القيم والقوانين التي تجعل من الأدمي انسانا. على أي حال كنا نعيش دون الذي منه كل نعمة. في شكله الجماعي هو المرابي والطبيب والبانى لكل ما يسهل عليك العيش . في شكله الفردي هو الصديق الصدوق الذي يرافقك على الطريق يُعينك على أحواله وأحواله. هو الذي يمشي طوال الرحلة أمامك دليلا وخلفك حارسا، الذي يُخرجك من رمال متحركة كادت تظفر بك، الذي يُطلق صرخة الفرع لينبّهك لبروز الخطر، الذي يجذبك بقوة إلى الخلف عند شفير الهاوية، الذي يرمي عليك معطفه ليرتجف بذلك من شدة البرد، الذي يأخذ منك بامتنان ويعطيك دون من، الذي تتكى على ظهره تنتظر مرعوبا وسلاخك في يدك برور الذناب، الذي يتعاضى عن واضح خوفك ليعكس لك صورة صنديد لا يخشى ما يتربص به من ذناب، الذي تعترف له كم أنت خائف فلا يدين أو يتبجح بشجاعته، الذي لا يفعل سماعك وإنما يُنصت إليك حقًا، الذي إذا انتصرت عليه لا يغضب، وإذا انتصر عليك واساك واعتذر، الذي يزهيه نجاحك ويكيه أن يراك فاشلا، الذي إن لم يقدر لك على شيء في هذه الحياة سهل عليك الموت، الذي يمشي وراء جثمانك وقد مات بداخله شيء ما، الذي يُؤوي ذكرك في قلبه تُواصل داخله أغرب أصناف الوجود.

نعم، الذي منه كل نعمة هو الحالة التي يتخذها العالم عندما يتكفل بحراسة أخطر مفترقات الطريق للأخذ بيد التائهين والمرهقين والمحبطين، خوفا من أن يتوقف تدفق الخجاج وقد فاقت الصعوبات قدرة مُغامري الوجود على الثبات.

آخر ساعة سهرتي الليلية مع البحر.

أن الأوان للرجوع إلى البيت المقفر من كل حبيب.

فجأة أنتبه لمجهول يركض ورائي ويده تمسك بذراعي. تدوي داخل الذات كل صفارات الإنذار المعهودة. تتراءى لي بسرعة البرق الصور المعتادة وكيف سأقتاد نحو سيارة

رابضة حيث ينتظرني آدميون بسحن متجهمه و عيون يتطاير منها شرار البغض. ثم تتباطأ
دقات القلب وأنا أسمع الأدمي المجهول يهمس في أذني، وقد أصبحنا جنباً إلى جانب: بارك
الله فيك وفيمن معك على ما تفعلون من أجل كرامة الإنسان.
تربث يد المجهول على ظهري بضربات المواساة والتشجيع. يضيع الرجل في الظلام، لا
يترك لي الوقت للتمعن في ملامحه.
إنه الآن شعور من كاد يهلكه العطش فإذا به عند منبع العين، شعور من كاد يهلكه الجوع
فإذا به جالس إلى مأدبة العرس، شعور الطفل التائه عثر أخيراً على والديه. صدقتم
صراخي في وجوهكم بسبب وبدون سبب؟ مجرد ردّة فعل على حبّ خيل لي أنكم لم
ترضوا به. هذه يدي اليمنى لمن قطعوا له يدا ليمسح بها مجدداً على شعر ابنته. هذا
جسمي للرجم فداء كل من أهينت في حياتها وفي موتها. لساني لمن أخلجته التأتأة.
مكانتي لمن يجهل أنه فوق كل تكريم. روحي لمن رهن روحه عند الشيطان. بورك
فيكم... بوركتم، بوركتم، بوركتم جميعاً.

**

أو كيف أن الذات لا تكتمل إلا بالذوبان في ذواتهم

أصخُ السمع لما يتعالى من أغاني الأدميين وستكتشف أن موضوعها المفضل الأدمي الذي ترسم له أروع اللوحات، الذي تؤلف لأجله أجمل الموسيقى، الذي لا يتوقف الشعر عن التغرّل به. كيف لا وهو الذي تجرب معه الذات أروع حالات الوجود. تعود، “ح” لحديث متقطع ونحن نتوجّه للبيت عبر شوارع المدينة الصاخبة.

- ما لك صامت؟

- أحاول التعرّف على عطرِكَ الجديد، فيه نكهة غير التي كانت للقديم لا أستطيع تحديدها.

- إنه الذي أتيت لي به آخر سفرة.

- على فكرة، لماذا مواصلة عادة التعطر خاصة بتكالييفها الباهظة للعشاق والأزواج وكل الوقت الذي أضيعه في متاجر المطارات بحثًا عن أجودها وأرخصها وقد اكتشفنا ما يفعله الماء والصابون بالروائح المخجلة؟

- كفى استفزازًا رخيصًا.

- استفزاز؟ لم توجد العطور ولم تصبح مصدر تجارة وحروب وثورات مشبوهة إلا لمحاولة التغطية على الروائح الكريهة للبشر. الجذع الذي تسمونه “الملك الشمس” نفسه كان نننا وكذلك كل حاشيته. كانوا لا يغتسلون أبداً ولا يغيرون ثيابهم الداخلية. هؤلاء الأغبياء كانوا يأخذون دشًا من العطور عوض دش من الماء. لم تأت الفكرة العبقريّة والبسيطة والرخيصة التكاليف إلى البشر إلا منذ قرابة مائة سنة فقط. في مدينتك الجميلة هذه، كان المارة لعشرات القرون يضطرون إلى وضع مناديل على أنوفهم للمرور من الشوارع. كانت الولية تفتح شباكها وتسكب كل سوائل البيت من بول وفضلات، أحياناً على رؤوس المارة. الله دركم، تتجنّون على الخزائير وقد عبّرتم جلّ التاريخ ملوكاً وعبداً تتصوّعون أفضع الروائح ثم تدّعون أنكم كائنات نورانية وعقلانية، أن الله استخلفكم على الكلاب والقطط، هي التي لم تكن يوماً بحاجة إلى عطر.

- آه، يا عدوّ البشرية!

- على فكرة، هل انتهت كم أجاد الله أو الطبيعة صنعنا. هل كان الجنس البشري يتواصل والحبيب يشم ما بداخل أحشاء الحبيبة، والحبيبة تغالب تقيؤها مما يختمر داخل أمعاء الحبيب؟ قيل في الأدميين: يجمعهم طبل وتفرقهم عصا، ولو أخطأ قسم الهندسة العامة لكان القول: يجمعهم طبل وتفرقهم رائحة. أي عالم كنا نعبر ونصنع ونحن عاجزون عن البقاء أكثر من دقائق معدودات مع بعضنا البعض لأننا لا نتحمل فقط روائح التبغ والعرق والملابس الداخلية وإنما روائح الفضلات التي تتجمّع داخلنا كما بالك لو كان لنا أنف يرصد روائح الأفكار العفنة التي تختمر داخل الأرواح المريضة. من المؤكّد أن هذا سبب ولع

الآدميين والإناث منهم على وجه الخصوص بالبخور والعطور يدفعون فيها من قديم الزمان
أعلى ثمن للتغطية على ما يخفون من روائح كريهة ؟
- أنت حالة مستعصية على العلاج. لست ضدّ أن تعود لصمتك المعتاد.
تهزني "ح" من كتفي :

- عد إلي شريطة أن تكف عن السخرية من كل شيء والباقي.
- لا بل أنت من ستكلمين وخذي راحتك في أي موضوع.
- حتى ولو شتمتك على طول الطريق.
- كل ما تريدن. أنا بصدد تذكّر أول نبرة لك رنّت في أذني. أتذكرين أول آلو، يوم اتصلت
بقسمك بخصوص مريض حوّلت له لي ممرضتك دون ملّفه؟
يومها قلت لنفسي يا ربّ الموسيقى، من أين أتيت بهذا الصوت، ولماذا لم توزع عليهم
جمال الصورة وجمال الصوت بسخاء أكبر؟ هل الأمر مرتبط بصعوبة إعداد مثل هذه
الأصوات وثمان صنعها؟ وهل لديه أفكار أخرى ومشاريع ما زالت قيد الدراسة؟ وكم يجب
أن أنتظر من الوقت لأسمع صوتاً أجمل؟

يومها قلت لنفسي لا بد من عذر-مهما كان واهيا-لأكلم المرأة المجهولة، أقول لها إنني لا
أريد معاكستها ولا أطمح إلى وصالها، وكل ما في الأمر أنني سأكون ممنونا لها لو بعثت
لي بشريط تقرأ فيه حتى دليل الهاتف لأسهر عليه ليالٍ وليال، وبجانبي دفتر صغير أدون
فيه ما يوحي إليّ به صوتها من أحاسيس ومشاعر.
-أه أفضل أن تحدثني هكذا، لم تغازلني منذ مدة، أحيانا أتساءل هل تفتقدني حقا عندما
أغيب

- طبعاً افتقدك أكثر مما تتصورين. البارحة مثلاً.كنت عند طبيب الأسنان وكان المسكين
جاثماً فوق صدري يحاول اقتلاع ضرس بليدة مستقرة في أصعب أماكن الفم. قلت للرجل
بين غرغرتين لا تأخذ في خاطرِك ولا تغضب مني وتعرف كل معزتك عندي لكنني لا
أدري لماذا أفضل أن أكون بين ذراعي امرأتي.
تضحك "ح" إلى ان يأتيها السعال.

نعم، كم يخطئ ذلك الشاعر الذي اتهم بادعاء النبوة، لأن "أعز مكان في الدنيا" لا سرج
ولا بردعة وإنما الفضاء الذي بين ذراعي الحبيب.

للوصل إلى هذه اللحظة التي تتمازج فيها الذاتان لا بدّ من طقوس معقدة لا مناص منها.
من يتجاسر على الالتحام بالذات القدوس دون المرور بأكثر الطقوس تهييباً وإجلالاً.
تحدّق الذات في الوجه الآخر فيأتيها من التحديق ما يأتي الأعمش من مواجهة الشمس.
أي أوتار سحرية خفية تنقرها الذات المعشوقة في الذات العاشقة لتثير فيها شعور المقرور
عند بسط يديه فوق نار المدفأة، شعور العطشان عند رفع كأس الماء الزلال إلى الشفتين،
شعور الطفل الضائع عندما تلوح له أمّه أخيراً بين جحافل الوجوه الغريبة، شعور من
وصل إلى الواحة والشاطئ والملجأ والمرفاً بعد طول تشرّد.

تهمس "ح":

- سنترك آثارا زرقاء في عنقي تجبرني على وضع وشاح في عزّ الصيف.
ثم تصرخ بين ضحك واحتجاج متصنّع:

- هل جننت! كأنك تريد أكلي؟!!

تعبّر الوجه رهبة ما زالت قائمة وابتسامة تشجّع على المواصلة. تتصاعد من الأعماق
رغبة عارمة في دخول الذات الأخرى وكأنّها المغارة السحرية المغلقة التي طال وقوفك
على بابها تضربها بقبضتين متشجّتين.

وفي جسدي تبحثين عن الهضبة (أوكتافيو باز)
وعن شمسه المدفونة في الغاب
وفي جسديك أبحث

عن المركب وسط الليلية الضائعة

أخيرا يفتح الحرم ويأتي أمر الدخول رقيقا لا لبس فيه.

- هل تتقين بي وتسلمين لي أمرك؟

- نعم!!

- انتبهي.

اتحد المعشوق بالعاشق ابتسم الموموق للواق (الحلاج)

واشترك الشكلان في حالة فامتحقا في العالم الماحق

تكتشف الذات في هذه التجربة لا غير، ما تختزنه من متعة تفقد الرشد. كيف يمكن لهذا
الجسد أن يعرف العذاب وحالة كهذه؟ ما أغرب وجود الماء الزلال والنار الحارقة في
وعاء واحد!

- رويبت.

- رويبت.

هذا الكائن الذي بين ذراعي -والمتجول الآن في فضاء أحلامه- هو الذي تسميه اللغة شريك
الحياة أو على الأقل شريك هذا المقطع من الطريق. لا أحد عبر هذا العالم وحيدا. تصله
فتتلفك الأحضان ولا تغادره إلا وأنت بين الأذرع التي تحملك لمثواك الأخير. كأنّ بالذات
ثغرة لا تسدّ إلا بالذات الأخرى ولا سلوى إلا فكرة ان حاجتك لهذه الذات الأخرى لا تقل
عن حاجتها الماسة إليك.

تستيقظ "ح" من اغفاءة عابرة.

- تعني! بماذا تهمهم؟

- "أمانة عليك يا ليل طول" كلمات أغنية قديمة كنت أسمعها وأنا طفل تتصاعد من صندوق
خشبي ضخم اسمه الراديو.

نعم، يا ليل هذا الليل لا ينتهي أبدا، نتواصل إلى الموت بين إغفاء ويقظة، نعم
بالدفع بين الأحضان، بالطمأنينة والاسترخاء في مأمن من عودة الفجر.

- لم يبق عليك سوى إصدار فتوى بتحريم الشمس وإعطاء الأوامر لإبقائها في المستودع، يكفي ما وتُرت من أعصابنا وهي لا تكف عن الشروق والغروب كأنها لم تستقرّ بعد على خيار.

- والآن ردي على سوالي: من أنت؟

هل سمع المحبوب لكنه فضّل الصمت؟
آخر محاولة.

- مجدداً، من أنت؟

- وأنت، من أنت؟

- من أنا؟، "أنا الذي لم يقرأ الأعمى أدبي ولم تُسمع كلماتي من به صمم"

- نم الآن، واتركني أنام. غدا يوم حافل بمشاكل الزملاء والمرضى.

- اسمعي قبل أن تنامي هذه الأبيات لا أجمل منها حتى بضعف الترجمة:

يا معشر العشاق ما البشرى قد ظفرت كفي بمن أهوى (أبو العتاهية)

ضممت كفي على درة لا شركة فيها ولا دعوى

لما تملأت سرورا بها أغربت عني سائر الدنيا

-تواصل مغازلتني! إنها ليلة حافلة بكل المفاجآت. نم الآن، أنت أيضا بحاجة لكل قواك غدا.

على تخوم عالم اليقظة وعالم النوم وأنا أحضن "ح" ، يصرخ فيّ وفي أشباح خانقة كائن من نار ونور. "تحلقوا حولي أيها البؤساء لأروي لكم ماذا حدث بالضبط ومن المسؤول عن كبرى مصائبكم. لما وضعت أمامي على طاولة التشريح الكائن الذي خلقه الله أذهلني فيه أنه مكوّن من وجهين، له ظهران وأطراف أربعة عليا وأربعة أخرى في أسفله، تداخلت وكأنتها أذرع الأخطبوط. قلت في نفسي: أيّ ذات تختفي داخل شكل لم أر له مثيلاً؟ يومها وضعت أدقّ أجهزتي أتحمس بها ما بداخل الكائن من حالات. يا للهول! كيف لا أفاجأ ولا أغار والمؤشرات تؤكد أنّ هذا الكائن هادي، حالم، سعيد، مكتمل، مكتف بذاته، منعلق عليها، ومنسجم. أيّ إله نجح في الحلّ حيث لم ألاق إلاّ خزي الفشل؟ ثم إنني أعدت الكشف أكثر من مرّة لتواصل أجهزتي التأكيد أنّ الأخطبوط برأسين لا يعرف العلم ولا يعرف الجهل، لا يعرف الألم ولا يعرف الأمل، أن الكمال فيه اكتمل.

إذن نجح غريمي أينما أخفقت. لا بدّ من معرفة سرّ نجاح من القمني علما. فتحت الكائن لدراسة مستفيضة واضعا فوقه مشرطي لفصل ما كان يبدو لي مكوّنا من جزأين الصفا معا بعناية وإحكام. لم يكن من السهل تقريق الشفاه ولم يكن من السهل وضع الفضاء بين صدرين متلاحمين. لم يكن من السهل اقتلاع الجزء الأسفل من الجزء المقابل. كم عانيتُ وأنا أفضل الأذرع عن بعضها البعض، لكن المقاومة المستميّنة للكائن لم تُجدِ نفعا. أخيرا رقصت طربا وأجهزة تحسّس الذوات تعلمني أن الواحد الذي جعلته زوجا أصبح يشعر بالألم، بالعري، بالعار، بالوحدة وبالانفصام. لإتمام انتقامي سارعتُ بوضع الخوف والنفور

والجفوة من النصف الآخر داخل كلّ نصف مبتور حتّى أعرقل، ولم لا أمنع بحثا محموما
عن اللقاء، وإن تمّ ألا يدوم طويلا. هكذا تنفّستُ الصعداء وأطلقت صرخة النصر وقد
صنعتُ من واحد كامل اثنين ناقصين أنا أكبر مهندسي العتمة، أنا الذي تسمونه إبليس."
الأدميون كائنات مشطورة لا تستجمع ذاتها إلا إبان تجربة الحب؟!
نحن كائنات محكوم عليها بالجري الدائم وراء ذات مكملة لأن وجودنا إلا يكتمل إلا
بوجودها ؟ !

**

ما نتعلمه عنهم أين تتعري أجسادهم

تفتح “ح” فمها مندهشة وهي تسمع اقتراحي لسهرة نهاية الاسبوع.

- علبة ليلية!

أهزّ الكتفين:

- كفانا متاحف ومحاضرات وأوبرا. الليلة عرض “الستربتيز” ولا شيء آخر.

تقطّب “ح” الجبين وفي نظرتها شيء من القلق.

- سأتحمل من جديد خطابك الممل عن الطبقات العاملة المسحوقة، ومسؤولية أيديولوجيا السوق البيغضة في تسليع النساء والتعدّي على الكرامة البشرية الخ الخ. لا شكرا، وعلى كلّ هذه عروض لكم أنتم الرجال.

- أنا بحاجة لزيارة هذ الأماكن لمواصلة أبحاثي.

- أبحاث؟! وعلبة عري!؟

- نعم أريد أن نسهر هذه الليلة في أخطر أحياء هذه المدينة، في أفقر أزقتها، في أحقر علبة ليلية فيها. أي قيمة لشهادتي عن الأدميين إن اغفلت بشرية الليل من مومسات وقوادين وسكارى ومشرددين وتجار مخدرات وضحاياهم. أرجوك، لا أتجاسر على دخول هذه الأماكن وحدي.

- خشيتك من العيون؟

- التي بداخلي.

يتلقفنا ليل متجهم لا ينفع في تحسين نواياه ما تتكلف المدينة من أنوار.

الليل! فترة الزمان التي تتوارى إبانها الأشياء عن الأنظار تستعيد أنفاسها لكثرة ما مسحتها الأنظار... التي يعاودنا فيها أمل الاختفاء عن أنظار الله والشيطان والمخبرين...

أخيرا قاعة ضيّقة عائمة في شبه ظلام تعبق برائحة التبغ والعرق ورخيص العطر. أجيل البصر بين الجمهور والخشبة التي تنتظر قدوم البطلة. تطيل رفيقتي النظر إليّ باستغراب غير مفتعل.

- مالك تنظرين إليّ، لست أنا الذي سينزع ثيابه.

يقطع علينا بداية افتعال مشادة ضاحكة بروز شابة شقراء، فارعة الطول، مكتنزة الصدر، خرجت من وراء ستار قدر لتحتل ركحا بحجم طاولة صغيرة.

“أنت تزجي ردفها بقوامها... فتأطر الأعلى وماج الأسفل” (ابن هاني)

تنفجر “ح” ضاحكة:

- تعني! أنت! أظنّ أنّي مُقدمة هذه الليلة على أكثر من مفاجأة.

- ألا يغنون؟ لم لا أغني أنا أيضا؟

- أنتم الرجال لا تتحدرون من القردة وإنما من الخنازير. من حسن الحظّ أنّي لا أفهم الكلمات.

- إنّها كلمات جميلة وجدّ مهذّبة لأغنية قديمة من بلدي عن جميل لما بدا يبتنّئ. ردّدي معي: أمان أمان، وبالمناسبة كُفّي عن إصااق التهم المشينة بالخنازير. تبدأ "الفنّانة" في التتني وهي ترسم على شفيتها ابتسامة مهنيّة تستشفت من وراءها بقايا خجل الطفلة وبعض حرج الصبيّة، وتواصلُ الحياء والشعور بالإثم عند المرأة المكتملة النضج.

هذا وجه آخر لم تزل في رسمه يد الرسام الأعظم... كم من نماذج أخرى سيخلق على مرّ عصور قبل أن يضع ريشته وقد علّت على محياه ابتسامة النصر؟
- بهرك جمالها، أليس كذلك؟

- لم تعد تخدعني أنّي مهمما وضعت على وجهها من أصباغ ولبست من حلي وحلل. لكي أحكم على امرأة بالجمال، يجب أن أراها مستيقظة من النوم بشعرها المنفوش متوجهة بالبيجاما إلى الحمام لغسل أسنانها. وفي كل الحالات لا أخشى شيئاً قدر التورط مع النساء الجميلات. ألم تسمعي بالمثل الإفريقي: "من يتزوج امرأة جميلة له نفس مشاكل من يملك أشجاراً مثمرة على قارعة الطريق".

- شكرا على كل هذا التغرّل بي.

تعرض عني "ح" لا أدري هل هي حقا غاضبة فعلا أم تفتعل الغضب.
كل انتباهي مركز المرأة التي على الركح لا التي بجانبها.

تشرع " الفنّانة" في خلع قميص جدّ شفاف ترميه بلطف على كرسيّ هو كلّ الديكور. من ينتبه أن الثياب لا توضع على الجسد فقط للزينة والحماية والتميّز وإنما لتقول للصيد: تحت الغلاف جوهر النصح. يا إلهي، كم في هذا الجسد من جمال، كم فيه وعود متعة، كم من خصوبة لتجدّد معجزة المعجزات! كأني بجحافل الكائنات التي تدقّ على باب العالم تتضرع لطاولة القمار أن تسحب رقمها لتفوز بشرف الولادة وقداسة الحياة من هذا الجسد بالذات.

تتهرني "ح" لا تخفي غيرة قد تكون أدهشتها وأزعجها ظهورها.
تأخذ المرأة في اللف والدوران على نفسها.

ثمّة هذا الرقص من قبل هذه المبتدئة وثمة الذي تغفر فمك أمامه وأنت تتأمل الراقصة الروسية تكاد تطير في السماء محمولة على ذراعي مراقصها أو الراقصة الهنديّة تروي بحاجبيها وأصابع اليدين وقدميها ملحمة راما وسيتا.
تهمس في "ح".

- وتسمّي هذا رقصا !

- لم نأت لمشاهدة باليه بحيرة البجع أو ما تيسر من البهاراتانتيام ...

فجأة يتعالى الصفير والصراخ والمرأة تنخرط في معاينة حمالة الصدر.

تبلغ هستيريا النظارة أوجها عند نزع الصدرية ورميها بدلال على الكرسي فوق القميص. يثير الصدر العاري زمجرة تتخللها آهات تعجب، أو دهشة أو وجع. تبدأ المرأة المسكينة اللعب بأزرار بنظونها الضيق تعد بعرض المستور على من جاءوا لهنك كل ما يحرمه نفاقهم المعتاد.

مسكينة! حقًا؟ من قال إنها لا تشارك مرح المتفرجين، أن اللعبة ترضي لديها حاجة أعمق من حاجة المال؟ ألا تعلم ما يعتمل في أنفوس مشاهديها من إعجاب بجمال جسم فائن للأنظار، سالب للعقول؟ كأني أسمعها تهمس للمشاهدين: انظروا، تأملوا، سبحوا. هل هذه المسرحية إخراج آخر لتعبد الأدمي للشكل الذي تجسد فيه وهو شغله الشاغل صيانة وتعهدا وتجيلا منذ أولى خطواته على الطريق؟

الجسد! كم له من تماثيل، كم من لوحات، كم من قصائد، والرقاص دوما من تدنيس إلى تقديس ومن تقديس إلى تدنيس.

يُرمى البنطلون بلامبالاة مدروسة فوق القميص الشفاف والمرأة تواصل التثني على أنغام موسيقى عاهرة. المأدبة أمام الجائعين ولا مجال للإمساك بما تعد. تنفجر شتيمة حقيرة أرتج لها كما لو كانت لكمة طائشة أصابنتي في الوجه. هل ما زالت مثل هذه التعليقات البليدة تثير في هذه المرأة مشاعر المهانة؟ أم هل تصفحت هي الأخرى كالسياسي ووحيد القرن؟ ثم تتسارع وتيرة الكلمات البذيئة يطلقها مراهقون تسللوا إلى قاعة رغم أنف القانون ونظارة هائجين لا شك أن فيهم من هم تحت وطأة الخمر أو مخدر ما.

هم لا يختلفون في شيء عما تلاقي في الندوات العلمية والنزل الفاخرة وقاعات الانتظار الشرفية في المطارات. الفارق الوحيد أنهم يرتدون ملابس أقل تكلفة ويلعبون أدوارا أقل تكلفا.

تهمس "ح" وفي صوتها نبرة لا تيشتر بخير.

- خذ بالك، ستسقط نظاراتك من فوق أنفك.

- هكذا تكون النهود وإلا بلاش الافتعال والتكلف عند بعضهن.

- أخطبها لك؟

- الآن؟ وبلا مقدمات.

- كن على حذر. ذقت أطافري ولم تجرّب حتى الآن عضتي.

- صمتا يا امرأة، تألمي هذه اللوحة.

تدير الراقصة ظهرها للقاعة الهانجة تمنح للبصر عجزا مكننزا لم يرسم مثله حتى ذلك الفنّان من بلاد الفلاندر المسمى "جوردانس". أخيرا تضع الفنانة يديها على طرفي قطعة من قماش تغطّي بصعوبة ما يخفيه الأدمي عادة بين فخذيه، أكان ذكرا أم أنثى.

يا ترى كم من هؤلاء النظارة الهائجين لم يدخلوا هذا المكان القبيح لإنكاء شهوة جنسية وإنما لغايات مبهمة كالتي دفعتني اليه؟ هل هم بصدد رؤية ما أرى خلف المظاهر الخلاب؟ ... هل داهمتهم هم أيضا صورة نظارتي بُعد وقُرب وُضعتنا على العينين التي كان

بهما حور؟ أسنان سوداء وأخرى صبيغها النيكوتين بالأصفر... نهدان سقطا فوق البطن
وبطن سقط فوق الركبتين وركبتان تننان بحمل ما لا يطاق من مترهل اللحم والشحم...
على من يتهكمون؟ ... هل شتائمهم موجهة إلى المرأة أم للذي يرهل ويمزق ويكس كل
جسد جاعلا حتى من هذا الذي اكتملت فيه كل الأوصاف خرابا كنييا؟ ... هل هذه العلبة
الليلية الحقيرة محراب نتعبد فيه للآلهة خالفة الحياة والصحة والجمال، ونبصق عليها لما
تفعله بكل هذه الروائع؟ ... أتراني في كنيسة يجوز فيها الجمع بين ما لا يجمع في الكنائس:

الصلاة والسكر، العبادة والكفر، التقديس والتدنيس؟

تهمس "ح" في أذني: كأنك كنيب فجأة، حدثني، ما بك.

أحدثها عما يتصارع داخلي؟ ستضربني بحذائها وهو يكعب عال منيب.

لماذا لا أشارك أنا أيضا في تدنيس كل هذا المقدس، أنقم ممن جعل من هذه الروعة قمامة
متجولة سترمي يوما لقممة ساعة للدود.

- انظري. إنها بصدد خلع القطعة الأخيرة!

- رُب ضارة نافعة، وقد اكتشفتُ هذه الليلة وجهك المخفي قبل أن أتورط معك، يا رجل
هل أنت واع أنك تكاد تنهض من مقعدك؟ المرة المقبلة سأحجز لك مكانا على الركح حتى
لا تفوتك شاردة.

يتواصل نزول السروال الداخلي ببطء مدمر لأعصاب بعض المتفرجين، مثيرا لموجة من
الضحك تعتمل داخلي. أصرخ مفتعلا الحماس الشديد:

- لا أصدق أنها ستتجاسر. لقد وصلت به إلى منتصف الفخذين.

- لا تقفعل البلاهة. أليس هذا ما أتيت من أجله أنت وهؤلاء الخنازير؟

من الأضمن العودة للضحك وهو من قديم الزمان البديل عن البكاء.

- أقول لك: لقد وصلت به إلى الركبة وكأنها عازمة على!، انظري، وصلت به منتصف
الساقين، أقول لك: ستخلعه!!!

- وماذا كنت تنتظر؟ أن تحاضر في النحو المقارن.

- تحدثيني عن النحو المقارن والخليعة تتأهب لقضاء حاجتها الطبيعية أمامنا! يا الله بسرعة
ورائي، لا أظن بول أو خرا حتى هذه الحسنة يعبق برائحة الفلّ والياسمين.

تواصل "ح" الضحك داخل السيارة ونحن نشق طريقنا نحو البيت. ثم تتوقف لتصرخ
في تقفعل الغضب.

- على فكرة لا نقل لي إنك تريد العودة لمثل هذه العلبة الحقيرة التي جررتني إليها الليلة.

- لمواصله أبحاثي هناك أماكن ثرية بالمعطيات هي الأخرى ولن تمناعي في الذهاب إليها
كما لا خشية لأن نلتقط لي صورة على أبوابها... إنها الأماكن التي تتعري فيها النفوس وهي
كما تعرفين أماكن لا نقل إثارة عن التي تتعري فيها الأجساد.

الممثلون

ليس من باب الصدفة أن أول من علّم الأدميين بناء المسارح-في تصورات الهندوس-ربُّ اسمه فاكسمان، أن مدربهم على الإيقاع كان ربا يسمونه شيفا، وكانت أستاذة الرقص الرَبَّةُ بارفاتي، وأن براهما إله الالهة لا غير هو أول من علّم الأدميين فنّ التمثيل؟ لهذا لا أدخل مسرحا إلا وجاءتني لحظة فكرة ترك نعلّي عند الباب ولا أدخل معيدا إلا لتقييم طرافة الإخراج وبراعة الممثلين.

قد لا يتفق معي الكلّ في كون المعابد مسارح والمسارح معابد لكن المسارح بلا شك أو جدل من أهم الأماكن لتفحص الأدميين...ومن ثمة مواظبتي على ارتيادها. يشاء حسن طالعي هذه الليلة أن يعرض أكبر مسارح المدينة مسرحية طبقت شهرتها الأفاق لعبقري لا تمضي ليلة واحدة على هذا الكوكب دون أن تعرض في مكان ما إحدى أعماله.

أغرقت في المقعد الوثير متنفسا الصعداء أرهقتني طول الطابور. تمرّ بين الصفوف امرأة مبتسمة بين يديها رزمة من المطبوعات الأنيقة.

- سيدي هل تريد البرنامج؟

- نعم إن سمحت برنامج الرحلة.

- عفوا!

- كنت أمزح. تفضلي أعطني برنامج السهرة.

ثمة من الطرفاء من تكفل بحساب البرنامج الذي يهمني فبين أن الأدمي الذي يعيش سبعة عقود يقضي ثلاثين سنة في النوم، اثنتا عشرة سنة في مشاهدة التلفزيون، اثنتا عشرة سنة في الترترة، ثماني سنوات عمل، ثلاث سنوات في الأكل، سنتين في الهاتف (إحصائيات ما قبل ظهور النقال)، ستة أشهر في المراحيض.

تبّأ لهذا برنامج من الأحسن نسيان هذه الأرقام المفزعة والتركيز على الكتيب الأنيق وفيه بعض المعلومات عن توقيت السهرة والفرقة المسرحية والسيرة الذاتية للمخرج الشهير.

ثرى هل بوسعه أن يأتي بشيء من التجديد في مسرحية تعرض منذ أربعة قرون؟

أه لو تُرك للمثلين حقّ التصرف في النص والارتجال في كل لحظة حتى لا يشبه عرض الليلة عرض البارحة، ولا خشية لعرض الغد أن يكون ترديدا لعرض الليلة.

أه، لو تُرك للنظارة حقّ اقتراح تغيير بعض المقاطع وحتى السيناريو بأكمله لا يهم أن يتقلب المؤلف في قبره سخطا أو أن يصقّق صارخا برافو هكذا أحسن بكثير!

تقول: لكنها ستكون الفوضى؟ بكل تأكيد. لكن أليست قصصنا فوضى من الأحداث والحوادث، لماذا لا تضيف لها الكتابة فوضاها الخاصة؟

أجبل البصر حوالي على أقصى قدر ممكن من الانتباه.

أنا الآن في مكان لتشريح النفوس يذكرني بالأماكن التي كنت أرتادها طالبا لتشريح الأجساد. إنه أيضا المجهر الذي يمكننا من النظر في الذات الأخرى، نكتشف فيها المستنقع والجدول والشلال الذي فينا. إنه المختبر الذي ندخل فيه الأعماق المظلمة لهذه الذات ونحن في مقاعدنا الوثيرة لا نتعرض لخطر. إنه العالم المصغر الذي نستطيع فيه وضع اسم وصورة على كاتب السيناريو وتوهم معرفة مقاصده نعوض سحر يا جهلنا بكاتب السيناريو الكبير وبما يريده منا نحن البشر التائهين بين فضائي الواقع والخيال.

تتطفئ الأضواء تدريجيا.

يزّاح الستار ببطء مبالغ فيه.

يُرفع الجسر الرابط بين الفضاءات. نترك خلفنا ما نسمّيه “الواقع”.

تتطلق الأفعال والتفاعلات التي جننا جميعا للتمعن فيها.

يبدأ الممثل في الصراخ ليعلمنا جميعا أن ألما فاق كل حدود التحمل يمزق روحه.

- “في نومي وبيد شقيق! انثرت مني في مرة واحدة الحياة والتأج والزوجة. يا للفظاعة! بين شبح الملك المقتول يستنهض همة ابنه يحفز فيه أعمق غرائز الأدميين: الانتقام.

- لا تترك فراش ملوك الدنمرك يُدنس بالفسق والزنا اللعين”.

في المشهد الموالي يراقب كلوديوس الملك المنقلب ابن أخيه وهو متزايد القلق. هل فهم أنه قاتل والده وعشيق أمه؟ أنه استولى بالخيانة والغدر على الملك والملكة؟ هل لديه شكوك؟ أدلة حول جريمة ما فوقها جريمة؟

لوضع النقط على الحروف وتسمية الأشياء بمسمياتها لنقل أننا أمام جريمة تصفها البلاغة بالنكراء والجريمة خاصة يتميز بها الأدميون عن بقية الكائنات التي لا تقتل ولا تسرق إلا لضروريات البقاء. أما الأدميون فيقتلون ويسرقون للتمتع بالكماليات، للتسلط على الآخرين، للانتقام، لإثبات الذات، للرياضة وأحيانا دون أدنى سبب.

هذه الجريمة التي هي عقدة المسرحية تسمى جريمة دولة أي أنها ما يرتكبه حماة القانون من انتهاك للقانون وهم في مأمن من كل محاسبة أو عقاب.

لو يعلم الناس أي نوع من المجرمين يسكنون القصور التي تتحكم في حياتهم لما استطاعوا النوم ليلة واحدة والقاعدة في عالم الأدميين صغار المجرمين في السجون وكبار المجرمين في القصور. لا ذكرى لصغار المجرمين إلا في الصحف الشعبية وملفات المحاكم أما كبار المجرمين فذكراهم محفوظة في كتب التاريخ. صغار المجرمين للسب واللعن، كبار المجرمين لعبادة الجماهير الغبية.

المسرحية أيضا عن خاصية أخرى يتميز بها الأدميون وهي نكث العهود والعقود. أغلب قصص الأدميين تبدأ بالخروج على عقد وتنتهي بصياغة آخر، وكل عقد مآله الانتهاك عاجلا أو آجلا. لذلك هم دوما بحاجة للدعاة والقضاة عليهم يحفظون عقودهم من نزع الغش المتأصلة فيهم. عبثا.

يتوجه الملك المجرم إلى هاملت خائفا متوددا، يقيس مدى علمه بجريمته النكراء.

- "إنه جميل ومحَبَّب من طبيعتك أن تؤدِّي واجب الحزن تجاه والدك. لكن يجب أن تعلم أن أباك فقد أبا وكذلك والده، ومهمّة الباقي على قيد الحياة التقيّد بواجبات البنوة في الأسي، لكن لمدة. أما الإصرار عليه فعناداً كأنه الكفر".

تصرخ أوفيليا حبيبة هاملت: نهض الملك.

كيف لا ينب من مكانه هذا الذي مرّق عهدا مقدسا ربطه يوما بأخيه وهاملت يروي، منكفأ السداجة، قصة تخلّص إيطالي اسمه "كونزاجو" من أخيه، وزواجه بامرأته، مع كل تفاصيل القتل بسم مسكوب في الأذن.

يصرخ الملك القاتل: عليّ بالنور، النور!

أي نور قادرٌ على إضاءة الظلام الدامس الذي يتخيّط فيه، ومن أيّ مصباح سيشتع؟ ليست الأمّ الخائنة، الخائبة، الخائفة، بأحسن حال. ها هي تحت بولينيوس على أن يصدّقها القول بخصوص تغيير طبع هاملت. تُرى هل يعلم ما فعلته الأم التي حملته في أحشائها؟ يصرّح الرجل برأيه كمن يُصدر قرارا لا طعن فيه:

- "سأختصر. ابنك النبيل مجنون. أسميه مجنونا وما الجنون إلا أن تكون غير مجنون".
- "أريد أكثر مادة وأقلّ بلاغة".

- "يا سيّدي، أقسم أنني لا أبحث عن بلاغة. إنّه فعلا مجنون وإنّها لمأساة".

تتوسّل الملكة إلى ابنها الذي أفقدته الجريمة النكراء صوابه.

- لا تقل شيئا آخر. كلماتك خناجر تدخل أذني. بلا مزيد يا حبيبي هاملت.

يواصل الملك افتعال السداجة.

- هل يكون السبب الذي أخرج هاملت من عقله موثّ والده؟

يستحيل الصبر على كل هذا القدر من سوء النية وهو أكره ما أكرهه عند الأدميين.

يستسلم الذهن كالعادة لأفكار تتدافع من أعماق اللاوعي وقد انهارت الحدود المصطنعة بين ما يسمى الواقع وعالم الخيال. ها أنا وقد أصبحت أتحرّك في فضاء مواز أرفع إصبعي في وجه هذا المنافق.

- عيب يا رجل. ألا يكفي أن تقتل أخا، أن تنام مع امرأته وأن تسلبه ملكه، والآن تسخر منّا متسانلا عن أسباب فقدان هاملت عقله وأنت أول من يعرف السبب.

يرمقني القاتل بحقد:

- ما دخلك أنت؟ أنا حرّ أقتل من أشاء وأنزّوج من أشاء.

يقرب روزنكراتز وقيلدنستارن رأسيهما من الملك يهمسان في أذنه.

- من الأحسن يا صاحب الجلالة ألا تردّ على هذا الصعلوك القادم علينا من قصة أخرى

ومن مستوى آخر لعالمنا، فهو مُعارض وكنك المعارضين للسلطة بقلبه مرض.

إنها لعنة التي تلاحق حكام كل زمان ومكان. هم لا يتعاملون إلا مع مفتري أو متملق أما الصديق الصدوق فملتزم الصمت لفهمه عبث كل نصيحة.

يعرض عني الملك بوجهه راسما على ملامحه ما يقدر عليه من علامات الاحتقار. جرحته وهذا المهمة. ترمقني الولية امرأته باستهجان، فأغتم الفرصة لأسمعها رأيي دون خوف، وملقي بخصوص سبب السلطات العليا زاخر، ولا تُضيرني قضية إضافية.

- كيف لا يُجنُّ هاملت زيادة عن الجنون الطبيعي للادميين! أي إنس أو جان يستطيع المحافظة على معنوياته وأمه قتلت والدّه وتنام في فراشه مع شريكها في الجريمة! امش، يلعن أبوك يا قحبة.

يواجهني الممثلون باستنكار مفتعل: يا رجل كفت عنا أذاك وبذاءة لسانك. ألا ترى أنك تشوش علينا. نحذرك من التمادي في هذا التدخل السافر في شؤوننا.

يا لخبية الأمل وأنا أرى بينهم هاملت وحتى أوفيليا حبيبته الطاهرة. كأنهما طعنا في الظهر الفارس المغوار الذي هب لنصرتهما. لكن جحود الأدميين ونكرانهم للجميل أمر عادٍ، يكرمون اللئيم ويتمردون على كل كريم مُذُوجوا.

أجبل البصر حولي أقيم مدى تأييد القاعة لي وتفهمها لغضبي المشروع واستعدادها للدفاع عني إذا نشبت معركة عامّة بين النظارة والممثلين. أفاجاً بهدوء جيراني، ذلك لأن أطوار المشاهدة لم تخرج لحظة من فضاء خيالي ولو أخطأت التوقع لجزوني مباشرة إلى مركز الشرطة أو لمستشفى المجانين، ذلك المكان الذي يذهب إليه الأدميون عندما يخلطون بين الفضاءات المكوّنة لعالمهم.

*

ينتهي الجزء الأول من العرض. يختفي الممثلون وراء الستار تحت وإبل من التصفيق. غريب والله أمر هؤلاء الناس. يصفقون للمرأة وهي ترجع لهم أبشع الصور عنهم تريهم بوضوح ما الذي يقدر عليهم من جشع ونفاق وكذب وخيانة وغدر!

يعبر جاري بصخب كبير هو الآخر عن بالغ رضاه بأداء الممثلين. ألتفت إليه باسمًا متأدبًا:

- أتصوّر! أخ يقتل أبا وينكح الولية امرأته! كل هذا من أجل سلطة زائلة!

ينظر إليّ الرجل الأنيق بحدس. مؤكّد من مظهره أنه إطار كبير في شركة ما، يعمل ليل نهار لإرضاء رؤسائه ورفع الانتاج القومي الخام، ومع هذا يأخذ الوقت للذهاب إلى المسرح لأنه ليس كبقية زملائه الأغبياء الذين يتوجّهون من مكاتبهم مباشرة إلى الحانات المسكين! سيموت ككل الجهلة والسكيرين، ككل الأجانب وأصيلي هذه المدينة.

يفتح برنامج السهرة يُشعرني أنه لا يتوي فتح نقاش مع غريب مشبوه.

من قال له إنني لا أنوي الصمت؟

- يا لها من أخلاق! ثم أين احترام القانون؟ كم أنا متشوّق إلى معرفة الخاتمة. هل تظن أن هاملت سينجح في الانتقام من عمّه؟ بالمناسبة، من هو مؤلّف هذه القصة التعيسة؟

- (بلهجة البعض عند كلامهم مع الأطفال والنساء): ألم تقرأ الاسم على اللافتة؟

- لم أنتبه. كنت أريد الهروب من المطر ودخول آية قاعة لقضاء السهرة. لَمَّا رأيتُ طول الطابور قلت لنفسي: لا بدَّ أنه عرضٌ جيّد، فلم لا أجرب؟ يا سيدي هل أنرتني مشكورا باسم مؤلف هذه المسرحية الركيكة؟

- المؤلف وليام شكسبير “مون بون مسيو”.

- وليام من؟

- (بنفاد صبر وشيء خفيف من التهكم):

شكسبير، شك-سبير. ألم تسمع عنه من قبل؟

أحدّق في الفراغ مُطوّلاً.

- فعلا سمعت هذا الاسم. أليس مؤلّف القصة التي عرضوها العام الماضي في التلفزيون والتي وقعت أحداثها في مدينة إيطالية اسمها “فينيسيا”؟ زرتُ هذه المدينة شخصيا، لكنني وصلتُ إليها، وبختي كما تعرف، غداة فيضان لا يُصدّق أغرق كل شوارعها في وديان من الماء. هؤلاء الإيطاليون وقصصهم التي لا تنتهي عن “الفاندتا” والشرف الذي لا يُحفظ إلا وقد أريق على جوانبه الدم!

- (باحترار دون مساحيق) شكسبير ليس إيطاليا “مون بون مسيو”.

- صحيح ما أعباني، إنّه دانماركي بالطبع.

- (بمرح مفاجئ والرجل يكتشف متعة الحديث مع هذا المتخلف القادم من وراء البحار)

ولا هو دانماركي رغم المسرحية، إنّه إنجليزي “مون بون مسيو”

- ماله إذن ومشاكل الطليان والدنماركيين؟ أليس الأقربون أولى بالاهتمام؟

- (ببداية نفاذ الصبر) جُلّ مسرحياته عن مشاكل مواطنيه الإنجليز.

نعم، لكن عن نوع معين من الإنجليز... الذين يسكنون قصور شاهقة تشهد أروقتها أروع القتل والانتحار بعد أن أرفقت أبطالها القضايا الفلسفية الكبرى من نوع “تكون أو لا تكون”... بصراحة أفضل أبطال تشيكوف ومشاعلمهم التي لا تتجاوز ما العشاء هذه الليلية، وهل ما زال هناك بعض الفودكا في الداتشا الأيلة إلى السقوط والتي يريد ابن الكلب بيعها قريبا دون أن يشغله مصير من خدموه خمسة وعشرين سنة.

- طمأننتي. على فكرة، هل سيكرّمه الجمهور في آخر العرض؟ في أي شرفة تظنّ أنّه جالس؟

يحدّق في الرجل بذهول. لا شكّ أنه قرّر أن يروي الطرفة، واختار من سيتحفهم بها. كم أودّ سماع التحسينات التي سيضيفها والأوصاف التي سيتكرّم بها علي.

- “مون بون مسيو”، أخشى ألا يكون قادرا على استجماع رفاته فالرجل مات منذ قرون.

هذا الأدمي المحظوظ يعرف اسم المؤلف وجنسه وجنسيته، بل يعرف أنه مات منذ

مئة لا يقدرها بالضبط... لكن هل يعلم أن هناك خصومة متواصلة منذ قرون حول هويته

الحقيقية، وهل هو الذي تجري بذكره الركبان أم أرسنقراطي انجليزي كان يخشى على

نفسه من الرقابة ومشاكلها المقرقة؟ ... هل يعلم أنّ مقاطع كثيرة كتبها المؤلف، أُسقطت

من النصّ وأخرى تُصَرَّف فيها الناشر دون رخصة إلا من أنفسهم؟ ... هل يعلم أن قسنا أعاد صياغة نهاية المسرحية ليتمتع هو والمشاهدون ب "هابي أند"، وأنّ مُراجعة النصوص وتزيينها قاعدة لم تسلم منها حتى، بل قُل خاصة، تلك التي تُرْتَل في المعابد؟ ينهض الرجل من مقعده يدير لي ظهره بكل ما يقدر عليه من احتقار. إنها الاستراحة. الوقت الضائع... الوقت الضائع؟! بل هذه فرصة للتجول بين المتفرجين والانتباه لما لا أعيره عادة أدنى اهتمام.

ما الذي يمكن تسجيله في دفثري الصغير عنهم وهم يتدافعون نحو المشرب لتنتلق الألسنُ بعد أن فُرض عليها أن تبقى حبيسة الأفواه أكثر من ساعة؟ أول ملاحظة أنهم تكلفوا ما تكلفوا من جهد ومال لحضور هذا "القدّاس" حتى يروا أنفسهم الأمانة بالسوء في مرآة الممثلين، حتى يروا أنهم ليسوا وحدهم ضحايا مقادير ظالمة ، ليستمعوا إلى وعظ يواصل الذي يسمعون في المعابد الرسمية يؤكد على أهمية الالتزام بالوصايا العشر وعواقب الاستخفاف بها... بالجدوى المعروفة لوعظ المعابد والمسارح. لا علينا، هم وضعوا للحظة كل هذه الأمور الجدية بين ظفرين. همهم هذه الدقائق المعدودة ممارسة رياضتهم الروحية المفضلة: الشكوى من ظروف الرحلة، تحديدا من "عزّ مضي، من حلول مُصيبة، من رحيل الشباب، من حبيبة خانت العهد، من عمر كله ألم، من تجارة في صراع هائل، من عدّى علّت صيحاتهم، من كفت ليس فيه درهم، من ليالي تجرّع العلقم، من دنيا يأتي إليها المرء مرعما ويغادرها مكرها".

من أين لنا حقّ الشكوى؟ ما الذي قدّمنا لحياة أعطتنا دون تقنير للمس والشم والسمع والنوق والبصر؟ ما الذي قدّمنا لعالم أعطانا دون مقابل البحر والنهر والسهل والجبل وليل الصحراء؟ ما الذي قدّمنا لكل من أعطونا دون من قصائدهم وموسيقاهم وعصارة أفكارهم ليسهلوا علينا الحياة والموت؟

موضوعهم المفضّل الثاني رواية خصوماتهم التي لا تنتهي مع كل من يعيشون معهم. هذا الخصام الأزلي هو الذي يُعطينا في فضاء الحواسّ الحروب والانقلابات والإرهاب والشجّار على الطريق العام ومشاكل الخيانة الزوجية والطلاق وخطف الأطفال والنصب والسرقة والقتل بين الأحباب، جلّ العفن الذي يمكّن طفيليات تُعرّف بالمحامين والقضاة وكتبة المحاكم والسجّانين ومُرّوجي الأخبار الوسخة، من الارتزاق الشريف.

أما في فضاء الخيال -بالأساس في الروايات البوليسية- فالمواضيع دوما حوّل من كره من ومن تأمر على من، ومن قتل من. هكذا تُعبّر العالم وأنت تسمع وأصواتهم تتصاعد من الشارع، من صفحات الكتب، من المسارح بالنقد والتجريح والتهمك والسب والشم والإدانة والتهديد.

يقال أنهم يواصلون خصوماتهم حتى في فراش الزوجية. الدليل هذا التلخيص لدراسة علمية كما نشرته صحافة اليوم: "وأشارت (الدراسة) إلى أن التملل احتل المرتبة الأولى على لائحة أكثر الممارسات العشر المسببة لمشاحنات السرير في أوساط المتزوجين

البريطانيين، تلاه الشخير في المرتبة الثانية، ودرجة حرارة الجسم المختلفة في المرتبة الثالثة، واحتكار الغطاء في المرتبة الرابعة، والامتناع عن المعاشرة في المرتبة الخامسة. واحتل إخراج غازات البطن المرتبة السادسة، وعدم إطفاء ضوء غرفة النوم السابعة، ومشاهدة التلفزيون عند نوم الطرف الآخر في المرتبة الثامنة، والاختلاف على موعد الذهاب إلى النوم في المرتبة التاسعة، في حين جاء تقاسم السرير مع الحيوانات الأليفة في المرتبة العاشرة، الأخيرة.”

اللعة! اللعة! أضجرتموني بخصوماتكم العيبية، بخصوماتكم السريالية، بخصوماتكم المأساوية، بخصوماتكم الدموية، بخصوماتكم وأنتم أطفال في الخامسة وأنتم أطفال في الخمسين... كَفُوا عن خصوماتكم بخصوص مَنْ ملك الحقيقة ومن يزال أسير الخطأ، مَنْ دان بالدين الصواب ومن يتخبط في أساطير الأولين، من الأجدر بالحكم ومن الأقدر على ممارسته... كفى... أغربوا كلكم عن وجهي، لم أعد أتحمّل المزيد من خصوماتكم المقرفة... ماذا؟ استجيتم لدعائي! صدقتموني؟ مع من تريدون أن أتمتع بلذة المصالحة بعد أن تمتعت بلذة الخصام؟

*

يرنّ الجرس منذراً بنهاية الاستراحة.

يجب العودة إلى مكاني ومواصلة افتعال الاهتمام بخصومات هملت وأم هملت وخطيبة هملت وجدّ أبوهم كلهم.

ها هي أوفيليا تركض في أروقة القصر تتمم مرة لنفسها ومرة لتولول فقدت المسكينة عقلها.

- "حملوه على النعش عاري الوجه، هاي نون نوّي نوّي هاي نوّي، وعلى قبره

تهاطل المطر دموعاً"!!!

يتوجه لارتس شقيق أوفيليا إلى السماء في قمة الاستنكار وقد أفقده الألم هو الآخر صوابه بانتظار أن يرحل بعقله.

- هل ترى هذا يا ربّ!؟

المسكين! لم يفهم بعد أن الربّ رأى هذا وأكثر لا يهमे استنكار الأدمي لصمته وهو يعلم أن هذا الكائن هو في نفس الوقت أوفيليا الضحية البرينة وكلوديوس القادر على موفقات يجمّر منها وجه ابليس.

لا يهمننا الآن موقف الخالق من خليقته وهو موضوع شائك سنعود له لاحقاً. المهمّ صرخة لارتس وكيف أنها تختزل أهمّ ما في هذه المسرحية أي ما يعانیه الأدمي من آلام طوال الرحلة.

تتفحص المسرحية بكثير من الدقة عيّنات من هذه الآلام وخاصة أسبابها الخفية. انظر آلام الملك القتيل. هو ظنّ نفسه بمأمن من قانون أنّ كل الغنائم مكسبّ نضعه على قائمة ما سنخسر يوماً. مما يزيد في الوجع طريقة فقْد ما نتوّه امتلاكه. يصرخ الشبح في

قمة الاستنكار: "في نومي وببد شقيق!" المسكين! ما زال مقتنعا أنه لو قُتل بطلا في حرب مقدّسة لهان الموتُ أما أن يُسلب الحياة خيانةً وببِد شقيق فلا تُمّ لا. تمنّع في آلام الملك القاتل وعشيقته. الإشكالية هنا ثمن هذا الذي نحصل عليه يوما لنفقدّه يوما آخر. هو أغلب الحال شكل أو آخر من سلب الأرزاق أو سلب الأعراض أو سلب الأنفاس. من استطاع الوصول إلى غاياته عندما يتعلّق الأمر بالصراع على الملك والجاه دون عون من الشيطان؟ حتى أبسط الأشياء لها ثمن في هذا العالم التعيس. عبّرت آدمية عن هذه المظلمة أحسن تعبير متنهّدة: كلّ ما أحبّ في هذه الحياة حرام دينا أو محظور قانونا أو يزيد في الوزن.

قراءة تكميلية لموضوع كوننا على الدوام كائنات مَوْجُوعَة مَوْجِعة لتنصّور عالمنا مبنيا على شكل عمارة وسكانها موزعون على طوابقها حسب ما شاءت طاولة القمار.

القاعدة الأولى: إصرار سكان الطبقات التحتية على الصعود إلى فوق، وإصرار من هم فوق على عدم النزول تحت. كلّ هذا لقناعة تُستبطن باكرا من قبل الجميع أنّ حدة الآلام تَجفُّ مع العلوّ، والحال أن كل ما يتغير هو الديكور وملابس الممثلين. أسمال في الطوابق التحتية، بدلة رخيصة في الوسطى، أجمل الحلّي والحلل في العليا وهيكّل الآلام الذي غُطي بالأسمال أو بالمجوهرات واحد. ما أسخفه من صراع أخذ جلّ وقت رحلتي، والرهان" التمتع " بنفس العذاب لكن في أعلى طوابق البناية.

القاعدة الثانية. يتعذب الملوك والأمراء في الطابق الأعلى كالعبيد والسوّقة في الدهاليز بنفس الآليات وإن اختلفت الظروف والرهانات.

فقدّر الأدمي أنه لا يبيّن ذاته إلا بمحاكاة الآخر في كل شيء، ومنها أنه لا يشتهي إلا ما يشتهي هذا الآخر. هو يريد السلطة التي نريد ويريد المجد الذي نريد ويريد الثروة التي نريد. هو لا يشتهي إلا ما نشتهي ونحن لا نشتهي إلا ما يشتهي وأغلب ما نشتهي كلنا غير خاضع للاقتسام. كيف يمكننا تدبّر أمورنا في هذه الحالة؟ لا بدّ من الذات الأخرى لننسج على منوالها ولا بدّ من إزاحتها وهي تمنعنا من الشهوة التي أثارها في أنفسنا. هكذا تتطلق أولى بوادر الصراع الذي سيقودنا لكل ما نعانى منه على امتداد الرحلة، من غيرة وحسد وصراع وظلم. إنه الغيب الهيكلّي في طبيعتنا، الذي لم ولن تقلح في إصلاحه أو تجاوزه تربية أو فلسفة أو دين أو سياسة.

اعتبر الصراع على السلطة لا شيء يعرّفك بطبيعة الأدميين وما يخفون من جشع وقسوة ومكر وانتهازية قدر رؤيتهم يتقاتلون للتمكن منها.

كم من قصص يروها التاريخ عن تخلّص الابن من أبيه وتضحية الأم بابنها وقتل الأخ لأخيه وخيانة الصديق لصديقه وغدر الحليف بحليفه جريا وراء هذه السلطة اللعينة!

طبعاً للأمر دوافع لا أقوى منها. أليست السلطة وخاصة السلطة المطلقة مشاركة الأدمي الربّ في أهم مميزاته ووظائفه أي التحكم في الحياة والموت؟

داخل ملفّ أحداثه ما زالت تتشكل في رحم المستقبل، على مكثبي مطلب عفو لمحكوم بالإعدام. بجرة قلم يمكن ايقاظ هذا الأدمي فجرا ليجرّ مرعوبا إلى المشتقة. وبجرة نفس القلم يمكن أن يعود قادرا على النوم مجددا وهو لا يتربص كل لحظة صرير الباب. حدث ولا تسلم عن قدرة دكتاتور نصف مجنون على الحكم بالاعدام على مئات الآلاف من البشر بجرة قلم وهو يستيقظ صباحا ليقرر إعلان الحرب .

المشكلة الثمن الباهظ الذي يجب دفعه للتمتع لحظة بهذه القدرة.

وفي نفس الملفت سأنهض من مكثبي والأزمة التي تعصف بالبلاد في أوجها أتأمل البحر وكأني أراه لأخر مرة. تتدافع في الذاكرة صور كل الذين سكنوا قبلي هذه الهضبة التي تشرف على أحد أجمل مناظر العالم، صورة الملك الطيب الذي أعطاني “با” اسمه وكيف أخرجوه من قصر ليس بعيدا عن هذا القصر ليموت في المنفى مسموما صورة ذلك الملك المسكين الذي وُلّي بعده والذي أخرجوه هو أيضا ذات ليلة من قصره ليموت على حصير في أفقر بيت، صورة ذلك الذي أخرج الملك المسكين من القصر والذي أخرجته كبير حرّاسه ليموت بعد أكثر من عقد سجين بينه وحيدا منسيا. وصورة كبير الحرّاس الغدار الذي أخرجته الثورة بدوره ليفرّ جبانا ويموت منفيًا.

داخلَ ذهن مستنفر إلى أقصى حدّ لوعيه بتعاظم الأخطار سؤال واحد لا غير: ترى هل جاء دوري ليخرجني أحد من هذا المكان ملفوفا في خرق قذرة تفيض بدمي.

نعم للسلطة اغراء لا يقاوم ولها أيضا ثمن فظيع رفض أكثر من آدمي حكيم دفعه. عن خبير في عادات الشعوب القديمة قوله إنه لما يموت ملك قرية من قرى كمبوديا في القرون الوسطى، كان كل رجل في عمر ووضع اجتماعي معين يهرب الى الغابات خوفا من أن يوضع على العرش لعلمه أنه سيضحي به قربانا للالهة في أول جفاف أو طوفان. في نفس السياق عن مؤرخ للتاريخ الإسلامي قوله إن قائدا عسكريا من المماليك وقع جزه جزا الى العرش وهو يبكي لعلمه أنه سيدبح قريبا والقتال بين أمراء الحرب على هذا العرش اللعين لا يتوقف لحظة.

والآن ماذا أفعل وقد بدأ القرف من كل هذه القصة بوثر أعصابي؟ لم لا أعود إلى مضايقة جاري؟

أهمس في أذن الرجل الجالس إلى جانبي الغارق في متعة الطفل وأمّه تعيد عليه الحكاية التي يحبّ.

- ألا يثيرك يا مسيو نفاق الأدميين، وأن وراء شكواهم الدائمة إرادة متواصلة لخلق ما يدعون الهروب منه، أنهم لا ينتهون من مشكلة إلا وتدبروا أمرهم لإيجاد أخرى، ناهيك عن سوء نيتهم في حلّ تلك التي يتخبّطون فيها؟

- أرجوك، أرجوك يا مسيو!

كيف البقاء مستيقظا؟

يجب إعادة كتابة المسرحية على ذوق.

وفي فضاء خيالي يمسح أبو هاملت العرق المتساقط من جبينه. يقرّر أن يلعن الشيطان، أن يبعد عن ذهنه صورة أخيه جاثما بمؤخرته على عرشه وبصدره وببطنه على زوجته، ينعمان بالسلطة نهارا وبالجنس في فراشه ليلا. يصرخ أمام جمهور يلعب الورق ويأكل السندويشات ويبصق البزر على الجيران آخر همه ما يقوله الشقي.

- آه منك أيتها الهواجس المرعبة، تلاحقيني في النوم وفي اليقظة، آه وآه وآهات!
يتوجه إليه روزنكراتز أو فيلدنستارن:

- يا جلالة الملك إن بعض الظنّ إثم، وبعض الأفكار مثل خلايا السرطان.

لا يسمع الملك ومتى سمع الناس صوت العقل خاصة إن كانوا ملوكا؟

يواصل الصراخ في الظلام: يا إلهي لن تسمح بهذا، أليس كذلك؟

لكن الرجل كهل خبير الحياة ويعلم أن الربّ يسمح بهذا وبأكثر. يتعمق فيه الشكّ وتعلو موجات القلق تكاد تغرق ما بقي له من سويّ الإدراك. هنا ينزل من أعالي النص ملاكي ليحلّ كل مشاكلكم أيها المساكين.

تمسح الملكة جبين التعيس تصرخ فيه:

- أفق، تنفّس مليّا يا حبيبي. لم أعرفك يوما بمثل هذا الشحوب. لا بدّ من دعوة أشهر أطباء المملكة وإقامة الصلوات وتقديم النذور. كم أكره أن أراك يا شقيق الروح ونور العينين في هذه الحالة، أسر عوا بالشراب الساخن إلى الملك!

يحذّق الملك في الوجه الرقيق المحبّ العطف المشرف عليه.

- أين قابيل؟

- نسيّت أنّه خرج الليلة بأمرك لمحاربة أعدائك؟ من حسن الحظّ أنّه لم يرك في هذه الحالة وإلا غادر في منتهى القلق.

ينتفّس الملك الصعداء مصليا للعدراء أن تزيد المعركة الرّبّع في رقعة مملكته وأن يلاقي فيها أخوه وجه ربّه.

أن الأوان لأرسم كلمة خاتمة على ستار المسرح بالأسود الغليظ، والملك يغرق مع الملكة في قبلة مطوّلة، بينما يشيح هاملت برأسه مبتسما، وأوفيليا تضع يدها أمام فمها تخفي ضحكة الصبايا المغرّمات بقصص الغرام ولو بين العجائز.

هيهات أن تسير الأمور بمثل هذه البساطة.

ها هو أبو هاملت يتخبّط داخل أفكار وصور لها مخالف وأنياب. أليست الأحلام رسائل ما وراء الغيب لتُنذّر وتُنبّه؟ من يضمن له أنّ شقيقه لن يجني من الحرب انتصارا يثير إعجاب الولية امرأته وأنها لا تمثّل عليه دور الزوجة الوفية.

الرجل عازم على تعذيب زوجته بشكوكه حتّى تكرهه وتملّه وتعاف جلده وتبدأ الحلم بذلك البطل المغوار الذي يعرّض حياته للخطر من أجل هذا اللئيم. ها قد بدأت مخاوف الملك

تخرج من مخابئها لترسم ملامح الواقع وكأَنَّها الصور التي يرميها الفنان على لوحته قبل البدء في التلوين. يُسَقَط في يدي والقصة تنزلق في المجرى الذي جاهدت لإخراجها منه. يا له من غيبٍ. بيّنا له بكلّ الوسائل أنّ امرأته تحبّه. أبعدنا شقيقه إلى الحرب حيث سيهلك المسكين الذي لم يفكر في الانقلاب إلّا عشر مرات فقط وهذا أمر عادي جدا. ومع هذا يصرّ هذا الحمار على بلورة المأساة. هل يوجد كائن غير الأدمي لينتج السموم التي تهلكه؟ تعال يا ولد يا هاملت. لا مانع عندي أن تتمتع بكأبتك وأن تسير يوما بذكرها الركبان، لكن كل هذا النفاق حولها!

ألم تتفق مع عمك على قتل أبيك، عيب يا ولد، عيب. يمكن أن أغفر لك قتل الأب فكل أب يستأهل القتل على الأقل مرة أو مرتين، أما أن ترمي بأمك في فراش عمك فهذه مبالغة في الانتقام من العجوز البغيض.

وأنت الشبح! ألم تتفاهم مع الملكة لتترك هاملت وعمه يُنفذان المؤامرة لعلمك أنك في بداية مرض "ألزهايمر" وكنت تفضّل الرحيل بهذه الكيفية الرومنطيقية على الموت عائما في بولك وبرازك! حرام عليك ما فعلته بالمسكينين. وأنت يا وليّة! كل هذا بسبب مَلِك من الخياطة والتطريز ورغبتك في تجربة منعشة ولو كانت لاذعة الألم.

هل اعتقدتم أيها الأغبياء أنني لم أفهم تحالفكم ضدي في الفصل الأوّل.

هل كل هذا الصخب لمجرد اعتصار كل ما تزرخ به الذات من أحاسيس ومشاعر لا يهيم اسرافها في اتجاه الخير أو الشر؟ أمن الممكن أن كل هذه المشاكل التي يفتعلها الأدميون هي لمجرد تدفّق هرمونات الإثارة في الدم لا غير؟ أليس الأدمي أفيون الأدمي وأيضا المنتبه والمنشط؟

نقطة الضعف الوحيدة في نظريتي هذه تلبس الأدميين خبثا مفرطا وذكاء مكيا فيليبيا نادرا ما تجدهما. أنظر إلى أغلبيتهم في بحثهم عن الحب والجنس والاعتراف والمكانة أو الثروة والسلطة. جلّ استراتيجياتهم بدائية، قليلة الفعالية، غير محكمة، غير محسوبة النتائج، كأنّ لا دور لها غير قيادتهم بخطى ثابتة باتجاه الاخفاقات التي يَصْجُون بالشكوى منها. ولأنّ التجربة لا تورث كلون الجلد، فإنك ستراهم يُكرّرون من جيل إلى جيل نفس الكوارث بثبات عجيب.

هذه مأساة لا ينعف فيها التهكم الأنيق. يجب دكّها دكّا بالسخرية الفظة فالأدمي ليس فقط هاملت ولارتس وكلوديوس وأوفيليا أي الأدمي المبكي. هو أيضا هاريجون، تارتوف، جوردان وأرقان أي الأدمي المضحك كما شرّحه مبضع مسرحي عبقري آخر اسمه موليار. إذن تُدخّل هاملتة تنتئي لأن الملك المقتول لم ينجب إلا بنتا ضعيها صغيرة وحملها دمه كبيرة. تأخذ الأميرة بمقاليد القصة بما يعرف عن الإنث من فكر عملي وعدم تضييع الوقت في السفاسف الميتافيزيقية وخاصة في جنونٍ مرهقٍ ومكلف لصناديق الضمان الاجتماعي.

تصرخ الملكة في زوجها القاتل: لا تشرب. تبتسم هاملثة وهي تتابع فعل السم في جسد الأمّ والعمّ.

يموت القاتلان فتنزّج هاملثة في نفس الليلة صديقتهما أوفيليا.

تنويعة أخرى على نفس النغم.

تندلع مشادة بين بطلي هذه القصة التعيسة فتصرخ أوفيليا بصوت هستيري في هاملت:

- ماذا؟ ترفض أن تقتل والدي. كيف أكون بطلة تراجيدية إذن؟ تريد لي مكانا دونيا بين بطلات التراجيديا؟ أيرضيك أن تنظر إلى جوليات من عليائها أو تقول أنتيجون إنني بطلة آخر زمان، لم يجدني الدهر أهلا لضرباتها؟

- ماذا فعل لي الرجل لأقتله وهو يقبل بزواجنا؟ ما رأيك في خصومة بسيطة؟

- أقول لن أرضى بأقلّ من القتل وتحذثني عن خصومة بسيطة من فوق!

- طيب. ما رأيك في أمك؟ بصراحة أنا أفضل التخلّص من حماتي.

- تريد قتل أمي يا مجرم. وتدعي أنك تحبني!

- يا سني لنقل خالتك، هل يكفيك هذا؟

تستغرق أوفيليا في تفكير متردد تقيس عمق الألام التي ستحدثها خسارة الخالة.

تقرّر رفض العرض لأنّ جوليات غريمتها الكبرى ستهزأ من قصتها وستتبحّج عليها بعمق آلامها هي. تجهش بالبكاء الكاذب فيستسلم هاملت:

- طيب، سأقتل والدك لكن لا أريد مشاكل مع حماتي. يكفيني ما سألقى من مشاكل مع أخيك والمدعوّ شكسبير الذي قد يلاحقني أمام القضاء بتهمة تخريب سمعته.

تعا لقصص الأدميين، لا يغفر لنا كل ما نرتكب من أفعال وأقوال إلا اللحظات التي نضحك فيها من أنفسنا وقد اتضح الحقيقة المرة، أننا كائناتٌ مأساوية وهزلية بنفس القدر. تقول وأصبعك مرفوع في وجهي في وضع مسرحي جميل: تستهزئ بما لا يجوز به الاستهزاء، تستكثر على البشر جدارتهم بشيء من الشفقة، من أعطاك الحق في الحديث عن الآمنا بهذا الشكل؟

ماذا تزمجر أيضا؟ إنني أهين ذاكرة كل أم انفطر قلبها حسرة على فلذة كبد قُتل في الحرب أو قضى نحبه على طاولة تعذيب قذرة. تمهل يا هذا في شكك المزمن في نواياي. لست ضد التعاطف مع البشر وخاصة مع نفسي، لكن ضد المبالغة فيه. صحيح ليس كل شيء قابلاً للهزل وكل ما يمسّ بالكرامة خط أحمر. نعم، هناك آلام حقيقية علينا احترامها بعدم جعلها مادة لسخرية شريرة، لكن شريطة ألا تصبح بضاعة نتدلّل بها على عالم لا يطبق أي نوع من الدلال.

شئنا ام ابينا السخرية أسرع تقنيات الفكر للفرز بين الصدق والزيّف؟ أليست قابلية الفكرة- أو الشخصية أو القضية أو العلاقة-للسخرية أصدق دليل على وجود خلل كبير فيها؟ لذلك كل ما هو قابل للسخرية لا بدّ أن يُسخر منه، أيا كانت هالة القداسة التي يُحاط بها أو القوة الفجة لحمانيته من الفضح.

أوف! أخيرا ماتت هاملت وماتت مع القاتلان وكم من ممثل آخر ناهيك عن موت كاتب هذه المسرحية المضحكة المبكية.

يتقدم الممثلون صفًا واحداً يمسكون بأيدي بعضهم بعضاً، ينحنون المرة تلو الأخرى أمام جمهور بالغ الرضا لا يكف عن التصفيق بل وفيه من يرفع عقيرته يصرخ برافو، برافو. يستغرق جاري هو الآخر في تصفيق مبالغ في حماسه مواصلاً لعب دور الذواقة اللبيب الذي يقدر أكثر من أي أحد آخر قيمة هذه التمثيلية العظيمة. كل هذا الحماس الثقافي وهو مصرّ على مواصلة تجاهل المتخلف القادم من وراء البحار الواقف ببلاهة حذوه لا يصفق لأنه لم يفهم شيئاً من المسرحية. وهذا المتخلف من وراء البحار آدمي هو الآخر لا يقلّ أدمية عن جاره، ومن ثم مغالبتة لزهوه بتفوقه الفكري على هذا الجاهل بالشرف الذي ناله وهو جالس لأكثر من ساعتين جنب أكبر فلاسفة واحة دوز وصحرائها في الاتجاهات الأربع.

يشند دويّ التصفيق فتداهمني خشية أن يعيد الممثلون كامل الفصل الأخير. من حسن الحظ أن هذه العادة من اختصاص الموسيقيين وحدهم. لا يكف الممثلون عن افتعال الانصراف والرجوع يتسولون مزيداً من التصفيق. أخيراً يختفون عن الأنظار. تودّ أن ترى أين اختفوا وماذا ما يجري وراء الستار؟

لن ترى إلا العادي والمبتذل في كل الكواليس، الفوضى، الصراخ والزعيق والهمس وبذيء الكلام، الروائح الكريهة المنبعثة من الأجساد المبلّلة بالعرق والجوارب النتنة والسجائر الرخيصة، عمق البغضاء بين هاملت وأفيليا وصراعهما المحموم على الأولوية وإعجاب الجماهير.

هاملت! المسكين مشغول بشيح الطرد من منزله لتأخره عن تسديد الديون وآخر ما يهمله الخمج الذي بمملكة الدنمرك، فمشكلته حبه الشاذ لمدير الفرقة وخوفه من مرض "الايذز" الذي شُخص عنده مؤخراً.

نفس الروائح والبذاعات والهموم الصغيرة لو وضعت أنفك في كواليس الطب والسياسة والدين وكل ما تظنه فوق الظنون والشبهات.

في طريقي إلى البيت تتدافع الأفكار وصوت ساخر لا يكف عن الهمس داخلي : أنتم الأدميون كائنات مضحكة في أحسن الأحوال مبكية في أسوأها وفي كلتي الحالتين لا مجال لحملك على محمل الجدّ.

ثلاث ساعات بأكملها في تأمل فشل الأدميين وتحمل شكواهم منه من آلام هم أولى أسبابها! فهذا فشل في الحفاظ على مُلكه، والآخر فشل في الحفاظ على ما غنم بالحيلة أو القوة، وذلك

فشل في الحفاظ على العقل أو الشرف أو الحب، والكل فشلوا في آخر المطاف في الحفاظ على حياتهم!

لماذا لا أصرخ فيهم جميعا مثل أدمي اسمه صمويل بكت: أفسلوا أكثر فأكثر. ربما لم نأت كُنَّا إلا لتحقيق أنجح فشل ممكن، فشل طموحات بالغة الصغر، فشل شهوات بالغة التفاهة، فشل رؤى بالغة السطحية، فشل معتقدات بالغة السذاجة، فشل خصومات بالغة العبث.

كم نحن مثيرون للشفقة... أو للازدراء عندما يكون المزاج في أوج سوداويته! ثلاث ساعات كان بوسع استثمارها بكيفية أذكى. قراري النهائي: بما أن جل مسرحيات البشر عن فشلهم وآلام هذا الفشل فلن أحضر مسرحية بعد اليوم إلا إذا تعهد الممثلون بأنهم لن ينبسوا ببنت شفة إلى نهايتها مكتفين بالتحديق في النظارة. حتى الأوبرا لن أدخلها إلا إذا اكتفى والمغنون بالابتسام والجوق بعرض آلات الموسيقى دون التهديد بالعزف عليها. نعم لن أدخل قاعة سينما إلا التي يُعلم إشهارها أن المشاهدين بأمان من أي فيلم عن مآسي ومهازل الأدميين والذين يدفعون كُله للتمتع سويغات في مقعد وثير بالظلام والصمت.

**

المخرجون

أغرق في المقعد الوثير وأنا المشاهدُ الوحيد لتسجيل سينمائي عن تدريب-قُل عن ترويض- الممثلين لأداء أدوارهم.

تخرج ألفيرا من وراء الستار متوجهة بخطى ثابتة نحو حبيبها دون جوان. كل المطلوب منها إلقاء جملة لا غير: جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لَكُمْ أحببتك! لكن حبي اليوم له وحده. وكم يسوؤني أن أعلم...

يبرز من وراء الستار المخرج يبادرها ببرودة:

- ما هذه المشية؟ أذهابه أنت إلى الحلاق؟ أنت لا تدخلين مكانا عاديا للقاءٍ عادٍ. أنت تتسارعين نحو حبيبك المهذّب بغضب الله وكلّك أمل في إنقاذه من الجحيم. شيء من الجديدة يا امرأة!

تعود الممثلة إلى ما وراء الستار. تبرز منه كالجئي من قممه متوجهة إلى دون جوان واليدان ممتدتان إلى الأمام كأنها تتصرّع.

يصرخ فيها المخرج:

- ما هذا التكلّف؟ ما هذه الحركات البهلوانية؟ هذا مسرح لا سيرك. أعيدي.

تبقى الممثلة بين عُذوّ ورواح من وراء الستار إلى دون جوان، ومن دون جوان إلى ما وراء الستار، ومشكلتها كيف تمشي بصفة مسرحية وطبيعية في آن واحد. يواصل المخرج إبداء عدم رضاه. هي إمّا تهول بكيفية مضحكة أو تتباطأ بكيفية أكثر إثارة للسخرية. يصرخ فيها الرجل لا يخفي ملله.

- ليس هكذا! ليس هكذا! أعيدي!

تعود المسكينة المرّة تلو الأخرى لتجريب كل أصناف المشي والهرولة والركض نحو دون جوان الغارق في الصمت.

- أعيدي. ليس هكذا. هل سنقضي السهرة كلها في مجرد تعليمك المشي!

يرضى المخرج أخيرا بطريقة الدخول. تعود الممثلة إلى جملتها غير واعية بما ينتظرها: - جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لَكُمْ أحببتك، لكن حبي اليوم له وحده. كم يسوؤني أن أعلم أنّ من أحببت يتعرّض لغضب الله. أتيتُ لتحذيرك والتوسّل إليك لتتقادي غضبا بدأت مؤشراتته تتجمّع.

ينفجر المخرج في وجهها.

- ما هذا؟ إلقاءك مثل ماء بركة أسنة. يجب أن يكون كالماء، متساظا من السماء، منحدرًا من أعالي شلال، متسارعا في السواقي، متدفقا من النافورة. أعيدي من البداية.

تبلغ الممثلة ريقها:

- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك!
لكن حبّي اليوم له وحده. وكم يسووني أن أعلم...

- كفى. كفى. هذا ليس كلاما تتوجه به عاشقة إلى معشوق، والرهان إنقاذه من لعنة أبدية.
هذا تفسير نصّ. كأنّي أسمع النقاط التي تختم الجُمْل. يجب أن يكون للكلمات ألوانٌ وروائح،
أن تكون التعبير عن المشاعر لا التأشير عليها.

قال أحدهم: المخرجون نوعان: من يريدون أنفسهم آلهة ومن هم على ثقة أنهم فعلا
آلهة... ألا يريد كل مخرج تشكيل الذات على قياسه وإقحامها في الدور الذي يريد وإجبارها
على تأديته بالطريقة التي ترضيه.. ماذا لو كان الرب هو نفسه مخرجا مسرحيا... المخرج
الأكبر!؟

تبلع المرأة ريقها: مجدّدا:

- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك،
لكن حبّي اليوم له وحده. و...

المخرج الآن على أهبة الاعتداء الجسدي على الممثلة، وهي بين يديه كالفأر بين مخالب
القطّ.

أي غرابة في الأمر وأنت لا تتعرض لاعتداء إلا وهو مرتبط بخطئك في تأدية مقطع
من دور في سيناريو ضُبطت قواعده قبل دخولك مسرح الحياة.

- ليس هكذا! ليس هكذا! تتصورين أن ألفيرا الوعاء الذي يمكنك أن تمرّري عبره مشاكلك
الشخصية لكنني غير مهتمّة البتّة بمشاكلك الشخصية! ألفيرا وحدها التي تهمني. ما هي
مشاعر ألفيرا الآن؟ هذه امرأة تعيش أقصى الألم وهي ترى الرجل الذي تحبه معرّضا
لعقاب إلهي رهيب. هذه امرأة تعيش أقصى الأمل لأنها ما زالت تتصوّر إمكانية إنقاذ دون
جوان من مصيره المحتوم. هذه امرأة مسكونة بالوقار والجلال بعد أن سكن الإيمان قلبها.
لكنها تعاني من تبيكيت الضمير، من الشعور بالذنب لما اقترفت من حبّ لغير الله. أين
المشاعر الملتهبة؟ لا أرى منها شيئا. لا أشعر حتّى أنّك تشعرين!

تبدأ الممثلة في الشكوى تلمح إلى صداع طارئ ومرض داهم وضرورة إرجاء البروفات
للأسبوع المقبل. هيهات. لا خيار للأدمي غير مواصلة تعلّم الأدوار الإجبارية وفي
الظروف التي يقرّرها المخرج وحده.

يفتعل المرؤوض القاسي نوبة عصبية تدخل ضمن أدواره هو.

- يا امرأة، قلت لك كم من مرّة ليس هكذا!

إنه تصرف كل من يعلموننا أدوارنا: أكبر قدر من الطلب وأقل قدر من الرضا. هكذا
سلاحقك على طول الطريق المرّبي والحبيب والمنافس والشرطي والقاضي والزبون
والتلميذ والناخب يصرخون فيك "ليس هكذا."

بماذا يمتلئ فضاء الأفكار؟ بفلاسفة وأنبياء ودعاة يصرخون فيك ليس هكذا التفكير، ليس
هكذا التصرف، ليس هكذا الايمان!

يصرخ "با" رافعا عقيرته: اللعنة! ليس هكذا! ينفجر ضاحكا: ليس هكذا! يستشيط غضبا: ليس هكذا! ينتهّد مطوّلا، يمطّط جملته بما معناه: أرهقتني يا ولد، أصبنتني بالفرف والغثيان، ليس هكذا!

كلنا ممثلون نتبع أوامر مخرج مخفي يصرخ فينا طول الوقت ليس هكذا، ليس هكذا !!! تُرى هل أضفّت شيئا لدور الابن والأب والحييب والمناضل الثوري، أم إن العالم مُحِقّ وهو يصرخ فيّ باستمرار ليس هكذا، ليس هكذا؟ كم صعبة هي هذه الأدوار التي تُجبر على تعلّمها باكرا، كم هي شاقّة عسيرة على الفهم، على الاستيعاب، على التذكّر، على الإلقاء، على الاستثارة بإعجاب النظارة! كم من مرّة صرخت أنا أيضا "ليس هكذا"، أحيانا مع أغرب الممثلين وفي أخطر التمثيلات.

يحدّق فيّ كبير الشرطة السريّة طويلا يظنّ أنني أوّل من سيحوّل اتجاه النظر: - نكتفي هذه المرّة بالاستجواب. أنذرنك بما فيه الكفاية. لا تُجبرنا على المرور إلى الأمور الجديّة.

يريد مني هذا المستخدم الخُضوع للتهديد، والغريزة عندي الهجوم على كلّ من يهددني! لم يكن الرجل المخيف يهدّد في الفراغ. هذه المرة يبدو أنني تجاوزت ما يسمونها الخطوط الحمر. يصبّب البوليسي المكلف بدور البشع مخزونه من الشتائم ثم يمرّ لصلب الموضوع: قل لنا كل شيء. يحدّق فيّ زميله المكلف بدور الطيّب بابتسامة فيها تصنّع التعاطف. إنه الذي سأبكي في أحضانه مستجيرا به من قسوة الآخر ومعترفا له بكل شيء. هذان الغيّبان لا يعرفان أنني لا أكفّ عن تقييم الأدوار التي يلاعبنى إياها الناس، بحسّ الناقد المجرب، أبحث بلا كلل عن الجديد في ميدانٍ للأسف-فيه القليل من الابتكار.

أرفع الصوت وإصبع الاتهام. ليس هكذا، ليس هكذا، أوف! أوف! ما زلتم تمارسون تقاسم الأدوار بين الطيب والشرير؟ يا للمستوى! هذا كل ما تفعلون بضرائنا!

أتوجه إلى المكلف بلعب دور الشرير، أمطره بوابل من الأسئلة عن هويته وعن يعرف من الجلادين وما هي آخر اتصالاته بهم ومن أعطوه التعليمات وما هي رتبهم داخل الجهاز، وما هي عناوينهم وأرقام هواتفهم.

يبنسم المكلف بدور الطيّب. مؤكّد أن طرافة الوضعية جدّدت لديه الانتباه. يفتح المكلف بدور الشرير فمه دهشة وأنا أمرّ لنصحته بعدم الإكثار من مخالطة الأشرار حتى لا يُفسدوا الطيّبة التي تختفي وراء ملامح الغوريلا التي تشوّهه.

ينفجر الرجل في وجهي: - أنا الذي ألقى الأسئلة. اعترف بكل شيء. هل تعلم أننا أخذنا كل الصور وأنت تقابل الإرهابيين. لنا وسائل لإجبارك على الاعتراف.

كأنني أسمع لسان حاله يستعطفني: لا تكن سمجا، أنت المتهم الخائف القلق الذي يجب أن يكذب محاولا إخفاء أسرار نعرف جلها، وأنا مفتش بوليس المخبرات المرعب الذي لا يرحم أحدا. برأس أمك العب دورك لألعب دوري وإلا فإنها الفوضى.

نعم، لا بد من أن يلعب كل دوره وإلا فإنها الفوضى. لكن من قال لهذا الممثل الرديء إنني لسئ المكلف بدور المحرض عليها، هذه الفوضى التي يخشى ويكره، وهي أولى منطلقات كل تجديد.

تمسح الممثلة دموعها وقد بدأت تفقد السيطرة على أعصابها. يخرج من حلقها صوت مرتعش: جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله، ... يستشيط المخرج غضبا غير مفتعل:

- كفى! كفى! كم من مرة يجب أن أردد لك أن ما يعنيني آلام ألفتها لا الألمك أنت، أعيدي، أعيدي!

المسكين! كم يتكلف من الجهد لإخراج مسرحية فيها عدد زهيد من الممثلين وكل واحد منهم لا يلعب إلا دورا واحدا في نفس الوقت. ماذا لو كان عليه إخراج مسرحية الوجود برمته بكل هذا العدد الهائل من الممثلين المبتدئين؟

تتلعلم المرأة وقد جاءها اليقين أن الجوزاء أقرب إليها من الفوز بالدور.

- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك، لكن حبي اليوم له وحده. وكم يسووني أن أعلم...

يعود المخرج للصرخ وقد أصبح شبه مقتنع أنه لا شيء يمكن انتظاره من هذه الغيبة.

-ليس هكذا، ليس هكذا!

الممثلة الآن على قاب قوسين أو أدني من نوبة هستيريا.

- كيف إذن؟ كيف إذن؟ كيف إذن؟

المشكلة أنه ليس للآدميين -نموذج واحد ومتفق عليه ل-، كيف هو الهكذا ” وإنما مقاييس تُنافس مقاييس ومقاييس تُشرع لمقاييس هي الأخرى بحاجة إلى من يشرعها.

ماذا لو تدخلت في الموضوع لنجدة المسكينة أصرخ في المخرج: يا حيوان ليس هكذا الإخراج!

ربما شعر الرجل بما يعتمل داخل مشاهد صامتة متزايد الاستنكار لما يفعله بامرأة على وشك الانهيار العصبي.

يتوقف عن الصراخ ليلعب الآن دور المربي الهادئ العطوف.

- أحسن الممثلين من يمثل ناسيا أنه يمثل. لا أرى شيئا من هذا القبيل. حاولي مرة أخرى تهادا المسكينة. آخر محاولة.

- جنتك الليلة على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي، لكم أحببتك لكن حبي اليوم له وحده. وكم يسووني أن أعلم...

انتهت استراتيجية الطيبة. يجب العودة إلى دور البوليس الشرير.

- لا، لا، الرحمة، ليس هكذا! النجدة، ليس هكذا! اللعنة، ليس هكذا!!
هُم المخرج اعتصاراً أقصى الألم والرقّة والحبّ والتهيبّ والرجاء من ذاتٍ مُشبعة بكل هذه المشاعر، عاجزة عن الإفصاح عنها.
- كوني على أشدّ الوعي بخطورة المرحلة. إنّه دون جوان الرجل الذي أحببتّ وهو مهتدّ بالعقاب الإلهي. يجب أن يضحّ كلامك بكل الممكن من الإخلاص والفرع والرجاء والتوسّل. ربّما أمكن إنقاذه لا لشيء إلا لأنّ نبرة ما في كلامك أصابته في الصميم. قد يتّخذ طريقه وجهة أخرى لمجرّد علو نبرة أو تهدّج صوت.
تعود المرأة لترديد الجملة اللعينة على وشك الانفجار باكية
- جنتك اللبّية على عجل. أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي. لكم أحببتك لكن حبّي اليوم...

- كفى. ألم ألفيرا بلا حياء أو تكلف، ألم م-طل-ق. لا وجود لشيء كهذا في الإلقاء!
يتوقّف المخرج عن تعذيب الممثلة. يرفع وجهه إلى السماء. تسكنه ألفيرا بعد فشلها المتتابع في تقمص الممثلة.

يخرج من حلقه صوتا غريبا كأنه حيوان تحت سكين الجزار.
- جنتك اللبّية على عجل، أخيرا وجدت الطريق إلى الله وانتهيت من المعاصي، لكم...
حصّلت المعجزة، معجزة التمثيل. تبخّرت ذات المخرج لتترك المكان أخيرا لذات ألفيرا. تتدفّق الكلمات بلا نقاط أو فواصل. يعلو الصوت ليبلغ دويّ الماء وهو يتساقط من علو الشلال ثم يتسارع في السواقي وهو خرير. نعم ما أغرب هذه القدرة التي تمكّن الأدمي من الخروج من جلده للدخول في جلد شخص آخر وتقمص شخصيته كما لو كان الأمرُ بسهولة استبدال قميص بقميص أو الخروج من بيت لدخول آخر!
يخرج المخرج من حالة التقمص العجيبة هذه لاهثا ماسحا عرقه. يتوجه بلطف إلى الممثلة المنبهرة:

- دور الممثل أن يتشكّل كفراغ ليمتلئ بالآخر. أفرغي من ذاتك. افتحي الأبواب، لينطق اللاوعي فيك، ليحلّ فيك ال...!

ليحلّ فيك؟ ليحلّ فيكمّن، أو ماذا؟ فتح ذواتنا ليحلّ فينا؟ الحلول؟ ليس هذا المفهوم المركزي في الرؤيا التي توصف بالصوفية!

الانتباه هنا للمعنيين لكلمة التمثيل. ثمة الممثل بمفهوم المسرح... والممثل بمفهوم الدبلوماسية. هل نمثّل بالمعنيين للكلمة؟

إذا اعتبرنا التمثيل بمعناه المسرحي، يكون السؤال لماذا حكم على الأدمي بأن يمثل أدوارا ليست من اختياره ويشقى طيلة حياته لتعلمها؟

إذا اعتبرنا المعنى الدبلوماسي، السؤال هو من هذا الذي نمثّل ونحن نلعب أدوارنا والذي يجب أن نفتح له اللاوعي لينطق فينا؟

الأدوار

المخرج الآن آدمي اسمه زي.أمي. ترى ما الذي سيضيف لكل من حاولوا فهم من نكون ولماذا هذه الحالة المضحكة المبكية التي نحن عليها؟

تتصاعد من جانب قصي من المسرح الصغير أصوات الناي والكمان والطبلة. يصعد الممثل على الخشبة. يضع على وجهه قناع راهب عايش القصة الحقيقية للآدمي بل ويعرف كل التفاصيل.

يتوجّه إلى مشاهدين كأنّ على رؤوسهم الطير.

- سادتي الكرام، انتهى بي الطريق إلى بيت موحش في أعماق غابة مقفرة. خلته مهجورا فعزمت على قضاء الليلة فيه. فجأة برز لي من الظلام ساكن المكان.

يتوقّف الممثل ليخلع قناع الراهب. يلبس قناع ساكن المكان متقمّصا شخصيته ومتوجّها إلى نفسه.

- ما الذي أتى بك أيها الغريب؟

ثمّ يخلع قناع صاحب المكان ليلبس قناع الراهب عائدا إلى شخصيته الأولى.

- يا ربّ البيت، أنا مسافر قادم من بداية الزمان والطريق أمامي ما زال طويلا.

مواصلة استبدال القناعين والانتقال من الدور إلى الآخر، من الشخصية الأولى إلى الثانية.

- وما الذي حملك على تكأّف هذه المشقة؟

- قدرُ كل آدمي أن يظلّ ماشيا إلى أن تخور قواه، وإلّا توقّف به الطريق.

- ولماذا لا يقعد على مؤخرته ساكنا لا يزعج نفسه أو أحدا؟

- لأنّ الطريق هو الذي سيتحرّك به، فمن الأحسن أن يبادر هو.

- كفى وقاحة. قل ما الذي أتى بك إليّ؟

- الصدفة، يا صاحب هذا المكان.

- لا وجود لشيء من هذا القبيل. قل الحقيقة وإلّا أزهدت روحك.

الممثل لابسا قناع الراهب متوجّها إلى النظارة المنبهرين: هنا تملكني الخوف. قلت في نفسي: أيّا كانت طبيعة هذا الكائن فلا بدّ أنه ككل الكائنات مغرور معجّب بنفسه. لم لا أعب

على هذا الوتر؟ قد يكون المخرج الوحيد من الورطة. توجهتُ إليه قائلا: يا سيّد هذا المكان،

كم سمعتُ عن علمك وحكمتك وأنتك تعرف أسرار العالم المرئي والعالم المخفي، فطمعتُ

أن أسمع منك الرواية، الرواية الصحيحة لما حدث بالضبط للآدمي يحمل سرّا لي حاجة

ماسّة إلى معرفته.

إنّه ملك قتل شقيقه واستولى على ملكه وزوجته، فجُنّ ابن أخيه وجنّت خطيبته. يقال إن

فطاعة جريمته أدت به هو الآخر للجنون. كثيرون يعتقدون أنه فرّ من القصر واستجار

بهذه الغابة ولم يخرج منها أبدا. ثمة من يدّعي إنه تنسك في بعض كهوفها. ثمة من يقول

إنه ما زال يدور في أدغالها باحثاً عن شفاء الروح. كم من أقاويل وشائعات أخرى لا تشفي غليلي! إنني أجري وراء الرجل منذ زمنٍ عَليّ أظفر به لأسأله الخبر اليقين. قد يكون مظلوماً. قد تكون الروايات التي تُشاع عنه محضُ افتراء. ربّما هو الضحية وليس الجالد، ربّما لجرائمه ظروفٌ تخفيف. لا بدّ أن أعلم مَنْ هو وإلا رحلتُ وبصدري حرقه السؤال، وأنت الوحيد القادر على شفاء غليلي.

يواصل الراهب روايته همساً.

- توقفتُ عن الكلام أنتظر ردّ الفعل. كأنني أعملتُ المفتاح المناسب في القفل. أجباني صاحب المكان بصوت فيه غلالة من الحزن.

- اعلم أيّها المسافر أنني مثلك أبحث عنه من قديم الزمان.

- هل وجدته؟

- نعم

- أين هو؟ كيف هو؟

- تما لك نفسك يا هذا واسمع مني الخبر اليقين عن المسكين.

يبدأ صاحب المكان رواية قصة غواية الشقيق لزوجة شقيقه وكيف تفاهما على تسميم الملك ثم كيف اكتشف الأرق والحزن والخوف وتبكيّت الضمير وكيف استحالت حياته جحيماً وكلّ الأعين تلاحقه في النوم وفي اليقظة.

كل القصة بكل التفاصيل، بأدقّها.

هنا يتبادر الشكّ إلى كل المشاهدين. إنه يعرف تفاصيل التفاصيل. ثم لماذا يجاهد لإخفاء تأثره. هذه ليست تصرفات شخص يحكي قصة وقعت لغيره. هل يكون صاحب المكان هو...؟ نعم، لا يمكن أن يكون إلا هو. طبعاً إنه هو.

يشدّ القرع على الطبل والنفخ في الناي.

فجأة يقفز على خشبة المسرح رجلٌ من الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخاً: لا تصدّقوا حرفاً واحداً مما يقول هذا الرجل. قصته سخيفة وروايتها بهده الكيفية تزيدها سخافة على سخافة. كل هذا تمثيلٌ من أردأ صنّف.

يجب التوقف طويلاً عند صراخ هذا المزعج الذي قطع علينا لحظات ممتعة ونحن نتجول داخل الدهاليز المظلمة للذات الأخرى بلا خوف أو حرج.

ماذا يقول؟ القصة سخيفة! كل هذا تمثيل بل من أردأ صنّف! ما الذي يقصد بمثل هذه التهمة الخطيرة؟ أترأه يوحى بأننا كلنا ممثلون، أننا طول الوقت نمثل -حتى لا نقول- ندجّل على أنفسنا وعلى الآخرين وأننا أغلب الوقت ممثلون على قدر كبير من الرداءة؟

يبدأ الممثل في الانسحاب ووراءه المهرج.

مهلاً أنت الممثل. ما زلنا بحاجة إلى خدماتك. أثرت اهتمامنا بفكرة لبس قناع الدور على الركب ثم خلعه لتقمّص دور آخر. تفضّل واليس أقتنعاً أهمّ الأدوار التي يمثلها الأدمي والتي

تتردّد من جبل لجبل بثبات مُلفت للانتباه. أمّا أنت المكلف بالصراخ لا، تصدّقوا شيئاً»، الرّم مكانك سنستدعيك كلّما تمكّن منا التبدّل من جديد.

يلبس الراهب قناع روبنسون كريزوي ثم يبدأ بالإلقاء وبه شيء من الارتباك:
يا سادة يا أفاضل أفقت لا أدري من أي حلم لأجد نفسي اتخبط وسط المحيط والعاصفة
تزرأ كأنها وحش يريد التهامي. ولحظة خلت أنني على وشك الموت وجدت نفسي مرميا
على الشاطئ دفعتني إليه الأمواج العاتية. ومن يومها وانا تائه في هذه الجزيرة المنسية من
كتب الجغرافيا أتدبر قوتي كل يوم مما تجود به الطبيعة وانتظر الخلاص من سفينة قد تمرّ
يوما وتخرجني من هذه الوحشة القائلة...

فجأة يقفز على خشبة المسرح رجلّ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: لا تصدّقوا حرفا
واحدا مما يقول هذا الأدمي. لا عاصفة رمته في هذه الجزيرة... هو الذي جاءها طوعا.

يخلع الراهب قناع روبنسون كريزوي ليلبس قناع سيجموند.
ثم يبدأ في الإلقاء الحزين: أخيرا بعد طول التشرّد في الغاب الموجش الخطر للجزيرة
المنسية من الآلهة أبصرت كوخًا قلت قد أجد فيه أخيرا ملجأً يحميني من الموت الذي
يركض ورائي. فتحت لي سيجليند الباب. إنها الأخت التي فقدتها والحبيبّة التي ستحمل
قريبا طفلي في أحشائها. تردّدت لحظة في الدخول. صرخت في وجه المرأة: الشقاء
يلاحقني، أخشى على هذا البيت من دخوله معي.

يخلع الممثل قناع سيجموند ليلبس قناع سيجليند.
تصرخ سيجلند: لا عليك، دخله هذا الشقاء اللعين قبلك ومنذ زمن طويل. أنه عالم لا مأمّن
فيه من الشقاء، أكنّت خارج هذا المكان أو داخله.

يقفز على خشبة المسرح رجلّ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: لا تصدّقوا حرفا واحدا
مما يقول هذا الأدمي... الشقاء لم يوجد إلا بوجوده.

من الأفضل وقد تورطنا بمجيبنا هذا العالم الثبات والمواجهة.
يخلع الراهب قناع سيجليند ليلبس قناع سيكفريد ثم يأخذ في الصراخ.

الأدمي بطل لا يرهب لا القزم ميم ولا فأفرن التنين ولا حتى الربّ ووطن. هو أتى العالم
لينتصر على كل المحن والامتحانات ومنها تحرير برونهيلد السجينة وراء ألسنة النار.
يقفز على خشبة المسرح رجلّ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخا: لا تصدّقوا حرفا واحدا
مما يقول هذا الأدمي. إنها قصة أخرى سنتتهي كالمعتاد. بعد تحرير الأسيرة من نومها
السحري سيخونها وستخونه وستنتهي الأمور بمحرقة تقضي عليه وعليها وعلى الآلهة
أجمعين.

يخلع الراهب قناع سيكفريد ليلبس قناع موسى. يصرخ الممثل ملوفا بعصاه وتحت الإبط
اللوح المحفوظ الذي خطّ عليه ياقبه بنفسه أو امره ونواهيه للجنس البشري: اسمعوا واطيعوا
وصاياي العشر.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخاً: ما زلتم تصدقون خرافة وجود إله مهتم بكم فرداً فرداً ومشغول بمصيركم أفراداً وشعوباً! ولماذا لا ينشغل بكل غار نمل يتابع حسنات وسينات كل نملة ويقرر أي نملة ستنتهي في النار أو في جنة نعيمه... على كل حال ليحتفظ بوصاياه لنفسه فيالنسبة للآدمي في حالته الطبيعية أنه لا أكثر إثارة للشهوة من زوجة الأخ ولا الدّ من سرقة حماره.

يرمي الراهب على الأرض غاضباً بقناع موسى يضع قناع القديس بولس مهلاً فاتحاً ذراعيه على الأقصى: ابشروا، الربّ انتبه لوجودكم أخيراً بل وقرر أن يبعث بابنه الوحيد ليفديكم بنفسه ويخرجكم من الورطة التي وضعت فيها أنفسكم.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخاً: قولوا له يحتفظ بابنه، لو كان هذا المنفذ قادراً على انقاذ شيء أو أحد لبدأ بإنقاذ نفسه من أبشع موت ممكن.

يخلع الراهب قناع القديس بولس ليلبس قناع الدكتور فوست. يصرخ الممثل: ما زلتم تتقون في الله بعد كل ما رأيتم من لامبالاته بالأمم وصلواتكم ونذوركم؟ اسمعوني، لا صديق لكم إلا إبليس، تعالوا ارهنوا ارواحكم عنده كما فعلت.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخاً: انتبهوا للفخّ. الشيطان ليس أكثر جدارة بالثقة من سيده.

يخلع الراهب قناع فوست ليلبس قناع ينج-لو صارخاً: انا ابن السماء لي الحق في مطلق السلطة والحرية والجنس لا أخضع لشيطان أو إله لا شيطان غيري ولا إله إلا أنا.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخاً: لا تصدقوا هذا الدعي، إنه مجرد آدمي سينتهي نهاية محزنة لا تختلف في شيء عن نهاية رعاياه الذين أُلّف رؤيتهم بين ركوع وسجود.

يخلع الراهب قناع ينج-لي ليلبس قناع بوذا.

يبدأ الممثل خطبته بلهجة هادئة وربع ابتسامة تضيء وجهه يدعي أنه لا حلّ لمشاكلنا غير تنظيف شامل يكمن من كل أرجاء الذات غبار وقاذورات الطموح والطمع والغضب والحقْد. هكذا يستطيع الآدمي مواجهة ضربات العالم لا يرفّ له جفن وهو لا يبالي بسعادة أو شقاء، بنجاح أو إخفاق، بحياة أو موت. إنه الانتصار بالضربة القاضية على الطمع والمطمع.

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ الدهماء. يتوجّه إلى النظارة صارخاً: انتصار؟ ونحن نُبتر جزءاً من ذاتنا؟ أليس الغضب والخوف والطمع وكل الموبقات التي تأتيها من ارتكابها لذة الإثم من خصائص هذه الذات وأنها لا تكون بدونها؟ أليس الوجود مَبْنِيَا على صراع الأضداد ومنها التي تعيش داخلنا؟

يخلع الراهب قناع بوذا ليلبس قناع المتنبي. يصرخ الممثل لا حلّ إلا الذي أمركم به " لا تَلَقْ دَهْرَكَ إِلَّا غَيْرَ مُكْتَرَبٍ مَا دَامَ يَصْحَبُ فِيهِ رَوْحَكَ الْبَدَنُ".

يقفز على خشبة المسرح رجلٌ يتوجّه إلى النظارة صارخاً: لا تصدقوا حرفاً من هذا الدعي الآخر، لا أحد اشتكى من الدهر وسخط عليه وبكى منه مثل هذا الأدمي المعروف بجعجعته الفارغة.

يخلع الراهب قناع المتنبي ليلبس قناع المغني سارج فانسبورغ. بعد حرق ورقة نقدٍ عالية الثمن يستعمل نارها لإشعال سيجارته ها هو يحاول الصراخ بصوته المخمور: الرحلة عبثٌ محض فلنواجه عبثها بكل ما نقدر عليه من عبث مضادّ. يقفز على خشبة المسرح رجل الدهماء صارخاً: إنه ممثل رديء آخر يحاول لعب دور البطل العدمي لا همّ له إلا إثارة الاهتمام باستنزافات مراهقين. الدور الأخير.

يخلع الراهب قناع المغني المهرج ليلبس قناع فراشة. يصرخ في النظارة المرهقين: حكموا عليّ بالمؤبد في جزيرة الشيطان، لكنني كنت أشطر منهم جميعاً، تدبرت أمري للفرار من ذلك الجحيم، افعلوا مثلي لا خيار لكم إلا بين الفرار والموت تعفنا. يقفز على خشبة المسرح رجل الدهماء صارخاً: هذا عالم -أرخبيل كل جزره محتشد يجاور محتشدا لا فرار لكم من سجن إلا لسجن أقطع. يرمي الراهب بغضب غير متكلف على خشب الركح آخر قناع ويبعث برجله اليمنى الأفتعة المتركمة على خشب الركح ثم يتوجه مباشرة لأقرب حانة يشرب الساكي الى الصبح مع سكارى الحي.

أ يكون هذا الطيف الواسع لما يقدر عليه البشر من أفعال وتفاعلات الشرط الضروري لوجود الطيف الواسع للقصص التي نعيش والمسرحيات التي نمثل والأدوار الذي نلعب وكأنّ الهدف المخفي استكشاف كل إمكانيات الوجود آدمياً؟

**

النظارة المنتظرون

هذه الليلة يزاح الستار عن مسرحية بالغة الشهرة ويقال إنها الأكثر عرضاً في سجون البلدان التي يُسمح فيها بالمسرحيات داخل السجون والموضوع عنصر قرّ في أغلب قصص البشر: الانتظار.

الديكور: طاولة عرجاء وكُرسيان ليسا بأحسن حال. على الحائط إحدى لوحات ادوارد هُوبر، لنقل لوحة المرأة العارية الجالسة حذو النافذة تنتظر منذ زمن غير محدد شيئاً أو أحداً.

يتواجه شخصان يقطع عليهما صمتهما الثقيل دخول راعي الماعز الصغير حاملاً أسوأ خبير في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة.

- طلب منّي السيد فودو إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، لكنه سيأتي غدا بكلّ تأكيد.
نفس الديكور لكن الليلة الموالية.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبير في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة.

- طلب منّي السيد فودو إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.
ليلة بعد ليلة بعد ليلة، ولا أثر للمعنيّ بالأمر.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبير في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة:

- طلب منّي السيد فودو أن أبلغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.
يصرخ المنتظر الأول في المنتظر الثاني.

- لنبتعد عن هذا المكان.

- لا نستطيع.

- لماذا؟

- لأننا سنضطرّ للرجوع غداً.

- لنفعل ماذا؟

-انتظار فودو.

كأنّ الزمان توقف عند نفس المشهد.

على الركح يواصل راعي الماعز الصغير ترديد نفس الجملة الرهيبة: طلب منّي السيد فودو إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء ولكن غدا بكلّ تأكيد.

أتى أم لم يأتي، اهتمامي كله منصب على قاعة العرض. عندما ينحسر التبلد ويحضر الانتباه تعي بأن أهم ما في المسرح ليس الممثلون وإنما النظارة وقبلة الأنظار يجب أن تكون القاعة المكتظة لا ما يتحرك على الركح. كيف لا وأنت هنا في مكان جدّ خاص سُحب من قائمة كل أماكن العالم التي لا تتحرك فيها إلا مصحوباً بكمّ يكبر أو يصغر من المنغصات والأخطار.

لا خوف هنا من تهطل المطر أو من زوبعة ثلج أو من رياح رملية عاصفة.. حتى البعوض تمّ التخلص من ازعاجه بأدوية ومطهرات تحافظ على ما يسمونه النظافة.. لا خوف فيه أيضا من حيوانات كاسرة تترصد. أما الأدميون فلا أحد يحمل بازوكا أو مدفعا رشاشا ولا خوف أن تنشب بينهم خناقة يصفون فيها حساباتهم فيلطحون ثيابي بدمانهم وربما بدمي. هم كلهم في وضع مطمئن لا تخشى منهم ولا تخشى عليهم شيئا على الأقل طوال العرض. أغلبهم يعرفون أن المطلوب حضوره لن يحضر ومع ذلك فأعناقهم مشرّبة نحو الركح كأنهم ينتظرون معجزة تكذب ما يعرفون أصدق المعرفة. المساكين، كيف لا تحرك فيهم هذه المسرحية أعمق آمالهم.

كلهم ينتظرون أحدا أو حدثا.. ثمة من ينتظر الثروة، أو الثورة، أو الشهرة، أو الشفاء، أو كشف الأسرار، أو البعث، أو وصول الحبيب، أو قدوم المخلص، أو المدينة الفاضلة، أو الحرّية، أو الموت، أو "الساتوري"، أو الوحي، أو البخت... كلهم ينتظرون من العالم شيئا والعالم يسرّ فيمن يريد يسمع: بل أنا الذي نفذ صبره، طال انتظاري لما أريده منكم لا أراكم تفهمون.

يتكثف الصمت داخل القاعة كأن التوتّر بلغ أقصاه. لم يعد الممثل الأوّل يتحمّل انتظارا عبثيا يدفعه شيئا فشيئا نحو الجنون:

- قلت لك إنّنا لم نكن هنا البارحة. لقد حلمنا كابوسا.

يجيبه رفيق بؤس الانتظار الخائب:

- وأين كنّا البارحة حسب رأيك؟

- لا أعرف. في مكان آخر، في فضاء آخر. ليس الفراغ هو الذي ينقصنا.

- (بلهجة التحدي) لم نكن هنا البارحة، فما الذي فعلناه إذن؟

- ماذا فعلنا؟ لا نضجّ وقتنا في خُطْب فارغة. لنفعل شيئا ما مادامت أمامنا فرصة. ليس كلّ يوم يحتاجوننا. ولو أنّه من غير الصحيح أنّهم يحتاجوننا. هناك آخرون يستطيعون القيام بالمهمة أحسن منّا. لكنّ النداء الذي سمعناه موجّه إلى البشريّة جمعاء. في هذا المكان وفي هذه اللحظة، البشريّة هي نحن. لنغتنم الفرصة قبل فوات الأوان، لنمثّل بكرامة ولو لمرة واحدة الجنس الذي حُسرنا فيه.

هذا الجنس الذي حُسرنا فيه! هل يقتر الرجلُ خطورة هذه المقولة؟ الجنس الذي حُسرنا

فيه! الشكل الأدمي غلاف! من حُسرنا فيه، لأيّ غرض، وما شكلنا "الحقيقي" إذن؟

يتعمّق الصمت في القاعة والنظارة منخرطون أكثر من أي وقت في لعبة الانتظار.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوا خير في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة:

- طلب منّي السيد فودو إبلاغكما أنّه لن يأتي هذا المساء، غدا بكلّ تأكيد.

تري من هذا الذي لم يأت لحدّ الآن ولماذا هو بمثل هذه الأهمية؟ ما الذي ننتظر منه؟ أن يكون هو صاحب الوصفة السعادة الأبدية التي لا غشّ فيها؟ أن يأتينا أخيرا بالترياق

الواقعي من الأوجاع ومن الموت؟ ربما أن يكون حامل الظرف المختوم بالشمع الأحمر ودخله هدف المهمة التي بعثنا من أجلها والأوامر الدقيقة والتعليمات الصارمة لتحقيقها؟
يصرخ الممثل الأول:

- فلنذهب في حال سبيلنا.

- نعم فلنذهب.

- وإذا جاء؟

- سنكون قد نجونا.

كم من معابد-مسارح تنوح بأجمل الأناشيد على مخلص حضر فعلا بعد طول الترقب لكنه صُلب على خشبة ففرط الإنسان في فرصة ثمينة أخرى! ... كم من معابد مسارح تتغنى بمخلص سيأتي دون أدنى شك في آخر الزمان لتنتهي مأساة الأدمي! لكن كم من مرة جاء المخلص قام بواجبه ثم رحل ولا أحد انتبه لمجيئه أو لرحيله!
يعود الممثل الثاني إلى الصراخ: ماذا نفعل هنا؟ مجددا السؤال الذي يلاحقنا ويلحقنا مهما افتعلنا تجاهله.

- طلب مني السيد فودو أن أبلغكما أنه لن يأتي هذا المساء، غدا بكل تأكيد.

كفى من هذه الجملة! المرة المقبلة سأتي بالطماطم المعطوبة. ما إن يفتح الممثل فمه بها حتى يتلقى واحدة منها، أو حتى بيضة إذا كررها ثانية.

يدخل راعي الماعز الصغير يحمل أسوأ خبر في رحلة لا تعوزها الأخبار السيئة مرددا:
طلب مني السيد فودو أن أبلغكما أنه لن يأتي هذا المساء ولكن غدا بكل تأكيد.

يقول الأدمي لنفسه أو لتوعمه في الشقاء:

- ماذا لو تخلينا عنه؟

- قد يعاقبنا.

ينظر إلى الشجرة مضيفا الشجرة وحدها الحية.

- نشنق أنفسنا. لديك حبل؟

- حزام البنطلون.

- إبه قصير.

- تجذبني من القدمين.

- وأنا من يجذبني؟

أصبح صمت النظارة هو المثير لأعصابي.

ما الذي يدور بخلدكم؟ كيف يعيدون صياغة القصة في خيالهم؟ قد يكون للبعض قراءات تقترب من صياغتي أنا لهذه المسرحية ولكل ما شاهدت وعشت من مسرحيات والمنهجية الثابتة قلب كل كوميديا إلى تراجيديا وكل تراجيديا إلى كوميديا.

في فضاء خيالي ينظر الممثل الأول إلى ساعته غاضبا: يا ابن الكلب. لا أحب من لا يحترم المواعيد. إذا لم تتفضل حالاً فسأخذ صدك الإجراءات الضرورية.

تنطلي الحيلة على فودو يفهم أنه حُسر في الزاوية وأن من مصلحته البروز من مخبأه.
يدخل على الممثلين كله ضحك وممازحة:

- هَلُو حبيبي، عفوا عن التأخير، هذه المواصلات اللعينة وفي أوقات الزحمة!
يتسمر الممثل الأول. يفتح الثاني فمه ثم يغلقه. ينفجران بالضحك.

- فودو زوجتك؟

- بل زوجتك أنت.

- كيف؟ انظر إنها زوجتك بشواربها وظهرها المتقوس.

- يا رجل، إنها زوجتك أنت ببطنها المنتفخ وصدرها الضامر وشعرها المنفوش. ويحك
خرفت إلى هذا الحد، فلم تعد تعرف حتى زوجتك.

تقول كلام لا يليق بمقام المؤلف والنظارة وخطورة الموضوع. طيب لنحاول الارتقاء الى
مستوى كل هذا.

ما رأيك في هذا المخرج؟

يدخل راعي الماعز الصغير مرددا: طلب مني السيد فودو، ثم يتوقف عن الكلام وقد تملكه
الرعب. يتوقف الممثلان عن ترديد المبتذلات الميتافيزيقية ومنها المذكورة أعلاه، انتبها
لرحف ظلام غير معهود السواد.

هنا يدوي صوت لمجهول: طلبت مني الشمس أن أبلغكما أنها لن تأتي هذا الصباح، غدا
بكل تأكيد،

(ضحكة شامتة)

فقط للتذكير بأن أهم ما في الوجود يأتي دوما في الموعد ولا أحد ينتبه، أن الأدمي يتمتع
مجانا وبدون صعوبة بالشمس والربيع والنوم. لكن متى أفنتعث معافى بالنعمة التي يتمتع
بها وأنا أردد عليه قول الحكيم: "الصحة تاج على رأس الأصحاء لا يراه سوى المرضى".
لا أحد منهم رأى يوما التاج الذي يحمله فوق رأسه، كلُّ همَّه واهتمامه منصَّبَان على ما لا
يملك من توافه الأمور.

إمكانية أخرى: راعي الماعز الصغير هو فودو. كان يدخل كل مرة بالخبر يحدوه أمل
عارم أن يتعرّف عليه أخيرا النظارة فيتسلقون الركح لرفعه على الأكتاف والخروج به
يهزجون ويغنون الأناشيد الدينية في شوارع المدينة الجذلى.

آخر عرض: فودو هو عزرائيل. تصرخ في هذا كائن نهرب منه، لا ننتظره بكل شوق.
صحيح إذن لم يبق إلا أن نسأل صاحب النص، وإذا رفض الاعتراف فيمكن أن نُسلمه إلى
المختصين في هذه الأمور ولنا -والحمد للشيطان- ما يكفي من الكفاءات في هذا الميدان
الحساس. نعم، من هو فودو يا صامويل يا ابن بكت وإلا لا تلم إلا نفسك.

يأتي الردّ الشهير: لو كنتُ أعلم لما بخلتُ عليكم بالردّ.

كاتب النص نفسه لا يعرف! مؤلفٌ خَلَقَ كائنين ورّطهما في مأساة لا نظير لها، لا يعرف
أو يدعي أنه لا يعرف؟

تنتهي المسرحية.

ينهض النظارة الذين انتظروا إلى النهاية وصول المنقذ من الانتظار كأنّ على رؤوسهم الطير والكل مقتنع في قرارة نفسه أنّه أخلف موعدا بالغ الخطورة لأنه قصر في شيء ما لا يعرفه؟

هنا أسارع إلى باب الخروج والبسمة الهادئة تشع بنور الثقة مخاطبا المساكين: أنا أعرف من هو قودو...أوصاني أن أقول لكم لا ضرورة لانتظار شيء أو أحد، فلسنا تانهين إلا في أوهامنا. أما المهمة التي جئنا من أجلها والتي انتظرتم عبثا تأكيد ما تعرفون فهي "ماشية"، بل وعلى أحسن ما يرام.

**

طبيعة أم طبائع ؟

قد لا توجد ظاهرة تطرح عليك كمًا هائلًا من التحديات في فهم الأدميين والتعامل السليم معهم قدر التناقض الهائل في تصرفاتهم والتباين المدهش في مواقفهم وأنت ترى دوماً منهم:

صغِيرٌ يَطْلُبُ الْكَبِيرَا	وشَيْخٌ وَدَّ لَوْ صَغُرَا (العقاد)
وَحَالٌ يَسْتَهَيِّ عَمَلَا	وَدُوْ عَمَلٍ بِهِ صَجِرَا
وَرَبُّ الْمَالِ فِي تَعَبٍ	وَفِي تَعَبٍ مِنْ اِفْتَقَرَا
وَدُو الْأَوْلَادِ مَهْمُومٌ	وَطَالِبِهِمْ قَدْ اِنْفَطَرَا
وَمَنْ فَقَدَ الْجَمَالَ شَكِي	وَقَدْ يَشْكُو الَّذِي بُهَرَا
وَيَشْفَى الْمَرْءَ مِنْهُزَمَا	وَلَا يِرْتَاحُ مِنْتَصَرَا
وَيَبْغِي الْمَجْدَ فِي لَهْفٍ	فَإِنْ يَظْفِرُ بِهِ قَتَرَا
شُكَاةٌ مَالِهِمْ حَكْمٌ	سَوَى الْخَصْمِينَ إِنْ حَضَرَا
فَهَلْ حَارُوا مَعَ الْأَقْدَارِ	أَمْ هُمْ حَيَّرُوا الْقَدْرَا

السؤال هل يوجد وراء كل التباين الذي يظهره الأدميون في أهم خصائصهم ما يوحد بينهم بغض النظر عن كونهم يولدون كلهم من أنثى ويموتون يوماً؟
عبارة أخرى هل ثمة نواة صلبة تكون قاسماً مشتركاً بينهم رغم تعدديتهم العجيبة وهي التي يسمونها الطبيعة البشرية؟
عما نتحدث؟

لنقل في مقاربة أولية أن هذه الطبيعة البشرية المفترضة في مفهومها السائد منظومة من الصفات المادية والنفسية لها ثلاث خصائص:
هي موجودة عند كل البشر وذلك أياً كان تباينهم في العرق والعمر والدين واللغة والوضع الاجتماعي. الضحك نموذجاً.

هي لا توجد إلا عند الأدميين وتميزهم عن بقية الكائنات الحية التعذيب نموذجاً
هي ثابتة تنتقل من جيل لآخر منذ غابر العصور دون تغيير يذكر. الكلام نموذجاً.
المشكلة أن هناك شرط آخر للحديث عن طبيعة الشيء أو طبيعة الكائن: التناغم.
مثلاً، من طبيعة الحديد كما يعرفها المختصون الذوبان إذا تعرض لحرارة تبلغ 1538 درجة. لكن أي استغراب سيتمكن منهم لو اكتشفوا أن الحديد يرفض الذوبان تارة إذا كانت درجة الحرارة 1600 درجة ولكنه يقبل بالذوبان تارة أخرى إن وُضع بضعة دقائق في الجليد.

في نفس السياق من طبيعة الغزالة أن تفرّ أمام السبع الذي يريد التهامها، لكن أن تفرّ منه مرة وتجاهله مرة ثانية وأحياناً أن تهاجمه بقرنيها الصغيرين !!!

إنها الظاهرة المحيرة التي ترصدها وأنت تتفحص مواقف وتصرفات الأدميين في أغلب مجالات الحياة.

اعتبر أولى وأهم متطلبات الرحلة ومن ثم أولى الخصائص التي يجب أن تكون موجودة في كل مرتحل لمواجهة عالم حافل بالأخطار. تكتشف باكرا أنك أمام نوعين من الأدميين.

ثمة الأدمي الذي يخرج رأسه بحذر من المخبأ الذي حطّ فيه، يصفعه عنف الألوان والأصوات والروائح وصخب الحركة وتنوع الأشكال، فيتراجع إلى الخلف مبهورا ومذعورا. ثم يخرج من جديد وقد استثارته الأحاسيس القويّة، يدفعه الفضول ويشده الخوف. يتغلّب عنده الفضول وكله نفاذ صبر وحتى تسرّع في مغادرة الوكر. تنتفخ الذات زهوا وهي تنظر في عيني العالم تستقرّ أنيابه ولا درع يحميها سوى الجراءة والتحدي. ها هو الأدمي المغوار يمشي وسط الأعشاب العالية متحفزا يبحث عن الصيد وعن الأنتى وعن العلم وعن المال وعن المجد وعن لذة الخطر وقد استبطن باكرا أنه بقدر ما تتعاضم الأخطار تتعاضم الغنائم، أنه لا بدّ "مع الشهد من إبر النحل"... وأحيانا تصبح الإبر أثنى من الشهد. لا شك أنّ مخطّط الرحلات سيكتب على هامش ملف كلّ مستكشف من هذه الطينة: يعين لمهمّة أخرى في عالم أخطر.

لكن ثمة الأدمي الذي يخرج رأسه بحذر من المخبأ ليدخله بسرعة وقد فاجأه عنف الألوان والأصوات والروائح وأرعبه صخب الحركة. ثم يخرج من جديد يدفعه الفضول ويشده الخوف. ها هو على الطريق كالغزالة التي تركض وسط أعشاب عالية تتربص داخلها الأسود.

همّ هذا النوع من المرتحلين العودة بأسرع وقت إلى الجحر والتمسك أطول وقت ممكن بطمأنينته. أحيانا يموتون بالخوف من شدة خوفهم من الخوف، وفي كل الحالات هم يعبرون الوجود متألّمين من فرط توقعهم أن تصيبهم الحياة كل لحظة بما يوجع... وهو ما لا تبخل عليهم به أبدا.

قد يشتمّ من كلامي أنني أفضل صنفا على صنف. أبدا، لا لشيء إلا لصعوبة وجود النماذج النقية.

لنتفحص هذه الحالة التي نعجب بها أشد الإعجاب: الشجاعة. هي فضيلة مكتملة الأوصاف ظاهريا وموجودة كاملة عند أقلية. لكن لو دققت فيها لاكتشفت أنها-أغلب الوقت-عند الأكثرية خليط من العيوب كالتهور والمجازفة والخفة والبحث عن التصفيق ومحاكاة الأبطال المزعومين.

والآن تمعن في مشاعر كل أدمي مغوار، وتجاوز صراخ النصر والتخويف، وستكتشف أنه يعاني من كل ما يعاني منه الأدمي الجبان، ذلك لأن الشجاعة ليست غياب الخوف أو اقتلاعه من الذات، والأمر مستحيل استحالة غياب أو اقتلاع الجوع والعطش. إنها فنّ إخفاء الخوف، وفي أحسن الحالات فنّ التغلب عليه.

أيا كان المزاج ثمة ضرورة قاهرة لفهم هذا العالم ورصد ثوابته وقوانينه للتعامل مع الأخطار التي يفيض بها والأمر رهن بالقدرة على تجنيد طاقة اسمها العقل. ها أنت كالعادة أمام توجيهين متباينين. الأول الأدمي العقلاني الواعي أنه تجاه العالم جاهلاً عاجزٌ فيسعى إلى تجسير الهوة بالعلم والعمل. والثاني الأدمي اللاعقلاني الذي يختلق الأساطير ويجسّر الهوة بين الرغبة وتحقيقها بالسحر والصلاة. هنا أيضا يمكن للموقنين التجاور في نفس الشخص: نموذجا نيوتن الذي كان عالم فيزياء كبير وممارس مواظب للسحر.

اعتبر الآن كيف يتعاملون مع ما يواجههم العالم من مشاكل عادية وإلى أي مدى تتباين قدراتهم على اتخاذ المواقف الصحيحة التي يتطلبها الوضع. يقول ملاحظ حصيف في الشؤون الأدمية اسمه سيبولا أنه لا يمكن الحكم على الأدميين إلا بأفعالهم ونتائجها. من هذا المنظور لا يوجد على سطح الأرض إلا أربعة "أعراق أدمية: الذين تُنتج أفعالهم المنفعة لهم ولغيرهم وهم العقلاء، الذين تنتج أفعالهم المنفعة لهم والمضرة لغيرهم وهم الأشرار، الذين تنتج أفعالهم المضرة لأنفسهم والمنفعة لغيرهم وهم الأغبياء، الذين لا تنتج أفعالهم إلا المضرة لهم ولغيرهم وهم الحمقى.

وراء تصنيف سيبولا خبر سيء وخبر أسوأ. بماذا أبدا؟ الخبر السيء أن نسبة الحمقى والأغبياء هي نفسها بين النساء والرجال، بين المتحضرين والمتوحشين، بين الأमीين والحائزين على جائزة نوبل، بين الرعايا والحكام؛ أن الأذكى لا يقدرّون خطورة هذا النوع من البشر خاصة عندما يبنون في أذهانهم نماذج المدينة الفاضلة.

الخبر الأسوأ أن لا شيء سيتغير في مستقبلنا "الزاهر" والتركيبة قازة لا تقدر عليها تربية أو دين أو سياسة.

في نفس السياق للخليل بن أحمد رباعية أخرى تعكس بنفس التباين الموجود بين الأدميين وداخل نفس الأدمي وهو يمر من حالة لأخرى: "الناس أربعة، رجل يدري أنه يدري فذاك عالم فخذوا عنه، ورجل يدري وهو لا يدري أنه يدري فذاك ناس فذكروه، ورجل لا يدري وهو يدري أنه لا يدري فذاك طالب فعلموه، ورجل لا يدري أنه لا يدري فذاك أحمق فاجتنبوه".

"أن تعرف وأن تؤمن أنك لا تعرف... قمة الفضيلة (لا وتسو)

ألا تعرف شيئا وتؤمن أنك تعرف... مرض الناس"

يبقى مع كامل احترامي لهذا الاستهجان الصادق أو المفتعل تجاه نوع معين من البشر والتصرفات أنني أجد فيه بعض التبسيط .

كم كان الجاحظ محقا: “وأن الغباء في الجملة أنفع من الفطنة في الجملة، وأن عيش البهائم أحسن موقعا من النفوس من عيش العقلاء ومتوقّع البلاء في البلاء وإن سلم منه، والغافل في الرجاء إلى أن يدركه البلاء”...

نعم كم كان الرجل حصيفا عريفا بالبشر: “وإنّ الناس يظلمون الكذب بتناسي مناقبه وتذكّر مثالبه ويحابون الصدق بتذكّر منافعهم وتناسي مضارّه، وأنهم لو وازنوا بين مرافقهما وعدلوا بين خصالهما لما فرقوا بينهما هذا التفريق، ولما رأوهما بهذه العيون”.
لذلك ترى أغلب البشر يدعون حبّ الحقيقة وهم لا يخشون إلا هي إذ لا أتمنّ لديهم من أوامهم وخرافاتهم وأساطيرهم.

أيا كانت الأفعال التي يأتونها وأيا كانت نتيجتها فهي دوما في خدمة هدف قار قد يعكس هذه النواة الصلبة المشتركة التي قد تكون طبيعتهم .

هم على اختلاف أصولهم العرقية والدينية والاجتماعية وتباين عاداتهم وتقاليدهم ومؤهلاتهم الذهنية لا يسعون إلا لتحقيق غاية واحدة : التحكّم .

هم يجاهدون للتحكّم في اجسادهم بمنع المرض وتأجيل الموت... للتحكّم في ذواتهم يريدون نحتها لتقترب من مثال صنعه الخيال الفردي والجماعي... للتحكّم في رفاق الطريق علّهم يكونوا مطية لا عقبة... للتحكّم فيما يسمونها الطبيعة يبغون تطويع امكانياتها في خدمة صالحهم... للتحكّم في العالم بوضعه داخل اطر فكرية مطمئنة تجعله مفهوما وقابلا للتحمل. هكذا خلقوا السحر والطب والعلم والتكنولوجيا والدين والسياسة والحرب والفنّ والتحليل النفسي، الخ، الخ.

كالعادة سترى الأدميين يتوزعون على طيف الظاهرة. في أقصى الطيف تجد العبد الذي لا يتحكم حتى في جسده. على الطرف الآخر تحكّم الطاغية في شعب من الرعايا أو تحكّم الشيخ في مريدة أو تحكّم الغاسل في جثمان الفقيد.

بين النقطتين القصوتين كل درجات الفشل والنجاح في فرض الإرادة.

النتيجة عادة تسليم الأدميين يوما أن اجسادهم هي التي تتحكم فيهم وأنها هي التي تقر متى تخرج من الخدمة... أن سلطتهم جد محدودة على ذات صنعتها قصص متقدمة على وجودهم وتواصل صقلها ظروف مستقلة عن ارادتهم... أنه يستحيل التحكّم في بعضهم البعض وقد جُبلوا على الصراع الشرس والتنافس المزمن... أن محاولة التحكّم في طبيعة لا يفهمونها إلا بصفة سطحية خطأ الجهل وخطيئة الجشع وأنهم يدفعون ثمن تطاولهم عليها غاليا إن عاجلا وإن آجلا...

ثمة منهم من يعهدون لأخر محاولة قل لأخر حيلة للتحكم على الأقل في هذه الذات التي هي كل ما يملكون.

أنهم كل من تصوفوا أو انسحبوا داخل الأديرة والهدف التخلص من كل أشكال شهوة التحكم كشهوة المعرفة المطلقة أو التمتع المطلق بطيبات الحياة أو القدرة على فرض الإرادة على الذات الأخرى والعالم برمته.

لكن أليس ما يحرك اعتزالهم وتنسكهم وصلواتهم للتخلص من شهوة التحكم، شهوة أعمق وهي شهوة التخلص من شهوة التحكم أي أنهم يدورون في حلقة مفرغة لا خروج منها بأي نوع من التدجيل على الذات؟

اعتبر الآن مزاجهم وهم دوما في مواجهة عالم لا يبخل عليهم لا بالعطايا ولا بالعصا. تجد فصيل المتشائمين ونستطيع أن نعدّ من بينهم كل الذين سكتوا بعد أن بخت أصواتهم بالتقدم "الحتمي" وبالتحاق المتخلفين بالمتقدمين وبقرب عصور الحب والعدل والرخاء... كل الذين كفروا بما آمنوا به طوال حياتهم من قرب انتصاب ملكوت الله، كل الذين اكتشفوا أن لا الثورة قرّبتنا من الهدف، لا الدين ولا العلم، كل الذين أيقنوا أن أغلب من عبروا هذا العالم استعانوا على أهواله بالخمر، بالأفيون، بمهدئات الأعصاب ولا شيء من كل هذا نفع يوما، كلّ الذين سلّموا بأن الأحداث، أو سوء الطالع، تدفع بنا نحو القطب المظلم من ذاتنا، كلّ الذين أيقنوا أننا لن نعرف طريقنا إلى الله في تجربة الحياة ولم يبق إلا تجربة الموت... كل الذين جعلوا شعارهم المثل الصربي: ماضينا مظلم وحاضرنا لا يُطاق، من حسن الحظ أن ليس لنا مستقبل.

ثمّة فصيل المتفائلين ويمكن أن نعدّ من بينهم أبا نواس وألكسندر دوماس الأب والجاحظ، وكلهم نماذج للآدمي الضاحك المضحك، المرح، الشره، النهم، السكير، العاشق، المبدّر، الساخر، الوقح، المبسوط من وضعه، القابض على الحياة بكل نواجذه، المحبّ لها حبّ الأكل للدجاج المحمّر.

انهم المؤمنون بوجود كائن مشغول بمصير الأفراد ومهتمّ بهدايتهم ويتكلف في ذلك الكثير من المشاكل والتضحيات، منها بعثُ ابنه إليهم رغم علمه كيف سينتهي.

كما هو الحال دوما مع الأدميين تجد شيوخ تظنهم في حداد مزمن وهم يحيون في السرّ النكتة ورقصة البطن، بل منهم من يرقصها بإتقان، وهناك أيضا كثير من المرحين ظاهريا الذين يمارسون الكتابة السرية.

هذا ما يؤدي بنا لرصد صنف ثالث من الأدميين قلما ينتبه له المحللون: المتشائلون. موقف هؤلاء رفض التشاؤم لعلمهم بكرم العالم وببلاهة اليأس منه ورفض التفاؤل لعلمهم ببخل العالم وببلاهة التعويل عليه.

عن التباين في المزاج العام ينتج التباين في طريقة التعامل مع العالم ككل. ثمّة الذي لا يُرضيه هذا العالم كما هو، المصرّ على تخليصه من القسوة والفضاعة والقيح والظلم. مثل هذا الصنف في حربٍ لا تَضَعُ أوزارها أبدا لتغيير ما ليس قابلا للتغيير، ومن

ثم هو في حالة مزمنة من الحفيظة والضغينة تجاه من يرفض مساعيه الحميدة لوضع أفضل، بل يقاوم كلَّ خططه ويفشلها. ولأن العالم لا يرضى عمَّن هو ساخط عليه ولا يحب من يكرهه، فإنك ستراه يكيل الصاع صاعين لصاحبنا مما يزيد من توتر أعصابه ومن احتقان علاقة متأزمة على الدوام. ها نحن في حلقة مفرغة من سوء نية متبادلة تُسمِّم حياة الضيف وحياة مُضيف يَزر غيظاً من ثقل دم الزائر ومتنفسا الصعداء لحظة خطفه لروحه. وفي المقابل ثمة الأدمي غيرُ المكترث وحتى غيرُ المعني بكل ما يجعل نقيضه الساذج يبكي ويصرخ. لنقل حتى لا نتهمه ببلادة الحسِّ إنه واع بأن العالم لم يُخلق على مفاصه، وأنه اكتشف بطول ممارسته له أن الحكمة هي في إشاحة البصر عن الغائط والتركيز على الورد. فرق هائل بين الصنفين فالأول عبء على ذاته، على الآخرين وعلى العالم، والثاني عابرٌ سبيل أنيقٌ لا يُثقل كاهل أحد ولا حتى كاهله، يقبل بامتنان ما يوجد به عليه العالم الكريم ولا يُزعج العالم البخيل بالشكوى والشتم.

لقائل إن يقول ماذا عن الثنائية التي تختزل أهم ما شغل بال الفلاسفة والأنبياء والقضاة والمصلحين وشتى مشتقاتهم من ثوريين والمعتدلين أي ثنائية الخير والشرِّ وما العنصر الغالب الذي يجب المراهنة عليه للتنبؤ بما سيؤول إليه مصير الأفراد والجنس البشري برمته.

كم من آدمي تَرَكَ الحبلَ على الغارب لغرائز الجنس والعنف والتسلط. نموذجاً ليفيا وهي تدمر الأعداء الواحد تلو الآخر، وتسمم الأقارب والأبعد، لتعبّد طريق العرش لابنها تيبار الامبراطور الروماني الذي لم يترك موبقة جنسية إلا وتفنن فيها ومنها الفحشاء مع الرضع والأطفال وأمور أخرى لا تخطر ببال سوي. في المقابل تجد آدميين من أمثال المسيح وبودا ورابعة العدوية والأم تيريزا وغاندي. المشكلة أننا أمام النقطتين القصويتين لطيف واسع من تصرفات الخير والشرِّ هو الذي يتحرك عليه أغلب البشر باستمرار وفي الاتجاهين. معنى هذا أننا لو عرفنا القصة الحقيقية للقديسات لقلَّ إعجابنا بهنَّ ولو عرفنا القصة الحقيقية للموسمات لما كان حُكمنا عليهن بالصرامة المضمّنة في الكلمة المهينة. هل ثمة تفسير لكل هذا التعقيد؟

*

في فيلم غنائي شهير يعرض أب متشرد سكير على البروفيسور هيجنز بيعه ابنته ليزا دوليتل بعشرة جنيهات حتى يجرب عليها نظرياته في علم الكلام وربما أشياء أخرى. رداً على استنكار البروفيسور وهو يظنه يساوم المبلغ يصرخ الأب: امكانياتي المادية لا تسمح لي بأن أكون صاحب أخلاق وأن أنزل تحت عشرة جنيه.

ثمة إذن آدميون تسمح لهم إمكانياتهم وظروف عيشتهم بأن يكونوا أصحاب قيم عليا وفي المقابل ثمة من لا تسمح لهم إمكانياتهم بشيء من هذا القبيل، مما يدفعهم إلى أن يكونوا لصوصا، قذرين، كذابين، مخادعين، مجرمين يبيعون بناتهم وحتى زوجاتهم. أسهل هذه الظروف الموضوعية رسدا تلك التي نصفها بالاجتماعية الاقتصادية. ولأننا في نصّ يشبه الحياة برحلة فلنتخيّل معي "قطارا" نعبر به هذا العالم وفيه أربع درجات جد متباينة في كل ما يخصّ الرفاهة والأمان.

الدرجة الأولى هي التي ترحل فيها النساء الغنيات، ومعدّل الحياة عندهن ثمانية عقود، منها ستة بصحة جيدة بفضل تمتعهن بالغذاء السليم والماء الزلال والهواء النقي والجنس النظيف والولادة المراقبة بخيرة الأطباء وتفاني الآخرين في السهر على رفاهتهن. خلفهن ترتيبا مباشرة رحلة الرجال الأغنياء لمتتعهم بنفس الظروف المادية والمعنوية ولو أنهم يعيشون أقل من نسانهم لبعض العادات السيئة مثل شره التدخين والقيادة بسرعة والطموح المكلف للقلب.

القاسم المشترك بين رحالة الدرجة الأولى والثانية أنهم هم من يعطون الأوامر لا من يتلقونها، أن أغلبهم لم يروا الحرب إلا على شاشة التلفزيون وأنهم لم يعرفوا الجوع إلا أيام الصيام.

هم أيضا من يَخترعون الداروينية الاجتماعية والليبرالية المتوحشة ويدعون أن الطبيعة، أو الله، خلق البشر غير أسوياء، وأنه يجب محاربة كل المخالفين للإرادة العليا بالتصت على هواتفهم وتعذيبهم في أقبية المخابرات وقطع أرزاقهم وجلدهم في الشوارع وضرب أعناقهم بعد صلاة الجمعة.

ثالث درجات "قطارا" الرحلة هي التي تسافر فيها النساء الفقيرات. هنا تتعقد الأوضاع حيث لا تعيش المسكينات إلا بمعدل خمسين سنة أغلبها مسغبة وشفاء ومرض نتيجة تقدير العالم بما جاد به على الأغنياء ذكورا وإناثا.

أين رحلتهن حتى هنّ من رحلة الأدميين الذكور الفقراء رُكّاب الدرجة الرابعة. هم لا يعيشون أكثر من أربعة عقود في أحسن الأحوال، ولا أحتذتكم عما يعانون طوالها. هم من يأكلون الحشيش ويشربون الماء كدرا وطينا ويلبسون الأسمال ويسكنون مدن القصدير. هم من لا يعرفون طوال رحلتهم إلا السخرة في مناجم الملح ومزارع القطن، والطرود الجماعي لأسباب اقتصادية. هم من يأكلون من فئات مائدة السادة أوقات الرخاء ويموتون في حروبهم أو في ملاعبهم، ولهم حقّ غير قابل للتصرف في قائمة طويلة من الأمراض تُزايّد على بعضها البعض في البشاعة وإلحاق ما لا يُتصوّر من أصناف الوجع. إنهم من يخترعون الأديان والنقابات وحركات المقاومة والثورات الفاشلة منها والناجحة نسبيا. هم عادة من تصفهم اللغة (لغة الأثرياء من الرجال والنساء) بأنهم جهلة، قذرون، لصوص، مجرمون، أوباش، رعا، عوامّ، إرهابيون ومخربون.

بداهة ثمة ظلم فادح وراء هذا التنظيم لقافلة المرتحلين.

هل طبيعة تنظيم المجتمع المتقدم على ولادتنا سبب وجود الظلم، أم هل أن وجود الظلم
ممكن صلب ودائم للذات هو سبب تهيكّل المجتمع على الحيف في توزيع ظروف
الارتحال؟ .

لكاتب يدعى برنارد فريبر رؤية تنتصر للاحتمال الأخير.
يلاحظ هذا الباحث الحصيف الآخر في الشؤون الأدمية أنك إذا وضعت سنّة فئران في
دهليز ووضعت لهم كمية قليلة من الجبن خلف حواجز عدّة، تفرض عليهم صراعا شرسا
على الغذاء، فإن الوضع المحدّد هذا يفرز بسرعة تنظيما يتشكّل من سيّدين يستحوذان على
جّل الغنيمة، وعبّدين في خدمتهما، ومُتمرّد، ومُتسوّلٍ يعيش على الصدقة وفئات الآخرين.
المثير في التجربة أنك إذا جمعت سنّة سادة تأخذهم من عيّنات مختلفة، فإنهم يُعيدون نفس
الهيكلية: سيّدان وعبدان ومُتمرّد ومتسوّل. إن أخذت سنّة مستضعفين أو سنّة متسوّلين من
عيّنات مختلفة أفرزوا نفس التركيبة.

مما يعني أن التنظيم يعيد نفسه دوما، كأن هناك إرادة قاهرة تأمر بذلك.
لقائل -اشتّم مني سوء النية- أن يقول إن البشر ليسوا فئراناً. ردّي أن المدهش ما تُظهره
الفئران من أوجه شبه عديدة بنا.

المهم أنه أصبح لنا مقياسٌ موضوعيٌ لتقسيم الأدميين لا يتعارض مع ما نعرف وإنما على
العكس يدّعه. من يستطيع إنكار توزّع الأدميين في كل مجتمع إلى سادة وعبيد ومُتمرّدين
ومتسوّلين؟

من ينكر سرعة عودة أيّ مجتمع قام بالثورة، إلى النموذج القديم وقد عاد المتسولون
لنسلولهم وأصبح فيه العبيد سادة يسومون رفاقهم القدامى نفس الخسف بانتظار موعد الثورة
المقبلة، ولكل فصيل من العبيد طاقة معينة على الصبر، ولكل فصيل من السادة قدرة معينة
على الإيذاء الموصل إلى التمرّد.

كل المجتمعات وأن تباينت تعقيدا و" تقدما" مبنية على نفس النموذج ... الخرفان في
المراعي والاسطبلات، الزناب في التكنات والقصور، الأسود في الغابات والسجون...
والكل يتخبط في أوهام بيدها الزمان كما تبدد الشمس الضباب... أوهام الخرفان حول قرب
وصول المسيح المخلص... أوهام الزناب حول دوام حال لا يدوم على حال... أوهام الأسود
حول قدرتهم يوما على الحكم دون أن يصبحوا بالضرورة أكبر الزناب.

أيّ عجب بمثل هذا التنظيم أن تتزاحم في الفضاء الرمزي دياناث سادة متسلطين وديانات
عبيد متسولين وديانات ثوار متمرّدين؟

تعود إلى السطح إشكالية قديمة قدم الأدميين أنفسهم: هل هذا التنظيم المتكرر نتيجة كوننا
كائنات مسيرة أم هل نحن بما نظهره من قدرة الثورة عليه- وإن فشلت أغلب الوقت -
كائنات مخيرة؟

تجد كالعادة ما يثبت الرأي والرأي المعاكس.

على ساحة المعركة جنديان بعد نهاية المجزرة يتجولان بين الجثث. فجأة يجد كل واحد منهما نفسه أمام عدوّ جريح.

هما من نفس الجيش ولهما نفس الموروث البيولوجي والثقافي. من المفروض إذن أن يكون لهما نفس التصرف. العكس هو الذي يحصل أغلب الوقت.

ترى من سيجهز على العدو مستوليا على ما يستطيع سلبه ومن سيمدّ له بقربة الماء ليبلل شفّتيه؟

يستحيل على أي ملاحظ يتابع من الخارج تصرفات الجنديين التنبؤ بمن سيفضّل هذا الخيار على ذلك؟

التجربة والنتيجة نفسها في أي ميدان أيا كان تشابه الوضع المحدّد.

خذ آدميا وضعه في أفسى الظروف التي يمكن للرحلة أن تسلّطها على مرتجل. اجعله منذ نعومة أظفاره محروما من الحنان من التشجيع من التثمين. عرّضه لأبشع أنواع الاعتداء الجسدي والنفسي.

لا أحد يعرف من سيصبح قاتلا بالجملة ومن سيصبح قديسا، من سنتحكم فيه غرائزه ومن سيتحكم فيها ؟

اعتبر الوضعية المعاكسة. خذ آدميا آخر ووقّر له منذ نعومة أظفاره كل متطلبات أسعد رحلة من حُب وتثمين ورفاهة وسلطان على نفسه وعلى الآخرين. من سيصبح ملاك رحمة ومن سيعش ويموت بليدا يرى فيما وهبته الحياة وحرمت منه الآخرين أمرا طبيعيا؟ بخصوص هذه الإشكالية ليسمح لي القارئ بالتوقف لحظة عند ظاهرة لم تأخذ في هذا النص حقها من الاهتمام والحال أنها أهم ما يميّز الأدميين عن باقي الكائنات الحية: الانتحار.

لاراعي حكى يوما أنه شاهد بأمر عينيه خروفا يخرج من القطيع ويتوجه لحافة هاوية ليلقي بنفسه في الفراغ وقد قرّر أن الحياة الخروفية غير جديرة بأن تعاش. كذلك لم يعرف أن بقرة في اسطبل دخلت في اضطراب جوع احتجاجا على تعسّف صاحب المزرعة. في نفس السياق لا أحد أثبت أن شجرة أضرمت النار في اغصانها للاحتجاج على انتهاك حرمة الغابات.

وبانتظار معرفة هل ستتحرر أكثر أنواع الروبوتات تقدما (ربما هذا ما سيرقص له مخترعوها طربا وقد أيقنوا أنهم وصلوا لأعلى مراتب الخلق)، لا خيار أمامنا غير اعتبار الانتحار ميزة لا "ينعم" بها إلا الجنس البشري.

توقّف على الصورة قبل أن يطلق الأدمي الرصاصة على صدغه.

تخيّل معي كل رسائل هذا الراحل عنّا يوجهها لكل من يهمله ولا يهمله الأمر:

أنتِ الذات التي استعصى عليّ التحكم في شهواتها، لا سلطة لك عليّ بعد هذه اللحظة وقد قرّرت الغائك جملة وتفصيلا.

أنتَ العالم بكل اغراءاته التي قيّدنتي بها طوال رحلتك لأتحمل كل موبقاتك وقسوتك
ولامبالاتك، احتفظ باغراءاتك لم يعد لها عليّ أي سلطان.
أنتَ القوة المجهولة التي قررت متى تبدأ رحلتي. لن أترك لك قرار متى تنتهي لأنني أرفض
مواصلة تجربة لا اقبل بتكلفتها ولم تعد تعينني لا أسبابها ولا أهدافها.
أنتم المؤمنون بهذه القوة، على حدائي ما تتوعدوني به من عقاب لتمردي هذا، لم اعرف
من عقاب أشدّ من الارتحال معكم.
هل ثمة تحكّم فوق هذا التحكم والأدمي يثبت ولو عبر ظاهرة رهيبية مثل الانتحار أنه أيضا
كائن حرّ يقرر في آخر المطاف هل يواصل الرحلة أم يخرج من القافلة.
كل ما يمكن قوله لحد الآن أنه في غياب شرط التناغم لا يمكن أن نتحدث عن طبيعة آدمية
ونحن أمام كائن تتعايش داخله الخاصية ونقيضها ومن ثم نصدق في وصفه إن قلنا
"الظلم في شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلّة لا يظلم" (المتنبي)
ونصدق في وصفه إن عارضنا الشاعر:
"العدل في شيم النفوس فإن تجد ذا زلة فلعلّة لا يعدل"
عن أي طبيعة بشرية يتحدثون إذن ونحن أمام كائن مثل وعاء يتجاوز داخله الماء والنار
فلا يتبخر الماء ولا تنطفئ النار!؟

**

بين التبر والتراب

أنصت لجلّ صراخهم أطفالا وكهولا، ذكورا وإناثا، فقراء وأغنياء، حكاما ومحكومين، فلاسفة وأميين، الخ.

ثمة في صراخهم هذا دوما ركن قار هو شكل من التفاضل أي ادعاء قيمة أعلى من قيمة الأدمي الآخر.

هكذا تعبر العالم وأنت تسمع المرتحلين طوال الطريق يتراشقون بأفضلية عرقهم ودينهم وحضارتهم ومجتمعهم ووطنهم وعائلتهم وذواتهم على بقية المرتحلين. فواحد يصرخ أنه من "شعب الله المختار" والآخر أنه من "خير أمة أخرجت للناس" وثالث أنه من "قوم كأن نفوسهم بها أنف أن تسكن اللحم والعظما"... الخ.

لا غرابة أن تخصص أمة بأكملها ركننا قارا من أدبها لشعر الهجاء والفخر.

لا غرابة أيضا أن تحوم جلّ معاركهم في فضائي الفكر والخيال حول أحق الآلهة بالربوبية ومن أصدق الأنبياء وأحسن نظام للحكم وما هي الايدولوجيا التي لا يأتيها الباطل من خلفها وأمامها.

تراهم حتى وهم أباطرة وملوك وأمراء واثرياء وعلماء يبحثون دون توقف عن مزيد من رفع قيمتهم بتوسيع ما يتوفرون عليه من سلطة، من ثراء، من سمعة، من شعبية وشعارهم شعار النار وهي تلتهم كل ما يعترض طريقها: هل من مزيد!

هل هذا الهاجس عند الأدميين -أيا كان موضعهم من السلطة والثروة والاعتبار- نتيجة شك مؤلم بخصوص ما يسوون حقا مما يعني وجود شرخ موجه داخل كل ذات؟

حسب آدمي يدعى سان سيمون المقياس الموضوعي الوحيد للبت في قيمة الأدميين هو مكانتهم بالنسبة للعالم. ثمة الذين يؤدّي اختفاؤهم إلى كارثة عظمية تلحق به وثمة الذين يتواصل هذا العالم بلا أدنى تغيير لا يلحظ اختفاؤهم أكثر مما لحظ وجودهم.

تصوّر في مستوى عملي حالة مجتمعاتنا لو أخطأ القدر فزلت يده ومحت من الوجود أطباء الأسنان والخبازين والموسيقيين وأعوان النظافة البلدية، لا يبقى بيننا إلا جحافل من المخبرين والجلادين والإعلاميين المأجورين والسياسيين الفاسدين.

في معارضة جريئة لتصنيف سان سيمون سأقول إن التقسيم "الحقيقي" للأدميين هو بين الذين يجب أن ننوح عليهم إذا ماتوا والذين يجب أن ننوح عليهم لتواصلهم أحياء.

يمكنك -إن كنت في حالة متقدمة من سوء المزاج والنية كما هو حالي وأنا أكتب هذه السطور- أن تصنفهم إلى قسمين: الأدميون الذين يتركون بعد موتهم امبراطوريات سياسية وامبراطوريات مالية وامبراطوريات فكرية وامبراطوريات فنية والذين لا يتركون إلا بعض الأطنان من البراز - تصلح على الأقل سمادا- وآلاف اللترات من البول وستين إلى

سبعين كيلو غرام من اللحم والشحم توفر لحسن الحظّ غذاء مفيدا للذباب الأزرق ولأجناس مجهولة من الدود والجراثيم.

والآن وقد استنفدنا سوء مزاج يوم حافل بالمشاكل مع الأدميين يمكننا العودة للموضوع بالتساؤل عن مغزى الظاهرة نفسها.

نحن لا نتفق على فهم موحد لقيمة الأشياء ولا على أدوات قياسها فكيف نتفق على مفهوم قيمة الأدمي أو بأية أدوات نقيسها؟

لنحاول ...

تصوّر أنك تنظر للأدميين المتراحمين حولك في الساحات العمومية بعيني عالم الجيولوجيا أو الفلك المنخرط في زمن يحسب بمئات الملايين من السنين.

أغمض عينيك لتستحضر أنهم يتحركون على سطح كوكب هو في الكون مثل حبة رمل في صحاري مترامية الأطراف.

وسّع مجال مخيلتك لتستحضر كم من أجناس حية تتابعت على هذا الكوكب طيلة الأربعمائة مليون سنة المنصرمة وكيف تبخرت لم تترك إلا رميما تفاخر به متاحفنا.

حاول الآن تخيل الثمانين مليار آدمي الذين يقال إنهم تتابعوا على سطحه منذ أكثر من ثلاثمائة ألف سنة أي العمر المفترض حاليا لبشرتنا.

والآن افتح عينيك وأعد التمعن في هؤلاء الأدميين الذين يتراكضون من حولك وستتبلور أول فكرة موضوعية عن قيمتهم.

بديهي أنه بمقياس طول الزمان وشساعة المكان والكمّ المريع من الأجناس والكائنات الحية الأدمية وغير الأدمية التي تتابعت وتتابع على سطح حبة الرمل التي نسكن، يجوز الحكم بأنه ليس للأدميين أدنى قيمة.

تجربة ذهنية ثانية للتعلم في المفهوم.

تصوّر الآن أنك تختار عينة من العقلاء والحمقى، وعينة أخرى من الذين يملكون أموال قارون ومن الذين لا يملكون إلا أسماهم، وعينة ثالثة من القديسين وعتاة المجرمين، أنك تضع العينات الثلاث من البشر في أكثر المختبرات العلمية تقدّمًا ومؤشرات المقارنة ليست نوعية ملابسهم وثمان الساعات التي يحملون وإنما طبيعته أعضائهم وحالة الأنسجة والخلايا التي تكوّنّها وكيفية عمل أدمعتهم.

سنكتشف أنهم كلهم يمتلكون نفس الأعضاء العجيبة، نفس الخصائص المذهلة لأدمعتهم المثيرة لدهشة أكبر العلماء مهما اختلف ثمن الملابس التي يرتدون والساعات التي يحملون. أي ردّ تتوقع من الباحثين العلميين إن سألتهم هل للقديسين والأثرياء والعقلاء قيمة أكبر من قيمة المجرمين والمعدمين والأغبياء؟

كانك في تشبيه آخر مثل مجوهراتي توضع أمامه زمردتان واحدة لُقّت في خرقة قذرة وأخرى لا تختلف عنها في شيء لكنها لُقّت في ورق ملوّن... ويسأله ساذج أي زمردة أغلى

قيمة؟

إذن بمقياس ما يولد به كل البشر من خصائص وصفات وطاقات، لست أرفع شأننا من المتشرد المخمور الملقى على الرصيف ولست أقل شأننا من أي سلطان جالس على عرشه.. مما يعني أنه لكل الأدميين نفس القيمة .
التجربة الذهنية الأخيرة.

أنت أكبر عالم في ميدان المورثات التي تشكّل وصفة صنع كل الكائنات ومنها البشر. بقدر ما تتوغّل في دراسة هذه المكامن لأغرب الأسرار بقدر ما تستشعر أن العبقرية المخفية التي صنعت الأدميين تدبّرت أمرها لكيلا يشبه آدمي آدميا آخر وهي تحرص على وجود ما يميزه عبر التفاصيل داخل التفاصيل في تكوينه البدني ولاحقا النفسي. حتى التوائم الذين ولدوا من نفس البويضة ومن نفس الرحم يتباينون في أكثر من خاصية. كأنك في أكبر معرض للوحات أعظم الفنانين وكل لوحة فريدة من نوعها. أي استنتاج آخر غير أنه لكل آدمي قيمة ليس فوقها قيمة.

الرجل الذي ضمّ بيده أمامي قائلا أنه يحيي المقدّس الذي في... كان لا يسخر مني !!!

ها أنت أمام مفارقة جديدة تضاف لكل ما رصدنا من مفارقات.
ما هذا الأدمي الذي يمكنه أن تكون تباعا أو في أن واحد الذي منه كل وحشة وكل نقمة وكل نعمة وكل نشوة... الممثل والمخرج والمتفرج في كل الأدوار الذي يلعب .. الذي لا قيمة له وله قيمة لا تضاهيها قيمة... الذي يجمع داخله كل المتناقضات الممكنة... الذي يتجاوز داخله الماء والنار فلا يتبخر الماء ولا تنطفئ النار ؟
كل هذه الغرابة ونحن لم نطرح بعد بخصوصه السؤال سيّد الأسئلة : سبب وجود كائن كهذا؟

**

الكتاب الخامس

المهمّة

لا تشيحوا بأنظاركم عن هذا العالم الغارق في
الفوضى ومهما حدث واصلوا المشي وسط ضجيج
البشر وصخب الحياة.

كونفوشيوس

مقدمة الكتاب الخامس

يصل الطريق يوما إلى مدينة مكتظة في بلاد سينا. أتوجه بمنتهى الأدب لأحد المارة.
- سيدي ماذا يفعل كل هؤلاء الناس هنا، طمئي أرجو أنني لست في انطلاقة مظاهرة؟ أنا مجرد زائر ولا أريد نفسي محشورا في صراعات طائفية أو سياسية لا ناقة لي فيها ولا جمل.

يضحك الرجل:

- هذه ليست مظاهرة، أنت أمام محطة قطارات مومباي وهؤلاء مسافرو يومٍ عاديٍّ، ماذا لو جنّت في الأعياد؟

تعود بي الذاكرة لدهشة طفل في الخامسة أو السادسة ذلك اليوم المشهود الذي أخذه فيه والده في أول زيارة للمدينة الكبرى. يومها ألقى على الرجل بنفس بالسؤال.

- "با" ماذا يفعل كل الناس هنا؟

نعم هل ثمة سؤال أهم من هذا السؤال أيا كان زمان ومكان طرحه: ماذا يفعل كل هؤلاء الناس هنا؟

الغريب في الأمر التدافع الشديد للوصول لمثل هذا العالم كأن لهم شيئا عاجلا وأكيدا ينتظرهم فيه.

المشكلة الكبرى -وهذا ما يتضح من مجرد القاء نظرة خاطفة حولي- أن عدد الداخلين بدأ يفوق طاقة استيعابه والدليل أن ثلث الأدميين هذه الأيام لا يجدون ما يسدّ الرمق ويزعجون الشعبانيين بإرهابهم ومظاهراتهم وثوراتهم الفاشلة.

لهذا نشرت منذ مدة على موقعي في فضاء الصِّفر والواحد، إنذارا صادقا وإن بتوقيع مزيف.

“نظرا إلى الازدحام الشديد، ولأن المكان غير جاهز لاستقبال كل الزبائن، فإن العالم يعلم أنه قرّر التوقف عن استقبال الزوّار وذلك إلى أجل غير مسمّى”.

عبثا. والدليل ما يتلاطم حولي من أمواج بشرية.

لا جدوى من اعتراض طريق أيّ من المارة لتسأله عن سبب وجوده في هذا العالم وماذا يفعل فيه. من الأحسن أيضا ألا ترفع صوتك واصبعك في وجهه تذكره أن عندنا كبار الاخصائيين ينطقون كل المتسترين على الأسرار التي تهمننا جميعا.

قد يطلب بوليس النجدة أو سيارة اسعاف لحملك لأقرب مستشفى الأمراض العقلية. في كل الحالات هو كبقية المارة لا يعرف فعلا لماذا هو موجود وماذا يفعل في هذا العالم وإلا لكان السرّ على كل اللسن منذ زمن بعيد والمعروف عن الأدميين -الاناث تحديدا كما يدعي الذكور- استحالة حفاظهم طويلا على أي سرّ.

يجب أن أجد جوابا ما بنفسي. المشكلة أن مزاجي هذا الصباح ليس على أحسن ما يرام ومن ثمة تدافع ردود ليست الأحسن للمعنويات.

ها أنا أسمع في فضاء خيالي موظفي مركز شحن سماوي ما يصرخان في بعضهم البعض: - كم من محكومي هذه الشحنة وما التهم التي استوجبت نفيهم إلى تحت؟

- العلم عند كبار المسؤولين. ما يهمني هذا الغبي أد3100-2154879365 الذي يقاوم ويصرخ أنه بريء ويرفض النزول إلى العالم الذي حُكم عليه بالعيش فيه حياة كاملة. قد نضطر لاستعمال العنف معه حتى يركب الشاحنة ولا يركب رأسه.

تقول يا رجل العن الشيطان، ماذا لو كان العكس هو منطلق قصة القصص؟
ليكن. الحوار " الحقيقي" إذن بين موظفين فاسدين:

- ثرى كم من رشاي وتدخلات وتراخيص زائفة في هذه الشحنة؟

- العلم عند عصابات التهريب. هذا الغبي أد3100-2154879365 تأخر وسيفوته موعد القاطرة الأولى وقد يضطر لدفع رشوة أخرى إذا أراد زيارة عالم يُقال عنه إنه من أرخص العوالم المعروضة للاستكشاف هذه الأيام.

عبث كل هذا؟ طيب لنترك المخيلة تستريح ولنلتجئ إلى الأداة الأخرى للذهن التي يسمونها العقل. أه ثمة فرضيتان لا أكثر.

الأولى مرتبطة بواحد من أهم قوانين تشغيل هذا العالم: الرهان على الأعداد الكبرى.

كما لا بدّ من مئات ملايين النجوم لتشكل حفنة من الكواكب القادرة على توفير الشروط الدقيقة لظهور الحياة، كما لا بدّ من غريلة أطنان من التراب للحصول على كيلوغرام من التبر كما لا بدّ من مئات الملايين من الحيوانات المنوية لينجح واحد لا أكثر في إخصاب بويضة... كذلك لا منا ص من عشرات الملايين من البشر ليخرج من بينهم موسيقي اسمه باخ وشاعر اسمه إيسا وأدمي أصبح إنسانا اسمه الحلاج.

بصراحة لا أحبّ هذه الفرضية لا لشيء إلا لأني لست متأكدا في أية خانة يصنّفني العالم وهل أنا من التبر أم من التراب.

الفرضية الثانية التي سأدافع عنها لأنها في صالحها وصالح كل قرائي والبشر أجمعين هي القائلة بأن المهمة التي كُلف بها الأدمي من قبل قوة مجهولة (أو كُلف بها نفسه مفتعلا أن هناك قوة مستقلة عنه كلفته بالأمر) أصعب وأطول من أن يتعهد بها آدمي واحد.

لذلك كان من الضروري أن يخلق بأعداد كبيرة في كل الجيل وأن تتابع الأجيال كما تتجدد أفواج عمال المناجم، والقدامى يحالون إلى التقاعد لصالح أجساد غضة قادرة على مواصلة العمل الشاق.

طيب، لكن ما هذه المهمة التي تحتاج لجهد كل هذه الأجيال؟

كم فكرت ونقبت في نفائس الكتب عن ردّ يشفي الغليل، كم سألت من حولي فلم أظفر أنا أيضا إلا بما ظفر به الشاعر:

وأكثر سعي العالمين ضلال (فخر الدين الرازي)

نهاية إقدام العقول عقال

وأرواحنا في وحشة من جسمنا وحاصل دنيانا أذى وويل
ولم نستقد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
أوف، خرجت من الزحمة المرعبة. يمكنني التوقف لمسح عرقي. أعتنم الفرصة ورجل
واقف بحدوي ينظر مبتسما إلى هذا الأجنبي التائه.

- عفوا، يا سيدي هل تسمح لي بسؤال؟ في بلادنا نحیی الآخر عن بعد ملوحيين بيدينا ليتبين
له أننا لا نحمل سلاحا. عن قرب نصافحه نؤكد ونتأكد أنه ليس بين الأصابع الخمسة خنجر
صغير... ثم نُقرئه السلام. إلامَ ترمز تحيتكم أنتم؟ هل هناك مغزى لضمّ اليدين أمام الوجه
وما معنى "تماستي"؟

- معناها نحیی المقدس الذي فيك.

يضمّ الرجل راحتيه اتسعت ابتسامته ثم يختفي داخل الزحمة.

المقدس الذي في... أنا !!!؟

هل ثمة في هذه الجملة بداية خيط يمكنني أن اتبعه علني خرج أخيرا من مغارة أفلاطون.

**

بيت الروح

ذات يوم يتغير منهج البحث بصفة جذرية.

لماذا لا أردّ بنفسني على السؤال سيد الأسئلة ؟

لماذا لا أختار له الأجوبة التي تساعدني على تحمل هذا العالم ومواصلة رحلتي فيه بأقل قدر ممكن من الحيرة والقلق ؟ اليس هذا ما فعل البشر دوما ؟ نعم لماذا لا أخلق لي أسطورة لاستعمالي الشخصي تغنيني عن القيل والقال لأخرين لا يقلون عني حيرة وضياعا ؟ قبل الشروع في العملية لم لا أستأنس برأي خبير كبير في بناء الأساطير خاصة والطريق قد أوصلني إلى أرضه؟

لكن هل سيعيرني اهتمامه وقد انسحب من العالم الحسي غير مبال حتى بفيالق النمل تتسلق الصدر والوجه، تدخل وتخرج من العينين والمنخرين؟ يتبلور الشبح الذي صنعته الذات لتتفحص عبره ما يتبلور بصعوبة داخل فكرها وخيالها. ينبه فالميكانيكي لوجودي. يبادرني بانزعاج لا يخفيه:

- ماذا تريد؟

أواه يا سيّتا، برّب عشق طفل تهجّي في حبك أجمل روايات القصّة المقدّسة، تدخّلي، أريد نصائحك ولم لا بركاتك!

أهمس له بين رجاء واستحياء بهدف الزيارة.

- خلّفت الأدمية المهندسين المعماريين في الفضاء الحسي لتلبية حاجياتها المادية الحسية من بناءات مادية وخلّقت أيضا مهندسين معماريين في الفضاء الفكري الخيالي لتلبية حاجيتها الروحية . هم من بنوا لها الأساطير والأديان والفلسفات وأنت من أكبرهم جنتك لأخذ نصائحك بخصوص مشروع بناء بيت روحي لاستعمالي الشخصي لا غير؟

- ولماذا اخترتني من بين كل الصناع ن المشهود لهم بجودة أعمالهم ؟

- لأنك لا تخفي أمرا يحاول الآخرون التستر عليه وهو أن كل ما نبني من فلسفات وأديان ليست إلا تصورات من بنات أفكارنا.

يأتيني همس فيه فيه مزيج من الاستغراب والمرح .

- ثمة بنايات للروح أثبتت متانتها عبر الزمان فلماذا لا تكفني بها؟

-جلّ الموجود من التصورات لا يقبل بها عقلي أو لا يرضى به فؤادي لا لشئ إلا لشراسة أصحابها في اضطهاد من لا يصدّقها.

- انتبه لخطورة ما تقول.

- لا أدلّ على ضعف رؤيا من كونها لا تحفظ بقاءها إلا بالقضاة والجلادين. حتى التي لا تحتاج لأي عنف لبقائها أعجز من أن تتحدى أنياب الزمان. فكما لن يتوقّف الهدم والابتكار والتشييد في فضاء الحواس، لن يتوقف بناء وهدم البيوت في الفضاء الرمزي-الخيالي، لا

طاقة للآدمي على سكن نفس البنايات وإن حسبت أعمارها بالقرون، إما لتغيّر الذوق العامّ أو لارتفاع مقاييس الجودة عند المستعملين.

- وما مقاييس هذه الجودة في ما تبحث عنه من بنايات روحية جديدة؟

- المقياس الأول لمهندسيها ألا يتعسف الفؤاد على ضوابط العقل وألا يستخف العقل بحاجيات الفؤاد.

- والمقياس الثاني؟

- أحسنُ الأساطير المؤسسة التي لا تزرع الألغام على طريق الأجيال القادمة، التي لا تخلق شعوبا مختارة يحق لها قتل الآخرين والاستيلاء على أراضيهم، التي لا تقسم البشر إلى مؤمنين وكفار، التي لا تخلق منبوذين يتهمون باطلاً بارتكاب موبقات في حياة سابقة، التي لا تخلق مستبدا في السماء يشرّع للمستبذ الذي على الأرض، التي تسهل الحياة والموت للجميع، خاصة التي لا تتعدى أبداً على كرامة أيّ من الكائنات الحيّة.

كم غريب قبول البشر بالعيش والموت داخل أساطير تجعل منهم حيوانات خلقتهم الطبيعة صدفة أو دمي خلقتها آلهة لا شيء إلا ليعبدها!...عجبي من تشبّثهم بقصص تعيّرهم بأصولهم...تسمّ رحلتهم بعقدة ذنب لم يرتكبوه... تجعلهم يعبرون العالم على مخاوف لا سند لها ولا داعي... ناهيك عن التي تتهمهم بارتكاب جرائم في حياة ماضية تبرر ما يتعرضون له من ظلم فظيع في هذه الحياة...

يعود الهامس الخيالي لتحسّس مكامن الضعف والقوة في محاوره.

-أتبحث أنت أيضا عن رؤيا تتجسد فيها الحقيقة المطلقة؟

- لا وجود لشيء مثل هذا. الحقيقة في الدين ما تعتقده طائفة دون بقية الطوائف من المؤمنين ومن ثم هي نسبية. هي في العلم ما تعتبرها طائفة من الباحثين أحسن إجابة عن مشكل ما بانتظار تطور الأبحاث ومن ثم هي مؤقتة.

- ما الذي تريده مني إذن وقرارك مأخوذ؟

- بركاتك وتمنياتك لي بالتوفيق.

يلقي عليّ الرجل نظرة طويلة.

- هل عندك توصية من جهة موثوق بها؟

مداعبة بمداعبة.

- من أمي. هي الوحيدة التي وثقت بي دوماً وكان ذلك خطأها الوحيد.

يرمقني فالميكي بنظرة فيها فضول مفاجئ ثم ترتسم على شاشة الذهن ابتسامة عريضة.

- أخلق لك القصة التي تريد إن لم تجد ما يرضيك من قصص الأوائل.

القصة التي أريد! طبعاً الأجل، الأغرّب، الأخطر... والأكثر احتراما للبشر، للشجر

للحيوان ولكل ما ينعلق عليه العالم من روائع ومن معجزات.*

الرواية المزيدة والمنقحة لانطلاق قصة القصص

أهمّ ما في أساطير الماضي أنها معالجة العقل الجماعي لمفاهيم بالغة التعقيد توضع في قالب شعري مجازي ليسهل وصولها إلى كل العقول والقلوب... وأيضا احتوائها على مواد ثمينة يمكن استغلالها وإعادة استعمالها لمواصلة خلق الأساطير.

أليس من خصائص البشر حبهم للسطو على ممتلكات الغير لا يترددون مثلا في الفضاء الحسي وهم منتصرون عن تدمير معابد أعدائهم ومصادرة أحجارها لبناء معابدهم هم؟ لماذا أتورع عن المشي في نفس الطريق وأنا آدمي كامل الأوصاف؟ لا أسهل للانطلاق في مشروع الخيالي الخاص من استغلال الأسطورة التي نشأت عليها وأجمل اخراج لها هذه القصيدة.

“وقبلها كانا في جنة عدن (أندريه شديد)

فضاء أنقذه الإله من الظلمات

أرض خصبة معطاء

وسهول تسكنها حيوانات صديقة

متعة بلا إسراف

سعادة لا تتخللها الأشجان

وعُد بلا خطر

فجأة طُرِدَا من الحديقة”

قف. طُرِدَا من الحديقة!! ؟

نعم هذا ما تدعيه الرواية الشائعة للأسطورة حيث تقول إن شعبانا خبيثا زَيْن لآدم وحواء أكل تفاحة من شجرة في الجنة فعاقبهما الله بالطرد من حديقته هذه لأنه لا يحب من يقطف ثمار أشجاره دون رخصة منه.

مع كامل احترامي للمهندسين الخياليين-الرمزيين الذين تورطوا في مثل هذه التصميم لبيت روعي ستسكنه الملايين طوال قرون، أقول لهم أنهم لم يوفقوا كثيرا في مهمتهم.

أن يطرد آدم وحواء لاكتشافهما متلبسان بالتدخين داخل المراحيض فأمر مفهوم لما يمكن أن ينجر علي الأمر من انفجار الجنة إذا كانت جنة طائرة أو نشوب حريق لا يبقى ولا يذر إن كانت جنة أرضية... لكن أن يطردا بسبب تفاحة .

ليس لي هنا بفتح القوسين للتأكيد على أن النص لن يدخل في مناقشة عقيمة بخصوص طبيعة هذه التفاحة اللعينة وهل كانت تفاحة كالتي تشتري من السوق ويتعرف عليها بسهولة الفم واللسان والأسنان... أم هل كانت تفاحة سحرية تختزل داخلها المعرفة المحرمة علما وأنه لا أحد يعرف لماذا حرمت المعرفة على الأدمي ولماذا تبلورت في تفاحة وليس في بطيخة أو قرعة.

الأهم من هذا- وذلك أيا كانت طبيعة التفاحة المشؤومة- أنه يجب رفض سرديّة الطرد لأنها تعدّ صارخ على الكرامة ثلاث مرات.

هي تعدّ على كرامة يافيه وهي تصوّره كمستبد بخيل حقوق ظالم ينكل بمخلوقاته بسبب معصية تافهة.

هي تعدّ على كرامة الأدمي عندما تجعل منه كأننا بانسا قبل بالركل في المؤخرة والطرّد والنفي ولم يردّ الفعل مثلا باقتلاع الشجرة في لحظة غضب ورميها في وجه صاحب الحديقة وهو ما كنت سأفعله بالتأكيد لو كنت مكانه.

أخيرا وليس آخرا هي إهانة للعالم عندما تجعل منه منفي لمرتكبي أبسط المخالفات. مهلا . أليس من الظلم لوم من وضعوا هذه البداية لقصة القصص؟ هم لم يكونوا أقل ذكاء منا ونوايا طيبة لتسهيل رحلة بني سفر. إذن لماذا ارتكبوا خطأ مهنيا يمثل هذه الخطورة؟ ألا يقال إذا عرف السبب بطل العجب. ما السبب يا ترى؟

ألا نعرف أن وراء الكثير من الأساطير أحداث صحيحة وقع تغليفها بما تيسر من الخيال وضاعت ملامحها بتقدم الزمان ثم سوّقت للأجيال المتتابعة على أنها حقائق لا يأتيها الباطل من خلفها ومن امامها.

هل من باب الصدفة أننا نجد نفس اسطورة الطرد والعقاب عند قبائل "البوشمان" في أقصى غرب جنوب القارة الأفريقية وهم يبعدون عن قبائل الساميين في أقصى جنوب غرب القارة الآسيوية أخذت عنهم قبائل العالم أجمع هذه الرواية.

أية أحداث حقيقية قد تكون وأدت سرديّة طرد آدم من الجنة؟ أجيل البصر حولي في هذه الصحراء التي أتدبر أمري للعودة إليها دوريا إن لم يكن بالجسد فبالخيال والحنين.

كانت "ما" تبتغضها بغضا شديدا لا فقط لأنها نفيت فيها مدّة بغير ارادتها وإنما خاصة لأنها كانت تفقد فيها طيب مناخ قريتها البعيدة في شمال البلاد بخضرتها طوال السنة ومياها العذبة التي تستخرج من آبار سهلة الحفر.

ما كانت تجهل المرأة الطيبة أن الأراضي القاحلة التي نُفيت فيها كانت يوما ما أرضا خصبة تشققها أنهار جبارة وفي مراعيها الخضراء طيلة السنة كانت تمرح الغزلان والزرافات والفيلة. ذلك لأن الصحراء مثل قلب ينبض من قبض الي ارتخاء ومن ارتخاء إلى قبض أي من خصوبة وأمطار غزيرة إلى قحط وجفاف مدمر والسبب تغير المناخ من النقيض إلى النقيض كل عشرين ألف سنة كما يقول بعض أهل الاختصاص.

لنتخيل -ولو بشيء من المبالغة في تجميل الصورة- كم كان عيش الأوائل سهلا وحتى ممتعا في فترة الصحراء الخضراء وهم يتنقلون بكامل الحرية داخل ارض غنية بكل أنواع الثمار وصيد متوفر في كل مكان والماء الزلال تحت الطلب أينما امتدّ البصر.

ها قد أصبحت تدريجيا مراعيها الخضراء التي كانت تسيل فيها الأنهار أرضا قاحلة.

ها قد تحولت الجنة إلى جحيم والشمس تحرق جلودهم والعطش يلصق الألسنة بالحلق ولا شيء يؤكل إلا بعض الجردان المتماوتة هي الأخرى جوعا وعطشا.
لنتصوّرهم حول نار باهتة والمعنويات كتلك التي نعيش أيام الحداد.
ينطلق شيخ القبيلة واصفا للأطفال كم كانت هذه الأراضي القاحلة حديقة الآباء والأجداد وكم كان فيها من أشجار ومن أعشاب ومن ثمار ومن انهار ومن شلالات ومن حيوانات تتبارى أناقة وجمالا. مؤكد أنه كان هناك في آخر الحلقة طفل كان أذكى الأطفال وأكثرهم فضولا وأسئلة مرهقة لكل من حوله... وأنه كان أكثر الأطفال انتباها لكلام الشيخ.
كأنني به يتساءل: ما الذي حدث وسبب الكارثة التي يصفها العجوز؟ لا شك أن الأوائل اغضبوا أقوى الإلهة فسلط عليهم أظع عقاب ألا وهو طردهم من أراضي الخضرة والوفرة والمياه العذبة لينفيهم في هذه الفيافي الموحشة.

لنتابع تفكير طفلنا العبقري الذي سيصبح نبيا مع كل المخاطر المرتبطة بهذه الصفة. ترى ما الجريمة التي ارتكبتها الأوائل؟ أه لا بدّ أنهم سرقوا شيئا لربّ الأرباب والربات؟ لكن ماذا؟ أشهى ما في حدائقه؟ التفاح! التفاح! التفاح!

ها هو يصل تلقائيا للسؤال الذي سينطلق منه السحر والدين والعلم: كيف يمكن استرضاء ربّ الأرباب والربات حتى لا يواصل غضبه علينا ونعود إلى الجنة التي طردنا منها؟
قد لا تكون الأمور حدثت هكذا في التفاصيل، لكن اغلب ما نعيش عليه من أساطير دينية وعلمانية لم تفكر إلا بهذه المنهجية: حبة من الحقيقية تبني فوقها قبة من الخيال.
أخشى ما أخشاه من نظريتي أن تصدق أيضا في المستقبل. ألسنا في هذا العصر على حافة كارثة مناخية أخرى؟

تصوّرنا حفيداتنا حول النار بعد ألف سنة من الآن يستمعن لشيخة القبيلة في ركن من أركان مدينة مهجورة تحدثهن عن الجنة التي عاشت فيها الأمهات والجدا.
أه يا بناتي حقا كانت عصورا ذهبية، نعم كانت هناك وسائل لمنع الحمل (الشيخة وهي في الثلاثين تنتظر طفلها الخامس عشر) وأطباء أسنان (الشيخة لا تنام وآلام ضرس العقل تفقدنا عقلها) ووسائل اتصال تسمح بالتواصل مع من نريد في أي مكان في العالم (الشيخة قلقة من تقطع أخبار كتيبة المغوارات وقد انطلقت منذ أسبوع لغزو حي الركام الموجود وراء بقايا الطريق السيارة)

تتساءل طفلة وسط الحلقة وهي أذكى البنات وأكثرهن فضولا: ترى ما الجريمة التي ارتكبتها الجدا لتنتهار العصور الذهبية؟
أي خطيئة ستمتلكها النبوة سترتبتو فسكاليا لتفسير خروج البشرية من جنة العصر؟ ربما أكل الطبيعة برمتها وليس فقط ثمرة من ثمارها.
ترى ما شكل الديانة التي ستؤسسها وقد تسود عالما متجددا طيلة آلاف السنين؟

عودة لموضوعنا. بما أنه من الثابت أن آدم وحواء خرجا من الجنة لسكنى هذا العالم - والدليل القاطع وجودنا جميعا- فلا بد من سبب لهذا الخروج.

هنا يجب الضرب على الطاولة والصراخ في وجه المتعلقين بالصياغة المهينة: كلا ثم كلا، آدم وحواء لم يطردا من الجنة وإنما... فرًا منها.

تهز رأسك: ما هذا الهراء؟ كيف! الرجل والولية عائشان في جنة خمسة نجوم إلى الأبد وبالمجان وتقول لي إنهما هربا منها لرمي أنفسهما بمحض ارادتهما في هذا العالم التعيس! هل نسيت أننا لا نلحم بشيء قدر تحقيق الجنة في هذا العالم والعودة إليها بعد الموت، هل تتصور حقا أنني سأشتري مثل هذه البضاعة؟

ردّي أنه لا يجوز الاحتجاج على روايتي بحجة ضعيفة من نوع آدم لا يمكن أن يرتكب حماقة كالخروج طوعا من الجنة وأنت أعلم مني بطول باع الأدميين في ارتكاب ما يخطر وما لا يخطر على البال من الحماقات.

تضيف لمواصلة حشري في الزاوية: ثم إن الفرار من مكان كهذا محروس بملائكة مدربة وكاميرات عالية الجودة، عملية غير ممكنة.

فعلا ليس من السهل الفرار من مؤسسة مثل الجنة لا شك أنها تتوفر على ميزانية غير محدودة ويمكنها أن تستأجر أحسن شركات الحراسة وشراء آخر الكاميرات عالية الجودة لمراقبة الحدود منعا لكل المتسللين غير القانونيين.

لا بدّ أنه كان لآدم وحواء داخل المكان شركاء أعانوهما، ربما بايقاف تشغيل الكاميرات لحظة الهرب أو بتوفير الحبال الضرورية لتسلق الجدران أو أية وسيلة أخرى.

لكن من؟ الملائكة؟ إبليس؟ الثعبان؟ كائن مقنّع لم ترصده القصة؟ من المستحيل على كل هذه المخلوقات ولو مجتمعة أن تتدخّل بيافيه وهو قادر على معرفة الأحداث حتى قبل أن تقع.

التفسير الوحيد لمثانة روايتي أن النصير المجهول كان صاحب الحديقة أي الربّ لا غير. صدّق أو لا تصدّق، ذلك شأنك.

إذن في النسخة المزيدة والمنقحة للأسطورة الشهيرة، أزمع آدم في سرّه على الفرار غير واع بمن أوحى له بالفكرة ذات ليلة صارخ حواء بالفكرة، فمطّت شفتيها وحكّت رأسها ثم رفضت بقوة. مؤكّد أنها قرأت في مستقبل غامض كل ما سيمرّ به أطفالها من محن لكنها لم تلبث إن أعادت حساباتها. في آخر المطاف... لم لا؟

[في طبعة موجهة فقط لمناضلات الحركة النسوية، سنجعل حواء هي التي أسرّ إليها الربّ بالفكرة وأنها هي التي أقنعت رجلها الكسول بفكرة الفرار وأنه هو الذي مانع وقد أربهته صور آتية من أعماق المستقبل لما ينتظر أطفاله وأنه رضى وحواء تهدده بالهروب لوحدها وما عليه إلا أن يجرب الجماع مع إبليس أو الثعبان.]

أيا كان صاحب الفكرة وبعد شجار مقرف ككل شجارات الأزواج يخسّم الأمر لصالح الفرار. هكذا اشتعلت شاشات المراقبة برسائل الإنذار. ثم طلعت التقارير للإدارة العامة

تحت إشارة غليظة بالأحمر: "عاجل للغاية وسرّي جدا". وعوض أن يبرق الإله ويرعد وتتفجر البراكين على كل الكواكب، ابتسم الربّ بل وتنفس الصعداء مناجيا نفسه: أخيرا، قرّر قرار الغيبين، من يدري؟ ربما هما رهاني الناجح هذه المرة. تنبيه: لن يقع التصريح بكل نوايا الرب ولن أكشف عن طبيعة المهمة الخطيرة التي أوكلت لأدم وحواء. أولا لأن المجالس بالأمانات ولا يمكنني ولو بالتلميح فضح كل الأسرار التي تمكنت من الاطلاع عليها من أوثق المصادر. ثانيا لأن تقنيات التشويق في كل رواية تقتضي أن أحافظ أطول وقت ممكن على سر الأسرار وألا أتقاسمه مع القارئ إلا عندما ينفذ صبره وقد دفعته أكثر من مرة -كما يفعل جلّ كتاب الروايات البوليسية- نحو تخمينات خاطئة بخصوص هوية المجرم وأسباب الجريمة الحقيقية.

بقية الأحداث كما تصفها الشاعرة الملهمة:

“سار عا إلى تغطية عربيها بالجلود (أندرية شديد)

دفعتهما الرياح الهوجاء من الخلف

تعانقا برتعشان من الخوف

وقد أصبحا في سجن فضاء ضيق من الجلد

بواجهان الامتداد الموحش المخيف

ومستقبلا مرعبا لم يستعدا له

تجاوز آدم ضعيفته

مسك بيد حواء متجها إلى الأمام

إنها أراض لا بد من غزوها

إنها عقبات لا بد من تجاوزها

إنها أخطار لا يعرفان عنها شيئا

وإنه كون يتلعثم بأولى كلماته

عالم مقيد بسلسلة لا نهاية لها من الأيام والليالي

عالم تحت مطرقة الزمان

يجب تعلم الموت فيه

عالم غير مفهوم

يتبذيره الرائع والمرّوع

معا سيملكانه لا سلاح غير الهشاشة والإصرار

معا سيلدان آدمية الشرّ والجدل.

تعبر الفضاء والقرون.

ومن خلال ضباب الزمان

تابعهما الصدى بالأمر"

تغالب تفاحة النوم وأنا أروي لها هذه الصيغة غير المرخص لها لانطلاق ملحمة الأدميين.

- "يا"، بماذا أمر الصدى آدم وحواء وهما يفران؟
- خذا معكما ابليس لا مناص من اصطحابه.
ربما واصل هامسا لنفسه: وإلا كيف سيعرف البشر ما الخير في غياب الشرّ، ما المسؤولية
في غياب الحرية وما الحرية في غياب الجبر والقهر؟

**

وقال لهم الصدى فلتتمخض هذه التجربة عما تزخر به من امكانيات الاضافة و التجديد.

وراءهما الآن باب الجنة والعالم الجديد بأسره أمامهما.
تدير حواء بصرها في الفضاء الشاسع أبهرها النور والألوان، حائرة اللبّ أمام كل هذه
الروائع، شلالات متدافعة من أعالي الجبال، أنهار متدفقة بين الروابي، بسط مفروشة بما
لا يحصى من الأزهار، كنبان من ناعم الرمل، جبال مكلّلة بمهابة الشيب، بحار تهشّ
الريح فيها على الموج، غابات تعانق أشجارها السحاب، سماء مرفوعة بلا عمد...
يهرش آدم رأسه أمام كل هذه الروائع: جنة أخرى؟ ما فائدة فرارنا إذن؟
صبرا قليلا يا نافذ صبر لم يبدأ بعد.

تصرخ حواء وقد مرّ على فطور الصباح وقت لا تستطيع تحديده بما أن الساعة لم تُخترع
بعد: أنا جائعة ولا أكل جاهزٌ هنا.

ينتبه بطئنا إلى التغيير الجذري في الوضع وأن هذا العالم لا يوقر شيئا عدا وجوده، أما
تدبير شؤون الوافدين فمسؤوليتهم هم لا غير.

كيف فاته أن الإقامة في الجنة كانت على حساب ربّ المكان، أما هنا فهي على حسابها!
ها هو في مواجهة الأمر الأول الذي يزمجر به صمّث العالم الجديد: من يريد أن يأكل فلا
يعوّل إلا على جهده، لا مكان عندي إلا للأكل ومأكول وأنا أكل الجميع.
هل أخطأ التقدير؟ يصرخ آدم في حواء أنه لولاها لواصل حياته السعيدة في حديقة مولاه
حيث لا جوع ولا جري مُضنٍ وراء فطور الصباح.

تتجاهل المرأة رجلاً ستنقى تعاني منه على مرّ العصور.
ثم تبدأ في وضع أولى خططها: البراري الخضراء حديقة البيت، البحيرات الزرقاء
والخضراء كمسبح للصغار يوم يولدون، الجبال الشاهقة للترليج يوم يخترعون هذه
الرياضة. يجب التأكد أيضا من سلامة الغابات وخلوّها من الحُفر والشياطين حتى لا يُصاب
الأطفال بأذى. هام جدا تزيين أول كهف ولو بأبسط الرسوم بانتظار ذلك الطفل العبقري
الذي سيرسم صورتها في لوحة "موناليزا".

يولد الطفلان وتولد معهما الخصومات.
ينفذ صبر حواء يوما والقشة التي قصمت ظهر البعير آخر شجار بين المصيّتين
المتحركتين.

- كفى. قابيل كم من مرّة قلت لك: لا تأكل البعوض الذي في رأسك بحجّة أنك جائع. هذا
فعل يليق بابن أبيه ولا يليق بابن أمه. وأنت هابيل، اغسل رجلك من كل هذه القاذورات
ونم فقد ضقتُ ذرعا بقلّة طاعتك.

يصرخ هابيل بغضبٍ، هو الذي ورث عن أبيه حدّة الطبع وسرعة الانفعال:

- عندما أكبر سأفعل ما أريد. لن أنظّم غرفتي. لن أقرأ أي كتاب. لن أحفظ دروسي ولن أذهب إلى أي مدرسة.
هذه المرّة، لن تأخذه "ما" بين ذراعيها تعتذر، تواسي وتقبّل دموعه. لا مناص من الحزم حتى يستعدّ هو وأخوه وبقية الأطفال لأصعب المهامّ في أصعب العوالم.
يكبر الطفلان، تتوسّع العائلة. أن الأوان للمرور لفصل آخر من قصة القصص.
ذات يوم تصرخ حواء، يا الله، كفى كسلا، اغربوا كلكم عن وجهي تفرقوا في كل مستويات الزمان و المكان ولا ترجعوا إلا وقد أكملت المهمة التي خرجنا من الجنة لإتمامها.
يصرخ احدنا: لننّجّه إلى حيث تشرق الشمس، نحتفي بها ونهلّل وهناك نقطفها ثمرة طازجة.
يصرخ آخر: بل نذهب نحو الغرب لنعرف أين تذهب الشمس فنعود بها حتى لا تغيب، ننهي وجود الليل المخيف.

يصرخ ثالث: بل إلى الشمال فربما الذي جننا من أجله مطمور هناك تحت الجليد والتلج.
يصرخ أجبين أو أعقل أطفال حواء: أريد البقاء مع أمي.
يتم أول اتفاق بين الأوائل: اركضوا أنتم إلى أبعد مكان في هذا الاتجاه ونحن في الاتجاه المعاكس، وأنتم تفرقوا هناك داخل هذه الغابات الخائفة، أنتم وراء سهول الماء، أنتم خلف تلك الجبال الشاهقة.

“الأرض لكم (جبران خليل جبران)
تبتهج بملامسة أقدامكم العاربية
الأرض لكم.

وشعوركم مسترسلة تتوق إليها الريح
الأرض لكم
وأنتم الطريق”

ها نحن ولمئات الآلاف من السنين نركض في كل اتجاه، نستكشف فضاء لا يُحدّد حدود، نجري وراء الريح والسحب، بجمعنا الغيث ويفرقنا الجفاف، نأكل مما تجود به الأعشاب، نطلب العفو من الشجرة قبل أن نكسر لها ذراعا ومن الفيل قبل تمزيقه إربا إربا، نقاتل الكواسر حتى لا نوكل ونقاتل الأدميين حتى لا نُقتل وقد أصبحوا هم لا غير أخطر الوحوش.
أليس هؤلاء الأوائل بأرجلهم الحافية وأيديهم العاربية وبطونهم الخاوية وقلوبهم الصامدة وعقولهم المستنفرة هم الأبطال الذين نخجل أمام جسارتهم كل ما ندّعي من بطولات؟
أي شاعر عبقرى مبصر أو أعمى قادرٌ على نظم القوافي للإيذاة تتغنّى بكل هؤلاء المغامرين الأفاقين، المتشرددين المستكشفين، الحُجاج الذين تتابعوا على هذا العالم منذ غابر الزمان، لا يوقفهم جبل أو قفر أو محيط، لا تصدهم أنياب ومخالب كواسر السماء والأرض ولا حتى عفاريت الظلام؟!
توقّف على الصورة.

ألا تلاحظ شيئا بخصوص من خطوا أولى خطواتنا على الطريق؟ كيف؟ لم تنتبه لصغر السن! لا مكان في العالم اليافع للمسئّن الذين تجاوزوا الثلاثين.
ماذا تقول وأنت تحرك يدك أمام أنفك؟ أه الروائح التي تتبعث منهم.
حقا من منا يرضى بتزويج ابنته لواحد من هؤلاء؟ ومع هذا هم أجدادنا جميعا، وحتى أجداد ملكة انجلترا التي تمّوه علينا بخصوص أرومتها وأصولها الأرستقراطية والدم الأزرق الذي يسيل في شرايينها. هي توقفت في قراءة شجرة أجدادها حيث كان من مصلحتها التوقف لكن لو واصلت لاكتشفت المسكينة أنها ليست سليلة كبار اللصوص والقتلة فحسب، وإنما أيضا سليلة هؤلاء الشبان الهمج التنّين.
ملاحظة ثانية بالغة الأهمية بفخر هذا النص أنه أول من انتبه ونبّه إليها. لا أحد منهم يجزّ حقيبة تُصدر صريرا مزعجا. إنه الدليل القاطع على حكمة هؤلاء الشباب، ويا لعار الأحفاد الذين لن يتحركوا إلا محمّلين بأثقال من أصناف عدة، منها جسم يننّ بما زاد على اللزوم من الثوب والشحم.
ما الذي لم يتغيّر رغم كل الفوارق الهائلة؟ أه إن الأحفاد الشيوخ وأجدادهم الشبان خائفون ومخيفون.

تغيّر المظهر وبقي الجوهر لأن العالم لم يرخ لحظة قبضته عن التلابيب.
إنه عالم لم يُخلق للجبناء. إنه عالم صارم القوانين أولها أن الحياة فيه تتغذى بالموت والموت يتغذى بالحياة والفاصل بين الحالتين حالة أزلية اسمها الصراع من أجل البقاء.
يأتي يوم ين فيه أحدنا وقد فاق ضغط العالم كل احتمال: يا لهذه الغابات الجارحة كأنها إخطبوط أطبق علينا بألف ذراع!
يأتيه رجع أنين تائه آخر: لم نكف عن المشي منذ أجيال ولم نصل، لا إلى حيث تشرق ولا إلى حيث تغيب. إنه عالم اتساعه أخرج، نحن تائهون فيه إلى الأبد، هل من باب نجاه؟
أنين تائه ثالث: يا لهذه الصحاري الصفراء نمشي فيها بين سندان الرمضاء ومطرقة الشمس!
وآخر: يا لهذه الصحاري البيض ووجع خناجرها التي ثبتت في فكّ الجليد والتلج!
وآخر: يا للرعب الذي تبثه فينا كل هذه الكواسر نهارا وهي تتعقنا بأظافر وأنياب لا طاقة لنا على مواجهتها بأيدينا العارية! يا لهذه الذناب التي يمنعا عوبلها ليلا من النوم نرتجف بردا وخوفا داخل مغارات مظلمة نتقاسمها مع هذه الجرذان الطائرة المقرّزة!
تولول أنثى فاق رعبها كل حدود.
انتبهوا لهذه الطيور المشؤومة التي ترفرف فوقنا تنتظر من يسقط منا لتنهش لحمه حتى ولو ما زال يتنفّس!

يصل الأنين ذروته عند الغبي الذي لم يأخذ بنصيحتي بخصوص أحسن طريقة لاستكشاف البحار فاق عنده أيضا الغثيان والدوران كل قدرة التحمّل.
من أين لنا الطاقة لتحمل كل هذه المحن، كل هذه الامتحانات؟

تحمّل! ماذا نفعل طوال الرحلة، غير تحمّل الحرّ والقرّ، غير تحمّل الجفاف والطوفان، غير تحمّل الضجيج والصمت، غير تحمّل الأعداء والأصدقاء، غير تحمل صعوبة الحياة وصعوبة الموت؟ أليس هذا فعل الأفعال الذي يبحث عنه النص؟ لم يبق للمساكين إلا الاعتراف بعمق الأهم والتوجه للوحيد القادر على إغاثتهم. صلاة الأدمي: يا من رفضنا جزيل عطاءه لنهرب إلى هذا العالم المبهر المرعب. حنن علينا قلب الأرض والبحر. ضعنا في حماية الشمس والقمر. احفظنا من أنياب الكواسر، لا تجعل دمننا لها شرابا حلالا. وفرّ لجوعنا اللحم والشحم. فجرّ لعطشنا عيون الماء الزلال. يسرّ أماننا الصعب والوعر. ضمّد جراحنا. جدّد فينا كل فجرٍ شجاعة الأبطال. الصدى: يا أحلام أحلامي، يا آمال آلامي، يا آمال أمالي، يا أفكارٍ وخيالي، يا لحمي تقطّعه أنيابي، صبرا جميلا ستفهمون قسوتي عليكم وأنها لم تكن إلا قسوتي على نفسي. قد لا تكون انتبهت لأهمّ ما في هذه الخطبة العصماء للصدى: نبرة الصوت. هي حقا مُفعمة بالإشفاق لكن كم فيها من أمل، من تشجيع ومن ثقة. كأنّ وراء القول المسكوت عنه: ستستسون كل الأمم وستحمدونني عندما تجدون ما بعثتكم لأجله، يوم تحقّقون لي المهمة التي شرّفتمك بها مع بقية مخلوقاتي الأخرى.

لنفتعل التصديق، هل لنا خيار آخر؟

رغم تظمينات السلطات العليا تواصل المعنويات انهيارها أمام تفاقم الصعوبات خطوة بعد خطوة.

يصرخ الذي يريد العودة إلى بيت أبيه: تخشبت قدماي من المشي، غصت إلى الخاصرة في الثلج وفي الوحل، تمزقت أحشائي من الجوع، يبس حلقي ظمأ، انكسرت كتفي من الحمل، تشققت يداي من الحفر، جفت العرق من جسمي. كفى. ليواصل هذا الطريق اللعين طريقه دوني. لن أتقدم خطوة أخرى.

أهمس في أذن تقاحة: أفيقي، لقد توقف الأوائل عن المشي ودخلوا في أول اضطراب عام. تفتح البنت عينيها وفيها مبريق التصميم كأن شيئا داخلها أدرك أن المهمة المقدسة في خطر وأنها قد تفشل حتى قبل أن تبدأ فعليا. تستيقظ تفيحه بدورها جاءها الوعي بحرج اللحظة.

- "يا" ماذا يجب أن نفعل؟

- الأوائل في ورطة كبرى ولا بد من وقفة دعم حازمة. خذا بأيديهم كما تأخذان بيدي لدفعي للركض والصراخ والرقص.

يستيقظ الرواد في الغد وبهم جذل غريب.

- جاءني في المنام ملاك! جاءني في المنام ملاك!

- غريب. أنا أيضا!

- أنا المختار من بينكم، رأيت في المنام ملاكين لا واحدا.

- لا بل أنا المختار، تسلّق ظهري الملاك الأصغر. أمرني وهو جالس على كتفي، صارخا

صاحكا ومُعَنِّيا أنّ أجري به. أخذني الملاك الثاني من يدي قائلا وهو يضحك ويدعو

- "با"، لا نغش!

بجد؛ ليس لدي أدنى فكرة جديدة وطريفة بخصوص هذه المعضلة التاريخية التي كانت التحوّل الأول في الملحمة العظمى. ألا يقال إنه لولاها لما تجاوز الأدميون حدود القارة التي كانت مهد الجنس البشري إذ من أين لهم غزو بلدان الصقيع والتلج وهم لا يملكون فرو الدب للصبر على ما لا يتحمّل من البرد.

كم من تصوّرات بخصوص اكتشاف هذه النار المباركة!

ثمة التي تروي استعارتها من الصاعقة، من البركان، أو من بقايا حريق غابة.

ثمة قصة بروميوثيوس الذي أخذته الشفقة بالأدمي فتصدّى لنصرة المظلوم وهو يرى القوى المبهمة المتحكمة في المصائر تعطي للكائنات الأخرى الحوافر والأنياب والأجنحة والفرو السميك وكل متطلبات العيش وترفض له كل هذا، فقرّر من تلقاء نفسه مدّه بسرّ النار لترجيح الكفة وإعطاء المسكين بعض حظوظ البقاء وهو ما كلّفه العقاب الشهير.

ماذا لو توجّهت إلى المصدر الذي تناسّته القصص والنار آخر ما ينقصه: جهنّم نفسها.

لكن هذا يتطلب العودة إلى المناطق الخطيرة التي يخشاها الأدمي أكثر من أي شيء آخر. قد يُقبض عليه ويودع مباشرة في قسم المساجين ذوي الصبغة الخاصة والحال أنه لم يرتكب بعد كل الذنوب التي توهله للاستقرار النهائي في جهنم هذه. أمّا أن تقولوني إنه دخلها وغافل كل الحراس ثم سرق النار وفرّ بها سالماً، فهذا سيناريو لا يقبله حتّى عشاق أفلام هوليوود، فما بالك بقراء الرحلة وهم من عتاة المثقفين.

هنا يوكل الكاتب الأمر إلى القارئ ليكتشف هو كيف تحصل الأوائل على النار أو من أين سرقوها. لماذا أتكلّف كل الجهد وحدي والقصة، قصّة الجميع؟

المهمّ أن الأدمية مجتمعة الآن حول الألهب المقدّس وكل حواسّها مستنفرة لاستكشاف هذا الشيء الذي سيمكّنها من التغلب على الخوف من الحيوان المرعب، من قدوم الليل ناهيك عن نهاية مشقّة مضغ اللحم النيئة وهضمها العسير.

تقترب تفاحة من النار وبها رهبة وانبهار لثوّليّ مُدبرة تترمي في أحضان "با" فيدفعها بمنتهى الرفق لتقترب مجدداً من النار. ترفض تقيحه أن تكون أقلّ شجاعة من أختها. تغامر بالخروج من حضن "ما" لتقف بجانب تفاحة تقرب يديها بحذر شديد من اللهب. تصرخان بالفرح وقد أحسّنا أن النار تدفع عن الأصابع المتجمّدة ألماً مستديماً، ثم ترقصان حول النار إلى أن تسقطا بين أحضان الوالدين هزمهما التعب اللذيذ. ليلتها نام حفنةً من الأدميين لأول مرة ملء الجفون، أبعدوا لبيض ساعات الخوف والجوع، والمساكين لا يعلمون كم هو طويل طريقهم وكم من المحن تترصد لهم في كل منعطف منه.

تهزني تقيحه من كفتي: "با" استيقظ، نريد بقية القصة!!

القصة؟ لموصلة السرد يجب أن تكون هناك عقدة. المشكلة أنني انطلقت في روايتي لقصة القصص بلا أدنى فكرة عن هذه العقدة.

نعم ما الذي خرجت الأدمية تبحث عنه مضحية بكل عطايا الجنة: العلم؟ الحكمة؟ المتعة
الأزلية؟ كل هذا كان متوقفاً إلى درجة القرف في هذه الجنة التي هربت منها. ماذا إذن؟

**

وقال لهم الصدى لهذه المهمة اكرهات قاسية فاستعدوا لكل التبعات.

لنفكر مليًا ودون أحكام مسبقة.

لا بد أن يكون سبب الهروب وضع لا يُطاق أو طمع في شيء لا توقّره حتى الجنة. من المبالغة وصف الحياة في مكان مثل الجنة بأنه وضع لا يُطاق. لم يبق إذن إلا شره الأدمي لكل ما هو غير متوقّر فيها أو بالكمية المطلوبة. ما الشيء الوحيد الذي لا توفره الجنة؟ طبعاً الموت بما أنها المكان الذي ألغي فيه وبصفة نهائية ليستبدل بهذه الحالة التي تسمى الخلود.

أشعر بكل قارئ حتى وإن كان بالغ التعاطف مع هذا النص على وشك وضعه جانبا والانصراف لما أهمّ بدلا من إضاعة وقته الثمين في قراءة كلام بدأ يتحول هذيانا صرفا. كم أتفهم هذا الموقف وأنا نفسي على وشك وضع هذا النص جانبا والانصراف لما أهمّ بدلا من إضاعة وقتي في كتابة كلام بدأ يتحول هذيانا صرفا.

فعلا هل ثمة شيء يخافه ويكرهه الأدميون قدر الموت مع كل ما يصحبه من حالات الخوف والقلق والألم... وأدعي رغم ذلك أن.... الخ، الخ،

نعم بل سأزأيد على نفسي لأتيقن من شرعية مثل هذه الفرضية.

أين يكتسب الموت صبغته الأكثر شراسة وقسوة وحتى نذالة؟ طبعاً فيما يسمى ساحة الوغى أو الشرف أو سمها كما تشاء. الحرب وما أدراك ما الحرب.

كأنني بك تهزّ كتفيك وتقول هذا الرجل حقا يستأهل كل ما يفعله به الأصدقاء والأعداء. مهلا من أين لك أن تنكر أن الظاهرة صاحبت البشر ولا تزال مصاحبة الظلّ للماشي في عزّ الظهيرة.

انظر كم يعتنون بها يهَيّئون كل ظروفها ويطورون فنونها جيلا بعد جيل.

هم يعدّون لها أطفالهم باكرا، يحشون عقولهم بالتاريخ الكاذب منذ نعومة أظافرهم يزينون القتل والاستشهاد من أجل الزعيم الأوحى والوطن المفدى والدين الحنيف.

أضف حرصهم على تعهّد مدارس مختصة بتعلم القتل على أوسع نطاق بسمونها اكاديميات عسكرية يدرّبون فيها شبابهم على السير كالخرفان والفقر كالقردة والاختباء كالحرباء والزحف كالنعايبين والافتراس كالكواسر.

كم يحبّون أيضا إظهار استعداداتهم للمعركة أم المعارك.

يوما خصّصت المدينة المغيرة أجمل شوارعها وأعرضها وأطولها للحفل فاصطفت على جانبي الطريق الجماهير المتشوقة لرائحة الدم.

على مرّ ساعتين تتابع آلاف من عارضي الأزياء القتالية يمشون وراء لعبهم في صفوف متلاحمة وهم أطفال بشوارب ولحي كبروا وكبرت معهم اللعاب.

حقاً ثمة في عروض الأزياء الرجالية هيبية لا توجد في عروض الإناث. يبقى أنني أصبت بنوع من خيبة الأمل لما لاحظته من شبه معيب بأزياء أغلب الجيوش الأدمية الأخرى التي رأيت استعراضاتها من قبل على الشاشة البيضاء.

إنها دوماً نفس الأزياء الركيكة التي لا تخرج عن نفس اللونين المملين: الأصفر البذيء والأخضر البليد. كأن دور الخياطة العسكرية في العالم أجمع أصبحت تعيد نسخ بعضها البعض ولم تعد لها قدرة على الطرافة والإبداع. واضح أن هذا القرن الذي يدّعي التقدم على القرون الماضية، متخلف بالنسبة إليها في ميدان الموضة العسكرية. ما قيمة قماش رخيص بالمقارنة مع ريش النسور تيجاننا وجلود النمر والتماسيح أزياء أوائنا؟
لحسن الحظّ أنفذ مخرج المشهد سمعته لدى كل ذواقة الاستعراضات العسكرية حيث وضع طلاب الاستشهاد على خيول أنيقة وألبسهم سترات حمراء وبنطلونات سود وعمائم خضراء وزودهم برماح زرقاء.

كان كبار القوم-الذين حشرت بينهم خطأ-يتابعون المشهد من أعلى منصة وهم في حالة متقدمة من الانتفاخ والاعتزاز بالطوابير الطويلة للمدرعات المكلفة بالحفاظ على ممتلكاتهم، قل على سركاتهم. البعض منهم كان يعيش نشوة شبيهة بنشوة الجنس وكان الذكور بصدد مضاجعة الدبابات والإناث في أوج تمتعهن بمصّ الصواريخ.

إنه نفس المشهد في أماكن أخرى وتواريخ أخرى، وكل الشعوب تحبّ استعراض قوتها لإثارة الإعجاب أو الخوف أو الغيرة عند الصديق والعدوّ على حدّ السواء.

أختتم يومها الحفل بمشهد مؤثّر وأمّ الشعب بردائها المسمى “ساري” وشعرها الفاحم تشقّه خصلة من الشعر الأبيض، منتصبّة على متن عربة مصفّحة مفتوحة تبارك أبناء نذرتهم قربانا لآلهة الحرب، يبادلونها تحيتها الصامتة بالتلويح بأيديهم كأن على رؤوسهم الطير... ولا أحد كان واعياً آنذاك أن المرأة – التي كانت تحمل ويا لسخرية الأقدار اسم أكبر مناهض للعنف في هذا العصر-ستسقط مضرّجة بدمها قربانا للبيع الذي تعبدت له ذلك اليوم.

يا لحيبة أمل الذين راهنوا على أن احتلال النساء أعلى مراكز القرار السياسي سيخفّف من عنف السياسة وسيقلّل من حروب لا يعشقها إلا الذكور الواقعين تحت سطوة هرمونات التستسترون وقوع السكارى تحت سطوة الخمر.

ورغم ان انتاج النساء من هرمون التستسترون جدّ متواضع، فإننا لم نرى تحسّناً في عنف الصراع السياسي وفي تواتر الحروب كلما وصلن لأعلى مراكز القرار. هذا ما يدعم رأي لا يلزم سواي ألا وهو أن نسبة الرقّة والغلظة-كما هو الحال بالنسبة للشجاعة والجبن، العقلانية واللاعقلانية، النبيل والندالة، الأنانية والاثرة-موزعة بصفة عادلة بين الرجال والنساء. الفوارق الوحيدة التي لا جدال فيها أنه ليس للنساء شوارب ولحي وأن بطون الرجال عندما تنتفخ فليس نتيجة الحمل وإنما بسبب الاكثار من أكل الحلويات في بلدان الجنوب ومن شرب الجعة في بلدان الشمال.

ثمة من قرّائي من سيعودون لاتهامي بمواصلة التجني على الجنس البشري ذكورا وإناثا لأن هذه العروض العسكرية ليست لتمجيد الحرب والاستعداد لها وإنما لإظهار القوة للخصم وردعه عن ارتكاب حماقة اشعالها.

حقا؟ لو كان هذا هو الهدف الحقيقي ولو كان للأمر أدنى جدوى لكانت الحرب القاعدة لا الاستثناء ولشاهدنا تراجعها من عصر لعصر واختفائها كليا في عصرنا هذا... وهذا لم ولن يحدث.

وحيث أن لظاهرة الحرب أكثر من بعد فإننا سنختزل تعقيدها في بعض اللوحات الحية والأمل ما زال قائما باقناع القارئ بجديّة فرضيتنا.

إذن الطبق الرئيسي بعد مفتحات الاستعراضات والخطب الحماسية.

اصطفوا أنتم أصحاب الهراوات الصخرية في الصف الأول، أهل القوس وراءهم، وراءهم أهل السيف والدرع، وراءهم أهل البنادق والمدافع، وراءهم أهل راجمات الصواريخ العابرة للمجرات ورائهم أهل الأسلحة التي لا يخلقها عقل سوى وإنما عقل آدمي. إلى الخلف أيها المتسلل من العصور الحجرية لسرقة قوس حفيدك. كفت أنت صاحب الراجمات عن التهكم على الممسك بالرشاش فالمعركة لم تبدأ بعد.

والآن لتواجه جيوش الماضي والمستقبل بأحجارها، برماحها وببنادقها لتفجير الكواكب والشموس والمجرات.

أصرخ كما يفعل مخرجو هوليوود في ممثليهم: "أكشين".

ينقضّ الأدميون على بعضهم بعضا بسكاكين المطبخ، بقباب الحمام، بالحجارة المدبية، باليدين العاريّتين وبالأظافر والأسنان، بالهراوات، بالرماح، بالبنادق، براجمات الصواريخ، بحاملات الطائرات، بالكتاب الأحمر والأخضر والأزرق. تتصاعد الهتافات تحيا أمتنا العظيمة، تحيا وطننا المفدى، تحيا ديننا الحنيف بل وتسمع أحدهم يصرخ يحيا الموت.

يتعالى من مكان قصي من ساحة المعركة صوت شيخ بدين مولع بالويسكي والسيجار الفاخر يخاطب أبناء شعبه: سنحاربهم في الجو، في البحر، على الشواطئ، على الأرض، في البيوت، في غرف النوم، في المراحيض، بالبنادق، بأعقاب البنادق، بزجاجات الويسكي الفارغة، سأبارزهم بعقب السيجار ثم أموت صارخا: يحيا الملك.

يدخل مهووس آخر إلى ساحة المذبحة مغنيا بأعلى صوت: "النسق أخاديد الأرض بدمائهم النجسة". هذا الغبي لا يعرف أن الدماء سواء كانت طاهرة أو نجسة، لا تصلح لسقي عنب الشمبانيا ولا حتى البطاطس واللفت.

يصرخ أندري بوڤولويسكي في جنوده أرسقوهم بسهامكم ليفنوا على آخرهم. تصيب السهام صورة العذراء التي وضعها المحاصرون على أعلى جدران قلعة نوفوفورود تبركا وبحثا عن حمايتها، فتنهمر بالدموع عيناها. يقال إن بكاءها أقام الدنيا وأقعدتها، أن الضباب لفت المعتمدين فقتلوا بينهم. كل هذا بالطبع دعاية محاربين، فالعذراء لم تذرف الدموع

لتمكين هذا من النصر وذاك من تذوق الهزيمة وإنما حسب مصادرنا الموثوق بها من فرط الألم وخيبة الأمل وهي تكتشف أن فلذة كبدها مات موته الفظيعة على الصليب من أجل هؤلاء الشياطين عبثا والشرّ دوما هو المنتصر.

القاعدة أن الأدميون وهم في هذه الحالة ، يأتون من الأفعال ما لا تتصور جيرانك وأصدقائك وحتى أبغض خصومك قادرون عليها. على القائمة قطع الرؤوس، بقر البطون ، فتح الصدور ، تقطيع الأطراف، الدهس بالدبابات والرمي بك حيا من الطائرة.

في سجلّ الفظاعات أيضا ثمة قطع الأعضاء التناسلية بعد قطع الرؤوس: اختراع نارمر أول فرعون. ثمة أيضا حقن سجناء الحرب بالجراثيم ثم ذبحهم والقفر فوق أجسادهم لاستخراج آخر قطرة دم لصنع قنابل بيولوجية: اختراع باحث علمي من القرن العشرين اسمه "ايشا".

أخيرا لا آخرا إخراج الرفات لحرق الأعداء حتى وهم أموات. تقول مستحيل! عد إلى مأساة فرقة دينية تدعى "الكاتار" وماذا فعل برفاتهم أعدائهم من عناة المؤمنين. على فكرة، كم يدهشني أنني بلغت هذا العمر وما زلت حيا أرزق! كيف لا أشعر كم أنا محظوظ وقد هاجم الأبطال برماهم مضارب قومي لكن في زمن غير زماني، وقد سقطت بقربي أطنان من القنابل لم تنفجر إلا في جهاز يسمنه "التلفاز" بينما مرّقت ولا تزال تمرّق كل يوم أجساد مساكين وُجدوا في الزمان الذي لا يجب وفي المكان الذي ما كان عليهم أن يكونوا فيه! كم من فظاعات أفلتت منها أنا الذي لا أكفّ عن الشكوى من سوء طالعي.

فعل الأفعال! طبعا قاتل، قتل الآخرين وقتل نفسه.. بكل الوسائل التي تتبارى وتزايد على بعضها البعض في الفظاعة والوحشية.. فعلنا الأوّل نحن وبقية الوحوش الحية الأخرى حتى وإن كنا أفضعها في فنون القتل.

اللوحة الثانية

والآن جولة بين الجثث التي راكمتها المعارك على مر التاريخ، ويقال انه لو وضعت الواحدة وراء الأخرى لرسمت خطأ يصل الأرض بالقمر.

تمعنّ معي في كل هذه الأجساد المشوهة العارية الطافية فوق أمواج من الدماء وتذكّر كم من حلاقين وخياطين ونساجين وصناع مجوهرات وعطارين وعباقرة جراحة تجميلية وموضة عملوا على تحسين الواجهة الخارجية للأدميين... وانظر النتيجة!

أيضا كم من آباء وأمهات ومرشدين ومرشدين ووعاظ وإصلاحيين وثوار وأنبياء وكل من عملوا على تحسين ما بداخل الأدميين ... وانظر النتيجة!

يتسلَّق إبليس -الذي أصر الصدى على أن يصاحب الفارين- قمة جبل الأجساد المترامية ليغرس علمه صارخاً وهو في قمة التهكّم والشماتة: وأرادني أن أسجد لهؤلاء الوحوش الذين خربوا حديقته.

نعم لكن هناك أيضا جولة أشوكا بين تلال الجثث بعد انتهاء المعركة. إنه الامبراطور الذي قتل تسعة وتسعين أبا للوصول إلى السلطة ودمّر ما لا يحصى من الممالك. مما تقوله القصة أنه صدم بما رأى، أنه استقطع ما أتاه من قتل، أن صرخة أم مزقت قلبه وهي تتوسل إليه، "يا ملك الملوك، أنت قادر على أخذ آلاف الأرواح، فهل تقدر على إرجاع روح هذا الصبي". .. وأنه قرّر أن يعنق ديانة تنبذ العنف حتى الذي تتعرض له الحيوانات وأنه قضى بقية عمره رسولا للسلام وعدوا للحرب.

تقول إلي أين تريد الوصول وأنت تناقض نفسك بنفسك. وجود الحرب بكل أهوالها في عالم بريء يفز إليه طوعا آدمي بريء كلام لا يصدقه عاقل. لكن أن توجد في عالم -منفى يقضي فيه الأدمي مدة عقوبته بعد طرده من الجنة وقد اكتشف الرب أخيرا كم هو شرير وخطير فهذا أمر يقبله المنطق.

نعم، كل هذا صحيح ومع هذا... ربما الأدمي ليس مذنبا بالقدر الذي يخيّل لك. في إحدى أشهر أساطير الأدميين يصفر الرب كريشنا على المحاربين لبيتقاتلوا تحت بصره فيبقى كل سيف في الغمد.

يحتج البطل أرجونا على رب لم يجد إلا ساحة معركة للتجلى: "لكنهم أسأتني وأبائي وأجدادي وأبنائي وأحفادي وأعمامي وأصهاري وأقربائي كلهم. كيف أقتلهم؟ إنني أرتعش وقلبي يفيض شفقة. لن أقتلهم أبدا ولو من أجل العوالم الثلاثة. لماذا أقتلهم؟ من أجل هذه الأرض النعيسة؟ يا إلهي أي غنم من قتل بني دهرينا اشترا؟ سنأثم لقتل هؤلاء البشر اليبانسين".

يقطب كريشنا جبينه باغته الموقف. هل بدأ الكفر حتى قبل بداية الدين؟ يرفض الرب حجج أرجونا لأن للآلهة في مستوياتها رؤية أخرى لما هو معقول ومطلوب. يتوجه إلى عبده ملاطفا:

- "يصدر منك هذا أنت مرعب الأعداء؟ انفض عنك هذا التخنث المخجل".
ثم يمرّ للتهديد.

- "إن لم تقاتل فستكون خاننا يقال عنه إنه جبان. إن ضياع الشرف للنبيّل أقطع من الموت". كيف نستغرب ألا يدخل الهندوس بيوتهم قصتهم المقدسة مكتفين بالقسم عليها في المحاكم وهي أكبر مشرّع للقتل ومحرّض عليه.

يتمسك أرجونا برأيه؛ عبّره الرب بالخوف أم لم يعيّر.
- "ارشق سهمي في بهيشما ودرونا ولهما عليّ كم من فضل ومنة؟ أفضل أن يقتلني بنو دهير اشترا وأنا أعزل بلا مقاومة على ارتكاب هذه الموبقة".

الرب مجرّبا الوعود البراقة.

- "إن متّ ستدخل الجنة وإن عشت ستملك الأرض "

يتمسك أرجونا برفضه يواصل محاججة الربّ.

- " أن تكون خسارة لا تعوّض. ألن ندمر سلالتنا، وبتدمير سلالتنا ندمر تراثنا؟"
كأنّي بكريشنا بهزّ كتفيه.

- "الأجسام للحكيم مظاهر زائلة، والنفوس لا تقتل، سيان لدى الحكيم الخير والشر." وفي فضاء خيالي حيث لا حدود بين مستويات العالم ولا زمن له اتجاه واحد، أصرخ في أرجونا: أفق إلى تناقضاته. إن كان سيّان لديه القتل وعدم القتل، فلماذا يصرّ على دفعك لقتل الأحبة والأصحاب؟ إن كان على الحكيم أن يفعل الشيء من أجل الفعل دون انتظار الثواب فلماذا يطعمك بالجنة في العالم الآخر وبالمملكة في هذا العالم؟ أصغ إلى قلبك وإلى عقلك. لا تتحرك.

يواصل الربّ التحريض مستعملا أساليب أقل ما توصف به أنها في منتهى الخساسة:

- "تغتم لمن لا يستأهلون الغمّ"

ثم يلتجئ إلى الجمل الرنانة.

- "إنّه الواجب. لا يرحّب الجندي بشيء قدر ترحيبه بالقيام بواجبه في حرب عادلة".

يتكثّف صمت أرجونا ثم... يستسلم.

يدخل المعركة متجهما (لاوتسو)

حزينا، القلب يطفح شفقة

كما لو كان ذاهبا لتقديم العزاء.

مما يتضح من هذه اللوحة أن للربّ أسباب قاهرة تبرر وتفسر بل وتشرع للحرب، وأن الأدمي مضطرّ للانخراط في المشروع المجهول للربّ أحبّ ذلك أم كره.

طيب ، لكن ما هذا المشروع وكيف تخدمه هذه الحرب؟

لمواصلة التمعن في إشكالية بمثل هذه الخطورة يجب مرحليا وضع المشاعر جانبا والتفكير كما يفعل حاسوب لا زال بعيدا عن اكتساب مشاعر البشر.

عودة للمعركة. تأمل كل هذه الحيوية والأدميون ينقضون على بعضهم البعض.

استمع للصرخ المتعالي من المتقاتلين وقد اختلط صهيل الخيل بقعقة السيوف، بدوي المدافع، بزمجرة الطائرات، بانفجار الصواريخ بهتافات الأبطال.

بربك أليس انتهاء الرحلة وسط مثل هذا الديكور الفخم أكثر إثارة من انتهائها على فراش مستشفى وسط غرفة صغيرة تضيئها مصابيح باهتة يبلللك العرق وتخنقك روائح الأدوية؟

بيني وبينك، هل ثمة أقدر من الحرب على اعتصار أعماق الأحاسيس والمشاعر وأقصى درجات الانتباه لعالم أروع ما فيه خطره؟

بيني وبينك دوما، هل ثمة حالة يدرك فيها الأدمي كم هي ثمينة حياته أعمق من التي يجربها وهو بين المخالب والأنياب؟

من الفيلسوف القائل: أنا أفكر فأنا موجود، كان عليه أن يقول: أنا أقاتل فأنا موجود.

تقول هذا ما تغنى به العسكريون الارستقراطيون على مرّ العصور يمجّدون الموت في الظروف المسرحية التي يسمونها البطولة.

معك ألف حق، أنا أيضا أكره الأبطال - أقصد هذا النوع المزركش بالأوسمة- ومقتنع أنه لا بطولة في إعطاء الموت وتلقيه وإنما كل البطولة في تعهد الحياة، أن البطلات هنّ النساء في حملهن، في مخاضهن، في سهرهنّ على الطفل المريض، أن الأبطال هم الرجال في خروجهم إلى الصيد الخطر، إلى الحقل الغارق في الوحل، إلى المنجم الخائق وإلى المحيط المرعب.

إنّ كيف سنجد للحرب تبريرها بل وهل من الممكن تبرير وجود الحرب فما بالك جعل البحث عنها سبب هروب آدم وحواء من جنة الخلد ؟

هل يمكن تصوّر الحضارات البشرية دون الحروب وهي التي بنتها ودمرتها؟
ألم تفتح الحرب بالقوة الطرق التي وحدت بين قبائل وشعوب فرقت بينها المسافات الشاسعة برا وبحرا ليتسارع تبادل الأفكار والبضائع والجينات.

ألم تكن أداة خلق دول ما كان لها أن توجد لولاها؟
أليس صحيحا أن المدن التي تدمرها الحرب أجمل بعد إعادة اعمارها مما كانت عليه قبل خرابها؟

مما لا شكّ فيه أن الأسلحة التي تطورها البشرية باستمرار هي أدوات دمار هائل. لكن ليس صحيحا أن تطور الكم والكيف فيها مهّد وصاحب وتسبب في تطور انفجاري في العلوم، في التكنولوجيا، في القوانين، وفي كل مظاهر ما يسمى التقدم البشري؟ آخر مثال الانترنت الذي ينسى ملايين البشر المسالمين من مستعمليه أنه اختراع العسكر في بحثهم الدائم عن سلاح يتفوقون عن عدو لا يفعل هو الآخر سوى البحث عن سلاح أقوى بديهي أن الدمار الذي تخلفه الحرب هو الحافز الأساسي للتجديد والتحسين والتطوير في كل المجالات أي للإعمار الذي قلما نربطه بالحرب والحال أنها هي التي مهدت لأكثر أصنافه حجما وعمقا ودواما.

إنّ كان كريشنا يعلم ما يجلهه أو يرفضه أرجونا: الحرب شرّ لا بدّ منه لتعهد عالم ممنوع عليه الثبات على حال .

هل تكون المهمة تعهد عالم والدمار كالأعمار مجرد آلية في خدمة مشروع لم تتضح بعد كل أبعاده ومراميه ؟

وقال لهم الصدى أنتم أحلامي الحرة المسؤولة فابهروني بما تبدعون

على أقصى طيف الأماكن التي تتجلى فيها قدرات الأدميين على الدمار ساحة المعركة وما يتعالى منها من صراخ وأهات وحشرجة... على أقصى الطرف الآخر هذه القاعة الغارقة في صمت مهيب التي ستشهد الاحتفاء بأروع ما يقدر عليه الأدميون في مجال الخلق والابداع.

يا للفارق الهائل بين بشر ساحة المعركة وبشر هذه القاعة رغم أن لهم نفس الأجساد ونفس العقول والقلوب !

هم الآن وهنا جالسون جنباً لجنب لا أصوات مرتفعة ولا حتى ثرثرة هامسة يحاذرون من السعال والعطس. أهم شيء أن أيديهم خالية من كل سلاح تركوا معها خارج جدران القاعة حروبهم وخصوماتهم التي لا تنتهي. كلهم انتباه، انتظار، تشوق إلى ما سيحرك داخلهم من الأحاسيس والمشاعر ما لا يجزّبونه إلا نادراً.

أمامهم بشر آخرون منهمكون في تجربة الآتهم للتأكد من جودة الأصوات التي سيستخرجونها منها عندما يبدأ العزف.

يتوقف البصر مطولاً عند امرأة جميلة تنفخ في شيء اسمه الناي. ما أنا متأكد منه إنها لن تغرس أظفارها في عنق زميلتها لأنها منافسة شرسة، أنه لا عازف كمنجة واحد سيضرب عازفاً آخر مدّعياً أنه يشوّش على عزفه ويسرق منه الأضواء وأن عازف التشيلو لن يخرج غاضباً بعد رمي آله على الأرض لأنه لم يأخذ حقه من اهتمام قائد الأوركسترا.

كم هم مسالمون، وقورون، منضبطون، متحدون، متفقون، متعاونون هؤلاء البشر الذين سينغمسون في النفخ والنقر وذبح أوتار الكمان!

تأمل الآن الأدمي الواقف مديراً ظهره للمستمعين وجهاً لوجه من سيتلقون أوامره الصامتة. لن ينهض أحد من الجوق ليفتأق عصاه بحجة أنه أصلح للقيادة. لا أحد سيصرخ من وسط الجمهور أنه غير متفق على كيفية ترجمته للنوتات الموضوعه أمامه.

هو مُطاع لأنه لا يستبدّ بقرار عندما يأمر هذا بالنطق وذاك بالصمت وآخر برفع الصوت ورابعاً بخفضه. هو يعطي لكل واحد الفرصة كاملة ليبلور أحسن ما عنده همّه الوحيد، إبراز المواهب والتنسيق بينها.

إنه السيد الخادم الكفاء الذي لم تجده السياسة والإدارة أو التعليم. لماذا لا يكون هذا الأدمي الذي تُنفذ أوامره ونواهيته وهو لا ينطق حرفاً ولا يهدّد أحداً نموذج كل من يحكم؟

نحن إذن أمام مجموعة توزعت بينها السلطة بكيفية عادلة جمّدت صراع النرجسيات ووحّدت الجهود لتأدية مهمة نجاحها نجاح كل واحد ونجاح الكل.

أين ترى شيئاً كهذا في علاقات الأدميين ببعضهم بعضاً خارج تنظيم الأوركسترا السيمفوني؟

الموعد الليلة مع رائعة من روائع عملاق من عمالقة الموسيقى العالمية.
يتصاعد صخب يدشن به العازفون كل حفل، ربما لينذكروا بما تصدره الآلات من أصوات
مُنكّرة عندما لا يُفرض عليها الأدميون ارادتهم.
يستحضر الكهل الجالس في مكان قصي من القاعة أول لقاء له مع إحدى أشهر أعمال
الرجل.

تهمس الأم في أذن طفل أصبح مراهقا.
- يا بُنيّ إنك تصمّ أذانَ الجميع والجيرانُ يتذمّرون. ألم تملّ من هذه الأسطوانة تسمّعها ليلا
نهارا؟

- ليذهبوا إلى الجحيم، اتركيني، لا يدخل أحد غرفتي.
ها هي تردد لنفسها "اسم الله على ولدي" وبها قلق لا تخفيه وهي تفاجئ ابنها نصف عار،
منتصبا على السرير، في حالة متقدّمة من الهيجان يقود بمسطرة الحساب الأوركسترا
الضخم في فضاء لا تراه هي ولا من يختبئون وراءها من إخوة مذعورين.
- يا بني لا يمكن أن يتواصل الأمر هكذا. حقًا بدأتُ أخشى أنك مصاب ب....
لوثة من الجنون؟ كلاً وإنما بموجات متتابعة من الفرح الغامر والروح في وصال مع أنغام
ترفع من ينصت إليها إلى حالة تشبه نشوة الجماع.
ذات يوم تعبر المراهق فكرةً مثيرة. السمفونية الخامسة؟ ثمة إذن أولى وثانية وثالثة ورابعة،
ومن يعرف؟ ربما سادسة وسابعة... بهذه الروعة؟ مستحيل. المعجزة لا تتكرر... لكن ماذا
لو!

ها هو يقصد المتجر الوحيد في المدينة لبيع أسطوانات الموسيقى الأجنبية يسأل البائعة
الاسبانية العجوز.

- سيدتي، هل لك سمفونيات لبتهوفن غير السمفونية الخامسة؟
- أسفة، لكن عندي الكثير من سمفونيات موزارت وهايدن وتشايكوفسكي.
- من؟ لا أريد إلا لبتهوفن.
- انتظر، أنت محظوظ. أظنّ أنه بقيت لي اسطوانة أخيرة للسمفونية التاسعة.
تمدّ إليّ العجوز كنزا من أغنى كنوز البشرية لا يكلف الحصول عليه أكثر من ثمن علبة
تبغ. تتسع ابتسامتها لا أدري لليوم تعاطفا أم تهكما ثم تقول لي ضاحكة:
- التاسعة هي السمفونية الوحيدة بالغناء، لكن المغنيّ ليس لبتهوفن.
تتكرر المعجزة. يجثو المراهق على ركبتيه وقد ابتغت روحه الصلاة، لكن إلى من يتوجّه
بالابتهال والحمد والشكر؟ ربما جزءٌ من الشكر لامرأة رحلت منذ زمن بعيد ورفضت أن
تُصدّق أن صبيبا بذلك العمر ومن أمة أخرى يمكن أن يهيم حبا بكل سمفونيات لبتهوفن، أن
يجعل من التاسعة ملجأ المختار للفرار ممّا يزخر به العالم من شرّ ومن قبح.
فجأة بصمت النشاز المفتعل لتتصاعد أولى نوتات السمفونية العظمى.
يدويّ قرع الطبول فيحضر البرق والرعد داخل الذات لا في السماء.

تتحرك أعمق المشاعر بنسق الموسيقى، تغور معها في دهاليز الكآبة وترتفع معها إلى أعلى درجات الفرح. انطلق يا ذاتي إلى الأعلى، حلقي، رفرفي، زغردي، غني، ارقصي، ارتفعي، ترّفعي، توّهجي، أضيئي لي ما بقي من الطريق. لم يبق على السمفونية إلا إعلان نهاية الحداد وأن الفرح عاد سيّد العالم، تصالحنا أخيرا مع ذاتنا ومع كل ذات بل وحتى مع العالم والصدى مرتاح لنجاح تجربته، راض عن أداننا وفخور.

تتعالى الحناجر بالنشيد الرسمي للبشرية انتهى الصراع بين الكلمة والنغمة تظافت الطاقتان لترتفع السمفونية إلى قمم لم يرق إليها من قبل فكر أو خيال والشعر من الأزل وموسيقى بالكلمات والموسيقى من الأزل شعر بالنغمات.

يا للمهندس الفنان الألمعي الذي جمع هذه السهرة أصواتا لا متعة فيها متفرقة متروكة للصدف أو للأيادي الجاهلة ليستخرج منها أقصى ما يزرخ به العالم من جمال!

هذه السمفونية التاسعة هي معلّم بناه الأدمي بتهوفن من ممكن الصنع الذي تسمح به الأصوات، مثلما بلور لاوتسو وابن عربي وإيسا من ممكن الصنع الذي تزخر به الكلمات أروع القصائد... مثلما بلور أكبر المهندسين المعماريين من المادة الصماء كاتدرائية ستراسبورغ وهرم خوفو ومقبرة التاج محلّ.

هل ثمة شيء يبزر وجود الأدمية ويغفر لها موبقاتها غير قدرتها على اختراع الفنّ لإعادة بناء العالم أو لخلق عالم موازي أجمل من العالم الأصل؟

مع بيكاسو، يدير الأدمي ظهره للمشهد المألوف للعالم، شبع من جمال الطبيعة وجمال الأجساد، وكل ما يعنيه الآن ما يستطيع أن يخلق له من أشكال لم توجد من قبل.

أيا كانت الوسائط الحسية، كأنّ لسان حال الأدمي يقول للفنان الأعظم: انظر ما الذي أنا أيضا قادر عليه أنا أيضا.

لكن يا للثمن الباهظ!

من يستطيع استحضار ما عاناه بتهوفن من آلام قبل وأثناء تجميعه الأنغام التي سحرت الملايين؟ أي أزمات نفسية رهيبة دفعته لتدمير كبده باستهلاك مفرط للكحول؟ كيف واجه فقدانه السمع وهو الموسيقى الذي لا يحتاج لشيء أكثر من حاجته لسماع ما يؤلف من أنغام؟ وقبل بتهوفن من يستطيع تخيّل عذابات شيرت وموزارت كم من عمالقة الفن والفكر الذين صنعوا معالم العالم اللامادي الذي نعيش فيه... أضف عذابات ملايين النكرات الذين بنوا بأيديهم العاربية سور الصين الأعظم ومعابد تيكال وأنكجور وكل ما يحفل به الفضاء الحسي من روائع الاعمار.

ثمة إذن ثمن رهيب للإعمار يضاف لثمن الدمار أيا كان فضاء إعادة التصنيع

ومع هذا... ألا يستأهل إعادة خلق العالم كل التضحيات وأكثر إن تطلب الأمر.**

وقال لهم الصدى كم من محن ومن امتحانات تستوجبها أصعب المهام فلا تهنوا ولا تحزنوا.

تأتيني من مذياع السيارة المرهقة بعدد السنين آخر الأخبار عن الحروب العديدة الجارية رحاها في العالم، عن الحرب الكبرى الهائلة العواقب التي بدأت الاستعدادات الحثيثة لها، عن آخر الأوبئة، عن آخر الجرائم في هذا المجتمع أو ذلك. لمزيد تعكير المزاج يتجدد الصراخ على المقعد الخلفي للسيارة. سيكون الرجوع من المدرسة بالقطنين الشرستين تحديا عسيرا لأعصابي لا ينقصها التوتر. لأقتعل اللامبالاة فالصراع غالبا عملية مسرحية لا تتواصل إلا باهتمام المشاهد. كم من حروب كانت تتوقف سريعا بغياب المتفرجين أو بتصاعد ثنائهم. يتعالى الصراخ نذيرا بأن المعركة مرت من التراشق بالكلمات إلى العَضّ وجذب الشعر. يجب إيقاف السيارة والتدخل بشيء من الضرب الخفيف في مستوى أماكن مكتنزة من أسفل الظهر محمية بالمعطف الغليظ.

- والآن هل من الممكن أن أعرف سبب المشاجرة؟

تشهق تفيحه بالدمع:

- قلت لها كم من مرة أن تنظر من نافذتها. لكنّها تصرّ على أن تنظر من نافذتي أنا. أريد نافذتي لي وحدي.

تصرخ تفاحة تشهق بالدمع:

- بل هي التي تنظر من نافذتي وأكثر من هذا، إنّها تدير ظهرها لنافذتها، لا تريد إلا النظر من نافذتي.

بريك، أليست أغلب المشاكل التي يتحدث عنها مذياع السيارة وتلفزيون البيت كل ليلة نتيجة أن الرئيس زيدا غضب من الملك عمرو فجهّز الجيوش وبعث بحاملة الطائرات وبالغواصات النووية المحملة بالصواريخ العابرة للقارات لتدمير مئذنه عقابا له لأنه نظر من نافذته بدل الاهتمام بتنظيف الزجاج القدر لنوافذه هو؟

أصرخ بأمر اعرف وقعه الحقيقي أي لا شيء.

- انظرا فقط أمامكما. ممنوع النظر من النوافذ الجانبية.

لا وهم لي حول ما يجري خلف ظهري وتواصل نظرات الاستفزاز والتحدّي والعدوان المبيّت على نافذة الأخت الأخرى. وعند فتح باب السيّارة أجد تفاحة واضعة ذراعها على حافة نافذتها لمنع كل عدوان عليها وتفيحه ورائها تخرج لها لسانها.

تعود البنتان للخصام يخالط ضحكي بصر اخهما وصراخ أمهما من الصالون تصرخ بالكفّ عن الصراخ.

أخيرا الليل. آخر واجب اليوم.

تصرخ البنتان وهم تقفزان على السرير: القصة، القصة، القصة، البقية، البقية!
- قصة؟ بعد كل ما أظهرتها طيلة اليوم من سلاطة لسان! انتهى كل شيء بيننا وإلى الأبد.
على كل حال الدور ليس عليّ، أعتقد أنه على تفيحه مواصلة قصة الليلة الفارطة شريطة
أن تكفّ عن الرقص على السرير.

تصرخ تفاحة وهي تضاعف من حيوية القفز.

- تفيحه لا تعرف شيئاً، "با"، أنت من يقود... ونريد قصة جديدة.

أي قصة أختار لهذه السهرة تتماشى مع مزاجي أضع بها حداً لآلام البشر وقد أصابني منها
قرف ما بعده قرف؟

قصة الطوفان مثلاً!

تصرخ تفاحة من أولى الجمل:

-إنها قصة نوح...

تصرخ تفيحه وأنا أيضاً أعرف أنها قصة نوح ...

ما لا تعرفه البنتان ولا أي من الأدميين الساميين والهندوس الذين اخترعوا هذه الأسطورة
حقيقة ما جرى. وحده من خبر كواليس السلطة وكيف تؤخذ القرارات المصيرية قادر على
رواية القصة الحقيقية .

بعد قراءة متمعنة لمحاضر جلسات المشاركين في المؤامرة الكبرى وبعد مكافحة تقارير
كل عيوني المبتوثة في أهم أركان الفضاء الخيالي الذي تتحرك فيه البشرية، يمكنني أن
أكشف لقراء الرحلة تفاصيل ما حدث وراء الستار.

"ولما عزمّت الآلهة على تدمير العالم بالطوفان" ²

قف، عن أي آلهة يتحدث صاحب التقرير ثم لماذا عزمّت هذه الآلهة على تدمير الأدمية
ولماذا بالطوفان؟

بخصوص النقطة الأخيرة ، السبب واضح وضوح الشمس. بديهى أن الحروب الجبارة
التي يستعملها الأدمي باستمرار لإعادة صياغة العالم على هواه مكلفة لحدّ كبير للعالم الذي
يحتوي على ما لا يحصى ولا يعدّ من الأجناس الحية الأخرى. مما يعني أن المشروع
الخفي الذي خرج آدم من أجله أصبح يشكل خطراً داهماً على جزء كبير من سكان العالم
الأخرين . ومن ثمة لا غرابة في ما يلي.

التفاصيل حسب مصادر الموثوق بها.

يومها افتتح الجلسة المهيبة أمون -رع بنفسه:

-أيها الزملاء والزميلات المسجلين في دفتر آلهة البشرية المعترف بهم قانونياً، اجتماعنا
الليلة بالغ الأهمية حيث لم يعد مجال للتراخي والتأخير في موضوع الأدمية. حتى الصدى

يبدو أنه انتبه للغلطة التي ارتكبها. هو مثلنا جميعا مصدوم من هذه الكائنات. أخيرا فهم أن آدم ينوي أن يكون صانع العالم لا صنيعته، مالكة لا مملوكه.
يتدخّل زوس بقوة:

- حقًا لم يعد من الممكن مواصلة السكوت على الدمار الهائل الذي تُلحقه هذه الأدمية اللعينة بالحديقة المقدسة. هل رأيتم السرعة التي انتشروا بها في كل أصقاع العالم والحال أنهم كانوا مبرمجين لقطعة محددة من الفضاء ومن المناخ كما هو الحال بالنسبة لكل الأجناس الحية؟!، هل رأيتم كثائهم المهول؟ هل رأيتم هل رأيتم كل هذا الحمق والتهور والقسوة في اقتلاع الغابات وتسميم الأنهار والمحيطات وتلويث السماء والأرض؟ هل رأيتم هذه الوقاحة والعجرفة والقسوة في التعامل مع كل الكائنات التي شاء حظّها العائر أن يضعها على طريقها؟ بل هل رأيتم فظاعة حروبهم وما تفتقت عنه عقولهم المريضة من أصناف التنكيل ببعضهم البعض. قلتها وأردها أكثر من أي وقت مضى: يجب إيقاف هذه التجربة حالا، يكفي ما كُفّت.

يغتتم بوسيدون الفرصة ليتدخل بقوة:

-هل رأيتم ماذا فعلوا ببحاري. حولوها لقممات سائلة بما يكسبون فيها من بلاستيك وقادورات أخرى ...هل رأيتم ما فعلوه بالحوث أجمل وأعظم المخلوقات ...هل تقدرون أنهم بصدد افراغ محيطاتي من كل كائن حي؟ هل
ينفجر بعل ضاحكا:

- آه الآن انتبهتم للكارثة! أما أنا فمُنْتبه منذ ظهور الأعراض الأولى، لذلك فجّرت على رؤوسهم بركان، "توبا". للأسف قدرة هؤلاء الملاعين على الصمود أمام كل الكوارث أمر مذهل.

تصرخ إيزيس في وجه بعل:

- أنت سبب تلك الكارثة العظمى! أخفقت في استئصال هذه الكائنات التعيسة لكنك نجحت في تدمير كمّا هائلا من الأجناس البريئة! أما وحقي لا يوجد رب ثانوي أغى منك.
يصرخ أمون رع بأنه لن يقبل الخروج عن آداب الجلسات العامة ويأمر الالهين بالكف عن تبادل اللكمات فهذا اجتماع رباني وليس حلبة ملاكمة.
يستطيع أخيرا كريشنا أن يسمع صوته:

- لا، لا، كلكم تبالغون في التجنّي على جنس بالغ الطرفاة.

يلتفت إليه الجميع بالاحتجاج الصاخب:

- كيف؟ نسيّت ما قلته في سهرتنا عند اللآت والعزّى، أن هؤلاء البشر لا يدخلون قارة إلا وأفنوا ما فيها من حيوان ونبات، أنهم وباء عالم يريد الشفاء منهم.
يرفع شيفا يده بوقار طالبا الكلمة:

- قلتها من البداية وأردد لا خيار غير اغراقهم بالطوفان.

يقاطعه ووطآن بالعنف المعروف للآلهة الإسكندنافية:

- نعم لنغرفهم جميعا لا نترك فرصة لمختبئ في جزيرة نائية أو غابة كثيفة كما حصل بعد انفجار "توبا".

تسارع آتينا بالموافقة:

- أنا مع هذا القرار، إضافة إلى كون هذا الحل يوفر الروائح الكريهة ومن جهة أخرى يسمح بتوسيع المجال الحيوي للدلافين والحيثان وخاصة لسماك السردين، فكل الدلائل ترشحه، هو لا غيره، ليكون الرهان الناجح هذه المرّة.

وحدها ايزيس المنهمكة في ارضاع ابنها حورس عنها غير متحمسة لقرار تصفية الأدمية. لكنها مشغولة برضيعها وليست مستعدة لأكثر من ابداء رأي.

من حسن الحظّ أو من سوء الطالع أن يتدخل في نسق القصة إله يبدو أنه ما زال على قدر كبير من السذاجة فيما يخص نوايا الصدى وطبيعة الكائنات التي أطلقها على العالم... إذ كما تقول الأسطورة:

"أراد الإله إينكي إنقاذ الأدمية"

من إينكي هذا؟

كل ما نعرف عنه أنه هو الذي حمانا من الانقراض وأنا ندين له كلنا بوجودنا ومع هذا لا اسطورة تخترع له ولادة رائعة، لا ملحمة تتغنى ببطولاته وأمجاده، لا ديانة كبرى وحتى صغرى تقدسه، لا أتباع يلهجون بحمده ولا حتى معبد صغير مخصص له. ألم أقل لكم دوما أنني لم أتجنّ على الحقيقة بخصوص لوم الأدميين وأن أهمّ خصائصهم الجحود ونكران للجميل.

طيب، لكن ما الحجج التي ساقها هذا الاله المظلوم كي لا تنتهي رحلة الجنس البشري برمته.

[تلخيص المرافعة القيّمة]

"أيها الآلهة أيتها الآلات، حضرات الزميلات والزملاء:

نعم أنتم محقون في استنكاركم للعدد الهائل من الغابات التي دمرها الأدمي، للعدد المريع للحيوانات التي أذلت واستترق وأباد. نعم الأدمي مجرم كبير لا جدال في ذلك، لكنه أيضا ضحية كبرى. لا تنسوا كم كان ولا يزال طريدة الكواسر المجهرية التي حصدهت بالملايين عبر العصور. تذكروا ما عانى ولا يزال من تفجر البراكين، من ميدان الأرض، من غضب السماء تعاقبه تارة بالجفاف وأخرى بالفيضان.

ثم إن قضينا الآن على الأدمية فيماذا نعوضها؟ لنتركها تستنفد وقتها القانوني ونعدّ المكان للورث. بخصوص الأجناس التي يتحسّر عليها لسان الدفاع، أليس قانوننا أن كل جنس يفترض يستأهل الانقراض؟ وفي كل الحالات التجربة لم تأخذ الوقت الكافي ليجوز فيها أي حكم نهائي، حيث لهذا الجنس -مثل بقية الأجناس الحية الأخرى- الحق في الخمسة ملايين سنة القانونية. ختاماً أوّد تذكيركم هذه تجربة خاصة يراقبها الصدى لا غير. هو لم

يعط أمرا بإيقافها خلافا لما يدعي بعض الزملاء والزميلات. أما ادعاء بعض المناشير المغرضة أنه ندم على خلق الأدمية فمحض افتراء. يتعالى صراخ الآلهة خاصة رؤساء أقسام الأجناس المهدّدة بالانقراض بتواصل البشرية، وهو ما قد يحيلهم إلى التقاعد المبكر ويقلل من سلطاتهم داخل المجلس الموقر. لإنهاء نقاش مرهق يتفق الجميع على الحسم بالتصويت. لا يحصل إينكي إلا على صوته وصوت ايزيس فيخرج غاضبا ومقتنعا أن المجلس بحاجة إلى تطهير واسع.

على كلٍّ هو قرّر عدم الامتثال للقرار رغم شرعيته وديمقراطيته. بل هو خطّط لكل التفاصيل حتى لا تتجح خطة زملائه غير الأعزّاء.

كيف وماذا فعل إينكي؟

تواصل الأسطورة:

"فاختار الملك زيوسدرا وعلمه بناء السفن ليحمي حياة الإنسان"

ويقيم في أرض العبور

أرض دلمون حيث تشرق الشمس".

ينهر إينكي آدم صارخا فيه أن يعجّل بالعمل وأن يكفّ عن الشجار مع أئنائه قابلا بكل ما تريد حملته من عفش حتى وهو يعلم فعلا إنه غير ضروري.

يصبح آدم جاهزا للإبحار مع حواء وكل ما استطاع شحنه من كائنات حية اغتنمت الفرصة للنجاة من طوفان لم تكن تفهم لماذا يشملها وهي بريئة من آثام الأدميين.

يعمّ الماء كل شبر في اليابسة مغرقا كل ما تحمل على سطحها من بني حرية وآل نبات. تبدأ السفينة في تسلق الموج تارة وفي السقوط تارة أخر في هاوية تبدو بلا قاع.

تندافع الأفكار السوداوية في ذهن حواء : شكرا لك يا إينكي على حسن النوايا، لكن هل ثمة شيء في هذا العالم ما يستأهل البقاء من أجله. كم كانت فكرة الفرار من الجنة طائشة.

حان وقت التخلص من هذا الأرق المليء بالكوابيس الذي نسميه "الحياة"، وما على آدم إلا أن يتبعني في البيمّ أو أن يجزّب خلق حواء أخرى من عظم الساق أو من أي طلع يشاء.

نعم تفكّر حواء في الانتحار ملّت مشاكل لا ولن تنتهي مع آدم وذريته الشرسة ولا ترى مانعا في إفسال مشروع النجاة لتنتهي كل هذه القصة التعيسة.

ككلّ انتحار أنثوي لا بد له من إخراج جيّد. تنتظر حواء قبل اتخاذ قرار رمي نفسها في أمواج المحيط المظلم أن تخرق أشعة القمر السحاب ليراها آدم وهي تفتح ذراعيها مودعة الحياة في حركة مسرحية. طبعاً سيبحث الخطى لمنعها بوابل القبل من القفز في الماء وهو

من يعلم أن معرفتها بالسباحة ليست أحسن من معرفتها بالطبخ.

أصرخ فيها: هيا خلّصينا، اقفزي.

ترمقني أم الأمهات بنظرة سوداء. حقا لا أفهم كيف أحبّنتي "ما" طول حياتها ولا أتحدّث

عن "ح"؟

البنتان بصوت واحد متثاقل: ”با”، لا نحبيك إذا واصلت هكذا.
يمكنني أن أوصل القصة لنفسني غير متيقن إلى أين سأصل بها وستصل بي.
إذن تنفّس “إينكي” الصعداء وهو يشاهد تراجع حواء عن فكرة الانتحار في آخر لحظة
وبقاء الباخرة طافية على أمواج المحيط رغم قلة خبرة الريّان.
كل الأمور على ما يرام؟ المسكين غير واع بما يحاك في الخفاء وقد دعا خصومه من
الآلهة إلى اجتماع طارئ بنقطة واحدة في جدول الأعمال: تحرير بطاقة جلب ضد المتمرد
وإحالاته على المحاكمة ومواصلة تنفيذ ما وقع الاتفاق عليه.
ومما أسرت به كالي في أنز أفروديت بعد نهاية الاجتماع الطارئ:
- مسكين إينكي، لا شك أنه يحلم هذه اللحظة بحمامة تطير من السفينة بحثًا عن الأرض
الصلبة التي ستصلها السفينة. أه لو يعرف ماذا أعدنا له؟
هم أعدوا جبلا من جليد يخرج من الظلام ليغرس خنجره الأبيض في جنب سفينة أرادها
إينكي النجاة لكنها الآن التابوت والمحيط المظلم هو المقبرة.
تصرخ تفاحة وهي تغالب للبقاء مستيقظة.
- هذه قصة التيتانيك، شاهدت فيديو جميل عنها.
تهمس تفيحة لنفسها:

-أنا أيضا اعرف أنها تيتانيك وليست وحدها تفاحة التي تعرف.
نعم إنها قصة التيتانيك نطعم بها قصة نوح لاعتصار مزيد من المعاني من مكافحة
القصتين.

إذن تغرق الباخرة ويطفو بعض الناجين على سطح المحيط الناقد الصبر لابتلاعهم ابتلاع
القرش لصغار الأسماك. يمسك آدم بشعر حواء يجزها إلى الخشبة التي نجح في امتطائها
صارخا كالمجنون: البنتان، البنتان؟

ترفع تفيحه عقيرتها بالصراخ وهي على خشبة أخرى وسط المحيط المظلم. من أين لأحد
أن يسمع لها صوتا وصخب الموج على أشده؟

تفاحة الآن تسبح بهدوء وتركيز تصارع الموج تبحث عن أختها. أي حياة دون تفيحه؟
يصرخ أحد الآلهة في زملائه المنكبين على متابعة الوضع باستعراب مترابيد.
- انظروا إلى البنت! اللعنة على هؤلاء الأدميين، إنهم يقاومون إلى آخر نفس.

هل يكون فعل الأفعال: قاوم، تحدى، أصر، تمسك، تشبث بالحياة؟
تتضرع حواء للصدى لا تعرف أنه هو المنقذ وأن إينكي أدواته لا غير: أعطنا فرصة أخرى.
سننجز المهمة هذه المرة وسنعود لك بهذا الذي بعتنا نبحت عنه.

إينكي الآن على زورقه مجدفاً ببطء شديد يتحسس طريقه في الظلام الدامس.
تصرخ فيه تفاحة دخلت حلمي ودخلت حلمها: انظر يا إينكي إلى يسارك، تفيحه على مرمى
مجداف، إلى اليمين قليلا. هكذا، هكذا، والآن ترقق في جذبها وغطها بسرعة؛ إنها
تموت بردا، لا تنس دميتها إيتي وإلا ستفرض الصعود. ثم تتوجه إلي:

- "يا"، انظر لقد جعلتُ زورق الإنقاذ يصل في الوقت وينتشل الجميع؟ ألسنُ رائعة؟
- بل أنتِ أروع من رائعة يا حبوبتي. أنت الحياة لا شيء آخر. برفو لك وللرب إينكي.
هل يجب أن نفرح بمثل هذه النهاية لانتصار الحياة على الفناء أم أن نزداد همًا
لتواصل محنة الأدمية ومحنة العالم؟... هل نغبط الغرقى ونبكي سوء حظ الناجين أم نبكي
سوء حظ الغرقى ونهنئ الناجين؟
كأن صبرك نفذ من هذا النص ومن تناقضاته المفضوحة.
مهلا يا صاحبي، كيف يمكن البتّ في عقدة قصة القصص والأدمية منذ انبثاقها مقسّمة بين
حنين جارف للعدم وإغراء لا يقاوم للوجود.

**

وقال لهم الصدى كم من واحات أعددت لكم تجددون فيها قواكم لمواصلة الطريق.

تستيقظ تفيحة باكية، ترتجف بردا. تتقلب على جنبها تفرك عينيها باحثة بعصبية عن دميها ايتي. تسارع تفاحة تحكم حولها الغطاء.

- "با"، حلمت حلما مرعبا... ظلام ومياه سوداء، دثرتي.

تكفت طفلة الخمس سنوات عن الارتعاش. تستعيد حيويتها، عادت إليها الطمأنينة وهي بين الأحضان الدافئة.

- لا أحب قصتك، لا أحبها.

- أنا أيضا يا حبوبتي لا أحبها، لكن ما حيلتي. هي التي ترويني، لست إلا الناقل.

- لا، لا، إنها غلطتك، أنت لا تعرف كيف تقود القصة.

تتدخل تفاحة بحزم:

- من هنا فصاعدا لن يكون في قصتنا إلا "كثيبيبيير" من اللعب والفرح والأشياء الحلوة.

أنا أقود ولا أحد يقاطعني وإلا هربت بالقصة إلى غرفتي.

-الكلمة لتفاحة ولا أحد يقاطعها أو يغير مجرى القصة

-إذن وبعد النجاة من الطوفان أرسى السفينة المحملة بالناجين من الغرق على شاطئ

جزيرة "جميبييلة" جدا جدا ليس فيها إلا الأزهار والأعشاب والأرانب والعصافير وغابات

لم يكن فيها ذئب في النهار ولا غول في الليل. هكذا كان يوسع الطفلين اللعب فيها دون أن

يخافا أو أن يخاف عليهما أبوهما.

تفيحة هامسة في أذن أختها: لا تنسي الفراشات والجدول الصغير حيث أستطيع المشي دون

أن أنزلق على أحجاره الملساء.

-تفاحة: ذات صباح والشمس تطل من وراء سحاب لطيف، أرادت الطفلتان الخروج للنزهة

والجري وراء الفراش بالقرب من جدول صغير لم تكن فيه حجارة ملساء واحدة. لكن "ما"

قالت: ليس الآن. فصرختا لا، لا. نريد الخروج الآن. فقالت "ما": "إذن خذا "با" معكما

فهو سيزعجني إن بقي يتفرج في إعدادي كعكة الغد وسيزعجني أكثر إن حاول إعانتني.

والآن هيا كلكم، جميعا خارج المطبخ

-تفيحة: ما هي إلا دقائق معدودة حتى غابت الطفلتان عن الأنظار وهما تركضان لكن "با"

رفض الجري معهما هذه المرة لأنه كان متعبا من كثرة العمل، فجلس بين الأعشاب حذو

الجدول الرقراق متكئا على جذع شجرة "با" ... "با"، يمكنك أن تقود القصة قليلا. لا تنس

تحذيرائنا وإلا نسحب منك الكلمة.

لا داعي لسحب الكلمة مني. نحن في الحالة المباركة التي يتخذها العالم دوريا وكل القصص

إبانها لا هم فيها ولا غم.

كم منها في ملفاتي تعود إليها الذاكرة تتفحصها بمتعة لا تبهت أبدا.

في هذا اللحظات المباركة من عالم لم يعد ساحة صراع بلا نصر ، كل المواضيع عن جيرانٍ وُصلوا متأخرين عن مواعيدهم ... عن أقارب ركبوا القطار في الاتجاه المعاكس... عن ربّات بيوت أطارت الريح غسيلهن فجاء الجيران به اليهن... عن الزواج الذي تأخر أكثر من مرّة لعدم توقّر قاعة الأفراح وفي الأخير قرّ القرار على الاحتفال به في أجمل حديقة بالمدينة... عن حصباء بنت ابنة العمّ التي أصابنها يوما قبل الامتحان فقبل المعلم إرجاءه... عن لقاء يوم الأحد على الشاطئ وتواصل لعبة "الرامي" إلى ما بعد منتصف الليل عند العمّ منصور في شهر رمضان... عن الرجل الذي اشترى خبزة ساخنة في طريقه إلى البيت فأكل نصفها قبل أن يصل، غير منتبه لما فعل فضحكت زوجته ثم التهمت ما تبقى منها تُجاهد للتوقف عن الضحك وأرجعته من حيث أتى ليأتي بأخرى للضيوف. إنَّها ليلة ساخنة والصيف ضيف طرق على الأبواب باكرا هذه السنة. كم من مواضيع أخرى سنشدّ المتسامرين بالحديث إلى آخر هزيع من الليل مستلقون على الرمل الناعم ينفجرون بضحك ليس انتقام المقهور من القاهر وإنما طفرة الحبور والمرح. وسط ساحة الحوش تحت النخل العجوز تُواصل العمات والخالات الشكوى الضاحكة (الرجال! الله وكليك، لكن "الله يخلي لنا رجالنا") ثم تبادل آخر أخبار الحيّ (همسا) عما يقال حول حبّ فلان لفلان وكيف أن الخطبة تمّت سرا وأن العرس قد يحصل حال عودة الخطيب من بلدان المهجر محمّلا بالهدايا.

وفي هذا العالم أو قل في حالته المباركة هذه، لا خشية من توقّف توافد المرتحلين وكل الأخبار التي وصلتهم قبل الاحرام تؤكد أنه لا خوف من تجربة الوجود. يجمع الحبّ كائنين رقيقين يمزجان روحيهما وجسديهما يفتحان وهما في نزوة النشوة طريق الحجّ للحاج الجديد والشاعر كالعادة هو الشاهد على الليلة القدسية.

في ليالٍ كتّمت سرّ الهوى
مال نجم الكأس فيها وهوى
وطرّ ما فيه من عيب سوى
بالدجى لولا شمسُ العُسر (ابن الخطيب)
مستقيم السير سعد الأثر
أنه مرّ كلّفح البصر

يتكوّر بطن حواء شيئا فشيئا فيتعلّم آدم عادة جديدة لن تفارقه إلى يوم خروج الطفل الموعود: متابعة دقات القلب وأذنه على البطن المنتفخ، وحواء واضعة راحتها على شعره منتبهة أنه بحاجة أكيدة إلى مقصّ الحلاق.

تأمره بإعداد القهوة لأنه يتبجح دوما أنه يطبخها أحسن منها، فيعدّها وهي عاكفة على خياطة وشاح للرضيع حتى لا يبرد يوم تجره فخورة إلى الحديقة وهو في أولى خطواته على الطريق. ثم ينتقلان من المطبخ للجلوس تحت عريشة العنب يرتشفان القهوة، فتمدح قهوته معترفة أنها أحسن قهوة ذائقتها. يفتعل التواضع يستحثها بخبث على مواصلة المديح، فتعطيها ما يريد وبعض القبلات زيادة، ثم تنهض لتعلّق الغسيل على الشريط، تفكّر في كل الأشياء التي يجب إعدادها لمجيء الطفل المبارك.

في هذا العالم -بل قل طوال حالته المباركة يصل الطفل الموعود في الابان دون تكليف أحد مشاق حضوره ولا حتى أمه وهي تضعه كما تتفتح الوردة لإطلاق اريجها. ها قد أصبح حاضرا بين يدي أمه وأبيه بكل خصائصه وبكل امكانياته المضمنة داخله. هو لم يعد احتمالا ووعدا وإنما كاننا موجودا في هذا العالم. لكن ما معنى هذا المصطلح الذي يستعمله الكل ولا أحد يفهم بالضبط عما يتحدث؟

المهم أن الطفل الآن مصدر فرح لأم فخورة وأب متهيب من مسؤولية لم يكن يتصور حجمها ناهيك عن فرح كم من أعمام واخوال، من عمات وخالات ... كيف لا والرسالة التي يحملها المولود الجديد: وصل المدد لمواصله الطريق إلى أبعد نقطة .

كم من ذكريات عن طفل هائج طول الوقت لا يعرف كيف يصرف كل الحيوية التي تسكنه وهو في خصام مرح لا يتوقف مع صببية يدفعون بعضهم بشدة مفتعلة، ومنهم الأشقياء الذين لا يحبون شيئا قدر شدّ شعر البنات.

ها هو يبحث عن أعذار تضحك كل من حوله: والله يا "ما" لسئت أنا. يكذبون علي. أه يا أنني. تؤنبه الأم الأزلية والأن كفت عن الركض أصبنتي بالدوار وإياك أن تجذب مرة أخرى شعر أختك.

أنا قلت لا أشرس من الأدمي وهو طفل، لا أعنف من الأدمي وهو طفل، لا أظلم من الأدمي وهو طفل، ولا أشد أنانية ونرجسية منه؟ إشاعة أخرى من أعدائي لتشويه سمعتي عند الأطفال وأمهاتهم وجدّاتهم. تقول، لكن الكلام مكتوب في هذا النص ويكفي العودة إلى الصفحة كذا. نعم لكنها جملة أضافها الحاسوب بعد أن تمّ الاستيلاء عليه من قرصنة الفضاء الافتراضي لذات الغرض. عزياتي الأمهات والجيدات والخالات والعمات -خاصة المسجلات في القائمات الانتخابية-والله تقدّمي كمعارض بدائي للرضع كلام مبالغ فيه وذلك رغم اختلافاتي الجذرية والعميقة معهم، والدليل أنني ارتكبت منهم اثنين ثابتين، ناهيك على أنه بؤسعي إثبات أنني لم أرم لا بتفاحة ولا بتفاحة من النافذة حتى عندما يتولنا علي أكثر من مرّة. أما بخصوص الأطفال فأنا على قناعة -على الأقل هذه اللحظة-أنه لا يُعرف للعالم وجه جميل مُضحك منعش مُفرح إلا وكان وجه طفل.

كيف لا والحال أنه لا أسهل من توليد الفرح في هذا العمر أيا كانت الأسباب القادرة على توليد الشعور المبارك من بين كل المشاعر.

يثب الطفل من فراشه لإعداد ساحة مهرجان اقتطعها من جزء من الزقاق الضيق خلف البيت. يضع صوره الملونة على حيطان الجيران ويضع علامة "ممنوع الدخول". ينتصب في مدخل الزقاق. يتدافع أطفال الحيّ لحضور الحفلة وكلهم طمع في الجوائز التي أعلن عنها المنظم. يدفعون ثمن الدخول ولا يعرف الطفل أين يضع كل نوى الشمس هذه. تبدأ المباراة بتصنيف النوى في خطّ مستقيم ينطلق من الحائط إلى وسط الساحة. يقف المتبارون بضعة أمتار بعيدا ثم يرشقون صف النوى بنواة ليجمعوا كل ما وراء التي أصابتها الفذفة

البارعة. أما الجائزة الكبرى فهي أكداش نوى مشمش الخاسرين. يا له من كنز هائل حصل عليه الطفل بشيء من المهارة وقليل من الغش. ثم ينفجر الفرح داخله وداخل الرابحين والخاسرين على حدّ السواء فيصبح الشارع تجمهرا لأطفال هائجين يثيرون ضحك المارة واحتجاجا غير مقنع وغير مقتنع من طرف الجيران.

الفرح أئمن ما يكافئك به العالم على طول صبرك على محنه... الحالة التي تمرّ بها الذات وقد توقف الزمن عند حاضر مكتمل لا حاجة لها بذكريات ماض جميل مصنوع من الخيال ولا بمستقبل مشرق مصنوع من الوهم.

ها قد أصبح الطفل أبا وهو المكأف الآن بالسهر على تغذية الفرح لكي لا يتوقف العالم بين أزمة وكرثة عن اتخاذ حالته المباركة هذه حتى ولو لأقصر زمن.

تهزّني تفاحة من كتفي بقوة:

- "با" كفى نوما، وعدتنا بجولة طويلة في الغابة الصغيرة التي فوق الأكمة. سنذهب ثلاثتنا على الأقدام لنجمع زهورا جميلة ل'ما' ثم نعود بعد الظهر لأكل الكعكة اللذيذة.

لم لا شريطة أن أعتنم كل فرصة للاستلقاء على العشب لا أفعل شيئا باستثناء التمتع برؤية تفيحة جاثية على ركبتيها تتأمل مندهشة كأننا ما زالت لا تعرف له اسما في يتحرك على غير عجلة من امره.

روييدا روييدا (ايسا)

تسلق جبل الفوجي

أيها الحزون.

من جديد تفاحة واز عاجها اللطيف الذي لا يتوقف لحظة:

- "با"، ارفع شخيرك، انظر إلى الإكليل الذي صنعته لتفيحه. الآن أنت الذي سنصنع لي إكليلًا.

هل من خيار آخر غير النهوض متناقلا لجمع الزهور أنتقيها بكل عناية، أنظمها في دائرة أضعها على الشعر الفاحم. أدور حول الطفلة جاثيا على ركبتي أعدل من وضعها.

- هذا تاج طفلة أعلنها ملكة هذه الربوع وتفيحه ولية عهدها.

تصرخ تفيحه فجأة وهي في قمة الجذل لقدم زائر غير متوقع:

- المطر... المطر... المطر!

ترفع البننتان عقيرتهما: "أنا أغني تحت المطر..."

- تعبّيان دون شمسية! لكن البطل لا يغني في الفيلم إلا وهو يراقص شمسيته.

تلنقط تفيحه عُود خشبٍ ترفعه فوق رأسها. نرقص ثلاثتنا تحت المطر والكَلّ مشغول بالشمسية دفاعا عنها وافتكاكا.

تننّب تفيحه لمرور الساعات وأن علينا العودة بسرعة إلى البيت.

- "ما"، تنتظرنا. عَجَلًا.

لكن تفاحة منشغلة بأمر آخر قد تترتب عنه عواقب مزعجة. ترفع إصبع التحذير:
- "با"، انظر إلى بنطلونك عند الركبتين. أصبح أخضرا من الاحتكاك بالعشب، ستخاصمك"
ما"، يجب أن أجد حلاً لكيلا نتفطن.

تضع البنيت إصبعها بين أسنانها مستغرقة في التفكير لإخراج ابنيها من ورطة صغيرة.
- سندخل البيت خلصة ثم تعطيني البنطلون أنظفه.
الحلف الأزلي بين البنيت وأبيها ضد الأنتى الأخرى ولو كانت أما وزوجة... حلف لا
يضاهيه في المتانة سوى حلف الابن والأم ضدّ الذكر الآخر ولو كان أباً وزوجاً.
حلف؟ لغة العسكر والسياسة حتى في علاقة مثل هذه!

كأني بالعالم بدأ يستعيد سحنته البشعة وأنه بصدد الانقلاب على جنبه الآخر، بدأ صيره ينفذ
من طول هذا الفاصل. هو عائد إلى زئير الأسد بعد طول افتعال مواء القط. ربما لا يفعل
سوى ردّ الفعل واستباق الأحداث. من يعلم أحسن منه أن هذا الأدمي الممعن في وداعته،
لا يفعل سوى استعادة قواه للانقضاض عليه مجدداً؟

المهمّة أن تدوم اللحظة وأن يحترم الطرفان هدنة يترك فيها الأدمي العالم وشأنه لا يحاول
تغييره، أو السيطرة عليه، ولا حتى فهمه، وفي المقابل يترك العالم الأدمي وشأنه لا يريد
امتحانه، أو ترويضه فما بالك بمحاولة التخلّص منه.
أتوجه إليه: انتظر. لم تنته فترة استعادة الأنفاس. لم تلتئم بعد كل الجروح. لا طاقة لنا الآن
على العودة إلى الصراع. رحماك، امنحنا مهلة إضافية.

تعود إلى العالم ابتسامته. ربحت هدنة إضافية ولو أنه لا وهم لي حول دوامها.
نعم إنها لحظات لا تقدر بثمن وهي التي يكشف الوجود وجهه المضىء وأنه ليس فقط
صراعاً مريراً من أجل البقاء.

تتدافع ثلاثتنا نحو الباب لنواجهه منعاً صارماً بدخول بيت نُظّف لتوّه ونحن بكل هذا البلب
والوحد ملء أهديتنا. تصرخ الزوجة المزمّنة والأم الأزلية:

- لا أحد يدخل بهذه الثياب وبهذه الأحذية. تتحملون وحدكم - وخاصة سيادة الأب - مسؤولية
الزكام وما ينجّر عنه من مشاكل لا دخل لي فيها. شكراً على الباقية يا حبيبتي إنها جدّ جميلة.
سأضعها قرب فراشي لكن هذا لن يغيّر شيئاً بخصوص الأحذية. تُنزع كلّها في البهو ولا
مجال للهرولة نحو المطبخ حفاةً.

تراوغ تفاحة كسبا للوقت.

- أعدك "ما" أنني سأنزع حذائي وسأغيّر ثيابي فيما بعد، أنا جائعة والكعكة ستبرد وهي
ليست لذيفة إذا بردت.

- الدلال مع "با" فقط، قلت الآن.

لا شيء في نبرة حواء يدلّ على أنها تبحث عن تجدّد الخصام، ومع ذلك لا شكّ في جدية
الأمر واستحالة تجاهله.

أخيرا وبعد تغيير الملابس والأحذية يُسمح للجميع بدخول المطبخ. تُغالب "ما" زهوها وهي ترى النجاح الباهر لبعثتها.
تحتج ضاحكة: كفى قُبلا بأفواهكم الملطخة. النجدة، إنكم تخنقونني. ما هذا الركض حول الطاولة، توقفوا كلكم، خاصة أنت أكبر الأطفال الثلاثة.

وفي هذا العالم أو قل في حالته المباركة هذه، هناك أماكن مثل الحدائق العمومية توفر لك متعة هادئة وأنت تبتسم لرضيع عربته الصغيرة أم جميلة ثم تجلس لاستراحة طويلة بالقرب من بركة صغيرة أمام المساحة المخصصة للعب الأطفال حيث تتلاقى نساء الحي يتبادلن آخر الأخبار.

لنصف إلى المشهد العجوزُ التي تأتي كل صباح وكل مساء بطعام الحمام والغراب والبجع والكائنات تندافع إليها لتأخذ نصيبها من الحَب ومن الحُب. هناك أيضا المقهى الصغير على الضفة الأخرى للبركة الذي يسعد فيه الكل بتناول المرطبات واحتساء القهوة الساخنة وتبادل آخر الأخبار ولا مكان بين الجالسين لمنجهم، كلهم استبطنوا نصيحة الشاعر:

قال البشاشة ليس تسعد كأننا
يأتي إلى الدنيا ويذهب مرعما (إيليا أبو ماضي)
قلت ابتسم مادام بينك والردى
شبر فإنيك بعدُ لن تنبسم

إنه مقهاي المفضل لكنني أفضل عليه الجلوس على الأرض أتفلس ملء رنتي أريج الورود ورائحة العشب المقصوص لتوه والظهر مسنود إلى "جوناس" الشجرة العملاقة التي أتبرك بها كلما عبرت هذه الحديقة.

وفي هذا العالم، أو قل طوال حالته المباركة هذه ثمة أكثر من مكان آخر يستخرج أحاسيس ومشاعر بالغة الرهافة والرقّة تجعل من تجربة الوجود النعمة لا النقمة التي نعاني منها في الوجه المظلم للعالم.
الأسواق نموذجاً.

كم أحبّ الوانها وروانها! كم أحب صراخ باعة مرحين يمازحون المارة يفاخرون بما تجود به الأرض وسواعد البشر! كم أحب المتسوقين وهم يتجولون في أرجائها دون سلاح ولا نية لأيّ مشادة أرجأوا معاركهم التي لا تنتهي! كم أحب رؤيتهم يتبادلون مع الباعة الخدمة بالخدمة والكل راض عما يعطي وعما يأخذ. ! كم أحبّ التجول بين أكوام الفواكه والخضر والأزهار والتوابل الآتية من أبعد أصقاع العالم أنتقي ما أحتاج لألذّ طبق يساهم في الحفاظ على صحتي ومعنوياتي!

على ذكر الأسواق وما نعود منها بأشياء تطمئننا على أننا محميين من آفة اسمها الجوع صاحبت الجنس البشري على مرّ القرون ولا زالت النقمة المسلطة على كم من مرتحل. تعود "ح" ليلة من عيادتها وعلى وجهها ابتسامة النصر. أسألها وبني حذر مفاجئ:

- أنفدت حياة مريض؟

- أحسن من هذا.

- اكتشفت خطأ في تشخيص أحد الزملاء وفضحت المسكين أمام الجميع بابتسامة مشفقة.
- أحسن من هذا....
- لا وجود لأحسن من هذا.
- بلى، حلّ كعكة الشوكولاتة الذائبة. وجدته عند صديقتنا الأرجنتينية. هيا اتركني أعمل.
- الآن؟ في منتصف الليل.
- الإعداد الأولي فقط لأن العملية على مراحل. يجب أن أذوّب بعض الشوكولاتة وأن أمزجها بقليل من الزبدة وأترك الخليط في الثلاجة ليلة كاملة للاستعمال غدا.
- كم من مرة رأيتها تخلط الزبدة والسكر والشوكولاتة الذائبة بانتباه من يصنع قنبلية وبخشوع من يصلّي صلاة الجنازة والمطلوب من كعكتها أن تكون في نفس الوقت صلبة من الخارج وأن تبقى الشوكولاتة سائلة في باطنها.
- دوما نفس الفشل لخلل في نسب المواد أو في درجة حرارة الفرن أو في مدة الطهي...
- والنتيجة كعكة جافة كلياً لا شيء يسيل منها شيء عند القضم أو سائلة كلها تؤكل أشلاؤها بالملقعة.
- هذه المرة يبدو أن النجاح المبين على قاب قوسين أو أدنى.
- في الغد تعود "ح" إلى تجاربها. تصبّ نصف خليط البيض والزبدة والشوكولاتة الذائبة في الإناء ثم تخرج من الثلاجة خليط البارحة لا تملّ من الشرح.
- فهتم سرّ النجاح ولماذا فشلنا لحدّ الآن؟
- تظنني غيباً؟
- فسّر.
- إذا اعتبرنا سرعة الضوء التي تحددها النسبية العامة وإذا ضربناها بالقطر المجهول ليوزون " هيجز، فإن...
- لا تكن سمجاً. سيصبح سائل الكعكة يابساً بأسرع من الخليط الذي وضعته في داخلها لأن هذا الأخير أبرد بكثير ويحتاج إلى وقت أطول ليصبح يابساً هو الآخر.
- هذا بالضبط ما فهمت وسأهنئ نفسي على فطنتي حالما يتضح صواب الوصفة. على كل حال، ليس لي ما أخسر. متعة الكعكة إن نجحت أو متعة الشماتة إن فشلت.
- تنتهد "ح"، بداهة غير مستعدة على غير عاداتها للدخول في أي مزح.
- أتساءل أحياناً ما الذي حبّبتني فيك؟
- عجيب، إنه نفس السؤال الذي يقضّ مضجعي...مؤكد أنك لست ضحية حبّ على وجه الخطأ؟
- هل تستطيع أن تغلق فمك فقط لخمس دقائق متتاليات؟
- لا.
- إذن تفضّل على برّه.
- كما قال لا أدري من: نحن هنا بإرادة الشعب ولن نخرج إلا على رؤوس الرماح.

- انتبه ، لا تضطرنني لاستعمال العنف ...

- إياك، لا فكرة لك عن نفوذ أصدقائي في منظمات حقوق الإنسان.

تهاجمني” ح” بين ضحك مكتوم وغضب نصف مفتعل. أحاول أخذها بين ذراعي. لا تنطلي الحيلة. تدفعني برقة إلى خارج المطبخ موصده الباب ورائي. لم يبق إلا انتظار الكارثة أو المعجزة. فجأة تفتح” ح” الباب لا أرى إلا ظهرها وهي تهجم على نافذة القرن لتصرخ بالنصر والسكين يعبر طبقة سطحية جافة ليخرج يقطر بالشوكولاتة الساخنة السائلة.

‘الحياة اليومية (راسبو)

بأعمالها المتواضعة السهلة

مهمة بامتياز

كم تنطلب من الحب”

هل من الممكن أن نجعل من المطبخ صرة العالم وهو في حالته المباركة هذه والطباخون على رأس قائمة البشر الذين منهم كل نعمة ؟ لم لا ؟

كل الأفعال التي تمارس فيه لا غبار عليها قانونيا أو أخلاقيا ولا حتى جماليا وأخصُ بالذكر منها أفعال أكل، تدوَّق، مضغ، التهام، شبع... أفعال تستمد قيمتها من عالم عبّره أغلبُ المسافرين وفعلُ جاع أكثر الأفعال تصريفا.

خذ الآن بقية الكلمات التي ترنّ في أرجائه مثل كسكسي بالقاروس، بريك بالتن، طاقين جين، بسيسة بزيت الزيتون الحلوى الشامية بالمكسرات، مسفوف بالدقلة والسكر والسمن (لسحور رمضان). أليست برّبك أحلى كلمات اللغة، خاصة عندما تضيفها إلى ما وضعته الأدمية النهمّة تحت تصرفك من الروائع الأخرى التي تشير إليها كلمات البقلاوة والكنافة والبسيلة والمعكرونة بفواكه البحر والسوشي والكّرّي والنام وكعكة التفاح والبطة بالسكر المحروق ؟

أي قيمة للنسبية والواقعية والمادية الجدلية والجهاد والحقيقة والفضيلة والعدالة والوطنية والتقدم والنموّ وباقي الكلمات المسببة لعسر الهضم وتعكير المزاج أمام هذه التي يسيل اللعاب لها ويخفق القلب لذكرها!

والآن بخصوص الطباخين ومكانتهم الحقيقية في سلّم التفاضل البشري. .

ألا تتعامل وصفاتهم مع أشياء موجودة بكيفية لا يجادل فيها حتى الأعمى مثل البطاطس والبادنجان والبصل والثوم والبقدونس... أشياء ثابتة الوجود بينما نضيع الوقت والجهد في الجري وراء أوهام لا وجود لها إلا في أذهاننا المرهقة مثل الدين القويم والشريعة السمحاء والجدلية المادية والوطن المفدى والشعب المقدس والمستقبل الزاهر والمدينة الفاضلة والماضي المجيد.

ألا تفسّر كتب الطبخ طريقة معالجة الأشياء بكل وضوح ودون أسرار محجوبة عن المستهلك لا يعرفها إلا الطباخ؟

أليس صحيحا أنه إذا أصيب المستهلك بالتسمم فإنه لا يتَّهم بعدم فهم وصفة لا يأتيها الباطل من فوقها ولا من تحتها ولا يحال على التحقيق والتعذيب وحتى على الحرق حيا لبحثه عن وصفة أخرى أنفع، أو لإظهاره بداية شكِّ في السلامة العقلية للطباخ؟
أخيرا لا أخرا، في الحالة المذكورة أعلاه، ألا تسحب الوصفة نهائيا من كتاب الطبخ حال ظهور أول حالة تسمم، أو تعدل بكيفية جذرية بحيث لا تبقى سائرة المفعول على مرِّ القرون لا مجال للتخلص منها إلا بحرب لا تبقي ولا تذر؟
تصوّر في أي عالم كنا نعيش لو تصرّف رجال الدين والسياسة كما يتصرف الطباخون. بديهي أنهم لو فعلوا لما عرفنا عشر الأحوال التي نقاسي منها جيلا بعد جيل.
أصف لكل هذا الأفضال فضل الطباخين والطبخ والمطبخ على تقدم العلوم التي أعطتنا ما نعرف من رقي وتقدم .

أليس المطبخ أولٌ مختبر تمعّن فيه الأدمي في خصائص الأشياء... أول مكان تطورت فيه معارفنا ونحن نسحق الأشياء، ندوّبها ونخلطها ببعضها البعض، نبردها ونسخنها ونتمعن في نتائجها؟ من يجادل في كون المطبخ المكان الذي انطلقت منه السلسلة الطويلة للتجارب التي أوصلتنا إلى الاستنساخ.
حقا لا يمكن القول إن ما جرّبناه على الدجاج والأرانب كان غاية في الأناقة أو اللطف، هنا لا يفوت النصّ تقديم بالغ الاعتذار باسم الإنسانية جمعاء لكل الكائنات التي اضطّررنا -مع بالغ الأسف- إلى التهامها وعلى رأسها الدجاج لكل ما عرّف من خنق وسلخ وما تعرّض له من كل وسائل الطبخ الفظة مُعتبرا زلة لسان لا تُعتقر مقولة "ح" إن كل دجاجة لم تحمّر كما ينبغي دجاجة ماتت عبثا.

أغتنم الفرصة هنا للتقدّم أيضا بكل الامتنان للأشجار والنباتات التي أعطتنا ثمارها وتوابلها مظهرة كل التعاون مع البشرية الجائعة وأود أن أخص بالذكر تلك التي أعطتنا التمر والزيتون واللوز والتين والعنب والبرتقال.
تقول، نسيب الفلّ والياسمين والحبق والنعناع، حتى ولو كانت نباتات لا تمضغ. من منعك من شكرها وإمضاء عرائض المطالبة بإقامة التماثيل لها؟ تصوّر! يطلقون على شوارعهم أسماء كبرى المجازر مُهدين لكل جزار تسبب في آلاف قتلاها ساحته وتمثاله ويعقّوا من يدينون لهم بالحياة وملذاتها النادرة.

بربّك من أعان البشرية أكثر وسهّل رحلة الملايين: مشاهير أباطرة الدين والسياسة والعلم والفلّ أم الذين لا يذكر التاريخ لهم اسما لكنهم هم الذين زرّعوا وحصدوا لكيلا نموت جوعا؟ هل من باب الصدفة أن تكون كلمة النعمة في اللهجة المحلية تعني أيضا... القمح؟
من الذين يجب أن نضع على رأس قائمة الذي منه كل نعمة: الذين اخترعوا وصنعوا وطهوا البقلاوة والمقروض والغريبة والشباكية وقرن غزال وأم على والكنافة النابلسية... أم اسكندر المقدوني ويوليوس قيصر و نابوليون وأبو عبيدة الجراح؟

ثمة مكان يمكن أن ينافس المطبخ كصرة العالم : الملعب.

تقول الملعب! أليس المكان الذي أريقت فيه دماء القرابين البشرية والحيوانية على مرّ العصور، المكان الذي تنتهي فيه كل المباريات بهزيمة هذا وانتصار ذاك، المكان الذي تجمع فيه أنظمة الفساد والقمع ضحاياها ليلة الانقلاب، الذي تحتفي فيه بمنجزاتها الكاذبة، الذي تنظم فيه مسابقات الغرور، الذي يقف فيه الزعماء المنفوشون كبرياء يصفقون طويلا لبني عائلتهم ويجلسون حالما تظهر أعلام العوائل الأخرى، المكان المطوق بالإسمنت والحديد وبطوابير البوليس تنتظر تدافع جماهير مقموعة لتفجر ما بداخلها من عنف مكتوم، المكان الذي تشاهد فيه القطعان البشرية المرعوبة تهزول نحو باب الخروج فتساقط الأجساد عفا بالأقدام!

نعم إنه ملعب الوجه المظلم للعالم ، أحدثك يا صاحبي عن ملعب العالم وهو في حالته المباركة على ندرتها.

يصل بي الطريق إلى آخر وافخم طراز وهو مكتظ الليلة بعشرات الآلاف وصراخ الفرخ والحماس في أوجه.

السقف مفتوح على سماء داكنة يتوسطها قمر هادئ ينظر بعطف لهذه الجماهير التي تصرخ بفرحة الحياة متجاهلة -وكم هي على حق- قوى الدمار والموت التي تزمجر حولها ودخلها. كيف لا يتفجر هذا الفرخ عند الجميع وكل ما يجعل من حياة الأدميين مأساة مسترسلة أخيرا تحت السيطرة!

الآن وهنا، أخيرا ولو لزم من قصير عابر، البشر جميعهم سواسية تجمع بينهم متعة الوجود. لا سلاح بين أيديهم والعنف العرضي طفرة الصحة وحيوية الشباب لا قصد فيه للإيذاء. على المدارج لا اثم ولا فسوق. على الساحة التي أمامهم لعبة قواعدها واضحة لا مكان فيها للغش والظلم... وتحت أنظار الجميع وسلطة حكم نزيه مفض من قبل الرب المخفي يعاقب فوراً وعدلا كل من يتناول عليها.

فجأة يتقدم كيان مبهم تجرّه وتدفعه كوكبة من الخدم والحشم. شيئا فشيئا يتبين أنه عمود طوله أربعة أو خمسة أمتار مطلي ذهباً كأنه ذراع مرفوع بقبضة مفتوحة وفي راحتها مجسم الكرة الأرضية.

يصل حشد الخدم بالعمود الذهبي سط ساحة خضراء ستقام عليها مباراة رياضة يسمونها كرة القدم فتطلق فجأة الشماريخ ويرتفع إلى عنان السماء دويّ جمهور صاخب جذلان وسعيد.

هم يخرجونه كل أربع سنوات في مواكب مثل هذه يضعونه وسط ساحة كهذه لتبدأ أكبر الحفلات التي يعرفها البشر.

يُسحب الصنم بعيدا إذ لا يجوز ابقاؤه تحت أنظار قد تتعود وتملّ رؤيته فأولى خصائص المقدّس التواري بعيدا عن الأنظار ليبقى محفوقا بالغرابة والسرّ.

ينتصب أحد النظارة واقفا. ينحني مرة تلو الأخرى في اتجاه العمود الذهبي والذراعان إلى الأمام في وضع لن تشهده إلا إبان التعبد. بداهة ثمة تحت طبقة معطيات السمع والبصر عن حفل رياضي طبقة أعمق من الرسائل والمعاني.

إلى من تتوجه صلاة المنفرج وأهازيج الجمهور؟ إلى هذا الصنم الذي يتشارك في حبه جل سكان الأرض على اختلاف معتقداتهم ومشاريهم: الرب "كاسلعالم". ثمة إذن داخل فرح الأدميين بالتواجد جنباً لجنباً لا وجهاً لوجه، فرح آخر بأن هذا المخفي دوماً عن الأنظار موجود فعلاً بل يسعنا تأمل شكل له لا يهم أنه شكل من وحي تعطشنا لأي شكل يتخذه المقدس.

كم تغيرت أنواع الطعام وطرق طبخها عبر العصور! لكن حاجة الأكل بقيت وستبقى ثابتة واحدة عند كل البشر. كذلك الأمر مع الحاجة الدينية. هي ثابتة عبر العصور، وحدها مظاهرها التي تتغير. كم عبد البشر من أوثان قادت من الحجر، من الشجر أو من أجمل الصور وأروع الأفكار وكم سيعبدون! أه لو قيض لي رؤية آلهة وكهنة وطقوس ديانات العشرة آلاف سنة المقبلة!

تتواصل الطقوس والمؤمنون يتابعون الآن بشوق صراعا لا يراق فيه الدم وإنما العرق بين فريقين أحدهما بثوب برتقالي والثاني بثوب أزرق ابيض.

فجأة يتعالى صراخ الجذل وقد استطاع ممثلونا على ساحة الملعب تسجيل هذه الأهداف التي نشقى لتسجيلها في صراعنا مع عالم نادرا ما نصيب شباكه.

نعم، ظاهريا نحن في ملعب كرة قدم وفي الحقيقة نحن في حفل ديني مكتمل الصفات في معبد نحتمي فيه بأننا ما زلنا أحياء وبخير على الأقل في هذا الفاصل بين معركتين من أجل البقاء .

وفي هذا العالم أو قل في حالته المباركة هذه تتعالى من حناجر الجماهير الهتافات: السلام، السلام. ألتفت إلى رجل يمشي حذوي يجاهد حتى لا يدوس على قدمي أو يضع علمه الخفاق في وجهي. أرددش معه وأنا في قمة الحماس والجذل، أليس يوما رائعا؟ حتى الطقس يريد السلام. هل تتصور أنها أول مظاهرة في التاريخ تشارك فيها كل شعوب العالم وحتى التي ستشهر الحرب باسمها. يضحك الرجل: العولمة كما نريدها نحن وكما لم يتوقعوها. لكن عن أي فرح نتحدث والحرب ستقع حتما. ثمة الفرحة بأننا أكثر مما نتصور وأننا كلنا متضامنون متحدون ضد نوبة الدمار المقبلة... قد نستبق الأحداث نتصور فرحنا يوم تنتهي هذه الحرب الملعونة نخرج للشوارع للاحتفال بنهايتها ويخرج الأغبياء للاحتفال بالنصر.

وفي هذا العالم أو قل وهو في حالته المباركة هذه لم يعد لنا حاجة للأبطال المزعومين وساحة المعركة تتحول من عرض المسرحيات التراجيدية الى عرض مسرحية كوميدية والبطل هذه المرة ...الدجاج المحمّر.

يتواجه الجيشان لمجزرة أخرى كانت تثير فينا موجة من الرعب لفظاعتها ومن التناؤب لتكرارها الممل. مهلا، ثمة شيء جديد في السيناريو المقرف. للتذكير أن طقوس المعركة في تلك العصور كانت تبدأ بمبارزة بين أشرس مقاتل من كل فريق كنوع من مقبلات شهية القتل. من سيأمره الخليفة بالخروج هذه المرة إلى فارس العدو؟ من؟ المهزج الرسمي! الذي يرافقه في حلّه وترحاله. ربما قرّر الأمر ليبعث برسالة احتقار إلى العدو، أو ليضحك من مُضحكه، أو لأنه فهم أن الرجل كان دوما يسخر منه ومن بطانته وقد اكتشف أنهم هم المهزجون... أو كقرار غيبي من جملة القرارات الغبية الأخرى التي يتخذها باستمرار. يستعطف أبو دلامة مولاه مذكرا إياه أنه لم يركب طوال حياته إلا الحمير ولم يمسك إلا بسكاكين المطبخ للتجبر على دجاجة ميتة.

عنا. آخر استعطف: بما أنه قدّر لي الموت اليوم، فهل لي أن أموت شعبانا، أيأمر لي أمير المؤمنين بدجاجة محمّرة ورغيفين؟ يضحك الخليفة مستحسنا الدعابة ومثمنا في قرارة نفسه قيام المهزج إلى آخر لحظة بالواجب الذي خلق من أجله. يأمر الخدم بالمطلوب والجند برمي الرجل فوق صهوة الحصان ودفعه إلى ساحة "الوغي".

من الطرف الآخر للساحة وفي حركة مسرحية مدروسة، يستلّ فارس التحدي سيفه ويهمز حصانه صارخا بشعار أبله ما. داخل دماغه الناشف حسابات سريعة عن كمية الغيرة التي سيثيرها وراءه وكمية الرعب التي سيثيرها أمامه. ثم يداهمه العجب وهو يرى، لا يكاد يصدّق عينيه، حصان خصمه يتقدم نحوه خطوة خطوة وراكبه شاهراً... دجاجة محمّرة.

المشهد: الرجلان، كلٌّ على صهوة جواده، كتفا لكتف، يتبادلان هذا الحوار أو شينا يشبهه: أبو دلامة: أتعرفني؟

الفارس المغوار: لم يحصل لي الشرف.

- هل ثمة ثارات قديمة بين أجدادي وأجدادك لم تُصفت بعد؟

- لا والله.

-هل هتكتك لك عرضاً؟

-لا والله.

- هل قتلتك لك أبا أو أما؟

- لا والله.

- هل ظلمتُك يوماً؟

- لا والله.

- هل سرقثُ منك شيئا؟

- لا والله.

- هل جاءك واش بكلام قبيح يدّعي أنني قاتته فيك؟

- لا والله.

ومع هذا تريد قتلي! يا رجل العن الشيطان، مؤكّد أنك تتماوت جوعا مثلي، اتركني أعزمك على الغداء، أبشر، الدجاجة لا تزال ساخنة وكذلك الخبز. ينفجر الفارس المغوار بالضحك وكذلك الجيشان والناس يتفرّجون في رجلين خرجا ليقتل أحدهما الآخر فإذا بهما ينهشان معا دجاجة بشهية واضحة ويدردشان كأخوين فرّقت بينهما الحياة وتلاقيا صدفة من جديد.

لله درّ هذا الرجل الذي يسخر من نفسه حين يسخر الأعداء من الآخرين، الذي يفاخر بجبنه حين يفاخر الآخرون بشجاعتهم، وربّ الكعبة، لا أحد أسلم منك يا أبا دلامة جسما وروحا.

وفي هذا العالم أو قل وهو في حالته المباركة هذه تتحول ساحة المعركة في هذا المشهد إلى ساحة لعب بين أخوة لم يعد لأحد قدرة رميهم في أعناق بعضهم البعض. يفتنم جنود حرب عالمية يصفونها بالأولى فرصة عيد الميلاد للخروج دون سلاح إلى الأعداء الغارقين مثلهم في وحل الخنادق الفائضة جرحى وقتلى وفرانا. يرتمي الإخوة الأعداء يحضنون بعضهم بعضا يتبادلون النكت والسجائر وصور الزوجات والأطفال، يأكلون من زاد بعضهم وهم يصتّون سخطهم على أكلٍ لا أشبع منه إلا ضباطهم الارستقراطيون وإصرارهم الغبي على مواصلة المجزرة. يخرج أحدهم من عبّه كرة قدم فيندافع كهول استعادوا طفولتهم لمباراة ستبقى في ذاكرة الأجيال. يتعالى صراخ المرح والضرباث البارعة تسدّد لكرة لا تعرف أين المرمى المهم الجري وراءها ودفعها في كل اتجاه. ينتبه اللاعبون لجنث معركة البارحة. يخلعون قبعاتهم، يشمرون عن سواعدهم لدفن من سقطوا من الجانبين لا يهمهم من يدفن من. يصطفون على جانبي القبر الجماعي لصلاة خاشعة وقد تذكروا أن أباهم الذي في السماوات واحد. ثم يعودون ببقايا فرح تغطي على كثافة الحزن إلى حيث يصرخ ضباط يتوعدونهم بالمحكمة العسكرية وبقوافل الإعدام. وفي الخندقين المتواجهين يضع ضباطهم المجانين المسدسات على صدغ المتحررين من الحقد والغباء لإجبارهم على القتال فينطلق الرصاص من الخناق وكل البنادق مصوّبة نحو النجوم.

في الملف الذي يبلغ فيه الفرح ذروته لا فرق بين لاعب ومتفرّج، يشجعني جاري على رفع صوت بدا له محتشما ومحرّجا. يجب أن أسخن أكثر فليست متعودا على الصراخ في هكذا مواكب. تداهمني سعادة فائقة، لا لمتعة الصراخ وسط هذه الحشود المتدافعة وسط

الطريق، وإنما أيضا لغياب من تعودتُ على وجودهم أمامي بدروعهم الشفافة وخوذاتهم الحديدية وهرواتهم الموجهة.

إنه حفلٌ آخر تتراشق فيه جماهير، ضاحكة بمساحيق ملونة بالأحمر والأصفر والبرتقالي، فلا تعود تُفَرِّق بين رجل وامرأة، بين فقير وغني، بين نبيل و"وضيع". بدهة ثمة في العملية سخريّة من الحرب والناسُ يرمون بعضهم بعضا لا بالرصاص والغازات السامة وإنما بمساحيق تحاكي ألوان الشمس والورد. فيها أيضا إرادة ردم الفوارق التي تتسم حياة الأدميين وهم أخيرا سواسية صُنِغت وجوههم وثيابهم نفسُ الألوان وانتشت أرواحهم أخيرا بنفس فرحة الحياة.

إنها نفس الجماهير الجذلي وإن بأزياء مختلفة وبطبول تفرع أنغاما مختلفة تذرّع شوارع أماكن اسمها ريو، نيس، فينيسيا، نيو اورلينز، نوتينج هيل، اورورو، تريف، كيبك، بازل، ساو فنسنت... والقاسم المشترك نوبة تتكرر سنة بعد سنة من الفرح الجماعي.

لا زال الفرح سيد الموقف كل ما يتغير طرق التعبير عنه.

في هذا العالم أو قل طيلة حالته المباركة هذه، يتربّع الفنان الموهوب على كرسيه المتحرك كملك على عرشه، ثم يبدا العزف على الأكورديون ينحني ملك الزولو بمنزره الأحمر وطافية جلد الفهد على رأسه أمام الأميرة النمساوية: سيدتي هل تراقصيني فاقبل بامتنان. يضع يده على كتفها ويده الأخرى على خصرها ليدورا على أنغام "فالس" الدانوب الأزرق الجميل. تتقدم إلى الحلبة الراقصة الهندية فيحيط بخصرها الراقص الإسباني يضرب بكعب رجليه خشب الركح. تتقدم الراقصة البالينية لتنتهي على الأنغام. تفرع الطبول الإفريقية تدعو من نسي سحر الطبول إلى تذكّر الليالي الأولى فيندافع إلى الساحة أباطرة الصين وأميرات اليمن السعيد للرقص إلى قيام الساعة.

في فضاء خيالي تواصل المديعة الجميلة ذات الشعر الأشيب قراءة النشرة بصوت لا أجمل منه إلا خرير ماء السواقي: من مراسلنا في مقديشو أن الأشجار ما زالت تزهر وتثمر رغم القصف الغبي الذي يحدثكم عنه زميلي تلفزيون النصف الفارغ من الكأس. كما علمنا من كل المصادر الموثوق بها أن ملايين الأطفال وُلدوا هذه السنة بصحة جيدة، أن آباءهم في منتهى السعادة لوصولهم، أنهم يحفونهم بكل ما يقدر عليه الأدميون من حب ومن عطف.

بخصوص حالة السير، فإن أغلب السيارات لم تتعرض لأي حادث طريق، كما وصلت كل الطائرات في الوقت سالمة وكانت السفره داخلها ممتعة والمضيفات على قدر كبير من كياسة طبيعية ولفظ غير مصطنع، وكذلك القطارات، وبخصوص هذه الأخيرة أفادنا مراسلنا من العاصمة أن كل قطارات الصباح خرجت قبل الوقت المعلن عنه بساعة، وبالطبع خرجت فارغة من المسافرين. هذا ما أحدث اضطرابا كبيرا في حركة السير عموما وهرجا كبيرا داخل المحطات. وبتقصّي الموضوع صرّح لنا سواق القاطرات أن الأمر لم يعد قابلا للاحتمال، فكل القطارات دخلت في روتين الرحيل في الوقت والوصول

في الوقت بعد أن انتهى روتين الوصول بعد الوقت. وبما أننا في أول يوم من شهر أبريل فإن النقابة قرّرت إلخ... وعند إعلان مكبرات الصوت للسبب ضحك المسافرين وافترشوا الأرض وفتحوا علب الساندويش وترموس القهوة وألغى كل واحد مواعيده وأصبحت المحطة ساحة استراحة وتبادل الأخبار والنكت، ولما عادت القطارات الهاربة رَفَع المسافرين السواق على الأكتاف. أما بخصوص حالة الطقس فإن العالم لم يشهد زلزالا أو طوفانا. وفي العموم فإن قوى التعافي تعمل بنشاط لتعديل أي خلل حاصل هنا وهناك. والآن نمزّ للبرنامج العلمي وما تمخضت عنه العبقرية البشرية من اختراعات تليها حصة الشعراء الشبان.

وفي هذا العالم أو قل في حالته المباركة هذه تنهار في فضاء الخيال جدران كل الكنائس والمعابد والجوامع وقد فهم المؤمنون ان ادعاء احتواء المقدس في كيانات من الصخر، من الطقوس والمعتقدات مثل ادعاء احتواء المحيط في قارورة ثم التقاتل لمعرفة اي القوارير أحقّ بملكية المحيط. ها قد تشققت جدران كل الاديرة فرغت من رهبان وراهبات توشحوا بالأسود او بالأصفر فهموا أخيرا انه لا جدوى لمحاولة الهروب من العالم وهو يلاحقهم بكل ما فيه من جمال، ومن قبح من خير ومن شر داخل زناناتهم *خلت في الفقر أنى اصبحت وحدي / فاذا الناس كلهم في ثيابي (ابيليا ابو ماضي)* هم فهموا انه لا معنى للانزعال في ركن من باخرة تواجه أشرس العواصف وعلى شك الغرق في اي لحظة وتصوّر ان هذا سبيل نجاة النفس والآخرين. هم فهموا ان ادارة الظهر لمآسي الانسان بحثا عن الخلاص الفردي في هذه الدنيا او في الاخرة فرار الجبناء من المسؤولية أما الشجاعة فهي في الانخراط إلى آخر لحظة في آلام وآمال البشر.

بينما الشمس تتوارى بجلالها المعهود وراء الأفق، يفاجئني العالم بأخر هدايا اليوم كأنه حلا للنفنان الأعظم الذي علّم الرسم موني وببيسارو ووقوان إعادة تلوين السحب. ها هو يضع بريشته على أطراف رماديهما الكتيب لمساة جد خفيفة من الأصفر الوضاء متابعا بخيط جدّ دقيق من نقط النور تعرّج حواشيها. ثم كأنني به يغيّر موضع فرشاة الرسم والنور يتوغّل داخل السحاب قاضما المزيد فالمزيد من الرمادي العبوس. تكتمل اللوحة وقد أضرمت اليد الخفية أجمل الحرائق في السماء التي رفعت فوق الأرض بلا عمد. أي حاجة للركض من أقاصي الغرب إلى أقاصي الشرق ومن اقاصي الجنوب لأقاصي الشمال ومثل هذه الروعة موجودة في كل مكان. ها أنا أترنم بكلمات أغنية غناها أقبح -أجمل صوت لأكرم فنان .

” أشجار مزهرة

زرقة السماء .

ألوان قوس قزح
صراخ الأطفال
أصدقاء يصافحون بعضهم
قلت في نفسي

What a wonderful world !

أجمل بركات هذه الحالة التي يمر بها العالم دوريا أنه لا أحد يدين أحدا والله نفسه لم يعد
يعبأ بخطأ أو خطيئة.

شاهدت بحانة شيخا ثملا (عمر الخيام)

قد غطّ لنومه بلا إحساس
أصغيت له يقول في سكرته
الله لطيف بجميع الناس
ما أروع كل هذه الحالات التي نكتشف فيها نعم الوجود ، هذه النعم التي لا تستمد قيمتها
إلا من ندرتها وبالمقارنة مع نعيش أغلب الوقت من محن وامتحانات !

نعم كما يقول الشاعر

“ثمّة شيء محبّب (شيكي)

في هذا العالم

الذي جنّاه للموت”

جنّاه للموت فقط ...أم للمهمة الغامضة التي لا نستريح من أهوالها في واحات الروح
والجسد إلا لنعود لطريق المسامير والشوك نجري وراء هدف غير محدّد؟

من يستطيع غير "هو" أن يقول لنا ما هذا الذي أوعز لنا بالخروج من الجنة بحثا عنه ؟

”تقدّموا (شيلّر)

تسارعوا

هناك حيث يوجد أبونا الذي في السماوات

أسلموا أرواحكم إلى غامر الفرح

وأنتم، اركعوا أمام الأب المقدّس

ابحثوا عنه بعيدا وراء القبة السماوية.

ابحثوا عنه . ابحثوا عنه ...ابحثوا عنه، ابحثوا عنه”

**

وقال لهم الصدى لا تبحثوا عني في مكان "إني بين ضلوعكم تقلبني الأنفاس جنباً إلى جنب" 3

للبحث عنه شدّ قدماء المصريين الرحال إلى أبيدوس وقدام الإغريق إلى دلفت وقدام البريطانيين إلى ستونهانج-درنتون وقيلهم شدّ الأوائل الرحال إلى كم من غابة وغار وبركان وهضبة مربعة وسط صحراء بلون الدم.

هم يشدّون في عصرنا هذا الرحال إلى مدن اسمها شافين، كوياسان، كوباكابانا، بيت لحم، روما، فاطيما، سانميشال، طوس، هاردوار، ارميستار، بنارس، أماراناط، لاهاسا، شيكوطو، بوروبودور، القدس، سان جاك.

بحثا عنه يشدّ بنو قومي الرحال منذ قرون إلى مكان اسمه أم القرى.

على فراش المرض الذي سيرحل بها تنتهد "ما":

- كم أنا سعيدة أنك... ظفرت بما كنتُ أتمناه لك دوماً.

لي فقط؟ كان الحجاجُ خلمها طوال حياتها... الحلم الذي رفضت التوح به حياةً من أن يُعتبر طلباً وتكليفاً... كم ردّدتُ لنفسِي أنا جدُّ مشغولٍ هذه السنة سأخذها إلى الحج السنة المقبلة. نعم، السنة التي تليها فما زال أماننا متسع من الوقت، هكذا من إرجاء إلى آخر إلى أن...

- السنة المقبلة. كلمة رجال هذه المرّة.

- فات الأوان يا بنيّ، فات الأوان.

- أي أوان هذا الذي فات؟

- نعم. نعم يا بني لم يفت أي أوان.

كيف أهون عليها والسرطان ينهش جسدها وعليّ والشعور بالذنب ينهش روحي.

تفهم "ما" كعادتها دون حاجة لشرح مطول ما الذي يختلج في صدري.

- هون عليك يا بني... تلك إرادة الله... ما أريده أن تروي لي أخيراً كل تفاصيل حجّك...

لست مستعجلاً، أليس كذلك؟

نعم، لست مستعجلاً هذه المرّة.

- قيل لي في الهاتف ودون مقدمات: تمّ اختيارك لتشرف على البعثة الطبية المرافقة لحجاج هذه السنة. الموعد غدا فجرًا في المطار. تدبّر أمرك. لا تحتجّ ولا تلعن. تعرّف الإدارة وكيفية عملها. على كل حال هذه فرصة يتقاتل عليها غيرك في الكواليس.

موكّد أنني سأعوّض زميلاً تدخل له كل كبار القوم ليكون هو على رأس البعثة وأصابته والحمد لله مصيبة طارئة فتحت لي باب فرصة لا تعوّض. اللهم إلا إذا عيّوني للمهمّة

لأنتسك فلا أرجع لمواصلة تنغيص عيشهم، أو أملا أن تسقط بي الطائرة فوق الصحراء فيرتاحوا مني نهائيا.

- بعد الشرّ عن كبدي، والآن أصدقني القول، لماذا تفاديت دوما أسئلتني عن حَجّك ولم تقم بمراسم التبريك عند الرجوع؟ خجلان أن ينادوك حاجا وما زلت شابا؟ حدثني عن كل تفاصيل السفر المباركة من بدايتها إلى نهايتها.

أصف ما حدث أم أنا فأنفق أنا أيضا؟

فيما نسميه الواقع يبدأ الرحيل بالوقوف ساعات مضية في طابور تسوده الفوضى لإجراءات البوليس وتسجيل حقائب ملأنة بالثياب وبما أعدته زوجة كأنها تخشى عليّ من الموت جوعا. يواصل الشيطان المكلف بالسخرية من بأحلامي العبث بأحلامي بحشري في طائرة مكتظة بل وفي مقعد الوسط بين بدينة بشعة وشيخ أسمن منها.

عند وصول بوابة الأراضي المقدسة التفتيش من قبل شرطيّ عابس يبحث في جيوبي وفي حقيبتي عن الكتب الممنوعة، ثم التدافع الشرس داخل الحافلة المكتظة المتوجهة إلى أولى مدينتي الحج.

أي حلّ غير الاستجارة بفضاء الخيال لتناسي الضجيج والحرّ وروائح البنزين والعرق؟ كم حلمت بهذا المرحلة من الرحلة... خُطاي في خُطى أجداد كان حجهم إلى الأراضي المقدسة مغامرة العمر... السفر على ظهر ناقّة بيضاء غلقت في عنقها الأجراس والتمائم... النوم بالنهار والسعي ليلا تحت القبة المرصّعة بالنجوم... المسبحة في يدي اليسرى وسلاحي في يدي اليمنى لمواجهة الأخطار الكامنة في كل منعرج...

فجأة يدوي زعيق الفرامل وصراخ الركّاب:

- حقيبة سقطت من سقف الحافلة!

يتوجّه إليّ السائق بلطف: آسف، يا سيّدي إنها حقيبتك. لماذا أصررت أن توضع هي الأخيرة فوق كل الكومة؟ أرجو أنها لم تتفجر وأن أغراضك لم تتبعثر.

صحيح أنني أمرته بذلك وكنت في ذروة افتعال الأثرة وتجيل الآخرين. بعد البدين والفوضى والبوليس والتفتيش المهين، جاء الدور على حقيبتي. أيعقل أن تصبح أقدس سفرة حلمت بها سنين هذه المهزلة؟ من هذا الذي يسخر مني منذ بداية السفر؟ إن كنت غير مرغوب فيه في هذه الديار فليكن. سأقفل رجعا. لم أكن يوما ضيفا ثقيلًا على بشر أو إله. أحاول وصف المشهد أو تمثيله ل "ما" لتتخيل كيف نزلت من الحافلة متوجها إلى حقيبة رابضة تنتظرني على الاسفلت، كيف رميتها بالحجارة من بعيد فإذا بها تقفز في اتجاهي تحاول عضي مما جعلني أهول نحو الحافلة لأحتمي بها والحقيبة اللعينة تركض وراني والقمر يقهقه ويحرّض.

تضع "ما" يدها أمام فمها تمنع تفجّر الضحك. ترفع رأسها بصعوبة عن المخدة تحدّق في مطولا.

- يا بني أية أهمية لما نعاني على الطريق... المهمّ أنك وصلت بيت الله سالما.

- الطريق بالنسبة الى أمثالي أهم من... لنفُّل إن للطريق أهمية كبيرة.
في طقوس قومي أنت لا تذهب مباشرة لموعدك مع سرّ الأسرار. يجب أن تمرّ قبل ذلك
للسلام على من أشرّ لأقصر الطرق المؤدية إليه.
أخيرا صراخ سائق الحافلة: يا الله، كلّم على بزة بهدوء، لا تتدافعا لا تمشوا على رؤوس
بعضكم البعض.

حال وصول المدينة التي توصف بالمنورة آخر ساعات الليل رميثّ بالحقيبة اللعينة على
فراش النزل. هرعت إلى المسجد أترنّح من التعب وبي أملّ ساذج أن أكون أول الداخلين،
فإذا بي أخزهم.

زحمة مخيفة. تدافع فظّ غليظ لا يتحول عنفا جسديا إلا لحرمة المكان.
حملني تيار الأمواج الأدمية إلى قبر المصطفى حيث تشرّب المهج والعيون.
فجأة وأنا أخيرا على مقربة منه، رنّ أبغض صوت تسمعه أذن. السوط! الشيء المخصص
لحثّ الحيوانات على الطاعة وعقاب الأدميين بأكثر العقوبات إذلالا.
ربما لا وسيلة غيره للوقوف في وجه جشع وحمق الأدميين.

لا شكّ أنهم كانوا دون هذا السوط سيسرقون أحجار القبور الثلاثة وما بداخلها من رميم،
لا يتركون حجرة أو عظاما لبيّنوا حولها في أراضيهم قبابا وزوايا يضعون داخلها ما نهبوا
للإبهار واستغلال إيمان البسطاء. كم من سوابق في كل الديانات!
ألم تكن أكبر تجارة في العصور الوسطى في بلدان الغرب العلماني تجارة العظام المزيفة
للقدسين والمسامير المزيفة لصليب المسيح.

بقية الأحداث التي كانت "ما" تستعجل تفاصيلها والتفاصيل داخل التفاصيل.
حاذرت للبقاء بعيدا عن السوط. جاهدت للاقتراب ما أمكنتني من مثنوى هذا الذي كانت
"ما" تهمس باسمه عندما يأخذ العالم بخناقها تنادي من تؤمن أنه الشفيع الذي لا تُردّ له
شفاعة... هذا الذي تسمى باسمه الملايين عبر العصور. النبي الذي تقدّست معه الكتابة،
الذي أقطعنا لغة الضاد وطنا.

يصرخ فيّ أحدهم: تحرّك يا أخي أنا أيضا أريد إلقاء نظرة على قبر سيدنا. يدفعني آخر
بمنتهى الغلظة: تقدم مالك؟

لست بذاهل وإنما في حالة من صفاء الذهن والذاكرة داهمني كل التهيب، كل الخشوع،
كل الحبّ الذي يفيض من قلوب الجماهير المتدافعة لهذا النبي الذي قال إنه لم يأت ليعلمنا
العبادات والطقوس وإنما ليتمم مكارم الأخلاق.

أجيل البصر مطوّلا بين مثنوا الأخير ومثنوى الصديق الراقد جنبه، وعلى جنبه الآخر يرقد
الفاروق، الرجل الغضوب، الحازم، العادل الجريء.

يا لهؤلاء الموتى، يعلمون الحشود وهم صامتون، يحزّكون الجحافل لا حراك بهم، يُطاعون
ولا أمر يصرخون به.

تهمس "ما" بصوت متزايد الضعف.

- عد إليّ...-

- تواصلت المهزلة بل كادت تتحول إلى فضيحة لو لم يقرّر الساخر المجهول أنني عوقبت بما فيه الكفاية على ذنوبي التي لا يعرفها إلا هو والبوليس السياسي.
قالوا وقد حان وقت الصلاة في مستوصف البعثة: تقدّم لتؤمنا. كيف أعترف لهؤلاء الناس، وفي مثل هذا المكان، أنني انهمكت في الإعداد المادي للبعثة ولم أعد إلى تعلّم طقوس نسيث قواعدها منذ زمان بعيد، لا علم لي بعدد الركعات ومتى يجب الوقوف والسجود وماذا يُرثَل في الأثناء. كان حقًا موقفًا محرجًا للغاية. النجدة يا كلّ من يهّمه أمري!
تتسع ربع ابتساماة "ما" وتعود لها بعض من حيويّتها.

- لا تقل إنك لم تجد مخرجًا وبراعتك في دخول الورطات براعتك في الخروج منها.
- من استجاب لندائي؟ "الغوث"، "المحجوب" مدعوما ب "سيدي محرز" وكل ما في هذه البلاد من أولياء صالحين... بركتك أنت؟ المهم أن ربنا سترني ذلك اليوم من فضيحة مدويّة. كنت أفكر بمنتهى السرعة في حلّ اتضح لي فجأة وأنا أنتبه إلى ممرّض يكسو الشيب شعره. علمت أنني سأخرج من الورطة بل وسأكسب منها حليفًا متينًا. تتحنّث بوقار ثم توجّهت إلى مساعديّ قائلًا: لا فضل هنا لطبيب على ممرّض إلا بالتقوى ثم من شيمنا تبجيل أكبرنا سنًا، فليتقدّم فلان يؤمّ بنا هو الصلاة.
لا تقوى "ما" على التماسك فتتفجر ضاحكة. ثم تستعيد وقارها.

- يا بني، عيب أن تذهب ل. دون أن...
- إنها غلطة "با" لمّا فرض عليّ الصلاة وأنا في السادسة أو السابعة. لم أدخل من الجوامع إلا ما جرّني إليها بالقوة أيام الجمعة والأعياد. كنت أنتظر أن يسجد لأخرج له لساني. كان يتمم بالآيات وأتمم بالمحفوظات. اختبار قوةٍ آخر بين طاغية يأمر وينهى لا يكلف نفسه عناء تفسير الأسباب الأمر والنهي، وبين متمرّد بالسليقة لا يزيده التجبّر إلا عنادا على عناد. ولمّا ابتلعه المجهول من جديد فسخت كل الطقوس من ذاكرتي رفضا له لا رفضا للطقوس. تصمت المرأة المحتضرة وهي الآن طفلة تخاف أن يحرمها هجوم النوم الأبدى من سماع بقية قصة مشوّقة يرويها لها ابن عاد من أغرب رحلة كم كانت تودّ أنها رافقته فيها.
- أريد تفاصيل دخولك بيت الله، لا تخش إطالّة ولا تنس حادثة.

من أين لي الكلمات لأصف ما لا يفي بحقه أو يستنفده وصف؟

تعود "ما" لهمس متقطع:

- حدّثني... حدّثني عنها....

- أكثر من مرة حاولت الاقتراب منها. لم أبصرها إلا من آخر الصفوف وظهري للباب من شدّة الاكتظاظ... ومع هذا يا له مشهد يا أماه ليس كمثله مشهد في كامل عالم الأدميين.

مشهد بحر، أمواجه الخرق البيضاء لعشرات الألاف من الرجال والنساء تطفو عليها أخشاب الشيوخ والمرضى طافية والمرفأ مكعب أسود تحاصره وتدور حوله هذا الأمواج لا تتوقف لحظة... لا غرابة والدائرة أكمل شكل هندسي... طواف البشر حول بيت ربهم

كطواف الكواكب حول الشمس، كطواف القمر حول الأرض، كطواف الشوارد حول نواة الذرة... من المخرج العبقري الذي وضع لوحة بمثل هذا الجمال والجلال؟

هذا عالم تناظري لا يوجد فيه شيء إلا ووجد النقيض، أصف الوجه الآخر للعالم أم التزم الصمت الحذر؟

أخيرا الساحة التي تتدافع إليها الجحافل ووسطها عمود حجري يرميه الناس بالحجارة وحتى بأحذيتهم والكل يصرخ ويسب الشيطان الرجيم الذي يرمز إليه النصب. لم لا أنخرط في الطقس وأنا أمام أقدم وسائل علاج الذات مما يلحق بها من امراض نتيجة طول الاحتكاك ببشر أجزم أنهم هم من علموا الشيطان مهنته. يستيقظ الطفل النائم دوما بعين واحدة داخلي. يأخذ في الصراخ لاعنا هذا الذي تستعيز منه "ما" طول الوقت.

لكن المراهق النائم بالعين الأخرى على مزاج جدّ مختلف. كيف لا يتعاطف مع الشيطان وهو يكتشف يوما أنّ المسكين طوّل بالشيء وبعكسه، وكأنّ بممتحنه نيّة مسبقة لإسقاطه في الامتحان أيا كانت الإجابة عن السؤال. تصوّر ورطة المسكين فلو عصى أمر الله بالسجود لأدم لأذنب لأنه لا يُعصى الله أمر ولو أطاعه ساجدا لغيره لكان الذنب أعظم!

ماذا الآن عن تحميل المظلوم الأكبر مسؤولية الشرّ الموجود في البشر! لو أراد إله هؤلاء الحمقى الخير لهم حقًا لما سمح لموظّف عنده أن يغويهم؟ ثم أليس صحيحا أنه لو لم يكونوا قابلين للإغواء لما ينغلقون عليه من حبّ الشرّ لما أغواهم غاؤ!

تتوجّه أفكار المراهق الساخر للكهل المتزايد حرّجا: من تلعنّ أوّل معارض وقف في وجه أوّل قوّة في الوجود ليصدع مرفوع الرأس: لسنتُ أداة أو بوقا؟ أليس هو جدّ كل الثوار الذين تدّعي أنك واحد منهم؟

ثمّة أكثر من آدمي توصل لنفس الاستنتاج وإن بطريقة ولأسباب مختلفة.

"رباه لو أن في طول انتظار غد جدوى لما أسمعتك الريح شكوانا (السياب)

وما كان حتما علينا أن يعذبنا طاغ وأن يشهد الرحمان بلوانا

النار أشهى فهاتِ النارِ تصهرنا يوم الحساب ومّتعنا بدينانا

إن كان لا يدخل الجنات داخلها إلا شقيا على الأولى وغرثانا

وكان أمرك أن ترضى بما صنعوا فاحفظ عبيدك فالشيطان مولانا"

يرفع الطفل عقيرته بالاحتجاج: ما هذا الكفر؟ لماذا تلعنه "ما" لو كان بريئا. إنه الوسواس الخناس هذا ما علّمني سيدي الشيخ وما كتبتّه على لوح في الكتاب.

يرفض المراهق الدخول في جدل مع طفل ساذج. لكن ما رأي الكهل؟

كل ما أستطيعه في هذا الموضوع من النص مصارحة الأدميين بالحقيقية التي يحاولون تجاهلها. يا أيها الناس، لي ولكم أطيب خبر سمعتموه: الملائكة التي وضعت فيها كل الحسنات مفهوم مشخّص يرمز إلى الخير الذي في طبيعتكم وهذا الخير متجدّر فيكم، أزلي،

متجدّد، لا يجتثّه عنف أو إفساد... أيها الناس، لي ولكم أسوأ خير سمعتموه: الشيطان الذي وضعت فيه كل الموبقات مفهوم مشخّص يرمز إلى الشر الذي في طبيعتكم وهذا الشرّ متجدّر فيكم، أزلي، متجدد لا يجتثّه فنّ أو علم أو دين.

ألنقثُ حوَالِي وقد داهمني الخوف أن يكون داخل الحشد بعض المخبرين المختصين في قراءة الأفكار. تحسبًا لكل الإمكانيات، أرفع صوتي لأثبت للجميع أنني من أكبر الساخطين على الشيطان الموجود فعلا خارجنا، وأنا لسنا هنا لثتم أنفسنا والتخلّص ممّا بداخل الذات من نجاسات.

لا يلتفت لصراخي أحد وكلُّ مشغولٌ بتصفية حساباته مع كبش الفداء. يفتر حماسي بالسرعة التي برز بها، خاصة وأن التدافع نحو الجسور المؤدية إلى برّ الأمان انطلق وألوية الأولويات الآن لكل شخص الخروج حيًا من الزحمة المرعبة.

كلهم أتوا هنا للفوز بالجنة، لكن لا أحد منهم يريد الموت وهو الطريق الوحيد إليها. ها أنا أجرب المشي لأول مرة في حياتي بأقدام غيري وعضلات صدري تدفع بما تقدر عليه من قوة الأجسام الضاغطة على جسدي بحثًا عن نفس قد يكون الأخير؟! تأتيني خشية مبهمة أن أضيع في هذا العجين، أن يصل الضغط إلى درجة تجعلني ملتصقا إلى الأبد بالظهور والبطون والأرداف، أو أن أخرج من هذا الكابوس في أحسن الأحوال وقد بقي ذراعي الأيمن ملتحما بصدر ذلك الأسود الفارع الطول أو أن يحمل الملتصق بي على يساري ساقى اليسرى معه إلى جاوا.

وفي مثل هذه الظروف ترى الوجه الخفيّ المرعب للأدميين وهو الذي يحاولون عبثا إخفائه تحت "مكياج" اسمه الحضارة. عادة يخاطبونك بأدب، يسارعون إلى ألقابك يرضون بها غرورك إن كان لك ألقاب. يفتحون لك الباب بانحناء رشيقة حتى إن لم تكن أنثى يشتهونها. ينهضون بتأدب جمّ تاركين لأول عجوز مكانهم في الحافلة. يعتذرون لك مبسّمين إذا داسوا على قدمك خطأ.

مجرد تصنّع. تكتشف طبيعتهم الحقيقية عند التهاب النار في مكان مغلق، أو لحظة غرق الباخرة. آنذاك ترى لهم عيونا متجهّمة وسحنا مخيفة، وأرجلا مستعدة للمشي فوق خذك لو جاءتك الفكرة السيئة بالسقوط على الأرض مغشيا عليك.

إنها الآن نفس وضعية الباخرة التي بصدد الغرق والمحلّ التجاري المغلق الذي اندلعت فيه النيران من كل مكان. هل هي نهايتي أنا أيضا وأنفاس عزرائيل الحارقة على عنقي؟ أيّ مكان هذا تجمّع فيه الله وإبليس وعزرائيل في آن واحد؟ على كل حال أليس المشهد أحسن تلخيص لرحلتنا في عالم نتدافع فيه حيوانات مرعوبة والويل لمن يسقط تحت الأقدام.

مشكلتي الأخرى المريضة التي فشلت في اقناعها بتأدية أخطر طقوس الحجّ والتي أحاول حمايتها بما أقدر عليه.

تنهار المرأة البيدنة أمامي مغشيا عليها بين أقدام-بل قل بين حوافر-قطعان بشرية لا هدف لها غير البقاء على قيد الحياة ولو بموت كل من يقف في طريق النجاة.

ثرى ما الذي شعرت به المسكينة هي سجينة غابة شاهقة من الأرجل تجاهد عبثاً لاستعادة الفضاء وكلّ الروائع التي أصبحت وراء باب أغلق إلى الأبد؟
كيف يمكن تصوّر التجربة التي عاشها كلّ من زلت به القدم تلك الليلة، وهو يختنق ويسحق تحت ثقل الحشود المتدافعة فوق جسده؟
من أين للغة مصطلحات الوصف والتعليق على ما هو وراء الرعب، ووراء الألم ووراء الهوس؟

ترنّ صرخة استغاثتها إلى اليوم في أذني وهي تغرق في بحر الأجساد المتلاطمة، لا يظهر منها إلا ذراع يخبط الهواء كأنها تلوح بالوداع لعالم غير مكثرث.
كوابيس الليلة أشلاء ممزقة وأطراف دامية تتطاير وأقدام ترفس العنب ووجه شيطان ضاحك لبس حول عنقه قلادة دموية من أمعاء وبحر من اللبن تطفو على سطحه امرأة بدينة تصرخ: أنفدوني فأسارع إلى نجدتها ليقول لي اللعين: الزم مكانك وإلا الدور عليك كلّمك اليوم صيدي.

تضع "ما" يدها على كتفي وأنا جالس على الأرض ورأسي على حافة السرير.
- هون عليك يا طفلي الحبيب، لماذا تعدّب نفسك دوماً؟ لست مسؤولاً عن موت هذه المرأة. تنظر إليّ مطوّلاً وفي عينيها مرح خفيف. إنها هي التي تحاول المزح لتخرجني من حزن داهم تقرأه في كل ملامحي.

- ثم هل هذا وقت الحديث عن موت العجائز! واصل، قل كيف هو الحجر الأسود؟ هل لثمته؟ ثمة من قال لي إن كل الذين لثموه حجّزوا في حياة سابقة.

لا بدّ أن أختار كلماتي بمنتهى العناية.

- نعم لثمته ثمّ... دخلت... البيت وصلّيت بين جدرانه.

تنتصب فتاحة في سريرها. تفتح فمها على أقصاه كما انتصبت "ما" بنفس الانتباه المندهب وهي على سرير الموت.

تتوقف تقيحه عن الففز على السرير تاركة إيتي تسقط من يديها.

- "با"، ماذا قالت جدّتي لما قلت لها....؟

- لمع في عينيها بريق كالذي في عينيك. قالت: هل يدخل الناس البيت الحرام؟ هذا موضوع لا مجال فيه لمزح.

من عادة العالم أنّه إذا بخلّ تجاوزَ حدودَ البخل، وإذا أكرم لا حدّ عنده للكرم.

تتوقف ذلك الصباح السيارة الدبلوماسية أمام باب المستوصف. فتح السفير بابها هامساً في أذني: هيا اركب ولا تسأل إلى أين؟

باب الحرم. ما الفائدة من الارتطام مجدّداً بنفس بالجدران الأدمية؟ يدفعني مرافقي أمامه لأعبر البوابة الضخمة. مشهد يكاد لا يصدّق. إنها دهشة من يكتشف البحر تبخّر منه ماءه فالساحة المترامية الأطراف التي لا تفرغ أبداً... فارغة باستثناء بعض رجال الشرطة!

- ما الخبر؟

- إنه يومُ غَسَل الكعبة والمك من نفسه من يقوم بالعملية. بهذه المناسبة لا يدخل الحرم إلا نخبة من المدعوين تدبرُ أمرى لتكون بينهم.
يفتح لنا الحرس الطريق بعد التأكد من الهوية والدعوة. دقائق معدودات لأجد نفسي واقفا تحت الستائر السود لا أصدق أنني ألثم الحجر الأسود.
بيادرنا رجل ضخم منتصب على قمة درج قصير ينتهي عند بابٍ نصف مفتوح في أحد جدران البيت الحرام.

- عَجَلًا. بضع دقائق لا أكثر. جلالة الملك خالد في الطريق.
يفغر الطفلُ-المراهقُ-الكهلُ فمه يكاد لا يصدق ما يرى.
في معابد الأدميين الأخرى، يعيرون عن انبهارهم بالمقدس وخشيتهم منه بتشديد أعلى المباني لا يترجعون تزلفاً ومبالغة عن تكديس كل ما يقدرون عليه من الرخام والعاج والذهب. إلا هنا.

لا شيء على الجدران. لا شيء بين الجدران. لا شيء يتدلى من السقف. لا شيء مفروش على الأرض. لا شموع تضيء. لا بخور تخنق الأنفاس. أقصى التجرد. الفراغ. فراغ عين الإحصار. أي رمز أبلغ لما لا قدرة للغة على تسميته، للعلم على فهمه وللفن على تصوّره؟ طبعاً "هو" ليس لا في هذا المكان ولا في أي مكان آخر وإنما وظيفة كل الأمكنة التي نقول إنه فيها تحريك اللاوعي ورفع الانتباه إلى أقصاه لنشعر بحضوره الصامت حولنا وداخلنا... لتحدث المعجزة التي أسميها اللقاء.
تنهار فجأة كل الحواجز كالسّد أمام جارف السيل.

يا جنر وجود كل موجود، الحمد لك والشكر على الشمس، على القمر، على النجوم، على الفجر، على الضحى، على النهار والليل. الحمد لك والشكر على الماء، على الريح، على الرمل، على السحاب، على النار وعلى البرق والرعد. الحمد لك والشكر على الصحراء، على الغابات، على الجبال، على البراري، على البحار، على الأنهار وعلى السهل والوعر. الحمد لك والشكر على الياسمين، على الورد، على العشب، على الزيتون، على النخيل وعلى التين والكرم. الحمد لك والشكر على الموسيقى على الحب. الحمد لك والشكر على هديتي الحياة والموت.

ينسحب المراهق داخل آخر معاقله مزمجراً: الحمد على الجراد، الحمد على البعوض، على السلّ، على الطاعون، على الحساد، على الأعداء، على الأغبياء، على الجذام وعلى قمل العانة.

ثم يصمت جاءه التهيب حتى هو.

يعود الطفل إلى الصراخ: في بيته وبين يديه ولا تطلب منه شيئاً!
خاصية قارة في الأدميين. تراهم، على اختلاف أعمارهم وطقوس إيمانهم، ممدودي الأيدي نحو السماء لأن فيهم بقايا طفولة تعلمت أن هناك خارج الذات قوة محبة تستجيب لكل طلب يُدعم بنوع أو آخر من التملق أو الابتزاز.

كم غريب أن نتعامل مع المنزّه عن الصفات والاسم كما لو كان بخيلاً يُستجدي بسماجة، هو الذي وهبنا عالماً بأسره لنُعبّره سادة لا متسوّلين! كم تشمّمت دوماً في هؤلاء المتسولين وهم يعودون من حصص الاستجداء في كل معابدهم على مختلف أديانهم بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها! كم روضت نفسي لأكون من غير طينتهم أرفض أن أتكفّف بشراً أو إلها الأنفة أمام البشر والحياء أمام الله!

يواصل الطفل صراخه وكأنه لن يغفر للغبي الذي يتعايش معه إفلات فرصة كهذه.

- هل من كبرياء أمامه "هو"! ألم يقل ادعوني أستجب لكم؟

من أحوج إلى الإعانة منّي خاصة هذه الأيام، وفي هذه الظروف؟ تتعالى الصرخة المكتومة استغاثة لا مطلب صدقة.

يا تربة شجرة الوجود، يا جنورها، يا جذعها، يا غصونها، يا كل أوراقها ويا كل ما أثمرت من ثمار، النجدة، إنني يائس إنني يائس، إنني تائه، ماذا أفعل في هذا العالم وما الذي يجب أن أفعله، دُنّي على الطريق.

غريب سرعة استجابة الدعاء. يرفع الحاجب من نبرة همسه الصارخ: يا الله برة، برة، أسرع، وصل جلاله الملك. إنه "هو" لا غير الذي يطردني وكل الفضاء يعقب بامتعاض فيه من المداعبة أكثر مما فيه من السخرية، من العتاب أكثر مما فيه من التقرّيع، ولسان حال الصمت يقول: حتى أنت تستجدينني! حتى أنت لم تفهم!

معذرة يا من أعطى فلم يبخل، يا من وهب فلم يمين، يا من تكرم فلم يتبجح، يا من أغدق عطاباه لا يهّمه حمد أو شكر، يا من أوضح وفسر ويبيّن كل شيء ونحن نصرّ على عدم الفهم.

*

حانت لحظة الوداع. ينفرط العقد ليركض كل واحد في اتجاه.

ماذا لو كانت الوظيفة الحقيقية لكل مكان يحجّ له الأدميون لمّ الشمل دورياً لعائلة تاة أفرادها عن بعضهم البعض لا يحثّون لشيء قدر أن تعيد الأقدار التي فرقتهم جمعهم ولو مرة واحدة في هذه الحياة؟

تتحرك الشرطة بحثاً عن تخلفوا عن الرحيل. لا مشكلة لي في الإسراع بمغادرة الربوع.

فاين غرامي بالبريق ولمعه (ابن عربي)

وليس غرامي بالأماكن والتراب

تستعجل، "ما" بقية أغرب قصة سمعت في حياتها.

-أرجو أن الإياب كان أقلّ تعباً من الذهاب.

نعم كان رجوعاً رائعاً لكن كالعادة في الفضاء الذي أنا سيده الذي لا يعصى له فيه أمر.

أخيراً مدينة السلام للسلام على روح الذي تعلمت منه ما يجب على كل مرتحل تعلّمه... مازة يتغامزون: درويش من أراضي المغرب يبحث بين الرصافة والكرخ عن آثار ذلك الزنديق... هنا أركبوه على البغل... عبر هذا الطريق ساقوه إلى ساحة النبح... هنا جلدوه

ألف سوط وهو يردد: أحد، أحد... هنا قطعوا يده اليمنى ورجله اليسرى... هنا صلبوه العذر الدين والسبب السياسة... هنا انتظروا ودمه ينزف إنَّ الخليفة بضرب عنقه... هنا علقوا رأسه... هنا حرقوا جسده لتلتحق ذاته بالذات القدوس... ورائي في المسجد يهمس في أحد المصلين: يقول لك الشيخ هون عليك حتى لا يقتلك كل هذا الألم ثم يختفي قبل أن أفيق من ذهولي... والآن مباشرة إلى بلادي التي جارت علي وما زلت أفتع نفسي أن فيها ما يستأهل مواصلة حبها... قافلتي محملة بقرب ماء زمزم، بتوابل سرنديب، بحريير الصين، بلبان حضرموت، بعبطور سقطرى وبكل ما جمعت من نفائس المخطوطات... لا بدَّ من البحث عن قطاع الطريق وقد أخطأوا رصد مكان عبور القافلة لأعطيهم مما تنن بحمله الإبل... عند وصول واحة الآباء والأجداد توزيع ما بقي من حمولتها وإطلاق سراحها لتتعم هي الأخرى بالحرية... أنا الآن داعية الشيخين أوصل تعليمهما في كل البلدان... أمامي السلاطين وفقهاء السلاطين في صفوف متراسّة والشرر يتطاير من عيونهم... الفرار! إلى أين والدهماء أخطر سلاح السلاطين الفاسدين في كل مكان؟ الثبات، الثبات لمواصلة رسالتكما وإلا أي جدوى لحياتي!

تلمس "ما" كتفي برفق لأواصل حديثا هو كل ما يشدها الآن للحياة.

- سهوت مرة أخرى. أعد كيف كان الرجوع، أنا متأكدة أنك نسيت بعض التفاصيل المضحكة؟

- آه يا أمها! كانت سنة أجهزة الفيديو الرخيصة خلافا لمواسم الذهب في السنوات السابقة. اغتتموا كلهم فرصة الحج لشرائها لبيوتهم وأيضاً للبيع والتريج. "حجّ وحاجة" مثلما يقولون. كادت الطائرة ألا تقلع بنا لزيادة حمولتها عن المسموح به لسفرة آمنة.

- أنت أيضا يا بني عدت بفيديو.

- أنا! أنا ابن أيفناس عدت بفيديو مثل بقية العامة! وكمشني عون الجمارك الوحيد الذي لا يقبل الرشوة! وخرجت من المطار أزر من الغيظ لأنني الوحيد الذي دفع الغرامة! وكدت أعر في جد أبوه الكلب هذا الفيديو اللعين وأنا أجره مع حقيبة ملانة بالثياب القذرة، ودفعني أحدهم بغلظة ليركب قبلي آخر تاكسي موجود في المطار... من أسمعك هذه الافتراءات؟

- أنت... هل نسيت أيضا الفيلم الذي جنت به خصيصال...!

- تقصدين شخصا يشبهني جاءك ليشوّ سمعتي عند الكائن الوحيد في هذا البلد التعيس الذي لا يصدق افتراءات الناس عليّ؟

لا نجرّب في الحياة أبلغ من تجربة الإجهاش بالبكاء ونحن ننفجر ضحكا أو عندما نقهقه وقد أسدلت الدموع بيننا وبين العالم ستار ضباب سائل.

تسلّط عليّ "ما" نظرة فاحصة وكأنها تتأهب لآخر التعليمات.

- لست بحاجة إلى أن أوصيك بالناس، عدي فقط أن تُصالح والدك.

ثمة الآن في لهجة "ما" أمر صارم بأن أطمئنها لترحل واثقة بأن الحرب التي أرهقتها عقودا وضعت أخيرا أوزارها.

يجب تغيير وجهة الحوار حتى لا تبكي لا هي ولا أنا.
- على فكرة، أتذكّرين يوم عاد من حجّه ليدعو نصف المدينة إلى ولائم المباركة ويعيد طبع أوراق المكتب وحتّى ملقّات القضايا القديمة، واضعا لقبه الجديد أمام اسمٍ كان يدّعي دوما أنه بغير حاجة إلى ألقاب الغرور.

تضع "ما" يدها أمام فمها، من أين لها أن تخفي تفجّر الضحك في عينيها.
- يا بني حرام عليك. أبوك صلّى الخَمس في أوقاتها منذ رجوعه.
- شريطة أن يوجد أحد يصلّي أمامه، بل قولي من يمثل أمامه ولو كان القطّ.
- يا ولد، أنت لا تغتاب الناس باستثناء والدك، حرام عليك.
من النبرة والقسمات، الأمر ليس الكفت عن اغتياب الرجل وإنما مواصلته. حتّى "ما" تعرف الخبث! تكتشف يوما أنك لا تعرف الأدميين مهما عرفتهم، أنهم يفاجئونك حتّى وهم على فراش الموت.

من كانت حقا "ما"؟ من أنت يا "تفاحة"؟ من أنت يا تفيحه؟ وأنت التي قاسمتني الفراش سنين، أي كائن كنت أضمّ بين ذراعي؟ من أنت أيها الرجل الذي تقدّمت إلي دوما تحت اسم "يا"؟

لا أحبّ إليّ من إسماعها ما تريد أن تسمع عنه.
- تظنّين أنني أعتاب من هبّ ودبّ؟ وهو؟ هل رضي يوما أن يغتابه إلا أمثالي؟ ألم يردّد دوما: كن أسدا وكُنّي؟
- واصل، لا أريدك أن تسكت.
- أتذكّرين قصة وصول "أينفناس" الأراضى المقدّسة كما رواها هو نفسه...
- يا ولد!

- ممّا صرح به "با" أنه لما وصل الأراضى المقدّسة نزل في أفرح فنادق يثرب وأم القرى ولم يخرج منها إلا نادرا حتّى لا يضطرّ إلى الاحتكاك - هو الذي لم تحمّل أمّه غيره - برعاع القارّات الخمس مدّعيًا أن كل أمراض القاموس العالمي للطبّ هاجمته في آن واحد. تذكّرين كم مرّة أتى إلى البيت معلنا أنه دخل النزع الأخير يمثل علينا تمثيلية وصيّته الأخيرة وهو أول من يعرف أنه لن يترك لنا شيئا نتقاسمه.

تواصل "ما" منع ريع ابتسامتها من فضح ما يعتمل داخلها.
- أه يا بنيّ من أمراض أبيك!

- ما ألقى تلك الأيام. كأني أراك تجاهدين للحفاظ على جديتك مفتعلة الحزن والقلق، تمسحين عرقا وهميا عن جبين يحترق بحمّى لا وجود لها، تنتظرين بين صبر ونفاد صبر أن ينهض الرجل من الفراش صارخا: ماذا تفعلون حولي بهذه السحن المقرّفة؟ هل تظنون أنني شيخ حانت ساعته؟ اغربوا عن وجهي يا أبناء الكلب، تفرقوا لشغلكم.

كانت ذاتي هي التي تستعيد عافيتها وأنا أراه يثب من فراش لزمه حتّى يُخيفنا وربما يخيف نفسه بقرب الرحيل. ربما كان يريد أن يتأكد مجددا أننا لا نتحمّله فقط وإنما نحبه أيضا.

ربما كان يمثل اللحظة التي يرهبها أكثر من كل شيء، يتمرن على امتحان لا بدّ منه متمنّعا بقدرته على التصرف في السيناريو وإيقافه في المنعرج الخطير.
أه لو كان مرضك مثل مرضه! ... اللعنة لم لا تثبي على رجليك صارخة مثله، اغربوا عن وجهي تفرقوا لشغلكم يا أبناء الكلب.

- سرحت مجدداً، فيم تفكر؟

- في الملل الذي عاناه إبان حجه هذا. ما الفائدة من الحج في مثل هذه الظروف؟
تتنهد "ما":

- لم تتغير رغم كل هذه السنين. تقول لوالدك أبيض إذا قال أسود وأسود إذا قال أبيض. كم مرة كنت المخطئ وهو المصيب.

- أه، تدافعين عنه! اعترفي أنك كنت دوما تحبين هذا الرجل وما تزالين.

- هو أيضا كان يحبك، لو علمت كم كان يفاخر بك في ظهره!

- وفي وجهي كان لا يكفت عن الصراخ: النار لا تخلف إلا الرماد! النار لا تخلف إلا الرماد!

- وأيضا كان يردّ لي وأحيانا لنفسه: أنا الشرارة وهو اللهب.

- بجد... أم الجملة من اختراعي؟

- يا بني، لو تعرف كم كنت لا زلت ظالما لوالدك!

مؤكد أن الرجل ظلّم بقدر ما ظلّم ولربما أكثر. ظلّمه الوطن والدهر وكم من رفاق الطريق، فردّ الفعل -كما هو الحال دوما مع الأدميين- لتختفي يوما الفوارق بين المظلوم الظالم والظالم المظلوم.

ظلّمه أيضا ابنٌ ما زال على إيمانه حتى وهو كهل أنه لا تضحية إلا وكانت من الأم ولا إثرة إلا وكانت لها الرمز، أما الأب المسكين فلا نصيب له من كل هذا إلا الفتات.

إنها الصور النمطية المبتذلة، لكن ماذا لو كانت نسبة الآباء الطيبين لا تقلّ عن نسبة الأمهات الطيبات ونسبة الأمهات الشريرات لا تبعد عن نسبة الآباء الشريرين؟

ماذا لو كانت التضحيات لا تختلف عند الآباء والأمهات وأنه نفس الحب عند الكلّ حتى وإن أخفق الآباء في التعبير عنه؟ أيكون الوهم السائد الذي يُعطي للإناث الدور الأجل هو نتيجة استنثارهنّ بذهن وقلب الطفل في أولى وأهمّ سنواته، بينما الآباء المساكين يموتون إرهاقا بحثا عن لقمة العيش لإطعام عائلتهم أو يسفكون دمهم في ساحات المعارك للدفاع عن وجودها؟ هل الأمر نتيجة تفوق مكرهنّ على خشونة الذكور وجهلهم بقواعد العلاقات العامة. هل نجاحهنّ في تسويق صورتهنّ على حساب الذكور المغفلين أكبر عملية غسل للدماغ عرفتها البشرية؟!

كرجل وكأب، وتحملا لكل مسؤولياتي التاريخية في مقاومة الظلم مهما كان مصدره، وتداركا لكل ما سبق من مظالم لحقت بالرجال عامة وبالآباء على وجه الخصوص، وبصفتي صاحب هذا النص أكتب فيه ما أريد، فإنني أعلن يوم 7 مارس العيد العالمي

للرجل حتى يكون لنا الأسبقية ولو بيوم واحد على عيد الخبيثات، بل وسنجعل عيد الآباء -نكاية في الحركات النسوية- يدوم ثلاثة أيام كاملة لا يوما واحدا وخاصة الأجر بالطبع. لكن أيضا في علم كل من يهّمه الأمر أنني قررت استدعاء كل قرّاء الرحلة في نهاية النصّ لحضور حفل إمضاء معاهدة سلام تنصّ على أن الآباء سيتوقفون من هنا فصاعدا عن محاولة العيش بالوكالة على حساب أبنائهم، وهؤلاء عن محاولة دفع آبائهم نحو باب الخروج لأخذ مكانهم. وقبل المرور للوفيه سن تبادل الخطب تحت التصفيق الحارّ لمدعوين يغالبون دموعهم من فرط التأثّر. ثم نخرج مباشرة من المسرح نتركة لجيل جديد من الآباء والأبناء، آخر همّهم تنفيذ الاتفاق، علما وأن كل من وقعوا المعاهدة التاريخية والشهود أنفسهم كانوا يعرفون منذ لحظة التوقيع أن الأمر خدعة حرب لا أكثر.

نفس المشهد المؤثر عن معاهدة مماثلة بين البنات وامهاتهن علما وأن مآلها مآل معاهدة الأبناء والآباء، لكن هذا شغلهم وليس شغلي.

لم أكن أعلم يومها أنني سأطبع قريبا آخر قبلة على جبين الرجل الذي أثرت قصة حياته في قصة حياتي كما لم تؤثر فيها أي قصة أخرى، أن دمعة حارقة ستسيل على خدّ سكنه إلى الأبد الصقيع، يذرفها أصعب ابن على أصعب أب!

تصورت أنني انتصرت عليه بالضربة القاضية لما وصلت للقمة التي استعصت عليه لكنه هو الذي انتصر عليّ بالضربة القاضية وأنا لم أجر طوال حياتي إلا وراء طموحه هو ليكون السيد الذي يقف بين يديه الشعراء.

يحضرني كم كان معجبا بشاعر جعل من قصائده الكلام المقدّس الذي يبرر به كل ما يقول وما يفعل. لماذا جعل من هذه الذات الأخرى القدوة والمثال؟ هل لتعرّفه في آلامها على الآلام التي عدّته طوال حياته؟ هل كانت ذروة مأساة هذا الأدمي المعروف تحت اسم المتنبّي وقوفه اضطرابا على أبواب الملوك يستجدي من يحتقرهم، هو الذي كانت بنفسه أنفة أن تسكن اللحم والعظم؟ هل لأن العالم أسرف عليه بالمحن ليختبر قوته المزعومة، أم لأنه رفض له شهواته أو بالغ في التقدير بها عليه؟

ألهذه الأسباب وجد "با" نفسه مع كم من الآخرين في مأساة هذا الشاعر الذي لم تعد جعجعته الفارغة تثير فيّ إلا هزّ الكتفين.

أي والله، لم يكن لي طوال رحلتي غيره خصما ومنافسا. كلُّ من لاعبوني الدور أحياء وأموات لم يكونوا إلا أشكاله الباهتة.

نعم، لم أعرف له مثيلا على كثرة ما خالطت من الرجال وأشباه الرجال. كانوا يظنّوني أسخر منه وأنا اسميه السيد أَيْنِفَاس وأنا أقصد كل كلمة. أيّ والله، أين في الناس أب مثل أبي!

كم سيخيب الرجل ظني ذلك اليوم الذي وضع فيه رحله نهائيا أنا الذي أمنتُ دوما أنه قادر على ليّ ذراع أيّ عدوّ فإذا بعزرائيل يطرحه أرضا يجزّده من وسامته وأناقته وفصاحته وهو لأوّل مرّة لا يُقاوم ولا ينتصر.

لا بدّ أن ترحل "ما" دون هذا الحمل الذي نغص جزءا كبيرا من حياتها.
- اطمئني، غفرتُ له منذ زمن طويل والفضل لمشاعلي مع عصا أثقل من عصاه ينزلها
الدهر بلا توقف على ظهري. ثم لماذا توصيني بشيء كهذا؟ ستشرفين بنفسك على المراسم.
تمسح المحتضرة دموعها وابتسامة كاملة كالبدن ليلة اكتماله تضيء وجهها. تطيل النظر
إليّ وهي أحسن من يعلم أنها تراني لآخر مرة.

- أتعرف لماذا قدّر لك أن تدخل بيت الله وأنت في هذا العمر؟
- الظاهر أنه لم يأخذ في خاطره بخصوص الطقوس. بجدّ، لم يكن لي من هاجس طوال
الحج غير خدمة المرضى لا أكثر... بالليل وبالنهاري بكل جوارحي بكل ما أوتيتُ من علم
ومن جهد، بالقليل من التفاني الذي أخذته عنك.
- هل كان يريد منك شيئا آخر؟ ألم تكن تخدمه وأنت تخدم عباده، اطمئن، هو راضٍ عنك
مثلما أنا راضية عنك... دنيا وأخرة. سر محروسا على بركة الله لا ترهب شيئا ولا تخش
أحدا.

يا لضربة الحظ التي وضعت تحت ذمتي مثل هذا الدليل الذي يواصل شدّ أزري وترببتي
حتى وهو يلفظ أنفاسه.
ها هي "ما" تكمل رحلتها في هذا العالم قائلة: "هو" راضٍ عنك مثلما أنا راضية. آخر
هداياها.

تفتح عينها على أقصى اتساع تجيل نظرها حولها تملأ وجدانها من العالم الذي ستنترك
وراءها. من أين لي أن أنسى ذلك الصباح الذي أجبرتني فيه على إخراجها من المستشفى
لتموت في بيتها... صرختها وهي على باب القسم فاجأها ساطع النور واتساع السماء
ومهاية قوافل السحب: يا وجه ربي!

يا وجه ربّي! العالم كله وجه الله! العالم بأسره بيت المقدس!؟

يتوقّف بصرها على وجهين يحدّقان فيها بعيون دامعة. تلامس يدي الشعر المجمل بالبياض
ثم تحكم غطاء لم يعد ينفع ضدّ قرّ أو حرّ. يجثو الطبيب طفلاً الآخر على الأرض الوجه
بين اليدين تارة، وتارة أخرى يفتعل زيادة سرعة تدفق الدواء في الشرايين. يتصاعد من
المحتضرة همس ضعيف، يردّد صلاة لا تستجدي فيها شيئا لذاتها وإنما تدعو فيها للباقيين
على قيد الحياة. ترفع الأمّ الأزلية ببطء وصعوبة يدها في حركة أتية من أعماق التاريخ
تبارك طفليها الحاضرين وكل أطفالها الغائبين.

أكملت المرأة التي لم تسعفها الظروف بالحج الصغير آخر فرائض الحج الأكبر ونحن كلنا
نأتي هذا العالم حجاجا.

تتلقّى "الباشاماما"⁴ رفات "ماما" والدفن فيها كالعائد بعد طول الفراق إلى حضن أمه.
هيهات أن تحفّف حتى مثل هذه الصورة من ألم الفراق.

"ولو حفروا في درة ما رضى بها
ولو أودعوك الجوق خفنا مصيبه
فيا قبر واه من ترابك، لتينا
لجسمك، إبقاء عليه من الدفن (المعري)
ومشناه، وازداد الضنين من الضن
عليه وآه من جنادك الخشن"⁵
آخر حفنة من الثرى ثم صوت المرتل: اللهم تقبلها بواسع رحمتك ومحبتك، فتردد روي:
أمين.

حولي كلهم يرددون: إنا لله وإنا إليه راجعون.
إنا لله وإنا إليه راجعون!
راجعون إليه بماذا؟ بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها... أم بالبشرى أننا أدينا المهمة بل
وعلى أحسن وجه؟
إنا لله وإنا إليه راجعون!
من إنا هذا الذي هو من الله وإليه يرجع؟!!

**

الكتاب السادس الغريب

سيعود يوسف التائه ثانية إلى كنعان فلا تحزن.
ستصبح صومعة الأحران في يوم من الأيام
كأنها الروضة والبستان فلا تحزن.
وإذا ضربت بأقدامك في الصحراء شوقاً إلى الكعبة
إذا غلظت عليك أشواك المغيلان فلا تضجر ولا تحزن.
والمنزل مليء بالخطر، والمقصود بعيد غير منتظر
ولكن كل طريق له نهاية، فلا تضجر ولا تحزن.

حافظ

مقدّمة الكتاب السادس

في 31-12-1999 بالتقويم السائد .

حقًا إنني لمسافر جدّ محظوظ وقد سحبت لي طاولة القمار سفرة في أشدّ مقاطع الزمان إثارة. الدليل أنني مدعوّ إلى أضخم حفلة نظّمها الأدميون في تاريخهم الزاخر بتنظيم المآتم والأعراس. كم غريب أن تكون هذه الحفلة مخصصة للاحتفاء بليلة من الرحلة شاءت الصدفة أن ترمز في رزنامة بعض أمم المرتحلين إلى دخول ألفية جديدة -ومستقبلين الحدث بسنة كاملة- إلى دخول قرن جديد.

على شاشة تلفزيون صغير، يفتتح مراسم الترحيب ملك مغمور لجزيرة في قلب المحيط الهادي اسمها "تونجا" متقدما بأولى مظاهر التبجيل.

ثم ترنّ الأجراس في مدن تدعى طوكيو وسيول، تعلن أنها دخلت تحت ظل الزمان الواعد. يواصل الطيف تسلّله غربا يمدّ ظلّه على أصقاع من الأرض تتسع رقعتها شيئًا فشيئًا. تتصاعد الهتافات من مكان يدعى موسكو.

في مدينة اسمها روما يخرج إلى الشرفة المطلة على جماهير الأدميين عجوز مهيب مرتعش يبارك الحشود ويبارك سعادتها. كيف لا يتدخل هذا الرجل بالذات في حفلة كهذه وكل عين مجربة لا تخطئ التعرف على الصبغة الدينية لمراسم الليلة المشهودة.

تشتعل الأنوار في برج حديدي يتوسط ساحة مكتظة في مدينة مرحة أحالت أنوارها الليل نهارًا. يتدافع بشر المكان، مع كل الناجين من كل الكوارث والمتسببين فيها، لتفجير مخزون الفرح الذي بداخلهم احتفاء بأهم ما يجب الاحتفاء به: إنهم ما زالوا أحياء يرزقون.

يتعالى صراخهم تعجبًا وإعجابًا أمام شلالات الأنوار والألوان ترسمها الشماريخ على ثوب الليل البهيم.

تصل الألفية الجديدة إلى مشارف مدينة أخرى على ضفاف نهر عجوز آخر، هي أيضا سكرانة بالأنوار وصخب شماريخها تحيل الليل نهارًا.

أي صورة للعالم أبلغ من هذه؟ على سيورة الوجود تفجّر ما لا يحصى من نقط النور ترسم ألوانا مبهرة... كل نقطة ملحمة كائن حي. هناك في ذلك الركن الشرقي من اللوحة حيث الألوان أكثر اشراقًا، تفجّر قصتي ثم اختفاؤها بالسرعة التي ظهرت بها أي أهمية للأمر يكفيني شرفًا أنني كنت جزءًا من العرض.

بداهة قرّر أهل هذه المدينة الإفراط في مظاهر الترحيب. ربّما هناك هدف خفي لمن نظّموا هذه العاصفة من النور والنار. ألم تكتسب هذه المدينة المتعجرفة طوال سنوات آخر حرب عرفت خبرة في إسقاط كل مغير؟ هل من مغير أخطر من هذا الزمان الذي يدعي التجديد والذي قد يكون محملا بما لم نعرف لحدّ الآن من الولايات؟

تعبّر الألفية المحيط لتحط سالمة في ساحة اسمها تايمز سكوار. نفس الحشود الأدمية بنفس الفرح. أخيرا ينتهي الزمان الجديد ببسط ظلاله على البشرية جمعاء وقد وصل أقصى غرب الفضاء الحسي.

على سطح البيت، حيث السهرة كل ليلة مع النجوم، أفرش حصيرا شاخصا بين الفينة والأخرى إلى السماء كأنني سأرى هذه الألفية الجديدة على شكل ضباب خفيف يمرّ فوق رأسي.

تصمت كل الأصوات ولا يبقى فوق رأسي سوى ما رسمته من الأزل فرشاة الفنّان الأعظم.

قرن محمّل بكل الأخطار التي يتحدّثون عنها في الجرائد ويهلّل له هؤلاء الأغبياء! لكن لماذا أحملّه أكثر مما يستأهل؟ فهل كانت عصور الجذام والطاعون والعبودية والمجاعات أرحم؟

يجب أن أداهنه، علّه يكون أقلّ فضاضة من القرن الذي ولى الأديبار لا هو متأسف على فراقنا ولا نحن أسفون على فراقه. أكيد أنك قرن ابن حلال لا كالذي نخادر وقد كان أكثر القرون دموية في تاريخ آخر ما نقصه سفك الدماء. يكفي أن ينظر أي إنسان إلى وجهك الصبوح ليفهم أنك أتيت وفي جرابك أخيرا العدل والمساواة والفرح والسلام والحرية للبشر كلهم وحتى لبني حرية وآل ثبات.

للأسف سيفيق المحفّلون غدا بوجع رهيب في الرأس يتوجسون خيفة من حضور الداننين وقد انتهت نوبة السكر.

المساكين! يطمنون أنفسهم بهذه الطقوس السحرية أملا في مستقبل لا يكون دورانا في حلقة مفرّغة.

بعد السلام الحرب (برنارد فريبر-بتصرّف)

بعد الحرب السلام

بعد المركزية اللامركزية

بعد اللامركزية المركزية

بعد المدن، القرى

بعد القرى، المدن

بعد البرلمان، الحكم الفردي

بعد الحكم الفردي البرلمان

بعد الهدوء، الانفجار

بعد الانفجار، الهدوء

بعد الفوضى، انضباط الاستبداد

بعد انضباط الاستبداد، الفوضى

بعد الطغاة، الحكماء

بعد الحكماء، الطغاة

للصراحة آخر ما يهمني مستقبلهم ، كل ما يهمني مستقبلي وهل سيفتح أخيرا أمامي باب
هذا السجن الواسع الذي يسمونه الوطن وهو لم يعد منذ زمن بعيد الأرض التي نهرب إليها
إنما الأرض التي نهرب منها.

**

التائهون بين الجحافل

أخيرا يفتح باب السجن الأكبر ليتلقفني المنفى مرة أخرى. داخل عربة مترو شبه فارغة ثلاثة مراقبين ومعهم بنت على وشك الخروج هي الأخرى من طفولتها. يصرخ أحد الصبية ليثير إعجاب البنات ولحنت رفاقه على الاستعداد للعنف: هل تشمّون هذه الرائحة النتنة؟ آه، إنها لهذا الأجنبي القذر الجالس وحده هناك! لا مجال للإفلات من خصومات الأدميين، كل ما يتغير المكان والظروف والرهانات ومستوى الخطورة في التعامل معها. أهر الكتفين مفضلا الخروج في أول محطة. واقف على السجاد الآلي المتحرك في اتجاه الخروج والانتباه على أقصاه. على السجاد الآلي الأتي من الاتجاه المعاكس، تتدافع الوجوه المجهولة نحوي لتختفي سريعا وهي تتجاوزني تعوضها بنفس السرعة وجوه أخرى مُشابهة ومختلفة. كلها كما نحتها جيا كومتى في تمثال الرجل الماشي. لها نفس الملامح المتجهمة والأبصار الشاخصة نحو الفراغ والكَلّ منغلق على ذاته في صمت ثقيل.

نعم ، كلهم كُنُتْ مُحَكِّمَة الإغلاق لا تُرى منها إلا العنوان... أما النص فحرام إلى الأبد ومع ذلك ما أسهل تصوّر ما فيه... أغلبهم منغلقون على أسرار بانسة، متخبطون داخل شبكة من الأوهام طرزها لهم الأوائل والمعاصرون، عانثون على تخوم الأخلاق والقانون، مصطدمون على الدوام بتحديات مستعصية على الحل يواجهونها باستراتيجيات في منتهى الغباء، يحملون قصصهم كالمسيح صليبه على ممشى الآلام ومع هذا يا لحيويتهم وهم يركضون في كل اتجاه كأنهم وُعدوا بكنز لا يعرفون له مكانا.

لا تسمع والسجاد المتحرك يواصل تقدمه إلا وقع خطى عصبية متسارعة، ومعظم الضجيج أت من الإناث بكعبين العالي، كأن بهنّ إصرارا على مواصلة بثّ إشارات الإغراء حتى في مثل هذه الظروف ومثل هذا المكان.

هذه أنثى مشوقة القامة واقفة جوارى كل النظرات مسلطة عليها من القادمين في الاتجاه المعاكس. عينان تلمع فيهما شهوة حادة. أخرى تفتعل اللامبالاة. قوة القاهرة تلوي عنقا لتلتحق الذات ما فاتها. وهذه نظرة مطوّلة للصياد يزن بفكره كم في الطريدة من طازج اللحم. ظلال من الحزن في عينين أرهقتهما الحياة كثيرا، لا تتوقف حتى على الوجه المثير. بريق غيرة عمياء تبعث فيّ قشعريرة، بأس موجع يلمع في عينين تفضلان النظر إلى الأرض سلّمنا بدوام الهزيمة وعبث النضال.

هذا عالم أغلى قيمه الجمال محكوم عليك أن تُعْبِرَهُ رائيا مرئيا، والكل يقيم مدى قربك وبعدهك منه.. هل ثمة أصعب من الارتحال، والنظرات تنزلق عليك لا تتوقّف لأن نصيبك من الجمال زهيد؟ ما أروع أن تحدّق فيك عيون الجحافل ترنو إليك كما للنجم الساطع في

حلقة الظلام. ترى ما الجمال؟ مسألة هندسية بحتة مرتبطة بدقة رسم ملامح وجه أم إطلالة النموذج الأصلي في أنجح نسخه؟
هذه نظرة خلّتها سنتوقف على ولو لثانية لكنها لم تفعل. انزلت ولسان حالها يقول: لا شيء في هذا الأدمي جدير بالاهتمام. كم مُخيف ألا أحد من هذه الكثرة الكثيرة عرفني أو انتبه إلي، أو اهتم بي أو لاحظكم أنا مرهق مهموم.
"كم تسكعت شرقا وغربا! (أغنية صينية)

كم لاقيت من البشر!

ولا وجه أتذكّره

تعبت حقائبي

ظلي وحده الرفيق"

لا أحد من هؤلاء الأدميين يقف مسلما ولا أحد تستوقفه لتأخذه بين ذراعيك بالقبّل والدموع. أه أخيرا يبتسم لي أحدهم وفي عينيه شيء من المرح والعطف. يختفي بالسرعة التي برز بها. إنه تائه مثلي يقول لسان حاله: تشجّع ثمة مخرج لنا جميعا من كل هذه الأنفاق!
يصل السجاد المتحرك آخر النفق فأيق من ذهولي وقد توقف الهمس داخلي وبدأ التدافع المحموم نحو مختلف المدارج المؤدية لهذا الخطأ أو ذاك والإشارات الصامتة وحدها الدليل. أي كابوس لو انطفأت كل الأضواء نهائيا واضطرت هذه الجحافل المتدافعة في جوفها إلى اكتشاف طريقها في الظلام!

فجأة يجبرني المجهول الماشي أمامي على التوقف وهو يفتعل الانحناء لإحكام ربط حذائه. يلتصق بي مجهول آخر من الخلف، يدخل يده في جيبتي للاستيلاء على ما فيه. في مثل هذه اللحظات يتصرف الجسم بغير حاجة إلى قرار من الأنا الوعي. هكذا شعرتُ برجلي اليمنى تبادر بركلة غليظة في المؤخرة المعروضة أمامي، وببيدي اليمنى تمسك بيد اللص وبيدي اليسرى تسرع لخناقه. تصرخ امرأة تابعت الحادثة: برفاؤ يا مسيو، أنت على الأقل لست صيدا سهلا، هؤلاء اللصوص لا يستحون. خذ بالك، هرب الأول، والثاني بصدد الإفلات منك. يا بوليس، يا بوليس!

اللعة! من قال لهذه الغيبة إنني أريد البوليس. كل ما أريده، وقد استعادت الإرادة الواعية تحكمها في آليات الجسم، أن أعتذر لمن ركلت، أن أدعو الذي تلمّص متي لفنجان قهوة ليحدثني عن أحوال اللصوص وما يعانون من عالم كثر فيه البوليس. لم يبق إلا دعوة هذه الغيبة لتناول القهوة لتمدني هي بتصريح مطوّل عن حالة رحلتها، عليّ أزيح بعض الغرابة عن الأدميين بصفة عامة وعن النمط الأدمي الأكثر انتشارا، هذا الذي اسميه الذي منه كل وحشة... الصنف الذي ستخرج من صفوفه الأنواع الأخرى من الأدميين الذين سيجعلون من حياتك جنة وجحيما. لكنّها اختفت عن الأنظار هي وكل الذين ألّفوا نظرة خاطفة على المشهد وتدافعوا كل واحد يركض على الطريق الذي رسمته له الصدفة والأقدار.

أخيرا الهواء الطلق .

على طول الشارع الرئيسي مظاهرُ زينة الأعياد ونهاية السنة، أجمُلها أضواء زرقاء رُصّعت بها أغصان الأشجار .

قد لا توجد مدينة في العالم تعجّ بهذا العدد من الأجانب المتدافعين عليها من كل أرجاء الفضاء الحسيّ لألف سبب وسبب وهي غير عابئة بمن يدخلها ومن يخرج منها. صورةٌ مصغّرة لعلاقتنا بالعالم نفسه.

على الرصيف المكتنّز، السُّيَّاح والمتسوّلون والباعة والهاربون أمثالي من القمع والفقير. داخل المقاهي والمطاعم فقراء جاؤوا يفتعلون الثراء وأثرياء جاؤوا ليُبهرروا الخدم بمكرماتهم الخيالية.

ورائي قوس النصر. على مَنْ؟ على ماذا؟ لا أحد يجهل اسم الجَزَّار الكبير الذي رفعه، لكن مَنْ يعرف اسم الضحية التي ترقد تحته؟ الجندي المجهول! مجهول لمن؟ قطعاً ليس لأمه وأبيه ولحبيبة انتظرت رجوعه عيثاً. على فكرة، ما اسمه، كم كان له من العمر يوم قُتل؟ كيف كانت آخر لحظاته؟

كل ما يُعرف عنه أنه كان جثة متعفنة أُخرجت من أرضٍ عرفت أكثر حروب الأدميين وحشية وغباءً، أنه كان واحداً من بين ثمانية قتلى آخرين، أنهم أخذوا الأشلء ثم اختاروه هو في نوع من القرعة، والجائزة أن يمثّل كلّ الذين التهمتهم الحرب ولم يحفظ لهم التاريخ ماثرة أو اسماً. يا لها من جائزة أحرزها ولا علم له بالشرف الأثيل! آية قارئة فنجان كانت تتجرأ لتقول لأمّ المولود الجديد إنه سيعيش نكرة وسيموت أشع مِيتة، لكنه سيصبح من المشاهير يقف ملايين المجهولين إجلالاً أمام قبره ولا أحد يعرف اسمه.

فجأةً التفتُّ خلفي مدفوعاً بقوة قاهرة لأهرّ الكتفين وأنا أتذكّر أنني خرجتُ أو قُل طُردتُ هذا الصباح من بوليسستان، أنني أمشي حراً لأول مرة منذ سنوات ولا مخبرٍ يتنقّس في عنقي في كل خطوة.

نعم لا مخبر ورائي يكاد يلمسني في إطار ما يسمونه المتابعة اللصيقة لتحطيم أعصاب الطريدة. لكن كم سأمشي في شوارع هذه المدينة لا وهم لي حول ما يدور ببالي من يُلقى عليّ من نظرات متجهمة: أجنبي من جنس الإرهابيين، خطر، مهديد للنظام، لخزينة الدولة، للصحّة العمومية، لا ترجى منه مصاهرة أو حتى مصلحة عابرة.

نوبة من الكبرياء المجرّوح. أليس قدر “النفيس أن يكون غريباً حيثما كان”؟

ما يخفّف عنيّ لست وحدي الغريب الذي يمشي في هذا الشارع، ولا أعني فقط الأجانب بالأوراق الرسمية أو المزيّفة وإنما سكان المكان أنفسهم. لماذا أكون أنا غريبهم ولا يكونون هم غربياني إضافة لكونهم وإن ولدوا في هذا البلد وهذه المدينة هم مثلي عابرو سبيل. كلهم مثلي يبحثون عن طريقهم في مدينة يظنون أنها مدينتهم وهم لا يقلون فيها غربة عن غربتي. كلهم سيرحلون عن هذه المدينة بيد فارغة وأخرى لا شيء فيها. كلهم يعيشون فيها

قصصا فيها الكثير من الأوجاع لا تبعد كثيرا عن قصتي إلا في التفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل.

يصل بي الطريق ساحة مترامية الأطراف كانت وما تزال هي الأخرى شاهدة على كم هائل من أفزع قصص الأدميين.

فُطع في هذه الساحة حسب من حسبوا 1119 رأس منهم رأس ملك. المسكين! ماذا دهاه ليولد ملكا، أو بالأحرى ماذا دهاه ليولد ملكا في غير الزمان المناسب!

انتبأه لاختلاجه، امتعاض هنا وعلامات نفاذ صبر هناك. يجب أن أتحرّك بسرعة؛ لا مكان هنا لمن يسد الطريق والويل لمن يتلكأ. ليسر عوا إلى حيث يريدون؛ لست مهتما بهم وكل انشغالي مُنصب على أشباح نساء ورجال خلقت رؤوسهم وأيديهم مقبدة إلى الخلف كُتسوا فوق عربات مجرورة بالخيل والثيران. إنها شحنة اليوم للمقصلة الرهيبة المنتصبة وسط الساحة. تُرى ما الذي كان يعتمل داخل رؤوس على وشك السقوط جاحظة العينين في قفة معدة خصيصا لتلقفها؟ هل تكون هذه المرأة التي تبث على كل الأمواج قدرا لا يُحتمل من الألم هي الملكة التي تضافرت عليها كل الأحقاد وساقوها في مثل هذا الموكب كما ساقوا زوجها من قبل؟! المسكينة! ما الذي دهاها لتولد ملكة بل وفي غير الزمان المناسب!

لو جاءت قبل بضعة عقود أو بعدها لربما أصبحت أم الشعب والقديسة التي تتبرك بها العجايز والعداري.

كيف الإفلات من صراخ صامت يملأ الفضاء ويتعالى من مبانٍ متجهمة تقع على بُعد بضعة مئات من الأمتار. ترتجّ الذات لعويل طفل خرج أبوه للمقصلة وتبعته أمه التي أجبروه على القول إنها كانت تضاجعه. ما الذي دهي هذا الطفل ليولد أميرا وولي عهد ملك على وشك الغروب! ربما كان سيصبح أكبر الملوك حكمة لو أسعفته الأقدار بشيء من العون. لكن طاولة القمار سحبت له سيناريو سيموت فيه كمداء قبل بلوغ العاشرة في دهاليز قصر مخيف.

إنها مأساة بلا أدنى أهمية لعالم لا يعبا بكل ما عرف من مآسي.

بعيدا على يساري برج حديدي أصبح رمزا للمدينة يمتلئ على نهر هو منذ نشأتها شريان يضح في جسمها حيوية التجار والمهربين والمسافرين والغزاة.

فجأة تصلني كاللظمة على الأنف لعنة سكير اتخذ الأرض فراشا ولم أنتبه له. واحد من الكثيرين الذين غرقوا في خضم مدينة تلفظ باستمرار على شواطئها أجسادا مبللة بالبول والكحول والعرق. آدمي آخر لم تُحايه طاولة القمار اللعينة أكثر مما حابت ملكا وملكة واطفالهما قبل قرنين.

من قال: الخيار أن يتصقّ القلب أو أن ينفجر؟ تصقّ قلبي ألف مرة وانفجر ألف مرة ومرة، أمام الشحاذ العجوز الجالس ذاهلا على باب العمارة، أمام الطفل القابع تحت السيارة يستنشق دخان المحرك، أمام المتسول المضطجع أرضا في رواق المترو، أمام المراهق

التائه في أحراش خياله يتأرجح على نفس المقعد من الصباح إلى الليل في أماكن بشعة يتكدس فيها من أفقدتهم المصائب كل صواب.

أية غرابة أن يقفز البعض خارج البساط السيار، أنهمكهم الطريق وأرعبهم، أو قد يكون هو الذي رماهم جانبا، ضاق ذرعا بجمال ليس من ورائه نفع؟! كم من حُطام بشري سآرى على ضفتي هذا الطريق اللعين، إلى أن يأتي دوري ضحية آخر لغم زرعه منتقم هو الآخر مجهول!

هذه امرأة تدفع أمامها ببطنها المنتفخ، تهدد بمولود جديد لا يدرك على ماذا هو مقدم. أتوجه إلى المعني بالأمر بالتعاطف والعطف والاستعطاف مستعملا هاتفي الخيالي الذي يسمح لي بالوصول إلى كل من أريد: لم تقرأ الرحلة؟ لم أبلغ في شيء، اسأل كل الذين عاشوا إن لم تصدقني، من الأحسن أن تبقى في دنيا الغيب إلى أن تحين فرصة أخرى. ربّما ستنجح القوى المجهولة في تخيل عالم أقل خطرا وفضاعة، أما هذا! .. ثم هل فكرت في ضرورة ترك الأرض تستعيد أنفاسها!

يصمت الشبح متجاهلا ما في قلبي من حكمة ومن موعظة حسنة، ثم أشعر بالمتهور بهزّ كنفه. يجب ألا أحبّ وأن أوصل تحمّل مسؤولياتي تجاه مستقبل الجنس البشري. يا محنون، ورأس أمك الغالية، هذا عالم غير جاهز للسكن... ماذا تقول؟ عليّ أن أهتم بشؤوني، وهل أنا بصدد التدخل إلا فيها! ثم من يضمن أنك لن تشكل خطرا على عالم يكفي ما فيه من إرهابيين!

ترمقني المرأة بريية كأنها أحست أنني أريد بذريتها شرًا. قل لأمك أن تهدأ. ماذا؟ أنت الآن تسرّ في أنها أنني أريد خطف حقيبتها وأن عليها طلب بوليس النجدة. لا أريد بك إلا خيرا... وأنت لا تريد بي إلا شرًا! أه منكم يا أولاد حواء. قد تطلق اللعينة عقيرتها بالصراخ: يا ناس، النجدة، هذا الأجنبي وفي مثل هذا العمر يعاكس النساء الحوامل! صدق من قال مصائب البشرية من مصدرين لا غير: النساء وأمّهاتهن. أقولها وأمشي متحملا كامل مسؤوليتي: الأنثى أسّ البلاء. ألم يكن من واجب هذه المرأة حال ظهور بوادر الحمل أن تشي بنفسها لأقرب مركز شرطة لتتلقى عقابها العادل، وأن تسلّم ثمرة الخطأ والخطيئة إلى السلطات الحدودية لإرجاع الغريب الخطر من حيث أتى؟ لكن لا، فالواحدة منهن لا تحمل المرة الأولى إلا وأعادت الكرة وهي فخورا بما اقترف المبيض والرحم. هل من دليل أكبر على سوء نية الإناث؟

أه هذه آدمية أخرى تظنّ أن بقدرتها أن تفعل لي شيئا حتى وإن كنت غير ملقى على الرصيف أنقياً. تُبادرنني الصبية البلهاء ببراءة تثير فيّ لموجة من العطف.

- هل تعرف الرب؟ هل تدرك إلى أيّ مدى يحبك؟ أتريد نسخة من الكتاب المقدس؟
- لا، شكرا، عندي أوهامي الخاصة بخصوص من يسيّر هذا الكون، أما حُبّ ربك لي، فكم أودّ أن يكون أكثر وضوحا هذه الأيام.

تمضي البنبت في حال سبيلها لن أعرف عنها أكثر مما تعرف عني.

أخيرا هضبة القديسة التي حمت المدينة ممن حاولوا اغتصابها وهي لا تطيق إلا من يغازلها طويلا. يا سيدتي جنيفاف، بجاه المسيح خفي من آلام روح ذلك الطفل لا أظنها ارتاحت إلى اليوم، وبالرغم من انتمائي إلى قوم لا يحبهم قومك لا تنسي ألامي أنا أيضا وقد تحالف ضدي كل ما في ديني من أولياء ومن صالحين.

أه هذا هو الحي الذي زرعه سنوات شبابي في كل اتجاه أبحث عن أجمل حبيبة وأندر كتاب. لا أحب إلي من مقاهي هذه المدينة. داخل زحمتها اللطيفة يخفت أنين العفاريت، لا تسمع إلا بعضا من ثرثرة النساء وتغزل الرجال ومزح النادل مع زبائن نافدي الصبر. لا أظن أحدا انتبه لدخولي أو يعرفني أو سيجلس إلى طاولتي لتحريك أوجاعي. صدق من قال إن البشر كحيوانات القنفذ إذا اقتربت منهم كثيرا بحثا عن الدفء لسعتهم ولسعوك، إن بغدت عنهم كثيرا عانيت من البرد. أنا الآن على المسافة المثالية أو هكذا أتخيل، أبحث عما بحثت عنه دوما: الدفء دون لسع.

إنه مكان لا يُحبذ أصحابه أن تطيل فيه المقام. يجب أن أنهض لأواصل المشي. هذه المدينة ككل تجمعات البشر غاب وأغلب من فيه منهمكون في صراع البقاء بمعونة الآخرين إن أمكن، وعلى حسابهم إن تعذر الأمر. وراء الواجهات المنمقة يخفي الوجه المظلم لشبكات الاستغلال والاحتيال والتجسس والدعارة والجريمة.

أيا كان نصيبها من الرونق والجمال وطرافة الأبنية، هذه المدينة ككل تجمعات الأدميين منذ سكناهم بيوت الطين والحجر مرآة أقطع ما فيهم بما تعج به من مواخير وسجون ومحاكم وثكنات وحدائق للحيوان ومسالخ لذبح الملايين منهم يوميا... ومرآة أحسن ما فيهم بما تعج به من بيوت عبادة وجامعات ومستشفيات ومتاحف ومسارح ومكتبات.

على يسار النهر ومن هضبة متواضعة، تتعالى نحو السماء أربع عمارات في شكل كتب مفتوحة، تواجه بعضها البعض. يُقال إنها تحتوي على كل ما جاد به الفكر البشري من كُتب. السدّ والجذب الأزلي بين السيف والقلم. في الطرف الآخر للمدينة قوس النصر وعلى حدودها الشرقية هذا الرمز.

أجلس إلى النهر، ورائي الأبراج الأربعة المثقلة بكل ما كتب الأدميون عن الأدميين وبكل الرسائل المبهمة التي تحملها باقي مباني المدينة. فهذه المدينة نصّ عظيم مكتوب بالعرق وبالدم والكاتب التاريخ، وأيضا هي مدينة الثوار، أمرهم الذي تقرأه في كل مكان: فكّر من خارج كل الأطر، تمرد على كل الصيغ، جِد ولا تتوقف عن الإبداع، كل شيء مقبول إلا الرداءة. جو كهذا هو جرعة الأوكسجين للمختنق ونفح الطيب لمن عاش في أرض جدياء وننتها يملأ الخياشيم.

صخب مفاجئ. متسرّد يرمي بقمامة من صفيح على الأرض يفتش فيها هو وكلبه عن شيء يؤكل. أمامي حفنة من الأدميين لا يميزهم عن باقي المهرولين في كل الاتجاهات إلا انشغالهم بجمع القمامات يرمونها بسرعة في عربات ضخمة بالغة الضجيج والقيح تسدّ الطريق على سيارات نفد صبرها.

إنهم آخر من تدافع على الطريق المؤدي إلى هذه المدينة لا يعلمون أنها العاصفة لا المرفأ الذي يتخيلون. أغلبهم ارتحلوا كما كان الأوائل يفعلون: بلا مال، بلا دليل، بلا خارطة بلا رخصة عبور من أحد، والسفر مغامرة كبرى رهانها الحياة أو الموت.

"الطريق ليس صعبا (كبير كجارد)

الصعب هو الطريق."

لا شك أن بينهم كُتّابا سيضيفون مقاطع جديدة إلى ملحمة الأدمي يصفون معاناته في هذا العالم وهو تائه في الصحراء بلا ماء، أو غريقاً أنقذ آخر لحظة من برائن البحر، أو مغامرٌ يانس بانس يخترق الجبال خلسة ليلة صقيع يُمزق أحشاءه الجوع، لينتهي على أعتاب هذه المدينة شبة مَيّت من الإرهاق، صارخا: يا ملاذ المضطهدين لا تصدّيني، ويا واحة النور لا تحرقني جناحي.

ربما يأتي يوم ينشد فيه المرتحلون القادمون من كل آفاق الزمان والمكان.

"تحت أزهار الكرز (ايسا)

لا وجود بيننا

أبدا لغريب"

أصعب ما في الوضع ليس أنني غريب لكل الغرباء الذين تعجّ بهم هذه المدينة. أغرب ما فيه أنني غريب... حتى لنفسي.

**

التائهون داخل ذواتهم

يحدّق في الشكّاذ الثمل بفضول. يمدّ يده بشره إلى قطعة النقد، ثم يصرخ بأعلى صوت: بونبول⁶، تفه!

كل شيء موجود في هذا العالم فلم لا يوجد فيه شحاذ عنصري؟
الوعد! يقاوم محاولتي فتح راحته لاستعادة قطعة نقدٍ أسْتثْمِرُها في صدقة تعود عليّ بالدعاء
لا بالشتّم، بل ها هو يصرخ: النجدة أوقفوا هذا الأجنبي!
لا يبقى أمامي سوى الفرار، وكأنني السارق وهو المسروق.
ما يجله هذا الشقيّ أنني أجنبي مرخّص له في الوجود في بلده وليس كالغرباء الذين
يختبئون في الأقبية خوفاً من اكتشاف البوليس أمرهم وترحيلهم خارج الحدود.
الدليل على متانة وضعيتي القانونية أن في محفظتي بطاقة بلاستيكية أعيش على هاجس
فقدانها أو سرقتها مدّنتني بها سلطات البلد -ببالغ الامتعاض- وهي تحفظني مؤقتاً من عنف
الذين يدعون أنهم ليسوا غرباء في هذه المدينة.
قد يكون من مزايا هذه البطاقة تطميني حول هويتي، ففيهما معطيات مكتوبة عن اسمي
ولقبتي وموضع ولادتي وزمانها وسلسلة طويلة من الأرقام تحدّد هويتي ليبروقراطية
المراقبة والتحكم عن بعد.

مما يقال هذه الأيام أنه سيكون بوسع ما يسمى الذكاء الاصطناعي معرفتي أكثر مما أعرف
نفسي بما سيجمع عني من معطيات تمكنه من التنبؤ بكل ما سأفعل وأقول حتى قبل أي
قرار مني. يا ليتّه يقول لي أخيراً من أكون اللهم إلا إذا لم يجرؤ على الأمر ترفقا بي.
في الانتظار لا خيار غير أن أعول على نفسي وأن أتحمّل مسبقاً تبعات ما قد أكتشف.
لكن كيف؟

ألم يأتيك يوماً الشعور أن داخلك أنائين (مع الاعتذار لأهل النحو والصرف) واحد رسمي
ومعترف به والآخر يعيش في كنف الطي والكتمان.
هذا الأنا المخفي هو الذي يحدّد طوال الطريق كيف ومتى الجوع والعطش والحلم والحب.
هو من يفكر ومن يتدكّر. هو من يمرض ومن يبرأ ومن يقرر ساعة النوم ولحظة الموت.
لا تشعر بجبروته قدر شعورك به و” هو ” يقودك بقبضة من حديد باتجاه الخروج النهائي،
كانك مجرد طردٍ يُسلّمه مجهول إلى مجهول. من قال له إنني قررت الموت الآن أو إنني
أريد أن أموت أصلاً؟

بربك ألا يدرك أن نكون داخل ذاتنا كمن يعيش في عقر دار يظنّ نفسه المالك وهو فيها
مثل ضيف لمضيف مجهول!

”من يبادر داخلي (روبرتو جياروز)

عندما لا يكون الأنا؟

من يحلم داخلي عندما أحلم؟

من يوقظني على العدم؟

نحن مجرد ضيوف داخل بيوتنا

نشقى لمغادرتها

وكأننا كنا يوماً أصحابها "

كم مرّة صرختُ في هذا الذي يختفي وراء الستار والذي يحركني كما يشاء، ليعرّف بهويته،
فكنت كمن يحدث الجبل!

تكلم يا من يسكن بين الضلوع، ما نسبك الحقيقي، ماذا تفعل داخلي وما علاقة القربى بيننا؟
كم مرّة تحابلتُ على صمته بشتمه والتملق الرخيص، فكنت كمن يشتم السماء ويتملق
البحر!

أواصلُ مع هذا استفزازه: هل ثقيلٌ لذاتٍ، أنت في آخر المطاف جوهرها، يمثل هذه
المظلمة؟ هل يمكن على الأقل أن تحسّن خدماتك؟ اتفقنا إذن. لا تصاعد بعد اليوم من
أعماقك لألم أو أمل، لغضب أو لإحباط، لخوف أو لحزن.

يخيّل لي أنه "هو" الذي يبتسم ولسان حاله يقول: مرفوض، مرفوض، كل شيء مرفوض
ولا داعي للإلحاح.

ما يواسيني بعض الشيء أنني لست الوحيد في مثل هذا الوضع.

كم سمعتُ رفاق الرحلة يشكون من المجهول الساكن داخلهم: جرّبت إغراقه بالخمير، إطفاء
لهيبه بهذا المخدر أو ذلك، ترويضه بهذا الدين أو بتلك الفلسفة، بالحكمة أو الفن... عبثاً.

طرقت بابيه بالعلم فلم ينفع، بالتفلسف فلم ينفع، بالفن فلم ينفع، بالرّجاء فلم ينفع.

لا نتيجة أياً كان الباب الذي تُطرق، والشيء أصمّ لا يسمع، أبكم لا يتكلم.

إني أشهد في نفسي صراعا وعراكا (إيليا أبو ماضي)

وأرى ذاتي شيطانا وملاكا

هل أنا شخصان يأبى هذا مع ذلك اشتراكا

أم تراني وأهما فيما أراه

لست أدري!

لم لا أنتقم لنفسي من هذا الساكن داخلي حتى ولو كانت نفسي؟

ها أنا أدخل إحدى الدور المظلمة التي نحبّ الجلوس فيها لمشاهدة قصص الذوات الأخرى
ومشاكلها التي لا تنتهي. أتوجه إلى المرأة الواقفة خلف منضدة تستلم المعاطف الثقيلة: لا
معطف لي، لكنني أودعك "نفسى" للسهرة، لا حرج إن ضيعتها وهذا بقشيش محترم لأجل
الخدمات.

سيناريو انتقامي آخر.

أتوجّه الى المرأة وأنا أخلق ذقني: ما رأيك في الاحتفاظ بهذه النفس التي ترفض أوامري وافعلي بهما ما تشائين.

تخاطبني المرأة: من أين لي أن أرفض لك طلبا، هل أنت مستعدّ؟ تعطي إشارة الانطلاق لعملية امتصاص الأنا المغضوب عليه. ومن الغد تبرز الصحافة الشعبية بعناوين صاخبة على الصفحة الأولى: "حالة لم يسبق لها مثيل، شخص يكتشف أمام امرأة لا تعكس له صورة وهو في حالة ليست الموت وليست الحياة. الأطباء لا يجدون تفسيراً للظاهرة." ثمة إمكانية الطلاق كما يفعل كل الأزواج الذين أرهقهم الخصام واستحال بينهم الوفاق. أين القاضي الذي سيصدر الحكم، ما الوثائق التي سأقدمها ضدّه هذا الأنا الآخر الذي يعاكسني؟

ماذا لو سارع "هو" بتقديم القضية ضدي عملاً بمبدأ كل الخبثاء: ضربني وبكي وسبقني واشتكي.

كأنني أسمعوه وهو يقدم للقاضي وثائقه المزيفة: يبصر ولا يرى شيئاً، يسمع ولا ينصت أبداً. لا ينتبه إلا لأقلّ الأشياء والأمور شأناً. أسرّ في أذنه بألف حقيقة فلا يفهم واحدة، وإن فهم، فبالصدفة أو على وجه الخطأ. له في كل موضوع رأي سخيّف. لا يثبت على موقف إلا إذا كان الهذيان عينه. ذهنه قمامة أنظفها دورياً فيسارع إلى ملئها بكلّ أصناف الوهم والهوس. ذاكرته لا تحفظ لروائع الرحلة أثراً. أشير عليه فلا يسمع. أنبّهه فلا ينتبه. أعلمه فلا يتعلّم. أهذّنه فلا يهدأ. أحاوره فلا يفهم لي قولاً. أمره بما هو في مصلحته فينتطع. أدفع عنه الأذى فيؤذيني. أبريه من الألم فيوجعني. أحميه من طيشه فيُمعن في النزق. أريه الطريق المفتوح فلا يتوجّه إلا إلى الهاوية، أفتح عينيه على الروائع فيغلقلها بعناد الطفل المدلّل. أُلّف لعنة على هذا الشكل الذي قبلت التجسّد داخله. لا بدّ من نقاش معمّق مع الهندسة العامّة حالما تنتهي هذه المغامرة. أيّ جدوى لتبذير الجهد في مثل هذا الكائن السخيّف؟ نعم يجب إنهاء تجربة بمثل هذا الفشل.

لا أتحمّل مزيد التجنّي. أبدأ في تصفيف هذه الاتّهامات الظالمة لدحضها الواحدة بعد الأخرى، وقد قرّر القرار أن أكون أنا الشاكي لدى الهندسة العامّة بل والمطالب بتعويضات ضخمة.

عبثٌ كل هذا التفكير؟ طبعاً. لا ينفع في الأنا المخفي أي تهديد.

تدخّل فراش النوم هارباً منه فتجده يتربّص بك داخل ألف كابوس.

تستيقظ على أمل أن يكون قد انحلّ أو تغيّر فإذا به هو الذي يوقظك.

تنتكر علّه لا يعرفك فتكتشف أنّه كان القناع.

تبغي قتله فإذا به اليد التي تربط الحبل والرجل التي تدفع بالكرسي.

طوال بحثك عن هذا الحاضر الغائب تُفاجأ ببعده اللامتناهي وبقربه الشديد.

تفاجأ أنه أنت تتأمل صورتك في المرأة، أنه صورتك في المرأة تتأمّلك أنت.

ولمّا تتصوّر أنك أمسكت به تكون كمن انغلت قبضته على الريح.

في آخر المطاف ما هذه الذات التي تنفصم لجزء على السطح يضحّ بالشكوى، وجزء في
الأعماق لا يتكلم، لجزء ينفذ صاغرا وآخر يأمر دون تكلف عناء التفسير، لجزء يجهل
تقريبا كل شيء وجزء كأنه يعلم تقريبا كل شيء؟
أي خيار غير مواصلة البحث عن طبيعتها والتحكم فيها بفهمها لا يعني شيئا آخر غير
اكتساب الأدمي أكبر سلطة يمكن أن يحلم بها .
الذي يعرف البشر دوما حذر (لاوتسو)
الذي يعرف نفسه محفوف بالنور
الذي يروض البشر قوّي
الذي يروض نفسه جبار
المشكلة أنك طوال هذا السعي كالفارس الذي يركض في كل اتجاه بحثا محموما عن
الفرس... التي يركب!

**

الحاوي والمحتوى أو الطريق المسدود

في بعض الملفات المتعلقة بهذا البحث، تحديدا بما الذي يوجد تحت غلاف الذات ، يبادرنى الطبيب الشرعي ضاحكا:

- اسمع يا فتى، هذا مريضك ومن حقك أن تعرف بماذا قتلته.
- كان صديقا عزيزا من بلاد الشام مهذارا لا يكفت عن المزح وكنت سعيدا أن يكون هو لا غير من سيعينني على تحمل حصة تشريح لم يكن ممكنا تفاديها.
- الأعراض السريرية لورم في الجهاز الهضمي ومع هذا لم تُظهر الصور شيئا. أريد التأكد من سبب الوفاة لإغلاق ملف هذا المسكين.
- تؤمر أمر لكن انظر فقط ولا تفعل إلا ما أطلبه منك، فالتشريح علم لا تقدرن عليه أنتم يا من لا تعرفون سوى وصف السموم.
- لا تضيع وقتي يا جزار، هيا توكل على الله.

يا لبحتنا ونحن أطباء هذا العصر نشرح مثل هذا الجسد المسجى على الجليز لا خوف من شرطي وقاض وجلاد! كم من أطباء في عصور غير بعيدة علّقوا في المشانق لتشریحهم في الأقبية المظلمة جثنا مسروقة من المقابر... هم أيضا كانوا يفتحون مثل هذه الجثة حجتهم العلم والدافع الحقيقي اشباع الفضول بخصوص القوة المجهولة المختبئة تحت الجلد... القوة التي تجعل منا أحياء عندما تكون وجثنا هامة عندما تختفي بسبب هذا الورم الحقيير أو بأي سبب آخر!

يرسم الزميل بسكينه أهدودا عميقا في الجسد العاري ينطلق من تحت الحلق إلى الصرة. يدخل يده تحت الفكّ الأسفل مستلا بفضاظة ودفعة واحدة اللسان والحنجرة والمريء والقصبه الهوائية. ثم يشقّ الصدر مخرجا من داخله هذا العضو الذي ما زالت القصص القديمة تجعل منه معقل الحبّ.

لم يبق إلا انتزاع كيسين يحتلان جانبي قفص العظام يمتلئان بأول نفس للقادم الجديد وينطلق منهما آخر نفس عند لحظة الرحيل النهائي.

يرمقني الزميل ساخرا.

- مالك؟ هدى من روعك، تصوّر أنك بصدد تقطيع كبش العيد لا أكثر.
- كأنّ هذا الغبي يعلم، كأنه يستغلّ الفرصة لينكأ أقدم جروحي! يواصل استفزازه شجّعته تزايد ارتباكي.

- أتريد أن أنادي لك طبيبا؟

- ها ها، نكتة بانخة لا تصدر إلا عن ثقيل دم مثلك!

يصرخ منكفا مزيدا من الاستفزاز:

- انتهى الشوط بالضربة القاضية على جثة السيد... السيد من؟ انظر إلى اسمه على الورقة المربوطة في رسغه.

ما زال على ملامحي ما يستقرّ عند الرفيق مزيدا من العدوانية الضاحكة.

- يا ولد، منظرِك يرثي له الأعداء فما بالك بصديق مثلي. لا تحمّل نفسك ما لا تطيق. اخرج لحظةً لتتنفّس شيئا من الهواء الطلق. أعدك أنني سأكتم السرّ يوما على الأقل، الوقت الكافي لكي تعدّ أكاذيب الدفاع عندما أفضحك أمام الزملاء.

- قلت لك كفت عني لسانك وابهرني ببراعتك في قصّ اللحم.

نواصل التشريح بصمت مفاجئ ويواصل الجسد الساكن تجاهلنا ونحن لا نتوقف لحظة عن استفزازه بالنخز والقص والاقتراع والتقطيع. لم تطلق شفتاه أها واحدة احتجاجا على انتهاكنا حرمة الترابية. لكن هل نحن أوّل من اعتدى عليها؟ بل هل كان له يوما حرمة ترابية أصلا؟ هل كان حقاً سيّد جسده هذا؟

تكشف لك الأيام أن ما تظنه ملكك أنت لا غير هو منذ الإفاقة تحت سلطة الآخرين بدءا من الأبوين والمجتمع والدولة والأطباء وصولا لحاملي النعش وحافري القبر ثم الدود والجراثيم.

كم هي اللحظات التي انتبهتُ فيها إلى جسدي (عبد اللطيف الإدريسي)

الذي سيغدو الجثة-المأوى لكل الحشرات السافلة"

يصرخ الزميل بطريقة مسرحية:

- انظر إلى الكبد، صاحبك كان من هواة بنت الكرم. بالمناسبة، ألم تخالجك يوما الفكرة أن هذا الكبد لا يختلف، في شكله ولونه وربما في طعمه، عن كبد خروف العيد؟

ثم يغمزني:

- كبد هؤلاء الكحوليين ضخم بما فيه الكفاية. سأضع لك رطلا جانبا، وإن أردت شيئا من لحم الكتف لا تتردد في الطلب. انتبه فقط عند الخروج، ألا تسقط الفقة من يديك أمام المرضيين. يكفي ما يقال عنا، حتى لا تخرج غدا جريدة عنصرية بعنوان بارز عن اكتشاف شبكة أطباء عرب لتزويد حوانيت شاورمة المدينة بلحم موتى المستشفى الجامعي.

- كفى ثقل دم. لا يهمني الكبد. افتح لي المعدة والقولون ثم الأمعاء. كل أعراض السرطان كانت في الجهاز الهضمي.

أهرش رأسي غير منتبه أنني لم أخلع بعد قفازي.

- هل ترى شيئا؟ هل وجدت هذا الورم اللعين؟

- الورم، لا، وإنما وجدت كثيرا من البراز. تريد الحقيقة يا فتى، تشخيصك كان مخطئا من البداية. لننتظر المعلم، إما يبرئك وإما... الويل لك من لسانه... والأنا ما رأيك في فتح الجمجمة؟ اغتنم فرصة رَوْقان مزاجي لسياحة مثيرة في أعماق المسكين.

يبدأ المهني الماهر في قطع فروة الجلد بسرعة وليّها من طرفيها ثم يأمرني بمسك بمنشار لنشر الجزء الأعلى من العظم. أخيرا الغنيمة المرجوة: عضو رخو رمادي مائل إلى الصفرة ما زال مغلفا بغشاء هشّ لم يقاوم طويلا المقصّ والسكين. ينقضّ صاحبي على الدماغ يفصله من جذعه ويستلّهُ من مخبئه العظمي ثم يرميه بلامبالاة مدروسة فوق الطاولة.

أه هذا هو العضو الذي تقول عنه قصص العصر إنه معقل النفس الفكر والعقل! انتهى التشريح. لم يبق داخل الجسد عضو رخو يقطر دما. كل الأشلاء بين يدي الآن. كل مكونات الجسم مصطّفة على الجليز الأبيض.

الجسد الذي تقول الرؤى السائدة أنه الحاوي المغلق على أهم محتوى اسمه الروح الآن مثل كتاب مرّقت وبعثرت كل صفحاته، مثل شجرة اقتلعت من جذورها وأسلمت للمنشار والفأس، مثل أسطوانة مُحيتّ منها كلُّ الأنغام ولم يبق بين يدينا منها إلا الغلاف والبلاستيك الحقيق، مثل أعقد وأثمن لعبة نجح طفلان كبيران في فتحها وبعثرة مكوناتها لا يفهمان منها شيئا ولا يقدّران ما ورائها من عبقرية الصانع كم تكلف صنعها من ملايين السنين.

لم يبق إلا الطقس الأخير وهو لا يقلّ بالنسبة للطبيب إز عاجا عن تقطيع الجثة. كان رئيس قسم الطبّ الشرعي يأتي آخر الصباح ليتوقّف طويلا أمام الأشلاء يتفحصها من وراء نظاراته السميكة باهتمام فيه فضول الباحث وحيرة الجاهل وتكأف الممثل. كان يقبلها بقضيب حديدي يتأكد أولا أنها موضوعة بكل عناية ونظافة على طاولة الجليز الأبيض، أننا صفتناها وفق أوامره. كانت دقّة القطع وبراعة القصّ من شروط رضاه، ثم كان يمرّ لتفحص العلامات التي تفسّر آخر فشل للمريض وآخر تشخيص خاطئ لطبيب مكسوف.

يطيل الرجل النظر إلى الأشلاء الدامية متوقفا طويلا أمام الأمعاء المفتوحة. - انظر إلى هذه الحبة الصغيرة! إنه ورمك يا عزيزي. تقول إن الأشعة لم تكشف عنه. غريب أنه في الواقع من حجم كاف ليظهر بوضوح على الصور. مؤكّد أن نظاراتك ليست بالقوة الكافية ورأيي أن تطلب فحصا من أحد زملائنا أطباء العيون. ربما كان سرطانا قابلا للاستئصال لو شخّص في الإبان... أه كم مؤسف!

لم تبق إلا الجملة المعهودة، خاصة النيرة التي يتفنّن بتقليدها كل الأطباء الشبان المتعاملين مع الرجل: إلى اللقاء يا عزيزي، ومعناها أن طبيبا جاهلا مثلك عاجز عن التشخيص على الحيّ سيتردّد كثيرا على المشرحة يرهقنا بالعمل الزائد. لا يمكن أن أترك هذا الرجل يسخر مني.

- يا " مسيو"، ما أسهل التشخيص بالمنشار والمقصّ وعلى ميّت. يفنعل الرجل الترفّع عن الدخول في مهاترة مع مُقيم وقح. يلتفت إلى زميلي الواقف وراءه يخفي بصعوبة ضحكه. يملي عليه الوصف الدقيق لحالة الأشلاء الذي سنغلق به ملف هذا الكومة من اللحم. ثم ينصرف دون أن يحيينا.

- يا حيوان لقد جرحت "المعلم" وقد ينتقم مني.
- هل يظن هذا البليد أنني لم أُجرح؟ اللعنة عليك وعليه وعلى التخصص الذي اخترتما، يا أشباه الأطباء، يا جزارين، يا بنو فرنكشتاين!
- وتظن بعد هذا الكلام الخطير أن الدار ستزودك مجاناً بالمخ الطازج وأفخر أنواع الكبد الدسم. اهدأ يا ولد. لم يقصد الأستاذ تحميلك وزر موت المريض وإنما هي مزحته الأزرلية مع كل الأطباء الذين يطلبون تشريح حالاتهم. تعال نخيط الجثة ثم بعدها أدعوك إلى قهوة ساخنة تعيد ملامح آدمية لوجهك.
- جزارون وخياطون أيضاً. يا له من تخصص!
- تحسبنا لا نهتم بأناقة جثتنا؟ نحن نعيدها إلى أصحابها في أحسن حال.
يبدأ صاحبي بخياطة الجرح الذي شقّه على طول الجثة ثم ينتبه لسهو.
- نسينا الجرائد.

نعيد تمزيق الخباطة لنحشو الجثة بما تيسر من آخر أعداد الجريدة الصباحية. كذلك نفعل مع القحف الفارغ. مؤكّد أن صاحبنا لن يشعر بالملل إذا كان من هواة كرة القدم فالجريدة رياضية والعنوان الغليظ بخصوص انتصار فريق المدينة الساحق.
يخرج من قاعة التشريح طبيب شاب بتشخيص دقيق لسرطان قتل مريضاً آخر. يخرج الطفل الذي بداخله يد فارغة وأخرى لا شيء فيها وهو متزايد الامتعاض من عجزه عن فهم ما الروح، أين توجد ومن أين تخرج عندما يختطفها ما يسمونه الموت.
*

في ملفت أول لقاء مع الكلمة الغامضة، تطلق "ما" صرخة مدوية وقد وصل العويل من بيت الخال والجار منذراً بحدث جلل.
ترمي كل ما بين أيديها، تهرع إلى البيت القريب تحضن خالة جالسة في حلقة نساء يلظمن خدودهن ووسطهن رفيق اللعب مسجى بلا حراك.
ذهن الطفل الآن فوضى مطلقة. ما الذي يحدث هنا؟ هل يحمل على محمل الجد إعراض حسين عن قدومه؟ مؤكّد أنه سينهض صارخاً من مرقد ليقفز جرياً معه نحو أشجار الزيتون واللوز.
يواجه الطفل لأول مرة باحتمال أن ابن خاله لن يلعب معه لا هذه المرة ولا المرّات القادمة. يصبح الشك يقينا والكبار من الرجال يحاولون إبعاده برفق مشبوه ولطف غير معتاد ليأخذوا الطفل الآخر بعيداً عن الأنظار وهو دائماً ساكن لا يبدي اهتماماً بوجود ابن عمه متزايد الحيرة والهم.

همس متقطع بين النساء عن الروح التي عادت لخالقها وكيف أنه لا مردّ لحكمه.
عند الرجوع إلى البيت تنزاح الأسئلة في ذهن حائر: هل من الممكن أن تقرّر روحه هي الأخرى الفرار من جسده فيضغونه في خرق بيضاء وتأتي خالته لتولول ووجهها مدفون في صدر أمه؟

لا بدّ من إجابة تطفئ القلق الذي شبّ فيه هذا الصباح كما تشبّ النار في الهشيم.

- "ما"، أنا لي أيضا روح ستخرج مني؟

- بعيد الشرّ عن وليدي وسبعة أطاف وخمسة وخميس وعين الحسود فيها عود، قل أعود برب الناس من الشيطان الخناس.

حقا الحب تلتّف ورحمة وإشفاق وحرص وإعجاب وأثرة، لكن لو تمعنت في مكوناته لوجدت أن أهمها الخوف، لأن هذا الذي نحب ثمين وجزء كبير من أهميته تأتي من كونه هشا، عرضة للعطب، مؤهلا لتختطفه منك في كل لحظة تقاطعات الطريق.

الأم الآن في أوج الحب لأنها في أوج الخوف، هي التي تعرف ما لا يعرفه ابنها عن الأمراض القاتلة التي تهدد حياة أطفال الفقراء.

- "ما"، أين ذهب روح حسين؟

- إلى حيث دعاها خالقها... إلى فسيح جنّته يا حبيبي.

- ولماذا دعاها خالقها؟

تضع الأم إصبعها على شفّتي الطفل. يفهم من نظرتها أنّها لا ترغب في الخوض في الموضوع. أما هو فلا رغبة له إلا الخوض فيه.

- "ما"، هل لكل الناس روح؟

- نعم يا بني.

- حتى الجيران؟

تحاول الأم منع ريع ابتسامتها من التحول إلى ضحكة مكتومة.

- حتى الجيران.

- "ما"، ما معنى الروح؟

تتخلّص من الحرج بمحاولة المزاح.

- هي أنت يا روعي.

لا تزيد الإجابة الطّين إلا بلّة تضيف الحيرة للخيرة.

تصرّ "ما" على التملّص من السؤال الضخم. يجب ترصد ظهور الدليل الآخر. لا بدّ أنه يعرف ما تجهله أو تخفيه "ما".

في أول لقاء يبادر الطفل والده بسؤال غريب جديد.

- "با"، ما هي الروح؟ لماذا خرجت من حسين هل تعود عندما تخرج؟

تتغيّر نبرة الصوت. تتلاشى منه نبرة المرح. ها هو يمارس طريقة "ما" في التهرب دون وابل القبل متحدثا بكلمات غير مفهومة عن حضور "الساعة" دون أن يتكلف عناء شرح ما "الساعة" ومتى تأتي ولماذا تأتي ولماذا تسمّى الساعة وليس الدقيقة.

ومما بقي عالقا في الذهن من خطبته الطويلة أنها منّة من الله حباننا بها دون الحيوانات، أنّها قوة موجودة داخل قلوبنا وأنها هي التي تحرّكنا وتتحكّم في كل ما نحسّ ونشعر به، في كل ما نفعل ونقول.

كم كان الرجل يغالط طفلاً بريئاً وهو يتبخر في الحديث عن الروح بطلاقة من ملك المشكل من نواصيه، والحال أنه كان يعيش على تصورات ساذجة تشيعها منذ آلاف السنين رؤى غير متقنة مفادها أن كل واحد منا له حاوي اسمه الجسم ومحتوى اسمه الروح والموت عندما يفرغ كائن مخيف اسمه عزرائيل الحاوي من محتواه.

يوضع الملفت على رف من رفوف الذاكرة. تمرّ السنوات والعقود قبل أن يعاد فتحه وقد توفرت معطيات جديدة وإن لم تكن حاسمة.

تصرخ الممرضة: أسرع يا سيدي! صرع متتابع النوبات منذ ساعات.

أواجه بجسم ينتفض ثم يسترخي ليعود إلى الانقراض. منظر أثار على مرّ التاريخ موجة عارمة من التقرّز والرعب. هذه المرّة لن تنتهي الأزمة تلقائياً وقد ترابطت النوبات الواحدة وراء الأخرى.

الصببية في خطر الموت. من حسن الحظّ أن دواء "الفاليوم" سانلاً في الشرايين أنفع من التعاويذ.

لا بدّ من الصبر قبل أن تسترجع المريضة كامل وعيها والقدرة على الردّ على أسئلة المهني الذي استعاد هو الآخر كل انتباهه.

- يا أنسة، أريد كل التفاصيل لأنها ستساعدنا على تحديد مكان الخلل. ما الذي تشعرين به بالضبط قبل فقدان الوعي؟

- بالتباعد وبالغرابية. كأنني في حلم. تقول أمّي إنني أمشي إبان النوبة ولا أتذكر أنني مشيت. تقول إنني أتكلّم ولا أتذكر إنني تكلمت.

كيف لا تأتي الأدميين فكرة التقمص وكأن الروح التي تسكن الجسد في التصورات الشائعة تخرج في هذه الحالة لتحلّ محلّها روح أخرى، غالباً روح شيطان ما؟

أحمل صور الدماغ إلى رئيس القسم متنقل الخطي:

- سيدي، إنه ورم ضخم وعميق في الفصّ الأيمن؟

يلقي الجراح المحنك على الصور نظرة متمعنة مقيماً ما سيلفاه من صعوبات وهو يستأصل الورم الخبيث.

- سأحاول أن أفعل شيئاً لكن هذا النوع من السرطان فوق كل أمل. أدخلها حالاً إلى غرفة العمليات.

حول طاولة معدنية سجبت عليها المريضة المبنجة، يتجمّع رجال ونساء بأرديتهم الخضراء ووجوههم المقنّعة وأيديهم المغطّاة بالقفازات، كأنهم كائنات وصلت لتوّها من عالم آخر.

يُخلق شعر الفتاة لتنتشر على الأرض جدائل شقر أحاذر لمسها برجلي كأنّ بي خوف تدنيسها. يبدأ العمل الجدي بخلع فروة الرأس ونشر عظم القحف وشقّ غشاء شفاف هو آخر ستار يحجب حسب الإشاعات الرائجة مركز الروح وعربنها. عليّ أن أكون ابتداء من الآن منتبهاً أشدّ الانتباه، حذراً أشدّ الحذر، حاضراً بكل حواسّي، خاصّة و"المعلم" صارم لا يرضى من مساعديه إلا بمطلق الانضباط.

ها هو أخيرا العضو الأصفر الرمادي الرخو الذي يختبئ في أعماقه الورم الخبيث. مسكين ذلك الفيلسوف المسمّى ديكارت الذي خرج بحقيقته مدّعيا أن الروح بكل وظائفها موجودة داخل غدة يتيمة تتوسّط العضو الرّخو ومنها تخرج كالهواء من بالون مثقوب لتذهب إلى مكان آخر تواصل فيه قصة دخلت منعرجا جديدا. كم من علماء أكثر منه جهلا أدعوا بعده أن معقلها بطينات هذا الدماغ ووزعوا مكوناتها بخيالهم الواسع كما شاءوا: الأحاسيس في البطنين الأول والتخيل في البطنين الثاني والفكر في البطنين الثالث والمشاعر والحركة في البطنين الرابع ... والحال أن هذه البطينات فراغات داخل الدماغ لا تحتوي إلا على الماء!

كيف لا يضع هؤلاء المفكرون الروح داخل الدماغ وكان البعض منهم قد وضعها في السابق في القلب والكبد وقد ينقلها بعضهم غدا داخل الخلية، فالصبغيات شوارد النّرة... ألا يعيشون داخل تصور لعالم هو أكبر علية تحتوي على كل الموجود من العلب؟
يلحظ "المعلّم"، ونحن نقترّب شيئا فشيئا من الورم، شرود ذهني. ينهني بفضاطة فأنّتيه محرّجا. تتصاعد الحدة والعصبية في صوته وهو يأمرني بأن أنقل إليه هذه الأداة أو تلك، أن أفعل ما يقول، لا ما أتصوّر أنه قال.
يفصم العقل أو الانتباه أو سمه ما تريد إلى جزء يأتّمر بأوامر أستاذي وجزء يواصل العمل لحسابه الخاص رغم صراخ الرجل المتزايد توتّرا.

الروح، النفس، الذات، فوضى مفاهيم يجب الخروج منها ... كيف؟ الانتهاء منها ... اعتبار الروح زبدة خصائص الجسد وأوج قدراته في حالته التي نسميها الحياة... بالضبط كما هو الحال مع الفكر الذي هو زبدة خصائص الدماغ السليم وهو سليم في أوج عطائه... داخل تصور كهذا لن تكون بحاجة إلا لمفهوم واحد هو الذات وإن بوجهين متباينين ومتكاملين الوجه الحسي الذي نسميه الجسد والوجه غير الحسي الذي سماه الأوتل النفس أو الروح... نموذجا قطعة النقد الواحدة المنحوتة من نفس المعدن وبسطحين متباينين لا يمكن الفصل بينهما.

تتصاعد حدة صوت "المعلّم" وهو ينهر الممرضة والمبنيج ويصرخ أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا مع كل هؤلاء الاغبياء المحيطين به. الرجل في حالة من الكرب ولا داعي لأخذ صراخه على محمل الجدّ. بداهة هو غاضب من نفسه، من عجزه، من الأقدار الظالمة التي وضعت مثل هذا الورم الخبيث في مثل هذا الرأس الجميل.

يتصاعد من أعماق الذات صراخ صامت: بحق كل أنصاف العلماء وأشباه الفلاسفة، بحق كل جهل الأدميين، بحق كل آمالهم وآلامهم، بحق كل إثمهم وبراءتهم، لتعط لهذه الفتاة فرصة!

كأنّ العالم هو الذي هرّ كنفه.
يضع الأستاذ جانبا كل أدواته يخلع قفازه وينصرف صامتا.

أخرج من غرفة العمليات بوجع في الظهر لطول الوقوف، بوجع في الرأس لطول التركيز، وبوجع في القلب والشعر الحريري يرمى بلامبالاة في المزبلة. يصرخ "المعلم" فجأة وهو يهرول إلى قاعة العمليات المحاذية حيث ينتظره مريض آخر:

- اعلم والديها أن كل ما في الأمر ربح بضعة أشهر.

-سيدي، هل من الممكن أن تخبرهما أنت؟

- لا تتهّب. هذا أيضا جزء من المهنة ولا بد أن تتدرب عليه.

تلمع نظرات عدم التصديق في عيني الأب. تنفجر الأم ببكاء صامت.

ألوذ بالفرار لأرمني بجسدي المرهق على أول كرسي أصادفه في الممر. أخلع حذائي لتفقد حالة الانتفاخ في قدمي. غريب أنني لم أنتبه لهذا الجزء من جسمي وكل عنايتي منصبة على الأجزاء "النبيلة" منه. غريب تجاهلي لأهمية القدمين؟ وهل كنت أنتصب لولاهما؟ هل تمتعت يوما بسحر الغابات والشواطئ والجبال مشيا على رأسي؟ بل وهل كانت النصوص تتألف داخل ذهني لولا ساعات المشي الطويل؟ لماذا لا أختلق لي نظرية تمشي بذكرها الركبان تدّعي بكل صلف الجهلة أن القدمين هما معقل الروح؟

نعم، لنردّ الاعتبار إلى هذا الجزء المظلوم من كيان الأدمي. إن أصبحت من الرجال الذين تنحت لهم التماثيل، ليقصر تمثالي على قدمين التحمّتا بالطريق. يمكن للنحات أن يأخذ بعض الأفكار من جياكومتي فهو الفنان الوحيد الذي أعطى للقدمين ما يستحقان من اعتبار. توقّف في أروع أعماله عند قصبه الساق لا يعنيه كل ما فوق. ...كل ما فوق؟ المحمول على هذين القدمين ...جسدي والنسخة الوحيدة التي أمك منه.

أنتبه فجأة أنه ما زال متماسك الأجزاء، صالحا للعمل بعيدا عن لحظة التفكك وتقديمه غذاء للكائنات السافلة... أنه لا زال النمر الذي أروض، الخروف الذي أحمي، الحمار الحرون الذي أدفع إلى الأمام، الخنزير الذي أمنعه من التمرغ في الوحل، الجمل الذي يحمل كل الأثقال، النسر الذي أحلق به لأرى العالم من أرفع موقع.

يقطع عليّ تتابع الأفكار مرور عجز مرتعش ذاهل مرتبك تقوده ممرضة إلى مختبر قياس الذاكرة والمدارك العقلية لفحص روتيني قبل كل عملية على الدماغ.

فجأة يتضح لي طريق آخر لمواصلة الجري وراء الفرسان شاردة التي أنا على ظهرها طول الوقت.

أو كيف أن الذات ذاكرة متعددة الطبقات أو لا تكون

على تخوم عالم النوم واليقظة يتوجّه عجوز نحو نافذة الغرفة لبيتسمر محدقا في شجرة زيتون علاها الغبار. يلتفت إلى بابٍ يُفتح وامرأةٍ ترندي الأبيض تُبادرُه مُفتجلة المرح:
- صباح الخير يا سيدي، أرجو أن ليلتك الأولى بيننا كانت طيبة. هلا تبعتني الآن لمقابلة الدكتور.

مَنْ هذه الأنثى؟ لماذا تبتسم لي؟ من أين تعرفني؟ أين أنا؟ ما الذي أتى بي إلى هذا المكان؟
تواصل المرأة المجهولة كلاما لا يعني بالنسبة إلى الرجل شيئا:

- هذا اسمي مكتوب على أعلى الصدر: الأنسة زهور. انتبه دوما إلى الأسماء المكتوبة على الأبواب لتتذكر الطريق. وصلنا إلى العيادة. لن أقدم لك بنتيك طبعا، ستحضران المقابلة مع الطبيب وللردّ على بعض أسئلته.

طبيب؟ ما معنى طبيب؟ من هذا الشاب الأسمر؟ من هذه المرأة ذات الشعر الكستنائي والأخرى ذات الشعر القصير الفاحم؟ لماذا تتفحصانني بهذه النظرات الدامعة؟
تجبل المرأتان النظر بين الطبيب الشاب والمريض العجوز، تداخلت الحدود وامحت الفواصل في نصّ يرفض الالتزام بالحيل المعهودة للزمان. هو وحده العليم بأنهما تُجبلان البصر بين الشاب الذي لم يُلدهما بعدُ ووالدهما الذي شارفت رحلته على الانتهاء أقطع نهاية.

يتحصّص الطبيب شكله المرتعش القادم من مستقبل غامض مغالبا قلقا لا يفهم تفاقمه، ثم يستجمع شجاعته.

- هل يمكن، يا سيدي، أن تقول لي ما اسمك؟

اللجنة على هذا الغبي، ماذا يقول؟ ماذا يريد مني؟

تتدخل المرأة ذات الشعر القصير الفاحم السواد تخاطب الطبيب وهي لا تكفّ عن التحديق في العجوز المتزايد ارتباكا وتوترا:

- كيف يحصل شيء كهذا، لرجل كهذا، بغضّ النظر عن كونه والدنا!

تتدخل الغريبة الثانية صاحبة الشعر الكستنائي الطويل وهي تمسح دمعها:

- خطيبٌ مَفوّة لا يجد اليوم أبسط الكلمات. لا أصدّق أنه "با". كم مرة جلبه الجيران من الشارع وقد نسي أين يقع البيت الذي يسكنه منذ عشرين سنة.

تتدخل التي يسميها النصّ تفيحه:

- معقول ألا يتذكر أنه قائلنا البارحة! أننا نحن من أتينا به إلى هذا المستشفى! أينسى رجلٌ كهذا اسمه واسمي؟

يقاطع المرأتين شبح هو الطبيب والمريض.

- سنبداً بقياس اضطرابات الذاكرة في مختبر المستشفى وسنقوم ببعض الفحوصات الأخرى للتأكد من تشخيص المرض ولا داعي للتسرع قد لا يكون مرض الزهايمر... وحتى لا قدر الله فإننا الخ، الخ.

تتدخل من يعرفها النصّ تحت اسم تفاحة:

- الشهر الماضي رأيناه يمزّق ديوانه المفضل بأسنانه يمضغ صفحاته... ثمة أشياء أخرى نخجل من الحديث فيها تتعلق... بالنظافة... بنظافة اللسان أيضاً.
تريدان العجوزَ مهذباً وهو يتابع لحظةً بلحظةً ذاكرته تنزف كما ينزف المذبوح مما فيه من دم وذاته تلاشي ذاته شيئاً فشيئاً كشكل يفقد مكوناته الواحدة بعد الأخرى وهو عاجز عن فعل أي شيء.

هو الآن ضحية أخبث مرض يمكن أن ينهي الرحلة والدماغ لا ينسى فقط كل ما عاشته الذات، كل ما تعلمت وخبرت وجربت وإنما أيضاً هو بصدد نسيان كيف يشغل مكوناته الواحدة بعد الأخرى وكيف يجب مواجهة العطب الذي يمنعه من أداء وظيفته الأساسية ألا وهي أن يحفظ للذات جوهرها.
من طبيعة الكوابيس -قل من مهامها- كشف أخشى ما تخشاه الذات... ما تحاول عبثاً رميه بعيداً في أعماق اللاوعي.

أليست الذاكرة كـفعلٍ (التذكّر)، وكمادة (المعطيات المحفوظة) الشرط لتواصل هذه الذات في المكان والزمان بكل ما يميزها ويربطها بالذوات الأخرى؟
أليست كل المهارات التي تمكنها من بناء العالم مرتبطة أوثق الارتباط بما تخزنه وما تراكمه وما لا تتوقف عن استعماله لرفع مستوى هذه المهارات؟
هل كل أسرارها مضمنة في هذه الذاكرة التي بدونها لا وجود لها؟
لا شيء والرحلة على وشك الانتهاء أهم من تجديد هذه الذاكرة قبل أن يُطفئ الموت قَتيلَ وعي حائرٍ أو أن ينفخ عليه قبل حلول الأجل مرضٌ حقير اسمه العته.

*

السفر الآن داخل الذات في مخطط استكشاف شبيه بالذي تضعه لنفسك وأنت تقرر زيارة بلد سياحي حافل بالأماكن الأثرية الموزعة على أكثر من مكان .

الانطلاق طبعاً من أسهل واسرع طبقات الذاكرة تفحصا والأحداث لا زالت حاضرة في الوعي بأغلب تفاصيلها -حتى وإن أعاد الخيل صقل بعض مقاطعها- رغم مرور السنوات وأحيانا العقود.

تنزاح ملفات أحداث الطفولة والشباب، أحداث البنوة والأبوة، أحداث الصداقة والعداوة، أحداث الفشل والنجح وكم من ملفات الحب والغرام.

في أعظ هذه الملفات الأخيرة تكفكف "ح" الدمع رغم مرور السنوات الكثيرة على آخر جرح. إنه أول لقاء منذ آخر فراق لا يبهر وجوده وعذابه سوى لذة المصالحة واستئناف الخصام.

- هل تذكر لحظة الوداع؟ بقيت على الرصيف أنظر إليك وأنت تجلس حذو النافذة. فتحت الجريدة واستغرقت في القراءة. لم ترفع أنفك عنها والقطار ينطلق. آنذاك قرّرت أن أجلس على أبعاد صخرة على الشاطئ في ظلمة الليل ثم أطفئ النور داخلي نهائياً. تراجع آخر لحظة لأنك لا تستأهل شيئاً كهذا أيها الوبش، أيها الخائن. أنا التي كان عليّ أن أعطيك تفاحة وتفيحه.

- لم أكن أقرأ وإنما كنت...

- لا تحاول إقناعي بأنك كنت تخفي دموعك ولو أنني لن أستغرب الأمر. كم حلمت أن تبكي ورأسك على صدري.

أقول ل "ح" أعود للاستفزاز الضاحك الذي طبع دوماً علاقتنا.

- هل قرأت الخبر الذي نقلته جريدة الجزيرة على صفحتها الأولى: عجوز تفاجئ زوجها، صاحب التسعين حولاً ولم يسأم، في فراشها مع عشيقته ذات الثمانين ربيعاً. لله درّه، فحل إلى آخر لحظة.

- هل بوسعك أن تكون مثله؟

- ماذا؟ أتشكّين في ذلك؟ هل من خيار آخر بعد أن أيقنت أن لا فائدة من الهرب منك، أنت التي أهرب إليها كلما أصابتنني مصيبة مع النساء.

- أريد أفعالاً لا أقوالاً.

- سترين عند المغادرة.

تفتح موظفة النزل فمها وأنا أدفع الحساب:

- حجز لصيف 2035، بعد ثلاثين سنة؟ تسخر مني يا سيدي!

- لا أسخر منك أنت. بل هذا ثمن الغرفة مسبقاً. رجاء إذا تأخرنا أو لم نأت لأننا سافرننا بعيداً، فلا تسلّموها قبل السادسة ظهراً.

وعند باب النزل تدير لي "ح" ظهرها فأصرخ فيها داهمني الفزع:

- إلى أين؟

- ربما ظننت عندما قبلت هذا الموعد أنني تراجع في قراري.

- من يتفهمك أحسن منّي، أنا أيضاً لا أريد شيئاً أكثر من فراق من تفارقين، لكن الأمور ليست بالبساطة التي...

- بلى، وداعاً.

عبثاً أصرخ في "ح" وهي تدير لي ظهرها راكضة نحو نفق المترو.

- يا امرأة انتظري، قفي، ثوبي إلى رشدك، ما زال هناك أمل. طيب، لا تنسي موعداً والغرفة بالثمن الذي دفعوني.

لا أحد عبر العالم وحيدا لكن لا أحد يصحبك فيه من البداية إلى النهاية. حتى الكائن الذي حملك في أحشائه يتركك أو تتركه وراءك ذات يوم. كذلك الأمر مع "الذي منه كل نشوة".
مقدورك أن تمضي أبدا (نزار قباني)

في بحر الحب بغير قلوب
وتحبّ ملايين المرات
وترجع كالمملك المخلوع

من ثوابت قصص الحب والغرام أن لها نهاية كما لها بداية. كأنّ الذات وهي تصل آخر فصل من القصة في علاقتها بالذات الأخرى جذوة نار سقط عليها المطر، موجة لم تعد تحركها ريح، بركان خمد، حلم جميل ارتطم ببقطة بشعة. تقيق كل ذات لوحدها كأنها لم تأخذ من الذات الأخرى شيئا ولم تترك فيها أثرا.

القاعدة أن هيكلية كل قصص الحب ثابتة لا تتغير أيا كان الزمان والمكان، لكن كم من تفاصيل داخل التفاصيل تعطي لكل قصة نكهة تختص بها وحدها وتميزها عن ملايين القصص المشابهة... هذا ما يجعل من قصتي مع "ح" وإن تخضع للسياريو العام قصة فريدة لم تحدث إلا لي إذ يستحيل أن تكون ذات أخرى قد جربتها في نفس الظروف زمانا ومكانا وتفاصيلا وعالجتها بنفس الكيفية... ترى ما الذي أضافته قصتي لقصص الحب والغرام؟ ترى هل كان فيها شيئا من الابتكار أم كانت تكرارا مملا لنفس السياريو الأزلي؟

أه هذا ملفت ثقيل هو أيضا لكنه عن علاقة حبّ من نوع آخر.
تندافع صور طفلة وصلت إلى محطة من عمرها اسمها المراهقة. إنها المرحلة من الرحلة التي يصمّ فيها الأمميّ أذنيه عن كلّ نداء، وقد اقتنع أنه لا ذكاء يبزر ما في العالم من غباء، لا روعة تنسي ما فيه من فظاعة، لا براءة تعذر ما فيه من آثام، لا رقة تغطّي على ما فيه من شراسة، ولا جمال يجعل قبحة مقبولا. المرحلة التي يقرّر فيها أنه لا حاجة له بمثل هذا العالم وأنه يفضل العودة من حيث أتى.

تصرخ الأم:

- إبهّا لا تأكل منذ أسابيع وأنت لا تحرك ساكنا.

دخلت البنت في إضراب جوع بلا طلب محدّد، فما الذي أقدر عليه؟
أحاول فتح منفذ للقلعة المغلقة.

- يا حبيبتي، إنها مرحلة صعبة لا بدّ من عبورها.

تدير لي تفيحه وجها تملأ عينيه دموع صامئة ساهمة مطرقة ترفض التواصل مع أيّ كان.
يجنّ جنون الأم الأزلية وهي تتابع عاجزة انطفاء الحياة في طفلتها:

- سيادتك من مؤتمر إلى مؤتمر، من مهمة هامة إلى مهمة أهمّ، من سجن إلى منفى، وهذه هي النتيجة.

يرفع الألم كل تخرج فتُصبح الكلمات سهاما مسمومة ترشقها الأم في قلب الأب المذنب.
- طبعا البنات ليست محسوبة فيما هو هام وخطير. تستطيع أن تنتظر شهورا لترى أبا بالوكالة، وقتّه للإنسانية لا لأطفاله. إنها الآن لميئة وموتها على حسابك وحدك.
يتواصل اضراب البنات عن الحياة وكأنها قررت أنه من الأحسن اختزال طريق الالام والذهاب مباشرة إلى نهاية النفق.

هذه المرّة فافتت ضريبة الوجود قدرة الدفع. صدق من تتهدّ: أيّ مكان تشاؤون شريطة أن يكون خارج هذا العالم. أصدّق منه الذي سنّ القانون: هذا عالم لا منفذ فيه لأحد وأصدق منهما من صرّخ: أوقفوا هذا العالم؛ أريد أن أنزل.

تنتهي تفبحة في غرفة إنعاش قناع الموت على وجهها. على الأرض ظهري مسند إلى السرير محدقا في الحائط. تمرّ أمامي الممرضات يتبادلن ضاحكات آخر فضائح القسم. أفتطع ما في العالم لامبالأته لا ما يلحقه بنا من ألم.

كم بخيل إلبنا أحيانا أن العالم أعد لنا شمسه وقمره وبشره وفرسه خصيصا كأننا ضيوف الشرف في وليمة الحياة. تأتينا الفكرة أنه ثمة بيننا وبينه علاقة غير التي تربطه ببقية الذات، أننا نتمتع بحماية خاصة وبأفضلية في التعامل. يأتي الحادث الغبي أو الرصاص الطائشة أو المرض الحقيّر لنواجه بالحقيقة المرّة والعالم يسحب منا فجأة كل ما أعطى كأنه لا يعرفنا ولا يهيمه من أمرنا شيئا.

أفتطع ما في التجربة هذه اللامبالاة المطلقة التي يظهرها تجاهنا واكتشافنا أنه يعطي كل شيء ويسترجعه غير واع أو مبال بما أعطى وما استرجع ولا بمن غمره بالعطاء وممن افتتق منه كل ما يملك.

"لم نجن بنيا الكرب دنيا المحن (عمر الخيام)

إلا غصص الروح وغم النفس

ما أهنا من مات بهذا الزمن

ما أسعد من لم ير نور الشمس"

كيف تواجه الذات الأخرى الألم عندما يتجاوز كل قدرة احتمال؟ كم من قصص رهيبه عمن استجاروا بالخمير، بهذا المخدّر أو ذلك، وهم كالمستجير من الرمضاء بالنار.

ثمة الحلّ الجذري الوحيد القادر على انهاء عذاب تجاوز كل الممكن قوبله.
لبيّته كل الهمة والأحزان والأسف دفعة واحدة للجميع وإلى الأزل. لتنت تفبحة ولأمت حدّوها. الموت! وليمة من الفكر واللاشعور. "شبعة" من اللاوجود. تخمة من العدم. طفرة من السلام. نهاية كوابيس النوم واليقظة. الراحة الأبدية... وكل هؤلاء الأغبياء حولي الذين لا يخافون شيئا قدر خوفهم منه.

ثمة حتى في مثل هذه القصص هناك مخارج عدة منها التي توصف بالسعيدة... شريطة أن يكون ورائها قوة تتغلق عليها الذات لا تضاهيها قوة في الكون.

لهذه المحن الكبرى الدواء الناجع لما لا قدرة لأيّ دواء على علاجه اسمه الحب.

كم نخطئ عندما نعتقد أن الأشياء والكائنات التي تُحرِّك فينا هذا الشعور هي التي تمنحنا أو تُمنِّينا بأكبر قدر ممكن من المتعة. لو كان الأمر صحيحا لكانت هذه الطفلة المحتضرة أبعض البشر إليّ وهي سبب أقطع ما أعيش من آلام. على العكس حُبِّي الآن لها لا تَسَعه السماوات والأرض.

أحسنَ مَنْ فهِم طبيعته الأعرابي الذي سئَل أيُّ أطفالك أَحَبُّ إليك، فقال المريض إلى أن يبرأ والصغير إلى أن يكبر والغائب إلى أن يرجع. ما القاسم المشترك بين الوضعيات الثلاث؟ الهاشاشة أمام أخطار الطريق. بقدر ما تتعاضم الأخطار التي تهدد كلَّ عزيز علينا بقدر ما يزداد سَعِينا لحمايته بأعلى ما نقدر عليه: الحبّ.

حتى الشيخ الأكبر لم يدرك مَنْ هذا الذي يسميه الحقّ وهو يربط الإيمان به بحبّه فالحقّ ليس هشاً ضعيفاً مهددٌ حياته لا ضمان لتواصلها إلا حُبُّنا له... اللهم إلا إذا قَبَلنا أن حياة كل حيّ حياته هو، وأنَّ حب الذوات التي تبلور فيها هو طريقَتنا الوحيدة للتقرب ممن يبقى من الأزل إلى الأزل فوق كل عبادة وكل حبّ.

أقرب يدي من اليد المتدلّية من السرير كمن يخشى لمس جناحي فراشة بالنار. أراقب تدفّق السوائل المغذية في ذراع لم يبق فيه إلا جلدٌ أصفر على عظم بحجم القلم، ولا قدرة لي أو رغبة في دموع جَفَّت منذ زمن طويل. ليس لي ما أقدم غير حبّ صامت لا تصفه الكلمات. أتوجّه للراقدة على فراش الجمر بالوداع الأخير وباللغة الأولى التي تبادلتنا بها تحية التعارف يوم الوصول: لغة الرّضع.

كأنّ شيئاً ما نفذ أخيراً إلى شيء ما... لمس شيئاً ما... حرّك شيئاً ما... أثر في شيء ما... غير وجهة المسار. أ يكون ذلك لأن هذه الطفلة اللعينة شعرت أنها ظفرت بما تريد... أنها انتقمت بما فيه الكفاية... أنها تأكّدت أخيراً من شيء كانت تريد التأكّد منه وهي تعرف أصدق المعرفة أنه لم يكن يوماً بحاجة إلى تأكيد. ربما فهمت أن عليها أن تجد في أعماق أعماقها القوة الكفيلة لإخراجها سالمة هي ودليلها من العاصفة، وإلا فإن الكارثة ستجرّف الإثنين.

لا أصدّق أذني وأنا أسمع تفيحه تهمس مبتسمة بردّ ليس فيه كلمات.

تتجدّد فيّ شهوة الحياة والطفلة تطيل النظر إليّ وتبتسم.

- هل... هل؟

- ن، ن، ن، نعم. نعم. نعم.

تستطيع رجلاي حملي من جديد فأقف مترنحا. يلمع شيء كالقُلُق في عينيّن بدأت تدبّ فيهما الحياة من جديد.

- "يا"، هل ستبقى معي هذه الليلة، كم أكره هذا المكان الموحش.

- وبعدها نعود إلى المنزل وقد فكّ الإضراب؟

- نعم

- لمواصلّة المشوار؟

- لمواصلة المشوار.

- على علّاته ومصاعبه ومتطلباته؟

- على علّاته ومصاعبه ومتطلباته.

من الغد تعود تفجحه إلى الحياة وأعود إلى مشاغلي لا أريد شيئاً قدر فسخ كابوس مرضها من ذاكرتي بأسرع ما يمكن.

إنها قصة من بين ما لا يُحصى من قصص حب الآباء لأطفالهم وحبّ الأطفال لأبائهم والصراع بينهم وسوء الفهم والبحث عن السلوى في الموت والبحث عن فُرص تدارك ما مضى من أخطاء... حقا عَرَفَ الآباء عند مرض أطفالهم من الآلام ما عرفتُ. لكن هذه التجربة بكل أطوارها وملايساتها ونتائجها لم تحدث إلا لي أنا... والتباين في التفاصيل داخل التفاصيل نتيجة أنني كنت أبا لهذه البنت بالذات بكل خصائصها التي تميزها عن كل البنات، أنني كنت ابناً لأب دون كل الموجود من الآباء، لأُم دون كل الموجود من الأمهات.

يتواصل تفحص ملفات هذه الطبقة من الذاكرة وكلها تقول نفس الشيء: هكذا كانت تجربتي أنا مع العالم لا علم لي كيف هي تجربة الآخر أمام نفس المشاغل والمشاكل. كيف كان طعم القبلية الأولى عند -لنقل هذا الصديق وتلك الزميلة- حتى لا أذهب بعيداً في تخيل طعم أول قبلية عند كل المحبين الذين تعاقبوا على الدور الأزلي؟ أه هذا أثقل الملفات بما أنه الذي يحتوي على ما تعلمت من كل القصص التي عشت والأدوار التي لعبت والمآسي والمهازل التي مثّلت فيها هذا الدور أو ذلك.

ثلاث آفات من صنع الطبيعة تترصد بني سفر: الأوبئة، جنون السماء جفافاً أو طوفاناً، جنون الأرض براكينا أو زلازل... ثلاث آفات من صنع الأدميين: الاستعباد والاستعمار والاستبداد... لن أرضى بالعيش وحتى بالدفن في أرض شعب من الرعايا حتى ولو كان الراعي عمر ابن الخطاب... الشعب المؤلّه خرافة نسجها المخادعون للمخوعين كل الموجود ملل ونحل في صراع أزلي على الثروة والسلطة والاعتبار... هذا شعب لا تنفع فيه لا الدكتاتورية ولا الديمقراطية، إن حكمته الدكتاتورية دمرته، إن حكمته الديمقراطية دمرها... نعم كم صدق أناركسيس: القوانين كخيوط العنكبوت تصطاد الصغار ويمزّقها الكبار... لا يُخلّصنا مسيخٌ واحد إنّما يُخلّصه كلٌ واحد منا... من أين لنا تصور المستقبل وليس لنا عن الماضي والحاضر إلا الجهل المركب والغرور؟ أي تحليل جدي للحاضر وتنبؤ معقول للمستقبل بأيدولوجيات الماضي؟... منهم من يتوهم أن العصر الذهبي كان في الزمن الغابر وثمة من يتوهم أنه في المستقبل "المشرق" والحال أنه لم يوجد في الماضي ولن يوجد في المستقبل إلا ما يوجد في حاضرنا، كل ما يتغير الشكل والإخراج... عندما تنتظر من التاريخ التكرار، يفاجئك بالتغيير وعندما تنتظر منه التغيير يحبطك بالتكرار البليد... أما المستقبل المنظور فلا يتمخض عادة عما نرغب أو عما نرهب، وإنما عما لا نتوقع وكان أحب وجهة إليه ليس الأفضل أو الأسوأ وإنما المختلف... يريدونني أن أوّمن بأفكارهم وأنا بالكاد أوّمن بأفكاري... اللغة هي النظارات الذي نرى بها العالم والغشاء السميك الذي نضعه على العينين... كل الرؤى تتأرجح منذ بداية الفكر بين فرقة الواحد

إلى العدد، وإرجاع العدد إلى الواحد، والحال أن العالم على الدوام واحد-عدد، عدد-واحد... هذا عالم الروتين فيه ليس روتينا وكل شروق شمس لا تشبه أي شروق شمس والتغيير فيه ليس تغييرا وسيناريو الصراع بين الخواء والنظام ، الحياة والموت، الدمار والاعمار، ثابت أيد الدهر، أي ثنائية من خارج الصندوق لوصف حالته.. من أين جئت وإلى أين أنا ذاهب؟ أحسن رد للسكّير الذي قال أنا سرجاي بافلوفيتش، جئت من بيتي وذهبت إلى خمارة البلدة... الأناثية ليست أن تحب أنك وإنما ألا تنتبه لحاجة الآخرين من الحب... لا فضيلة أعلى من الاحترام وأكبر خطيئة الاحتقار... الغبي من يضحك من الآخرين واللييب من يضحك من نفسه... في موضع ضعف لا تستسلم، في موضع قوة لا تنتقم... السيّد من يُعطي المثل لا من يُعطي الأوامر... من الغباء محاولة تغيير العالم ومن الإجرام عدم المحاولة... الهزيمة ليست ألا تحقّق أحلامك وإنما أن تتخلى عنها... لا شيء في هذا العالم يدعو للتفاؤل ولا شيء يدعو فيه للتشاؤم وأحسن موقف تجاهه تشاؤل عني... الخ ، الخ، الخ....

أهذه زبدة الرحلة ؟ ! نعم ، تحديدا زبدة رحلتي أنا لا أي آدمي آخر ... كل هذه القناعات سواء كانت أفكارا أو أحكاما مسقطة أو قيما، لا تفهم دون الظروف التي ولدتها والظروف الأخرى التي رسختها... كل هذه الظروف في تشكلها وتتابعها وطرق التفاعل معها خاصة بي وحدي حيث لا تشبه في التفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل أي من التجارب التي مرت بها كل الذوات التي عبرت والتي ستعبر هذا العالم .

لنسمّ هذه الطبقة من ذاكرة الذات ذاكرة الأنا دون سواه... أو إن كنت تفضل صورة الشجرة على صورة المنجم ذاكرة ورقة الغصن أيام الربيع.

**

أينما تولّي الوجه بحثا عن ذاتك إلا ترتطم دوما بذات الآخر وكأنّ الفصل بين الذاتين مستحيل استحالة الفصل بين الجزء الأيسر والجزء الأيمن من نفس الجسد.

أمامي ملفات متراكمة لكل الذوات التي لا أتصوّر ذاتي بدونها وأثقلها على الاطلاق ملف الرجل الذي كنت أسمىه بين فخر وتهكم " أَيْنِفَاسْ " .

هل كانت ذاتي توجد وتوجد بجلّ الخصائص التي هي خصائصها لولا هذا الرجل .

يتحوّل البحث عن ذاتي إلى البحث عن هذه الذات التي تفرّعت قصتي من قصتها الأرحج أنها ما زالت تفعل في فعلها الصامت وعبت بالأمر لم أم أعي. بديهى أنه عليّ أن أفهم من كان "با" لأفهم من أنا. المشكلة كثرة الفراغات في قصته.

أول مصدر للمعطيات الناقصة ذاكرة "ما" .

- ألا تعتقدن أنه لو كان له أشقاء علّموه باكرا أن يُقاسم لَمَّا أفرط في دلالة علينا وهو يتصرّف دوما كأنّ الكون بأسره أمّه المكلفة بتدليله؟

تُقاطعي "ما" بحدّة غير معهودة فيها:

- لم تُدله يوما أمّ .

ثم تعضّ على شفقتها كأنها ندمت على زلّة لسان.

غريب! لم أسمع "ما" على كثرة مدحها للناس تمدح هذه المرأة. لم أسمع كلمة عنها من جَدِّي ولا كلمة أيضا من المرأة الطيبة التي تزوّجها بعد وفاتها. الأهم، لم أسمع "با" الذي كان يذكر والده بألف خير، يذكرها إلا صارخا أوقات الغضب العاتِي: أنا الذي عقرت أمه بعد أن ولدته، أنا الذي لم يتخبط غيره في جوف أمه... ولا شيء بخصوصها!
كل ما يحفت بذكرى هذه المرأة التي توفيت قبل ولادتي صمت ثقيل مشبوه.
قد أكون حرّكتُ أشياء خطيرة تحريكها. لكن فضولي أهمُّ من ترفّق يحضر ويغيب.
- لم تدلّه؟! تقصدين أنها كانت مريضة... أن مرضها أثر في طبعها وفي طبعه... ربما المرض سببُ عدم إيجابها لغيره.
يأتي الردّ قاطعا وفي الصوت نبرة استهجان.

- كلاً لم يكن بها أيّ مرض، والآن قل لي ماذا ستفعل بخصوص قضية فلان؟
- لا تعيّرني الموضوع، أريد كل التفاصيل عن هذه المرأة لأسباب لا علاقة لها باغتيال مية. إنه حقّي في معرفة سلسلة الأحداث التي صنعتني.
تسكتين "ما" للصوت الحازم كما يفعل كلّ آدمي ظهره إلى الحائط ولا مصلحة له في مواجهة خصم مصمّم.
- كل ما أعرفه أنه غضب منها وهو في الخامسة عشر لأنها رفضت له ضيفا من عمره فخرّج ولم يعد للبيت... إلا بعد عشرين سنة.
عشرون سنة! كيف يمكن حتى لرجل غضوب مثل "با"، أن يغضب من أمه عشرين سنة؟ السبب غير مُقنع أو غير مكتمل.

ثمّ ربما لم تقبل بالضيف لأنه لم يكن لها ما تقدّمه ولا حتى قطعة خبز جافّة؟ على فرض أنه كان لها ما تقدّم وأن الأمر كان مرتبطا بطبعها، من ساهم في تكوين هذا الطبع الشرس الذي عُرفت به، صدقا أو تجنبا، أو عن قلة فهم وتفهم، كما هو الحال دوما في أحكامنا القاسية على بعضنا بعضا؟

هل هذه الجدة سببُ الوجد الذي جعل "با" طول حياته كائنا متألما مؤلما كم تسبّب لي وللآخرين في كم هائل من الأوجاع؟ هل كانت هذه المرأة تدرك تبعات أفعالها وأنها برفضها ضيفا لابنها ستتسبّب في سلسلة من المصائب لكّم من نساءٍ وأطفالٍ أبرياء على امتداد أجيال؟

لكن يجب أن يكون رَفْضُها استقبال ضيفه القطرة التي أفاضت الكأس. ما الذي ملأ الكأس قبل أن تفيض؟ شدّتها التي التصفت باسمها؟ لكن ما سبب هذه الشدة؟ أيكون جرمانها هي من حب لم تستطع اعطاءه لابن بقي طوال حياته يركض وراءه؟ على أيّ أوجاع كانت تنام جدّتي؟

هل قد انتقل البحث عن ذاتي إلى البحث عن الذات التي شكلت الذات التي شكلت ذاتي.

مواصلة الحفر في ذاكرة الأم رغم المقاومة الصامتة.

- وأيضا؟ تكلمي.

تتسحب "ما" داخل قوقعتها تعلمني أنه لا فائدة في مواصلة الحديث. بداهةً ثمة شيء لا يمكن لأُم أن تحدث فيه ابنتها... شيء ربما تهايمست به النساء يوماً بعيداً عن أذان الأطفال! لأحاول الجمع بين مختلف قطع "البوزل". ثمة مفاخرة "با" المشبوهة، بأن لا أحد تَخِيطُ في أحشاء أمه غيره كما هو حال الأنبياء. ثمة عداؤه للنساء وتكيله بكل أنثى رماها الحظّ العائرُ بين ذراعيه مكدّسا الخليلات والحليلات يشبعهنّ إذلالاً وخيانةً وطلاقا.

كل هذا يفوح بعطر الانتقام من خطيئة لا تغتفر. الخيانة الزوجية؟ جدُّ مُستبَعِدٍ. أشياء كهذه لا تقع في واحة صغيرة وإن وقعت مرة كل مئة سنة فإنها تنتهي بالذبح تحت التكبير والزغاريد. مفهومٌ رجال ذلك الزمان للشرف، يحنون الهامة أمام كل طاغية حقير، لكنهم يقتلون بشجاعة امرأة ضعيفة -لا بهمّ أن تكون أختاً أو أما أو زوجة أو بنتاً-بتهمة التعدي على العفة والحياء... وأغلبهم زناة، إن لم يكن بالفعل فبالنوايا.

ماذا لو كان السرّ اكتشاف الطفل باكراً ما تهايمست به النساء، وأن المرأة التي رفضت لابنتها ضعفاً، رفضت له إخوة ولأبيه رجولته؟

أيا كانت الأحداث التي مرت بها هذه المرأة فهي لم تحدث لها في التفاصيل وفي التفاصيل داخل التفاصيل داخل التفاصيل إلا لها هي لا غير... ومع ذلك كم سيكون لها من تأثير في صياغة ذوات أخرى لم تعش أيّ من هذه الأحداث.

ما أغرب أن تُشكّل قصص لا دخل لك فيها ما بك من خصال وعيوب وما أغرب أن يقول البعض بحريته وكلنا مُسَيَّرُونَ بأحلام وكوابيس من سبقونا.

ماذا عن دور الجد؟ لا بدّ أن قصته هو الآخر يفعل في فعله الخفيّ.

كم مرّة سمعت "ما" تردّد قصّة وصوله بيتنا ليلاً قادماً من صحرائه البعيدة، سنوات بعد أن غادرناها إلى الأبد، وكيف أنه نام تحت حائط المنزل والبرد على أشدّه، وكيف عاتبته على فعلته لما اكتشفته عند بروز الشمس مقروراً يرتعش، وكيف اعتذر بخجل لأنّه خاف إرعابنا بالدقّ على الباب في مثل تلك الساعة وربّة البيت في رعب دائم من زوّار الفجر. هذا الرجل كان أباً لشخص يصل البيت في آخر هزيع من الليل، يطرق الباب بمنتهى القوة، يوقظ الجيران، يأمر أطفاله الخمسة أن يمثلوا بين يديه وهم يفركون عيونهم ليقبلوا كتفه الأيمن ويحمدوا الله على عودته سالماً. ثم يأمر "ما" بنزع حذائه وغسل رجليه بالماء الساخن، يرغي ويزبد لتلكوها.

لم يكن نقيض ابنه في مثل هذا التصرف وما ينمّ من طبع وإنما في كل شيء تقريباً. بقدر ما كان "با" صاحباً، طاغي الحضور، متكبراً بقدر ما كان أبوه هادئاً، متواضعاً.

كان فلاحاً بدوياً فقيراً لا يغادر واحته إلا لضروريات قصوى ولا تتجاوز طموحاته الاعتناء ببعض النخلات العجاف وتوفير الحدّ الأدنى لأبسط أنواع العيش.

إذا تهيكلت قصة "با" في علاقته مع امه على ردّ فعل. هل مَحَبَّتِي للنساء وترَّقّي الدائم بهنّ مجرّد ردة فعل على ردة فعل على رذات أفعال لا أحد يعلم متى انطلقت؟

أما قصته في علاقته مع ابيه فقد تهيكلت على رفض صارخ لخياراته في الحياة وهو لا يرى نفسه إلا سيّد قومه... المستبَدّ العادل الذي تنتظره هذه الأمة عبثاً كما تنتظر أمم أخرى المسيح أو المهدي المنتظر.

هل كان صراعي معه وعلى من حاول أن يلعب معي هذا الدور المضحك المبكي بحثاً عن الخروج من السيناريو أم محاولة للفوز داخله بدور البطل؟

قصتنا كقطعة نسيج نسجها مجهولون من مواقع جد متباينة زمانا ومكانا، صنعوها عبر ما لن نعرفه يوماً من مخططات سرية، من طموحات مخفية، من آلام عيئية، من جرائم منسية، من خيارات كارثية ومن نجاحات عرضية... ولا أحد منهم واع بتبعات أفعاله على بقية حلقات السلسلة... الأنا النواة الصلبة للذات وأداتها المستقلة لغزو العالم؟ ماذا لو كان مجرد أداة تنسيق بين أشباح تتصارع داخلها...؟ لكن إذا كانت ذاتي نسيجاً من النوات الأخرى فذاتي مؤرّعة بالضرورة داخل كم من ذات... كم من أشباح لأحياء ولأموات ما زالت فاعلة تسكن ذاتي وذاتك، لا البيت يعلم ولا الأشباح!

أنا الآن مثل من انطلق في جذب طرف خيط كتبة صوف بالغة الضخامة. يجب أن أوصل تفحص ما وراء الجزء البسيط الذي بيدي لأن لهذه الجدة وهذا الجد بالضرورة أجداد هم الذين أثروا في تسلسل القصص التي ستصنع ذاتي.

المصدر الآن ليس ذاكرتي ولا ذاكرة الأم وإنما الذاكرة المروية المكتوبة التي تتناقلها الأجيال والتي تشكل الأحداث التي ترويتها أو تتخيلها جزءاً أساسياً من ذاتي.

عن هذا المصدر أن هؤلاء الأجداد كانوا قوما سكنوا أرضاً بعيدة شرقاً تحاذي شواطئ خليج يفتح على بحار مرعبة تفتح على محيطات تضيق في مجاهل لا يتخيلها خيال... أنهم هاجروا من فيافيهم القاحلة نحو أراضي الماء والطين... أنهم عاشوا فيها فساداً وأن ملكاً من ملوك الماشيين وراء أذنان البقر، أطمعهم للتخلص منهم في أرض توجد وراء النهر العظيم على الدوام خصبة خضراء... أنهم افتعلوا تصديق الملك الداهية للفرار من أرض لا مقاومة فيها ولا خطر... أنهم توغلوا على خيلهم باتجاه المجهول يجرون وراءهم نساءهم وأطفالهم والبعير... أن جدّة حازمة اسمها الجازية صاحبة الشعر الواصل إلى قدميها كانت قائدة الغزوة... أنها هي التي بعثت لاستكشاف الطريق بطلاً أسمّر اسمه من اسم الهلال جمع الجراء والدهاء... أنه هو الذي رسم العلامات لتنتدق جحافل الفرسان... أن الشمس غربت مرارا على ساحات القتال والأجداد يشقون الطريق بسيوفهم يؤوبون إلى خيامهم تحت صدمة فضاة ما عاشوا وما فعلوا لا يصدّقون أنهم ما يزالون أحياء... أن ليل الصحراء كان يواسي القتلى والقنلة... أن السيف عاد لغمده يوم تبيّن أنه لا نهاية للطريق ولا بد من حط الرحال وأن كل مكان ليس المكان، ومن ثم فكل مكان هو المكان.

كل الملقّات التي تحفظها ذاكرة الرواة والمستمعين ترنّ بقعقة الشعر وترنّ السلاح. كل الصور لنساء لهنّ عيون المها وشعر يغار من سواده الليل، لرجال لهم وجوه كأنّها نحتت

بالسكين إذا شجعوا تهوَّروا، إذا أكرموا أسرفوا، إذا ظلموا أفرطوا، إذا ثأروا كفروا وإذا حنَّوا ذرفوا الدمع مدرارا، لا يضاھيهم بشر رقةً وتوحشًا.
 لم يُعطِ " أَيْنَفَاس " لابنةً له ماتت في سنتها الأولى اسم الخنساء صدفة وإنما لأنها كانت المرأة التي اختزلت كل ما في هؤلاء القوم من ظلام ومن نور.
 قال عنها بشارُ إنها الشاعرة الأنثى الوحيدة التي غلبت الفحول. ظَلَّت الخنساء تندب طول حياتها موت أخيها البطل وإنَّها ظَلَّت لا تقبل سلوى ولا تريد للنسيان محوَ اسم صَخْرِ لا من ذاكرتها ولا من ذاكرة القبيلة.

“يا عَيْن ما لَكَ لا تَبْكِينَ تَسْكَابا إِذا رابَ دهرٌ وكانَ الدهرُ رَتابا
 فايكي أَخاك لأيتامِ أرملةٍ وأيكي أَخاك إِذا جاورتِ أَجبابا
 المجدُ حُلنُّهُ والجودُ علنُّهُ والصدقُ حورنُّهُ إن قرنُّهُ هابا
 حَطَّابُ مَحْفَلَةٍ فَرَّاحٍ مَظْلَمَةٍ إن هابَ مُعْضَلَةٍ سَنَى لَهَا بابا
 حَمَّالُ ألويةٍ قَطَّاعٍ أودِيَةٍ شَهَّادُ أُنْدِيَةٍ لِلوِترِ طَلابا
 سُمُّ العُداةِ وَفَكَائِكَ العُناةِ إِذا لاقى الوَعى أَم يَكُن لِلْموتِ هَيابا” .

يَقيني أَنْ "با" قرأ الخنساء، أنه انبهر بما قرأ، أنه نسي ما قرأ، أن ما قرأ اختمر داخله ببطء، أن مناهج ومسالك فتحت داخل ذاته، أن أهدافا قاهرة تحدت لها والشعرُ منذ القدم ما تستودع فيه القبيلة تعليمات صنع ذوات أطفال الصحراء.

ليس من باب الصدفة أنه أطلق اسمها على وليدة له لم تتجاوز رحلتها السنة الأولى. يقيني أن الشاعرة البدوية هي التي رسمت له نموذجا استبطنه طيلة الرحلة يأمره أن يكون الجريء، الجميل، سم العداة وفراج كل مظلمة...وأنتي أخذت عنه وعنهما كل الأوامر المبطنة.

كم غريب أن أبياتا لقصيدة عن قصة ثار حدثت قبل أكثر من ألف سنة بين قبيلتين لعبت دورا أساسيا في تشكيل كم من ذات منها ذات "با" ومن ثمة ذاتي!

هذا ما يجعلنا نتذكر أن اللغة أكثر من منظومة علامات منطوقة وكتوبة لتبادل المعلومات. هي مشبعة بأوامر ونواهي، بتعليمات واضحة وأكثرها خفية، بأحكام معيارية، ببركات وبلعنات آتية من أعماق الزمان

هي رؤية هذه المجموعة البشرية للعالم ولنفسها عبر كل الكلمات التي تشكل معجمها. هي خزان كل تجارب الماضي التي مرت بها تتوارثها وتثريها وتنقلها للأجيال المتتابعة. نحن لا نعي ونحن نتكلم لغتنا الأم أننا نستحضر دون وعي كل ما تراكم في ذاكرة الآباء والأجداد، ننقي فقط منها الأجزاء التي نحتاج لربط الحلقة التي هي ذاتنا بالسلسلة التي لا نعرف أين بدأت وأين ستنتهي يوما.

محكوم علينا أن ندخل العالم وهو في طور من تاريخ لم نختره، أن نفيق في مكان عينته الأقدار وزمان حدته طاولة القمار، أن نعيش ونموت داخل قصص لا ناقة لنا فيها ولا

ادعاء مشكوك في صحته فأكثر من مكان في القارة قد يكون المنطلق وأغلب الظن أنه وجد أكثر من محطة لانطلاق الطريق.

ثمة اليوم كمّ متعاطف من الأفلام والفيديوهات عن انطلاق الملحمة العظمى التي كان أوائل الأوائل أبطالها. ربما لو وضعت أمامهم تصوراتنا هذه لانفجروا بالضحك.

يخرجني مجددا من تلاطم الأفكار صوت السيد المدير:

-ويسعدني أيضا أن أقول لك أن لنا علماء من قارتنا وخاصة من اثيوبيا يشاركون أكثر فأكثر في أهم الاكتشافات العلمية بخصوص نشأة البشرية.

الاكتشافات العلمية! كم من اكتشافات ستقلب رأسا على عقب تصوراتنا الأكثر متانة عن الأوائل وتغيرها المتواصل مرتبط بالعثور صدفة على جمجمة هنا وعظم فكّ هناك... ما أغرب أن تكون أهم المعطيات عن هذا الماضي السحيق مضمّنة في المستقبل المجهول.

لا يبق عليّ إلا شكر السيد المدير وتهنئته على دعم كل الأبحاث التي سترمم ذاكرة جماعية نحن بأمس الحاجة إليها وذاكرتنا الشخصية ليست إلا آخر حلقة منها.

داخل سيارة الرجوع أغلق العينين لتخيل هؤلاء الأوائل الذين لم يتركوا لنا إلا هذه العظام المتفرقة.

يقال إنهم نزلوا يوما من أشجار الغابة بمنتهى الحذر مقتربين من حدودها يلقون نظرة خاطفة على السهول المفتوحة على الأفاق، أن أشجعهم انتصب واقفا لأول مرة في تاريخ الجنس ليرى هل ثمة ما يتحرك داخل الأعشاب العالية، أنه ألقى نظرة جشعة على جيفة تعد باللحم ونظرة خائفة حوله يرصد من يترصد بها من كائنات جائعة هي الأخرى لها خناجر مثبتة في الأشداق وسيوف مثبتة في القوائم.

يقال إنه مرت ملايين السنين قبل أن ينطلقوا من هذه الربوع قبل مائة ألف سنة (والرقم يتغير باستمرار) ثم أنهم توزعوا في أقل من خمسين ألف سنة على القارات الخمس ركضا وراء الطرائد وهربا من أنياب الكواسر لينتهي بهم الأمر سادة العالم أو هكذا يتوهمون.

كان من الممكن وهم في بداية الطريق أن تقضي عليهم كم من أوبئة مجهولة، كم من انفجارات براكين وكم من فترات جليد وجفاف تطول أكثر من طاقتهم على التأقلم. كان أمامهم ألف تقاطع طريق لو أخذ البعض منهم هذا التقاطع بدل ذلك لما وجدت أصلا أو لما وجدت على الحالة التي أنا عليها اليوم.

أي قصّة سأنتقي لي من قصص هؤلاء الأبطال الذين عبدوا لي ولك الطريق؟

لماذا أحرّم نفسي من متعة لا خطر منها وهي حلم يقظان يعرف أنه حلم يقظان؟

آه هذا جدّ كان يعرف بين أفراد قبيلة تضم عشرة أشخاص بالليث الهصور. أين في الناس جدّ مثل جدي هذا وهو الصياد الذي قاتل الفهود وأرعب الأسود؟ انظر إليه وهو راibus وراء أكمة، ووتر القوس مشدود، ينتظر أن يسقط الفيل في الحفرة المعطّاة بالعشب حنو الغدير ليعمل فيه نصله وهو يصلي له أن أغفر لنا يا إله القبيلة وشكرا على لحكم الذي

سيوفر لنا أياما أخرى من الحياة. آه هذه أنثى وجلة تقترب بحذر من غدير تريض التماسيح على ضفته وفي وجهها قسمات تنذر بقرب بروز ربيع ابتسامة على وجه هادئ وقور. ترى ما الخصائص المبهمة التي أخذتها عنه وعنهما دون علم مني وإذن منهما ولا زالت تفعل في فعلها الخفي منذ أكثر من مائة ألف سنة؟ ... عبر أي قنوات انتقلت من جيل لجيل حتى تصل ذاكرتي لتتحكم في طريقة عيشي وتصوري للعالم ولذاتي؟ أسئلة أخرى تضاف إلى القائمة الطويلة من الأسئلة التي نخرج من هذه الدنيا ولا إجابة مقنعة عنها... هل قدر ذاكرة التاريخ أن تبقى إلى الأبد مثل شبكة الصياد فيها من الفراغات ما فيها من خيوطها؟ إنها الطبقة من الذاكرة - بما فيها من معطيات ومن تصورات ومن أوهام- التي يمكننا تسميتها ذاكرة الجنس البشري وإن شئت مواصلة استعمال صورة الشجرة ذاكرة الجذع المهيب.

المشكلة أننا لا نستطيع مهما توغلنا في عمق الماضي التوقف عند أي محطة لنقول هنا بدأت قصة القصص، فكل بداية لا تنبثق من فراغ. لا بد لها من ظروف مهيأة ولا بد للظروف التي مهدت لها من ظروف تمهد للظروف التي مهدت لها... وهكذا إلى... إلى أين، إلى ماذا؟

**

تلك الليلة التي لا تنسى، داهمتني فجأة من الاتجاه المعاكس سيارة كأن صاحبها فقد كل سيطرة عليها. وبينما الأنا مسلم بنهاية الرحلة، برز من الأعماق مجهولٌ شعرث به يُملي على العضلات المتشنجة أوامرَه فتندافع إلى عمل سريع، فعّال، منسق، ناعم، منقّدة بدقة فائقة تعليمات صادرة من هذا الساكن داخلي، الصامت على الدوام والذي لا يأخذ بزمام الأمور إلا في مثل هذه الحالات.

هكذا انصاعت السيارة كما لو أصبحت هي الأخرى جزءا لا يتجزأ من هذه العضلات لتنتب في المنعرج القاتل حيث يجب الوثب، لتستعيد التوازن في المكان الذي لو تجاوزته بشعرة لانقلبت رأسا على عقب ثم لتتوقف بالضبط حيث يجب التوقف.

تلك الليلة تراجع الموت كالنسر انقض على شحروور لكنه لم يلمسه إلا بجناح. في ظلمة الليل وعلى قارعة الطريق، بعد أن أوقفت دابة من حديد كادت أن تكون لي كفنا، استعاد الأنا وعيه، لترتعد الفرائص بخوف مفاجئ لم يعد له مبرر... ليتجدد الانتباه ومعه نفس الإعجاب والتعجب.

كم من تجارب حتى ولو لم تكن بمثل هذه الخطورة تثبت أن هناك شيئا بداخلي يعرف كل ما أهله ويأخذ القرارات المصيرية دون أخذ رأيي أو الاهتمام بما أقول أو أفعل! في ملفت من الماضي القريب عدت الطفل الذي يركب الأرجوحة يوم العيد ليجرب لذة دوارِ حَضَرَ هذه المرة ولا لذة تصحبه.

تميد الغرفة بي وقد أصبحت بلا سقف أو قاع، بلا فوق أو تحت.
لا مجال للانتصاب والعاصفة الهوجاء داخلي تمنع كل تحرك. تأتيني أوامر مبهمة من قوة
غامضة بالكف عن التدخّل فيما لا قدرة لي عليه. أشعرُ بمجهول يعيد ترتيب البيت دون أن
أفهم كيف يتصرّف.

شيئا فشيئا ودون تدخل أي طبّ أتى اليوم الذي استطعتُ أن أفق فيه مجددا على قدمي، أن
أمشي وحدي إلى باب الغرفة مترنحا لأتعلّم المشي كأنني رضيع يضع أولى خطاه على
الطريق.

كل هذا لأن "شيئا" ما داخلي شخّص أين يجب، عالج أين يجب، مُصلحا ما أفسده عطب
غيبي.

من ينتبه لغرابية ظاهرة أنه لا أحد علّمنا كيف نشغل العينين والكليتين والقلب والستمانة
عضلة التي تحرك أجسادنا ومع ذلك نحن نشغلها تلقائيا وبكل سهولة كما لو كنا أعظم
المخترعين وأذكي المهندسين وأمهر التقنيين!

لذلك لا يجب أن نحمل على محمل الجدّ مقولة سقراط "كل ما أعرف أنني لا أعرف شيئا"
لا لشيء إلا لأن كل آدمي، حتى سقراط، عليم بأكثر مما يتصور من الأشياء وإلا لما وصل
العمر الذي يمكنه أن يصبح له شأن وأن تتذكر كلماته الأجيال.

ذكر كل متحذلق ينشد "يا من تدعي في العلم معرفة... إلخ" بعمق المعرفة الهائلة التي
يخترنها وكيف أن أكبر جاهل فينا يعرف كيف يصنع كافة أعضائه داخل الرحم، كيف
يخرج منه، كيف يدافع عن وجوده بتشغيل أعضاء جسده.

ليست الأمور دوماً بمثل هذه البساطة.

ففي بعض أقدم ملفات الطفولة، يتفجّر من أنف الأخ الصغير شلال من سائل أحمر لزج
ساخن كرية الرّائحة يُخرج الأم من صوابها وهو يرفض الكفّ عن السيلان. تلك الليلة
جاءنا رجل أجنبي على عجل، والحال أنه لم يكن مسموحا لأيّ غريب أن يدخل بيتنا في
غياب سيّده. ومما بقي محفورا في الذاكرة أنها كانت تتكلّم معه باحترام شديد، أنها كانت
تأتمر بكل ما يقول، أن الغريب عيس وقطبّ الجبين وهي تعطيه ما حسبته كثيرا من المال،
أنها اعتذرت بفقرها، أنني كرهت الرّجل لما أحدثه في "ما" من حرج وأنتي أحببت تلك
اللحظة أن أكون من يعرف كيف يوقف تدفق الشيء الأحمر لآكون رجلا يدخل البيوت
ليلا، يعامل بالتبجيل ولا يأخذ مصروف الأطفال.

كان السؤال ليلتها: لماذا لم يتوقّف الدم عن التدفق من أخي إلا بعد تدخل الغريب، والحال
أنه خرج منّي أكثر من مرّة ثمّ توقّف دون حاجة إلى أحد؟

يوم بدأ الأستاذ بعد أكثر من عقد درسه عن السائل الأحمر وكيف يتدفّق ولماذا لا يتخترّ
في الأوعية، وكيف يرتبك الشيء المجهول أحيانا فلا يكفّ عن السيلان مما ينذر بكثير من
الويلات للمصاب، أصخّث السمع كما لم أفعل يوما ولا أظن أن أحدا من الطلاب حوالي
انتبه للموضوع كما كنت له منتبها.

أعود إلى الصراخ العقيم لمشاكسة العبقري الصامت داخلي أضحك مني ومنه: سيادتكم تعرف كل أسرار هذا الجسم وأنا أحصلُ على الصفر الرنان في فرض الفيزيولوجيا. سيادتكم تملك كل الخرائط عنه وأنا أبلّي العينين في حفظ دروس علم الأعضاء، لا أحصل حتى على المعدل. لو كنت ابن حلال، لهمست لي بكل الأسرار فنتقاسم العبقرية كشركيين. لا يزيد صمت المجهول الكامن في أعماقي إلا في اصراري أن أعرف أو على أقل إن يكون لي تصور معقول لهذا الذي يعلم داخلي علما عجبيا ويمنع علمه هذا من الوصول إلى فكري الواعي.

ربما لا داعي للإلحاح والشكوى... من بحاجة إلى أسفار المكتبة الوطنية يحملها كل يوم على ظهره لمجرد التمتع بالعودة أي لحظة لما فيها من معلومات قد يحتاجها لإشباع فضوله... هل يكون جهلنا الذي نشنكي منه هو خيارٌ هذا العلم اللاواعي الذي فينا والهدف تسهيل حياتنا؟! ألا نحب ترك مشاكل الاعتناء بالبيت والمكتب للمنظفة وصغار الموظفين لتتفرغ للمشاكل الكبرى؟

ما ينتبه له الأطباء منذ بداية تعلم المهنة أن هذا العلم الصامت داخل الجسم هو العامل الأساسي في مقاومة كل ما يتعرض له من اعتداءات من المحيط، أنه هو الذي يعيد التوازنات المختلفة، أنه هو الذي يمكن الذات من وصول العالم ومن التواصل فيه إلى أبعد نقطة من الطريق هو وحده الذي يقررهما.

لكن هذا العلم الصامت ليس على كل شيء قدير. لماذا؟ لأننا أمام علم يتشكل منذ ملايين السنين عبر التجريب والتحسين والتعلم من الأخطاء مما يعني وجود ذاكرة تحتفظ بكل ما يتعلم الجسم وتبني على ما يتراكم منه تطورها نحو الأحسن والأكثر تعقيدا.

نحن أمام ذاكرة مجالها الزمني ليس العقود كما هو حال الطبقة السطحية، وليس القرون ولا مئات الآلاف من السنين كما هو الحال في الطبقتين الثانية والثالثة وإنما ملايين السنين لأنها ذاكرة الحياة لا غير. هذه الذاكرة هي التي تحمل كل طبقات الذاكرة الأخرى وتجعلها ممكنة وقادرة على بناء ذاتا والأنا الواعي لا يمثل منها إلا ما يمثل الجزء الطافي على سطح البحر من جبل الجليد.

للتوضيح... طبقات الذاكرة ليست مثل طبقات الجيولوجيا التي تتراكم فوق بعضها البعض لا تضيف إلا الثقل للنقل... على عكسها هي مرتبطة ببعضها أوثق الارتباط في تفاعل مستمر تحكما وتوجيها واثراء... على خطوط التماس بينها تحدث نقلات نوعية ما زالت عصبية على الفهم... ثمة الانتقال النوعي الذي يجعل منا كائنات تنسج قصتها الفردية من قصة البشرية جمعاء... ثمة الانتقال النوعي الذي يجعل منا كائنات واعية تحركها خلايا وانسجة وأعضاء لا واعية... أخيرا لا أخرا ثمة معجزة الانتقال النوعي الذي يجعل منا كائنات حية لبناتها مادة لا حياة فيها.

لنسمي هذا المستوى -الأعمق لحدّ الآن- من الذات ذاكرة " الحياة لا غير" وفي استعمال صورة الشجرة، ذاكرة أعمق الجذور.
لكن أليس للجذور بالضرورة تربة ما تنعرس فيها وتعيش بما تضحخه فيها هذه التربة من ماء وغذاء وطاقة ؟
قد لا تكون طبقات المنجم ، أو مكونات الشجرة أبلغ التشابيه لتصور هذه الذاكرة المتعددة المستويات التي تشكل النواة الصلبة للذات ...ربما صورة البئر الذي ليس له قاع !!!
*'لما رميت جانبا هذا الكيان البالغ الصغر (سوزوكي)
الذي أسميه الأنا
أصبحت كل العالم الشاسع*

**

الكتاب السابع الرؤيا

"لا نفع لأحد من هذه الحياة
إن غادر الدنيا
ولم يخلق عالمه الخاص."

بريهادار انياكا - اوبانيشاد

مقدمة الكتاب السابع

هذا عشاء عائلي انتهى بسلام. إنها فرصة لإلقاء سؤال لم أجسر يوماً على طرحه على أيّ من البنّتين.

- تفاحة وأنت تفيحه، هل كنتُ الدليل الذي يكتبُ الزبائنُ عنه رسالة شكرٍ لوكالة الأسفار وتوصيةً أكيدة ومُلحّة وعاجلة بترقيته؟

تبتسم تفيحه:

- أصوّت لفائدة رسالة الشكر والتوصية بالترقية؟

أسلّط نظرة حذرة على تفاحة، فتبتسم تقّعل المكر:

- ادفع الفاتورة وبعدها سأقول رأيي.

- يا بنت...؟!!

تقّعل البنت غضبا يتسرّر على فيض من الحنان:

- نسيت ما كلّفنا دوماً! لم نصل تقاطعاً بين طريقتين إلا وفرضت علينا الأطول والأخطر

والأصعب وتريد بعد هذا شهادة أحسن دليل من زبائن كم أرهقتهم وأنت لا تعي!

تصرخ تقيحة تقّعل المزايذة على أختها: ثم هل نسيت أنك رفضت لي كلباً وأنا في العاشرة وأنت يا شرّير تمسكت برفضك رغم الإلحاح والبكاء بل وسخرت مني قائلاً إنك مستعدّ لأن تشتري لي حيواناً شريطة أن يكون معزة.

- كلب في البيت والحال أنه لا أحد نجح منذ بداية التاريخ في حلب حيوان كهذا! ... عودي

يوماً إلى قرية أجدادك وسترين وجبن المعصورة في فمك أفضلية الماعز على الكلاب.

تضحك تقيحة. تعد أنها ستعود يوماً إلى الواحة لتلقي التدريب الذي فاتها، خاصة وأن الأزمة الاقتصادية والمصرفية العالمية بصدد التفاقم هذه الأيام وقد تفرض بعض الناقلم والمراجعات الموجعة على باحثة لا تتقن أصابعها إلا مسك القلم والنقر على الحاسوب. تحدّق في الفراغ تبتسم لذكريات لم تتضح حلوتها إلا بمرور السنين.

- كنت تردّد دوماً كم أنا فخور بك يا ابنتي. هذا الفخر هو الذي شجّعني دوماً على التحلّل ومواصلة الطريق.

أعود للهجة الحزم لأخفي تأثراً عزّ عليّ دوماً تركه يبرز.

-تقيحة، سؤال قد لا تتذكرينه، ألقينه عليّ وأنت في الرابعة: "يا" ماذا يفعل هنا كل هؤلاء الناس؟ أن الأوان لأسمع ردك؟ نعم ماذا تفعلون في هذا العالم؟ ماذا تفعلون به، ماذا تفعلونه فيه؟ ما هو فعل الأفعال؟

- حين أنظر إليك يبدو لي أنه بحث.

- كيف لا يغري فعل كهذا رجلاً ضيِّع نصف عمره في البحث عن نظاراته والنصف الآخر في البحث عن مفاتيح البيت والسيارة... فعل دسم أقبله مرحلياً حتى ولو أنني أشعر أن فعل الأفعال الذي أبحث عنه غيره.

- على فكرة أين وصلت أنت في الردّ على هذا السؤال؟

- توصلت إلى إجابة قد تكون الأخيرة. لكن ثمة مشكلة. هل تعرفين قصة الشخص الذي جاءه في المنام كَلَلَلَلَلَلَلَل فلاسفة البشرية وأنبيائها وعلمائها، كل واحد بمعتقداته حول الله والعالم والأدمي. كان يدمرها الواحدة بعد الأخرى بجملة لا غير فينصرف الفيلسوف أو العالم ساخطاً. وفي غمرة الحلم انتبه الرجل أنه سينسى الجملة التي مكّنه من تهديم أعظم الفلسفات وأكبر الأديان وأعد النظريات العلمية، فقرر أن يسارع إلى كتابتها حتى يتذكرها عندما يستيقظ. هذا ما فعل. وعند قراءتها انفجر ضاحكاً والجملة بالغة البساطة: كلام جميل، لكن هذا ما تدعيه أنت! هذه القصة تحبطني أكثر من وضع البلاد والعالم.

ترفع تفاحة اصبعها وصوتها:

- اترك العالم وشأنه، هو ليس بحاجة لفهمه، يكفي أن نحبه حتى وهو كما هو. ثم تستعدّ للذهوض وهي مثل والدها، وقبلة جدها دوماً في عجلة من أمرها. تتوقف بغتة وكأن هناك ما يدفعها إلى الكلام وما يمنعها عنه. تمسك بزراعي ونحن نعبر باب خروج المطعم الصغير.

- يجب أن أعلمك بضرورة الاستعداد لحمل لقب آخر يضاف إلى ألقابك الكثيرة، وسيسند إليك من قبلي هذا الصيف.

- تقصدين!

- ماذا تظنّ؟ حتى أنت تصبح جدّاً.

- أنا! أنا زين الشباب! ينادى له يا جدّي! يا بنت استحي.

يا إلهي كل هذه السنين، كل هذه العقود التي مرت وأنا لا انتبه لتراكضها إلا عند دخولي المدرج المكتظ! كم صدق أحد أساتذتي الأجلء عندما قال: أنت لا تنتبه لعمر طلبتك لأنك ما زلت شاباً، ذات يوم ستفجأ بصغر سنهم وكم هم ثابتون على نفس العمر سنة بعد سنة، يوماً ستعي أنك أصبحت شيخاً... إيه والله! ها قد أصبحت أفجأ عند انطلاق كل سنة دراسية بوجوه رضعُ ثبتت على أجسام عمالقة فأردد لنفسي فعلاً كم هم صغار السن ثابتون على نفس الشباب وأنا وحدي الذي يفترسه المشيب.

"بالقرب من كوكبي (إيسا)

ضفادع ترعق بلا انقطاع

هرمت، هرمت، هرمت"

تهزني تفاحة من كتفي ربما تنتظر استنقازاً آخر أخفي به تأثيري. لم لا؟

- آه، إذن هذا عالم عبثي كما ترددين في لحظات التفلسف الفارغ، لكن لا بأس من مواصلة تزويده باللحم الطازج.

تصدر تفاحة صرخة تدعي الغضب. تفتعل تهديدي بأظافر مشهورة في وجه باسم.

تتدخّل تفيحه تفتعل الجدّ:

- كفى يا أطفال من الضوضاء على قارعة الطريق.

تمرّر تفيحه يدها أمام وجهي:

- "با"، غدّ إلينا.

- تفاحة، أعطني قلمك بسرعة: الإحرام بتأريخ مسيو فيدال وقومه شهر... الموافق في تأريخ "ما" وقومها ل... الوصول تقريبا في...

تضحك تفيحة:

- اترك هذه الحسابات للأطباء. المهمّ أن تغتتم الشهور القليلة القادمة لتجديد مخزونك من القصص للقدام الجديد.

تأخذ تفاحة في تقليد صوتي:

- كانت الأميرة دوما مليئة بالفضول وبالجرأة، لا تخشى إنسا أو جنّا وكانت تحقّق كل ما عزمت عليه.

تعود تفيحه إلى هوايتها القديمة في افتكاك الكلمة، لتقود قصةً لا تعرف إلا هي كيف وإلى أين يجب أن تقاد.

- وكانت الأميرة الصغيرة التي تحب والدها الملك شهرمان أكثر من كل شيء آخر تعينه على أمور المملكة حتى يستتب فيها العدل ويعمّ الخير.

- اعترفا أنها كانت قصصا مسلية وأنني لم أضع فيها من رسائل مبطنة إلا التي قد تساعدك على مصاعب الحياة.

تقاطعي تفاحة:

- لسا ضدّ مبدأ مواصلة العمل بمثل هذه التقنيات لكننا لن نسمح لك برواية قصصنا وغشّ بريء تبيعه بضاعة مستهلكة.

- خشية في غير محلّها. أعدك بقصة لم تُرو من قبل لطفل وفيها أعظم بطل وأعظم مغامرة وأكثر العقد تشويقا...إنها روايتي الخاصة لقصة القصص أولفها منذ عقود وأسميها أحيانا الرؤيا...

تقاطعي تفيحه وهي تتألمني كما كانت تراني لأول... أو لآخر مرة:

- كان يا ما كان، طفل همّة الأوحّد الكشف عن سرّ الأسرار وهمّة الأوحّد الآخر ألا يكتشف شيئا لتبقى الأسرار أسراراً.

- أخيرا ثمة كائن على هذه الأرض يفهمني. أليس أفطع ما ينتظرنا بعد طول البحث أن نكتشف أنه لم يكن هناك سرّ أبداً أو أنه سرّ لا يستأهل كل المشاقّ التي تكبّدنا لكشفه... أو أنه حقاً استأهل كل هذا البحث، لكن ماذا سنفعل بوقتنا وقد اكتشفناه؟ والآن كفى تهربا من مسؤوليتكما، نعود للموضوع، أعولّ عليكما بخصوص الشهادة... وأريد تسبقه.

يمدّ الدليل يده للبقشيش وكأنه أنهى مهمته في قيادة السائحتين في أدغال هذه المحمية
الخطرة الكبرى التي اسمها العالم. تبقى الراحة مفتوحة تنتظر الصدفة. تهزّها تفاعحة بحرارة
تقلّد الشكر المبالغ فيه.

تطبع تفيحه عليها قبلة فأغلقها بسرعة كأنني أغلقتها على فراشة زاهية الألوان، ثم أفتحتها
حتى لا تخنق فراشتي السحرية.

طيري يا قبلة... اعبري كل فضاءات العالم... حظّي بمنتهى الرفق على راحة امرأة
باركتني وباركت في نزيّتي، ثم على راحة أحسن أسوأ أب... تنقلّي من راحة شبح إلى
راحة شبح آخر تتسلفين سلسلة الآباء والأجداد، الأمهات والجذات، تحملين الشكر لكل من
عبدوا لنا الطريق، إلى أن تحطّي على راحة آدم وحواء وقد قبلنا لنا بأنبل المهام.

تهمس تفاعحة في أذني قبل أن أدير لها ظهري:

- "يا"، إذا كان المولود بنتا سأسميها حرّة تيمنا بالحرية التي تعشق.

حرّة! مرحبا بك يا حرّة في هذا العالم الرائع المربع ولتعبيريه تتمتعين بالحرية كأول حق
وتضطلعين بالمسؤولية كأول واجب.

أي طريق أطول للعودة الى البيت؟ لست مستعجلا لوصوله و "ح" تخفي وراء ابتسامتها
الدائمة وجعها وقد أصبح كل جسدها خريطة أمراض.

فجأة أجد نفسي أتمم بكلمات أغنية كانت شائعة في شبابي:

“المرأة التي في فراشي

لم يعد لها من العمر عشرين

منذ زمن طويل، طويل، طويل”

نعم المرأة التي في فراشي لم يعد لها من العمر عشرين منذ زمن طوييييييل. ومع هذا...

لا تتضح حقيقة المشاعر إلا والحبيبُ فقد دفعة واحدة الجمال والصحة والشباب.

آخر فرصة لأهمس في أذن رفيقة أطول مقطع من الطريق الكلمة التي رفضتها لها ولنفسني
عن حياء غبي: أحبّك. نعم سأخذها بين ذراعيّ أضمّ طويلا حطام جسدي.

مسكين هذا الجسد الذي كنت أولع له البخور وأقيم له الطقوس وأنشد في عبادته الترانيم

هذا الجسد الذي كان ساحة فتوحاتي، الذي كان قيثارتي أسئل منها أحلى الأنغام، الذي كان
حديقتي السرية، الذي كان مدخلي إلى الذات الأخرى وإلى أعماق ذاتي. هو الآن بطن

رخوة، أسنان صبغها التدخين بأصفر قبيح، جلد حفر فيه الزمان ما طاب له من التجاعيد،

نهدان مسكينان لم يعد يشتهيها فم رضيع أو عاشق لا يلمسهما إلا رجل يلبس الأبيض
باحثا عن بداية سرطان.

أنا الآخر لست بأحسن حال وقد وصلت إلى العمر الذي يصبح فيه أبلغ تعريف للصحة ذلك

الذي كنتُ أستفرّ به طلبتي: “وضعية مؤقتة، لا تبشّر بخير”. إنه العمر الذي تكفّت فيه
الحياة عن العطاء لتبدأ في استرجاع ما أعطت. كأنّ هذه الحياة إبحارٌ على محيط تُسلمنا

العاصفة إلى العاصفة لا نصل مرفأ الموت إلا وأجسادنا كقوارب كَسَّرَ الدهرُ صواريخها وتدافع الماء من ثُوبِ حَفَرْنَا الكثير منها بأسناننا.

على فراش المرض نسخة منتهية صلاحيتها للجسد الأدمي، على فراش الولادة قريبا نسخة جديدة له... كائن على وشك الرحيل، كائن على وشك الوصول... بتواصل مشروع لا فكرة لأحد عن بداية له أو نهاية، عن دوافعه أو عن أهدافه... مشيئة الإرادة المجهولة التي لا يُعصى لها أمر.

أخيرا البحيرة التي أتيتها كل مساء لمتابعة غروب الشمس وراء أشجار السنديان الشاهقة. لم لا التوقف بعض الوقت والمقعد العمومي الذي أفضّله شاغر يدعوني للتكريم بالجلوس. أخرج هاتفي النقال من جيبي وعذر وجوده استعماله أساسا لنقر بعض الأفكار العابرة وسماع الموسيقى.

أين توقفت كل هذه السنين عن بناء الرؤيا؟

أه تذكرت. خرج الأدمي من الجنة بمحض ارادته لمهمة غامضة. أفاق في عالم عجيب مبهر مرعب. ضرب في الأرض ذات العرض والطول جيلا بعد جيل يستكشف ما تحفل به من غرائب وعجائب. أعاد تشكيل العالم على هواها بالحرب والفتن. مثل وأخرج وعاش وصقّق لكل أدوار البنوة والأبوة والحب والصدقة والعداوة مجريا من أقصاه إلى أقصاه طيف ما تقدر عليه الذات الأدمية من أحاسيس ومشاعر وأفكار وأفعال. بنى له على طول الطريق واحات يستريح فيها من ذاته ومن أهوال عالم لا يرفع عنه ضغطه لحظة. يشده الحنين دوريا لهذا للمبهم الذي خرج منه فيصطفي من الأرض أمكنة يتخيل أنها الأبواب التي تفتح عليه... ثم؟

ما الذي بقي لإكمال روايتي لقصة القصص؟

أه، أهمّ اللبئات التي كانت صعوبة صقلها سبب توقّف العمل وارجاء العودة إليه أكثر من مرّة.

أولى اللبئات التي يجب العودة إليها سرديّة الهروب من الجنة. أي حجج يمكنني أن أسوق للدفاع عن فرضية كهذه دون أن أتهم بأنها بمواصلة تصفية الحسابات مع كل أصناف سوء استخدام السلطة ولو كانت السلطة الإلهية؟

ثمة أيضا مسألة هوية الأدمي. من هو حقا؟ توقّف الحفر في ذاكرته عند طبقة ذاكرة الحياة لكن ما الموجود تحتها.

أصعب اللبئات هندسة قطعاً ستكون لبنة المهمة التي جاء الأدمي من أجلها هذا العالم. كيف يمكن تبرير ثمنها الباهظ ومنه الموت وكانت الجنة خلصتنا منه ومن كل مشاكله؟

نعم، يجب استئناف العمل على قصة القصص من الآن حتى وإن كان أمامي بضعة سنوات قبل أن تطالب بها حرّة.

طبعاً لن تكون رحلة الأدمي في رؤياي سلسلة من الصدف العمياء، من الأحداث التافهة، من الصراعات البائسة، من الأوهام المضللة، من الأحلام المجهضة، من المتع

العابرة، من النجاحات النادرة، من الإخفاقات التي لا تُحصى، من الألام العبيئية، ومن
النهايات المحزنة.

تتدافع الأفكار ويتسارع النقر.

أنا الآن كالفنان الذي يخطّ بقلم الرصاص على الورق الرسوم التجريبية الأولى للوحة
المنشودة، أو كالمهندس المعماري يوضّح لنفسه تعليمات إتمام المشروع الذي يرجو عبه
البقاء في ذاكرة الأجيال.

"بنيث على الرمل (أدولف ستاف)

لكنّ كل شيء انهار

بنيث على الصخر

لكنّ كل شيء انهار

واليوم على دخان المدفئة

سأبني."

**

[حجر الزاوية في الرؤيا الفرار من الجنة. تفحص
الحجج المنطقية التي تدعها ولماذا يجب حرمان
الآدمي من هذا الوهم القديم]

في فيلم "زاردوز" -المُصنّف من أفلام الخيال العلمي- يذهب المخرج جون بورمان إلى أبعد من سرديتي، فأدم وحواء لا يكتفيان بإدارة الظهر للجنة وإنما يغادرتها بعد تدميرها وإخراجها نهائياً من الخدمة.
السيناريو.

سنة 2293 أصبحت التكنولوجيا قادرة على خلق جنة اصطناعية تُوقر الخلود والشباب الأزلي وكلّ المطلوب من الملذات لأقلية محظوظة تحصنت وراء أسوارها الشاهقة. أما قدر بقية الأدميين فصراع البقاء في عالم تحوّل أكثر من أي وقت مضى إلى جحيم على الأرض.

لا شيء كان يثير حفيظة هؤلاء المهتمّين قدر استعصاء المحمية المتكبرة عليهم رغم تعدّد محاولات غزوها قروناً بعد قرون.

يكتشف مغامر اسمه زاردوز، بالصدفة -أو هكذا خُيل إليه- منفذاً للقلعة المحاصرة، فيدخلها هو ومحاربوه على قناعة مطلقة أن ساعة الثأر قد حانت.
لكن أين الجنود المدججين بالسلاح لقتالهم والانتصار عليهم؟

المشهد الأول

بدل أشرس المحاربين، يشاهد الصياد الهمجي عجوزاً يتقدم نحوه باسم ممدود اليبدين.
شيخ! ألا تؤكد الأخبار -التي يتناقلها بنو قومه منذ القدم- أن سكان هذه المحمية لا يهرمون أبداً!

يصرخ في العجوز:

- الأسطورة التي تقول إنكم لا تشيخون إذن كاذبة!

- ليست كاذبة. لكنني في عرف الخالدين مُذنب والمذنب هنا يعاقب بالشيخوخة الأبدية.
تسترعي انتباه بطلنا رنة الحزن في كلام الشيخ. يجب أن يحثّ هذا الكائن المقرّر على الكلام ليفهم أخيراً سرّ قلعة استعصت على أشجع وأذكى الأجداد.

لا حاجة لتهديد فالرجل وقد أصبح بجواره يكاد يحضنه لا يريد إلا إفراغ ما في صدره.
قال الشيخ: اسمع منّي القصة الحزينة أيها المتقدّم: متى بدأ كل ذلك؟ البارحة أو منذ ألف قرن؟ لا أدري إذ لم يعد للزمان في هذا المكان أي وجود. كنا نشعر أن الجشع والغباء يصدّد التعجيل بنهاية الأدمية، أن الكارثة آتية لا ريب فيها. أعدنا لها العدة. انتقينا خيرة البشر. جمعنا كل تراث الفكر. اكتشفنا سرّ الخلود وبنينا ما خلناها المدينة الفاضلة كما كان الأوائل يتخيّلونها في السماء بعد الموت... ذلك المكان الذي كان يسمّونه الجنة.

دقيقة صمت. تنهد. استئناف القصة:

- وضعنا كل التعليمات لإدارة شؤون المحمية في الزمردة السوداء. هي التي تسير وتتحكم في كل شاردة وواردة. هي حارسة خلودنا. لا قدرة لشيء أو أحد على التصدي للتعليمات المضمنة فيها. لا أمل في راحة الموت لكل من يخرج عليها أو يهددها وعقابه بالشيخوخة الأبدية. لا تقرب ذلك المبني الذي هو محرابها وإلا يا ويلك من عقاب أشدّ هولا من أقطع مية.

غريب! الخطاب يحذّر من شيء ولغة الجسد تغري بالعكس.

الصيد الهمجي محادثا نفسه:

إنّ الزمردة مقتلهم! لحظة أدمرها سينهاوى الجدار الشفاف الفاصل بين العالم الحقيقي وهذا المسخ. لكن أين الطريق إليها في هذه الدهاليز التي لا تنتهي؟! الغوث يا ربة القبيلة. كأنّ الربة المعنوية بالأمر سمعت الدعاء. تعترضه - هكذا دائما بمجرد الصدفة-فتاة باهرة الجمال في ريعان الشباب بالغة الأناقة، مكسوة بأروع المجوهرات. تتوجه إليه الفاتنة ممدودة اليدين كأنها تبتهل:

- من هنا أيها المنقذ.

المنقذ! لماذا أطلقت عليه هي أيضا هذا الاسم؟ لماذا رنة الخشوع في كلامها؟

يواصل الصوت الساحر: تعال فرغ الصبر من طول انتظارك كلّ هذه القرون. انتعني، سأكون دليّك في هذه الدهاليز. استعدّ. ستعترضنا صعوبات هائلة. لكنني واثقة أنك ستنتج. الطريق للوصول إلى الحرم من هنا.

تنطلق الفتاة تقود المحارب الهمجي في الدهاليز الغربية ووراءها ذكور وإناث يرفلون في الحلي والحلل، لا يخفون وراء ملامحهم الجميلة توجّسا قلعا.

فجأة أحسن زاردوز بألم لا يُطاق ينهش لحمه. إنها بداية المعركة، لكن أي معركة؟ من أين له أن يقاتل بالسيف والنصل عدوا يواجهه من خلف ألف ستارٍ بأسلحة لا يتصوّر لها عقله.

- قولي لي على الأقل من أحارب؟

- قوى الدفاع التي تجنّدها الزمردة لكيلا يقترب منها أحد.

ضاع هو ومرافقته أكثر من مرّة. وجدا الطريق وضاعا من جديد، وفي كل مرّة تزداد حدة آلام فظيعة لم يجربها من قبل. كانت تضمّه إلى صدرها تُغطّيه بشعرها، تواسيه وتداعبه كما تداعب الأم صغيرها، تقول له واصل، تشجع، اصبر، تقدم، من هنا ليس من هناك. تستل ونجح وأنذاك أصبح لك زوجة.

كانت تتوقف المرة تلو الأخرى تقول له انتظر لأسأل، تحدّق في الفضاء كأنها تستشير المجموعة التي تتبعهما من بعيد ثم تنفرج أساريرها: من هنا، قربنا من معقل الزمردة.

حتى في الجنة مؤامرات ومأمرون! من هذه المرأة؟ من هؤلاء الذين يدلونها حين تختلط عليها الطرق؟

عند اجتياز كل عقبة كانت تضحك كأنها تتشقى من عدوّ ستنتقم منه ألدّ انتقام.

قالت له بعد أن قطعاً شوطاً طويلاً: ابتداءً من هذا الحاجز لن أنفك في شيء. هناك حرمُ الزمردة والخالدون الذين تعرفهم واحداً واحداً ممنوعون من دخوله. ادخل وحدك فهي لا تعرفك ولا حيلة لها ضدك. أطبق براحتك عليها تقطع عنها النور فتنتهي حياتها وتنتهي مأساتها.

الزمردة السوداء في قبضته أخيراً.

علمُ الكون وقدرة الخالدين في راحة يده!

رصيد الفكر البشري منذ قرون تحت سيطرته!

لحظة تردّد.

ألم يأت للاستيلاء على كنز الكنوز؟ لماذا لا يستعمل كل هذا العلم، كل هذه السلطة لمصلحته ولمصلحة قومه؟

لكن كم يكره الخالدين وعلمهم الوقح وما فعلوه بقومه وهم بالنسبة إليهم صنف من الحيوانات... وكم يكره فكرة أن يصبح هو ورجاله مثل هؤلاء ال....

يطبق براحته على الزمردة السوداء فتتطفئ كل الأنوار. تتهاوى الأسوار ليقحم مجرى الزمان المحمية كما يقحم الماء مجرى النهر بعد انهيار السدّ.

المشهد الرئيسي

فجأة يسمع الصياد الهمجي الصراخ يتعالى من كل الأرجاء.

يشدّه منظر الخالدين وهم يركضون باتجاه رجاله يتضرعون: أنا، من فضلك! أنا! أنا!

أقتلني أنا الأول!

إنه تعجّب من يرى غزالاً يركض صوب الأسد أو حملاً يرتمي في أحضان الذئب.

الذكور يتدافعون إلى الرماح والسكاكين وكأنهم أطفال يتسابقون إلى اختطاف هدايا العيد! الإناث يمزقن القمصان ويعرضن الصدر العاري إلى حد النصل، يمسكن بالسيف يدفعنه بقوة داخل القلب ثم يغمسن اليدين في شلال الدم الساخن وهن يضحكن أغرب ضحك سمعه

أدمي يوماً!

يقدم الشيخ للمحارب الهمجي الذاهل أمام أغرب لوحة حياة يمكن مشاهدتها.

- بوركت أيها المنقذ، حان دوري. اغمس نصلك. لم أعد أقوى على انتظار.

- سنتكلم قبل ذلك. من أنت؟ من هذه؟ من هؤلاء؟ وما سرّ كل هذا؟

- هذا أقلّ ما يمكن أن أجزيك به أنا الذي سأدين لك بعد لحظات بالراحة الأبدية.

اسمع مني بقية أغرب قصص الأدمية المجنونة.

كانت المحمية التي سميناها تهكماً الجنة مكرّر مكاناً مثيراً في البداية. غرفنا من كل أنواع اللذة، لا فقط لذّة الحواس وإنما أيضاً لذّة العقل والروح. شبعنا جنساً وعلماً وصلابة ثم أصابنا

الشبع... فالتخمة... فالقرع... ولا شيء أماناً غير تكرار التكرار إلى ما لا نهاية.

كنت أول من قال يجب إنهاء هذه الموبقة.

كانوا ينظرون إليّ بذهول محاولين التغلب على بِلادة متزايدة العمق وأنا لا أكفّ عن الصراخ فيهم: أليس من قوانين الكون أنه لا وجود لشيء إلا بوجود النقيض... ما الجمال إن لم يصدمننا القبح، ما الفرح إن لم نجرب الحزن يوماً، ما الخير في غياب الشرّ، هل يمكن تصور الذكر دون وجود الأنثى؟ ... كيف لا تختفي السعادة في هذا المكان وقد فقدت أول شرط لوجودها وهو وجود الشقاء؟ أليس من قوانين الكون أيضاً أنه لا ثبات على شكل أو حالة لشيء أو أحد وأنه لا مجال لإيقاف سيل الزمان وإلا كنا كمن يريد حبس مياه النهر فلا يخلق إلا لبركة أسنة؟

كذبوا أذانهم في البداية. حسبوها نزوة. قالوا اسمع الموسيقى أكثر وتعبّد أكثر وتمتّع بكل ما قيل من شعر. لكن أي حاجة في مكان كالجنة للموسيقى للشعر وقد انطفت كل الألام والأمال والمشاريع التي كانت دوما وراء خلقهما والتمتع بهما. قالوا تأمل أكثر، تعبّد أكثر وتلاشى في الحبّ أكثر. فعلت كل ذلك، لكن الملل الذي تسلّل إلى روحي في البداية ببطء شديد تقادم إلى درجة لا تُطاق وقد أصبح هو الآخر ثابتاً ثبات الزمان المشلول. أخيراً أتضح لي طبيعة المكان: هذه الجنة لم تكن إلا الشكل المنمق أو الاسم الآخر للعدم، لأن أنواعه إن كان للعدم أصناف بما أننا كنا نعيش العدم ونعي بأنه العدم ولا مخرج لنا منه أبداً.

يمسح الشيخ دمة حارقة ثم يستأنف رواية أغرب قصة للادميين مذ وجدوا. -حكموا عليّ بالشيخوخة الأبدية. كان ذلك مكتوباً في قوانيننا وكننّ أول مذنب في عالم الخلود. كان رجوع الألم كرجوع المطر بعد الصيف. انتعشت روحي فترة، لكن الألم المؤبّد مثل اللذة المؤبدة، وضع لا يحتمل.

تدرجياً نما الوعي داخل الجميع أنني على حقّ والكل يكتشف يوماً أننا أصبحنا سجناء زنزانية لن يحررنا منها إلا رجوع الموت. كيف السبيل إليه وقد وضعنا في الزمردة أمر إلغائه وتعليمات التصدي لأي واحد منا يحاول إلغاء الإلغاء؟

بصفتي أول متمرّد عُهد إليّ بالبحث عن حلّ. الوحيد الممكن اصطفاً منقذ لا تعرفه الزمردة السوداء وبالضرورة من خارج المحمّية. كنّا قبل هذا القرار نرعاكم كقطع، كحقل تجارب ممتعة. كنّا نجرب عليكم نظرياتنا، لنرى ردود فعلكم على هذه الديانة أو تلك، على هذا النظام السياسي أو ذلك، على كل ما يخطر ببالنا من الكوارث الطبيعية نقيس طاقاتكم وحدودها. فجأة أصبحتم أملنا الوحيد. قلنّ يجب تكثيف التثكيل بهم على مرّ العصور لاصطفاء أكثرهم جرأة وذكاء وحقداً وتصميماً على تدميرنا ثم ندخله القلعة وندلّه على مكنم الداء. كنت يا زاردوز آخر حلقة من سلسلة طويلة من المحاولات الفاشلة. بوركت، بوركت أيها المنقذ وقد نجحت أين أخفق قبلك كم من مُغامر صنيدي.

أضاف الشيخ وقد داهمه نفاذ صبرٍ دام كم من أبدية:

-والآن اغمس نصلك في صدري، عاد الموت حقًا بعد أن كان دوماً الواجب. أريد أن أتمتع برؤية الدم وهو ينفجر أخيراً خراً طليقاً من شراييني. أريد أن ألمسه، أن أشعر به ساخناً لُزجاً يتدفق كالشلال، أريد أن أملاً نظري منك وأنا على وشك نوم بلا إفاقة. قالت مقاطعة الشيخ وهي تنظر إليه برقة ويدها على ذراع المنفذ: أنا التي قُدت داخل الهيكل. نصله لي قبل أي آدمي في هذه المحمية اللعينة. يتجاهل زاردوز طلبها كل اهتمامه منصب على الشيخ وهو يغرس سيفه في صدره والرجلان الصامتان يتبادلان الابتسام.

ليسمح لي السيد المخرج هنا بالتعبير عن اعجابي بالفيلم لكن مع بعض التحفظ بخصوص الخاتمة ومن ثم اقتراحي بإعادة كتابة المشهد الأخير كالتالي:
قال الشيخ: بصفتي أول متمرد عُهد إليّ بالبحث عن حلّ. كنت قد أصبت بالإحباط من تعدد المحاولات المتعددة الفاشلة لخلق قائد من بقايا آدمية تعيسة انتهت في كل الأحوال بالانقراض. قلت في نفسي لم يبق لي إلا أن أجد المنفذ داخلنا. لا أدري متى سمعت صدى صوت بداخلي يشجعني على مواصلة البحث عن حلّ في هذا الاتجاه. ثم اعترضتني يا آدم بعد حادثة التفاحة وأجزم أن ذلك لم يكن صدفة. عرفت من أول وهلة وأنا أستمع كلامك وأنظر في عينيك أنك لست من نوع الذي يترك لها أو ثعباناً يقرر له ما يأكل وما لا يأكل وأنك لا تختلف في تقييمك للورطة التي نتخبط فيها عن تقييمي. كنت أرى في نظراتك قرار الفرار. لكن كان من الضروري أجد امرأة تجمع الجراء والحيلة لتخرج معك لولادة بشرية لا ترتكب الحماقات التي ارتكبتها المنقرضة ومنها الحلم بهذه الجنة الفظيعة. أه كم كنت أودّ وقد أكملت مهمتي التمتع براحة الموت. لكن همس الصدى في صدري كان واضحاً: لا بدّ يا إبليس ان تصحب آدم وحواء فأنت عنصر ضروري لقصة القصص. بربك أليست هذه الصيغة أكثر اناقة وأقل تكلفة من سيناريو صاحب مكلف وينتهي بمذبحة؟ يبقى أن المهم هو اتفاق السرديتين أي أن آدم وحواء لم يطردا من الجنة، وإنما خرجا منها طوعاً نتيجة حساب منطقي: كل تحديات الوجود ومنها ضرورة الموت ولا جمود العدم على متعة أزلية لم يعد لها طعم. نغلق القوس ونعود لسباق القصة.

وبعد استماعه لاعتراض إبليس وأنه ضلع في المؤامرة وفهمه أنه لا قدرة له على التخلص منه، التفت آدم إلى حواء أخذاً بيدها لتخطي العتبة التي تفصل بين جنة بصدد التلاشي وعالم مبهم ما زال غارقاً في الضباب.

ماذا؟ كأنني بحواء تتردد، كأنني بأدم يحاول إخفاء موجة من الهلع داهمته فجأة... هل من الممكن أن تنتهي قصة القصص حتى قبل أن تبدأ؟

**[نقطة نظام ... ما جدوى إصابة الأدمي بالرعب من الخلود
إن لم تخلّصه الرؤيا من رعب الموت الذي يداويه بالجري
وراء هذا الخلود؟]**

في أشهر أعمال المسرحي يونسكو يتوجّه الملك "بيرانجي" وهو يلفظ آخر أنفاسه بابتهاله إلى الأموات: "من أين أتتكم جسارة القفز في أحضان المجهول المرعب. علموني، أعينوني"

لا أحد قادر على الردّ رغم أن من ماتوا قبله أعداد لا تحصى.

تحاول الملكة التهوين على المحتضر: "لا تتمسك بأظفرك بهذه الحياة إنها منفي وأنت الآن عائد إلى الوطن، لا تنكص على الأعقاب وقد وصلت خطّ الحدود. تذكر أنك ستتخلص من هموم الدنيا."

ها هو يناجي نفسه مجاهدا للبقاء واعيا: هموم الدنيا! لا أحبّ لي منها الآن. الصعوبات التي أنهكت قواي! لا أحلى من تذليلها. عليّ أن أتذكر كل أنواع الإخفاق! إنه السوط الذي جلدني به العالم لأنسلق أعلى قمم المجد. ماذا تقول أيضا هذه الغبية؟ عليّ أن أسلم في الشمس، في القمر، في النجوم، في البحر، في الغابات وفي كئيبان الرمل!

أه هذه الدنيا التي أن الأوان لتوديعها!

تملّكها الآتي تملّك سائب وفارقها الماضي فراق سليب (المتنبّي)

لماذا لا يكون للأدمي أعذاره في التمسك بهذه الحياة رافضا أن يسلبها منه عزرائيل.

بدل البحث له عن تبرير لنبحث له عن تفسير.

من ناقل القول إن الأدمي المسكين يسكن طوال حياته أساطير أقل ما يقال عنها أنها غير مسؤولة. تجعل أغلبها من الموت عملية شبيهة بما يحصل للعائلات المنكوبة التي تحضر الشرطة لرمي عفشها على قارعة الطريق، بعد أن أصدر القاضي أمرا بإخلاء المحل بالقوة العمومية.

الأدهى والأمر أن لا القاضي الذي أصدر الأمر معروف ولا المحكوم عليه يعرف سبب عقوبة تقرر حتى قبل ارتكاب أي جريمة.

"نهار أنبت إلى الدنيا (نزار القباني)

وجدت قرار إعدامي

ولم أرّ باب محكمتي

ولم أرّ وجه حكامي"

لنجرّب التصدي المباشر لمثل هذه التصورات، مثلا بإقناع الأدمي أنه يرتعد فرقا أمام كلمة صنعها الأوائل في فضاء خيالهم فتر عرعت فيه لتعود إليه بمخالب وأنياب.

لنردّد له أن الموت مجرد مصطلح من مصطلحات لغة لم تخلق لنا فقط الآلهة والشياطين والأشباح، وإنما أيضا كأننا رمزيا خياليا آخر نسميه عزرائيل يصوّره البعض على شكل هيكل عظمي يحمل منجلا "يقطف" به أرواحنا.

كأنتي أصرخ في أذني أطرش قرّر منذ زمن طويل أن الطرش انفع له من السمع ولسان الحال يقول: "كلامك يا هذا في النفاخات زمرا".

لنجرّب التوجّه إلى عقل هذا الكائن الخائف من قرب فنائه. لنقول له: حبرّ على الورق ما يخطر ببالك من خصائص الحياة. أه كتبت: غريبة، عجيبة، مرهقة، مؤلمة، صعبة، محبوبة، مكروهة، ثمينة، رخيصة، خادعة، مكلفة، متغيرة، متجدّدة.

ما الكلمة التي تحاذر من كتابتها؟ يراقو يافيهم أنها كلمة م.ح.د.و.د.ة. ألا يعني هذا أن الموت ليس حالة مناقضة لحالة ثنائية اسمها الحياة وإنما خاصية من خصائص هذه الأخيرة؟ كيف يكون الجزء من طبيعة الشيء عدوا أو نقيضا له وهو لا يكون إلا به؟

نعم لكل حجج المنطق، لكن من أين لنا إنكار أن الذات تكره محدوديتها هذه كرة الأحذب لحدبته!

طبعاً للعقل الحقّ في رفض فكرة مكان لإشباع كل الشهوات دون وجود محركها وشرط وجودها الذي هو الحرمان. طبعاً فكرة الخلود بما هو وضع لا يتغير أبدا مناقضة لأهمّ قوانين هذا العالم. لكن ماذا عن موقف الفؤاد؟ أليس من حقّه هو الآخر رفض أن يقودنا الطريق إلى حافة هاوية نرمى منها رميا في بئر بلا قاع؟

هل هذا من بين أسباب تردّد حواء وهي على أهبة القفز في المجهول؟ هل جاءتنا من المستقبل إشارات بأن ذريتها ستكره الموت كرهها هي وأدم للخلود بل وأن أكبر حلم لدى هذه الذرية سيكون العيش في هذا الذي تترك ورائها بلا حسرة أو ندم؟

[ارجاء هندسة لبنة الموت بانتظار تبلور الشكل

العام للبنية لعل هذا الشكل يظهر ما الفراغ الذي

يمكن سدّه بلبنة تتلاءم معه... التركيز على التكلفة

الباهظة للمهمة مما سيزيد في تشويق معرفة

سبب القبول بها]

داخل ملفّات وصول العالم ذكريات موجعة لذيدة عن طول انتظار في أروقة مستشفى ومخاوف مبهمة ونفاد صبر وصرخات صامتة تدوي داخل الذات: هيا يا بنت اخرجي من هذا الرحم، يكفي من الدلال واللعب بأعصابي.

أكيد أن هناك أسباب وجيهة لهذا التردّد والدليل صرخة الفزع التي يطلقها كل قادم جديد وهو يرمى خارج الرحم.

هل رأي نفسه تائها في فضاء أخرق الاتساع، يربعه الرعد، يصعقه البرق، يجرفه السيل، يغرقه الطوفان، تמיד به الزلازل، تنقض عليه حمم البراكين... طريدة تركض خائفة هربا من صياد جائع، صيادا جائعا يجري وراء طريدة خائفة...جالسا القرفصاء يبكي حبيبا خانته قواه مجبرا على تركه جيفة للكواسر والطريق لا يرحم مريضا أو جريحا...

هل داهمت وعيه وهو متشبث بجدار الرحم لا يريد الخروج صور آتية من أعماق المستقبل تظهره عبدا موثق اليدين إلى عمود خشبي في قاع باخرة ننته...مجذوما يُساق محروسا بالجنود خارج أسوار مدينة لا مكان فيها لمجذوم...مهووسا ماشيا بين تلال الجثث وراء قافلة من المهووسين يضربون صدورهم، أفقدهم حجم كارثة الطاعون كل صواب...بحارا على زورق وسط المحيط المزمجر يقاوم الرعب والنوم خوفا من أن يلقي به الرفاق في الموج وقد نفذ الطعام والماء...جريحا يحتضر فوق أرض معركة عبثية أخرى وأطفال جياع يفتشون جيوبه ونساء جائعات يتخاصمن على ثيابه الملطخة وحلا ودما ... جنديا سيقتل في آخر حرب برصاصة طائشة عشية وقف إطلاق النار... لاجئا ترمي به الحروب والمجاعات من مخيم بشع إلى مخيم أبشع... مملوكا يقف أمام خليفة يصرخ من أكل بطيخي ثم يقرر بطنه مفتشا عن بطيخه وسط أمعائه الدامية...طفلا يتيما سمل المجرمون عينيه لأن طفلا أعمى يدّر مالا أكثر على عصابات التسول المنظم...طفلة تساق عبر مسارب جبال مرعبة، حُرأسها يهزجون بكلام غير مفهوم وعند قمتهم المقدسة يكسرون جمجمتها قربانا لألهة لم توجد يوما إلا في خيالهم المريض...جارية تدبح في ليلة ليلاء مع مئات الجوارى لأن إمبراطورا مجنونا صدق أن محظياته يمارسن الجنس مع المخصيين... امرأة في مقتبل العمر توضع في حفرة إلى الصدر تصرخ تحت الرجم أوصى الراجمون بعضهم البعض ألا تكون حجاتهم كبيرة حتى لا تموت الزانية بسرعة وألا تكون صغيرة حتى لا تطول زفة الإعدام...عجوزا تتسول قطعة خبز على باب ثكنة والجنود يطردونها لا يعلمون أنها كانت في شبابها بائعة هوى مرّ على جسدها كل ما في الثكنة من ذكور لئام...شاعرا صوفيّا معلقا على جسر مقطوع اليدين والرجلين ينزف من آخر قطرات دمه مدانا بالكفر وقتلته هم الكافرون... شحادا على باب كم من معبد لا أحد ينظر إليه وكلهم داخل الحيطان يلهجون بحمده يستجدونه العطاء.....قبلة كل الأنظار والحشودُ تتشبّث بجلبابه قبل تعليقه على خشبة وهو لا يقدر على شيء لأحد ولا حتى لنفسه؟

هل أصابه الرعب وهو يسترجع ما عاش يوم جُدع أنفه ليجعله حاكم مجنون عبدة لمن يعصي له أبسط أمر... يوم رُمي وسط غرف الغاز لاقتلاع ذهب أسنانه والجسم لم يُنه بعد تحبّطه... يوم جُرّ إلى أعماق الأرض ورنثاه تحترقان ليستخرج لهم معادنهم الثمينة وكأنه ليس هو أثنم معدن...يوم دُفع لمواجهة الكواسر يضحك عليه علياء القوم وسفلة العامة وهو يواجه الأنبياب والمخالب ببديه العاريتين... يوم قُطعت يده بالسكين بحجة أنه سارق

سارقي قوت أطفاله... يوم أوقف في طابور طويل ينتظر مرتجفا أن يقطع رأسه بعد أن سقطت المدينة وأسلم سكانها لسيوف القتل بالجملة...
هل رأى نفسه صيدا ثمينا للذين منهم كل نقمة وللجرائم ابان الحياة وعند الموت وليمة للذباب والدود؟

هنا يجب أن تكون لنا شجاعة رفع الاصبع في وجه آدم وحواء واتهامهما بأخذنا قرارا أقل ما يقال عنه غير ديمقراطي.

ألم يكن خريًا بهما أن يواجهها كل بناتهم وأبنائهم بما ينتظرهم وترك الخيار لهم.
أما كان عليهما من باب النزاهة أن يصرخا في شبح بصدد التبلور: أنت، نعم أنت الذي يحاول الاختفاء وراء الظهور؟! هل ستقبل بالمهمة علما وأنتك ستنتهي متسكعا في أروقة المترو بعد فقدان العمل وهروب زوجتك بالأطفال وطردك من بيت لم تدفع إيجاره منذ سنة، أنك سترمي بنفسك تحت القطار في محطة سان ميشيل وبسببك أيها البليد سيتعطل العمل أربع ساعات على الخط "ب"، مما سيضطر الشركة إلى تحويل آلاف المسافرين على الخطوط الفرعية حيث ستعم الفوضى ويتدافع الناس ويتخاصمون ويتشائمون والجميع يستمطرون اللعنات على رأسك -أو ما بقي منه- لأنك لم تجد غير الانتحار وقت الزحمة حتى تضايق أكبر عدد من الناس المرهقين. أه نسيبت أن أقول لك إن عمالا في قمة التقزز والاستياء سيجمعون أشلاءك الدامية في كيس من البلاستيك يرمونه في حفرة بالمكان المخصص للمجهولين في أبعد مقبرة، وأن سائق الفاطرة سيعطى أسبوع إجازة وسيُحال على طبيب الشركة المختص بعلاج الصدمة النفسية للسواق المساكين ضحايا أمثالك من المجانين وما أكثرهم هذه الأيام.

نعم كيف لم تصرخ حواء في قابيل وهو جنين: يا لهول ما ينتظرك وأنت كالدابة تجر الحجر والملح والرخام، السوط يكوي ظهرك، الجوع يمزق أمعاءك، العطش يلهب حلقك، الهوام تلسع وتعض... وكل ما تصلي من أجله حضور الموت المنفذ من الحياة.
أه لو نبتت أيضا هابيل أن بإمكانية طاوله القمار أن تسحب له حياة المتشرد، العبد، السجين، المخصي، المومس، القواد، المستبد، الجلاد، الجائع، المريض، المجنون، المشوه، المعاق، الثائر الفاشل.

تصوّر لو طرح آدم وحواء على ذريتهما في إطار استفتاء نزيه وشفاف خيار الخروج من الجنة لدخول العالم. ما من شك لدي أن خيار لا ثم لا ثم لا كان سيحصل على نسبة 99.99% وبدون أدنى عث.

لننتقم من استخفاف السلطات العليا برأي أغلبية الشعب. ها هو النص يجعل كل امرأة حبلى تشعر بقلق مفاجئ لا تدري له سببا والرفس اللطيف الذي تعودت عليه في أحضانها فجأة يتوقف.

[يجب الآن تقديم بعض التبريرات المعقولة لتغلب الأدمي
على كل مخاوفه وقراره بالارتقاء في أحضان المجهول]

في روايتي لقصة القصص ثمة همس مجهول المصدر يتردد صداه في أعماق وعي هذا المحرم الذي داهمه الرعب من تكلفة ما يطلب منه.

أتسلّم في البحار، في البراري، في الجبال، في الصحراء ليلاً؟ ... أتضحى بطعم الزيتون والتمر والتين والعسل، بروائح الياسمين والأرض المبلّلة بالمطر والعنب، بحفيف الأشجار، بخيرير الماء، بهمس النسيم، بصفير الريح، بزقزقة العصفور....
دوما نفس التردد بل ثمة موجة جديدة من الهلع.

أليس واضحاً أن المحرم يقرأ في غياهب المستقبل ومن ثم سماعه بكاء ضحايا الاغتصاب نساء ورجالا وأطفالا ناهيك عن الأصوات المتصاعدة من ومن ساحات الحروب ومن غرف التعذيب؟

يعود الهمس الرقيق لكلام الطمأنة والإغراء:

لكن هناك أيضا أصوات الأطفال وهم يُضحكون كلَّ من حولهم ... وأصوات مداعبة الأمهات لأطفالهن قبل النوم ...
كل هذا بدهاءة بلا تأثير.

الورقة الأخيرة. لكن أي ورقة؟

هل ثمة إضافة لهذا العالم أتى بها الأدمي من دون كل الأجناس الحية الأخرى غير الموسيقى؟ إذن لأجعل منها سبب نزولنا للعالم نضيف لجمال الأخاذ جمال الموسيقى.
لا تقل لي أن العقدة غير مقنعة لأن الموسيقى كانت موجودة وبكل الأصناف والكميات في الجنة التي أدعي أن آدم هرب منها. نعم كان يوسع آدم أن يسمعها طوال الأبدية لكن أن يخلقها قطعاً لا، فالموسيقى كالشعر لا تنبعث إلا من ذات تتأرجح بين أعماق الآلام وأجمل الآمال ومثل هذه الحالة لا وجود لها في الجنة وقد أصبحت الآلام والآمال بلا جدوى أو معنى.

إذن يتجدد الهمس وفي النبيرة خشية مبهمة وأمل متجدد: تأمل الشكل الذي سترحل فيه... خاصة أصابع اليدين. صممت بدقة للنقش، للنحت، للرسم، للكتابة. الأهم قدرتها على القرع، على النقر، على النفخ، على ذبح الأوتار. تمنع فيما ستخلق من الأصوات.

تداهم الفكر الممعن في الصمت قوالي الصوفيين الباكستانيين ومواويل العرب وراقا الهنود وأنغام الأفارقة وجاز الأمريكيين وأجمل روائع باخ وشوبرت وموزار لتنتهي الوليمة الفخمة بفالسات شتراوس خاصة تلك التي عنوانها الدانوب الأزرق الجميل.

ينتبه المحرم إنه لم يعرف في أي من رحلاته الأخرى تجربة كهذه. يسرّ إلى نفسه وهو لا زال تحت وقع سحر الأنعام: ثمة في هذا العالم ما يستحق أن ...

يتبلور في فكر مبهم قرار لا رجعة فيه أنه سيلبس الشكل الأدمي وسيجرب مغامرته لا لشيء إلا لقدرته على خلق الموسيقى.

لم يبق على بطل الأبطال إلا أن يفسخ من ذاكرته كل تجاربه تاركاً في أعماق أعمق اللاوعي عمداً، بعض الإشارات المبهمة لتذكّره من حين لآخر أنه غير ما سيلبس من أقنعة وما سيمثّل من أدوار.

تعود الطمأنينة إلى تفاحة وكم من حبلى قلقة تشعر من جديد بحركة في أحشائها تكاد تقسم أن فيها إيقاعاً لجنين يرقص.

أه ارتفعت أصوات الاحتجاج كما كنت أخشى.

ثمة من يصرخ: يا رجل تدّعي النزاهة، لكنك تغتنم كونك صاحب النص لفرض ذوقك وخيارائك على البشرية جمعاء. كل مصائب الوجود للتمتع بخلق وسماع موسيقى يحزّمها ديني!

كأنّي أسمع فان قوق يصرخ هو الآخر من قبره: أدين بشدة هذا الخيار فأنا شخصياً لم أت هذا العالم إلا للرسم؟

إنها فرصة لكل من لم تعجبهم هذه " التخريجة" للتعبير عن بالغ الاحتجاج بكل الطرق المهذبة وغير المهذبة ومنهم من يضحك عليّ الجميع وهو يصرخ أما أنا فلم أت هذا العالم قابلاً بكل أهواله إلا لجمع طوابع البريد.

**[شرطان ضروريان لكي يلقي خيارى لهدف
الخروج أوسع قبول ممكن... أن يكون له من
الأهمية ما يبرر كل تكلفته... أن يقطع مع ثنائيات
الخير والشرّ، المكافأة والعقاب، النجاح والفشل]**

لنتصور أن الصدى أسرّ وهو يفتح لأدم وحواء أبواب العالم بالمهمة التي يكلفهما بها.

لا بدّ أن هذه المهمة مضمّنة في أمر: افعل كذا وكذا.

كيف نتعرّف على هذا الفعل الجذر الذي تنطلق منه سلسلة الأفعال الثانوية القادرة على ترجمة الأمر إلى واقع؟ أي مقياس لفرزه من بين آلاف الأفعال التي يمكن للأدمي أن يأتيها؟ بدهاءة يجب يكون متقدماً على كل الأفعال الثانوية، سابقاً لها، مانعاً ظهورها إن لم يظهر. وأيضاً أن يكون منطلق سلسلة الأفعال التي يقضي المرتحلون طوال رحلتهم في أدائها مثل أحسنّ وشعر وعمل وعمرّ ودمرّ وفكر وتخيل الخ.

لنتطلق من أولى الأفعال التي تأتيها الذات عند الإفاقة وهي ضرورة الأقرب إلى الفعل الجذر.

إنها كل أفعال الحواس الخمس التي تبني أولى وأقدم صورنا للعالم عندما تبلور من مبهم أصلي معالم الشمس والقمر والنجوم... أحاسيس البرد والحرّ والجوع والشبع... أصوات الأم والرياح وقطرات المطر على نافذة غرفة النوم... روائح الفلّ والياسمين والغائط

والدم المتخثر ... طعم الخبز والتين والزيتون... كل الأحاسيس والمشاعر التي ستصل ذروة الوعي بها عند الشاعر والفنان.
تأتي في مرتبة ثانية قائمة أفعال الذات وهي تسمي وتصنف وتضفي باللغة الوظيفة والمعنى على أفعال وتفاعلات الحواس الخمس.
طبعاً هناك كل الأفعال التي تصنع فضاء الخيال والفضاء الافتراضي مثل حلم، تخيل، اخترع، اختلق، تصور ، أبدع الخ
أضف الآن القائمة الطويلة لأفعال السواعد وهي في كل الفضاءات تدمر بالحرب وتعمّر بالسلام.

النتيجة لكل هذه الأفعال؟ طبعاً العالم الذي نعرف.

توقف عند أهم خصائص هذا العالم.

إنه عالم لم تبلوره إلا حواسنا الأدمية، لم تهندسها إلا سواعدنا، لم يكتسب المعنى الذي نعطيه له إلا بفكرنا وخيالنا. هو عالم ورشة لا يتوقف إعمار السلم ودمار الحرب عن إعادة صنع فضاءه الحسي مثلما لا يتوقف صراع المدارس الفكرية والفنية عن إعادة صنع فضاءه الرمزي والخيالي. إذن هو عالم خاص بالأدمية وإن تجاور وتقاطع في بعض الخصائص مع ما لا يحصى ولا يعدّ من العوالم مثل عالم النحلة.
الخلاصة أنه عالم ما كان يوجد لولا الأدمية التي أوجدته.

أوجد؟!

هل يكون هذا الفعل هو الفعل – الجذر الذي يبحث عنه النص منذ بدايته؟

قبل الجزم لنقلب هذا الفعل من كل جوانبه.

بِسْوَالِ الْمَعَاجِمِ اللَّغَوِيَّةِ عَنِ الْأَفْعَالِ الْقَرِيبَةِ مِنْهُ نَجِدُ: أَبْدَعُ، أَبْرَأُ، أَحَدَثُ، أَفْضَى إِلَيَّ، أَنْتَجَ، اخْتَرَعَ اخْتَلَقَ، اسْتَحْدَثَ، اسْتَنْبَطَ، اكْتَشَفَ، اخْتَرَعَ، سَبَّبَ، سَوَّى، صَوَّرَ، كَوَّنَ، وَكَّدَ، خَلَقَ.
توقف عند آخر فعل. ألا يجمع فعل خلق كل المعاني التي ترمز لها بقية الأفعال؟

والآن ما المعاني الكبرى التي تسبغها اللغة على ما نحسبه الفعل - الجذر؟

يقال أَوْجَدَ فَلَانًا أَي أَغْنَاهُ... ويقال أَوْجَدَ فَلَانًا بَعْدَ ضَعْفِ أَي قَوَّاهُ... ويقال أَوْجَدَ عَلَى الْأَمْرِ أَي أَكْرَهَهُ وَأَلْجَأَهُ... ويقال أَوْجَدَ الشَّيْءَ أَي جَعَلَهُ يَجِدُهُ وَيَطْفُرُ بِهِ... ويقال أَوْجَدَ مَطْلُوبَهُ أَي أَظْفَرَهُ بِهِ... ويقال أَوْجَدَهُ عَلَى الْمُعْصِيَةِ أَي أَكْرَهَهُ عَلَيْهَا... ويقال أَوْجَدَ اللَّهُ الشَّيْءَ أَي أَنْشَأَهُ مِنْ غَيْرِ سَبْقٍ مِثَال.

توقف عند المعنى الأخير

أوجد الله الشيء أي أنشأه من غير سبق مثال!

أليس هذا بالضبط ما يحدث والأدمي يوجد عالماً لم يسبق له مثال؟

نعم... ولكن إيجاد خلق العالم في كل أساطير البشر من خصائص الآلهة وحدها، فهل يكون

الأدمي إلهاً؟

[طبيعة المهمة وهوية الأدمي وجهها نفس
الإشكالية... الربط بينهما أفضل منهجية لحلّ اللغز في
تصوّر واحد]

عندما نقول عن الأدمي أنه يخلق عالما مصنوعا من حواسه وخياله وأفكاره وأعماله
فلاستنتاج المنطقي أنه خالق.

المشكلة أنه لا يمكنه إيجاد هذا العالم إن لم يوجد هو. لا بدّ من وجود موجود متقدم عليه-
سمّه ما شئت- هو الذي أوجده حتى يستطيع إيجاد عالمه هذا. الاستنتاج المنطقي إذن أن
الأدمي مخلوق.

خالق أم مخلوق؟ خالق ومخلوق؟ لا هذا ولا ذاك؟

بداهة نحن لا نستطيع البتّ نهائيا في طبيعة المهمة إن لم نحدّد بالضبط من هو هذا الأدمي.
عودة للمكتبة العظمى التي راكمها العقل الجماعي على مرّ العصور بحثا عن أجمل
الأساطير-بما هي مستودع الحدس الأكثر رهافة-لعلنا نجد فيها أفكار تعيننا على التقدم في
بناء الرؤيا.

الغنيمة في قضية الحال هذه الأسطورة الاغريقية.

يرضى الأدمي الآخر بأن يريك أخيرا وجهه بعد طول الاختفاء وراء أقنعة كل الأدوار
التي أخرج ومثّل.

ترفع يدك نافد الصبر نحو وجهه تزيل عنه القناع.

تفاجأ أن هناك قناعا ثانيا تحت الذي رفعت.. فثالثا، فرابعا، فخامسا، فسادسا، ف...
تتراكم عند قدميك الأقنعة والوجه المخفي للذات الأخرى يتباعد تباعد الأفق عن الراكض.
آخر قناع بقي على الوجه.

ترفعه مرتعش اليدين خافق القلب.

تنتطق منك صرخة العجب وأنت تكتشف... وجهك أنت.

لأنتبّت من الأمر.

ها أنا أرتمي على كل عابري السبيل أخلع طبقات الأقنعة التي يخفون وراءها ... لأكتشف
كل مرة وجهي.

ها هم يتتابعون عليّ الواحد بعد الآخر وفي كل مرّة يصرخون بالدهشة وهم يكتشفون دوما
... وجههم لا غير.

لأجعلهم ينقضون على بعضهم البعض. النتيجة دوما نفسها.

هذا التصوّر للأسطورة الإغريقي حول هويتنا من ثوابت الفكر، صيغ في أكثر من ثقافة
وفي كل العصور وأجمل إخراج له الذي تجده عند المتصوفين وكبار الشعراء.

"وتخفق في قلبي قلوب كثيرة (بدوي الجبل)

فقد كان شعبا واحدا فتشعبا "

إنه حدس موغل في القدم تَبَّت العلم صدقه. فالأدمي في رؤياه مصنوع وفق "وصفة" تحتل ألف صفحة من كتاب-يسمى برنامج المورثات.
الاختلاف بين الأفراد جمل مبعثرة هنا وهناك لا تحتل أكثر من صفحة يتيمة، أما ال 999 صفحة الباقية فمتشابهة في كل حرف وكل فاصلة.
طبعا هذه الفوارق البسيطة ليست علامات للتمايز وإنما علامات للتمييز حتى لا نكون نسخ طبق الأصل لنموذج يتيم وحتى يكون لنا دوما مجال للتصرف الحر.
انتبه هنا للتغيير الجذري-أو لما يسميه البعض "القطيعة الأبيستمولوجية"-مع تصورات الرؤى غير المتقنة للذات.
جعلت هذه التصورات من كل ذات جزيرة لا ترتبط مع الذات الأخرى إلا بجسور، مرفوعة أغلب الوقت.

في التصور العلمي الجديد بالتركيز على تشابه ال 999 صفحة بدلا من تضخيم الاختلافات التي لا تحتل أكثر من صفحة يتيمة، يجب أن ترى نفسك في ذلك اليهودي بذوائبه، في ذلك الراهب البوذي بملاءته الصفراء، في ذلك "المتوحش" العاري بجهازه التناسلي في غمده الأنيق...في كل أدمي مهما تباعد شكله ومظهره عنك.
أنا، أنت، هو، هي، نحن، كلنا نفس الكائن وإن بوجوه مختلفة. يا له من تحول جذري بالنسبة لكل العقائد التي تدعو لاعتبار الآخر في أحسن الأحوال...أخا!
يبقى أن القول بأن آخر قناع ترفعه عن وجه الآخر هو وجهك أنت لا ينهي الجدل وإنما يدفعه نحو مستوى أعمق. ماذا لو كان كل هذا الوجه الذي هو وجهك ووجهي هو نفسه قناعا؟

يصيح السؤال على من أو ماذا هو موضوع؟

للرد على هذا السؤال ثمة في مكتبة العقل الجماعي اسطورة ثرية يمكن إعادة استعمالها هي الأخرى في بناء بيت الروح.

إنها أسطورة فيشنو-الاله الثالث للديانة الهندوسية وفحواها أن هذا الاله قَبِلَ بالنزول إلى عالمنا الحسي متجسدا في سمكة، في سلحفاة، في خنزير بري، في حيوان نصفه رجل ونصفه أسد، في قزم، في مقاتل، في بطل ملحمة اسمه رام، في نبي اسمه بوذا وحتى في إله اسمه كريشنا... وهو مبرمج لتجسد عاشر عند نهاية العالم.

المفهوم المركزي في هذه الأسطورة هو الذي يشار اليه بكلمة الأفاتار अवतार.

تُحِيل الكلمة في اللغة السنسكريتية أولا إلى عملية تجسد الخالق في المخلوق وثانيا إلى ما تتكلفه العملية من صعوبة ووجع لأنه ليس من السهل أن يحشر الكامل نفسه في الناقص، اللامحدود في المحدود، الأزلي في الفاني... مثلما ليس من السهل بالنسبة إلى المخلوق وهو الناقص أن يحتوي الكامل، وهو المحدود أن يحتوي اللامحدود وهو الفاني أن يحتوي الأزلي.

أهمّ الاستنتاجات التي يفرضها التصور: كل الكائنات التي يتجسد فيها فيشنو على تباينها الشديد -السحافة والخنزير البري والآدمي والاله -أقارب تتقاسم نفس الهوية كما يتقاسم النسب الواحد أطفال نفس الأب والأم.

وأيضاً أن كل الكائنات التي يتجسد فيها وسيتجسد فيها فيشنو متساوية القداسة بما أنها أغلفة متباينة لنفس المحتوى الالهي.

إن لم يكن الرجل أمام محطة بومباي يستهزئ بي وهو يضم راحتيه يسلم عليّ كأنه يصلّي أمامي... هل كان يعرف ما كنتُ أجعله أو كان يتذكر ما أتناساه باستمرار... هل كان منتبها لما كان تبلى مزمن يمنعني من الوعي به؟

لنواصل جذب خيط كبة الغزل أو لعبة نزع الأقنعة وقد بدأت تتلاشى الحدود بين الخالق والمخلوق.

إذا كان الآدمي أفتار من بين أفتارات فيشنو، لماذا لا يكون فيشنو هو نفسه أفتار لشيء آخر؟

عودة لما تعلمناه من فيلسوف اسمه دولوز Deleuze بخصوص المفاهيم وكيف أنها تجسيد لأفكار بالغة العمق والتعقيد تُختصر في رموز تُوقر على العقول البسيطة مصاعب التنظير. نموذجاً عزرائيل كمفهوم مجسد للموت، ابليس كمفهوم مجسد للشر، افروديت كمفهوم مجسد للجمال، الخ.

ما المفهوم الذي يجسده فيشنو؟ أي قوة قادرة على أن تسكن وان تتشكل وان تدوم ولو لزم من محدد في كائنات جد متباينة شكلاً وحجماً مثل الآدمي والسمة والسحافة والخنزير البري وأن تتوزع في كل هذه الأشكال بتمامها وكمالها. الإجابة الوحيدة: الحياة.

السؤال الآن كيف يمكن أن نصف العلاقة بين بين فيشنو كحياة و فيشنو ككائن حيّ مثل الآدمي.

لنستعمل لغة رجال القانون وهم يحاولون التدليل على صحة ما يجب على القاضي (القارئ في قضية الحال) قبوله منهم كراي سليم. الجزء الأول من المرافعة:

وحيث أن الحياة هي نفسها داخل غلاف كل الأجساد الحيّة... وحيث أنها موجودة بكامل خصائصها في الجرثومة والفيل، في الورد وفي الزيتون... وحيث أنها لا تميّز ولا تقاضل ولا تظلم عمداً أي من الكائنات التي تتبلور فيها... وحيث أنها تتوزع جيلاً بعد جيل كتركة يقتسمها كل الورثة بالعدل والقسطاس فتكون كاملة لكل وريث ولو قسمت ملايين المرات...

وحيث أنها مشروع متواصل حيث ستتجسد في أجناس حية من نبات وحيوان وفطور لا قيل لنا بتصورها...

الجزء الثاني من المرافعة:

وحيث أن للآدمي الذي تتواجد فيه مثل هذه المعجزة خصائص واضحة تميزه عن السلفاة والخنزير والشجرة مثل المظهر والحجم وكيفية التحرك في الفضاء فمن المسموح به اعتباره شكلا من الأشكال التي تتخذها الحياة...

وحيث أنه إبان حياته في حالة من النشاط الجسدي والفكري تترجمها أحاسيس ومشاعر وأفكار وأفعال ليست ما تجرب الشجرة أو السلفاة ... فمن المسموح به اعتباره حالة من حالات الحياة ...

وحيث أنه كما يحتل جزءا ضئيلا من الفضاء، لا يحتل إلا جزءا ضئيلا من الزمان نظرا لقصر عمره قياسا بعمر الحياة... فمن المسموح به اعتباره لحظة من لحظات هذه الحياة. هكذا يسعنا القول دون تعسف على منطلق أن الأدمي شكل شكل-حالة-لحظة من الحياة بلغة العلم أو شكل -حالة-لحظة من فيشنو بلغة الأسطورة الدينية.

السؤال الآن ماذا لو كان فيشنو نفسه قناع؟

بديهي أنه لا يمكن للحياة أن تبرز من العدم ولا بدّ أن يكون وراءها قوة جبارة هي التي أوجدتها وهي التي ترعاها وتتحكم فيها؟

أطلق الأدميون على هذه القوة المجهولة التي رصدها الحدس منذ ظهور الوعي واللغة ما لا يحصى ولا يعدّ من الأسماء.

تخيّلوها تحت ألف صورة وصورة وانزلقوا في أخطاء جسيمة بإعطائها صفاتنا وتحميلها أحقادنا.

تخاصموا من الأزل حول من ناله شرف معرفتها أحسن من الآخرين.

أذكاهم من اعترف بأننا نتخذ طريقا خاطئا بالتسمية والوصف وتلبسها نوابانا.

"الاسم الذي نستطيع نطقه ليس الاسم الخالد (لاو تسو)

أصل السماء والأرض واللاموجود

وهذا لا اسم له"

ورغم التحذير نرى كبير فلاسفة الشعر أو كبير شعراء الفلسفة يرتكب نفس الخطأ وهو يصف الكلمات لتصور ما يقول إنه لا يمكن لا تسميه ولا وصفه:

"مظلم وبلا قاع

سابق للزمان والمكان

فوق وخارج كان ولم يكن"

إنها حقًا لمعضلة. من جهة ممنوع التسمية حتى لا نسقط في أوهم وجود مسمى خارج المسمى، من جهة أخرى لا بدّ من اسم إذا أردنا قصة لا تكون إلا يبطل محدّد الهوية.

كل ما يمكننا قوله بخصوص هذه القوة التي تتفرع عنها كل ما نعرف أو نرصد من قوى ان اللغة عاجزة عن اعطاءها اسما لان اللغة لا تسمي الا ما نرصد بحواسنا المحدودة وبفكرنا المتحور طول الوقت، ان المخيلة لا تذهب بعيدا في تصورها وهي لا تفعل عبر

الاساطير سوى اضافة صفات مضخمة لكنها صفات البشران العلم يمنع من تحميلها نوايا واهداف هي دوما من نوايا واهداف البشر.
المخرج الأمثل هو الذي وجدته الخوارزمي أي تسمية هذا المجهول المطلق الذي لا بد من وجوده ليكون للحساب حلاً: " الشيء".

[يمكن الآن وضع آخر اللمسات على لبنة هوية الأدمي]

أن يكون " الشيء" بالنسبة للفكر مثل الأفق بالنسبة إلى الماشي لا يمنع من مواصلة البحث فيه كما يفعل الفيزيائي وهو يرصد حركة المجرات والنجوم دون فكرة واضحة ونهائية عن طبيعة القوى الحقيقية الموجودة وراءها.
ما الذي نستطيع القول بخصوصه ونحن واثقون أننا لا ننساق وراء نوع أو آخر من الهذيان؟

عودة لعملية الحفر في الذات وكنا قد وصلنا لكون أعمق طبقاتها هي ذاكرة الحياة.
من أين للخلايا التي تشكل الأنسجة التي تشكل الأعضاء التي تشكل الأجساد التي تشكل الأدمية أن تتواصل وأن تتعاون لولا هذه الذاكرة؟
لكن من أين لهذه الخلايا تأدية مهامها إن لم تغرس جذورها في الأخرى في ذاكرة أعمق وأشمل ألا وهي ذاكرة اللبنيات التي تتشكل منها.

هذه اللبنيات الأساسية هي التي يسميها العلم الذرات ويقول إنها لا تشكل فقط الكائنات الحية وإنما كل الكيانات التي لا حياة فيها كالصخور على الأرض والمجرات والنجوم والكواكب في الفضاء اللامتناهي.

حتى هذه الذرات -المواد التي صنع منها ما يسميه العلم الكون بحاجة لأن تغرس جذورها في ذاكرة أوسع وأشمل وأعمق وإلا من أين لها المحافظة على وجودها وتواصل خصائصها عبر المكان والزمان.

لنجعل هذه الذاكرة القصوى أو الأولى أو الأساس أو المنبع أو سمها ما شئت ذاكرة "الشيء"

يمكن للرؤيا الآن دون التعسف على المنطق أن تجعل من الحياة مجرد شكل-حالة-لحظة من "الشيء".

الأمر بديهي بخصوص الشكل، فالذرات التي تشكل الكائنات الحية جزء بسيط جدا مما يوجد في الكون من ذرات...

بخصوص الحالة: الحياة ليست إلا إحدى الحالات أو المراحل أو الأوضاع التي يمر بها الكون. هناك حالاته وهو جماد. هناك حالاته وهو مرحلة انتقالية بين اللاحي والحي. ربما له -أو ستكون له حالات أرقى- من الحياة تخيلها بعض كتاب الخيال العلمي في شكل وعي

وفكر بلا جسد يسكن جوف الحواسيب على الأرض أو جوف بعض الكواكب والنجوم في الفضاء اللامتناهي.

تبقى نقطة اللحظة وهي الأسهل. فمن الثابت اليوم أن الحياة لم تظهر على سطح هذا الكوكب ولن تدوم إلا ما يدوم الشرار المتطاير بضعة ثواني من حريق له آلاف السنين. يحق للرؤيا إذن أن تقرر أنه كما الأدمي (ككل كائن حي) شكل-حالة -لحظة من الحياة، فإن الحياة شكل -حالة لحظة من "الشيء".

انتبه لخطورة الاستنتاج الذي يفرض نفسه ألبا.

إذا اعتبرنا أن الأدمي شكل-حالة-لحظة من الحياة... وإذا اعتبرنا الحياة شكل-حالة-لحظة من الشيء... فمعنى هذا أن الأدمي شكل-حالة-لحظة من "الشيء"

ها قد تخلصنا من ثنائية المخلوق والخالق التي كبلت الفكر البشري من قديم الزمان كما لم تكبلها ثنائية أخرى.

على فكرة ، أليست بقايا هذه الثنائية هي التي تسمعها عند الملحنين والعلمانيين وهم يحدثونك من داخل تصوراتهم عن الطبيعة كما لو كانت شيئا مستقلا عنهم هم آلهة العصر المكلفون تارة بالتحكم فيها وتارة بحمايتها والحال أنهم شكل-حالة-لحظة من هذه الطبيعة لا أكثر من هذا ولا أقل.

المهم أننا نستطيع بتصورنا هذا تجسير الهوة المرعبة بين الخالق والمخلوق وهذا المخلوق قناع من بين ما لا يحصى ولا يعدّ من الأفتعة التي يلبسها الخالق.

لا يوجد بين البشر من انتبهوا للعلاقة قدر المتصوفة من كل الديانات والأعراق والأزمنة. قال البسطامي أحد كبارهم في الإسلام: "خرجت إلى الحجّ فاستقبلني رجل في بعض المتاهات فقال لي: يا أبا يزيد إلى أين، فقلت إلى الحجّ، فقال كم معك من الدراهم، قلت معي مئتا درهم، فقال طف حولي سبع مرات وناولني المائتي درهم فإن لي عيالا، فطفت حوله وناولته المائتي درهم".

ثمة من لم ينتبهوا أو قل ربما انتبهوا لكن فضّلوا فلكلور البحث عن الحقيقية على الحقيقة نفسها وهي بوضوح الشمس في عزّ الظهيرة.

نموذجا رهبان التبت البوذيين في اختيار مرشدهم وزعيمهم الروحي الدالاي لاما. هم يقضون كم من سنين ومن طقوس معقدة ومن ترحال في أبعد القرى الجبلية بحثا عن طفل يفترضون أن روح الاله قمصته بعد موت مرشدهم السابق.

كل هذا الجهد لا معنى له وأي طفل على قارعة الطريق يفي بالغرض.

الأهمّ اتضاح عبث الشكوى من العالم فما بالك بظلم الاتهامات التي نوجهها إليه ونحن في أوج التبدّل.

في رواية " الشياطين " للكاتب دستوفسكي يصف بطل الرواية شاتوف ما عاشه طفل من الهول وهو يُلقى به عاريا في غابة موحشة ليلا ثم يطلق عليه ارستقراطي مجنون كلابه

وكأنه أرنب للصيد. يقول شاتوف بعد تبخر في وصف آلام الطفل أنه لن يغفر أبداً لله ما مرّ به هذا الطفل مهما كانت الذرائع والحجج.
غريب يا ميخايل فيدور فيتش وأنت الكاتب الموهوب عدم فهمك أنه "هو لا غير" الذي كان يتعذب تحت أنياب ومخالب كلاب الصيد.
في نفس السياق... إذا كان الأدمي الشكل - الحالة - اللحظة "الشيء" فمعنى هذا أن "الشيء" هو الذي رأيناه عبداً موثقاً في قاع باخرة عيب، أمراً تحتضر تحت وابل الرجم، جلادا يعذب وسجين سياسي يعذبه جلاد، الطفل الذي سملت عينيه ليذر مالا أكثر على عصابات التسول المنظم.
من أين لنا أن نلومه أو ان نحاسبه وهو لا يجرب ما لا يطاق من الأهوال والآلام إلا على ذاته ولسبب رأى أنه يستأهل كل ما عانى وما سيعانى؟

[يمكن الآن معالجة لبنة هدف الرحلة ومعنى تكلفتها الباهظة]

توضيح ضروري عن علاقة الهدف والمعنى والمفهومان جدّ متقاربان.
لا أحد يؤرّفه معنى وجود فرشاة الأسنان لأن الهدف من وجودها واضح: غسل أسناننا حتى لا تصاب بالتسوس. هنا يفرض الهدف المعنى ويستمد المعنى من الهدف معناه. الخبط الرفيع الرابط بين المفهومين: نفع الشيء للأدمي. لكن هل بوسعنا ربط إيجاد العالم بشيء مثل المنفعة؟
إن قلت إن هدف وجودي أن أكون نافعا للشعب، ما نفع الشعب؟ إن كان هدف الشعب نفع الأمة، ما نفع الأمة؟ إن كان هدف الأمة نفعها الإنسانية ما نفع الإنسانية؟ ما نفع إيجاد خلق العالم؟ الوجود... ما نفع الوجود؟ ها نحن دور في حلقة مفرغة.
ماذا لو كان الخلل في طريقة تفكيرنا أننا نسحب على مستوى من الأشكاليات منهجية لا تصلح إلا في مستوى آخر بعيد عنه كل البعد.
ألا يعني عندما أقول إن حياتي تستمد معناها من كونها في خدمة الإنسانية أن بقاء الإنسانية أكبر وأهمّ من بقائي ومن ثم ضرورة التضحية بنفسى من أجلها.
أي شيء يمكن أن يكون أكبر وأهمّ من خلق - إيجاد العالم حتى نجعل هذا العالم في خدمته؟ طبعاً لا شيء.

وأيضا ما معنى أن نبحت للوجود عن هدف وهو الذي يوجد كل الأهداف النافع وغير النافع، الصالح والطالح، المفهوم وغير المفهوم، المنطقي والعبثي.
أليس بديهياً أن الفرع لا يقيم الأصل وإنما الأصل هو الذي يحدّد للفرع مكانه وقيّمته ومعناه داخل شبكة الأفعال والتفاعلات التي يسمح بها هذا الوجود.

بعبارة أخرى السؤال عن هدف ومعنى لمهمة إيجاد العالم لا معنى له ولا ضرورة؟
مما يعني أنه لا المنفعة هدف المهمة، لا الآلام ثمنها. إذن عما نتحدث؟ عن مهمة لا هدف لها إلا ذاتها والإيجاد لا هدف له إلا الإيجاد والوجود المنبثق عنه المتسبب فيه لا غاية له

إلا الوجود والوجود ليس إلا تجربة طيف شاسع لإمكانيات الإحساس والشعور والتفكير والتخيل من أقصاه المتمثل في ذروة الفضاءة إلى أقصاه الآخر أين تصل تجربة الروعة أعلى القمم.

[أخيرا الخبر الطيب]

في الرؤى غير المتقنة لنا جسد لترويض العالم ودماغ لمعرفة أسرارهِ. ماذا لو كانت "الحقيقة" أنه ليس للجسد من هدف آخر غير متعة تحريك أجزائه وليس للدماغ من مشروع غير متعة اكتشاف ما يزرخ به من قدرات في مجالي الفكر والخيال؟

ماذا لو كانت الوسائل أهدافا والأهداف وسائل؟

كم هدفا، يتضح لاحقا أنه كان طُعما وضعناه لأنفسنا أو وضعه لنا الآخرون والمهم طيف الأحاسيس والمشاعر التي نعتصرها من الجري وراءهِ. كم صدق من قال: عندما تحقق هدفك اعلم أيضا أنك ضيّعت كل الباقي.

ألا نصاب بخيبة الأمل عندما نصل إلى الذي ركضنا وراءهِ ونحن نكتشف أن الطريق هو الذي كان يهمنّا؟ ألا نجعل من كل نقطة وصول، ولو كانت قمة القمم، منطلق طريق جديد. هذا ما كان يعنيه "با" يوم قال لي اقتحم أنت الدنيا لمتعة النصر، أما أنا فتكفيني منها متعة الصراع.

لم يعد محكوما علينا اختلاق أهداف نتخاصم حولها ونركض وراءها متكلفين في تحقيقها أعلى ثمن. كم من أهداف جرينا وراءها نحزن لعدم تحقيقها والحال أننا نحقق أعظم هدف ونحن نبلور العالم كل لحظة... بكل تلقائية... بكل بساطة... بكل سهولة!

لم يعد محكوما علينا أن نقيّم حياتنا بدرجة نفعها لقضية مهما كانت.

نحن لم نأت لهدف مجهول ولا لتجربة حالة واحدة والثبات عليها، ولو كانت السعادة.

نحن لم نأت لنكتشف الحقيقة، ولو كانت اللغز المفترض للعالم، وإنما لتجربة الوجود بروائعهِ، بفضائاتهِ، بنجاحاتهِ، بإخفاقاتهِ، بقناعاتهِ وبحيرته.

أخيرا يمكنني أن أخرج من الطريق لأجلس على قارعتهِ مسندا ظهري إلى جذع زيتونة وقد تخلصت من رواسب ترويض ماكر ودعاية خبيثة وعقدة ذنب مغروسة بدهاء منذ نشأتني لأكون لهم خادما لا يطلب جزاء ولا شكورا.

أخيرا يمكنني أن أجري وراء أي هدف وأنا منتبه لكونه مجرد تعلّة لتشغيل جسدي وفكري أخيرا الحرية... أخيرا مواصلة ما بقي من الرحلة.

كالموجة (لاوتسو).

على سطح المحيط

كالرياح

بلا وجهة.

[إتمام هندسة لبنة الموت ثم اعلان انتهاء الأشغال]

كيف ستواجه الرويا من جهة رغبة الذات العارمة في ألا تتوقف الرحلة أبداً ومن جهة قبول ضرورة نهايتها بل وبطبيبة خاطر؟
كما تعسفنا على علماء الفيزياء باستعمال بعض مفاهيمهم لنستغلها في بناء مفاهيمنا سنتعسف الآن على علماء النبات لنستنتج من اكتشافاتهم ما لا يجروون عليه من أفكار، حقا هي من خارج ميدانهم.
مثال الشجرة مرة أخرى.

اعتبر الورقة التي تذبل وتنفصل عن الشجرة. هي مجرد وعاء مؤقت لأهم ما فيها، أي العصارة التي كانت تضمن لها البقاء حية ملتصقة بالغصن متواصلة مع الجذع والجذور وبقية الأوراق.

لكن هذه العصارة واحدة في الجذور والجذع، في الأغصان وفي كل الأوراق.
هي لا تنتهي بسقوط هذه الورقة أو تلك، بقطع هذا الغصن أو ذاك بما أنها تواصل فعلها في كل غصن وفي كل ورقة.

بنفس الكيفية اعتبر الذات كما لو كانت هذه الورقة. هي الغلاف الجسدي الذي يفصله الموت عن "جذع" الجنس البشري كما يفصل الخريف ورقة الشجرة عن الغصن والجذع والجذور. لكنها أيضا العصارة. هذه العصارة هي الحياة، بما أن الذات تحتوي على كل العلم الهائل الذي راكمته الحياة طيلة ملايين السنين الهائلة. إنها نفس العصارة الموجودة في كل الذوات الأدمية وغير الأدمية.

كورقة الخريف، تفقد الذات بالموت جسدها، لكن الحياة التي شكلت عصارته لا تموت وإنما تواصل صنع طاقتها فيما لا يحصى ولا يعد من الذوات الأخرى.
مما يعني أن للذات جزء فاني... وأن لها جزء قديم قدم الحياة وأمامه فسحة من الزمان لا أحد يعرف مداها.

لقائل إن يقول، لكن الذات كائن فريد متميز يُضَيِّع الموتُ طرفته!
طيب، لكن ما الذي كانت الحياة ستجني لو حافظت على نفس الجسد ونفس المخزون من تجاربه؟ بل ما الذي كنت ستجني أنت من مثل هذا الخيار سوى قرف الخلود.

أليس التجديد والتغيير أولى شروط وضروريات حياة جديدة بأن تُعاش؟
انظر الآن كيف تحقق الرويا -دون التعسف على منطقي- كل ما تريده الذات: القيلولة الأبدية للجزء المرهق -أي الورقة التي تسقط عند قدوم الخريف- وقد جفت فيها العصارة... والتجدد المتواصل عبر كل الأوراق التي تثبت باستمرار.

ها قد بدأت تنتظم أفكارنا حول كيفية تلبية الحاجتين المتناقضتين

لنخصص في بيتنا الروحي جناحا خاصا اسمه الموت للذات المرهقة الموجوعة وعلى بابيه توضع لافتة تُطمئن النفوس القلقة الخائفة من تجدد المحنة والامتحان. "لا استدعاء إلى الخدمة من جديد... أي في شكك الماضي وفي القصة التي عشت".
في جناح موازي أين الخلود ليس ثبات المخلوق وإنما ثبات الخلق أي تتجدد الذات في ألف شكل وشكل لمغامرات لا تعرف لها بداية أو نهاية... كيف لا والأدمي في نفس الوقت الشكل - الحالة - اللحظة للشيء الذي لا يموت أبدا والمتجدد طول الزمان تتجدد الشجرة وهي تستبدل أوراقها ربيعا بعد ربيع.

**[يمكن هنا إضافة مقطع صغير لقصة
القصص عنوانه وقال لهم الصدى أدبنا
هذه المهمة لكن كم من عوالم أعجب
وأعرب تنتظر الخلق.]**

هنا أشعر بك تهزّ الكتفين ولسان الحال يقول يا رجل تدعي أن الرؤيا ستخلصني من خوف الموت وأنت تميتني ما لا يحصى ولا يعد من المرات كأنّ موتة واحدة لا تكفي.
نعم، لكن أتعي بكل ما تريح في رؤياي وأنت تتجدد بعد كل موتة جاهزا لمغامرة جديدة كما هو الأمر وأنت تستيقظ من النوم جاهزا ليوم حافل آخر.
أليس هذا بالضبط ما عبر عنه حدس الشاعر!
"أنا في الزمان كموجة في زاخر (إيليا أبو ماضي)
أنا فيه إن يزيد وإن لم يزيد
مهما تلاطم فهو ليس بمغرق
أو مخرجي منه ولا بمبدي"

أو كيف استجيب لدعاء المريض وانتهت الرحلة على خير

حُكم على الرحلة أن تبدأ بالغموض وأن تنتهي به. ندخل العالم كمن يبرز من خلف ضباب كثيف ونخرج منه كمن يتوغل في ضباب أكثر كثافة. لا أحد يتذكر كيف كانت آخر اللحظات قبل أن يلفظه الرحم، ولا أحاسيسه ومشاعره وهو يعبر النفق الرابط بين العوالم، أو ما عاشه الأشهر الأولى عند ارتطامه بهذا العالم. كذلك لا أحد أبقي لنا أبلغ وصفٍ عن لحظات غرغرة الموت وهو في وضعٍ آخرٍ همّة إملاء كلماته الأخيرة على كاتبة جالسة حذو فراشه وهو يحتضر. وأيضا لا أحد عاد من العالم الآخر ليصف كيف هو النفق المعاكس وما الذي يحطّ عليه المرتل بعد أن يلفظه هذا النفق.

لا يبقى عليّ إذن إلا استباق الأحداث والاستناد بالخيال لوصف نهاية الرحلة، لا يهم مدى قربها وابتعادها مما يسمونه الحقيقية. فدعامة النص قناعة ثابتة أن هذا عالم واقع خيالٍ وخياله واقع، وأن المتبدلون وحدهم من يضعون الحدود التي لا تخترق. لذلك التزاما إلى آخر نفس بخطها التحريري، فإن الرواية ستنتهي رحلة الأدمي في هذا العالم على أحسن حال. لا تُحدثوني عن قضاؤنا نحبه صعقا وحرقا وشنقا وغرقا وذبحا وجوعا وعطشا وإجهادا وانتحارا. لنقل إنها بعض مبالغات "الشيء" في نزعه التجريبية، وعلى كل حال هو كما أثبتت الرؤيا لم يجرب إلا على نفسه.

ما يهمني هو أن نجعل الأدمي، خاصة إذا كان صاحب النص، يغادر العالم دون مزيد من المشاكل له ولغيره، وأن ينصرف بالحد الأدنى من الامتتان لما عرف من روائع العالم وبأقل قدر من الاحتجاجات العبيثة.

إذن.

يتصاعد من مكبر الصوت همسٌ رقيق: الرجاء من مسافري قاعة الرحيل رقم خمسة التقدم حالاً إلى بوابة المغادرة. غريب كأنني أعرف هذا المكان... أهو الذي...؟! يتسمر البصر على جحافل المغادرين وهو يتوجهون إلى باب دوار ضخم وعلى الوجوه قلق لا يتجحون في إخفائه.

بعضهم يجرون حقائب مثقلة كأنهم يريدون تهربها إلى العالم الآخر. عينا، سيصادرها موظفون لا يقبلون رشوة لبقاء الحدود مغلقة بين العوالم وإلا ضاعت طرافة كل عالم.

من مقعدي ببهو انتظار المطار المترامي الأطراف أتابع الذين وصل طريقهم مثلي إلى آخر مفترقاته. كم أودّ أن أسألهم واحدا واحدا: هل أنت مؤمنٌ يرتعش من الخوف جراء حساباتك غير المضبوطة مع السلطات التي تنتظرك وراء الباب، أم ملحدٌ مطمئنٌ لعودته لأحضان العدم، أم من أنصار الرؤيا تنتظر بفارغ الصبر الراحة الأبدية والتجدد الأزلي؟

يعود الصوت الناعم إلى ترديد نفس الجملة الركيكة، هذه المرّة بتخصيص يبدو مقصودا وبنبرة تبخّرت منها محاولة الإغراء: الرجاء الآن من السيّد غريب التقدّم لبوابة رحيل القاعة رقم خمسة.

السيد من؟ لا علم لي بشخص يحمل هذا الاسم. أوصل قراءة الجريدة ورشف القهوة أفتعل اللامبالاة محاولا التركيز على آخر عملية تنظيم ملفات لم تصلها بعد حمى التيوبوب. يتجدّد النداء بحدّة تتمّ عن توتّر عصبي: المطلوب من المدعوّ غريب التقدّم إلى بوابة رحيل القاعة رقم خمسة، الآن وعلى وجه السرعة ودون المزيد من إضاعة وقتنا.

ثرى ما سبب عدم حضور المطلوب؟ ربّما لا يزال يثرثر في صالون حلاقة المطار، أو هو يتسوّق في المحلات التجارية المعفاة من الجمارك، أو أن المنبّه لم يبرّن في غرفة النزّل، أو أنه رنّ فهشمه بقبضة يد نافذة الصبر. ربما لم يكمل بحثه ولم ينته من تدبيج تقريره وبالتالي قرّر من تلقاء نفسه تمديد رحلته. برّبك أيّ تقرير جدّيّ يمكنك كتابته وهذا عالمّ تعبّره وأنت كمّن يزور مدينةً سياحية مترامية الأطراف بين طائرتين... أو كقاعة سينما تدخلها لتشاهد فيلما بدأ قبل وصولك بكثير ويطلب منا الخروج قبل نهايته حتى قبل أن تجد الوقت الكافي لاكتشاف أحسن مقعد ووضع للجلوس.

على فكرة عزيزي القارئ، عزيزتي القارئة، وقبل أن يصل بنا الطريق إلى لحظة الوداع الأخير، هلاّ أشبعت فضولي بالرد على سؤال لم أتجاسر يوما على إلقائه يوما على أحد: هكذا كانت رحلتي، فهل تشبه رحلتك؟ هذه قصتي، هل وجدت نفسك فيها وهل هي حقًا - كما أردت- في التفاصيل سيرة ذات وفي الثوابت سيرة كلّ ذات؟

يقطع عليّ تسلسل الأفكار صوت لم يعد ناعما ولا حتى أنثويا: يا غريب إن لم تتقدّم لبوابة رحيل القاعة رقم خمسة حالاً فسترى ماذا سنفعل بك.

تفتّ فؤادك الأيام فتًا وتنحت جسمك الساعات نحتا (الالبيري)

وتدعوك المنون دعاء صدق ألا يا صاح أنت من أريد أنتا

كل هذه الإنذارات بلا تأثير على صاحبكم، حتى والنداء يصبح صراخا هستيريا: آخر إنذار. متى كان الأول؟ وصول سنوات الخريف بأسرع مما كنت أتوقّع؟ ظهور ذلك الورم اللعين؟ صحيح أنني نجحت في علاج أغلب أمراضى بالتجاهل، لكن ذلك النوع البليد من الأمراض لم يتبخر لمجرد اعلامه أنني غير معنيّ بأعراضه المزعجة.

يصرخ الآن في المصدح ذكّرّ يبدو أنه أخذ الملفّ على عاتقه: تعال يا روح أمك، طلّعت روحنا، الله يطّلع روحك.

يضيف وكأنه لا يتوجّه لأحد بالخصوص: من يصدّق أن هذا البليد صدّع الرؤوس بالشكوى من العالم ولم يفوّت فرصة لشتمه وها هو الآن يماطل ويسوّف ويؤخّر لحظة الرحيل عنه. كم مرّة يجب أن أردّد لهم أنني بحاجة إلى وقت أطول للتأكد من صلابة الرؤيا، ربما لإعادة بنائها على دعامات مغايرة تماما.

نعم ما زال هناك أمامي الكثير لإنضاج تصوّراتي عن هذا المبهم الأصلي الذي أسميه "الشيء" ... عن مغامرته في عالم-كائن، في كائن-عالم اسمه الأدمي... عن وضعه فيه الشيء وتقيضه لكي توجد أحداث مادتها النقص ومحركها خلل يبحث دوما عن التوازن... عن القبح والشرّ وكل الأخطاء والخطايا التي تحمّل ومارس ثمنا لتجارب لا بدّ منها لتحرير تجربة الوجود من جمود الكمال.

فجأة يعود الصراخ من مكبّر الصوت: تعال يا روح أمك طلّعت روحنا الله يطلع روحك بأسرع ما يستطيع.

مهما صرخوا لن أتحرك من هذه الأريكة الوثيرة. ما هذه العجلة؟ أنا شخصيا مع العجلة في كل شيء لكن ليس الآن. نعم ما زال لي كثيرٌ من الأسئلة أود طرحها على الأدميين وقد حافظ جلهم على أسرار مكنونة لم أتمكن من فهمها ربما لأنني لم أحبهم بما فيه الكفاية. أه لو تسعفني الأقدار بما يكفي من الزمن فقط لأفحص اللوحات المبهرة المرسومة على أجنحة الفراش. قسم هذا الكائن هو دون شكّ أروع أقسام متحف الله وأنا بالكاد ألقبت عليه نظرة من بعيد.

ينفجر الموظف المجهول بضحكة فيها من المرح ما فيها من الشماتة مخاطبا كل من يسمع: أنه من قوم حاول نبيهم أنه لا أعلمهم أنه لا أكل إلا على جوع ولا أكل بعد الشبع، لكن صاحبنا أكل كثيرا ولم يشبع إلى الآن. هو الآن مثلهم كلهم متمسك بأنبياه وأظافره بخشب الطاولة. أغانر الوليمة جانعا؟

كم يخطئ هذا الموظف الدعيّ في حقي كما أخطأ في حقي عدد كبير من البشر وكما أخطأت في حقّ عدد أكبر.

"طلبت القوة من الله (شاعر مجهول على الانترنت)

فأعطاني الصعوبات لأقوى

طلبت العلم

فأعطاني مشاكل للحلّ

طلبت الرخاء

فأعطاني عضلات للعمل

طلبت قدرة الطيران

فأعطاني عقبات أتساقها

طلبت الحبّ فأعطاني كائنات بحاجة إلى حبي

طلبت امتيازات

فأعطاني مواهب

لم أحصل على أي شيء مما طلبت

لكنني تحصّلت على كل ما أحتاج".

نعم نلتُ من الحياة كلّ ما تقدر عليه من عطاء.

يا للوليمة التي نهلت منها والعالم رمل الفجر، عشب بلّله قطر الندى، شعر الحبيبة، الدفء بعد الركض في وجه الإعصار والمطر! ...يا للوليمة وهو روائح الحبق والنعناع والياسمين والورد، حدّث ولا تسئل عن عطر النساء!... يا للوليمة وهو طعم التين والتمر والزيتون، الخبز الساخن والماء الزلال!... يا للوليمة وهو خربير ماء السواقي، صفير الريح في صارية السفن، الصوت المهيب للرعء، الرقيق للناي، نداء عشق حسّون اعلى شجر التوت، ضحك النسوة والأطفال، غناء هامس لجدّة تغزل، أذان الفجر بصوت رخيم يأتي مناديا للاحتفاء بيوم جديد!

لم يبق لي إلا تسلّم آخر العطايا: الموت.

لكن قيل الاخلاذ للراحة الطويلة يجب إتمام وصيتي والتأكد من خلّوها من الأغلاط النحوية والمطبعة التي تلاحقني في كل النصوص.

وصيّة؟ يا مسكين هل نسيت كم من مواعظ ذهبت أدراج الرياح والنتيجة حالة العالم الذي تغادر! ثم ماذا تعلمت أنا نفسي لأدعي تعليم من لم تعلمه الرحلة أهمّ ما يجب ان يعلم؟

أن العالم مُغامرة لم تقرر بعد مسارها ومرّفاها لا مُعطى حدّدت له خصائص ومهام منذ الأزل... أنه لا قدرة ليين، لفلسفة، لعلم، على استنفاد ثرائه الفاحش وحراره المتفجر... أنه يجب استكشاف ما تيسر منه، القلب مفتوح على مصراعيه وكذلك العقل... أن أكبر خطر يتهددنا فيه تبلّد مز من يُطفئ فيه جذوة الاعجاب والعجب... أن الرحلة ليست قافلة تجارة تنتهي بكشف الحسابات: قائمة الأرباح على عمود، على العمود المقابل قائمة الخسائر... أن الفشل ليس ألا تنجح في تحقيق أحلامك وإنما أن تتخلى عنها... أنه لا النجاح هدف الرحلة ولا أي فشل مهما كان هو فشلها... أن النجاح والفشل حالتان -أداتان- فرصتان لاستكشاف جزء قارّ وضروري من طيف تجربة الوجود لا أكثر من هذا ولا أقلّ..

صراخ متفانم الحدة وبداية تجمّع حولي. من هذا الغبي المنتصب أمامي؟ الغبي المعني بالشتيمة، كائن من هيكل عظمي يحمل منجلا يرتب به على كنتي: يا الله، أمامي يا فخامة الحاج الدكتور الأستاذ الرئيس ولا داعي لإجبارنا على استعمال القوة.

تقول صارخا أنت الآخر: ألم تقل إن الموت ككائن بشكل هيكل عظمي أو ملاك خبيث النوايا، لينة مشوقفة من بناية متداعية سيئة الهندسة... وتعود إلى الحديث عنه كالآخرين.

كيف أحملك على محمل الجدّ خاصة وقد كتبت منذ دقيقة أن الموت آخر هدايا الحياة؟

ما لكم كلّم ضدي هذا اليوم؟ ثم متى كنت متوافقا دوما مع أراني حتى أطالب الآن بشيء كهذا؟ هنا أسلط عليك نظرة أنكلّف فيها كل الممكن من البرودة علّها تثير فيك قشعريرة الرعب: اسمع يا هذا، إن واصلت إزعاجي برصد كل تناقضاتي سأهمس في أذن عزرائيل أنك تشتمه في غيابه، أنك تردّد في محافلك أنه إن تجاسر على المثل بين يديك فستطرده شرّ طرده تركله في مؤخرته العظمية. آنذاك تدبّر أمرك معه إن ترك لك الوقت.

الثابت أن عزرائيلهم هذا مصرّ على ألا يهتم إلا بي أنا وكان له معي ثأر شخصي قديم.

روايتان لما حدث بني وبينه في تلك اللحظة المفصلية.

[الأولى التي يجب أن يكذبها تلامذتي باستنكار مبالغ فيه] أنني نهضتُ من مقعدي خائفا مرتبكا، أنني أدركتُ البصر باحثاً عن مَهْرَب، أن ملاك الموت انتبه لمخططاتي البائسة، أنه رمى بيده على عنقي آخذاً بخناقِي، أنني أفلتُ منه بحركة بارعة حاشراً جسمي تحت الأريكة بسرعة أدهشته، أنه بدأ في إطلاق الشتائم البذيئة صارخاً أنه مَلَّ هذا العمل وسيطلب من يافيه تغيير وظيفته، أنه صرخ وهو يجذبني من تحت الأريكة صارخاً أه يا ظهري ، أنه استعان بكل مضيفات خطوط الآخرة الجوية، أنني كنتُ أصيح طول الوقت: النظارات، النظارات، أُمي امرأة فقيرة ستغلق باب غرفتها لثُخفي بكاء الغيظ والقهر، أنني وقد جروني جزاً من تحت الأريكة قفزتُ على ظهر عزرائيل حيث لا يستطيع مسك خناقِي وأنا الممسك بخناقه، أن العين اكتشف الحلّ فركض بي نحو الباب الدوّار وأني بقيتُ أحملق في كل اتجاه بكيفية تثير الازدراء، إلى أن رماني وراء الباب وهو ينفض عن ظهره بقايا غباري مستعيذاً بالله من هذا الرهط من البشر.

[الثانية التي يجب أن ينشرها تلامذتي، ليس شغلهم مبالغاتها الكثيرة] أنني نهضت من مقعدي متنفساً الصعداء وقد استطعتُ إكمال كتابة الوصية ، مُصافحاً عزرائيل بلامبالاة غير مفتعلة، أنني دعوتهُ إلى المشي أمامي فقال بل تفضّل فأنت المدعوُ الشرفي، فتفضلتُ قاصداً الباب الدوار بمشيتي العسكرية، أنّ المسكين ركض ورائي غير مُصدّق أنني لم أعضّه وهو الذي صدّق -مثل الكثيرين- كلَّ الإشاعات عني، أنني غافلتُه لأصق على باب الرحيل خلاصة الرؤيا قبل أن أحشر جسمي في الباب الدوار مديراً ظهري لما مضى بلا حسرة فاتحاً ذراعِي لما سيأتي بلا وجل.

يتوقّف الطبيب عن إنعاش عبثي محدّفاً بانتباه مفاجئ في العجوز. هل داهمته أبياتٌ لشاعرٍ فيلسوف أعمى، عن الحياة كرحلة تنتهي عند جسرٍ أن أوان عبوره؟ ينصرف لا يُخفي تأثره، تتبّعه ممرضات يُخفين حزنا غير مُبرّر.

دمعة حارقة تسيل على خدٍ سيسكنه الصقيع إلى الأبد، تدرّفها أصعبُ بنت على أصعب أب. تندافع إلى سطح وعي متسارع الانحسار أقدم أحاسيس وأثمن مشاعر الرحلة...

أصوات لخلخال وأساور أم تقترب... لئمة المشي حافيا على رمل الصحراء عندما يأتي المساء... رائحة الأرض بعد المطر... نفحات الياسمين تضوعت بها أرجاء البيت... لمن يتوجّه الطفل بحبّ جارف تصاعد من أعماقه وبأيّ كلام يشبّب بالشمس، بالأشجار وبالآفاق الملتهب... الحوت! الحوت! يا إلهي، قطيع كامل من الحيتان! ... هذا تاج طفلة أعلنها ملكة هذه الربوع وتفيجه ولية عهدا... كم وقف عند هذا الجبل من زُهبان وشعراء ساعات وأياما بانتظار انقشاع الضباب، لمجرّد إلقاء نظرة خاطفة على قمّته قبل أن تلتحف مجددا بالغرابة والسرّ، ثم انصرفوا لا ينبسون ببنت شفة... نعم نعم، في أي عالم آخر سأرى مثل هذه الأزهار! ترى ماذا أضافت قصتي إلى قصة العالم؟ أه ما الذي تضيف القطرة الى المحيط... ما الذي تضيف حبة الرمل إلى الصحراء...؟ لا شيء تقريبا... لكن هل للمحيط

كيان خارج القطرات التي تكوّنه... هل ثمة صحراء دون حبات الرمل التي فيها... وهل للعالم قصة غير قصتي وكل ما عاش من القصص الأخرى؟

يُغمض الرجل عينين لن يعود لفتحهما وكل ذاته تسترجع الأنغام الساحرة التي ارتضاها آخر تذكّارٍ قد يسمح له بحملها إلى ما وراء الباب المهيب. تتداخل الأصوات وتفترق، تعلو وتنخفض، تتسارع وتتباطأ فتذوب الروح في هدير أصوات الرجال وفي حلوة أصوات النساء. تصل موسيقى آدمي اسمه باخ ذروة الجمال والجلال والأدمية تتصرّع إلى الربّ بلهجة استعطاف الطفل لأبيه: Bleib bei uns. ها هو الصدى نفسه هو الذي ينفخ بقوة في منديله هامسا: وهل غادرتكم لحظة لتطالبوني بأن أبقى معكم! لم يبق على المرتحل غير تحيّن لحظة القفز فوق آخر نوطه عائدا لبيته وراء ستار الموت والمطية أجمل الأنغام.

يهمس شبحُ الجدّ المهيب: لا تخف عبرت قبلك، الجسم مهيباً للأمر، يفرز المادة التي يفرزها عند نشوة الجماع ليسهل لك العبور.

الغريبُ العائد إلى وطنه الآن أمام باب مهيب يُفتح ببطء وجلال. على ماذا؟ على الفضاء الذي تتداخل فيه العوالم لا فرق بين التي تبلورت في الواقع والتي ما زالت أجنة في رحم الخيال. تتدافع الكائنات-المشاريع في كل الاتجاهات.

آه، أنت من كنت "ما"! ماذا؟ أتعبتك كثيرا، لست الوحيد، لست الوحيدة، لا أدري هل أخطبك بالتأنيث أم بالتذكير وهل للأمر معنى "هنا"، على كل حال براقو، أحييت أداءك... من رأي "أينفاس"؟ آه أخذ ملقه للمهمة الجديدة غاضبا وشمتم كل من سلم عليه بحرارة واختفى! يستأهل أن يصبح حيوانا برأسين يعيش في جوف نجم من مجرة العُرب... آه، هذا أنت من لا عيني دور "ح"! لماذا لم تردّ أو لم تردّي على سؤالي وأنا أضمك بين ذراعي؟ لأنني كنت أعلم الرد... ولو، والآن إلى أين؟ صعب عليّ فراقك رأيت في مرآة ذاتك أجمل صور ذاتي، تقابلنا في حلم، عشنا في حلم، نفترق في حلم... لم لا يكون لنا لقاء جديد في حلم لم يحلمه قبلا أحد؟ ... آه، لا فائدة من تكرار نفس القصة... خلاص، اذهبي أو اذهبي في حال سبيلك... رجاء لا تعد إلى التدخين تردد إنها سيجارتي الأخيرة... آه، هذا أنت، يا من كنت لي ابن الخال! ألم تخجل من تركي وحدي لا أعرف مع من أتسلق الأشجار وأسرق لوز الجيران، غفرت لك أنك كنت أول من بيّ في هاجس الموت، حظ سعيد في رحلاتك المقبلة وحذار من حصباء العوالم المجهولة... أنت "هنا"! كنّك أظنك ما تزال تناضل، أما زلت على عداوتك لي؟ آه كنت تمثّل! طبعاً وأنا أيضاً، كلنا كنا نمثّل على أنفسنا ومع بعضنا البعض، بصراحة كنت لا عبا ما هرا وخبيثا، أجبرتني على أن أستل من أعماقي كلّ طاقاتي لمواجهة ضرباتك الموجهة، وأنا أيضا أوجعتك كثيرا! شكرا على الثناء... وأنت، من أنت، لا أتذكرك؟ آه، المسكين الذي عرض عليّ الزميل أكل كبدك ونحن نشرحك؟ كنت تسمعنا! ... حتى الخرفان هنا! كيف؟ تركنك تنتظر الذبح تحت أشلاء عائلتك وخبيث ظنك لما فررت أغالب الغثيان! يا خروف سابقا، أولا لم يكن معي ما

كافٍ لسرائك أنت وكل العائلة، ثم ماذا كنت تريدني أن أفعل بكمشة خرفان؟ أن أذهب بكم
للإجتماع الهام! ...على فكرة، أن تجد متعة في الوثوب نسرا من أعالي السحاب على
طريدتك، أن تنقضّ عليها نمرا من خلف الأعشاب، وحتى أن تظفر بالحياة ركضا وأنت
الغزال الذي يتنفس في عنقه الأسد، أمرٌ مفهوم، لكن ما الذي دهاك لثجرب شيئا بغباء
الوجود خروفا؟ ... آه تقول ماذا دهاني لأجرب الوجود آدميا؟ عفوا لم أقل شيئا.

اكتملت الرحلة والذات بالوجود نالت كل مراميها.
يتوقف عازف البيانو عن النقر. تتفكك النصوص إلى الحروف الأولى. يبهتُ تدريجيا بريق
النجوم. يتعمق صمت الصحراء. تتلاشى ربع ابتسامة خجولة من الأفق.
تنحسر الأوجاع والمخاوف بهدوء كالأمواج بعد مرور العاصفة.
انتهى العالم من جمع أشيائه وكلّ أدوات الإغراء.

تبدأ اليد الخفية في خلط الأوراق من جديد ليتخذ الهباء أشكالا لم توجد من قبل أبدا.
الذات الآن كقطرة عبّرت السماء سحابا عرّفت وقع السقوط على الأرض، ارتحلت داخل
رَحَم السيل وها هي الآن تتسارع إلى المحيط، لتضيع وتتجدّد في أوسع ذات، في الذات
الأوسع... في الذات القدّوس.

"نفد الزيت (كبير)

صمت الطبل

استرخى الراقص

انطفأت النار

لن يتصاعد منها دخان

لم يعد هناك اثنان.

دخلت الروح في الواحد".

افتحي باب شساعتك يا عتمة، إنني جاهز ويا قوى الدمار ترّققي بأناتي التي أترك، ويا
قوى التوازن والتعافي اعطيها شجاعة المواصلة إلى أبعد نقطة على الطريق.
يدخل البحار في إغفاء تدوم اللحظة والأبدية، عاد ملتحما بالسماء والبحر. ثم ينتبه لعودة
المدّ انتهى جزر الزمان.

ما أن جذبت كفتي على عينيّ (هايكو مهدي إلى ذكرى ايبسا)

حتى تصاعد صراخي من ألف حنجرة

وأنا أنت كل مولود جديد

نقطة العودة إلى السطر

يتعالى صوتُ تقاحة من وراء باب غرفة النوم تصرخ لأبيها ولا يبتها بالكفّ عن الهرج فلا يعيرها أي منهما أدنى اهتمام.
يا إلهي أبهذه السرعة مرت السنين! هذه الطفلة الجميلة ذات الثماني سنوات هي تلك الرضيعة التي طلبت منها أن تنقر بقبضتيها على مفاتيح الحاسوب لعلّ معجزة تحدث فترسم على الشاشة الأجوبة لكل الأسئلة اللعينة.
أهمس في أذن الطفلة:

- حبيبتي حرّة، توفقي عن الصراخ، قد توظفي هناء رغم كل تعبها من كثرة الجري.
- جدّي! هناء شريرة تأخذ دائما أقلامي الملونة و ...
- نعم، نعم، وفي السيارة تنظر من نافذتك بدل النظر من نافذتها.
- جدّي! أريد أن تروي لي هذه الليلة أططططططططططط وأجججججججججج قصة.
- وهل جنت لغير هذا؟ عندي لك قصة أروع من كل ما سمعت من قصص أمك وجدتك....
إنها قصة القصص التي أعددتها لك خصيصا ولا يوجد في العالم أحسن منها.
بيني وبينك، أي رواية أعطت للأدميين جذورا نبيلة كالتي تعطيها لهم الرؤيا؟
ثم ألا تبشرهم أنهم لم يوجدوا عقابا على خطيئة أو للجري وراء جنة مزعومة في الأرض أو في السماء وإنما لخلق عالم كامل بيلورونه من احساسهم، من مشاعرهم، من افكارهم، من خيالهم ومن سواعدهم وهم دوما أحرار ومسؤولون؟ ألا تجعلهم ينجحون كلهم في هذه المهمة وكل تجاربهم بكل أنواعها دعامات العالم الطريف الذي يخلقونه جماعات وفردى؟
من المفروض إذن ان تلاقني روايتي لقصة القصص نجاحا باهرا لو كان الاعتراف بالجميل من خصائص البشر.

ماذا؟ فيها ثغرات وتناقضات ونواقص؟ عن أي نواقص تتحدثون؟
هل ثمة قصة للعالم -حتى التي توصف بالعلمية- لم تبسّط المعقّد، لم تجزّئ الموحد، لم تجمّد المتحرّك، لم تحاول استنفاد ما لا يستنفده فكر؟ أيّ غرابية في الأمر ومهمّة كل روبا تحمّل الواقع لا وصفه.

تجذبني حرة من ذراعي كما كانت تفعل أمها عندما أسهو عنها.
- جدّي، جدّي، جدّي! هيا، عجل.
- طيّب، خذي في حضنك "إيتي" لتسمع هي أيضا أجمل قصة. شيء بداخلي يقول لي إن هذه الدمية التي ورثتها من أمك متلهفة أكثر منك لسماعها. ربما تتجسّس علينا منذ كانت بحضنها، على كل حال ليس لدينا ما نخفيه. إذن...

معلّقة باب الرحيل

أنت كل ذات، كل ذات أنت،
الذات شكل-حالة-لحظة من العالم،
العالم شكل-حالة-لحظة من "الشيء"،
مَثَل "الشيء" كمَثَل دَوْحة وِلادة يَبْلَى الزمانُ ولا تَبْلَى،
ثمارها كل الموجود، كل ما كان وما سيكون،
نَمْلٌ، نَحْلٌ، قَمَلٌ، فِطْرٌ، شَجْرٌ، بَشَرٌ،
فيض من كائنات-عوالم، تتبارى غرابة وإعجازا،
تحنى أمامها الهامات تهيبا وخشوعا،
والشيء "كالفنان في أَوْج الخلق، كالطفل في غَمرة اللّعب،
يستكشف عبرها الطيف اللامتناهي لإمكانيات الوجود.

هكذا أبدع من وحي خياله عالمنا هذا،
عالم لا مجال فيه للنظام دون الخواء، للحياة دون الموت،
لا حراك فيه إلا وهو صراع-تعاوض الأضداد،
لا سكون إلا استعدادا للكزّ والفزّ،
الكلّ فيه أكلٌ ومأكول، الكلّ فريسةٌ وصياد،
عالم مرعب مبهّر لا حدّ لقسوته، لا نفاذ لعطاياه،
البناء والهدم من الأزل، الدمار والإعمار إلى الأزل،
على أسوأ وضع ودواليبه تصرخ بالأمّ النقص والخلل.
على أحسن حال ودواليبه الصامته تعدّل كل عيب بنكاء عجيب.
عالم على الدوام الجحيمّ وسط الجنّة، الجنّة وسط الجحيم.

في هكذا عالم لا خوف فيه من التكرار والملل،
والأدمية الفاعل، المفعولُ بها والفعل،
يتبلور "الشيء" فيها تبلور الفنان في أروع أعماله،
مستكشفا جيلا بعد جيل، ذاتا بعد ذات، قصة بعد قصة،
من الأحاسيس، من المشاعر، من الأفكار ومن الأعمال،
ما لم يَعْش في أي من عوالمه العجيبة الأخرى،
سيان عنده المتعة والألم، النجاح والفشل، الهزيمة والنصر،
كلها تجاربه على ذاته تمضي كالكابوس تأتي كالخُلم،
وفيك كما لو كنت محاولته الأولى، كما لو كنت رهانه الأخير،
يواصل سير أغوار خُلو ومُرّ الوجود إنسانا.

الإنسان شيء كَلّا شيء لأنه الجزء في الكلّ،
الإنسان شيء ليس كمثله شيء لأنه الكلّ في الجزء،
لا سبب للوجود إلا الوجود، لا غاية للرحلة إلا الرحلة،
عبث البحث لهما عن معنى، عن منفعة أو عن هدف،
الموت تفكيك القديم لتكوين الجديد بنفس اللبنيات،
عند هذا المنعطف من طريق لا تعرف له بداية أو نهاية،
انصرف بلا ندم على ما مضى، بلا خوف أو طمع فيما سيأتي،
أتممت مهمتك على أحسن وجه توجت هامتك بإكليل الغار أو الشوك،
كيف ولا وقد وجدت عالما بأسره، ارتحلت بين أهواله وروائعه،
وأنت بعض من خيال "الشيء" يمشي على قدمين.*



أستاذ في الطب الاجتماعي بكلية طب سوسة (1982-2000) وباريس (2001-2004)
ترأس منظمات تونسية وعربية وافريقية للدفاع عن حقوق الإنسان (1987-2011)
رئيس الجمهورية التونسية الأسبق (2011-2014)
كاتب له العديد من المؤلفات في الطب والسياسة والفكر باللغتين العربية والفرنسية
صنّفته مجلة فورين بوليسي الأمريكية من بين المائة المفكرين الكبار في العالم لسنة 2012
وصنّفته مجلة تايم من بين المائة شخصية الأكثر تأثيرا في العالم لسنة 2013.
حاصل على الدكتوراه الفخرية من جامعة تسكوبا اليابانية سنة 2013

الكتاب

"تأثني تدريجيا رغبة التدوين للرحلة بمفهوم المعزّي لا بمفهوم ابن بطوطة. ألم أجعل شعاري في الحياة: "على قدر أهل العزم تأتي العزائم" فليكن التدوين إذن بالمفهوم الأوسع والأعمق؟ أهنّ الكتفين وقد أصيب الفكر بالإحباط لمجرد تخيل ما يتطلبه مشروع كهذا. من أين للسرد أن يجدد في رواية رحلة الانسان في هذا العالم وقد رويت قبلي بكم من لغة وأسلوب؟ من أين للوصف أن يصف عالما لا ه وصف؟ من أين للتعليق على وجودنا فيه أن يقول كلاما ذا قيمة في عالم سقّه كل ما قيل فيه من أقوال؟"